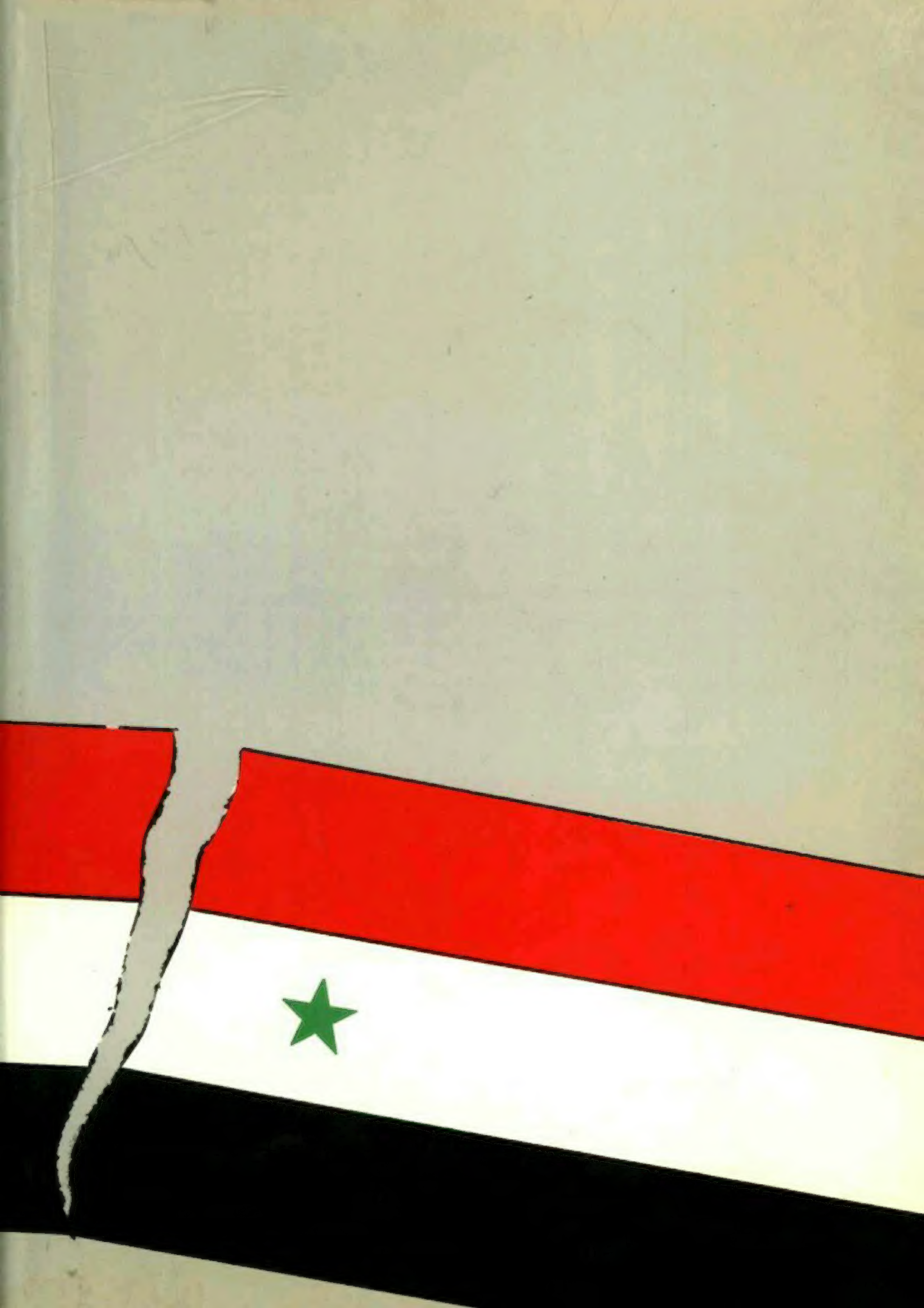
العقيد الركن أحمد الزيدي

البناء المعنوي للقوات المسلحة العراقية

دار الروضة



البناء المعنوي للقوات المسلحة العراقية

تأليف

العقيد الركن أحمد الزيدي

دار الروضة
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب : البناء المعنوي للقوات المسلحة العراقية.

اسم الكاتب : العقيد الركن أحمد الزيدي.

الناشر : دار الروضة للطباعة والنشر والتوزيع.

عدد النسخ : ٣٠٠٠ نسخة.

صدر في : بيروت/ الطبعة الأولى ١٩٩٠م ـ ١٤١١ هـ.

المصيطبة ـ شارع المتني ـ بناية فرن ديالا ـ ص. ب ١١/٧٦٨١ بيروت ـ لبنان ـ هاتف: ٣٠٥٤٥٢.

تقـديم

ـ لستُ أوّل من تحدث عن الروح المعنوية ، وسوف لن أكون آخر من يتحدث ويكتب عنها . فموضوع الروح المعنوية وأثرها أمرٌ يكاد يلازم كل النشاط الإنساني في مختلف أوجهه ، ففعالية الإنسان وحرصه واندفاعه وحيويته في أداء واجبه وإنجاز أعماله اليومية كل ذلك في الحقيقة مظهر من مظاهر روحه المعنوية وتعبير حي عنها . فالشخص الذي يستلهم فكرة معينة أو يقع تحت تأثير ظرف ما من يوحي له بقدسية وأهمية استمراره على الإنجاز السليم الواعي ، تأتي ثمار أعماله وفيرة ناضجة شهية ، فلقد تزود بقوة خفية هي في الواقع القوة التي كانت تقف خلفه وتدفعه إلى كل ما أنجزه وتشكل بالنسبة له مقياساً لنبل وشرف العمل الذي يقوم أو يفكر بإنجازه ومتابعته في المستقبل . لذا فإن أمثال هؤلاء من الناس يتدفق حيوية ونشاطاً ممزوجاً بنوع من السعادة والحب لعمله والشعور باللذة عند قيامه بإنجازه لأعماله الخاصة أو التي توكل له والتي لها علاقة بالمحرك الأساسي لمجمل نشاطه وعمله .

ـ الروح المعنوية لأي أمة من الأمم هي في الحقيقة حاصل جمع للروح المعنوية للأفراد ، أو بصورة دقيقة للمجموعة الكبيرة أو القسم الأكبر من الأفراد الذين يبدو الانسجام والتناسق بين تطلعاتهم وطموحاتهم العامة والجزء الأكبر من نشاطاتهم الخاصة والعامة واضحاً . وبطبيعة الحال لا يمكن القول بأن كل أفراد الأمة يشكلون وحدة منسجمة متناسقة تماماً ، لكن الروح المعنوية للأمة تشكل في واقع الأمر تناسقَ وانسجامَ هذا الجزء الأكبر منها ، سواءَ كانت هذه الطموحات والاتجاهات الاجتماعية والفلسفية إيجابية أو في حالة السلب . إلّا أن الروح المعنوية للأمة ليست وليدة حالة خاصة أو ظرف معيّن أو مرحلة من مراحل حياتها فقط ، وإنما هي تتشكل وتتجذر في ضميرها ووجدانها إثر تراكمات تاريخية متتابعة ، سواء أكانت هذه التراكمات جاذبة أو

دافعة ، إيجابية أو سلبية ، فالروح المعنوية وخلاصتها في الحرب ـ الشجاعة والاندفاع والاستبسال ، تتأثر في جوانب كثيرة ومهمة بتراث الأمة وماضيها ونبل أهدافها وطرق عيشها والضوابط التي تعوّد فيها الأفراد أن تحكم نشاطهم الاجتماعي، ولحاضرها أثر كبير في ذلك ، فهو الذي يشكل جزءًا مهماً منها وهو الذي يعكس صورتها في مرآة الأحداث الهامة والخطيرة التي تتعرض لها أية أُمة من الأُمم ، وبالقدر الذي تمتلك فيه هذه الأمة ما يكفي من الروح المعنوية فإنها وبالقدر نفسه سوف تمتلك المقدرة على اجتياز المحن والصعاب والملمات والأخطار المحدقة بها ، ومن العوامل المهمة والرئيسية في إدامة الروح المعنوية والمحافظة عليها ، مدىٰ تماسك الشعب وتطابق أهداف وطموحات القسم الأعظم منه مع الأهداف العامة للدولة والاستراتيجية التي تهدف لها تلك الدولة التي تحكم وتدير دفة الوسائل والوسائط والمنابع المادية الأخرى المؤدية إلى تحقيق الأهداف والطموحات التي يجدها المواطن العادي مقاربة أو مطابقة لطموحاته ، وعندما يكون هذان الاتجاهان متعاكسين أو متباعدين في مسيرتهما ، فإننا سوف نلمس في اللحظة الأولىٰ التي ينشب فيها الخطر وتهدد فيها مصالح الدولة والأمة بالانهيار سنلمس بأن الروح المعنوية هي المسبب الأكثر أهمية وفاعلية لكل انتكاسة أو فشل ، ولا ريب فإن أي خسارة أو نكسة تبدأ بالروح المعنوية لأحد الطرفين، ثم تنتهي بانهيار متفاوت لها حسب شدة الظروف الضاغطة، وشدة تأثير الوسائل التي يوجهها العدو إلى معنوياتها . وعندما تتعرض الروح المعنوية للأمة وقواها الروحية إلى ضربة قاتلة ، فإنها ستنتهي إلى التسليم التام للخصم وحلفائه حتى وإن لم تكتب نتائج هذا الانهيار والاستسلام في وثائق موقعة ومختومة من قبل طرفي النزاع ، أي حتى في حالة عدم الإقرار بالهزيمة ، فإن الواقع سوف يحكم كل تصرفاته واتجاهاته العملية اللاحقة ويظهر فيها وكأنه مهزوم بالفعل إلى أن يحدث ما يغير ذلك .

ـ وللروح والقوى المعنوية أثر بارز في ساحة الحرب والعمليات : « وإذا أردنا القضاء على الخصم ، علينا أن نجعل جهدنا يتناسب وقوة مقاومته ، فقوة مقاومته هذه هي محصلة عاملين لا ينفصلان عن بعضهما ، وهما : وفرة الامكانات التي يمتلكها ، وقوة إرادته »[1] ، وقوة الإرادة هي التي تمثل روحه وقواه المعنوية وهي تمثل نصف ما يملكه العدو من قوة مقاومته التي يتألف نصفها الآخر من الرجال والأموال والأسلحة ، وهو ما أُطلق كلاوز فتز بالامكانات ، وعلى ذلك فإننا نستطيع أن نحسم الحرب ضد العدو

---

(١) الوجيز في الحرب ؛ الجنرال كلاوزفتز .

الـذي يعاني من صعف ووهن في قـواه وروحه المعنـوية بمـا يقرب من نصف الامكـانات اللازمة لتحقيق هذا النصر عليه، فيما إذا كـانت قواه وروحـه المعنويـة ليست على الصورة التي ذكرناها ، إلاّ أن ذلك يعتبر صحيحاً من النـاحية النـظرية أكثـر من الناحيـة العملية ، فعندما نبتعد عن التجريد ونتجه إلى الواقع فيجب أن نحسب إمكـانات العـدو التي يملكها، ثم نعد لها من الإمكانات ما يمكن وما يلزم لتحقيق النصر وتدمير إمكـاناتـه بغض النظر عن روحـه المعنـوية ، لأن الـروح المعنويـة للعدو لا يمكن أن تقـاس وتحسب بدقـة ، لذا فـإنها لا يمكن أن تدخل في حسابات إعداد الخطط القادمة للعمليات ، كما وأن الـروح المعنويـة تتفـاوت وتتدرج صـاعدة وهـابـطة في مخـطط بيـاني يـرتبط بسيـر العمليـات ، فعـدد من العمليات الصغيرة والمتتابعة للعدو، والتي قد يحقق فيها نجاحـات محدودة ، سـوف يؤدي إلى رفع معنوياته وزيادة في قواه المعنوية لم يكن محسوباً لـدينا عنـد بدء العمليـات ، أو في أية مرحلة لاحقة من مراحل تطورها ، لذا فإن هدفنـا الرئيسي من العمليـات يجب أن يستهدف وباستمرار إرادة المقاومة للعدو وتدميرهـا وشلها،ويجب أن نصـرَّ على إدامة هـذا المشروع حتى يتم استسلام العدو بالصـورة التي تؤمن فيها أهـدافنا ومصـالحنا المشـروعة التي أعلناها سواء قبل إعلان الحرب وشروع العمليات في حـالة كـوننا البـادئين فيها ، أو خلالها في حالة كون الخصم هو الذي بدأ بإعلانها .

والروح المعنوية تقاس واقعاً في القوات المسلحة وعند بـدء الاشتباك وتـواصله بين قـوات المتخاصمين ، تقـاس مثلاً بعـدد الأفواه النـارية ومفـارز الأسلحـة التي تستمـر في الرمي في حالة الدفاع عند تعرضها لنيـران هجوم العـدو الساتـرة ، والتي غالبـاً ما تكـون شديدة نظراً للتطور الهائل الذي حصل في تقنية الأسلحة وقـابليتها التـدميريـة الواسعـة ؛ وفي الهجوم فإن الروح المعنوية تقاس في نسبة الاقدام والاستمـرار على التقدم للوصـول إلى الهدف واحتلاله ، فليس كل المدافعين يقاتلون منذ اللحظة التي يبدأ فيها الاشتباك ، وليس كـل المهاجمين يستمـرون في التقدم نحـو هدفهم عنـد بدء إشـارة الهجـوم ، وقـد تعوض الأسلحة المتطورة والنيران المكثفة عن جزء من القوىٰ المعنويـة لدىٰ المقـاتلين ، ولكنها لا تسد النقص كليًّا أو حتى جزئياً في حالات معينـة وظروف خـاصة ، لأن للجسم البشري طاقة وقوة من التحمل عندما يتعداهما يفقد المقاومة ، وتكون روحه قد سبقته إلى الوهن تحت وطأة التأثير المميت ، لأن الحـرب في واقعها هي امتحـان العنف ، فبالقـدر الـذي يمتلك فيه الإنسـان الطاقـة على تحمل تـأثيرات العنف والعنف المتبـادل ، بالقـدر الذي يكون فيه قادراً على المساهمة الأكثر فعالية في صنـاعة النصـر، وحتى في الحالات التي يكون فيها أحد الخصمين يمتلك من القوى المادية أضعـاف ما لـدىٰ خصمه ، فـإنه بدون أن تستند هذه القوىٰ المعنوية إلى قـاعدة مـادية مـلائمة ، فـإن حصولـه على النصر

ليس مؤكداً تبعاً للمحاكمة الذهنية التي أشرنا إليها أعلاه ، ولأن القوىٰ المعنوية التي لا تستند علىٰ قاعدة مادية ملائمة ومناسبة لتحقيق هدف الحرب قد تحقق انتصارات جزئية ، وبما أن الحرب غالباً لا تقتصر على اشتباك أو معركة واحدة ، بل انها تشتمل أيضاً على سلسلة من الاشتباكات ، مما قد يتيح لدىٰ الخصم الذي يصاب ببعض الفشل والهزائم في عدد من المعارك ، ان يلائم إمكاناته وظروف المعركة أو المعارك اللاحقة بسلسلة من الإجراءات التي تتيح له التوازن في مرحلة من مراحل الحرب ، ثم التفكير بل العمل على قلب هذا التوازن لمصلحته بصورة تامة ، ومع ذلك فإن هذه التقلبات والضغوط والعنف الذي يوجه ضد فكر الإنسان وروحه، ثم ينتهي إلى جسمه ويتسرب إلى قواه البدنية فيفتّتها ، إن هذه الضغوط والعنف يستهدف أولاً قلب الإنسان وصفاء مشاعره ورباطة جأشه ، « القلب الإنساني هو نقطة انطلاق كل شيء في الحرب »[1] ، هذا القلب الذي يجب أن يتم الاهتمام به وبذل المزيد من العناية من أجل أن يكون قادراً على امتصاص التأثيرات الفسيولوجية التي يولدها عليه العنف الناشىء من الحرب التي تتفجر فيه في كل لحظة من لحظاتها، بل حتىٰ في لحظات الانتظار التي تسبق المعارك ، ومما يقصده المارشال دوساكس من قوله المشهور أعلاه هو أن القلب الإنساني الذي يرمز إلى الروح المعنوية هو نقطة الانطلاق الحقيقية التي يبنىٰ عليها كل شيء في الحرب . وللروح المعنوية مقومات عديدة ومهمة وهي :

أ ــ القيادة . . الثقة المتبادلة بالقيادة وقدرتها على إرادة الحرب بصورة جيدة واستخدامها السليم للوسائل والامكانات المتيسرة .

ب ــ نوع الحكم . . ديكتاتوري ـ ديموقراطي الخ . .

جـ ــ القيم الاجتماعية السائدة .

د ــ الثقة المتبادلة بين الشعب والدولة .

هـ ــ سعة ووفرة الامكانات والوسائل والأسلحة المتيسرة والتي يمكن وضعها في أيدي الرجال على مختلف مستوياتهم .

و ــ التطور الحضاري للأمة وماضيها بما يحمل من انحطاط أو سمو حضاري .

ز ــ العقيدة التي تحملها الأمة ومدىٰ أصالتها وعمق جذورها في عقلها وروحها .

ح ــ مستوى تدريب وتهيئة القوات المسلحة للأمة واستعدادها لخوض الحرب .

لذا فإن القوى المعنوية تتشكل من خليط محسوس وآخر يتراكم في لا وعي الأمة

---

(١) الذكاء والقيم المعنوية في الحرب ، الجنرال جان بيريه .

ووجدانها ومن هذا الخليط ككل يشكل اللون الحقيقي لما تملكه الأمة من قوى معنوية ، فعندما يشكل هذا الخليط من عناصر وعوامل يمثل في معظمها إلى الايجابية ، فإن هذا اللون سيكون زاهياً مشرقاً يبعث على الثقة والاطمئنان ، أما عندما تشكل هذا الخليط عناصر وعوامل سلبية متنافرة متناقضة فاقدة لمقومات الأصالة ، فإن لون الخليط سيكون قاتماً يبعث في النفس الكآبة وفقدان الثقة وعدم المقدرة على إدامة العطاء والصمود والتحدي .

ـ وللروح المعنوية حصة كبيرة في دراسة تاريخ الحرب وتحليلاته ونتائجه ، وقد استنبطت دوماً كدرس مهم من الدروس التي خرج بها الكثير من كتّاب ومتتبعي تاريخ الحروب القديمة منها والحديثة ، وغالباً ما كانت تأتي على رأس قائمة الدروس المستنبطة من هذه الدراسات نظراً للتقدير العالي لأهميتها وعمق تأثيرها على نتائج المعركة أو خلال سيرها ، ويمكن إيراد أمثلة كثيرة لا حصر لها من تاريخ الحروب على تأثير القوى المعنوية على نتائج المعارك ، ومن هذه الأمثلة معركة بدر الكبرى في صدر الإسلام ومعارك شمال افريقيا في الحرب العالمية الثانية[1] ، حيث كان لانخفاض الروح المعنوية للقوات الإيطالية أثر بالغ في خسارة المحور للحرب في ساحة عمليات شمال افريقيا ، ولإرادة وصمود الشعب الفيتنامي في حربه القاسية الشرسة ضد الاحتلال الأميركي الذي استخدم أحدث وسائل التدمير والإبادة ، ولولا هذه الروح المعنوية والقوى الذاتية التي يتمتع بها الشعب الفيتنامي وإصراره وعناده على الصمود وصبره الطويل، لما استطاع الوقوف أمام أعتى قوى الظلم والتعدي في القرن العشرين وقهرها وإذلالها ، ولنا في صمود الشعب الإيراني المسلم قدوة ودرس آخر يسطع بالإعجاب والتقدير لهذه المقدرة على الصبر والتحمل والإصرار على مواصلة القتال ضد خصم يقف معه العالم كله بما يملكه من آلات حرب وأسلحة متطورة وفتاكة ، فبرغم القصف المستمر للمدن وتدميرها وضرب الناس العزل وتدمير مصادر الدولة الاقتصادية، ومحاولات فرض الحصار الاقتصادي والسياسي والعسكري الذي لم يفتر في أي لحظة من اللحظات . وفي الجانب الآخر ـ أي النظام العراقي ـ الذي يمتلك كل ما هو معروف من الأسلحة المتطورة ، من طائرات ودبابات ومدفعية ووسائل وتجهيزات عسكرية تمثل آخر ما توصلت

---

(١) حرب افريقيا الشمالية ١٩٤٠ ـ ١٩٤٣ ، العميد الركن شكري محمود نديم ، وردت المعنويات كدرس من الدروس المستحصلة خمس مرات بعد ٦ معارك كبيرة ومشهورة من معارك شمال افريقيا وهي : معركة سيدي براني ، تعرض رومل الأول ، هجوم رومل الثاني ، معركة الغزالة ، معركة علم الحلفا .

إليه تكنولوجيا صناعة الأسلحة ، بل إن النظام وعلى الرغم من صغر حجمه السياسي والاقتصادي ومحدودية تأثيره على مستوى الساحة الدولية ، قد سمح له من قبل القوى الكبرى باستخدام القنابل الكيمياوية المحرمة دولياً ، وهي سابقة لم تحدث مطلقاً من دول من الدرجة الثالثة كالعراق ، فمعلوم أن هذه الأسلحة تنتج فقط من قبل الدول الكبرى كالولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، وهذه الدول هي التي تجيز استخدام مثل هذه الأسلحة ولنفسها فقط ، على الرغم من كل هذه الوسائل والإمكانات المادية غير المحدودة فإن النظام ظل عاجزاً من أن يستمر في المحافظة على المنجزات التي حققها في بداية الحرب ، بل إن الأهداف الرئيسية المعلنة لهذه الحرب والتي أعلنها رئيس هذا النظام في الأسبوع الأول من بداية الحرب بدأت تتبخر ، حيث ظلّت القوات العراقية في موقف دفاعي بحت حتى قبل أن تنسحب إلى الحدود الدولية ، واعتباراً من معارك الحصار عن عبادان انتقلت المبادأة إلى أيدي القوات الإيرانية ، ولقد كان لانهيار الروح المعنوية للقوات العراقية الأثر الأول والكبير في هزائم النظام وخسائره المتكررة للمعارك ، بل إننا نستطيع أن نقول بأن الدرس المهم والرئيسي الذي يمكن أن نستنبطه من الحرب العراقية ـ الإيرانية ، هو أهميّة القوى المعنوية وتأثيرها على سير المعارك ونتائجها .

ـ سوف اهتم ببحثي هذا بالأسباب التي أدت وتؤدي إلى ضعف الروح المعنوية، بل وانهيارها في أحيان كثيرة لدى القوات المسلحة العراقية ، ولكي أُلقي الأضواء وأكشف المزيد من الحقائق فإني سوف أتتبع الأُسس والمقومات التي تستند عليها بنىٰ القوى المعنوية والروحية للشعب العراقي والقوات المسلحة العراقية ، وأكشف فيها عن عناصر الخلل الرئيسية والهامة ، وسوف أكون مضطراً إلى إلقاء نظرة فاحصة على المقومات التاريخية والعوامل والعناصر التي تركها التاريخ سلباً وإيجاباً على القوى المعنوية لدىٰ الشعب العراقي والتي تلقي بظلالها بصورة آلية على قواته المسلحة ، ونظراً لأن القوىٰ المعنوية قد عملت عملها الكبير في مجمل نشاط القوات المسلحة خلال كافة العمليات والحركات التي أُرغمت على الاشتراك فيها ، أو أنها كانت ترغب في الاشتراك بقسم آخر منها ، لذا فإنني سوف أتناول في بحثي بالتمحيص والاستطراد والتفصيل واقع الروح المعنوية داخل القوات المسلحة العراقية وبناءها، ومما لا شك فيه هو أن بحثاً في قوىٰ غير محسوسة سوف ينحىٰ منحىً فلسفياً في معظم الأحيان،ولكنني سوف لن أترك البحث تجريدياً صرفاً ، بل سألتقط أمثلة كثيرة من واقع حياة وتاريخ الشعب العراقي والقوات المسلحة ، وما أكثرها في الواقع ، لدعم تصوراتي التي سأطرحها ، وذلك للتقليل من الأثر الفلسفي التجريدي لبحث من هذا النوع الذي غالباً ما يكون خالياً من الأرقام

(الجداول الحسابية) التي تضفي على البحوث طابع العملية والجدية الصرفة .

ـ ما هي الروح المعنوية وقواها؟ :

سننقل هذا التعريف المبسط للروح المعنوية « إنها تلك القوى غير المادية في جزئها الأكبر والمادية في المجال الأضيق ، التي تدفع الإنسان ومن داخله لأن يتغلب على تأثير الخوف الذي تولده الحرب كمصدر رئيسي من مصادر الخطر ، وكذلك بالمقابل تمنحه القدرة على إظهار الشجاعة والإقدام والبسالة في ساحات المعارك »[1] « إن القوى المعنوية الرئيسية هي القوى التالية : مواهب القائد الحربي ، وفضائل الجيش الحربية وشعوره الوطني »[1] ، لذا فإن القوى المعنوية الرئيسية هي قوى غير محسوسة وغير مادية كما أشار الجنرال كلاوزفتز ، على أن للقوى المادية تأثيراً ما على القوى المعنوية ، كجودة التسليح وصرامة الضبط والتنظيم العسكري وغيرها ، وعليه جاء تعريفنا للروح المعنوية مرتكزاً على القوى غير المادية في صنع الروح المعنوية، مع أننا لم نغفل تأثير القوى المادية عليها .

ـ إن ما سيرد في هذا البحث من معلومات تتصل بالوضع الخاص بالقوات المسلحة العراقية، هو نتيجة لما حصلت عليه خلال خدمتي الطويلة داخل الجيش العراقي والتي تصل إلى (٢٠) عاماً ، إضافة إلى ما أدلى به لي زملائي الضباط والجنود العراقيون ، إضافة إلى وثائق أصدرتها القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية والقيادات الميدانية ، وأمكن الاستفادة منها في هذا البحث ، وقد عانيت كثيراً في الحصول عليها ، وهنالك معلومات أخرى كثيرة لم أكن أرى بأن الوقت في ظرفنا الحالي يسمح بإدراجها بسبب كونها تتعلق ببعض زملائنا الذين لا يزالون في الخدمة.

---

(١) الوجيز في الحرب للجنرال كلا وزفتز .

(٢) المصدر السابق .



البَابُ الأَوَّل

لمحة تاريخية

تمهيـد

الفصل الأول : الأســاليب التي استخـدمهــا معـاويــة لإخضـاع قــوى المعارضة.

الفصل الثاني : الوضع الاجتماعي في العراق تحت ظل الحكم الأموي

الفصل الثالث : سقوط بغداد.

الفصل الرابع : ثورة العشرين .

الفصل الخامس : المشكلة الطائفية .



تَمْهِيد

ـ إن دراسة تاريخ العراق قديمه وحديثه ترتبط بتاريخ الشيعة الذين كانوا وما زالوا يشكلون الجزء الأعظم من سكان العراق المعروف في التاريخ الإسلامي،والذي كان يشمل ولايتي الكوفة والبصرة متضمناً معظم أرض العراق السياسية حالياً ، وليس لأن سكان العراق الحاليين يشكل الشيعة أكثر من نصفهم ، بل لأن الشيعة،وهم عرب العراق الأصليون والذين تشكل قبائل تميم وكعب وربيعة وخزاعة وبنو لام وبنو أسد، وقسم كبير من قبائل شمر وعنزة وزبيد وغيرها من القبائل العربية العريقة المعروفة هي التي كان لها دورٌ بارز في أحداث تاريخ العراق ، بل إن تاريخ الحقبة الإسلامية كلها قد كونته هذه القبائل نفسها ، أو أثرت فيه تأثيراً بالغاً ، وهي لا تزال تستوطن أرض العراق، وتدين بالولاء لأهل البيت عليهم السلام خاصة خلال فترتي الحكمين الأموي والعباسي ، والذي يريد أن يفهم ويستوعب بعمق تاريخ شعب هذه الأرض عليه أن يتتبع الظروف السياسية والاجتماعية وتقلباتها وينفذ إلى عمق الأحداث بنظر ثاقب أمين، بعيداً عن التمييز والحقد الذي لا مبرر له ، وعندما نقول بأن تاريخ العراق مرتبط بتاريخ الشيعة فإننا لا نريد أن نجني على أحد، بل نريد أن نعرض الحقائق كما هي ونبسط الصور كما هي في واقعها دون أن نلفها بالضباب والشكوك[1] .

---

(١) جهاد الشيعة ـ د. سميرة الليثي ص ١٠، تصدير الدكتور أحمد الشرباصي استاذ بجامعة الأزهر : ـ وطائفة الشيعة من الطوائف الإسلامية ذات الأثر الكبير في المجتمع الإسلامي ، وإذا كان التشيع قد بدأ بحب آل البيت النبوي الطهور ، بيت سيدنا ورائدنا وقائدنا رسول الله عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، فقد اتخذ بعد ذلك مسيرة متميزة خلال عصور التاريخ ، وقد جعلت هذه المسيرة المتميزة تتفسح وتتسع حتى صار للتشيع أعلامه وأبطاله ورجاله ومفكروه وزعماؤه والداعون إليه والمدافعون عنه بالكلمة تارة وبحد الحسام تارة أخرى، ومرَّ الشيعة خلال مسيرتهم التاريخية بمراحل صراع وجهاد =

وسنترك للقارىء المنصف بعد أن يقرأ معنا هذه اللمحة التاريخية عن العراق ، والتي لا غنى لنا عنها ، أن يضع وجدانه وضميره أمامه تاركاً عناصر التشنج والانفعال السطحي جانباً ليستنتج لوحده ما إذا كان ما نقوله صحيحاً أم لا ، إن الشيعة،وعلى الرغم من كل ظروف المعاناة والإرهاب والتمييز في كل شيء،والذي مارسه الحكام عبر كل هذا التاريخ ، ظلَّت تشكل في وجودها المحور الأساسي لبناء الدولة العراقية ، وهي الطائفة التي شكّلت بأبنائها الجزء الفاعل والمنتج والمحرك في نشاط هذه الدولة وأجهزتها بحكم كونها الأكثرية ، إلاّ أنها في الواقع لم تستطع أن تنال حقها بما يجب أن تنال ، ولم يستطع أبناؤها أن يشغلوا سوى الكادر الوسطي للدولة فما دون ، فمن هذه الطبقة التجار المتوسطون والكادحون والجنود المستضعفون، الذين كان عليهم أن يعملوا دوماً ويجهدوا أنفسهم ويقدموا عرقهم وتعبهم ودماءهم من أجل توفير المال والجاه والأمن لغيزهم ، لسلطة لم تعتبرهم إلاّ مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة ، وفي العراق المعاصر لم تختلف أوضاع الطائفة الشيعية كثيراً عمّا كانت عليه قبلاً ، على الرغم من أن وضع الطائفة قد تحسّن إلى درجة ما ، وهو أمرٌ فرضه الانتعاش الاقتصادي وزيادة الدخل القومي فرضاً على عموم العراق ، إلاّ أن التمييز والتفرقة الطائفية ظلاّ ماثِلين يتركان بصماتهما بوضوح على الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لنشاط الدولة ، وظل الشيعة يشكلون نفس الشرائح الاجتماعية السابقة في المجتمع العراقي القديم ، فإذا أخذنا القوات المسلحة العراقية كمثال يوضح لنا التمييز والتفرقة في الوظائف الحكومية والمناصب التي تنتهجها الدولة ، فإننا نلاحظ بأن الشيعة يشكلون أكثر من ٧٠٪ من مجندي القوات المسلحة العراقية ، بينما لا يشكل الضباط إلاّ نسبة تقل عن ٢٠٪ ، ويشكل عددهم ـ أي الشيعة ـ بين الضباط من ذوي الرتب العالية نسبة لا تكاد تذكر ، وعليه فإن أبناء العراق الحاليين هم أبناء أُولئك العراقيين الذين عاشوا تحت ظل سلطات جائرة وجهت إليهم مختلف أنواع الظلم والجور والإرهاب على مرّ التاريخ ، والتي ظلوا يخضعون لها مكرهين وتحت التهديد بالفناء والتدمير طيلة هذه الفترة المديدة التي شكلها التاريخ الإسلامي ، وإن ما يتناقله الأبناء عن الآباء وما حفظ لنا التاريخ ، على ندرة ما حفظهُ من هول المصاعب والمحن والشدائد التي مرّت عليهم ظلّت دوماً تلح على ضمير ووعي أبناء الشيعة مولدةً إحساساً مريراً بالغبن والاجحاف بصورة مستمرة ، ولا يخفى ما

= تعرضوا فيها لألوان من الأذى والعدوان أصيبوا وأصابوا والحرب سجال كما يقال ، ولكنهم احتملوا أكثر من غيرهم .

وكان للشيعة خلال تاريخهم مواقف مشهورة وبطولات مرصودة وتشعبت وتفرقت وانتشرت يميناً وشمالاً في مصادر التاريخ المختلفة .

لشعور طائفة أو طبقة اجتماعية معيّنة بالغبن من أثر على حياتها وعلاقاتها ووضعها العام ، بل إن الإحساس بالغبن المستمر والدائم وشدة ضغط الظروف الخارجية، قد تدفع بالفرد أو الطبقة أو الجماعة إلى القيام بأعمال تصل إلى حد الانتقام من كل شيء وتدميره ، أعمال تشبه الانتحار ، الغاية منها الخلاص من الوضع الشاذ الذي يعيشه، حتى لو كان هذا الحل هو الموت كنهاية لوضع مأساوي لا يمكن تحمله ، ولقد ظلَّ هذا الإحساس عاملاً أساسياً من عوامل التمرد والثورة ومرجلاً يغلي ينفجر بين حين وآخر عندما لا يتحمل الوعاء الذي يحتويه الضغط الذي يتولد عنه ، محدثاً هزات عنيفة لن تقف عند حدود مصالح هذه الطائفة أو يقتصر أثرها على العراق وحده ، بل إن هذا الغليان والانفجار أدّىٰ في أحيان كثيرة إلى إحداث تغييرات جذرية وخطيرة في التاريخ الإسلامي ، ولقد كان سقوط الدولة الأموية علامة بارزة من علامات عمق التأثير الذي يحدثه تحرك هذه الطائفة وثورتها ، كما أن ضعف وتفسخ الدولة العباسية وتحولها إلى دويلات عديدة في آخر عمرها مردّه الأساسي إلى استمرار شعور الشيعة بالغبن والظلم الذي مارسه حكام بني العباس ضدهم ، والذي تسبب في قيام ثورات عديدة مستمرة ونشوء تنظيمات سرية أخذت تنتشر في طول البلاد الإسلامية وعرضها ، تهدف إلى تحطيم دولة بني العباس وهدم ظلمهم وجورهم ، وكان ان قامت الدولة الفاطمية في مصر والدولة العلوية في شمال افريقيا، اضافة إلى بقية الدويلات التي أنشأها الشيعة في بقاع أُخرىٰ من العالم الإسلامي، والتي كان وجودها يشكل اشعاعاً حضارياً وفكرياً فاعلاً في التاريخ الإسلامي، والتي شكلت ثمرات عديدة لجهادهم المتواصل الذي لم ينقطع ودون كلل ، إلاّ أننا وإنصافاً للحق يجب أن نقول بأن انتفاضات وثورات وجهاد الشيعة كان يهدف دوماً إلى إزالة الظلم ورفع الحيف ليس إلاّ ، لأن الشيعة لم يكونوا يعمدون إلى أساليب الثورة والتمرد إلاّ عندما يتعرضون للإرهاب الشديد والقمع من قبل سلطات تسفر عن وجهها البشع ، فتمارس بحقهم أبشع أنواع التميز والتسلط والقتل والتشريد ، ولا يعمدون للثورة إلاّ عندما تنعدم الوسائل البديلة عنها ، أو عندما تكون هذه الوسائل غير ناجعة في الحفاظ على وجود هذه الطائفة ومصالحها المشروعة ، وعلى الرغم من ذلك لم يشعر الشيعة بالضغينة والحقد الدائم لمجرد الحقد ، وهو ما يحدث بالنسبة لبعض الطوائف الإسلامية الأخرى وحتى غير الإسلامية ، بل على العكس من ذلك ، فإن كل هذه الممارسات لم تعدم روح الحرص والمواطنة وإشاعة روح الجماعة داخل الوطن ، بل وإنهم ساهموا بالقسط الأكبر في كل النشاطات الإيجابية التي فتحت فيها بقاع جديدة من العالم وضمها إلى الدولة الإسلامية ، وفي العصر الحديث خاصة ، لم يشعر بظهور روح عدائية لدىٰ الشيعة تجاه غيرهم من الطوائف، بل إن أبناءها لم يكونوا أبداً من البادئين بالضغينة والعداء لغيرهم

مطلقاً ، بل إنهم وفي أحلك ظروف الظلم والاستبداد حافظوا على روح الأخوة الإسلامية ومعناها الحقيقي ، ففي الوقت الذي تخلى فيه غيرهم عن الإسلام وتعاليمه التي تطلب من المسلم أن يقف مع أخيه المسلم وينصره عندما يتعرض للخطر والعدوان ، ففي الوقت الذي أعلنت فيه ما يسمى بالثورة العربية الكبرى في الحجاز بدعم من الإنكليز وتنظيم مخابراتهم ، بينما كانت القوات العثمانية تقاتل قوات أعداء الإسلام الإنكليز في فلسطين والعراق . والتي انتهت بانتصار الحلفاء وأدت إلى تقسيم بلاد المسلمين والتآمر المستمر لتدمير ثقافتهم وتغريبهم ، نجد أن موقف الشيعة كان مشرفاً في الدفاع عن الإسلام ، حيث قاتل أبناؤهم مع القوات التركية من جنوب العراق عند بدء الانزال البريطاني في الفاو، وحتى مدينة الموصل ، قاتلوا بدافع الحفاظ على الإسلام ضد هجوم الغرب الشرس على أرض المسلمين، على الرغم من أن الحكم العثماني كان يضطهد الشيعة ، وكان التمييز الطائفي من السمات المميزة للحكم العثماني في العراق ، وعلى الرغم من أن أهل الطوائف الإسلامية الأخرى هم من أكثر المستفيدين من الوجود التركي ، وأن وجود قبور الشيعة في منطقة الفتحة والجرناف وغيرها من المواقع جنباً إلى جنب مع قبور الأتراك خير شاهد على هذه المواقف المشرّفة، بل إن ردود فعل الشيعة تجاه المظالم التي لحقت بهم في العصر الحديث، لم تؤد إلى ظهور أي مشاحنات أو عداء بينهم وبين بقية الطوائف الإسلامية الأخرى .

ولقد كانت ردود فعلهم بسيطة ومحدودة ، تتسم بطابع الاحتجاج السلمي المحدود في مراسم العزاء الحسيني السنوي أو غيرها من المناسبات الدينية تجاه بعض الحكام، الذين كانوا يمعنون في التمييز الطائفي ولا يخفون تحيزهم إلى طائفة أخرى، وباستثناء الاحتجاجات الدموية ظلّت ردود الفعل ضيقة ومحدودة ومحصورة ، ولكن لا أحد يستطيع أن يتوقع ما سيحدث في المستقبل لهول ما يتعرض له الشيعة من الظلم والقتل والتشريد .

ـ على الأخوان أبناء الطوائف الأخرى أن لا يفهموا بأن جهاد الشيعة يهدد مصالحهم ، أو أن هذه الطائفة ترغب وتسعىٰ للسيطرة والاستئثار بالحكم لوحدها ، كما يروّج له فعلاً الإعلام المعادي للإسلام ، بل إن جل ما يهدف له أبناء هذه الطائفة هو تحكيم أسس العدالة في المجتمع العراقي ، وأن وجود سلطة تمثل الشعب العراقي كله بعيدة عن التحيّز والتمييز بين طائفة وأخرى ، تعامل المواطنين جميعاً بميزان واحد ، هو كفاءة ومقدرة المواطن على إشغال المكان الملائم له في مراتب الدولة على مختلف مستوياتها بغضّ النظر عن الطائفة والعشيرة ، هذا هو الهدف الوحيد لجهاد الشيعة

وأبنائها ، ولا يعقل بأن طائفة تعرضت لهذا القدر من الظلم والاضطهاد والحرمان أن تمارسه على غيرها مطلقاً ، هذا هو العدل بعينه ، وهذا ما يجب أن توافق عليه بقية الطوائف ولا ترفضه، وهو الحل الوحيد لمشكلة السلطة في العراق، فكل مواطن في العراق سنياً كان أم شيعياً ، عربياً كان أم كردياً أو تركمانياً ، له الحق أن يشغل المكان الذي تؤهله له كفاءته ومقدرته على إدارته بغض النظر عن وضعه وانتسابه الطائفي والعشائري .

ـ إن الحديث عن حقوق الطوائف ليس إثارة للنعرة الطائفية ، بل هو في الواقع قضاء على الطائفية ، ومدخل طبيعي لذلك ، إن تشخيص الداء هو العامل الحاسم لتعيين الدواء ، ففي الوقت الذي يُفهم فيه كل من يطالب بحقه بأنه طائفي ، نلاحظ بأن أمور الدولة وإدارة شؤونها يتم تصريفها بطريقة طائفية بشعة ومقيتة ، وفي الوقت الذي يخلو فيه دستور الدولة العراقية الأساسي الدائم منه والمؤقت من أية إشارة للطائفية، فإن حقوق الناس وكرامتهم تمتهن بصورة أبشع وأكثر مهانة مما يجري في لبنان الذي يعيش وضعاً طائفياً كفله له الميثاق غير المكتوب ، بل إن علاقات الدولة وفعاليتها وأمورها وجوانب حياتها المختلفة تتم وفق قوانين تبدو قدرية محتومة ، وهي على الرغم من كونها ليست مدونة في قانون أو قوانين خاصة ، لكنها تحكم نشاط دولة بكاملها وبصورة محكمة ودقيقة ، وكأن منفذ ومجري هذه السياسة المتعاقبة قد وضعت أمامه لوائح قانونية متكاملة تحكم حركة المجتمع والدولة، فهل من العدل أن تقول لشخص ما وضعت قدمك فوق رأسه لتسحقه، أن تقول له ، أيّها اللعين لماذا تتململ؟، إذا أردنا أن نحل مشاكلنا بجدية وصدق فعلينا أن نشير إليها بشجاعة وثقة ، نشخصها ثم نضع العلاج اللازم لها كما يفعل الطبيب عندما يريد أن يعالج مريضاً ، لا أن ندفن رؤوسنا في الرمال كالنعامة ، ونتغاضى عن الأخطار التي تحدق بنا وبوطننا ، إن اغماض أعيننا كي لا نرى المشكلة لا يعني بأنها ليست موجودة فعلاً ، بل إن ذلك يعني بأننا قد خدعنا أنفسنا وباستمرار بأن نصور لها بأن ليست هناك مشكلة أصلاً ، وهو أسلوب خطر ظل يفعل فعله المستمر والدائم ، حيث يظل الجمر تحت الرماد ، وعندما يحترق كل شيء عندئذٍ لن ينفع الندم ، ولن ينفع النعامة أن تخرج رأسها من الرمل، لأنها ستجد نفسها بأنها تواجه جحيماً من النار التي تحرق كل شيء ، ستجد نفسها عارية تماماً في مواجهة الواقع والحقيقة المرة .

ـ ان استخدامنا لعنوان لمحة تاريخية لا يعني بالحقيقة أننا سوف نمر بالأحداث خطفاً ، بل سوف نركز على الأحداث التاريخية الهامة ، والتي كان لها أثر جسيم على حياة الأمة وبنائها المعنوي ، وربما سوف نمر بسرعة على فترة زمنية معينة من التاريخ

وذلك بسبب كون الأحداث فيها سارت بوتيرة تقرب من الرتابة تارة ، إلى حدث معيّن خاص وقع في هذه الفترة تارةً أخرى كفيل بأن يعطينا فكرة أو صورة عن طبيعة الأحداث التي جرت فيها بصورة شاملة ، ولا أخفي حقيقة واجهتني بأن أعقد وأصعب جزء من هذا البحث كان هذا الجزء منه ، على الرغم من أنها تبدو للقارىء وكأنها من أكثر أجزائه بساطة .

ـ تعتبر معركة صفين الحد الفاصل بين انحسار المسار الثوري والنهج الإسلامي الأصيل ، ونهوض حالة الردة على كل القيم التي بناها الرسول الكريم في ثورته السماوية الأولى، وكان للنتائج التي أسفرت عنها مهزلة التحكيم بداية مرحلة الانهيار الحقيقي للقوى المعنوية والروح الثورية المبدعة للأمة ، فانتهاء التحكيم إلى نتيجتين مهمتين، أولهما افلات معاوية بكل أساليبه ونزوعه اللامشروع من العقاب وعدم انتهاء المعركة بالنصر لقوى الثورة الحقيقية ، وثانيهما حدوث انشقاق خطير في معسكر الإمام علي عليه السلام ، فبعد أن أُجبر الإمام على قبول التحكيم تحت التهديد بالقتل ، عاد الذين أجبروه على قبوله عن موقفهم، وقالوا بكفره لقبوله به، لأن مجرد قبوله في رأيهم لم يكن جائزاً له ، على الرغم من أنهم هم الذين أجبروه على أمر قبول التحكيم، بعد أن قال لهم بأن الأمر خدعة ، وبعد عودة الإمام من الحرب استفحل أمر هؤلاء الذين سمّوا فيما بعد بالخوارج ، وأخذ خطرهم ينتشر ، وكانوا يقتلون المسلمين ويهاجمون الأمنين ويخربون كل شيء تقع عليه أيديهم ، مما استدعى أن يقف الإمام منهم موقفاً نهائياً وجدياً ، حتى كانت المجابهة في معركة النهروان التي انتهت بتدمير قوى الخوارج وعودة قسم منهم إلى حضيرة جيش الإمام ، في هذه الفترة كان الجو قد خلا لمعاوية ، فأخذ يتصل بعدد من رؤساء وقادة جيش الإمام يغري بعضهم بالأموال، ويمنيّ البعض الآخر بإمارة بعض الولايات حتى استطاع أن يقنع عدداً منهم بالالتحاق به ، وكل ذلك لم يثنِ الإمام عن التهيؤ والاستعداد لحرب معاوية والقضاء عليه ، إلَّا أن عبدالرَّحمن بن ملجم الذي كان قد دبّر مؤآمرة اغتيال الإمام ، عاجله بضربةٍ من سيفه المسموم، حيث كان يصلي صلاة الفجر في مسجد الكوفة في شهر رمضان ، وبذا يكون الجو قد خلا تماماً لمعاوية من أشد خصومه وأخطرهم، لم تكن الظروف ملائمة تماماً للإمام علي كي يبني أجهزة الدول الإسلامية ويعزز وجودها، ويرسخ مفاهيم الإسلام الأصيل في عقل ووعي الجماهير بصورة راسخة وواسعة ، وذلك بسبب انشغاله طيلة فترة خلافته، التي لم تتجاوز الأربع سنوات، بالحروب المستمرة التي فرضت عليه من قبل الناكثين والطامعين في الحكم ، ومن حرب الجمل إلى صفين ، إلى النهروان تتخللها معارك صغيرة عديدة ، استنفذت جهده ووقته وأشغلته، ولو بصورة جزئية، عن مهام ترسيخ الدولة ورفع

مستوى وعي الجماهير التي كانت تلتف حوله ، على الرغم من أن نهجه في معالجة وتصريف أمور الدولة كان واضحاً وضوح الشمس ، لذا فإن استشهاده قد ترك فراغاً كبيراً هيأ لمعاوية والأمويين عموماً الأجواء للعمل وبسرعة من أجل الاستحواذ على الدولة الإسلامية كلها ، مستخدمين مختلف الأساليب للوصول إلى ذلك ، فمن الارهاب والتجويع إلى القتل والتشريد والتهجير وسلب الأموال ، إلى التضليل وتشويه الحقائق، حتى استتب لهم الأمر تماماً بعد الصلح الذي وقعه الإمام الحسن تحت ظروف قاهرة .

ـ تعتبر الفترة التي استولى فيها معاوية على الحكم من أهم الفترات وأكثرها تأثيراً على مستقبل وحياة الأمة على امتداد تاريخها وحتى يومنا الحاضر ، فالأساليب والممارسات التي استخدمها الحكام الظلمة من الذين جاءوا في غفلة من التاريخ إلى السلطة ، ظلّت في واقع أمرها هي نفس الأسس والأساليب التي استخدمها معاوية في إحكام سيطرته على الحكم والدولة ، لقد ظلّ الحكام يستخدمون نفس الأساليب والأسس التي اعتمدها معاوية بإذلال الأمة وتحطيم إرادتها وروحها المعنوية، لفرض السيطرة على الحكم لغرض إشباع شهواتهم وتعطشهم للتسلط والتحكم .

في الفصل القادم سنعرج على الأساليب التي اعتمدها معاوية للسيطرة على الأمة والتأثير عليها وتحطيم روحها الثورية وقواها المعنوية ، وسنترك للقارىء الكريم أن يستنتج بنفسه فيما إذا كانت أساليب معاوية في السيطرة على زمام الحكم قبل حوالي ١٤٠٠ عام قد تغيرت أم لا ، وهل أن الأساليب التي يستخدمها الحكام اليوم تختلف في جوهرها عن الأساليب التي استخدمها معاوية؟على الرغم من وجود هذا الفاصل الزمني الكبير بينه وبينهم ، إذن فكيف اتفق هذا الأمر؟، هل جاء مصادفة، أم أن هناك شيئاً آخر أكثر واقعية ووعياً يشكل عاملاً مشتركاً بينهم جميعاً ؟ ترى ألم يكن معاوية هو أب وقائد هؤلاء الطغاة الجدد ، وأن روحه قد انطبعت في وجدانهم وعقولهم ، وأن ما يفعلونه اليوم هو انعكاس لما فعله هو قبلهم بمئات السنين؟ إن التاريخ يعيد نفسه تماماً بنفس الصيغ والأساليب ولكن بروح عصرية . إن معاوية الذي انتهىٰ قبل وقت طويل ، ينهض اليوم بتراثه وروحه وعقله بعشرات من أمثاله !.



الفصل الأول

الأساليب التي استخدمها معاوية لإخضاع قوى المعارضة

ـ لم يترك معاوية أسلوباً ووسيلة يحارب بها المبادىء التي نادى بها الإمام علي عليه السلام وطبقها في واقع الحياة العملية على المسلمين ، طيلة مدة خلافته القصيرة ، إلّا واستخدمها ، وحاول جاهداً ، وقد نجح إلى حد كبير في أن يزيل تأثيرات المبادىء السامية هذه من أذهان الناس ، وأن يطبع حياتهم وأفكارهم بالطابع الذي يؤمن تسيير دفة أمور الدولة والحكم دون أية رقابة واحتجاج ، وكان من أبرز أهداف تلك السياسة نزع الإحساس بالحرية الذي خلقه الإسلام في نفوس أبنائه ، وتحطيم نزوع الإنسان المسلم إلى الاختيار الحر في حياته وتعامله مع المبادىء والقيم والأحداث الجسام ، وتحويله إلى آلة طيعة مطيعة خنوعة ، ولقد انتحت هذه السياسة نحو أساليب واتجاهات رئيسية ثلاثة هي[1] : ـ

١ ـ الإرهاب والتجويع .
٢ ـ إحياء النزعة القبلية واستغلالها .
٣ ـ التخدير باسم الدين وشل الروح الثورية .

١ ـ الإرهاب والتجويع :

طبق معاوية سياسة الإرهاب والتجويع بحق معارضيه وخاصة أهل العراق ، بشكل فاق التصور ، ولقد بلغ الإرهاب حداً بعد مقتل الإمام علي عليه السلام بحيث أن الرجل كان يفضل أن يرمى بتهمة الزندقة ولا يقال له بأنه من شيعة الإمام علي ، ولقد نظم معاوية حملات وغارات عسكرية مستمرة على حواضر الدولة الإسلامية ، كالكوفة والبصرة

---

(١) ثورة الحسين ، ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية ـ محمد مهدي شمس الدين ص ٦٦ .

والمدينة ومكة ، مزوداً قادة تلك الحملات بوصايا وأوامر تنضح بالحقد واللؤم على المسلمين ، تتضمن الفتك بالناس ونهب أموالهم ، وكان توجيه معاوية إلى بسر بن أرطأة، الذي أرسله على رأس جيش إلى الحجاز واليمن ، ما يلي[1] : ــ

« سر حتى تمر بالمدينة فاطرد الناس ، وأخفْ من مررت به ، وانهب أموال كل من أصبت له مالاً ممن لم يكن دخل في طاعتنا ، فإذا دخلت المدينة فارهم أنك تريد أنفسهم ، وأخبرهم بأن لا براءة لهم عندك ولا عذر حتى ظنوا أنك موقع بهم ، فاكفف عنهم ، وارهب الناس عنك فيما بين المدينة ومكة واجعلها شروات». هذا ما كان ينتظر أهل المدينة الساكنين إلى جوار قبر الرسول الكريم ، ومصير أهل مكة لا يختلف عن مصير غيرهم ، ومكة هي البلد الآمن ، أما حصة أهل العراق من هذه السياسة فهي الأوفر، على اعتبار أنهم كانوا مصدر المعارضة ولحمتها ، ومن عاصمتهم الكوفة كانت تنظم قوى المعارضة التي اتجهت جيوشها إلى الشام لغرض القضاء على حكمه ، فلقي أهل العراق على يد واليه على الكوفة ، زياد بن سمية أنواع الأهوال والمصائب ، ولقد اتبع ابن سمية الأساليب التالية في تنفيذ سياسة الإرهاب والتجويع التي كان يوجهها معاوية في الشام : ــ

أ ــ القتل : كان زياد بن سمية يجمع الناس بباب قصره في الكوفة ويطلب منهم أن يلعنوا الإمام علي ، فمن أبىٰ عرضه على السيف ، وكان يعذبهم بأنواع أخرى من التعذيب[2] ، بل كان يقتل على الظن .

ب ــ سمل العيون .

جـ ــ قطع الأيدي : يروي ابن الأثير بأن زياد ابن أبيه قطع أيدي ثمانين أو ثلاثين رجلاً من أهل الكوفة في يوم واحد .

د ــ السجن : حيث امتلأت سجون الكوفة والبصرة واليمن والحجاز بقادة المعارضة وجماهيرها .

هـ ــ التهجير : لقد أنزل زياد ابن أبيه من الكوفيين وأسرهم خمسين ألفاً في خراسان ، وبذلك حطم قوة المعارضة في الكوفة ولو لمدة محدودة .

و ــ هدم الدور وتخريبها .

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد .

(٢) المصدر السابق .

ز ـ مصادرة الأموال .

ح ـ هتك الأعراض : في المدينة، وهي مدينة الرسول (ص)، هدمت دور أهلها، وسبيت نساؤها وقتل فيها كل موالٍ للإمام علي ، وبيعت نساء همدان في الأسواق فكن أول مسلمات اشترين في الإسلام[1] .

ولقد لخص الإمام محمد الباقر حالة الإرهاب والقتل والتدمير والحرب المعلنة على الشيعة بهذه الصورة المأساوية « وقتلت شيعتنا بكل بلدة ، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة ، وكل من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله ، أو هدمت داره ، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيدالله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام »[2] ، أما معاوية فقد كان واضحاً تماماً في تعامله ، لم يكن يخفي ما يريده ويخطط له ، فبعد أن استتب له الأمر قال مخاطباً أهل الكوفة موضحاً لهم أهداف حربه لهم ومقاتلته إيّاهم : « يا أهل الكوفة ، أترونني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج؟ وقد علمت بأنكم تصلون وتحجون ، ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم ، وألي رقابكم ، وقد أتاني الله ذلك وأنتم كارهون ، إلّا أن كل دم أصيب في هذه مطلول ، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين »[3] . ولقد كان أميناً لسياسته هذه، فطبقها بكل معاني الخسة والقسوة مستخدماً من أجل تنفيذ ذلك عدداً من الولاة ، الذين كانوا يتسابقون من أجل الايغال بالدماء وإزهاق الأرواح ، مظهرين قدرة فائقة على تطبيق أنواع مختلفة من القتل والارهاب والتعذيب والتفنن فيها ، حتى ضاقت الأرض بمن عليها من الناس ، وشهدت أرض العراق ، الكوفة والبصرة ، ارهاباً منظماً مستمراً ويومياً للقضاء على المعارضة السياسية ومحاولة استئصالها من جذورها .

أما سياسة التجويع فقد اتبعت خطاً على أبشع ما يكون وهو : ـ

أ ـ نقل بيت المال من الكوفة إلى الشام، وبذا حرم أهل الكوفة من اعطياتهم .

ب ـ نقص اعطيات كل من شك بولائه له .

جـ ـ زيادة الضرائب على جماهير العراق بصورة عامة والمعارضة بصورة خاصة .

د ـ مصادرة الأموال[4] .

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ، بروكلمان. تاريخ العرب : فيليب حتي .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .

(٣) الكامل : ابن الأثير .

(٤) ثورة الحسين ، محمد مهدي شمس الدين .

هـ ـ انقاص عطايا أهل الكوفة وزيادة عطايا أهل الشام، كدليل على كرهه لأهل العراق وتفضيله أهل الشام عليهم[1] .

لقد كان معاوية يفعل ما يريده ، يهتك الأعراض ، ويقتل الناس ، ويشيع الإرهاب ضد معارضيه ، وهم الكثرة الساحقة من المسلمين دون أن يلتفت إلى حرمة الإسلام ، بل إنه لم يكن يمنعه من ذلك بأنه من هؤلاء الناس ، وانهم من رعاياه، ومن واجبه كحاكم أن يجهد لتوفير الأمن والطمأنينة لهم ولعامة أبناء الأمة دون استثناء ، لقد كان في ذلك شأنه شأن كل الطغاة والفراعنة على مر العصور والتاريخ ، لقد قال فرعون قبله للسحرة الذين آمنوا بالله وصدقوا موسىٰ بعد أن أبطل سحرهم : ﴿ **قال آمنتم به قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقىٰ**﴾[2] . فقطع الأيدي والأرجل والصلب على جذوع النخل هي السياسة التي يرتكز عليها الطغاة والمجرمون من الذين يتسلطون في غفلة من التاريخ على رقاب الناس ، وهو يزخر بأمثلة كثيرة من هؤلاء على طول امتداده حتى يومنا هذا ، فمن فرعون إلى معاوية ، ومن هولاكو إلى هتلر وموسوليني، ومن ستالين إلى بن غوريون وبيغن ودايان انتهاءً وليس آخراً بصدام حسين ، كلهم يسيرون على نفس النهج وتحكمهم نفس العقلية المتشربة بالاجرام والتعطش للدماء ، لا تأخذهم رأفة أو شفقة ولا خوف من الله ، إلاّ أنهم يظلون دوماً شواهد حية في تاريخ سيرة البشرية ، لا يتردد كل من يردون على خاطره أن يلعنهم إلى أبد الآبدين .

٢ ـ إحياء النزعة القبلية وإشاعة الفرقة والفتن القبيلية :

برع معاوية في هذه السياسة وأبدع فيها، ولم يفقه فيها أحد في كل تاريخ العرب والمسلمين ، ولقد لقبه من لقبه بالداهية أو داهية العرب ، ولم يكن هكذا حقاً ، بل كان لا يرعوي عن اتباع أي أسلوب أو طريق مهما كان خسيساً وضيعاً من أجل احكام سيطرته على الدولة المترامية الأطراف وهي من أساليب ذوي الأنفس الضعيفة العديمة الإيمان التي لا تعترف بقيم أو مثل تردعها أو تقف أمامها حائلاً عن ارتياد مجالات تأباها الأنفس العظيمة ، ومن الأساليب التي اتبعها معاوية في هذا المجال :

أ ـ وضعه العيون والمراقبين على بني أمية أنفسهم وهم أهله في المدينة ، وبث الفرقة بينهم وذلك كي يأمن عدم ظهور منافس له من بين عائلته[3] .

---

(١) العراق في العصر الأموي ، ثابت اسماعيل الراوي .
(٢) سورة طٰه ، الآية : ٧١ .
(٣) ثورة الحسين : محمد مهدي شمس الدين .

ب ـ إشاعة الفرقة بين قريش .

جـ ـ اثار النزاع والمشاحنات والفرقة بين القبائل العربية في العراق والشام والجزيرة واليمن، فلقد تأججت المنازعات بين مضر واليمانية والقيسية والكلبية ، وعادت روح الجاهلية مجدداً تأكل وتنهش روح وجسد الأمة الإسلامية ، وقد ألب شعراء هذه القبائل ليقولوا شعراً يهجو فيه أحدهم قبيلة الشاعر الآخر ، ومنهم الأخطل وجرير والفرزدق وغيرهم ، وكان لهذا أثرٌ كبيرٌ في أعمال روح الحقد والكراهية بين القبائل العربية التي كادت أن تنسى جزءاً كبيراً من عصبيتها في مرحلة بدء الرسالة الإسلامية .

د ـ شراء رؤساء القبائل بالمال، ومن لم يستطع شراءه حاك له مؤامرة لاغتياله .

هـ ـ إثارة النزعة العنصرية والقومية بين المسلمين العرب وغيرهم من الموالي ، وذلك بتفضيله العربي على غيره من المسلمين في العطاء والمنصب والتعامل الاجتماعي .

٣ ـ التحذير باسم الدين وشل الروح الثورية :

وهو ما يطلق عليه اليوم بالإعلام المضلل، حيث لم يترك معاوية وسيلة من وسائل التضليل وتشويه الحقائق إلاّ واستخدمها وبرع فيها ، فقد استخدم وسائل متنوعة ومبتكرة من التضليل والتشويه ووضع لها أسساً ثابتة ، ومن هذه الوسائل والأساليب التي استخدمها لتضليل الجماهير وتحذيرها وإماتة حسها الثوري الأصيل :

أ ـ إنشاء حزب المرجئة :

كان معاوية خاصة وبني أمية عموماً يواجهون أحزاباً وأفكاراً، هي على العموم تعتبر بني أمية قتلة وغاصبين لتراث النبي (ص) كالشيعة والخوارج والمعتزلة ، وكلهم كانوا يكفرون معاوية وبني أمية ، وهؤلاء لهم مفكروهم الذين يدعمون أسس اعتقادهم دعماً يستند في أساسه على حججٍ دينية لا يملك الأمويون مقابلها من الحجج ، لذا فإنهم وجدوا من الضروري إنشاء فرقة (حزب)، يأخذ على عاتقه تقديم حجج تستند هي الأخرى على أسس دينية حتى وإن كان ذلك يؤدي إلى تحميل نصوص القرآن لمعانٍ لم تكن ترد فيه أو تحملها ، وجوهر ما كان ينادي به هذا الحزب ـ المرجئة ـ هو أن الإيمان عمل قلبي خالص لا يحتاج التعبير عنه بفعل من الأفعال ، فيكفي أن يكون الإنسان مؤمناً بقلبه ليعصمه الإسلام ، ويحرم الاعتداء عليه، وهم ينادون: « لا تضر مع الإيمان معصية ، كما

لا تنفع مع الكفر طاعة »[1] ، وبهذا قدموا تفسيراً فلسفياً دينياً لكل المظالم والانحرافات التي ارتكبها بنو أمية ، مهما كانت هذه كبيرة وبعيدة عن مفاهيم الإسلام ، إذ أنهم لا يتفقون مع بقية الطوائف الإسلامية الأخرى على محاربة الأمويين على اعتبار أنهم آمنوا بقلوبهم، وهذا يعصمهم من محاربة المسلمين لهم حتى وإن ارتكبوا من الكبائر ، وهم يعتبرون حكومة الأمويين شرعية على الرغم من انصرافهم عن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، وقد كان معاوية نفسه يتظاهر بالجبر والارجاء . وان المعتزلة قد كفروه لذلك ، بل ان معاوية نفسه ربما كان رئيساً لهذا الحزب ، لأن شخصاً مثله لا يفوته أن يحكم السيطرة والتوجيه على مثل هذا الحزب، حتى يتمكن من أن يخطط بنفسه كي يضمن إشاعة أفكاره بين أوساط الأمة الإسلامية، ليخدّرها ويميت فيها روح الرفض والمقاومة لمشاريع وخطط بني أمية، لتحطيم الأمة وصرفها عن التمسك بأصالة الدين وينابيعه الحقيقية العذبة الصافية ، « وبينما نجد الأمويين يضطهدون كل دعوة دينية لا تلائمهم ، نراهم بالنسبة إلى المرجئة يعترفون عكس ذلك ، فهم يحتضنون هذه الفرقة ويعطفون على قادتها ، وما ذلك إلاَّ لأن معاوية سيدهم هو واضع أسسها، وقد عرفت آنفاً بأنه يقول بالجبر والارجاء »[2] .

ب ـ استخدام حاشية السوء من الوعاظ لتشويه الحقائق :

لقد كان الطغاة والمجرمون المتسلطون على رقاب الشعوب وعبر كل التاريخ ، يلجأون إلى حرف وتشويه الحقائق المتعلقة بالأحداث التي تشهدها ساحة النضال المعادي لهم وتشويه سمعة شخصيات المعارضة ونعتها بأسفل النعوت لغرض إسقاطها من نظر جماهيرها الملتفة حولها ، وهم يحبذون في سبيل ذلك اعداداً كبيرة من المتعاونين والانتهازيّين وذوي الضمائر الميتة ، الذين يركضون وراء الكسب الحرام مهما كانت الأساليب التي يستخدمونها تتسم بالخسة والقذارة والدناءة ، ومن بين هؤلاء يبرز معاوية بقدرة عظيمة في هذا المجال ، حيث استخدم حاشية كبيرة من أصحاب السوء من الوعاظ والقصاصين ، وكان يدفع لهم من أموال المسلمين بسخاء مقابل خدماتهم التي كانوا يقدمونها له ، لغرض حرف الحقائق وتشويهها وتزويرها، فلقد أعطى مرة سمرة بن جندب أربعمائة ألف درهم كي يروي أن هذه الآية: ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض

(١) الفصل في الملل والنحل : ابن حزم .

(٢) ثورة الحسين : محمد مهدي شمس الدين .

ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾[1] ، إنما نزلت بحق علي بن أبي طالب ، وإن الآية : ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾[2] قد نزلت بحق عبدالرحمٰن بن ملجم المرادي قاتل الإمام علي ، وقد روى ذلك فعلاً[3] . وأما أبو هريرة فقد كافأه معاوية بولاية المدينة لأنه روى عن النبي (ص) في شأن علي ومعاوية ما يلائم ذوق معاوية وأهدافه السياسية[4] ، وقد روى أبو هريرة أحاديث كثيرة عن النبي (ص) في تمجيد معاوية نورد للقارىء الكريم منها :

« إن الله ائتمن على وحيه ثلاثاً : أنا وجبرائيل ومعاوية»، وان النبي (ص) ناول معاوية سهماً فقال له : « خذ هذا حتى تلقاني في الجنة»، و« أنا مدينة العلم وعلي بابها ، ومعاوية حلقتها »[5] ، فلا عجب في ذلك،فالتاريخ الإسلامي يزخر بأمثال هؤلاء الوعاظ وتاريخهم الحاشد بالتحايل على الإسلام والمسلمين ابتغاء مرضاة الحكام الجائرين حتى يومنا هذا،حيث تمتلىء بقاع الأرض الإسلامية بهم ، ينعتون خلف الحكم الظلمة الذين يبيعون في كل يوم قضية الإسلام بأبخس الأثمان ، بل وفي أحيان كثيرة بدون مقابل ، مرضاة لأسيادهم أعداء الله والإسلام .

جـ ـ استخدام ولاته في التشهير بالإمام علي وسبّه :

لقد شدد معاوية على ولاته أن يكثفوا الحملة على الإمام علي ، ويطلبوا من الناس أن يسبوه علناً أو يعرضوهم للقتل والتعذيب ، أو النفي والتشريد ، ولقد استمر ولاته ومن بعده نهج ولاة بني أمية الآخرين نفس النهج ، لمدة (٨٠) عاماً من على المنابر ، وقد منع التحدث عنه بكل ما من شأنه أن يربطه بصلة إلى الإسلام ، ونضاله المرير من أجل إرساء دعائمه ، ولقد تعرضت الحقائق التاريخية لحملة كبيرة من التشويه والمسخ وبأبشع صورة من أجل الوصول إلى هذا الهدف الدنيء،(كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة : «ان برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضائل أبي تراب وأهل بيته»)[6] . وقد حرص ولاته على تنفيذ سياسته تلك بل انهم كانوا يفوقونه في أحيان كثيرة ، وقد حققوا له في هذا المجال أكثر مما كان يرجوه هو نفسه .

ـ لقد تركت هذه الأساليب الخبيثة أثرها على الأمة، ومزقت شخصيتها وحطمت روح التوثب والحرية لديها ، فلقد خنقت سياسة الاضطهاد والتجويع كل نزعة من نزعات

---

(١) سورة البقرة : ٢٠٤ ، ٢٠٥.
(٢) سورة البقرة ، ٢٠٧ .
(٣) شرح نهج البلاغة : لابن أبي الحديد.
(٤) ثورة الحسين : محمد مهدي شمس الدين .
(٥) المصدر السابق .
(٦) شرح نهج البلاغة : لابن أبي الحديد .

الحرية لديها ، مما تركها تعيش حياة الذل والخضوع خوفاً من حياة قاسية ملؤها الفقر والجوع والآلام ، كما وأن بعث روح الجاهلية القبلية بين المسلمين مجدداً شغلتهم عن التفكير بأفق الإسلام وروحه الرحبة العظيمة إلى التفكير الضيّق بمستقبل القبيلة الضيق، وجعلت همه المحافظة على وجوده القبلي في خضم الصراعات والنزاعات التي كانت تنتشر بين المسلمين من الشام إلى اليمن، والتي كان لمعاوية وبني أمية اليد الطولى بخلقها وبعثها، اعتماداً على مبدأ فرّق تسد السيء الصيت كي يستتب لهم الحكم وليأخذوا برقاب الناس ، ولقد تولد عاملان رئيسان هما: الخوف والوضع الاجتماعي القبلي نتيجة لهذه السياسة المدروسة حيث كان لها أثر بالغ على الإنسان المسلم في ذلك الحين، مما جعله دوماً متردداً حائراً مسلوب الإرادة والتصميم، إذ كان يساق سوقاً للعمل خلافاً لإرادته الحقيقية يعيش معذب الضمير ، فهو يعتقد بأن الحكم الأموي حكم ظالم متجبر، فيعيش في قرارة نفسه حالة من العذاب وتوبيخ الضمير لأنه يقبل بالوضع الراهن ولا يثور عليه، هذا الوضع الذي يعج بالمنكرات والتعدي على الإسلام وحقوق المسلمين ، ومع ذلك فقد تظافرت هذه العوامل الثلاثة التي ذكرناها على إخضاع فكره وعقله، وحملته على السكوت عن النقد والقعود عن محاولة تغيير هذا الوضع المزري الذي يعيشه، « وبذلك يختفي الشعور بالإثم من الضمير الجماهيري»[1]. وكان عامة الناس قد أصبحوا يعيشون هذه الحالة من التخذير وفقدان الإرادة ، أما الذين لم تنطل عليهم أحابيل معاوية وبطانة الأمويين فإن وضعهم كان أكثر مأساوية من غيرهم ، فهؤلاء قد خضعوا لإغراء معاوية واغداقه الأموال من جانب، ومن جانب آخر كانت قسوة الحكم وتعامله الشديد والارهابي مع المعارضين جعلهم يعيشون حالة من الدجل والنفاق ، والتظاهر بخلاف ما يعتقدون مما جعلهم يسكتون عن قول الحق ويخفون ما يعتقدون حقاً وواقعاً، ويتظاهرون بالموالاة للسلطة والسير معها . مما ولد عندهم حالة من ازدواج الشخصية ، وهذا الازدواج الذي يعود إليه كل أسباب المآسي والآلام التي ظلّ المسلمون يعانون منها، والتي كانت العامل الرئيسي تقريباً لكل الاخفاقات التي عانى منها الثائرون على طول التاريخ ، والذي كان يسهم بعنف في مسألة تنظيم الثورة وحشد القوى اللازمة والفاعلة التي لم يكن بدونها انجاز مهامها اطلاقاً ، فما أن تندلع الثورات حتى يبدأ أعوانها بالانفضاض من حولها وترك قادتها وحيدين يواجهون مصيرهم لوحدهم أمام أعدائهم الذين يبطشون بهم بدون رحمة ، هذا الازدواج بالشخصية الذي صوره الفرزدق للحسين حين لقيه عندما كان متجهاً إلى الكوفة فسأله عن الحالة في الكوفة : « قلوبهم معك وسيوفهم عليك » .

---

(١) ثورة الحسين : محمد مهدي شمس الدين .

ولقد خلقت هذه الحالة من المجتمع الإسلامي مجتمعاً يتقبل حالة الذل والخضوع، فبعد أن كان المسلم يفكر بمستقبل الإنسانية ومصيرها، ويجاهد من أجل انقاذها من عذابها وآلامها بنشر الدين الإسلامي، تحوّل إلى إنسان يستبد به القلق اليومي من أجل مصيره وحياته التي يتهددها الخطر المستمر، وأصبحت تلك الأهداف النبيلة العظيمة التي جاء بها الإسلام لا تحفزه، وتبعث به إلى أن يضحي في سبيلها، بل تحول إلى إنسان تستبد به نزواته الشخصية ومنافعه القريبة، بل وخلقت منه إنساناً انتهازياً مرة مع هذا ومرة مع ذاك، حتى أصبحت جماهير المسلمين خاضعة خضوعاً أعمى لإرادة بني أمية، مسلوبة لحرية الاختيار الحقيقي وحرية التعرف على ضوء معتقداتها الإسلامية، وعلى الرغم من كل ذلك الارهاب والتجويع وتضييع الهوية فإن صيحات الاحتجاج والتململ كانت تسمع بين تارة وأخرى ولكنها كانت تختنق في مهدها بقسوة، «كتلك التي عبر عنها موقف حجر بن عدي وعمرو بن الحمق الخزاعي واضرابهما ولكنها لم تأخذ مداها، ولم تعبر عن نفسها في حركة فعلية عامة، بل كانت سرعان ما تهمد وتموت في مهدها، حين كانت السلطة تأخذ الطلائع لهذه الحركات فتقتلهم دون أن يحرك المجتمع ساكناً، وإذا حدث وتحرك إنسان اشتريَ سكوته بالمال»[1] .

ـ هذا هو الوضع النفسي والروحي والمعنوي الذي كان سائداً في فترة حكم معاوية وابنه يزيد الذي خلفه بالحكم، والذي أخذ له البيعة في حياته مبتدأ عصر الوراثة في الحكم الذي لم يقره الإسلام كمبدأ، وكانت الجماهير مقهورة محاربة يسلط الإرهاب عليها في كل جانب من جوانب حياتها، محرومة من الحرية، بعيدة عن السلطة في حقيقة دواخلها معها ظاهرياً، هذه الجماهير التي كانت تدفع من دمها يومياً ومن عرقها وكدحها ثمناً لهذه السياسة الظالمة المتجبرة، هذه الجماهير نفسها كان مطلوباً منها أن تدافع عن النظام وتحميه وتقاتل من أجله ضد أعدائه، على الرغم من إرادتها وإحساسها بأنها ليست لديها مصلحة بهذا الحكم أو ببقائه، بل كانت تتمنى الخلاص منه خلاصاً من العذابات والآلام التي تعيشها، فما أشبه اليوم بالبارحة .

ـ ظلّت سياسة معاوية هذه تلقي ظلالها الثقيلة على مجمل الوضع النفسي والاجتماعي لجماهير المسلمين إلى فترة طويلة مديدة، لم تقتصر على مدة الحكم الأموي، بل أيضاً كانت هذه السياسة تفعل فعلها حتى أيام الحكم العباسي الذي اتبع نفس الأساليب هذه، واستفاد مما أرساه معاوية وحكم الأمويين من أسس للتعامل مع الجماهير

---

(١) ثورة الحسين : محمد مهدي شمس الدين .

وخاصة المعارضة منها ، إلاّ أن هذه السياسة مرت بعصور مدّ وجزر ، أوقات قوة وضعف على ضوء الوضع الذي يمر به الحكم في كل مرحلة من مراحله ، من القوة إلى العنف ، التناحر الداخلي ، انتشار الدعوات السرية المناوئة، وكثرة الاضطرابات داخل أقاليم الدولة ، وتبعاً لذلك فقد قامت ثورات عديدة ومستمرة كانت في أغلب الأحيان تنتهي إلى الفشل، فمن ثورة التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي والمختار الثقفي بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام مباشرة، بل ان هاتين الثورتين كانتا بالأساس تهدفان إلى الأخذ بثأره، وكان شعارها « يا لثارات الحسين » ، إلى ثورة الإمام زيد بن علي وابنه يحيى، إلى سلسلة من الثورات التي قامت على امتداد العصر العباسي، كثورة محمد ذي النفس الزكية في الحجاز، وثورة إبراهيم بن عبدالله العلوي في البصرة »[1] وغيرها، وكانت الشيعة تتلقى أقسى أنواع الارهاب والتشريد والقتل بعد فشل كل ثورة من هذه الثورات ، خاصة بعد فشل ثورة زيد بن علي في الكوفة، حيث لقي أهلها أبشع أنواع البطش والتنكيل، فهربت قبائل كثيرة من العرب إلى إيران وسكنت مدينة قم الحالية . لذا فإن المجتمع الإسلامي عموماً، وأهل العراق بصورة خاصة ظلوا يتعرضون إلى هزات نفسية عنيفة ومستمرة، وإلى احداث شروخ هائلة في البناء النفسي المعنوي لجماهير المسلمين، ظلت تتراكم باستمرار مؤدية إلى تحطيم مؤسسات الدولة وضعفها وهزالها، حتى اصبحت غير قادرة على حماية نفسها من الأخطار الخارجية التي كانت تتهددها بعنف ، وقد وصلت مراحل العنف والوهن إلى درجة من الشدة أن أدت إلى انهيار الدولة واحتلال بغداد من قبل هولاكو وجيوشه المتوحشة، حيث أدى هذا الاحتلال البغيض إلى تدمير بغداد وقتل أهلها والفتك بهم بصورة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً ، إضافة إلى حرق كل التراث الثقافي والحضاري المتمثل بالآلاف من الكتب العلمية والأدبية التي كانت تحتويها المكتبات المنتشرة في بغداد .

:

(١) جهاد الشيعة : د. سميرة مختار الليثي ـ جامعة عين شمس . وإبراهيم المذكور هو أخو محمد ذو النفس الزكية .

الفصل الثاني

الوضع الاجتماعي في العراق تحت ظل الحكم الأموي

ـ لدراسة الحالة الاجتماعية التي كان يعيشها العراق تحت ظل حكم بني أمية ، أهمية قصوىٰ ، لأن الوضع الاجتماعي وطبيعة العلاقات السائدة فيه وأسلوب تعامل السلطة مع الجماهير وعلاقتها بهم ، يعطينا صورة حية لخلفية البناء المعنوي والروحي للعراقيين لفترة من أهم الفترات في حياة العراق ، تلك الفترة التي حفلت بالأحداث الجسام والثورات الدامية المستمرة ، وإذا علمنا بأن الحكم الأموي للعراق لم يشهد طيلة مدة حكمه تلك، أي مظهر من مظاهر الهدوء والاستقرار ، بل إن تاريخ العراق ظل يسجل حدوث ثورة ما إن تنتهي حتى تنمو بذور ثورة أخرى، إلى أن سقط النظام الأموي آخر الأمر ، وكان من أهم أسباب وعوامل سقوطه استمرار الصراع بين أهل العراق والسلطة ، الذي أنهكها وقوض دعائم الحكم الأساسية لديها . ولكي نحلل العوامل الفاعلة الرئيسة على الروح المعنوية لدىٰ الشعب العراقي في مرحلة حياته الراهنة ، يجب أن نعود إلى الوراء لنكشف العوامل التي كانت تؤثر في روحه المعنوية في فترات لاحقة لاهبة من حياته ، التي شكلت فيها فترة الحكم الأموي الأساس الذي بني عليه الظلم والجور والذي امتد إلى يومنا هذا ، الذي يشهد أبشع صور الممارسات الإرهابية والقمعية والتي تتشكل فيه صورته من عرق ودماء هذا الشعب الصابر ، وقد كانت حجة الطغاة على طول الدهر لاتباعهم تلك الأساليب والوسائل اللاإنسانية، إضافة إلى كونها بعيدة عن التعاليم الإسلامية ، هو أن الشعب العراقي شعب عنيد مشاكس متقلب المزاج لا يركن إلى الهدوء إلّا بالسيف ، أما حقيقة الأمر فإنها تتمثل في واقعها بأن الشعب العراقي هو الشعب الذي كتب عليه أن يواجه الظلم ويتحداه على امتداد التاريخ الإسلامي مدافعاً عن الحق والعدالة والحرية ، ومهما حاول البعض من الكتّاب ـ وهم مع الأسف كثيرون ـ أن يرجعوا الأسباب الحقيقية للثورات المتعددة التي قام بها العراقيون إلى أسباب غير علمية

وواقعية لأهداف تخدم أغراضهم وميولهم الشخصية، أو لخدمة من أمرهم بتدوين التاريخ والكتابة عنه وتشويهه ، نحن بحاجة إلى أن ندرس الوضع النفسي في فترة مهمة حافلة في حياة هذا الشعب الصامد، كي نقف على مفردات البناء المعنوي الروحي الذي تعيشه القوات المسلحة العراقية التي تشكل طليعة هذا الشعب ، لنسلط الضوء ساطعاً على سلسلة الصور المتعددة التي تتماثل الآن مع ما كان يرتسم في تلك الفترة من التاريخ ، والتي ظل أثرها ينعكس على كل حياة الشعب العراقي في الفترات اللاحقة إلى يومنا هذا .

ـ ولقلة المعلومات المتيسرة عن طبيعة الوضع الاجتماعي السائد في العراق تحت ظل الحكم الأموي ، ولكون ما أمكن الحصول عليه في أغلب الأحيان من مصادر تمثل في حالها انحيازاً في وجهات النظر التي تستند عليها تحليلات وآراء من كتب تلك المصادر ، إلَّا أننا توخينا أن نأخذ منها ما يمكن أن نعتبره الحد الأدنى من الانحياز والاعتماد على بعض النصوص التي يمكن أن تفيدنا في بحثنا ، والتي وردت في بعض المصادر التاريخية ، تلك النصوص التي جاءت في واقعها تدعم بحثنا على الرغم من كونها كانت ترد في مؤلفات كتّاب لم يكونوا على درجة من النزاهة والحياد ، عندما كانوا يكتبون ويدونون التاريخ ، واذكر من هذه المصادر كتاب (العراق في العصر الأموي) لمؤلفه الدكتور ثابت اسماعيل الراوي ، استاذ التاريخ المساعد في كلية الآداب ، جامعة بغداد ، الذي انطلق في القسم الأكبر من تحليلاته وتصوراته للأحداث التي مرّت بالعراق تحت ظل الحكم الأموي من خلفية معينة ، فرضت عليه الانحياز في تحليل أهم الأحداث تحليلاً ليس علمياً ، بل تأثر ، بتصوراته المسبقة عن مجمل الأحداث وأسبابها ونتائجها ، ولا أريد أن أُناقش بعض أفكاره ، ولكنني أردت أن أستعين بكثير من النصوص التي أوردها هو عن الوضع الاجتماعي السائد ، والحالة التي كان يعيشها أبناء العراق تحت الظلم الأموي ، التناقض الكبير الذي وقع فيه المؤلف، الذي أراد أن يكيف الحقائق التي لا تقبل الإنكار لتلائم تصوراته ، فلم يكن موفقاً في ذلك ، ولا بأس أن نتحدث بصورة مختصرة جداً عمّا أوقع الكاتب نفسه فيه من تناقض واضح وصريح ، فهو في كتابه هذا يعترف بأن الحكم الأموي اتبع أساليب شديدة من الارهاب والتسلط للسيطرة على العراق ، وكان العراقيون يعانون ظلماً شديداً بكل شرائحهم ، العرب ، الموالي ، أهل الذمة، بصورة منافية لتعاليم الإسلام ـ وقيمه وروحه ونبله ، إلَّا أنه وبدافع التصور المسبق الذي يرتسم في ذهنه ، لم يستطع أن يصل بالبحث إلى استنتاجاته التي لم تكن تتلاءم مع الحقائق التي أوردها ، فلقد انتهى إلى القول بأن الأمويين وولاتهم كانوا يهدفون إلى حماية الإسلام الذي كان يتعرض للهدم والتخريب

على أيدي أهل العراق.. فكيف إذن يستطيع أن يوفق بين حقيقتين متضادتين ، العراقيون يعاملون معاملة بعيدة عن الإسلام وروحه ، ولكن قاهرهم كان مسلماً وحريصاً على الإسلام ومفاهيمه؟ وهل يعقل أن يكون يزيد السكير الفاسق الفاجر مدافعاً عن الإسلام وقيمه ، وأن حجر بن عدي الكندي الصحابي الجليل عدواً للإسلام وساعياً إلى هدمه وتخريبه؟ حقائق صارخة لا تتحمل الجدل ، تُبدّل بأعصاب باردة وتطمس ، الجزار يصبح وديعاً مسالماً ، والضحية تصبح سفاكاً، هكذا بكل بساطة ، ومؤلف هذا الكتاب كغيره ممن كتبوا عن التاريخ الإسلامي ولم يستطيعوا أن يتخلوا عن عقدهم وأمراضهم النفسية التي تبعدهم عن كل بناء فكري وعقائدي سليم يساهم بصياغة التاريخ ، صياغة أصيلة خدمة للأجيال وتنويراً للأذهان ووضعها على طريق النور والصواب والحق .

ـ اعتبر الأمويون العراقيين مشكوكاً في إخلاصهم وأنهم يكنون العداء لنظامهم ، ويتحينون الفرص للانقضاض عليهم وتدميرهم ، ولأن العراقيين كانوا يناصرون الإمام عليًّا ويؤآزرونه عليهم ، لذا فإنهم قد عاملوهم بأساليب القسوة والإرهاب الشديدين ، إضافة إلى إفقارهم بانقاص حقوقهم ، أو فرض ضرائب عديدة وجديدة غير التي فرضها الإسلام عليهم ، وكان الولاة الذين يولونهم على العراق من النوع الذي لا تعرف قلوبهم الرحمة أو الشفقة ، وأغلبهم كان مشبعاً بالكراهية والبغضاء لأهل العراق ، لذا فإنهم كانوا يعاملونهم بكل أنواع القهر والقسوة والإرهاب ، والتمييز بينهم وبين غيرهم من أهل الشام الذين وقفوا مع معاوية ، آزروه ونصروه ، فحق لهم التمتع بخير الدولة ومالها وأرضها ، من زياد بن سمية الذي أذاق العراقيين أنواع القتل والعسف ، إلى ابنه عبيدالله الذي وصل به الكره للعراقيين إلى الدرجة التي أظهر فيه مقته حتى للأموات منهم، (والله لا أصلي على جنازة عراقي أبداً)[1] ، ثم هل ينسى العراقيون الحجاج بن يوسف الثقفي وما فعله بهم ، ولم يكن يوسف بن عمر الثقفي أقل كرهاً وقسوة على العراقيين من الذين سبقوه في ولاية العراق .. لقد كان العراقيون تحت ظل الحكم الأموي وولاته على العراق يشكلون في بلدهم وضعاً اجتماعياً رهيباً ، فهم مواطنون من الدرجة الثانية ، يقتل منهم الوالي والأمير من يريد ، ويهجر من يريد ، يرسل منهم إلى الحرب من يريد في الوقت الذي يعيش بين ظهرانيهم جيش من أهل الشام، يقف متحفزاً للوقوف بوجههم كلما أرادوا أن ينتفضوا للحصول على حريتهم واستعادة كراماتهم وحقوقهم ، والمطالبة بالعدالة والمساواة ، ولقد امتد هذا الإرهاب طيلة فترة الحكم الأموي التي امتدت إلى (٩٠) عاماً ، وباستثناء فترة خلافة عمر بن عبدالعزيز التي اتّسمت بالعدالة والعمل بروح

---

(١) الأغاني ، أبي الفرج الأصفهاني ، مجلد١ ، ص ٥٩.

الإسلام وقوانينه بقدر كبير ، فإن حال العراقيين لم تتبدل على الاطلاق حتى سقوط الحكم الأموي تحت مطارق الثوار التي كانت تطرق باستمرار على كيان الدولة ووجودها الذي لم يتحمل في نهاية الأمر هذا الزخم من الضغط الذي كانت توجهه عليه ، فانهار تماماً في خلافة مروان بن محمد الملقب بمروان الحمار ، والخلاصة فإن الثقة كانت محطمة تماماً بين سواد الناس المحكومين وبين الحاكم ، فالكراهية متبادلة ، وكل ينتظر أن يحطم الآخر ويدمره ، لقد كان صراعاً دامياً رهيباً بين الحق الذي تمثله حركة هذه الجماهير المسحوقة المحاصرة المطعونة في كرامتها ووجودها ، وبين الباطل الذي تمثله هذه السلطة التي لا تتهيب من ارتكاب أخس وأحقر الوسائل من أجل السيطرة والاستمرار في القبض على مقاليد الأمور، والتصرف بشؤون الدولة حسب رغباتها وأهوائها المخالفة للشرع والقانون الإسلامي .

ـ سأتحدث باتجاهين رئيسيين هما : وضع الموالي وأهل الذمة الذين كانوا يشكلون شريحة اجتماعية واسعة وكبيرة في مجتمع الكوفة، والذين ساهموا في فترات لاحقة في كل الأحداث والثورات التي قامت في العراق وخاصة الموالي منهم ، وذلك بسبب سوء المعاملة التي كانوا يلقونها من الولاة والأمراء الذين توالوا على حكم العراق خلال الحكم الأموي ، أما الاتجاه الآخر فهو الوضع داخل المؤسسة العسكرية في العراق وطبيعة التعامل الذي كان يجري فيها . وأعتقد بأن ما سنعرضه من حقائق ونتوصل إليه من تحليلات سيكون كفيلاً بأن يعطينا صورة عن الوضع الاجتماعي لمجتمع الكوفة ، وسنصاب بالعجب عندما نرى بأن ما كان يلاقيه العراقيون قبل ما يقرب من ١٤٠٠ عام هو نفسه ما يلاقيه اليوم ، وان وضع المجتمع العراقي وطبيعة العلاقات السائدة فيه والعقلية الجاهلية التي كانت تحكمه وتسيطر عليه متمثلة بسلطة بني أمية ، هو نفسه اليوم ، بل إن وضع المجتمع العراقي المعاصر ربما كان أشد بؤساً وتخلفاً مما كان عليه في ذلك الحين ، وذلك لأن وسائل القهر وتدمير النفوس تطورت أكثر بكثير مما كانت عليه ، لذا فإن النتائج التي أمكن الحصول عليها في أيامنا هذه فاقت في هولها وتدميرها تلك التي حصل عليها الأمويون ، إلاّ أن حالة اليوم هي امتداد طبيعي لبؤس الأمس .

ـ تعرض النبط وهم أهل العراق الأصليون إلى أقسىٰ أنواع التعامل والتمييز، وكان ينظر إليهم بأنهم من الطبقات الدنيا لاشتغالهم بالزراعة كحرفة كان العرب يحتقرونها ، مما أدىٰ أول الأمر إلى قلة عدد الداخلين منهم إلى الإسلام ، بسبب كونهم لم يستطيعوا أن يحتكوا بالفاتحين الذين كانوا يحتقرونهم، «وبسبب حرص بني أمية على جمع الأموال وجبايتها فهم ، تدفعهم رغبتهم في الإكثار من جمع المال بكل وسيلة ومن أي سبيل ،

أطلقـوا أيدي ولاتهم في العراق حتى يتمكنـوا من جمع الضـرائب غاضبين عنهم عسفهم وبطشهم ، وإجبار الناس على دفع الضرائب ، وقد لاقى المسلمـون الجدد عنتـاً وشدة ، إذ أجبـروا على دفع الجـزية التي يـرفعها عنهم دخـولهم الإسلام ، وقـد اشتهـر الحجـاج بقسوته وشدته إزاء المسلمين الجدد ، فارجعهم إلى قراهم التي نزحوا منها،وختم على يد كـل واحد منهم اسم القـرية التي أُعيـد منها إليهـا ، حتى يتمكن من جبايـة ما عليهم من ضرائب »[1] ، فهؤلاء لم يشفع لهم دخولهم في الإسلام كي تـرفع عنهم القيـود ويتساووا مـع غيرهم من المسلمين العـرب ، بل ظلّت السلطة تعـاملهم وكأنهم لم يسلمـوا، وتأخذ منهم الجزية كما لو أنهم ما زالوا كفّاراً ، ولقد كـانت الجزيـة عنوان الـذل والصغار والتي كانت تدفعهم إلى اعتناق الإسلام للتخلص منه،ومحاولة رفع أنفسهم من الطبقة الـدنيا في المجتمـع إلى طبقة أسيـادهم المسلمين وبذلـك يرتفـع مستـواهم الاجتمـاعي ، إضـافـة للتخلص من العقوبات التي كـانوا يتعـرضون لهـا عند تـأخرهم عن دفـع الجزيـة ، وعلى رأسها (حلق الرأس)[2] الذي يحمل معه ذلاً وهواناً وهدراً للكرامة الإنسانية ، كمـا كانـوا يتعرضون للتعذيب والضرب بالسياط بكل قسوة وشـدة ، أورد أبو عبيـد أن عياض بن غنم (رأى نبطاً يعذبون في الجزية)[3] ، وعندمـا أصبح عـدد الذين دخلوا الإسـلام كبيراً من أهل الذمة والموالي مما أصبح يهدد مستوى مدخول الدولة من الضرائب ، اتخذ الحجاج قراراً غريباً بعيداً عن روح الإسلام وتعاليمـه السمحة التي أتى بهـا الرسـول الكريم لكـل البشر ، فقد عمد إلى إبقاء الجزية على من أسلم من أهل الذمة والموالي ، «كما أمر بإعادة ومن أسلم منهم إلى قـراهم التي خـرجـوا منهـا ، وألـزمهم بـدفـع الجـزيـة عن رؤوسهم والخراج عن أراضيهم ، كتب إلى والي البصرة الذي كان يخضع له من كان له أصـلٌ في قـرية فليخـرج إليها ، فخـرجوا خـارج البصرة وهم يبكـون ويصيحـون يـا محمـداه ، يـا محمداه ، وجعلوا لا يدرون أين يذهبون »[4] . أمن أجل هذا جـاءت الرسـالة المحمـدية لتهدي البشرية؟ ولأجل هذا يهيمن بنو أمية باسم الإسـلام ، لا يـردعنهم وازع من ضميـر أو خـوف من الله وحرمـة دينه العـظيم ، وهل تحـول ولاة الأمر على المسلمين إلى جبـاة همهم جمع المال لإرضاء شهواتهم ، دون اعتبار لكل القيم والتعاليم الإسلامية؟ .

ــ عـومل غيـر المسلمين من الموالي والنبط بـأساليب تحط من كـرامتهم وتحطم نفـوسهم ، فبالإضـافة إلى الكثيـر من الضرائب التي أوجـدها الأمـويـون ممـا لم يـوجبه

---

(١) العراق في العصر الأموي، د. ثابت إسماعيل الراوي، ص ٧٩ .

(٢) الأموال، أبو عبيد ص ٤٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ٥٣ .

(٤) الأحكام السلطانية ، الماوردي .

الإسلام ، ومنها ضريبة دراهم النكاح والتي كانت تؤخذ من البغايا،وجزية الخمور وضريبة الخنازير[1] ، فقد أثقل العرب كاهل أهل السواد بفرض فروض عديدة والزموا بها الناس ، منها وجوب ضيافة أهل السواد للمسلمين الذين يمرون عليهم لمدة ثلاثة أيام ، كما فرضوا على الفلاحين السخرة في إصلاح الطرق والجسور والأسواق، وكان « يختم على رقاب أهل السواد في وقت جباية رؤوسهم حتى يفرغ من عرضهم ثم يكسر هذه الخواتم إذا سألوه كسرها »[2] ، وكان يفرض عليهم أن يرتدوا زياً معيناً يميزهم عن المسلمين ، وكانت تجز رؤوسهم ، ويأمرون أن يركبوا راحلاتهم عرضاً ولا يركبوا كما يركب المسلمون[3] ، كما كانوا يأمرون أن يصبغوا وجوه صبيانهم ، وغيرها من الأمور التي تحط من قيمتهم ، ولقد كان لهذه الاجراءات اللاإنسانية التي كان يتعرض لها الناس المسلمون الجدد منهم وأهل الذمة ، أثر كبير في خلق مجتمع يسود فيه التوجس والحذر والترقب ، مما ترتب عليه اشتراك عدد كبيرمنهم،وخاصة المسلمون الجدد في كل الثورات التي عمت العراق ضد الحكم الأموي ، والتي كان يقودها العرب من أعيان الكوفة والبصرة ، ومثل هذا المناخ الذي يشعر فيه الإنسان بالإجحاف والظلم يشجع على حدوث هزات وانتفاضات عظيمة وكبيرة ومتسعة ، كانت تأكل في كيان الدولة وتبدد جهودها وتلهيها ، ولم يسلم العرب أيضاً من الظلم والتمييز ، فقد كانوا يعاملون دون المعاملة التي يلقاها أهل الشام ، وعطاؤهم كان أقل منهم ، وتعرضهم للإرهاب والقهر يتصاعد ويشتد على أيدي ولاة بني أمية على العراق ، الذين كانوا يرونهم معادين للدولة ويجب إخضاعهم بالقوة والسيف لسلطان الحاكم في دمشق .

ـ عانى العراقيون كل أنواع الإرهاب والقسوة والإذلال على أيدي ولاة بني أمية ، الذين لم يتركوا وسيلة من وسائل القهر والإذلال والإرهاب لم يمارسوها بحقهم ، فأحسن هؤلاء الولاة كأن خالد بن عبدالله القسري ١٠٥ ـ ١٢٠ هـ ، الذي تولى ولاية العراق في خلافة هشام بن عبدالملك ، فأقل ما فعله هذا أنه كان يهدم المساجد، ويبني البيع ويولي المجوس على المسلمين وينكح أهل الذمة»[4] . أما بقية الولاة فإنهم فاقوا التصور بما قاموا به من أعمال تقشعر لها الأبدان، فلننظر إلى زياد بن سمية الذي تولى الولاية في خلافة معاوية بن أبي سفيان، ففي خطبة له عند تولي الامارة يقول مخاطباً العراقيين: (إني أُقسم بالله لآخذن الولي بالمولى . والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح منكم بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول انج سعد فقد هلك

---

(١) الأموال ، أبو عبيد ص ٤٦ .
(٢) الأحكام السلطانية : الماوردي ص ١٣٩ .
(٣) الخراج ، أبو يوسف ص ١١٧ .
(٤) الأمم والملوك الطبري جـ ٨ ، ص ٢٤٣ .

سعيد ، أو تستقيم لي قناتكم ، وقد أحدثتم إحداثاً لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن حرق على قوم حرقناه، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه، ومن نبش قبراً دفنته حياً ، فكفوا عني أياديكم وألستكم أكفف يدي وأذاي ، لا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلاّ ضربت عنقه ، وايم الله إن لي منكم صرعىٰ كثيرة ، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاي)[1] . هكذا كان يحرق الأخضر واليابس ، يقتل المتهم والبريء ، السقيم والصحيح الخ . . . دون وجه حق وعدل ، ويصبح كل العراقيين متهمين إلى أن يهوي السيف على رقابهم ، ينتظرون في حزن وألم وقلق وخوف اللحظة التي تزهق فيها أرواحهم ، ولم يختلف وضع العراقيين في فترة ولاية ابنه عبيدالله ، بل كانت وطأة الابن أشد من وطأة أبيه ، حيث توج أعماله الإجرامية بقتل الإمام الحسين (ع) وسبي آل بيت النبي الكريم وإرسالهم إلى الشام .

أما الفترة التي قضاها الحجاج والياً على العراق من سنة ٧٥ ـ ٩٤هـ، في خلافة عبدالملك بن مروان ، فقد « لاقى العراقيون في الفترة التي حكم فيها الحجاج العراق وهي مدة عشرون عاماً ألواناً من القسوة والبطش، لم يتعرضوا لمثلها في أي فترة من فترات الحكم الأموي »[2] . فقد كان الإجرام وحب القتل يسيران في عروق هذا الطاغية مع دمه ، وتدفعه شهوته للقتل والاجرام هذه، التي لا حدود لها، إلى القتل والتعذيب وممارسة كل ما يتنافى مع الإنسانية وقيمها ، فلم يترك وسيلة إجرامية إلاّ وتوسل بها لإذلال العراقيين وتحطيمهم . لم يكن موقف العراقيين المناوىء للحكم الأموي هو الدافع الوحيد لإرتكابه تلك الجرائم، بل إن هناك عوامل أخرى هي سلوكه الشخصي اللاسوي ، فهو كما وصف نفسه لعبدالملك بن مروان (لجوج حقود حسود) ، تراكمت في نفسه السوداء عوامل عديدة وجهته إلى الانتقام من العراقيين، إضافة إلى كرهه للعراقيين وإخلاصه الشديد لعبدالملك بن مروان ، فهو من النوع الذي يمكن تسميته (سادياً)، وهو المصطلح الذي يطلق على أولئك الذين يلتذون بقتل وتعذيب الآخرين بأعصاب باردة لا تتأثر لهول الجرائم البشعة التي يرتكبونها ، قال متوعداً ومهدداً العراقيين في خطبة له: (لألحونكم لحو العود، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولاضربنكم ضرب غرائب الابل، ولأقرعنكم قرع المردة)[3] . ويوغل في تهديده ويوضح لهم أنه مصمم على أن لا يترك السيف إلاّ بعد أن

---

(١) العقد الفريد، ابن عبد ربه ج ٤ ، ص ١٧٣.

(٢) العراق في العصر الأموي ، د. ثابت اسماعيل الراوي ص ١٧٦ .

(٣) مروج الذهب، المسعودي ج ٣، ص ١٣٤.

يروى من الدم ، ولم يخفِ الحجاج كراهيته للعراقيين ، بل إنه قد أخبرهم بأنه لا يطيق حتى النظر إلى وجوههم ، لولا أنه مجبر على تنفيذ طاعة الخليفة الأموي الذي أمّره عليهم ، من أجل أن يجلبهم إلى طاعته وقبول خلافته المغتصبة ، هذا الكره العميق هو الذي كان يسيّر الحجاج في سياسته القاسية تلك ، والذي وضعه في مصافِ أعتى وأقسى ولاة بني أمية على الاطلاق ، « فإنه لم يكتفِ بقتل الألوف من أهل العراق من النساء والرجال وحبس الآخرين وتشريدهم ، بل نظر إلى أقل من هذه الأمور شأناً ، فكان يمنع العراقيين من الطعام الذي كان يقدمه كل يوم ، وكان يخص به أهل الشام دون أهل العراق)[1] ، إمعاناً في إذلالهم وتحطيم نفوسهم وتحقيرهم ، ولم يكن بقية الولاة الأمويين على العراق أقل قسوة وإجراماً وحشية من الآخرين ، فالأساليب نفسها ، والقتل والذبح والإذلال والاحتقار ظل يمارس إلى آخر يوم انتهت فيه سلطة الأمويين على العراق ، حالة من التنافر والكراهية المتبادلة بين جموع الحكومين من جهة ، والحاكمين الغاصبين الذين يعتبرون هذه الجموع ملكاً لهم يتصرفون بهم كيفما يشاؤون ، من جهة أخرى ، يقتلون ويذلون دون حساب أو رادع من ضمير أو خليفة يشعر بأن واجبه المحافظة على الرعية والتعامل معها بروح الإسلام وتعاليمه الكريمة .

ـ اتبع الأمويون سياسة خاصة فيما يتعلق بتصريف أمور الجيش والمقاتلين في العراق ، فقد كان الولاة الأمويون يرسلون الجيوش من أهل الكوفة إلى الشرق للتخلص منهم ومن قادتهم ، ويأمرونهم بالبقاء في المناطق التي فتحوها ، يزرعون الأرض ويعمرونها ، يظلون فيها ماكثين ، وبهذا يكون الولاة قد قاموا برمي عصفورين بحجر واحد ، فإذا استطاعت تلك الجيوش أن تفتح أمصاراً جديدة ، فإنهم سوف يستفيدون منها بجباية أموال جديدة تدرّ عليهم ، وإن لم تستطع تلك الجيوش أن تفتح أراضي جديدة وأُصيبت بالهزيمة ، فإن من قتل منهم يعتبر ربحاً للولاة ، لأنهم قد تخلصوا من عدو آخر . وقد كان قادة الجيوش الكوفية يحسون في قرارة أنفسهم بهذه الحقيقة ، وإن السلطة الأموية ترسلهم للفتح للتخلص منهم ، وقد كانوا في أحيان كثيرة يتمردون ويثورون على الولاة والسلطة الأموية ، فيقفلون عائدين حاملين معهم التمرد والثورة والغضب .

على أثر النكبة التي أصيب بها الجيش الكوفي على يد رتبيل ملك سجستان سنة ٧٩ هـ بقيادة عبيدالله بن أبي بكره ، أثرت هذه النكبة في نفس عبدالملك بن مروان

---

(١) العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، جـ٣ ، ص ١٧٩ .

والحجاج الذي عزم على الانتقام من رتبيل وفرقه ، فجهز جيشاً تعداده أربعون ألفاً ، عشرون ألفاً من أهل الكوفة، وعشرون ألفاً من أهل البصرة بقيادة عبدالرحمن بن الأشعث . والذي كانت علاقته مع الحجاج يسودها التوتر ، فقد كان الأشعث يحمل كراهية أكثر وأشد ، وكان يضمر في نفسه عزماً على اضعاف الحجاج والتخلص منه ، وكان ينتظر في سبيل ذلك الفرصة الملائمة للانقضاض عليه ، كما كان الحجاج يتوخى من إرساله على رأس تلك الحملة أن يتخلص منه لأنه كان « يتعالى بنفسه ويشمخ بأنفه ، ويرى نفسه حقيقاً بالملك »[1] . تقدم ذلك الجيش في بلاد سجستان في سنة ٨٠ هـ، وكان يحتل البلدان الواحد تلو الآخر ، ولكنه كان يتريث في تقدمه ، فبعد أن يقوم بترصين وضعه في المناطق المفتوحة حديثاً ويأمن عليها ، ينتقل إلى تقدم جديد ، وكان عمله يستغرق وقتاً طويلاً يصل إلى عام تقريباً ، مما كان يزعج الحجاج الذي كان يريده أن يتقدم سريعاً لمواجهة ملك الترك والدخول معه في معركة فاصلة يدمره فيها وجيشه ، وقد أرسل الحجاج إليه كتاباً فيه « أن يتبع أوامره ويتقدم بسرعة لمحاربة رتبيل وأما ان يسلم قيادة الجيش إلى أخيه إسحٰق بن محمد »[2] . اعتبر بن الأشعث هذا الأمر تدخلاً فظاً في شؤون لم يكن الحجاج على اطلاع تام بها . إن القائد الميداني هو الذي يملك التصور الحقيقي عن الموقف ، أما أولئك الجالسون في الخلف ينتظرون أن يقطفوا ثمار النصر ، فهم لا يهتمون لهذه الاعتبارات كثيراً ، وكل اهتمامهم هو الحصول على المغانم ، وإذا علمنا بأن الحجاج قد أمر الأشعث أن يأمر ذلك الجيش بحرث الأرض وزرعها والإقامة فيها حتى يكملوا فتحها ، فإن الأشعث وجيشه قد حزّ في نفوسهم أن يلمسوا النيات الدنيئة للحجاج الذي كان يهدف إلى إبعادهم عن أهلهم وبلادهم في هذه البلاد البعيدة في سبيل تثبيت سلطانه ، لذا فإن الأشعث قد استغل شعور الجيش للحجاج وألّبهم عليه ، وقد وجد أثراً كبيراً بين صفوفهم وتجاوباً صريحاً وكبيراً معه ، قال أحد القادة من جيشه مخاطباً جنوده: «أما بعد فإن الحجاج والله ما يرى بكم إلاّ ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه : احمل عبدك على الفرس ، فإن هلك هلك ، وإن نجا فلك ، إن الحجاج والله ما يبالي أن يخاطر بكم فيقحمكم بلاداً كثيرة اللهوب واللصوب ، فإن ظفرتم ففتحتم أكل البلاد وحاز المال ، وكان ذلك زيادة في سلطانه ، وإن ظفر بكم عدوكم ، كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذي لا يبالي عنتهم ولا يبقي عليهم ، اخلعوا عدو الله الحجاج »[3] .

---

(١) الأمم والملوك، الطبري جـ٨ ، ص ٤ .

(٢) المصدر نفسه، جـ٢ ، ص٨ .

(٣) المصدر نفسه، جـ٢ ، ص ٩ .

هذه الصورة عن طبيعة العلاقة التي تربط هذا الجيش الذي يقاتل في مناطق بعيدة عن أهله ووطنه لخدمة السلطة المركزية ، فالمقاتل يدرك جيداً بأن السلطة تعتبره عبداً لها فتأمره بالقتال والفتح ، فإن مات فليمت ، وإن ظل حياً فإنه سيموت في معركة أخرى، أو على يد الجلادين عند عودته إلى أهله ، والحجاج لا يبالي بهم وبمصائرهم فهو يريد أن يحقق له المغانم والفتح حتى يصبح سلطانه أكثر قوة ومنعة ، لذا فإن الجيش قد هبَّ عن بكرة أبيه مؤيداً عبدالرحمٰن بن الأشعث الذي قفل عائداً إلى الكوفة للقضاء على الحجاج والحكم الأموي برمته إن استطاع أن يصل إلى ذلك . فقد تحرك عام ٨٢ هـ متجهاً إلى العراق منتصراً على كل قوة أرسلها الحجاج لإيقافه ، يدفع جيشه الحماس والشوق إلى الوطن ولقاء عدو الله الحجاج ، وكان أن تطور أمر الأشعث الذي انتصر على الحجاج على الرغم من التعزيزات التي أرسلها له عبدالملك من الشام ، فاضطر إلى الهرب إلى البصرة تاركاً الكوفة بعد أن تمّ تدمير جيشه في معركة دجيل ، وقد كان للتذمر السائد بين أوساط العراقيين لشدة وطأته عليهم أثراً كبيراً على تطور الأحداث ، فقد التحق عدد كبير من أعيان الكوفة وأهلها بالأشعث انتقاماً من الحجاج ، واتسع خطر الأشعث بعد أن وردت عليه البعوث من كل المناطق تبايعه وتؤآزره ، مما اضطر عبدالملك للتفاوض معه لوقف القتال بشروط معيّنة منها تركهم الحجاج ، وأن تجري على العراقيين أعطياتهم ، وأن ينزل ابن الأشعث أي بلد يريد ويكون أميراً عليها ، فشلت المفاوضات بعد أن رفضها العراقيون عندما شعروا بأنهم قادرون أن يأخذوا حقوقهم بأيديهم وبالقوة ، ولم يكن بد من القتال ، فالتقى جيش الكوفة مع جيش أهل الشام عام ٨٣ هـ في معركة رهيبة طاحنة ، سميت بمعركة دير الجماجم ، انتهت بفوز أهل الشام وانتصار الحجاج ، التي كانت تهدف إلى رفع الظلم والحيف الذي أصاب العراقيين نتيجة لسياسة التمييز بين المسلمين .

ـ ولقد عبّر الشاعر الذي يصف حاله وهو بعيد عن أهله ووطنه في هذه الأبيات عن مشاعر كل المقاتلين الذين يعانون مثله من الغربة والبعد :

أفي كل يومٍ غربةٌ ونزوح ... أما للنوى من أوبةٍ فنريحُ

لقد طلّح البين المشد ركائبي ... فهل أرين البين وهو طليحُ

وأرقني في الري شجو حمامةٍ ... فنحتُ وذو الشجو الشجي ينوحُ

وناحت ولم تذرف من الدمع قطرة ... ونحت وإذرافي الدموع سفوحُ

ـ لم يقتصر إرسال أهل العراق في الفتوحات لفترات طويلة والطلب إليهم بالتوطن في المناطق المفتوحة للتخلص منهم ، بل إن الولاة كانوا يطلبون منهم مقاتلة

الخوارج الذين كانوا يثورون بين فترة وأخرى ، وعلى الرغم من أن أعداد الخوارج كانت قليلة ، ولكنهم كانوا يقاتلون ببسالة عظيمة ، بحيث كانوا يحققون انتصارات كبيرة على قلة عددهم ، إلَّا أن العراقيين كانوا لا يميلون إلى قتال الخوراج برغبةٍ منهم في القضاء عليهم ، بسبب كونهم غير راغبين في تقوية السلطة أو الدفاع عنها ، إضافة إلى أن الخوارج هم من أهل العراق وتربطهم علاقة قرابة بهم ، فأغلب الخوارج وقادتهم من القبائل العربية التي تسكن العراق ، لذا فإن أهل الكوفة عندما يرسلون لقتال الخوارج لم يظهروا أية حماسة في قتالهم لهم ، بل إنهم كانوا يتركون ساحة المعركة ويركنون إلى الفرار عند أول لقاء ، إلَّا أن توسع خطر الخوارج كان يضطر الحجاج وغيره من الولاة إلى دفع العراقيين لقتالهم ، وان حدث ان وجد نفسه أمام تمرد العراقيين إذا ما استعان بهم لمقاومة حركات الخوارج وثوراتهم ، فإنهم غالباً ما يتركون ساحة المعركة دون قتال ومستسلمين لهم من أول لقاء»[1] . وليس ذلك مستغرباً ، لأن من يطلب منه أن يقاتل ويدفع حياته ، يجب أن يجد في نفسه من الدوافع المقنعة التي تدفعه لهذا العمل ، وحالة من الانفصام الفكري والروحي تبعد الحاكم المتجبر والجماهير التي لا تجد لنفسها سبباً في الدفاع عنه والتضحية في سبيله ، هذه الحالة سوف تقف حائلاً أمام المقاتل لأن يدفع كل ما لديه ، بل أغلى ما لديه عندما تحل ساعة الخطر ، والعراقيون ظلوا يعيشون هذه الحالة بصورة مستمرة منذ قديم الأزمان وإلى يومنا هذا .

ـ تابع ولاة العراق الذين جاءوا بعد زياد بن أبيه سياسة تشكيل الجيوش ، وإرسال العراقيين في البعوث البعيدة وقد أجبروهم على الخروج. وبعد أن كان زياد ابن أبيه ينفذ سياسة معاوية بإرسال العراقيين في أعمال الفتوح ليخلص من شرهم ويلهيهم عن المعارضة والثورة ، حيث أرسل في إحدى المرات «٥٠» ألفاً منهم نصفهم من أهل الكوفة والنصف الثاني من أهل البصرة ، لم يتمكن الولاة بعده من مواصلة تلك السياسة بسبب كون العراقيين بدأوا بالتقاعس، «فجعلوا يتقاعدون عن الذهاب إلى الفتوحات مما اضطر الولاة إلى العمل بالتجنيد الإجباري »[2] . وأول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف الثقفي ، حيث أمرهم بالخروج وتوعد من يتخلف منهم بالموت ، وقد كانت حملات التجنيد الإجباري تأخذ طابعاً وأبعاداً واسعة شملت كل القادرين على القتال دون استثناء، حتى أن التجنيد الإجباري شمل الأحداث والصبيان (فقد ضرب البعث على المحتملين ومن أنبت من الصبيان،فكانت المرأة تجيء إلى ابنها وقد جرد فتضمّه إليها وتقول بأبي

---

(١) الممالك والأمم ، الطبري ، جـ ٧ ، ص ٢٩٢ .

(٢) العراق في العصر الأموي د. ثابت اسماعيل الراوي ص ١٠٠ .

جزءاً فسمى ذلك الجيش جيش «بأبي»[1] . كما وأن الجيش الكوفي المرسل إلى الفتوح كان يضم (عشرين ألفاً من الموالي يحاربون بدون عطاء، ومثلهم من أهل الذمة يؤخذون بالخراج)[2] ، أي أن الجيش كان يضم في واقعه خليطاً من الناقمين والساخطين على الدولة الأموية وولاتها ، وعلى هذا فالدوافع التي كانت تدفع هذا الجيش إلى التمرد والثورة متعددة وكثيرة ، منها سخط العراقيين بصورة عامة على الولاة، وكرههم لهم بسبب سوء المعاملة وشدة وطأة هؤلاء عليهم ، اضافة إلى شعور عامة المقاتلين بالغبن والتمييز .

ـ هذا ما كان يلاقيه العراقيون جميعاً ، العرب والموالي من النبط وأهل الذمة ، أما أهل الشام فكان يجلب منهم جيش تعداده «٢٢٠» ألفاً من المقاتلين ، واجبهم ينحصر في حماية الوالي من غضب وثورة أهل العراق ، حيث كان هذا الجيش يسكن مع الوالي قرب قصر الإمارة في الكوفة أو البصرة ، يستلم رواتبه شهرياً كما يفعل الجنود المرتزقة في وقتنا الحاضر ، غريب عن أهل البلد ، بل إن وجوده يشكل في نظر العراقيين وجوداً قهرياً تسلطياً ماثلاً أمام أعينهم ، في الوقت الذي يضطرون فيه إلى ترك ديارهم وأهلهم للاشتراك في الحملات والفتوح تعزيزاً لسلطان الوالي وقوته وتسلطه وتجبره ، كما يحرم أعداد كبيرة منهم من حقوقهم التي تفرضها مشاركتهم في الحرب والقتال ، « فعندما بنىٰ الحجاج مدينة واسط كان معه من الجنود الشامية (٢٠) ألف مقاتل يحمونه ويقفون ضد كل تحرك أو ثورة ينشد العراقيون من ورائها التخلص من الظلم والقهر المسلط عليهم ، وكان مع خالد بن عبدالله القسري والي العراق في الكوفة (١٠) آلاف من الجنود الشامية»[3] ، يقفون معه ضد أي تحرك يقوم به أهل الكوفة ، لقد كان في العراق نوعان من الجيوش ، الأول جيوش الحكام المدللة المتمثلة بجيوش أهل الشام الذين يسكنون في مراكز الحكومة في الكوفة والبصرة وواسط ، ينعمون بالرفاهية والراحة والعطاء المتواصل المضمون ، وجيش آخر ، جيش الدرجة الثانية ، واجبه أن يترك أهله ووطنه ويتغرب بعيداً ، كي يؤمن الثروة والسلطان للحكام وولاتهم ، مما سبب أن تسود حالة دائمة من الشعور بالعداء والكراهية بين هاتين القوتين والتي غالباً ما كانت تؤدي إلى التصادم المستمر بينهما .

---

(١) التمدن الإسلامي ، جرجي زيدان جـ ١ ، ص ١٤٥.
(٢) الممالك والأمم ، الطبري جـ ٨ ، ص ١٣٤.
(٣) الممالك والأمم ، الطبري جـ ١ ، ص ٧٦ .

ـ لقد كنت أرغب بإلحاح أن أوقف القارىء الكريم على الوضع الاجتماعي، وبالقدر التفصيلي الذي تتيحه لنا المصادر التاريخية التي غالباً ما كانت تمر على هذه النقاط الحيوية والمهمة مروراً سريعاً ، لأنني أرى من الضرورة لأن يكون البحث أكثر تكاملاً وجدية ، ولقد جهدت لمتابعة هذا الأمر ، وقد وجدت بأن فترة الحكم الأموي للعراق من أهم الفترات التي مرّ بها العراق ، ليس فقط لجسامة الأحداث وعمق التأثير الذي أحدثته ، أو قسوة الإرهاب والتعسف الذي كان يسود المجتمع ويكبله ، بل إن تلك الفترة هي التي أرست الأساس للتعامل مع العراقيين في المراحل اللاحقة التي تلت الحكم الأموي إلى يومنا هذا ، حيث يعيش العراق ظروفاً مشابهة تقريباً ، وأرجو أن أكون قد وفقت في هذا المجال ، وليس معنى تركيزنا على الفترة التي عاشها العراق في العصر الأموي أن العصور اللاحقة التي مرّت بالعراق، لم تكن خاليه من ظروف مشابهة للظروف التي عاشها في العصر الأموي ، بل إن العراق ربما قاسى في مراحل لاحقة تلت الحكم الأموي أشد الأهوال وأكبر المآسي ، إلاّ أننا نرى أن نطلع القارىء الكريم على نموذج للظروف السائدة حينذاك ، ولنا أن نتصور أثرها الكبير على بناء الروح المعنوية والتفاعل مع الأحداث التي كانت تعصف بحياة العراقيين ، وهي حالة ظلّت شائعة باستمرار ، توجها سقوط الدولة العباسية على أيدي المغول واحتلالهم لبغداد ، وعمق الدمار والتخريب الذي أحدثه هذا الاحتلال ، ولم يكن الوضع المأساوي الذي وصل إليه الشعب العراقي والشعوب الإسلامية بصورة عامة بعيداً عن الظروف الاستثنائية التي كان يمر بها العراق عندما أشرف على السقوط ، وهنا أجد نفسي ملزماً مرة أخرى إلى أن أتوقف طويلاً عند البحث عن العوامل زالأسباب الحقيقية التي فعلت فعلها في انهيار العراق وسقوطه ، وتحليل الوضع النفسي والمعنوي والاجتماعي الذي كان سائداً عشية احتلال بغداد ، لقد مثل سقوط بغداد قمة الانحلال الحضاري والخلقي لدولة بني العباس ، ووصول المجتمع العراقي إلى أدنى حالة من التفكك الاجتماعي والمعنوي.

---

(١) الحومرد من أهل الموصل أول وزير خارجية لثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ الدكتور عبدالجبار .



الفصل الثالث

سقوط بغداد

الوضع الاجتماعي عشية الاحتلال المغولي لبغداد :

ـ مثّل سقوط بغداد عام ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨م ذروة الانحطاط المعنوي والمادي للأمة ، إذ أن حدوث هذا الانهيار الخطير لم يكن ناجماً عن نقص الموارد المادية وقلّة السلاح والرجال ، وإنما كان يرجع في أسبابه الرئيسية إلى شيوع حالة التفكك في المجتمع وضعف القيادة وانشغالها بملذاتها وشهواتها وابتعادها عن التفكير الجاد والحازم بكل ما يؤمن وسائل القوة والمنعة ، والتهيؤ والاستعداد لمواجهة الخطر المقبل الكبير الذي أصبح يشرف على العراق،بعد أن اجتاح ساحات شاسعة من أرض المسلمين ابتداءً من بخارى وحتى مشارف بغداد ، أي أن انهيار القوى المعنوية للأمة والتي وصلت إلى درجة أصبحت لا يمكن معها اتخاذ كل ما يؤدي إلى المحافظة على شرفها وكرامتها ، هذه القوى قد انهارت قبل أن تسقط بغداد نفسها فعلاً ، وعلى الرغم من أن جيوش المغول كانت تكتسح إمارة بعد أخرى ، ودويلة أثر دويلة ، فإن أولي الأمر في بغداد لم يكونوا يفكرون في العمل استراتيجياً ، فيعملون إلى وضع الخطط الكفيلة ببناء وترصين المقاومة وبعث الصمود في الجبهات البعيدة عنهم في إيران ودعمها . فلقد كان أجدر بالخليفة العباسي أن يتصل بكل القوى التي كانت تقاوم الغزو المغولي ليشكل منها جبهة قوية تمتلك عمقاً استراتيجياً يستنزف قوى المغول بالتدريج ، مما يتركهم آخر الأمر عاجزين عن مواصلة اجتياحهم لبلاد المسلمين ، بل إن ما جرى هو العكس تماماً ، فقد كان الخليفة في بغداد المستعصم بالله يطلب من المغول أن يكتسحوا حصون الاسماعيليين ، الذين كانوا صامدين في قلاعهم القريبة من قزوين يقاومون ببسالة منقطعة النظير ، وكان يشجعهم على ذلك حيث كان يسميهم الملاحدة، كأنّ المغول كانوا من الموحدين الذين يرفعون راية الإسلام ينشرونها على كل الأرض ، كما ساهم بعض علماء الدين، ومنهم قاضي قضاة المسلمين شمس الدين القزويني في إثارة منكوقا آن ملك

المغول على الانتقام من الاسماعيلية ، مذكراً إيّاه بأخذ ثأر جده جنكيزخان الذي صمد بوجهه الاسماعيليون ومنعوه عن قلاعهم[1] . وفي الوقت الذي تغيب فيه استراتيجية العمل الإسلامي الموحدة ، كانت المسيحية في الغرب تواصل اتصالاتها مع المغول بهدف إنشاء تحالف مسيحي ، مغولي ، الأول يطبق على الأرض الإسلامية من الغرب ، حيث كانت الحروب الصليبية في ذلك الحين يشتعل أوارها ، والثاني يخترقها من الشرق ناشراً الدمار والخراب في مدنها وحواضرها وقراها وسهولها . فقد ارسل لويس التاسع ملك فرنسا عام ٦٥٠ هـ ـ ١٢٥٢م بعثة خاصة إلى ملك المغول منكوقا آن ، تحركت من عكا إلى القسطنطينية إلى أن وصل إلى قراقورم عاصمة المغول ، حيث كان الهدف إنشاء حلف مغولي ـ مسيحي لحصر العالم الإسلامي وتدميره ، كما أن مسيحيي غرب آسيا كانوا يحرضون الخان ويرسلون إليه الرسل للإسراع بمهاجمة المسلمين ، ومبدين له استعدادهم التام للتعاون معه والقتال إلى جانبه .

ـ كل ذلك يجري والجبهة الداخلية في بغداد ، قلب العالم الإسلامي ، يجري تدميرها وتحطيمها على أيدي من بيدهم أمور الدولة ، كابن الخليفة أبو بكر وقائد الجيش ، ففي الوقت الذي كان فيه الخطر يدق بيديه الرهيبة على أبواب بغداد ومشارفها ، كان القادة ينشغلون ويشغلون معهم الشعب كله ، منهمكين في تشجيع النزاعات الطائفية والمذهبية (والهجوم بفريق من الشعب على فريق آخر بقيادة ابن الخليفة فيحرقون وينهبون ويسفكون الدماء ويسبون النساء المسلمات ويوالون ذلك مرات ومرات)[2] . ففي عام ٦٥٤ هـ ـ ١٢٥٦م تمّت استباحة محلة الكرخ في بغداد بأمر من الخليفة على يد الشقي الكرخي الذي قتل أحد سكان محلة قطنا السُنية ، كما أن إيقاف الاستباحة بعد أن أفلت زمام الأمور من يد الحكومة بتسلط الغوغاء وأهل الفوضى ، إنما صدر من قبل الخليفة أيضاً ، ولقد قام ابن الخليفة المدعو أبو بكر وقائد الجيش الدويدار الصغير بقيادة تلك الحملة ، حيث تمّ فيها قتل الآلاف من الناس ونهب الأموال وهتك الأعراض وسبي النساء[3] . حيث استمرت حوادث العنف والقتل تلك لعدة أيام ، نعم لقد نفذ هؤلاء أبشع الأعمال بحق أهل بغداد قبل أن يدخل عليهم المغول ليذيقوهم مرة أخرى مرارة الأهوال والآلام والقتل والتدمير ، حيث لم يفرقوا عندها بين أهل الكرخ والرصافة ، بل عملوا فيهم جميعاً ذبحاً وتقتيلاً ونهباً وحرقاً ، لقد كان الأجدر بهؤلاء

---

(١) الغزو المغولي ، حسن الأمين .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق ، انظر حوادث استباحة الكرخ ص ٢٣ .

الحكام أن يضعوا وحدة الشعب أمام أنظارهم في تلك الأوقات الحرجة ويبذلوا كل جهد من أجل المحافظة على الجبهة الداخلية من التصدع ، وتقوية الجيش وتهيئته للقتال والدفاع عن حرمة المسلمين وحياض ديارهم وتراثهم وشرفهم .

ضعف الخليفة وانغماسه بالملذات :

ـ لم يكن الخليفة المستعصم بالله يملك تصوراً حقيقياً عن الأوضاع المحيطة بأطراف العراق وحجم الأخطار المحدقة بالأمة ، وقد عرف بانغماسه بالملذات والمجون ، فعندما دخل هولاكو بغداد بعد احتلالها ، كان المستعصم يمتلك حوضاً من الذهب الوهاج الأحمر أخفاه في قصره ، وسبعمائة غانية من الجواري ، وألف خادمة[1] . كانت تشغله عن العمل الجاد المثابر للمحافظة على الدولة وتسييرها بالطريقة التي تكفل تصريف أعمالها بصورة مقبولة ، إضافة إلى ضعف شخصيته ، فلم تكن لديه خطة معيّنة تجمع حولها القادة والشعب جميعاً لضمان وقوف الأمة بكل طاقاتها وإمكانياتها ضد الخطر المحدق بها ، ففي المؤتمر الذي عقد في دار الوزير ابن العلقمي والذي حضره قادة الدولة وأركانها، وكان أكثرهم من العسكريين للتشاور فيما يمكن عمله لدرء الخطر الداهم ، وكانت الغاية من المؤتمر هي الخروج بقرار واضح على تثبيت خطة واضحة ومنهج للعمل ، لقد فهم الوزير وبقية المؤتمرين بأن الخليفة غير متفهم لدقة الموقف وحراجة الظروف التي تمر بها البلاد ، لأن الخليفة كان يعتمد في مناقشاته السابقة على صداقة مزعومة تربطه مع هولاكو، والتي يمكن أن تمنعه من الهجوم على بغداد، (لا تخشىٰ القضاء المقبل ، ولا تقل خرافة ، فإن بيني وبين هولاكو وأخيه منكوقا آن صداقة وألفة لا عداوة وقطيعة ، وحيث أنني صديق لهما ، فلا بد أنهما أيضاً يكونان صديقين وموالين لي)[2] . وهكذا خاطب الخليفة وزيره الذي كان يحثه على التهيؤ والاستعداد لصد الغزو المغولي ، ويبدو واضحاً بأن الخليفة لم يكن يتمتع بالإدراك الواسع لحقيقة ما جرىٰ للأمصار التي تقع شرق العراق ، وكيف انتهت إلى ما انتهت إليه من خراب وتدمير . وبعد الإلحاح الكبير من قادته في هذا المؤتمر والذين كانوا يطالبونه بإعلان حالة النفير العام واستدعاء كل من يستطيع حمل السلاح للالتحاق بالجيش ، وتهيئة ما يحتاج ذلك العمل من الأموال والتجهيزات والسلاح ، اضطر الملك إلى قبول هذا الأمر وطلب من

---

(١) جامع التواريخ ، رشيد الدين فضل الله الهمذاني ص ٢٩٢ ، من الترجمة العربية ، نشر وزارة الثقافة والإرشاد بالقاهرة .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .

وزيره أن يترأس حملة النفير هذه ويشرف على التطوع وتنظيم الجيش ، وأعلن عن موافقته واستعداده لصرف كل ما يحتاجه هذا العمل من المال ، وقد أمره أيضاً أن يستعرض الجنود أمامه عند تقدم حملة النفير واتساعها ليقف هو شخصياً على المدى الذي وصلت إليه جهود المسؤولين في دولته ، (أمر الوزير العارض بأن يعرض الجنود بالتدريج فوجاً فوجاً ليصل إلى تعبئة الجنود في حضرة الخليفة ، إلى البعيد والقريب والترك والعرب ، فتفتر عزيمة العدو ، وبعد خمسة أشهر أبلغ العارض الوزير أن الجند قد صاروا عدداً وفيراً وجيشاً جراراً ، وأن على الخليفة أن يمنح المال ، فعرض الوزير الأمر على المستعصم ولكنه اعتذر)[1] . نعم لقد اعتذر الخليفة عن دفع مرتبات الجنود وما يحتاجون إليه من المال، بينما كان يذيب الذهب في أحواض في قصره ويخفيها عن الناظرين ، ومما يثير الأسى في النفس أنه رفض أن يجود بالمال المطلوب لإعداد الجيش وتنظيمه ، بينما نراه وقد أُرغم بعد أن دخل المغول بغداد لأن يكشف لهولاكو عن حوض مملوء بالذهب في ساحة القصر ، فحفروا الأرض إلى أن وصلوا إلى موقع الحوض وكان مليئاً بالذهب الأحمر وكله سبائك تزن الواحدة مائة مثقال ، لقد وقع ما جمعه خلفاء بني العباس خلال خمسة قرون في أيدي المغول الذين وضعوه بعضه على بعض فكان كجبل فوق جبل ، لقد كان الخليفة ، الذي يفترض فيه أن يكون أكثر مسؤولي الدولة حماسة واندفاعاً ، كان يظهر عجزاً وأنانية وضحالة في التفكير، مما شكّل عقبة رئيسية في الوقوف أمام الزحف المغولي ، وقد كان يقول (إن بغداد تكفيني ولا يستكثرونها عليَّ إذا نزلت لهم عن باقي البلاد ، ولا أيضاً يهجمون عليَّ وأنا بها وهي بيتي ودار مقامي)[2] . بهذه الصورة كان يفكر من بيده مقاليد قيادة الأمة ، لقد رفض تمويل الجيش معتقداً بأن المغول سوف لن يقتربوا منه ومن ملكه الفاني ، لقد كانت تسيطر عليه غرائزه الدنيئة وحبه لجمع المال والجواري والخدم ، التي لم يستطع أن يحتفظ بها آخر المطاف ، بل لم يستطع أن يحتفظ برأسه ، فقد أطاح به هولاكو وبرؤوس عدد كبير من أسرته التي كان يعتقد بأن من يقترب منها فإن الموت سيخطفه ، فقد كتب رسالة جوابية إلى هولاكو الذي هدده بالتوجه إلى بغداد لاحتلالها وإسقاط الحاكمين فيها ، وتدميرها وقتل وسبي أهلها ، كتب له يقول: (ومهما قصد ذو السطوة من الملوك وأصحاب الشوكة من السلاطين ، فإن بناء هذا البيت ـ يعني بني العباس ـ محكم للغاية ، وسيبقىٰ إلى يوم القيامة)[3] . إلى أن

---

(١) جامع التواريخ ص ٢٧٤ .

(٢) تاريخ مختصر الدول لابن العبري ص ٢٥٥ .

(٣) جامع التواريخ ، رشيد الدين فضل الله الهمذاني ص ٢٧٥ .

يقـول له بعـد أن يستعرض في رسـائله أسماء الملوك والأمـراء الذين قصـدوا بغـداد ، ثم هلكوا ، إما بإصابتهم بنوع من الأمراض أو أنهم لم يوفقوا تماماً في أمـرهم ، (فليس من المصلحـة أن يفكر الملك في قصـد أسـرة العبـاسيين ، فـاحـذر عين السـوء من الـزمـان الغادر)[1] . نعم محكم بناء هذا البيت وسيبقىٰ إلى يوم القيامة . . هكـذا بكل بسـاطة ، وفعلاً لقد قام يوم القيامة عندما دخل هولاكو بغداد وذبح أهلها وهدم معالمها وصروحها ، وفي التـاسع من صفـر عام ٦٥٦ هـ، أي بعـد يومين من دخـول هولاكـو بغداد ، أمـر قائـد المغول بإحضار الخليفة وكانت حاجته إليه قـد انتهت ، حضر الخليفـة وكان يـرتعد خـوفاً وقد جلب معه ألفي ثوب وعشرة آلاف دينـار وبعض الجواهـر والنفائس ، فلم يلتفت إليـه هولاكو ووزع الهدايا على الحاضرين من أعوانه قائلاً له : « إن الأموال التي تملكهـا على وجـه الأرض ظاهـرة وهي ملك عبيدنـا ، لكن اذكر مـا تملكـه من الـدفـائن مـا هي وأين توجد »[2] . فاعترف الخليفة بوجود حوض من الـذهب في ساحـة القصر ، فحفـروا حتى وجـدوه ، وكان مليئـاً بالـذهب الأحمر ، ثم أمـر هولاكـو بإحصـاء نساء الخليفـة ، فعدّوا سبعمائة زوجة وسرية وألف خادمة! . .

ــ حوض من الذهب سلّمه الخليفة إلى هولاكو الطاغية بيده بعد أن أبى أن ينفق على الجيش ويجهزه ، تضرع المستعصم بهولاكو بعد أن شاهد ما يتعرض له نسائه، « منّ عليّ بأهل حرمي اللائي لم تطلع عليهن الشمس والقمر »! نعم إنه يدفـع الآن عرق وكـد الملايين من أبناء الشعب بعـد أن سامهم الـذل والخسف ، الذي جمعـه ذهباً أحمـر في أحواض في قصره الشامخ العامر ، إنـه بؤس الحاكمين الـذين توالـوا على مرّ العصـور ، يمعنون في الأمة بطشاً وتنكيلاً وإرهابـاً ، وعندمـا تحين الشدائـد ينسى هؤلاء بأن وراءهم أمة وشعباً يمتلكون مقاليد أمورها ، فلا تظل في مخيلتهم سوى أنانيتهم وحرصهم ، ولقـد رقّ قلب هولاكو للخليفة فأمره بأن يختـار مئة من هـذه النساء السبعمـائة ويتـرك الباقي ، فأخرج الخليفة مئة من المحبيات إليه ومن قريباته ، لكن هولاكـو لم يبقَ على المستعصم أكثر من خمسة أيام ، فحرمه أيضاً من المائة الباقيات حيث قتله يوم الرابع عشر من صفـر عام ٦٥٦ هـ[3] .

حالة القادة :

٥ ــ لم تكن حـالة قـادة الجيش العباسي أفضـل حالاً من قـائدهم الأعلى ، فلقـد

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧٦ .

(٢) المصدر لسابق ص ٢٩٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٩٢ ـ ٢٩٤ .

كانوا يعيشون حالة من الجبن والتخاذل والتردد ، مما كان عاملاً إضافياً في انهيار المقاومة والصمود ، ويعتبر كل من أيبك الحلبي وسيف الدين قلج نموذجين واضحين لهؤلاء القادة وسلوكيتهم الانتهازية الخيانية. فعندما عبر هولاكو عام ٦٥٥ هـ ـ ١٢٥٧م جبال الأكراد ووصل إلى أسد آباد ومنها إلى كرمنشاه ، فكّر الخليفة المستعصم بالله أن يرسل قوة من الطلائع لمقابلة جيوش هولاكو الجرارّة ، لكن هذه الطلائع كانت هزيلة إلى درجة أنها لم تستطع أن تفعل شيئاً ، بل إن قائديها قد أُلقي عليهما القبض وأُحضرا إلى هولاكو الذي قام باستنطاقهما لمعرفة وتقييم الوضع داخل بغداد ، فإذا بهما ينضمان إليه ويسيران معه في طلائع جيشه[1]، ويبدو أنهما قد تعاونا معه كثيراً حتىٰ اقتنع بإخلاصهما له ، فقاما بدور بارز في توجيه الحملة نحو بغداد .

ـ أما حال قائد الجيش العباسي، وهو تركي الأصل فإننا ننقل إليكم صورة عن الحياة التي كان يعيشها قبل سقوط بغداد ، جاء في « العسجد المسبوك » عن الدويدار هذا ما يلي :

مجاهد الدين أبو الميامن أيبك الدويدار المستنصري ، وكان ممن رزق السعادة في دنياه ، ولما رغب بدر الدين لؤلؤ زعيم الموصل إليه في الوصلة . عظم شأنه وارتفع مكانه ، وملك جزيل الأمور من العين والرقيق والدواب والعقار والبساتين والضياع ، مما يتعذّر ضبطه على الحساب ، وفي ليلة بنائه بزوجته، نفذ إلى داره من أواني الذهب والفضة والثياب والجواهر ما يزيد على ثلاثمائة ألف دينار ، وأنعم عليه في صبيحة تلك الليلة التي دخل بزوجته ستمائة ألف دينار عيناً إلى غير ذلك مما يطول ذكره ويتعذر وصفه. وبلغ من الجاه العريض والحرمة الوافرة حتى أنه كان يترفّع على وزير الدولة الذي هو نائب الخلافة وعلى شرف الدين إقبال الشرابي الذي كان مقدم العساكر ، ولم يركب إلى أحد سوى الخليفة ، وكان في جماعة من أكابر الزعماء وأرباب العمائم وأصحاب الكوسات والأعلام ، يقصدونه في دارهِ خدمة وتقرباً إليه ، وكان يصل إليه من أقطاعه وأملاكه ومزارعاته زيادة على خمسمائة ألف دينار»[2] . (ولم يكتفِ الدويدار بكل ما يملكه من الأموال والضيع بل إنه كان ممن تسابقوا إلى كسب طبقة الغوغاء والرعاع الذين سيطروا على شوارع بغداد بعد حدوث الفيضان الذي نكب بغداد وأجتاحها لمدة ستة أيام ، حيث استطاع الدويدار أن يحتضن هؤلاء ويدعمهم، وهم بدورهم قاموا بإسناده وتعضيده ، وفرض نفسه على الخليفة بحيث صار اسمه يذكر في الخطبة بعد اسم الخليفة[3] .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٢ . (٢) السجد المسبوك ص ٦٣٣ . (٣) جامع التواريخ ص ٢٦٢ ، ٢٦٤ .

ـ هـذا هو قـائد الجيش الـذي لم يفته أن ينهب ويمتلك كـل ما امتلكـه ، وليته اكتفى بذلك، ولكنـه بدلاً من أن يحفظ أمـلاكه ويؤدي أمـانته كمـا ينبغي ، فإنه أخذ يلهي الجيش في تنفيـذ صراعـات داخلية طـائفية ، كـانت تؤدي إلى تحطيم الجبهـة الـداخليـة لـلأمة ، وتحـطم روحها المعنـوية وإيمـانها ، فقـد قاد هـو وابن الخليفة أبـو بكر الحملة المشهـورة على مسكنه محلة الكـرخ وأعمل فيهم قتـلاً وذبحاً وسلبـاً وتشـريـداً ، دون أن يردعه وازع من ضمير أو حرمة لدين ، وكان هذا الدويدار أول من هرب من القادة بعد أن أوشكت بغداد على السقوط ، حيث ركب سفينة وأراد الفرار فيها بأمـواله الكثيـرة وكل مـا يملكه متجهاً إلى البصرة ، لكن المغول قد سبقوا النظر فتركوا مفارز قوية على النهر كانت تقوم باعتراض الهاربين وهم كثرة عظيمة ، فكانت تقتل كل من تلقي عليه القبض وتسلب أمواله ، فلما سمع الدويدار بذلك بعدما اجتـاز قريـة العقاب ورأى بعينـه ما يجـري على سفن الهاربين ، قفل عـائداً إلى بغـداد حيث ألقي عليه القبض بعـدها ، وكـان في طليعة من قتل .

ـ ولننظر إلى قائـد آخر من قيـادة الجيش العباسي المكلف بحمـاية عـاصمة بني العباس ونورد القصة كاملة من كتاب (الغزو المغولي) لحسن الأمين ص١٣٢ . (وعندمـا تقدم هولاكو باتجاه بغداد وأخذ يدنو من حدود العراق ويوغل داخله كان من طلائع جيشـه أحـد القواد المسلمين من بقـايا الخـوارزميين اسمه سلطان جـوق ، في حين يقـود جيش الخليفـة تركي آخـر هو قبجـان المعروف بقـراسنقر ، فكتب الأول إلى الثـاني يدعـوه إلى الاستسلام والانضمام إلى المغول،وكانت رسالته : «إني وأنت من جنس واحد وبعد البحث والتدقيق التحقت بخدمـة هولاكـو بسبب الفقر والاضـطرار ودخلت في طاعتـه ، وهو الآن يعاملني معاملة طيبة ، فانقـذ حياتـك وترفق بهـا ، واشفق على أولادك وقدم الـطاعة حتىٰ تـأمن على دارك ومـالـك وروحـك من هؤلاء القـوم » . ولكن قـراسنقـر رفض ذلـك وأبى الاستـسلام،وهو ما يحمد عليه،ولكن المؤسف هو تعليـل أسباب الـرفض التي في رسالتـه الجـوابية ، إذ لم تكن مستمـدة من روح الدفـاع عن الأوطان وحمـايـة الـذمار والتنـديـد بالخيانة ، بل كانت جزءاً من الروح الانهزاميـة المسيطرة على الخليفـة نفسه القـانعة بـأن الزمن وحده سيحمي العباسيين ويردّ عنهم غـائلةالمعتدين،إذ قـال قراسنقـر في جوابـه : « من يكـون هؤلاء المغول حتى يقصـدوا أسرة العبـاسيين ، لقـد شـاهـدت هـذه الأسـرة الكثيرين من أمثال دولة جنكيز خـان وان أساسهـا أكثر إحكـاماً ورسـوخاً من أسـاس أسرة جنكيز خان التي تترنح مع كل ريح عاصف ، ثم إن العباسيين قد استمروا حكاماً أكثر من خمسمائة سنـة ، وكل مخلوق قصـدهم بسوء قضى عليـه الزمن ، واذن فليس من العقـل والكياسة أن تدعوني لأنضم إلى جانب الغصن الغض لدولـة جنكيز ، وكـان الأولى بالـود

والمسالمة أن لا يتجاوز هولاكو خان الري بعد فراغه من فتح قلاع الملاحدة ، وأن يعود إلى خراسان وتركستان ، لأن قلب الخليفة متأثر وساخط بسبب زحف هولاكو بجيوشه ، فإذا كان هولاكو نادماً على فعلته فعليه أن يعيد الجيش إلى همدان لكي نجعل الدواتدار شفيعاً فيتضرع بدوره إلى الخليفة علّه يزول ألمه ويقبل الصلح فيغلق بذلك باب القتال والجدال». إن هذا الجواب يرينا الحالة المسيطرة على رجال الدولة جميعاً في تلك الساعات الحاسمة، ففراسنقر لا يعتد بقوة الجيش المعد، ولا يقول كلمة ترويع وتخويف بالحشود والزحوف ، بل يهدد ويتوعد بالقوة الغيبية وحدها ، كما فعل سيده وخليفته من قبل! . . . فضلاً عن إعلانه أن ما يمنعه من الانضمام إلى المغول هو أن غصنهم لا يزال غضاً ، والدخول معهم غير مأمون العواقب ، والانضمام إليهم لا يضمن المستقبل! . . .) .

ـ هذا ما كان عليه الوضع السائد في العراق عشية الاجتياح المغولي له ، التشاحن والفرقة والبغضاء تأكل الشعب وتحطم وحدته ، والقادة منغمسون في هذه النزاعات ينفذونها ويقودونها ، إضافة إلى انهماكهم بالملذات وجمع الأموال والتمسك بأطراف الدنيا بكل ما أوتوا به من قوة ، والجيش مبعثر يعوزه التنظيم والتسليح والأموال اللازمة لتأمين احتياجاته لمعركة مصيرية طاحنة ، مما شكل عوامل كثيرة ساعدت على القضاء على الدولة العباسية، ومقتل الخليفة الذي لم يفده عندما شعر بأن هولاكو كان مصمماً على احتلال بغداد أن يرسل إليه بعض التحف مع قليل من المال مع فخر الدين الدامغاني وابن درنوش، ولكنه لم يلتفت إلى ذلك ، مما يعطينا صورة عن ضحالة مستوى تفكير الخليفة وعدم إدراكه لما يجب أن يفعله ويتخذه من إجراءات لغرض حماية العراق وعاصمته بغداد ، بل عاصمة الخلافة الإسلامية ، هذا الوضع المزري شكل عاملاً أساسياً ساعد في القضاء على الدولة العباسية وتدمير بغداد وعدد من المدن الأخرى كواسط وأربيل والموصل وذبح أهلها واستباحتها ، كما وسلمت مدن كثيرة أخرى دون قتال كالبصرة ومناطق خوزستان ، لقد ألقى الاجتياح المغولي للعراق ظلالاً كثيفة على روح الشعب العراقي ، وأثر تأثيراً كبيراً على قواه المعنوية وبنائها في المراحل اللاحقة التي تلت هذا الغزو الهمجي .

الفصل الرابع

ثورة العشرين

ـ تمثل الفترة التي قامت فيها ثورة العشرين في ٣٠ حزيران ١٩٢٠ في العراق منعطفاً تاريخياً هاماً،يفصل بين عهدين عاش فيهما المجتمع العراقي عموماً وأهل المدن فيه خصوصاً ، وتمثل انتقالاً مفاجئاً من نظام قديم متخلف لم يكن همه سوى جباية الضرائب والتي كان العراقيون يطلقون عليها اسم (الكوده) التي كان يجبيها الأتراك ، الذين كان وجودهم الحقيقي بالنسبة للعراقيين ـ خاصة سكان الريف ـ هو قدوم موسم الكوده هذا حيث تنشأ قبله وخلاله الخلافات والمشاحنات بين الناس من جهة والسلطة العثمانية من جهة أخرى . وكانت السلطة في وجودها العام لا تتدخل في شؤون الناس ونظم الحياة الاجتماعية المتعارف عليها بينهم ، ولا ترى حاجة لذلك لأنها لا تريد أن تضيف مشاكل أخرى للمشاكل التي تسببها جباية الضرائب لهم ، فلم تهتم السلطة العثمانية بتنظيم أوجه الحياة وانعاشها ، وإحداث التقدم الذي بدأ يهز العالم منذ نشوب الثورة الصناعية التي أخذت تكتسح أوروبا وأميركا ، لقد ظلّت البلدان الإسلامية ـ ومعظمها كانت تقع ضمن حدود الامبراطورية العثمانية ـ ومنها العراق تعيش في ظلمة الجهل والتخلف والانحطاط ، كما وأن الإدارة العثمانية كانت تعج بالفساد والرشوة والوساطة ، ولم تكن الإدارة هذه قادرة على إحداث تغيير إيجابي في حياة الناس بسبب الأمراض التي تفتك بها ، لقد كانت الحكومة التركية طيلة المدة التي حكمت فيها العراق (تسير على أسلوب في الحكم يمكن أن نسميه بـ « الحكم السائب»، إذ اعتادت أن تترك الناس يفعلون ما يشاؤون ولا تتدخل في شؤونهم إلاّ فيما يخص جباية الضرائب ، وكان لسان حالها يقول : « ادفعوا لي الضريبة وافعلوا ما شئتم فلا شأن لي فيكم»، ولهذا ضربت البلاد واندثرت ترع الري وتكررت الأوبئة وشاعت الغزوات والمعارك القبلية ، كما شاع قطع الطرق وفرض الأتاوات ، مما أدى إلى انتشار قيم البداوة بين الناس وذبول

الحضارة بينهم)[1] . انتقل العراق من هذا النظام إلى نظام جديد طبقهُ الإنكليز بعد احتلالهم للعراق بكل عنف وقسوة محاولين كسر مرتكزات النظام القديم الأساسية وجعل الناس يخضعون خضوعاً تاماً إلى قوانين السلطة الجديدة .

ـ إن ما يهمنا بحثه هنا ليس مجرى أحداث ثورة العشرين ، لأنه لا يعنينا كثيراً ، إضافة إلى أن الموضوع قد كتب عنه كثيراً ، لكن الذي يهمنا هو أن نلقي الأضواء على الوضع الاجتماعي لتلك الفترة ، الحالة المعنوية ، العلاقات الاجتماعية السائدة ، وأهم النتائج التي أدت إليها ، لأن ثورة العشرين في الحقيقة قد أدت إلى نتائج غريبة لم يكن يؤمل أن تنتهي إليها ، فعلى الرغم من أن النظام العثماني قد انتهىٰ ، إلاَّ أن الإنكليز تمسكوا بعد فشل ثورة العشرين بموقف العداء من الشيعة ، واعتمدوا في إدارة الدولة على الأقلية ـ السنة ـ الذين استولوا على مقاليد الحكم تحت رعاية الإنكليز الذين أضمروا الحقد لأهل الجنوب بصورةعامة،ومنطقة الفرات الأوسط بصورة خاصة، حيث دارت على أرضهم كل المعارك الرئيسية والفاصلة خلال الثورة ، وخرج أهالي الجنوب الذين كانوا وقود الثورة وأداتها بعد أن قدموا التضحيات الجسيمة والدماء الكثيرة ، فارغي الوفاض مرغمين على النظر إلى الحكم الجديد المسمىٰ بالحكم الوطني وثماره تنتقل إلى أيدي بعيدة عن الأذرع التي امتشقت السيف دفاعاً عن العراق واستقلاله .

ـ لقد أحدث الاحتلال الإنكليزي في حياة العراق انقلاباً كبيراً ، فقد بدأت مظاهر الحياة تتبدل بصورة مذهلة ، خاصة حياة سكان المدن الرئيسية كبغداد والبصرة والموصل ، ولم يشهد العراق مثل هذا التضخم المالي العجيب الذي رافق دخول الإنكليز للعراق ، خاصة في بداية الاحتلال. (كان الإنكليز كلما تقدموا شبراً في العراق وتغلغلوا فيه تزداد كمية النقود ، لأن الجنود وعمالهم ينفقون عن سعة هذا فضلاً عن أن الإنكليز ومستخدميهم السياسيين كانوا ينثرون الأصفر الرنان على قبائل العرب لأغراض معلومة[2] ، ولقد استفاد أهل المدن من هذا التضخم أكثر من أهل الأرياف ، وكان للتجار والمتعهدين والمضاربين والسماسرة حصة الأسد منها ، إضافة إلى بعض الشيوخ وأصحاب البساتين ، ونتيجة لهذا الوضع الجديد اندفع هؤلاء إلى إنفاق المال وتبذيره على شهواتهم وملذاتهم بصورة تلفت النظر، وكثرت المراقص والحانات ودور القمار والمباغي لتبتلع القسط الأكبر مما حصل عليه هؤلاء من الأموال . لذا فقد تمّ تدشين عهد

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث د علي الوردي ، جـ ٥، ص ١٨ .
(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث د. علي الوردي، جـ ٥، ص ٢٠ .

الاحتلال بانتشار مظاهر الفساد ضمن خطة محكمة للقضاء على مثل وقيم الشعب وأبعاده عن دينه وقرآنه الذي جهد الإنكليز في سبيل القضاء عليه ، واعتبروه المانع الرئيسي الذي يقف أمام تنفيذ مخططاتهم ، لكن الناس جميعهم لم ينتفعوا من وفرة هذه الأموال ، فإن قسماً منهم وهم مجموع الشعب وفقراؤه أصابتهم أضرار كبيرة من جراء هذا التضخم ، فلقد ازدادت أسعار المواد الضرورية كالحنطة والرز والسكر والشاي وغيرها من المواد ، وارتفعت الأسعار إلى ما يقارب عشرة أضعاف عمّا كانت عليه زمن الحكم التركي ، وقد لجأ الإنكليز إلى أسلوب جديد في التظاهر بمساعدة الفقراء من الجماهير المسحوقة الذين أصابهم هذا الحيف ، فقاموا بتوزيع بطاقات لاستلام الطحين عليهم ، وهي في الحقيقة لم تكن لمساعدتهم بالقدر الذي كان يهدف إلى اختراع أساليب جديدة لتعجيز الناس وجعلهم يتوجهون إلى الإنكليز للمساعدة ، وبذا يصبحون في نظر هؤلاء أُناساً ذوي رحمة وشفقة ، وإضافة إلى ارتفاع الأسعار فقد ازدادت الضرائب إلى ثلاثة أضعاف، وهي تؤثر بصورة مباشرة على تلك الفئة من جماهير الشعب التي لم يصبها شيء .

ـ بذل الإنكليز جهوداً كبيرة لبذر التفرقة والتناحر بين العشائر العربية ، إضافة إلى انتخابهم لشخص معيّن في كل قبيلة لدعمه بالمال والجاه ليصبح لهم عيناً وعوناً ، وكان هؤلاء يفعلون كل شيء في المقابل لدعم الإنكليز وتأمين تنفيذ سياستهم وأوامرهم ، دون الأخذ بنظر الاعتبار لمكانة رئيس العشيرة الفعلي ، وهذا ما سبب حدوث نزاعات بين أفراد القبيلة الواحدة ، وعلى سبيل المثال قامت السلطات الإنكليزية في منطقة الشامية بدعم كل من مجبل الفرعون وأخيه مزهر ، ظناً منهم أن هؤلاء قادرون على السيطرة على عشيرة آل فتله أكبر عشائر الفرات الأوسط ، وإضعاف الشيخ عبدالواحد آل سكر ، الذي كانت العشيرة تأتمر بأوامره وتسير خلفه ، والذي كان معروفاً بعدائه وكرهه للإنكليز ، وظل على كرهه لهم حتىٰ آخر يوم من حياته، لقد قاد الشيخ عبدالواحد الثورة، وكان الشخص الثاني في قيادتها ، وقواته هي التي اكتسحت الوجود الإنكليزي من منطقة واسعة،تمتد من الشامية حتى سدة الهندية ، وكانت ملحمة الرارنجية من الملاحم الخالدة التي قاد فيها الشيخ عبدالواحد قوات الثوار إلى نصر مؤزر على الإنكليز ، وبقدر كره الشيخ عبدالواحد للإنكليز كان كرههم له ، إلَّا أن الإنكليز لم ينتقموا منه في حينها بعد فشل الثورة ، بل تركوا ذلك لأحد عملائهم الذي انتقم منه بقتل ابنه راهي بعد أن اتهمه بالاشتراك في مؤامرة موهومة عام ١٩٦٩ ، لم ينتقم الإنكليز من الشيخ بصورة مباشرة، لأنهم لم يجرأوا على ذلك في حينها، فأوكلوا إلى صدام كي يعدم ابنه ، فلن ينسى الإنكليز ما أصابهم على يد هذا المجاهد الأبي ، والغريب أن عبدالحسن زاهي الفرعون

الذي وقف أبوه ضد الشيخ ودعمه الإنكليز، وقف هو الآخر مع صدام متناسياً بأن ابن عمه قد اعدم على يده[1].

لقد أثار الإنكليز الخلافات القديمة بين العشائر وأججوها وكانوا ينوون مع أعمالهم هذه أن لا يتحقق أي مظهر من مظاهر الإخاء والاتحاد بين العشائر التي كانوا يخشون بأسها، وقد تمكنوا من تحقيق بعض النجاحات الهامة في هذا المجال، كما حدث بين عشيرة خزاعة وعشيرة آل فتلة، حيث أثار الحاكم البريطاني في الديوانية موضوع الأرض التي اغتصبها آل فتلة منهم في زمن الحكم العثماني.

ـ كان للاحتلال البريطاني في الواقع أثر كبير في إحداث تطور هائل في حياة الشعب العراقي، ويمكن اعتبار دخول الإنكليز للعراق سبباً في التطور الثقافي والصناعي والزراعي اللاحق، لكن فرض نمط الحياة الغربية وأساليبها كانت ترافق هذا التطور والتحول الحاصل في مجمل الحياة في العراق، وهو ما يعتبر من أشد المخاطر وأكثرها تأثيراً على حياة الشعب العراقي، لقد بذل الإنكليز جهداً موازياً للجهود المبذولة لتطوير الحياة بصورة عامة، جهوداً أخرى كانت تطبق بإصرار وتخطيط دقيق وتصميم مسبق، ومن أهم التأثيرات الكبيرة التي أوجدها الإنكليز هو تركيز الشعور في لاوعي الشعب، بأن الإنكليز هم الأفضل في كل شيء وهم أهل النعمة والتطور والثقافة، وعلى العراقيين أن يقنعوا بالوصاية الإنكليزية الفكرية والنفسية، ومن ثم العملية لأننا ـ العراقيين ـ متخلفون عنهم كثيراً، وبدونهم لن نستطيع أن نفعل شيئاً، علينا أن نقلدهم في حياتهم، في سلوكهم اليومي، أكلهم وشربهم ولبسهم والانتفاع من كل وسائل التسلية واللهو التي جلبوها معهم، الملاهي، البارات، وكل شيء، عندها نستطيع أن نصل إلى مرحلة متقدمة في سلم التطور والمدنية، ولقد ترعرعت هذه الفكرة وتعمقت جذورها في فئات معينة من المجتمع العراقي، وتمثل فئة الأرستقراطية التي كانت تعيش تحت ظل الحكم العثماني أكثر الفئات إيماناً بهذا، فالأفواج من الموظفين والضباط الذين كانوا يخدمون السلطة العثمانية، تحولوا بصورة آلية لخدمة السادة الجدد، واتباع نمط الحياة التي يحيونها، صحيح أن قسماً كبيراً من هذه الفئة قد وجدت نفسها عاطلة عن العمل بعد احتلال الإنكليز للعراق حيث قاموا بتسريحهم من وظائفهم التي كانوا يشغلونها تحت ظل الحكم العثماني وإبدالهم بغيرهم ممن جلبهم الإنكليز معهم، كالهنود أو من المسيحيين واليهود الذين كانوا يقطنون العراق، إلّا أن هذه الطبقة الأرستقراطية لم تعلن العداء للإنكليز إلّا بسبب شعورها بفقدان مكانتها ومصالحها القديمة، وعندما أبدل الإنكليز

(١) عبدالحسن راهي الفرعون محافظ الديوانية سابقاً وعضو القيادة القطرية للحزب الحاكم حالياً.

جهاز الإدارة مرة أخرى وأعادهم إلى مناصبهم، فإنهم بدأوا يهدأون بصورة تدريجية، وانسجموا مع السادة الجدد وبدأوا ينفذون مخططاتهم ، ولقد مثل بعض الشعراء في ذلك الوقت دوراً انتهازياً بائساً، وهم ممثّلو طبقة الموظفين القدامى ، فقد كان الزهاوي والرصافي الذي نُصب تمثال شامخ له في ساحة الأمين ببغداد، قد أيدا الاحتلال في بدايته، واطنبا في مدحه بعد أن تمّ تعيينهما في جريدة العرب الناطقة باسم الإنكليز في العراق ، وقد ضربِ الشاعر المشهور جميل صدقي الزهاوي رقماً قياسياً في الانتهازية والتقلب ، لقد كان همّ هؤلاء هو الحصول على المنصب والراتب ، وعندما يتم ذلك فإن كل شيء يغير جلده ولونه ، يصبح ملائماً لما يدخل في جيوب هؤلاء ، إلّا أن هؤلاء أصبحوا هم أهل المجد والجهادوالنضال،وتتحدث عنهم كتب التاريخ بأنهم أبطال الوطنية الفذة وأبناؤها الحقيقيون،ويكرمون تكريماً عظيماً، في الوقت الذي تختفي فيه أسماء الأبطال الحقيقيين والشعراء الفطاحل الذين وقفوا مع القضية حتى نهايتها ، وحاربوا بالقلم بيد وبالسيف باليد الأخرى ، إلّا أننا لم نجد في التاريخ غير هذا التزوير الذي ينضح من بين كل سطوره ، ولم نرَ للحقيقة أثراً إلّا قليلاً وفي غفلة من الذين كتبوه .

ـ حاول الضباط العراقيون الذين فرّوا من الخدمة في الجيش التركي إلى الحجاز والذين أسسوا ما يسمى بالجيش العربي تحت قيادة الشريف حسين ، والذين توجه قسم منهم فيما بعد إلى سوريا لمساعدة الملك فيصل في حكمه ، حاولوا أن يضعوا لهم اصبعاً في الثورة لقطف ثمارها ، فلقد كتب علي جودت الأيوبي، وهو قائد ما يسمىٰ بجيش العراق رسالة بتاريخ ١٧ ـ ٨ ـ ١٩٢٠ إلى قادة الثورة، يطلب فيها إرسال مبلغ (١٠) آلاف ليرة ذهب لكي يأتي هو وجنوده من دير الزور بكافة المعدات والأسلحة التي يمتلكونها ، وفعلاً بوشر في كربلاء بجمع المبلغ من أعيان الفرات الأوسط وقادة الثورة ، لكن السيد محسن أبو طبيخ كان قد شخص تشخيصاً دقيقاً أهداف الذين يجلسون في دير الزور بقيادة علي جودت الأيوبي وحقيقة أهدافهم، فقال في اجتماع لبحث هذا الموضوع: (إني لست واثقاً من إخلاص أهل دير الزور، لأنهم من بقايا خدام العثمانيين وفضلاتهم التي تركوها عندنا ، وإن الأكثر منهم إذا صحَّ عملهم فإنهم قاموا بهذا العمل والاشتراك مع المجاهدين الثوار ، طلباً للوظائف وأنا لا أشك بأن الإنكليز إذا طلبوهم للتوظيف لا يتخلفون ناسين كل ما يمت إلى الوطنية والجهاد بصلة ، وربما يحدث هذا عند وصول دراهمكم هذه ، فتذهب أموالكم التي تفيد الثوار المخلصين في الفرات هواء في شبك)[1] . وهذا ما حدث فعلاً بعد فترة ليست طويلة ، فقد استدعى

(١) الحقائق الناصعة ، فريق المزهر الفرعون .

الإنكليز هؤلاء للوظائف فقبلوها مسرعين ، فقد أصبح علي جودت الأيوبي وزيراً لمرات عديدة، ورئيساً للوزراء، وكذلك جميل المدفعي الذي كان على علاقة خاصة بجون فيلبي ، ومولود مخلص وغيرهم كثيرون ، وأخذوا ينفذون مخططات الإنكليز ويخدمونهم لمدة طويلة ، وأصبحوا أكثر إخلاصاً لهم من كلابهم التي يغسلونها مرتين في اليوم الواحد بالماء الدافىء والصابون . وتحمل منهم العراق وشعبه صنوفاً من الاضطهاد والعذاب والحرمان وهتك الكرامات ارضاءً لأسيادهم الإنكليز ، نعم إن المجاهدين المخلصين هم أبناء الثورة الحقيقيون ، أبناء الفرات الأوسط كشعلان أبو الجون وعبد الواحد الحاج سكر وغيرهما، الذين ظل الإنكليز يحاربونهم ويحرمون أهلهم وعشيرتهم من كل ما يفترض أن يحصلوا عليه كأبناء أبرار للعراق ، وبالمناسبة أيضاً فلم يسلم شعلان أبو الجون هو الآخر من الانتقام ، فقد قتل الإنكليز ولده بعد أن أوعزوا لصدام أن يقتله ، فقتله بيده بعد أن أرسل عليه فلم يذهب له . . . لم يكن لأبناء الجنوب مطامح غير مشروعة ليفكروا بالاستحواذ على الحكم . . كما أنهم كانوا غافلين عن أن الإنكليز سوف ينتقمون منهم إنْ عاجلاً أم آجلاً ، فلم يتخذوا لهذا الأمر ما يكفي من الحيطة والحذر ، ولم يدخر الإنكليز أي جهد، عندما كانت تسمح لهم الظروف، من أن ينتقموا من أبناء الجنوب على يد عملائهم الذين كانوا يرتدون أقنعة مختلفة، كل واحد منها يلائم ظرفاً وزماناً معيناً وعلى امتداد تاريخ العراق الحديث ، منذ احتلاله من قبلهم وحتى اليوم .

ـ بسبب قلة الوعي وضعفه بين أوساط الشعب وتفشي الأمية الرهيب ، وبسبب عدم تمكن قيادة الثورة من بسط نفوذها بصورة محكمة ، ونقص أو ضعف أجهزتها التنفيذية التي كان يفترض وجودها في كل مكان اندلعت فيه الثورة ، تتابع الأمور وتعالجها بسرعة ، فقد كانت الإشاعات المغرضة الهدامة تتناقل بسرعة بين أبناء الشعب وتعمل عملها السيء، وتمنع اندفاع الناس ووقوفهم صفاً واحداً ، وقد كانت أحداث بسيطة تؤثر في تغيير أفكار الناس، وتؤثر على إيمانهم ومواقفهم بسرعة مذهلة ، فهم قبل أن يحدث حدث ما يتمتعون بوضع نفسي معيّن، وبعد ساعة من حدوثه يصبح وضعهم المعنوي والنفسي معاكساً تماماً لما كانوا عليه وهكذا . . كما كان عدد من رؤساء العشائر قد اشتركوا في الثورة ليس عن قناعة منهم بقضية الوطن واستقلاله ، بل كانوا يشعرون بالحرج في حالة وقوفهم موقف الحياد المتفرج على الأحداث ، وهؤلاء كانوا ينتظرون الظرف الملائم للإنسحاب سريعاً من القتال كي يحفظوا علاقاتهم مع الإنكليز ، أو يؤمنوا على مصالحهم التي كانوا يعتقدون بأنها يمكن أن تتعرض للضرر عند فشل الثورة ، وكان هؤلاء علاوة على موقفهم غير الثابت هذا ، ينتهزون أي ظرف من الظروف الحرجة التي تواجه الثورة ، حيث يبدأون ببث الإشاعات وإضعاف عزائم المجاهدين والفتّ

في عضدهم ، ولقد كانت الثورة بحاجة إلى مؤسسات ثورية بمستوى المهام الصعبة التي كانت موكلة إليها ، تأخذ على عاتقها تصريف الأمور وحل المشاكل التي واجهتها الثورة بصورة سريعة وفعّالة ، فقد كانت بحاجة إلى جهاز محاكم أو على الأقل هيئة محكمة ثورية تقوم بالبت والحكم السريع بحق المخالفين والعملاء والمناوئين ، كما أنها كانت بحاجة إلى جهاز أمني ، وأجهزة أخرى تنظم الدعم الإداري ، تؤمن دعم الجبهة بما تحتاجه من الأسلحة والأعتدة والسيطرة على الغنائم ، وإيجاد احتياطي لتأمين إدامة المعارك واستمرارها ، ويبدو واضحاً عجز قيادة الثورة عن تأمين ذلك ، كما أن غياب عنصر آخر مهم، وهو عدم وجود الموجهين العقائديين بين صفوف المقاتلين أو ندرتهم لترسيخ المهام الملقاة على المقاتلين في نفوسهم، وجعل الثورة تسير سيراً طبيعياً في الاتجاه الذي يضمن وصولها إلى نتائج ملموسة ، جعل الثورة تستسلم دون قيد أو شرط ، وذهبت دماء الشهداء والآلام التي قدمها الشعب هدراً ، بل إن الكثيرين ممن لم يشاركوا في الثورة أو ممن وقفوا ضدها، هم الذين قطفوا ثمارها، وأصبحوا مهيمنين على مقاليد الحكم وإدارته ، فهل يعقل أن تسيل كل هذه الدماء من الآباء دون أن يحصل الأبناء على شيء ، لقد جاء الملك فيصل حاكماً للعراق من سوريا بعد أن أسقط الفرنسيون حكمه ، واستُلم الضباط الذين كانوا يخدمون الأتراك المناصب الرفيعة في الدولة ، وأصبحت أرض الجنوب وأهلها مناطق الثورة والتمرد ، أرضاً مهملة ، بل إن أهلها أصبحوا منبوذين مبعدين عن المشاركة بإدارة بلدهم وتقرير مصيرهم ، وأصبحت السلطة التي نصبها الإنكليز توجه إليهم أصابع الإتهام والشكوك، وتمارس بحقهم أبشع الجرائم وفاءً لأسيادها الذين أوجدوها .

ـ كان التراث الحربي السائد في العراق، وفي منطقة الفرات الأوسط بصورة خاصة، هو من ذلك النوع الذي تملكه الشعوب المتأخرة التي لم تصل إليها بعد معالم الحضارة بصورة فاعلة ، فعشائر الفرات الأوسط التي حملت الثقل الأكبر من مسؤولية الثورة والقتال اتقنت فنوناً محدودة من القتال تحت السيطرة العثمانية الذي كان يدور بين القبائل نفسها أو بين القبائل وقوات السلطة العثمانية ، وهي أساليب خالية من الحركة والمناورة إلاّ نادراً ، وظلّت أساليب القتال بالسيف والرمح والحركة والتقدم بهما تحكم القتال بالبندقية وتؤثر تأثيراً كبيراً عليه ، فقد كانت القبائل تتقن أساليب الكمائن، وقتال المواجهة فقط، والذي كان غالباً ما يجري بين العشائر التي كانت تتناحر وتتقاتل من أجل السيطرة على الأرض والمياه سنين طويلة عندما كانت الأرض مشاعة ، كما لم يتم تسجيلها في دوائر التسوية (الطابو) إلاّ بعد سقوط الدولة العثمانية بمدة طويلة ، فقد كانت إحدى العشائر تهجم على العشيرة الأخرى كي تزيحها عن الأرض التي تقطنها ،

وبعد أن يتم لها ذلك تقوم بإنشاء عدد من القلاع في مناطق نفوذها الجديدة لتأمين الحماية لها من الهجمات المقابلة ، وغالباً ما كانت هذه الهجمات تنفذ على شكل غارة ليلية أو نهارية يتم فيها تدمير وحرق مضارب العشيرة الأخرى ، ولم تكن العشائر في ذلك الحين قد استقرت بصورة نهائية ، بل كان قسم منها يسكن بيوت الشعر،حيث كانت شبه مرتحلة،والقسم الآخر يسكن في قرى بيوتها من الطين والقصب وجذوع النخيل ماثلة إلى الآن في أرياف العراق . وعندما كان يحدث خلاف بين قبيلتين بسبب حادثة قتل أو خلاف على ماء أو أرض فإنه غالباً ما يتقرر يوم معلوم لبدء القتال بينهما، وذلك بأن ترفع كل عشيرة راية خاصة بها يتجمع حولها مقاتلو العشيرة ، ويسمى هذا الاجتماع (العراضة) باللهجة العامية العراقية، حيث تنشب المعارك بأن تتقدم إحدى القبائل بحركة مواجهة جبهوية باتجاه أفراد القبيلة الأخرى الذين إما أن يكونوا في حالة حركة باتجاه معاكس لحركة القبيلة المواجهة لهم ، أو في موضع دفاعي تحفر فيه خنادق رمي بسيطة، أو محفورة بصورة جيدة مع خنادق مواصلات ومحاور انسحاب على ضوء الخبرة والوقت التي يمتلكها رئيس القبيلة ومقاتلوها ، ولم يكن أبناء القبائل يفهمون أساليب المناورة وأنواعها وتكتيكات الحرب المطبقة في ذلك الوقت ، إلَّا أنهم كانوا غالباً ما يطبقون بعضاً منها غريزياً كأسلوب النار والحركة بصورة مبسطة ، بأن تتقدم جماعة من مقاتلي قبيلة ما تحت إسناد بنادق مجموعة أخرى باتجاه مواقع القبيلة الأخرى ، وقد لا تكون القفزات أكثر من قفزة واحدة في أكثر الأحيان ، كما أن المناورة على الجناح والالتفاف لم تكن معروفة جيداً ، إلَّا أنها مورست في معركة الرارنجية بصورة محدودة ، فقد قام مرزوق العواد شيخ العوابد (بحركة التفاف بارعة اربكت الرتل البريطاني المسمى برتل « مانجستر وأذهلته)[1]. إلَّا أن القبائل كانت تتقن إلى حد ما استخدام الأرض بصورة غريزية وهو ما نسميه اليوم عسكرياً (مهنة الميدان)، فقد أجاد الظوالم وآل بو-حسان وهما العشيرتان اللتان كان لهما دور أساس في اندلاع الثورة في منطقة الرميثة بإطلاق رصاصاتها الأولى على يد الشيخ شعلان أبو الجون شيخ عشيرة الظوالم ، أجاد هؤلاء استخدام الأرض التي كانت تكثر فيها السواقي الجافة الضيقة التي تصلح للاختفاء، وقاموا بمباغتة القوات الإنجليزية المتقدمة من الديوانية إلى الرميثة لفك الحصار عن الحامية الإنكليزية الموجودة فيها ، وظلَّت هاتان القبيلتان تهددان كل الحكومات العراقية المتعاقبة لما لهما من المقاتلين الأشداء الشجعان ، ولقد كان للشجاعة التي يتمتع بها أفراد هاتين القبيلتين أثر واضح في الانتصارات التي أحرزتها على القوات الإنكليزية ، إلَّا أن هذه

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. د. علي الوردي، جـ ٥.

الخبرة المتواضعة والشجاعة لم تكن كافية ، لأن القتال ضد جيش حديث يستخدم أحدث الأساليب المعروفة في القتال من الحركة والمناورة واستخدام المدفعية لإسناد حركة القوات في مختلف صفحات المعركة ، إضافة إلى أن القيادة الميدانية للثوار لم تكن موحدة،ولم يكن هناك قائد واحد يصدر الأوامر لكل القوات التي كانت تقاتل في مناطق أخرى من ريف الفرات الأوسط وقصباته وبقية المناطق الأخرى من العراق ، إضافة إلى عدم تيسر الأسلحة الثقيلة كالمدفعية وما يكفي من الرشاشات ، لأن القتال كان يجري وفق الأسس الكلاسيكية المعروفة ، حيث يتجمع المقاتلون في منطقة تحشد معينة ثم يتقدمون للهجوم على القوات الإنكليزية مستخدمين أساليب بدائية بسيطة في الإسناد والحركة باتجاه مواضع العدو، إلاّ أننا لا نجد في الحقيقة أن قوات الثوار قد طبقت بالفعل هذه الأسس بصورة جيدة لأسباب عديدة أهمها عدم تيسر الإسناد المدفعي اللازم، وقلة الخبرة اللازمة للقتال وفق الأسس المتبعة في الجيوش الحديثة ، وذلك لعدم وجود أي نوع من أنواع التدريب الحديث لعدم معرفة العشائر بهذا النوع من القتال،ولم تمارسه في حياتها السابقة ، كما وأن قيادة الثورة لم تكن تتيسر لديها وسائل مواصلات جيدة في ساحة المعركة وخارجها كي تستطيع إدارتها والتهيؤ لها بصورة جيدة،والسيطرة عليها وتوجيه القوات في الزمان والمكان المطلوبين عندما تقتضي المواقف التعبوية ذلك بصورة ملائمة ، إلاّ أن العامل الأساسي الذي يعزى له تحقيق الانتصارات في المراحل الأولى للثورة هو بسالة وشجاعة المقاتلين من أبناء عشائر الفرات الأوسط ، وكانت معارك الخضر والسماوة والرميثة والرارنجية والدغارة وعفك مشاهد حية تمتلىء بالفخر والاعتزاز للبسالة التي أبداها الثوار بمهاجمتهم القوات الإنكليزية بعنف وشدة ، حيث كانوا يسقطون الواحد فوق الآخر تحت الرصاص المنهمر فوقهم دون توقف حتىٰ يصلوا أهدافهم ويدمروها ، وقد حدثت في الرارنجية معارك بالسلاح الأبيض استخدم فيها الثوار خناجرهم وسيوفهم في الهجوم على العربات العسكرية التي كانت تحمل الجنود الإنكليز المدججين بالسلاح والتحموا معهم وقاموا بتدميرهم ، ولو أن القبائل كانت تمتلك خبرة ملائمة في فنون القتال وأساليبه الحديثة مع تيسر أسلحة متوسطة وثقيلة تدار من قبلهم لأمكن تحقيق نتائج سريعة وهامة ، ولكان عدد الخسائر من الشهداء والجرحى أقل بكثير مما وقع فعلاً ، فلقد بلغ عدد الشهداء والجرحىٰ ٨٤٥٠ شخصاً كما أوردته التقارير البريطانية بعد انتهاء الثورة،وهو عدد كبير بالنسبة لعشائر الفرات الأوسط الذين كان الجزء الأعظم منها من نصيبها .

ـ يختلف الاستعمار الإنكليزي عن الفرنسي ، وهما اللذان سيطرا على الوطن العربي كله ومعظم الأرض الإسلامية ، في أن الأول لا يتبع أساليب قسرية في فرض ما

يـريد تنفيـذه على الشعوب التي تقـع تحت سيطرتـه في حالـة وجود أسـاليب أخرى أكثـر ملائمة ، فالإنكليز لا يتدخلون كثيراً في فرض تغيير كبيـر في تفكير النـاس الديني وطـرق حيـاتهم ، بل هم على العكس من ذلـك يتنبهـون إلى كـل ظـاهـرة من الـظواهـر داخـل المجتمع محاولين الاستفادة منها وتحويلها إلى صـالحهم بقدر الإمكـان ، فمثلاً لم يـظهر الاستعمار البريطاني عـداءً للدين الإسلامي ، بل على العكس فإنه كـان «يحترم» مـراجع الـدين ولا يعتدي على المـراكز الـدينيـة الإسـلاميـة أو يحط من قيمتهـا ، لكن الإنكليـز استطاعوا أن يجـدوا لهم من يساعـدهم من بين أوساط هـذه المراكـز ويسير معهم لتـأمين السيطرة على العراق . أما الفرنسيون فإنهم يشهـرون عداءهم لـلإسلام ويعتبـرون الحرب التي شنوها ضد تركيـا امتداداً للحـروب الصليبية ، وقـد قال الجنـرال غورو قـائد الجيش الفرنسي الذي دخل الشام لصلاح الدين الأيوبي عندما وقف على قبره في حمص : « لقد عدنا » إشارة لعودة الصليبيين ، وعلى الرغم من أن كلاً من الإنكليز والفرنسيين هما بنفس الـدرجة من العـداء للإسـلام ، إلاّ أن لكـل منهمـا طـريقـة خـاصـة في التعـامـل معـه . فالفرنسيون يحاربونه علناً ، أما الإنكليز فإنهم استفادوا منه بدرجة كبرى وعظيمـة ، وليس خافياً حجم الجهود التي بذلها الإنكليز في دعم آل سعود الذين كانوا يتستـرون تحت راية الوهابية ، وعندما تمكن عبدالعزيز آل سعود أن يبسط نفوذه على الجزيرة العربية، كان ذلك يعني في الحقيقة سيطرة الإنكليز على أهم مركزين إسلاميين وهما مكة المكرمة والمـدينة المنورة ، بل إن نفوذهم قد امتد بيسر إلى المنـاطق المتاخمـة للجزيـرة العربيـة كالعـراق والأردن ومصـر والسودان والكويت، وأمكن تدعيمـه واستمراره أيضـاً ، فالـدعـوة الـدينيـة الوهابية، مدعومة بسيف آل سعود، استطاعت أن تبسط النفوذ الإنكليزي على أرض الحرمين الشريفين ومناطق واسعة أخرى ، وأصبح وجود آل سعـود بحد ذاتـه وجوداً أسـاسياً لـدعم النفوذ الإنكليزي والأميركي لاحقاً على كل الوطن العـربي والإسلامي من أنـدونيسيا حتى المغرب ، كما ساهموا لاحقاً حتى في دعم العصابات التي تديـرها المخـابرات الأميـركية في نيكاراغوا بمبالغ كبيرة من المال ، ولقد حاول الإنكليز، وربما استطاعوا أيضاً أن يجدوا لهم من يساعدهم بين أوساط رجال الـدين من الشيعة ، إلاّ أن عـددهم قليل جـداً قياسـاً بجمهرة العلماء الذين كانوا يوجهون الثورة ويقودونها من كـربلاء في مراحلها الأولى ، ومن ثم من النجف حتى نهايتها، مركزين على فكرة الجهاد ضد أعداء الإسلام وإعلان استقلال العراق وتشكيل حكومة وطنية .

أسباب فشل ثورة العشرين :

ـ هنالك أسباب عديدة أدت إلى فشل ثورةالعشرين،لكن أهم هذه الأسباب هي :

أ ـ عدم وجود دعم خارجي . فثورة بهذا الحجم تمتد على أرض بهذه السعة ، تقاتل دولة عظمى هي بريطانيا التي كانت لا تغرب عن امبراطوريتها الشمس ، تمتلك جيشاً كان يعتبر أول جيش في العالم من حيث القوة والتسليح والتجهيز ، هذه الثورة لا تستطيع أن تعتمد على مواردها الخاصة السريعة النضوب ، إن استمرار المعارك لأشهر طويلة ، يعني بالتأكيد حدوث استهلاك كبير في الأعتدة، وخسائر وفقدان في الأسلحة والتجهيزات التي لم يكن بالإمكان تأمينها من موارد العراق التي تقع تحت أيدي الثوار ، إضافة إلى ضعف الإدارة وعدم حصر الغنائم الحربية وتوزيعها حسب الاحتياج ، بل إن الغنائم كانحت تختفي بسرعة ، فالأسلحة والأعتدة التي كان الجيش البريطاني يتركها خلفه بعد المعارك التي كان يخوضها ثم ينسحب مضطراً ، هذه الأسلحة والأعتدة كانت تستولي عليها العشيرة التي تصل إلى يدها أولاً ، وفي حالات كثيرة كان يجري التصرف فيها بصورة شخصية ، ولنا مثال على ذلك ، فقد كان الشيخ عبدالواحد آل سكر يشتري كل رشاشة من الغنائم التي حصل عليها الثوار بمبلغ (٢٥) ليرة ذهب تركية ، ولقد كانت الظروف السياسية السائدة في الأقطار المجاورة للعراق عاملاً مهماً في عدم تمكن الثوار من تأمين مصادر خارجية لدعم الثورة واستمرارها ، فسوريا كانت تخضع للسيطرة الفرنسية ، ولم تستطع حكومة الملك فيصل أن تقدم شيئاً لدعم الثورة ، وربما لم تكن ترغب أساساً في ذلك ، على أن الملك فيصل كان قد أرسل مبلغاً من المال إلى الثوار من أبناء الفرات الأوسط الذين كانوا بحاجة ماسة إليه ، والذي لم يصل إلى أيديهم أبداً ، أما الوضع في الجزيرة العربية فكان مضطرباً والنزاع على أشده بين آل سعود من جهة والشريف حسين من جهة أخرى للسيطرة على أرض الجزيرة ، ولم يكن أحد من المتخاصمين يرغب في دعم الثورة لأسباب كثيرة: منهاعدم رغبة أي منهما في الدخول في نزاع علني مع الإنكليز،الذين كانت لهم اليد الطولى في توجيه وسير الأحداث التي كانت تجري في الجزيرة العربية ، خاصة وأن بريطانيا كانت تقدم دعماً مالياً لشريف مكة وابن سعود على السواء ، علماً بأن عصابات آل سعود الاخوانية كانت تشكل عائقاً ومانعاً أساسياً في طريق القوافل التي يمكن أن تتوجه من وإلى العراق من الجزيرة العربية خاصة الكويت ، وكانت تقع بأيديهم في أغلب الأحيان ، وإذا علمنا بأن آل سعود لا يمكنهم، بل إن لم يكونوا راغبين أن يساندوا أي مجهود وثورة تقوم ضد حليفهم الأساسي

بريطانيا ، فإننا نجد بأن اعتماد الثورة على الجزيرة لا يمكن تأمينه على الاطلاق ، أما إيران فإنها كانت في ذلك الوقت ترزح تحت النفوذ البريطاني وهيمنته ، إضافة إلى أن مناطق جنوب غرب إيران،خاصة منطقة بوشهر كانت هي الأخرى تشهد ثورة مسلحة ضد الوجود البريطاني ، كما وأن عدم امتداد رقعة الثورة في العراق إلى الجانب الشرقي منه ، أي الكوت والعمارة والبصرة ، شكل حاجزاً آخر لإمكانية حدوث تطور باتجاه دعم الثورة من إيران ، كما وأن البصرة نفسها كانت تخضع بكاملها للاحتلال البريطاني وأسطولها الحربي ، لذا فإن الثورة لم تكن تستطيع أن تستمر دون أن تحصل على دعم خارجي مهما كان حجمه في الوقت الذي كانت فيه بحاجة ماسة إليه .

ب ــ عدم رسوخ فكرة الجهاد ومضامينه في أذهان أكثر شيوخ القبائل المساهمة في الثورة ، ولنا على ذلك دليل هو استسلام عدد كبير منهم للإنكليز بدون قتال ، ولم تكن الثورة في حينها قد انتهت تماماً بل إنها لا تزال مشتعلة في مناطق كثيرة ، لقد كان الأجدر بهؤلاء أن يواصلوا القتال بإصرار لإجبار الإنكليز على أقل تقدير بعدم الحاق الأذى والإهانة بهم بعد انتهاء الحرب والقتال ، إلاّ أنهم استسلموا دون قيد أو شرط ، وذلك ما حدث لكافة رؤوساء العشائر المشتركة في الثورة باستثناء عشائر منطقة الرميثة ، لقد أثبت الشيخ شعلان أبو الجون أنه يملك إرادة لا تلين إضافة إلى فهمه لأساليب السياسة البريطانية ومواطن الضعف فيها ، فلم يسلم نفسه لهم دون قيد أو شرط ، بل إنه فرض شروطاً للصلح رضخ لها قائد القوة البريطانية التي كانت تتقدم نحو مدينة الرميثة مرغماً . وكان الثوار يفاوضون قائد الفرقة البريطانية(١٧)،في الوقت الذي يستعدون فيه للقتال ، وكان لمعركة السوير الشهيرة أثرها البالغ في رضوخ الإنكليز لمطالب الثوار ، حتى أنهم قد قاموا بإعطاء الثوار ثمن البنادق التي طلبوها منهم كجزء من الشروط التي كانوا يتمسكون بها من جانبهم . والتي كانت تهدف أساساً إلى تجريد الشعب العراقي من السلاح ، وعلى أثر الاتفاق لم يصب مناطق الثوار في الرميثة ما أصاب المناطق الأخرى التي استسلمت دون قيد أو شرط من خراب وتدمير وإذلال ، لقد كان يتوجب على الثوار أن يفهموا جيداً بأن الإنكليز لن يتركوهم دون أن ينتقموا منهم ، وإن ذلك لم يكن ممكناً دون مواصلة القتال وإيقاع الخسائر بالجيش البريطاني لإرغام قادته على الصلح تحت شروط أفضل وأكثر ملاءمة للثوار وقادتهم ، ولقد قام الإنكليز بتنفيذ مذابح كبيرة في المناطق التي استسلمت لهم وخضعت لسيطرتهم مرة أخرى بسبب ضعف وتردد قادتها وثوارها ، كما حدث في مناطق الخالص وشهربان وطويريج وغيرها . . ويمكن اعتبار هذا الدرس من أقسى الدروس التي يمكن استنباطها من ثورة العشرين وأهمها على الإطلاق .

جـ ـ ضعف القيادة بصورة عامة، وعدم قدرتها على إدارة قتال واسع، ومتابعة تطور الأوضاع على الساحة السياسية والعسكرية، وكان من النتائج التي ترتبت على ذلك حدوث عمليات نهب وسلب واسعة في بعض المدن العراقية، مثل بعقوبة وشهربان وغيرها من المدن من قبل العشائر نفسها التي شاركت بالثورة، مما سبب حدوث اصطدامات بينهم وبين سكان هذه المدن الذين كانوا يضطرون للوقوف بوجه المهاجمين حفاظاً على أرواحهم وممتلكاتهم، إلاّ أننا يجب أن نذكر هنا بأن مناطق كثيرة أخرى كانت تنعم بالهدوء والأمن والاستقرار، كالنجف والكوفة وكربلاء ومناطق عديدة أخرى في وسط وجنوب العراق، كانت تخضع لسيطرة الثوار وإدارتهم المباشرة، لقد ترتب على ضعف القيادة أيضاً عدم تمكنها من التنسيق بين العمليات الجارية في ساحات متعددة من المعارك، لكن ذلك قد ترجع بعض أسبابه إلى الصيغ التي كانت متبعة في الثورة والتحرك، إلاّ أن الشيخ عبدالواحد آل سكر قد تمكن في الواقع من العمل على تنسيق حركة قوات الثورة وتنقلها من مكان إلى آخر حسب مقتضيات الموقف العسكري، كما حدث عندما نقل قوات كبيرة من الثوار من مناطق المشخاب والشامية إلى منطقة طويريج وسدة الهندية التي تبعد عنه ما لا يقل عن ١٥٠ كيلومتر، حيث اشتركت في معركة الرارنجية، إلاّ أن ذلك لم يتكرر على ساحة الحركات والعمليات الواسعة، إذ لم يشهد بعدها تنقلاً مشابهاً وحشداً للقوات في جبهات أخرى كانت بحاجة إليها، كإجراء تنقل سوقي باتجاه شرق العراق، العمارة والكوت، لإجبار عشائرها على الاشتراك بالثورة وقطع الطريق الاستراتيجي البري والنهري الذي يربط بغداد بمدينة البصرة، والذي كانت تنتقل عليه القطعات البريطانية المتوجهة إلى بغداد ومنها إلى ساحات المعارك المختلفة، مما كان سيؤدي بالتأكيد إلى تخفيف الضغط على مناطق الفرات الأوسط.

د ـ عدم تشكيل أجهزة ثورية خاصة تأخذ على عاتقها تنظيم شؤون الثورة وإدارتها، وتكون مسؤولة عن ضبط المخالفات أو التردد في المشاركة من قبل رؤساء العشائر الذين كانوا يتذبذبون بين موالاة الإنكليز، طمعاً من جانب ومناصرة الثورة خوفاً من غضب الشعب واحتقاره لهم من جانب آخر، وقد تبدلت مواقفهم هذه مرات عديدة. وربما كانت الثورة معذورة بسبب ظروف العراق الخاصة التي كان يمر بها حينئذٍ.

هـ ـ ضعف المستوى الثقافي لجماهير الشعب وعدم انتشار حركة التبليغ بينها، وقد كان لهذا آثارٌ بليغة على انتشار الإشاعات المعادية للثورة والتي كانت تهدف إلى فت عضدها وإضعافها، وهناك أسباب كثيرة أخرى يمكن للقارىء الكريم أن يطالعها في كتب

كثيـرة تحدثت عن ثـورة العشـرين ، إلّا أنني ركّـزت على الأسبـاب العسكـريـة والنفسيـة بالدرجة الأولى لعلاقتها المباشرة بالبحث .

ـ يمكن اعتبار أكبر النتائج التي انتهت إليهـا ثورة العشرين، والتي ألقت آثارهـا على الوضع الاجتمـاعي في العراق في المـراحل الـلاحقة ، هـو استلام الحكم من قبـل طبقـة كانت تخـدم الإنكليز وتـطبق مخططاتهم وتـطيع أوامرهم، سـاهمت في إبعـاد أبنـاء الجنوب عن المشاركة في الحكم، بحكم حجم وجودهم السكـاني في العراق ومشـاركتهم في تقـديم التضحيات من أجـل إجبار المستعمـر على الإقرار بـاستقـلال العـراق ، وهـذا الوضع ظل سائداً إلى يومنا هذا ، أما النتيجة الهامة الأخرى من نتائج ثورة العشرين، والتي ألقت ظلالاً قائمة على الوضـع الاجتماعي في العـراق لمدة لا تقـل عن (٤٠) عامـاً فهي ظهور الاقطاع الذي كان له آثار شـديدة على تحـطيم الروح المعنـوية لأوسـاط واسعة في المجتمع العراقي، وانتشار حالة الإذلال والخنوع بين الفلاحين في جنوب العراق ووسطه ، خـاصة في محـافظة العمـارة والكـوت وأجـزاء من محـافـظة البصـرة والحلة والنـاصـريـة والديوانية ، فلقد عمد الإنكليز إلى مكافأة عمـلائهم وخدمهم من رؤوسـاء العشـائـر كآل الجريان والعريبي وبلاسم الياسين وغيرهم . فقد منحوهم مسـاحات واسعـة من الأراضي الزراعية الجيدة مع كل ما عليها ، حيث أصبح الفلاحون عبيـداً وأقنانـاً يباعـون ويشترون مع الأرض، ويعانون أبشع أنواع الظلم والاضطهاد والامتهان للشرف والكرامة ، ممـا كان له آثار عميقة على مستقبل الشعب ، خاصة الشيعة منه ، وجهاده ونضاله من أجل حقـوقه وكرامته، وبرأيي فإن ظهور الاقطاع كان من أبرز المـآسي التي واجهت جماهيـر الشيعة في الجنوب، إضافة إلى ابعادهم عن الحكم وحرمانهم من المشاركة العادلة فيه .

الباب الثاني

الجيش العراقي

الفصل الأول : المشكلة الطائفية في العراق .
الفصل الثاني : تأسيس الجيش العراقي .
الفصل الثالث : تأثير الجيش العراقي على المجتمع .
الفصل الرابع : المشكلة الكردية .
الفصل الخامس : الطائفية في القوات المسلحة .
الفصل السادس : التيار القومي في القوات المسلحة .
الفصل السابع : الحركة الإسلامية السنية في القوات المسلحة .
الفصل الثامن : التيار الكردي في القوات المسلحة.
الفصل التاسع : التيار الشيعي في القوات المسلحة .



الفصل الأول

المشكلة الطائفية في العراق

ـ يجهد الباحثون الاجتماعيون الذين تصدوا للبحث في أسباب الصراع الدائر في العراق أنفسهم في محاولة رد أسبابه إلى عوامل عديدة ، ولكونهم يحملون عقائد سياسية وفكرية متباينة فإنهم يفسرون الصراع تفسيراً يتفق مع أفكارهم ومعتقداتهم وبالطريقة التي تطمئن إليها خلفياتهم السياسية وتقرها ، ولم يكونوا بعيدين عن التحيز أو خدمة الأغراض أو الجهات التي دفعتهم مسبقاً للبحث في موضوع كهذا . فالاتجاه الغربي الذي تمثله مدرسة خاصة ، تفسر الصراع الذي شهده العراق الحديث ، بعد انهيار الحكم العثماني ، أي في فترة ظهور ما يسمى بالحكم الوطني ، أو عند قيام الحكم الجمهوري ، تفسره على أنه صراع بين جيل الشباب والجيل القديم في عهد الحكم الوطني الذي انتهى بانتصار عقلية الشباب الذي حصل على علومه ومعارفه من الغرب على العقلية القديمة ، التي كانت تهيمن على مقاليد الأمور ، ولا تسمح بمشاركة الطاقات الشابة لها في تقلّد المناصب الحكومية ، التي تسمح لها بالتعبير عن رغباتها على الواقع العملي ، أما في العهد الجمهوري فقد كان الصراع بين التيار الوحدوي من جهة والتيار الذي يقف ضد الوحدة من جهة أخرى[1] ، أما المفكرون اليساريون فكانوا دائماً يقدمون تحليلات جاهزة يعتبرونها صالحة لأي زمان ومكان ، فالنظرية الماركسية التي يلتزم هؤلاء بتعاليمها حرفياً تقدم لهم تفسيرها المعهود الذي يقول بأن الصراع في المجتمع العراقي جزءٌ لا يتجزأ من الصراع الذي ينجم عن حركة التاريخ ، صراع القوى الفاعلة في المجتمع ، طبقة العمال والفلاحين من جهة وطبقة القوى التي تستغل هؤلاء من جهة أخرى ، الطبقة التي تمتلك الأرض والآلة ورأس المال . وعلى الرغم من أن

(١) العراق الجمهوري ، مجيد خدوري ص ١٦٤ .

الصراع في ظاهره قد أخذ الأشكال السالفة في خطه العام ، إلاّ أن هذه الأشكال من الصراع لم تكن إلاّ إفرازات خجولة ، لم يكن يسمح بأن يعلل الصراع على أسس غيرها لأسباب عديدة . منها أن مجمل حركة المجتمع العراقي لم يكن بالامكان تشخيص كوامنها بطريقة لا تتفق ومحمل التحليلات العامة التي يُراد لها أن تتداول في العلن ، وهو ما كان مطلوباً في الواقع الإشارة إليه والتحدث عنه . هذه الإفرازات في واقعها لم تكن إلاّ ما طرحته العلّة الحقيقية لهذا الصراع وليست هي بعينها ، وبسبب تشابك عوامل عديدة ومصالح متعددة كثيرة لم يكن ممكناً التحدث عنها إلاّ قليلاً ، وهؤلاء الباحثون عندما يمرون على أصل القضية وعقدتها ، فإنهم يقفزون عنها بسرعة تاريكن علامة بسيطة كواحدة من العلامات الأخرى على الطريق ، إذا لم يكن ضوؤها أقل خفوتاً وضعفاً ، ولم يكن لديهم من الشجاعة الكافية أن يتوجهوا إلى مكامن العلل الحقيقية ، فيوجهوا إليها الأضواء ويقدموها إلى الجماهير كما هي ، إضافة إلى أن كلَّ مَنْ تَصدَّىٰ للبحث في تاريخ العراق السياسي يلتصق بظروف وأسباب هذا الصراع بشكل أو بآخر ، وكانوا دوماً يعبرون عن وجهة نظر الوجه السلبي لمسببي هذا الصراع الحقيقيين ، أما غيرهم فإنهم لم يكونوا قادرين على الإبداع في البحث وهم مقيدون بأفكار يعتبرون الخروج عليها أو ملائمتها للظروف الحقيقية أمراً لا يمكن تصور إمكانية حدوثه أو قبوله ، وهذه المدرسة المسماة بالعلمانية بكل اتجاهاتها ، الغربية والماركسية وغيرها ، كانت ملزمة مصلحياً وفكرياً بالوصول إلى النتائج المعروفة التي وصلت إليها في بحوثها . ولم يكن الكتّاب والمفكرون الإسلاميون أكثر توفيقاً في هذا المجال ، فقد كانت بحوث القسم الأكبر منهم بحوثاً تقريرية لا تحمل من العمق الذي يعطيها صفة الجدية ، فكانت استنتاجاتهم خالية من الإشارة الحية للعلاقة بين الحدث ومسبباته وعلله ، وهم قد وقعوا في وهم شائع بأن الحديث عن المشكلة في بعدها الحقيقي يثير المخاوف والشكوك لدى الآخرين ، وأعتقد جازماً لو أنهم ساروا في بحوثهم إلى مداها الأقصى لقدموا خدمة لا يمكن أن تقدر بثمن ، وستكون بالفعل مقبولة ومعتمدة ، وإذا لم يكن ممكناً الحصول على ثمار هذا التشخيص أو جعله مقبولاً الآن ، فإنه سوف يكون كذلك في المستقبل عندما يصبح الأمر واقعاً مفروضاً على كل أطراف الصراع ، وبذلك يكونون قد قدموا لمجتمعاتهم خدمة كبرى .

ـ منذ سقوط خلافة الإمام علي عليه السلام في الكوفة قبل ما يقرب من ١٤٠٠ عام من الآن ، وبعد سيطرة معاوية على الحكم وسرقته له ، تعاني جماهير العراقيين من الظلم والاضطهاد المستمرين . فالذين ظلوا موالين لخط العدالة الذي انتهجه الإمام،وهم

الكثرة الساحقة من سكان العراق والذين سموا فيما بعد بالشيعة ، هؤلاء خضعوا باستمرار لحكم أقلية كانت تحصل على كل شيء وتمسك بيدها بكل شيء ، بينما حرموا هم من أبسط حقوق المواطنة، وكان ينظر إليهم في مختلف العصور والعهود بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية، ومتمردون وثائرون بأصابع الشكوك والاتهام، في الوقت الذي يتولون فيه بذل كل الجهود من أجل أن تدور عجلة حركة المجتمع التي تدر على الأقلية بإمكانات لم تكن في يوم ما محدودة لتأمين رفاهها وتنعمها ، ولم يحدث أن شذت الأوضاع العامة عن خط سيرها عن هذه المعادلة اطلاقاً إلاّ في حالات نادرة، لم تترك أي أثر على إدامتها واستمرارها ورسوخها ، ولقد كان الصراع في العهدين الأموي والعباسي علنياً بين أطرافه ، ولم يكن كل طرف يخفي أهدافه عن الآخر ، فالصراعات تحكمها ظروف تاريخية معينة كانت مكشوفة وواضحة، ولسنا بحاجة لالتماس وقائع نوردها هنا لإثبات هذا الأمر ، وكان من نتائج هذا الصراع حدوث تمرّد وثورات متعددة على طول التاريخ ، وكانت أرض الكوفة والبصرة مسارح دامية لأطراف الصراع يتبادلون فيها الانتصار من حين إلى آخر . ولأسباب معروفة ، أهمها سقوط العراق تحت حكم الغرب، والانهماك بترتيب أوضاعه واستقراره ، لم يكن ممكناً الحديث عن الصراع بالصورة التي كانت تتم قبلاً ، على الرغم من أن الأمور بقيت كما هي ، وأسباب الصراع وكوامنه ظلّت كما هي دون تبديل ، فلقد تمّ تغليف الصراع بأغلفة جديدة، وألبس لبوساً فلسفياً فرضته ظروف تطور العالم وأحداثه المستجدة ، إضافة إلى ظهور أفكار وفلسفات جديدة كانت تشغل حيزاً واسعاً من أذهان الناس ، بحيث أصبح الحديث عنه، بحكم الأوضاع الجديدة، أمراً يحتاج إلى شجاعة فائقة وتحملاً وصبراً عظيمين، لكون هذا الصراع قد دخلت عليه عناصر وعوامل جديدة ، لم تكن في حقيقتها سوى عوامل إضافية وعناصر دخلت عليه نتيجة لدخول العالم كله في مرحلة جديدة من تاريخه . فلقد عمقت هذه العناصر الشعور العام بالإجحاف وفقدان العدالة التي كانت سائدة أيضاً في العصور التي سبقت سقوط العراق تحت نير الاحتلال الغربي ، وزادت من حدة الصراع وانتشار حالة الترقب والشكوك ، وقد شجع على ذلك استعداد أحد طرفي النزاع على استثمار المستجدات الجديدة وعمله المثابر لأن يستأثر بكل شيء، وبالقدر الذي كانت تبديه وتقدمه عناصر الأوضاع الجديدة من تشجيع على ذلك ، وهي بالفعل كانت تقف إلى جانب أحد طرفي الصراع ضد الآخر ، لاطمئنانها إليه أكثر . فالإنكليز كانوا قد خططوا لإقامة حكم جديد يختلف عن صيغته القديمة المتمثلة بالاحتلال ثم الانتداب ، ووجدوا أنفسهم يحققون ذلك اعتماداً على الأقلية التي سوف تدافع عن امتلاكها ومكاسبها الجديدة بكل قوة ، وهو شأن

الأقلية ، وبذا يكون الإنكليز قد رتبوا الأوضاع بما يؤمن مصالحهم الثابتة والمستمرة في العراق بعد أن تبادلوا المنافع مع من سلموا بأيديهم مقاليد الأمور .

ـ لم يكن وضع الشيعة في العهد العثماني ، وهم أكثرية السكان ، أحسن حالاً منه تحت ظل السيطرة البريطانية ، فهم لم يشكلوا إلاّ جماهير غفيرة تدفع كل شيء إلى الولاة والحكام الأتراك دون أن تحصل على شيء ، لم يكن للشيعة أي وجود في السلطة، وكانت هذه بالمقابل لا تسمح لهم بأي نوع من أنواع المشاركة ، إضافة إلى الإهمال الشديد المتعمد الموجه ضد الشيعة ومناطقهم التي ظلّت متخلفة تماماً عن بقية مناطق العراق الأخرى ، فمنطقة الديوانية التي تشكل نسبة سكانية عالية جداً لم تكن تتيسر فيها مدرسة واحدة ، كما أنها لم تشاهد ولا مرة واحدة طبيباً طيلة العهد العثماني ، وفي الوقت الذي كانت فيه السلطة العثمانية تفتح المجال واسعاً أمام أبناء السنة للدخول في الجيش والكلية العسكرية في استنبول ، لم يكن ذلك ممكناً بالنسبة لأبناء الشيعة على الإطلاق ، وفي الحالات التي يتم فيها قبول أحد من مناطق الشيعة كضابط في الجيش العثماني فإنه يتم اختياره من بين العوائل السنية القليلة الساكنة في الوسط والجنوب ، وكمثال بسيط على ذلك فعبد المحسن السعدون الذي عمل ضابطاً في الجيش العثماني من عائلة سنية تسكن محافظة الناصرية التي يعتبر سكانها جميعهم من الشيعة ، وبحق فإن الأتراك يعتبرون واضعي الأسس العملية لنظام الإدارة والحكم الذي لم يتغير مطلقاً ، بل إنه استمر إلى يومنا هذا متبعاً نفس الأسس والأساليب التي وضعت له تحت ظل الحكم العثماني ، وعلى الرغم من أن هذه القواعد والنظم لم تكتب وتدون لتصبح شرائع معتمدة قانونياً ، إلاّ أنها في واقع الحال تظل راسخة في الأذهان يجري اقتفاؤها جيلاً إثر جيل . وكلما اندثر عهد اقتضى العهد الجديد آثاره ، فبالإمكان أن يتبدل كل شيء إلاّ هذه القوانين والأعراف والأنظمة التي تحرم فئة من الشعب حقوقها ، وتضع بيد فئة أخرى قليلة كل شيء خلافاً للمنطق والتاريخ والعدالة والانصاف .

ـ وقفت جماهير الشيعة ، بعد احتلال العراق من قبل الإنكليز وانكشاف نواياهم الحقيقية وتنكرهم لوعودهم ، ضد السلطة الإنكليزية، وعبروا عن رفضهم لها بأشكال عديدة ، وفي الواقع فإن القيادة الشيعية قد وقفت ضد الإنكليز قبل احتلالهم للعراق ، وقد اشتركت مجموعات مجاهدة كبيرة منهم بقيادة العالم الديني الكبير سماحة السيد محمد سعيد الحبوبي إلى جانب الأتراك في قتالهم ضد الإنكليز اعتباراً من الفاو ، الذي بدأ فيه الإنزال وحتى الشرقاط جنوب مدينة الموصل . وكان يدفعهم لذلك اعتقادهم

بواجبهم الإسلامي الذي يفرض عليهم مجاهدة أعداء الإسلام والحفاظ على أرض المسلمين ودولتهم ، على الرغم من أن علاقات الأتراك بالشيعة لم تكن طيبة، وقد تضرر الشيعة كثيراً من السلطة العثمانية . لذا فإن الإنكليز بعد فشل ثورة العشرين قد صمموا ، على ضوء الحقائق التي ترسبت لديهم ، أن يشكلوا ما يسمى بالحكم الوطني في العراق على أن تظل السلطات الحقيقية بأيديهم، ثم تنتقل السلطة بالتدريج إلى أيدي العراقيين ، وكان أن قاموا بتأسيس حكومة مؤقتة، وعهدوا برئاستها إلى أحد أعمدة السنة في العراق، وهو نقيبهم في بغداد الذي شكل وزارته الأولى، ولم تكن تضم بينها سوى وزير واحد من الشيعة ، وقد ضمت يهودياً واحداً لوزارة المالية ، وآخر مسيحياً للصحة ، وقد بيت الإنكليز الخطة ونفذوها ، فمندوبهم السامي كان هو الشخص الرئيسي الذي يقرر من هو رئيس الوزراء ومن هم الوزراء . ثم انتقلت من بعده إلى دار السفارة البريطانية في بغداد إضافة إلى الملك فيصل الأول الذي كان يتفق مع الإنكليز بتعيين رئيس الوزراء وقسم من الوزراء ، وبدون موافقة الملك وتنفيذ آرائه لم يكن ممكناً تشكيل الوزارة على الاطلاق . ولقد استمر الأمر على هذه الحالة دون أن يتغير منه شيء مطلقاً ، فمن الفترة ١٩٢٠/١٠/٢٥، وهو تاريخ تشكيل أول وزارة عراقية مؤقتة وحتى عام ١٩٤٠ تم تشكيل ٢٣ وزارة لم يكن أي رئيس من رؤسائها شيعياً ، كما لم يتجاوز الوزراء الشيعة الأربعة ، بل كان في معظمها لا يتجاوز عددهم الواحد من مجموع عشرة أو اثني عشر وزيراً ، وإذا علمنا بأن الفترة المذكورة هي التي تم فيها إرساء أسس الدولة العراقية ومؤسساتها ، فلنا أن نعلم الأسس الحقيقية التي استندت إليها هذه الدولة ، وكان الإنكليز يشرفون على هذه الحالة ويحكمونها ، وهم إلى الآن يقفون وراءها ويحافظون عليها ، فلم تكن أصابعهم بعيدة عن ما يجري في العراق أبداً ، وكان موظفوهم منذ دخولهم للعراق يعملون ضد الشيعة ، وهذه الآنسة جرترودبل ، سكرتيرة المندوب البريطاني السامي، والتي كان لها دور بارز في توجيه نشاط الدولة وترتيباتها ، تكتب بمناسبة احتجاج الشيعة على عدم تمثيلهم تمثيلاً عادلاً في مجلس الدولة ، تقول: (أما أنا ، شخصياً ، فابتهج وأفرح أن أرى هؤلاء الشيعة الأغراب يقعون في مأزق حرج ، فإنهم من أصعب الناس مراساً وعناداً في البلاد)[1] . نعم إن الشيعة هم الغرباء، أما الإنكليز وعملاؤهم فهم أهل البلاد وساداتها ! لقد عمل الإنكليز خلال سيطرتهم المباشرة على تثبيت هذا النهج وترسيخه ، ولقد أصبح أمراً واقعاً ، تقف وراءه مؤسسات خفية منظمة واجبها مراقبة تنفيذه بدقة، وتضع الخطوط الحمراء والخضراء التي يمكن تجاوزها، أو تلك التي لا يمكن

---

(١) دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث ، عبدالله النفيسي ص ١٩٩ .

تجاوزها على الإطلاق ، فاستولى السنة على مقاليد الحكم وحرموا جماهير ساحقة من التمتع بحقوقها ، فأصبحت ترى في مناطق الجنوب ، في الألوية والأقضية والنواحي موظفين من مدن الشمال يشغلون كل الوظائف الحكومية اعتباراً من المتصرف ـ المحافظ ـ وحتى مفوض الشرطة ، وليت الأمر اقتصر على ذلك ، بل إن هؤلاء الحاكمين يشعرون بالكراهية تجاه المواطنين الذين يحكمونهم ويعاملونهم بقسوة واحتقار، ولا يقيمون وزناً لكل أعرافهم وتقاليدهم . وكان أن ساد الحسد والتباغض بين الشعب الواحد في طول البلاد وعرضها ، فلم يعد ممكناً في وقت من الأوقات أن تراجع دائرة رسمية لإنهاء معاملة رسمية في بغداد وأنت تحمل اسماً شيعياً ، حيث يمكن معرفة السني من الشيعي بمجرد أن تعرف اسمه ، وهذا الملك فيصل الأول نفسه عميل الإنكليز وصنيعتهم لا يخفي في حديثه الوضع المأساوي الذي يعيشه الشعب العراقي، (العراق مملكة تحكمها حكومة عربية سنية مؤسسة على انقاض الحكم العثماني ، وهذه الحكومة تحكم قسماً كردياً أكثريته جاهلة ، بينه أشخاص ذو مطامع شخصية يسوقونه للتخلي عنها بدعوى أنها ليست من عنصرهم ، وأكثرية شيعية جاهلة منتسبة عنصرياً إلى نفس الحكومة ، إلَّا أن الاضطهادات كانت تلحقهم من جراء الحكم التركي الذي لم يمكنهم من الاشتراك في الحكم وعدم التمرن عليه والذي فتح خندقاً عميقاً بين الشعب العربي المنقسم بين هذين المذهبين)[1]، ثم يضيف نقلاً عن الشيعة الذين كانوا يتظلمون ويحسون بعمق مرارة الوضع الذي يعيشونه، (ان الضرائب على الشيعي والموت على الشيعي والمنصب للسني ، ما الذي هو للشيعي ، حتى أيامه الدينية لا اعتبار لها)[2].

ــ هناك من يردد مقولة بأن (الشيعة يصلحون للثورة والتمرد والعصيان ، والسنة يصلحون للحكم) . وهم بذلك يؤكدون شعور الشيعة بأن عليهم أن يموتوا ويقاتلوا ويحموا الدولة ويشكلوا لحمة الأجهزة التي تحافظ عليها ، بينما يجلس السنة على رأس السلطة ، لأن كل منهما لا يتقن غير العمل الذي يليق به ، هذا الإطلاق لا يوجد ما يسنده في الواقع العملي، فالذي يستطيع تنظيم ثورة ويفجرها قادر إلى حد ما أن ينظم ويدير حكماً ، وكل ثائر قد تواجهه مصاعب واخفاقات ، ولكنه يظل متحملاً أعباء السيرة ومشاقها ، مهتدياً بنظريته الثورية التي تعينه على شق الطريق ، وليس أفضل من الإسلام مرشداً وهادياً ، والقول بأن الشيعة لم يدربوا على الحكم أمر لا يجب أن يحول دون اشتراكهم الفعلي وممارستهم لحقوقهم ، وإذا أردنا أن نجاري الملك فيصل الأول بقوله

---

(١) و(٢) تاريخ الحركة الديموقراطية في العراق، عبدالغني الملاح ص ٣٢ و٣٣.

بأنهم غير مدربين وهذا أمر مشكوك فيه، فهل يجب أن يظلوا خارج التجربة كي يظلوا محرومين من التدريب الضروري الذي يؤهلهم لأداء عملهم بصورة صحيحة ، يمكن أن نوافق على وضع كهذا في بداية العشرينات جدلاً ، إذا كان في الإمكان تحمله ، حيث لم يكن مطلقاً كما يدعي من ذوي النوايا غير الحسنة ، لدى الشيعة ما يكفي من الكوادر المؤهلة للعمل ، فهل يمكن السكوت بعد أن أصبح لديهم أجيال من العلماء والقادة والمفكرين الذين يتمتعون بخبرات متعددة الجوانب متكاملة؟ أم أن الوضع أصبح عرفاً وعادة لا يمكن تغييرها أو المساس بها؟ وإذا كان هذا الوضع الشاذ من صنع الاستعمار ومخلفاته وتوجهاته فلماذا الإصرار على المحافظة عليه وإبقائه؟ أليس جديراً بأن يأخذ أولئك الذين يدعون بأنهم يكافحون الاستعمار ومخلفاته على عاتقهم مهمة إكمال التغيير بالقضاء على كل مرتكزاته التي تركها خلفه، بهدف استمرار حالة الغليان الخفي والعلني التي يولدها الشعور بالإحباط والغبن، والتي قصد دهاقنة مخططي الاستكبار أن يستثمروها لاستمرار سيطرتهم اللامشروعة بأوجه وأشكال جديدة؟.

ـ لم يتخلف الحكام في العهود التالية عن التصميم الذي وضعه الإنكليز لحكم العراق ، إلاّ عبدالكريم قاسم الذي سبب في النهاية سقوط حكمه ، فبعد سقوط الحكم الملكي الذي فرضته ظروف ذاتية ودولية وإقليمية وتسلم عبدالكريم قاسم للحكم ، حيث وجد نفسه مضطراً لأن يرفع البؤس والفقر عن طبقات مستضعفة مسحوقة واسعة كانت تسكن في أكواخ من الصفيح، أو بيوت من القصب، أو ما يسمى بالصريفة عامياً ، والتي تشكل في واقعها علامة مميزة للحكم المنقرض، ومعلماً رئيسياً من معالم السياسة البريطانية المجحفة في العراق ، والتي كانت نتيجة لوجود الاقطاع في مناطق واسعة من الجنوب والوسط ونشره البؤس والظلم والإذلال على جماهير الفلاحين الذين اضطروا إلى الهرب وترك مناطقهم الأصلية ، يبحثون عن لقمة العيش بعيداً عن بطش الإقطاع وإرهابه ، فالتجأوا إلى المدن الرئيسية وشكلوا حولها أحزمة من البؤس والفقر والتخلف المزري ، وكانت لبغداد حصة كبيرة منهم ، حيث شكلوا في القسم الشرقي منها حزام البؤس المعروف بمنطقة خلف السدة التي ضمّت آلاف العوائل التي تسكن الأكواخ القذرة الحقيرة في حالة يرثى لها وتدمي القلوب ، وكان ينظر إلى هؤلاء البؤساء بأنهم مواطنون من الدرجة العاشرة ، ويعاملون بقسوة وإذلال، وتطلق عليهم نعوت تحط من كرامتهم وشعورهم بالإنسانية ، مما ولد في نفوسهم الحقد والكراهية تجاه الطبقات المرفهة التي تقطن القصور، وتعيش حياة البذخ والترف إلى الجانب الغربي من السدة الترابية التي أُنشئت أساساً لتحمي بغداد من فيضانات نهر ديالى الذي يمر بقرب الجانب

الشرقي منها من الشمال إلى الجنوب . وكان هؤلاء البؤساء يعيشون بالطبع خارج هذه الحماية ، لقد تجذرت مشاعر الكراهية لدى هؤلاء بسبب الفارق الشاسع بين واقع حياتهم البائسة وبين حياة الآخرين،الذين يسكنون على مقربةٍ منهم عبر السدة في مناطق الوزيرية والأعظمية وراغبة خاتون،حيث يقطن أقطاب الدولة وأعمدتها والمستفيدون الرئيسيون من وجودها ، الذين لم يبذلوا أي جهد لرفع مستواهم الاجتماعي والثقافي والصحي،وكأنهم غير موجودين أصلاً . لقد أفرزت تلك الفوارق الكبيرة في الحياة بين جانبي السدة عوامل الشكوك والترقب المتبادل ، وظن أهل الجانب الغربي من السدة بأن هؤلاء يشكلون خطراً جسيماً على حياتهم ووجودهم ومستقبلهم ، ولقد اعتقد القسم الأكبر منهم بأن هؤلاء سوف يسحقونهم سحقاً فيما لو أتاحت لهم الظروف في المستقبل فرصة ملائمة ، كحدوث حالة من الفوضى التي لا يمكن السيطرة عليها ، وبسبب العقدة الطائفية المتأصلة في نفوس الوجهاء والمتنفذين منهم وهم أهل الحل والعقد ، لم تكن لديهم الرغبة لمساعدتهم ورفع مستواهم للقضاء على وضع لا يلائم الطرفين،بل ربما كانوا يضمرون في أنفسهم نوعاً من التشفي الموروث تجاه هؤلاء البؤساء ، ولقد وجد عبد الكريم قاسم،ولأجل أن يقال عنه بأنه قائد ثورة وتغيير ، وعلى الرغم من كونه سنياً إلَّا أنه لم يظهر عليه ميل طائفي ، وجد نفسه ملزماً بتغيير الوضع وإرساء مبدأ العدالة الاجتماعية بالتدريج ، وكان أن بدأ بإحداث تغيير أساسي في حياة سكان الصرائف والأكواخ في منطقة خلف السدة،وأبدى تعاطفاً معهم،وكان يزورهم مرات عديدة ويشرف شخصياً على تنفيذ المخطط الذي وضعه بنفسه لإحداث مثل هذا التغيير ، وبعد سنتين اختفت الأكواخ بصورة كاملة،وانتقل القسم الأكبر من هؤلاء إلى مناطق جديدة ، ووزعت عليهم قطع الأراضي السكنية مجاناًإضافة إلى حصول قسم منهم على مساكن حكومية ملائمة ، وبدا بأن عبدالكريم قاسم بدأ يتجه لكسب تأييد الشيعة خاصة الفقراء منهم ، الذين كانوا يستقبلونه استقبالاً عظيماً عند زياراته لهم في مدينة الثورة،التي بدأت تسمى بها المنطقة الجديدة التي انتقل إليها بؤساء خلف السدة ، وكانوا يحملون سيارته الشخصية دلالة على عمق الحب الذي يكنونه له ، كما وأن قاسماً بدأ يدرك أيضاً بأنه ولأجل أن يستمر في مخططه هذا،فإنه يتوجب عليه أن يعيد النظر بالتصميم القديم الذي وضعه الإنكليز ومن قبلهم الأتراك لإدارة شؤون البلاد حاضراً ومستقبلاً ، وبالفعل فقد لوحظ في الفترة التي حكم فيها العراق ، على قصرها ، تحول ملحوظ في هذا الاتجاه ، وبدأت الكلية العسكرية تستقبل أعداداً أكبر من أبناء المحافظات الوسطى والجنوبية، وفتحت أبواب الجامعات على مصراعيها،واستطاع أبناء الشيعة أن يحصلوا على مقاعد أكبر في البعثات الدراسية التي كانت وزارة المعارف ترسلها إلى أوروبا ، وبدأت الدوائر الرسمية تتعامل

مع الناس وكأنهم أبناء لأب واحد ، فالمشاريع الصناعية والإنمائية والاجتماعية والسكنية بدأت تظهر في المحافظات التي يقطنها الشيعة التي لم تشهد في حياتها أي توجه مماثل من قبل ، وبدأت الحياة تزدهر كي تعم كل العراق دون استثناء ، وبغض النظر عن بعض المظاهر السلبية التي ظهرت خلال حكم عبدالكريم قاسم ، إلاّ أنه كان الشخص الوحيد في تاريخ العراق ممن عمل على خلق روح جديدة ونمط جديد في الحكم . وبذا يكون قد أثار حفيظة الإنكليز الذين بدأوا يحسون بأن هذا التغيير الذي يجري الآن في العراق لم يكن أبداً في صالحهم ، بل إن مخططهم الذي صرفوا عليه جهداً ووقتاً كبيراً بدئ وكأنه آخذٌ بالتهاوي ، ولم يكن الإنكليز وحدهم الذين شعروا بهذا التحول،بل إن حلفاءهم القدامى قد ادركوا ذلك قبلهم ، فبدأ الحلف بالتحرك المضاد للوقوف في وجه التغيير الجديد قبل أن يستفحل ، وبدأ العمل المكثف ورفعت شعارات جديدة له ، وانضوت كل الأدوات والأوساط التي كانت تقف قبلاً مع النظام القديم،واصطفت مع قوى جديدة للعمل ضدّ قاسم ، وأصبح العراق يعيش جواً مشحوناً بالتوتر والاضطرابات،كان للقوى الكبرى اليد الطولى في التخطيط لهاودعمها،أدت آخر المطاف إلى الإطاحة بحكم عبدالكريم قاسم وقتله .

ـ وكما كان متوقعاً فلم يسقط عبدالكريم قاسم لوحده ، بل سالت مع انهيار حكمه انهار من الدماء البريئة ، نتيجة اختزان الأحقاد الطائفية التي كانت تتوثب وتنتظر الفرصة الملائمة للتفجر في كل الاتجاهات،ناشرة الموت والدمار في كل زاوية من أرض العراق من شماله إلى أقصى جنوبه . وكانت مدينة الأعظمية،وهي مركز المقاومة السنية المنظمة،حيث يمسك أبناؤها على مفاصل الحركة الأساسية والرئيسية في الدولة، وأهمها القوات المسلحة،حيث يسكن فيها عدد كبير من الضباط ذوي الرتب الكبيرة الذين يحتلون مناصب رفيعة في الدولة ، وهي المدينة الوحيدة،ليست في بغداد،بل في العراق كله التي أنشئت فيها أول أحياء خاصة بالضباط ، إضافة إلى ذلك،فإن الجهاز السني الحاكم يسكن أغلب أفراده فيها،إضافة إلى مدينة الوزيرية التي تلاصقها والتي تشكل في الحقيقة حي الأرستقراطية السنية الحاكمة في العراق ، أما الذين ساعدوا في الإطاحة بقاسم من غير السنة فكانت تدفعهم الأنانيات،بسبب أن قسماً كبيراً منهم قد فقد امتيازاته القديمة ، أو أنه يشعر بالخوف والقلق من ضياعها إن ظلّت حكومة عبدالكريم قاسم في الحكم مدة أطول ، أما الآخرون فمنهم المخدوعون بالشعارات البراقة الذين لم يستطيعوا أن يدركوا خطورة المخطط وأبعاده ونتائجه ، كما كان هناك قسم المرتبطين أصلاً بمخططات الأجانب الذي كانت تعده دوائرهم الاستكبارية ، وليس غريباً أن تقف هذه الدوائر هذا

الموقف المعادي قاسم، لأنه بدأ يخرج عن التصميم الأساسي لمشروع الدولة العراقية الذي رعته وتعهدته لمدة طويلة سابقة ، وربما كانت الشعارات التي رفعت في حينها لافتة لإسقاط عبدالكريم قاسم ساعدت على خداع جماهير كثيرة ومن أطراف عديدة ، كالوحدة مثلاً أو إقامة نظام اشتراكي ـ عربي ، لكن قادة المؤآمرة كانوا يحيطون ذلك بإطار سني صرف ، وكان هدفهم النهائي السيطرة على مقاليد الحكم وإعادة احكام ضوابطه القديمة ، ولقد لعب الحقد الطائفي دوره دون رحمة أو شفقة ، وتم تصنيف أعداد كبيرة من الشيعة على أنهم يستحقون الموت ، وتم تصفيتهم بأعصاب باردة حيث سالت الدماء في شوارع بغداد والمدن العراقية الأخرى وأزقتها إشباعاً لرغبة الانتقام المخزون ، كل ذلك يجري باسم القضاء على الشيوعية التي لم يكن يفهم الناس منها شيئاً تارةً ، وتارة أخرى باسم القضاء على الشعوبية ، ولقد امتلأت السجون بآلاف من الناس الذين كانوا في معظمهم أبرياء ، وبدأت القطارات تحمل السجناء إلى نقرة السلمان في الصحراء الغربية الجنوبية في بادية السماوة وهو سجن سيء الصيت ، ولم يكن هناك مبرر جدي للقيام بهذه الحملة الشرسة التي خلت من كل صفات الإنسانية ، إلاّ إذا كانت مشاعر الكراهية والحقد التي كانت قد تجذّرت في نفوس أهل السنة ، أو القسم الأكبر منهم ، هي العامل الوحيد لكل ما حدث بالفعل ، لقد كان يرافق الأجواء العامة هذه موجة من الحقد والكراهية توجه ضد الشيعة ، فقد كان يطلق على الشيعة الذين يسكنون مدينة الثورة مثلاً (شروكي ، شيعي ، شيوعي) ، الشينات الثلاثة سيئة الصيت ، ومن ثم الصقت الشعوبية كسبة عظيمة بالشيعة ، ولم ينفعهم أبداً بأن حزب البعث ضم في صفوفه بعض الشيعة ، على أن انتشار الشيوعية في الحقيقة لم يكن مقصوراً على الشيعة فقط ، فأوساط واسعة من السنة كانت تسير في مخطط الشيوعية، بل إن قادة الحزب الشيوعي العراقي في معظمهم من السنة ويشكل العانيّون ـ أبناء مدينة عنّه ـ فيه نسبةً كبيرة ، كما وأن مدينة الموصل وهيت ومناطق أخرى كثيرة تضم تنظيمات شيوعية واسعة وقوية ، إلاّ أن هؤلاء في الحقيقة لم يصبهم ما أصاب الشيعة ، لكون هؤلاء ـ أي الشيعة ـ محرومين من أي وجود رسمي في الدولة، وبالحجم الذي يستطيع فيه أن يكبح جماح الحقد الطائفي الذي كان يمارس ضدهم باسم العروبة والقومية، وبأسماء وعناوين أخرى تبعاً لظروف الأحداث وتداخلاتها[1] .

ـ لقد كان الفكر القومي في العراق والتيار المسمى بالوحدوي يعاني تناقضاً

---

(١) اشترك المؤلف في أحداث ٨ شباط عام ١٩٦٣ ولا تزال ذكريات أيامها الدامية ماثلة في ذهنه إلى اليوم .

غريباً ونقصاً فاضحاً داخل تركيبته التنظيمية والجماهيرية ، فعلى الرغم من آفاق الوحدة التي ينادون بها واسعة وشاملة ، وكراساتهم تزخر بالتثقيف الحزبي والدعائي الذي يرتكز كما يدعون على فكرة الإنسانية للحركة القومية، وعلى أن العربي هو الشخص الذي يؤمن بأهداف الأمة العربية، بغض النظر عن انحداره القومي أو الديني أو الطائفي ، إلَّا أن هذه التركيبة تعيش في واقعها أغرب التناقضات وأعمقها بين ما تدعيه قولاً وبين ما تمارسه عملاً في سلوكها اليومي أو العلاقات التي تتحكم في مسيرتها ، فإن أهم مظاهر هذا التناقض الصارخ هو وضوح الروح العنصرية والطائفية وطغيانها على سلوك أفراد التنظيم الحزبي الذي يشكل في دوره خليطاً متناقضاً هو الآخر ، وهذا التيار عموماً يعيش في واقعه انقسامات حقيقية كبيرة ناجمة عن عدم إمكانية النزوع للعمل بمستوى الأهداف التي ينادي بها ، لذا نراه في واقعه العملي يعاني من أمراض اجتماعية مهلكة، تعمل عملها في تحطيم التجانس في المواقف العملية بين أعضائه ومؤيديه وجماهيره ، فالنوازع الطائفية والقبلية والعنصرية تفعل فعلها الواسع بين أوساطه ، وليس أدل على ذلك اعتماد كل نظام من الأنظمة المتعاقبة على مجموعة عشائرية معيّنة، أو طائفية لتسيير دفة أمور الحكم وضبط المعادلات التي تحكمه بدقة ، لذا فإن جميع من كانوا ينادون بالوحدة العربية لم يكونوا جادين للعمل لها بسبب الكوابح العاملة باتجاه معاكس لها ، وعلى رأسها الأطماع الشخصية وضيق أفق التفكير والأنانية وحب السلطة المفرط ، ولا يمكن أن يقال بأن الشيعة ينظرون بعين الشك إلى المساعي التي تبذل والجهود التي ترمي إلى تحقيق الوحدة ، بل لأن السنة، وهم أهل الحل والعقد، لم يكونوا جادين في عملهم من أجلها، وهم في الواقع متفوقون على إخوانهم الشيعة برفعهم الشعارات واللافتات العريضة والدعاية من أجلها فقط ، لم يكن الشيعة متخلفين كثيراً عن العمل من أجل الوحدة ، ولكنهم كانوا ينظرون إلى أن الواقع العملي لحركة التيار القومي في العراق هو واقع طائفي وعنصري، يمتد إلى جذور النزاع القديمة، التي لم يكن التخلي عنه بسهولة إطلاقاً ، وكانوا يلحظون بأنهم محرومون من أن يكونوا مواطنين متساوين مع غيرهم، على الرغم من أنهم قد تحمّلوا أعباء كبيرة في مجال الدعوة للوحدة ، ولقد كان قادة ثورة العشرين أكثر قومية من غيرهم، وأكثر وضوحاً في مجال العمل من أجل وحدة العرب ، وإذا كانت عملية بناء نظام سياسي دائم في أي بلد من بلدان العالم يتعرض للتغيير تتطلب ظروفاً ملائمة ومناخاً لهذا البناء ، فإن المسؤولية تقع في هذا المجال على عاتق قادة هذا البلد ورجاله المتصدين أو الصفوة المختارة منهم ، وإن المواطنين يجب أن يتفقوا على الدستور الذي يعيشون في ظله ، فأين هو الدستور الذي تسير حركة المجتمع

في ضوئه وتحكمه؟ إن ما نعنيه هنا هو وجود صلة وثيقة بين رجال السياسة والشعب ، وهذه الحالة تقتضي مشاركة الشعب أساساً في أي جهد يبذل من هذا النوع لإرساء بناء نظام اجتماعي ، فهل تمت مشاركة الشعب بكل الخيارات التي كانت تفرض عليه فرضاً من قبل ساسة يرون بأن من حقهم إصدار أوامر لا تقبل المناقشة؟ فكيف يتم هذا البناء؟ وما هي متانة الأسس التي يرتكز عليها في الوقت الذي تظل فيه الجماهير الغفيرة من الشعب بعيدة عن أي نوع من المشاركة؟ وفي الحالات القليلة النادرة التي كانت تشارك فيها الجماهير بشكل محدود جداً ، فإنها تكون مستغفلة من قبل ذوي المطامع والمصالح الذين يطمحون إلى ترسيخ نفوذهم وسلطتهم على الحكم ليس إلاَّ ، فهل كيّف بناة النظام العراقي على امتداد أكثر من ستين عاماً مشاريعهم وخططهم مع واقع المجتمع الذي يعيشون فيه؟ لا زالت الشكوك قائمة في أن ذلك قد حدث في أي عهد أو أي فترة مرت بالعراق ، والدليل على ذلك الفشل الذي واكب بناء هذا النظام الذي يشكل وجوده حلقات متصلة لوحدة فكرة تغرف من منبع واحد على الرغم من التناقض الظاهري في أهداف وغايات من تولوا بناءه ، حيث يسير في واقعه على وتيرة واحدة تشكل الأرضية التي سارت عليها كل الأنظمة المتعاقبة ، والتي كانت ولا زالت تنتقل من فشل إلى آخر .

ـ من الأسباب الرئيسية لسقوط عبدالكريم قاسم تساهله في التعامل مع خصومه، إضافة إلى عدم تقديره لقوة أعدائه من جانب، وإلى الإمكانيات التي يمتلكها أصدقاؤه أو الذين كان يمكن أن يكونوا أصدقاءه ، ولو أنه استطاع أن يدير الصراع بالطريقة التي تسمح له بالتحرك في ساحة أرحب ، والغريب أن الأستاذ مجيد خدوري يعزو أحد الأسباب التي كانت تساعد عبدالكريم قاسم بالاستمرار بالحكم عدم تنفيذه أحكام الإعدام برشيد عالي الكيلاني الذي ثبت تآمره عليه لإسقاط حكمه ، كذلك عدم تنفيذه أحكام الإعدام بمنفذي محاولة الاغتيال التي كانت تستهدفه عام ١٩٥٩، والأستاذ مجيد خدوري واحدٌ من الذين لم يضعوا الإنصاف أمام أعينهم عند كتابتهم للتاريخ ، فكتابه (العراق الجمهوري) مليء بالمغالطات الكثيرة والتحيز الواضح ، ونحن لا نلوم السيد خدوري على عمله هذا، لأن دوافعه معروفة واتجاهاته الفكرية واضحة ، كما أن أهدافه ليست خافية على أحد ، فهو يقول في مقدمة كتابه هذا . (وأود في الختام أن أُشيد بالهبات التي قدمتها لجنة الشرقين الأدنى والأوسط التي يشترك في إدارتها مجلس أبحاث العلوم

(٢) يشغل السيد مجيد خدوري منصب رئيس معهد دراسات الشرق الأوسط في جامعة جونز هوبكنز في واشنطن ـ وهو مسيحي عراقي .

الاجتماعية والمجلس الأميركي لجمعيات العلماء، وهي هبات مكنتني في صيفي سنة ١٩٦٦ و١٩٦٨ من زيارة العراق والحصول على مادة الكتاب ، وغني عن القول بأن المجلسين غير مسؤولين عن الآراء الشخصية التي قد يعرب عنها هذا الكتاب)[١] .

ولكن هل كان للأستاذ خدوري آراء شخصية مخالفة للمجلسين المذكورين والتي (قد) يعرب عنها ، انني شخصياً ويشاركني العديد ممن لهم اطلاع على أهداف هذه المؤسسات لا أعتقد ذلك ، وقد علل الأستاذ خدوري موقف قاسم الآنف الذكر بأنه قد جعل السيف مسلطاً على رقابهم بانتظار الإعدام ، لقد كان الأجدر بقاسم أن ينفذ فيهم حكم الإعدام إذا كان يريد أن يظل في الحكم أو يطمح إلى ذلك ، ليس هذا فقط بل كان يتوجب عليه أن يتخذ إجراءات سريعة بحق المتآمرين عليه ،والذين كان قد حصل على معلومات أكيدة عن تحركهم ، أليس كذلك؟، لقد وقع قاسم ضحية الشعار الذي كان يردده (عفا الله عما سلف)،الذي استغله أعداؤه أبشع استغلال،انتهى آخر الأمر بتمكنهم منه ، ويعترض السيد خدوري على تشديد الحماية على عبدالكريم قاسم وكثرة الضباط حوله يرافقونه في تجوله ، وليته أرّخ لفترة الحكم التكريتي كي نقرأ ما يكتب عنها ، ويقيناً إنه سمع أو شاهد حجم الحماية وعدد السيارات التي لا تحصى التي ترافق صدام لأي مكان يزوره ، وكلنا أمل أن يصف لنا المشهد التاريخي لحضور صدام لمؤتمر القمة العربي الذي عقد في تونس والذي أثار فضيحة كبرى .

ـ لقد برز عبدالسلام عارف في تاريخ العراق الحديث كأبرز حاكم طائفي ، قد لا يصل إليه في طائفيته سوى أحمد حسن البكر ، الذي كان يختلف عنه بكونه طائفياً يعمل في الخفاء ويخطط بخبث ومكر عظيمين ، ففي الفترة التي حكم فيها عارف، خاصة بعد انقلاب ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣، كان الشارع العراقي يعيش أكبر انقسام طائفي في حياته ، وأصبح الصراع يتصاعد بين الشيعة والسنة إلى درجة أصبحت تهدد فيها وحدة الشعب العراقي بأخطار جسيمة ، ولم يخفِ عارف عداءه للشيعة ، وكانت حركة تشرين في واقعها تستهدف تعزيز النهج الطائفي لمؤآمرة شقيقها التي وقعت في شباط ، حتى أنه لم يستطع أن يخفِ امتعاضه من وجود عدد من الشيعة أعضاء في ما يسمى بمجلس قيادة الثورة ، ففي إحدى الاجتماعات لهذا المجلس،وكان جميع أعضائه قد حضروا مكان الاجتماع في القصر الجمهوري إلّا محسن الشيخ راضي ، وهو شيعي من النجف ،

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن تساهل قاسم مع أعدائه ، انظر كتاب عبدالكريم قاسم رؤية بعد العشرين ، من تأليف حسن العلوي .

حيث كـان الجميع ينتـظرون قـدومـه لبـدء الاجتمـاع ، فمـا كـان من عـارف إلاَّ أن بـادر الحاضرين قائلاً : (لماذا ننتظر هذا العجمي؟ دعونا نبدأ الاجتماع) . وكلمة عجمي تعني في قاموس غـلاة أهل السنـة كل شيعي حتىٰ ولـو كان معـروفاً جيـداً بنسبه العـربي ، ولا يخفى بأن الذين آزروا عارف في انقلابه على حزب البعث كانوا يشاطرونه كثيراً في آرائـه وتوجهاته الطائفية ، وكان قسم من هؤلاء أعضاء في قيادة الحزب نفسه ، ونظرة واحدة للبيان الـذي أصدره عـارف يوم الشـامن عشر من تشـرين الثاني ، تبين لنـا بعض دوافعه وسـوداوية أفكاره .(أدت الهجمات على حريات الشعب التي قام بها الشعوبيون المتعـطشون للدمـاء من أفـراد الحرس القـومي) . وكلمة شعـوبي يعرف العـراقيون مـا تعني فعلاً ، وهي في قاموس السياسة في العراق تطلق على الشيعة عموماً ، وعلى الرغم من أن الحرس القومي من تنظيمات حزب البعث، وقد نفذ هذا الجهاز مجازر رهيبـة وأعمالاً فخـرية في العـراق ضـد الشيعة لصـالح الاتجـاه القـومي ، إلاَّ أن هؤلاء لـم يسلمـوا أيضـاً من إطـلاق صفـة الشعوبية عليهم ، فهم وعلى الـرغم من الخدمـات الكبيرة التي قدموهـا لسلطة الانقلاب ، والتي كان عارف شخصياً يشجعهم عليها ، اتهموا بالعداء للقوميـة العربيـة ، ومرة أخـرى ينتهي انقـلاب تشرين إلى مـذبحـة أخـرى بحق الشيعة ، وتمتلىء بهم السجـون ويـطالهم الإعـدام والإرهاب والتعـذيب . وتفصـل أعـداد كبيـرة منهم من وظائفهم ، ويـطاردون في أرزاقهم ، فبعد كل مؤآمرة وانقلاب تصب السلطة الحاكمة الجديدة جـام غضبها وحقـدها على الشيعـة وحدهم ، وهكـذا كانـوا دوماً كبش الفـداء على مذبـح الأطمـاع الشخصيـة للحكام ، ولقد جاءت الوزارة التي شكلها طاهر يحيىٰ بعد ١٨ تشرين سنية صـرفة ، ولـم تحوِ في دورتها سوىٰ اثنين من الشيعة الذين كانـوا في واقعهم أبعد مـا يكون عن الشعـور بمشاعر أهلهم وعشيرتهم .

ـ (لقد كان عـارف ينتمي إلى عائلة متدينـة ، وبسبب شـدة تمسكه بـالإسلام راح يظهر تحيزاً للسنة ، مما أثار قلق الشيعـة والطوائف غيـر الإسلاميـة ، غير أن عـارف لـم يكن في صميمـه تقياً ودعـاً)[1] ، نعم لـم يكن عارفـاً تقياً ورعـاً ، لأنـه لـو كان مسلمـاً حقيقيـاً لما ارتكب كـل هذه المجـازر ، ولما عـانى الشعب تحت ظـل حكمـه كـل هـذه الويلات والآلام ، ولو كان في قلبه ذرة من الورع والتقوى لما سمح لنفسه بإهدار كل هذه الدماء ، ألم يكن مسؤولاً عن المجازر التي ارتكبت خلال فترة حكمه!! والمشجـع الأول عليها ، بل لـم يكن من النزاهة والاستقامة والشـرف حتى بسلوكه تجـاه أناس يفتـرض فيه

---

(١) العراق الجمهوري ، مجيد خدوري ، ص ٢٩٩ .

أنه قائدهم وهم قائمون على خدمته والدفاع ودرء الأخطار عنه ، لقد وصل به حقده الطائفي أن كتب رسالة إلى الملا مصطفى البارزاني زعيم الأكراد يغريه فيها على الاتحاد والتكاتف ضد من أسماهم بالشيعة الذين يشكلون في نظره الخطر الأكبر والأهم ، إلاّ أن الملا مصطفى البارزاني قام بإرسال الرسالة إلى السيد محسن الحكيم مرجع الشيعة في النجف، كي يفهمه بأن رئيس الدولة العراقية الذي يقاتل أبناء الوطن في سبيل تثبيت عرشه يخونهم ويبدي استعداداً لبيعهم عندما يرىٰ أن ظرفاً أفضل ـ بنظره ـ أصبح أكثر ملائمة لتغيير مواقفه ، ولم يكن الشيعة يجهلون موقف عارف منهم وشدة كرهه لهم ، ولقد كان ارتياح الشعب العراقي عموماً لموت عارف كبيراً ، فقد كان الصبية يطلقون بعض النوادر التي كان الناس يتهامسون بها ، فكنت تسمعهم يقولون بصوت عالٍ وهم مشغولون بألعابهم : (صعد لحم ونزل فحم)، إشارة إلى احتراق عارف في حادثة سقوط طائرة الهلكوبتر في منطقة القرية قرب البصرة . ولقد بدأت بالفعل حدة الطائفية تخف بين أوساط الناس بعد مجيء أخيه للحكم الذي لم يكن يظهر التمييز الطائفي في سلوكه وتصرفه العلني ، ويقول الدكتور مجيد خدوري : إن الشعب والرأي العام كان قد وقف مع أخيه عبدالرَّحمٰن عارف لأنه كان يحترم شقيقه ، لذا فقد ساعد ذلك على انتخابه[1] .

ونحن لا ندري كيف استطاع خدوري أن يقف على اتجاهات الرأي العام في العراق ليمكنه الحكم عليه بأنه كان يحترم ويحب عبد السلام عارف ، وهل أن عبدالرحمن عارف قد انتخبه الشعب، وعبر عن ذلك بأن نظم المظاهرات والمسيرات العفوية بنفسه إعراباً منه عن رغبته في استلام عبدالرحمن عارف لمنصب رئاسة الجمهورية اثباتاً منه لحبه لأخيه ، نعم كانت ثلة من أقارب عارف، وهم من عشائر الدليم وزوبع والجميلات الساكنة في محافظة الرمادي تلح على انتخاب أخيه حفاظاً منها على امتيازاتها وامساكها للسلطة واستئثارها بها . ويبدو أن السيد خدوري لم يكن يعلم بأن الاجتماع المشترك الذي عقده الوزراء ومجلس الدفاع الأعلى لانتخاب عارف قد اقتحمه العقيد سعيد صليبي الجميلي وحميد قادر وصعب الحردان، حيث قاموا بتهديد كل من لا ينتخب مرشحهم عبدالرحمن عارف ، فكان أن تم انتخابه بهذه الطريقة المهزلة ، ترى هل كان الوزراء وبقية أعضاء المجلس يمثلون الشعب العراقي؟ وكيف تمّ تفويضهم إرادة الشعب لأن يدلوا بآرائهم نيابة عنه ، ربما كان السيد خدوري يعرف ذلك جيداً ولكنه لغاية في نفسه يبتعد عن ذكرها والتحدث عنها ، أو كما يقولون (لغاية في نفس يعقوب) أو جاكوب .

ـ لم يكن لحزب البعث بصورة خاصة، وهو أكبر تنظيم قومي للحركة القومية

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٥٢ .

بصورة عامة، جماهير مؤمنة بـه واسعة بـالمعنى الحقيقي ، بل كـانت الناس تضطر إلى الاشتراك بالمسيرات والاجتماعات السياسية لأسباب عديدة منها : الخوف والانتهازية ومجاراة الوضع الراهن ، وخير دليل على ذلك ما حدث لأكبر تجمع جماهيري تم حشده في مدينة النجف الأشرف بعد مؤآمرة ٨ شباط ، حتى أن المدينة قد ضاقت بالجماهير التي أمّتها ، حيث كان مقرراً أن يلقي فيها طاهر يحيىٰ خطاباً رناناً ، وما كاد الحفل يبدأ ويتهيأ طاهر يحيىٰ لإلقاء خطابه، وارتقىٰ منصة الخطابة، حتى حدث ما لم يكن بالحسبان ، فلقد انطلقت الجماهير الحاشدة التي كان يغص بها الميدان الرئيسي للمدينة ، هاربةً لاتولي على شيء، وقد تكدست الأحذية في الميدان وأُلقيت الأسلحة ، وكانت الجماهير تتدافع مذعورة تلتمس الطريق للفرار إلى خارج منطقة المهرجان، لقد وصل الناس الهاربون إلى بلدة أبي صخير التي تقع إلى الجنوب من مدينة النجف بمسافة ٣٠ كلم جرياً على الأقدام ، وقد أمكن انقاذ طاهر يحيىٰ ونقله فوراً إلى بغداد، الذي لم يتمكن من إلقاء خطابه وقبل أن يباشر به ، لقد انتهىٰ المهرجان إلى فاجعة مضحكة محزنة ، تبيّن فيها عمق الهوة التي تفصل هؤلاء المحتشدين عن الذين راهنوا عليهم لإبراز سعة تأييد الشعب لهم ، وقد قيل في حينها بأن السبب في ما وصل إليه الوضع ، هو أن بعض القوميين ، ـ والنجف تحوي عدداً منهم ـ والذين كانوا قد فكوا تحالفهم عن حزب البعث ، هم الذين قاموا بقطع التيار الكهربائي والضرب على أبواب بعض المحلات المغلقة في بعض نواحي الميدان محدثين أصواتاً كالتي تحدثها البنادق الرشاشة عند الرمي ، مما أدىٰ إلى أن تعتقد الجماهير بأن بعض العناصر المعادية قد قامت بفتح النار عليها ، وهو ما يذكرني أيضاً بالذي حدث في بغداد لمسيرة استنكار نظمت عام ١٩٨٠ لتشييع جثث اثنين أو ثلاثة طلاب قتلوا في حادثة جامعة المستنصرية المشهورة الذي أُلقيت فيه رمانة يدوية على طارق عزيز أثناء زيارته لها ، وبعد تحرك المسيرة بوقت قصير سمعت أصوات إطلاق نار وانفجارات قوية، مما أدىٰ إلى أن تنتهي المسيرة التي كانت تضم الآلاف المؤلفة من الطلاب، الذين جيء بهم من المدارس والجامعات بمجموعة صغيرة وصلت إلى معسكر الكشافة الذي كان مقرراً فيه أن تلقى كلمات استنكار ومراسم طويلة أخرى ، وقد عرض التلفزيون العراقي مشكوراً نهاية المسيرة المأساوية التي انتهت إلى حالة يرثى لها ، فلم تلق الخطابات وكلمات الاستنكار ، ولم يصل القادة إلى منصة التحية مطلقاً ، وربما كانوا أول الهاربين ، ولم يتجمع أصلاً من الجماهير العدد الذي يشجع إلى إدامة المهرجان ، ولم يكن حزب البعث وحده في وضعه هذا من حيث امتداداته الجماهيرية ، بل إن التيار القومي بصورة عامة كان يعاني من نفس الضعف

وليس أدلُّ على ذلك من عدم تمكن هذا التيار من تشكيل ما يسمى بالاتحاد الاشتراكي العربي في عدد كبير من المحافظات، والذي لم يكن يحتاج في حينها إلَّا لعدد محدود لتشكيل الهيئة المؤسسة له ، وحتى في المناطق التي نجحوا فيها بتأسيس الاتحاد الاشتراكي فإنهم لم يكونوا قادرين على العمل وإدامته أو التأثير على الجماهير ، حيث انتهى إلى التضاؤل والعزلة عن الشعب ومات لوحده دون أن يثير أية ضجة .

ـ أدت سياسة التحريض والعنف والإرهاب التي استخدمها دعاة الوحدة العربية من التيار القومي إلى شيوع وضع خطير، نجمت عنه حالة التسلط والاغتيالات والتدمير، التي شملت العراق كله من شماله إلى جنوبه ، ولا يمكن اعتبار الأعمال الإجرامية التي تبعت سقوط عبدالكريم قاسم بأنها انتقام من الأعمال التي مارسها التيار الذي يقف ضد الوحدة ، إلَّا أن الانتقام المزعوم في الواقع قد تمّ أخذه قبل سقوط قاسم نفسه ، فقد تم تصفية الحساب مع الشيوعيين قبل ٨ شباط بزمن بعيد، حيث شهدت شوارع بغداد والموصل وكركوك وتحت رعاية السلطات المحلية وسكوتها ، أعمال اغتيالات وإرهاب واسعة مما سبب إشاعة الإرهاب والفوضى على نطاق واسع ، حتى أن عوائل كثيرة من أهالي الموصل وكركوك اضطروا إلى ترك بيوتهم وأملاكهم، والتجأوا إلى مدن أخرى هرباً من الإرهاب والخوف الذي أصبح لا يطاق ، وبالطبع لم يقتصر القتل والاغتيال على الشيوعيين، بل إن أناساً أبرياء أصبحت تطالهم هذه الأعمال الإجرامية علناً ، فقد شهدت مدينة الموصل، قبل سقوط قاسم ظهور عصابات كثيرة كانت تمارس القتل والاغتيال علناً، وتحت أنظار السلطة الحكومية التي أصبحت إما عاجزة تماماً عن اتخاذ أي إجراء رادع لحفظ الأمن وحماية المواطنين وممتلكاتهم ، أو أنها بالفعل كانت متواطئة مع تلك العناصر كرهاً لعبد الكريم قاسم ، فلقد أصبح ممكناً أن يدفع أي شخص مبلغاً من المال لأحد هذه العصابات ، وغالباً ما يكون هذا المبلغ زهيداً لا يساوي ثمن رأس شاة ، حتى تقوم هذه العصابة بقتل من يريد قتله لأسباب لا تمت إلى السياسة بصلة ، فعندما يريد تاجر أو صاحب مصلحة معينة أن يتخلص من منافس تجاري له ، فإن قضية تصفيته لا تستغرق سوى جلسة في المقهى، لا تطول أكثر من خمس دقائق ثم ينتهي الأمر ، لقد انطبع هذا التيار الذي كان يتزعمه حزب البعث بسمة الإرهاب والاغتيال الذي أصبح مرتكزاً أساسياً في سياسة التعامل مع الخصوم ، ونتج عن هذا التوجه نشوء جيل كامل من المجرمين المحترفين الذين لا يجيدون في حياتهم سوى القتل وأخذ « الخاوة » من المقاولين وأصحاب المصالح ، فمن ناظم كزار إلى فاضل الشقرة، إلى سمير الشيخلي إلى الأخوين جبار وستار الكرديين، إلى محمد فاضل، إلى سعدون شاكر، إلى أسماء كثيرة

لمعت في عالم القتل والإجرام ، من الذين تلطخت أيديهم بدماء الأبرياء من المئات من المواطنين الذي تم قتلهم غيلة في الشوارع والمعتقلات تحت التعذيب ، لقد أدت روح الاجرام والارهاب إلى حدوث حالة من التمرد اللامشروع في صفوف الحركة ككل ، مما شجع آخر المطاف على ظهور أجيال جديدة من المجرمين والإرهابيين الذين نظمهم صدام حسين مشكّلاً منهم جهازاً خاصاً مهمته تنفيذ المهمات القذرة ضد كل خصومه ، حيث أصبح اسم هؤلاء يشيع الرعب والخوف لدى أوساط الشعب وجماهيره، وخاصة المعارضة منه ، التي بدأت تخسر تدريجياً متخلّية عن العمل السياسي الذي لم تعد ممارسته ممكنة في ظروف تقوم الدولة فيها بتشجيع وتنظيم إرهاب رسمي شامل، يخرج عن طائلة قوانين الدولة وشرعها ، ولم يسلم البعثيون أنفسهم من بطش هذا الجهاز وتمتعه بالحرية لتنفيذ أعماله تحت نظر الدولة وحمايتها وتشجيعها ، فلقد تمّ اغتيال عبدالكريم الشيخلي[1] علناً في الأعظمية أمام زوجته ، كما واغتيل ناصر الحاني[2] ، ولاقى فؤاد الركابي القتل في السجن، كما تمّت تصفية الرفيق القديم العقيد الركن قوات خاصة عبدالكريم مصطفى نصرت في حادث غامض ، ولفقت قصة مخجلة لغرض لفلفة حادث اغتياله ، وبعد أن تمّ تصفية رؤوس المعارضة والآخرين من الذين توجس النظام منهم خيفة ، انتقل هذا الجهاز ليستلم كل الأجهزة الأمنية وقيادتها ، فشكل هؤلاء العصب الرئيسي فيها، وكانوا اليد التي امتدت لتزهق أرواح الآلاف من الناس الأبرياء الذين لم يكن لديهم أي ذنب سوى أنهم لم يكونوا يتفقون مع السلطة في وجهات نظرها وأساليبها الدموية الملتوية في إدارة الدولة ، كما شهدت أجهزة الأمن تجنيد أعداد كبيرة من الساقطين خلقياً وذوي السوابق فيها، لتصبح مستعدة لتنفيذ كل ما يطلب منها تنفيذه من الأعمال التي يأنف كل إنسان شريف أن يقوم بها ، ولم تكن الأحزاب والمنظمات السياسية المعارضة للحكم مستعدة للتعامل مع نظام يتبع مثل تلك الأساليب الإرهابية ، لذا فإنها جميعاً قد أخذت على حين غرة وأمكن تحطيمها وتدميرها ، ولم تستطع في الواقع أن تتكيف للحالة الجديدة إلّا بعد فترة طويلة بعد أن تعرضت لضربات قاصمة أدت إلى انهاكها وخروجها من تلك الأزمة وهي عاجزة عن التحرك، أو أن قسماً منها كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة ، أما من ظل منها على قيد الحياة فلم تستطع أن تلتقط أنفاسها مرةً أخرى إلّا بعد مرور فترة طويلة من الزمن وبتضحيات كبيرة ، اضطرت بعدها أن تتبع أساليب جديدة تختلف عن أساليبها القديمة التي كانت أقرب ما تكون إلى السلمية منها

---

(١) عضو سابق للقيادة القومية .

(٢) أول وزير خارجية بعد انقلاب عام ١٩٦٨ .

إلى العنف ، لقد ألقت هذه الأوضاع ظلالاً كئيبة من الخوف والحزن والبؤس على العراق، ولم يعد الناس يشعرون بالأمن والطمأنينة ، فهذه الأجهزة التي تسمى أمنية أصبحت تمارس سلب الأمن والطمأنينة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنىٰ .

ـ رافقت شيوع حالة الفوضى والإرهاب سياسة أخرى لا تقل مقتاً عنها وهي التفرقة الطائفية التي أصبحت ماثلة للعيان بكل وضوح ، فقد أخذ الشيعة يتعرضون إلى حرب شعواء منظمة في كل الاتجاهات ، ولكي نقف على عمق ما آلت إليه التفرقة الطائفية فانني أتذكر بأن قسماً من أبناء الشيعة كانوا يراجعون دوائر التسجيل لإبدال أسمائهم كعبد الأمير وعبدالحسين وعبدالحسن وعبدالكاظم وعبد الزهرة، وهي أسماء شيعية شائعة إلى أسماء أخرى تخلصاً مما تجلبه عليهم أسماؤهم من مضايقات كثيرة مزعجة عند مراجعتهم للدوائر الحكومية ، حتى الطوائف غير الإسلامية الأخرى لم تسلم من التمييز والإرهاب ، فلقد لقب أحد المسيحيين واسمه فرنسيس ، لقب نفسه بفرنسيس التكريتي كي يظهر مدى إحساس الناس ومرارتهم من تسلط الإرهاب الطائفي والعشائري ضد جماهير الشعب العراقي ، ولكي نظهر عمق العنصرية مثلاً نورد نكتة مشهورة وهي : أن أحد الدوريين ـ نسبة إلى مدينة الدور جنوب تكريت ـ كان قد سأل : أأنت مسلم أو دوري . . فأجاب على الفور : « تخسأ، أنا دوري ! » ، وهي دلالة على عمق العنصرية التي يفاخرون بها حتى على الإسلام. وإضافة إلى المشكلة العنصرية المتمثلة بوجود الأكراد في قسم من العراق ، فقد شهد المجتمع العراقي انشطاراً في بنيانه لم يعد من الممكن تلافيه ، وقد يلحظ المراقب للوضع أن الأمور تسير سيراً لا يبدو عليه ما يوحي بوجود انقسام بهذه الخطورة بين الشعب ، ولكن من يعرف الشعب العراقي جيداً يستطيع أن يقف على عمق الهوة السحيقة التي تفصل أبناءه ، بل إن هذا المظهر في حقيقته يشكل دلالة واضحة وأكيدة لهذا الانقسام الذي لم يفصح عنه لخضوعه لظروف وعوامل لا تسمح لظهوره على السطح ، إلاّ أن أعماق هذا اليمّ الهادىء تشهد أمواجاً متلاطمة آخذة بالاقتراب من السطح بصورة تدريجية، وليس يفيد حينئذٍ التحدث عنها، لأنها هي التي ستتحدث عندها عمّا يجيش في صدرها ، وقد لا تكتفي بالحديث وهو ما يمكن توقعه بالفعل ، إن سوء الأداء وتأخر العراق عن أحداث أي تطور فعلي وحقيقي في كافة مجالات الحياة ، الاقتصادية والثقافية والمعنوية ، ناجم في الأساس، إضافة إلى عوامل أخرى أقل أهمية ، يعود في أساسه إلى وجود هذا الانقسام وهذا الشرخ الذي يعاني منه المجتمع العراقي ، فأغلبية ساحقة لا يعترف بحقوقها وتطلعاتها المشروعة ، تتعرض لأبشع أنواع الإرهاب والإذلال ، تجد نفسها بحكم الضرورة غير قادرة على التفاعل مع

توجهات الدولة التي تمسك مقاليدها أقلية غير مستعدة لفهم الحقائق وَالتعامل معها برحابة صدر، أقلية متسلطة تعتبر ما حصلت عليه من المغانم قدمها لها المحتل المستعمر هبة لا يمكن التخلي عنها ، بينما الأكثرية المظلومة تطالب بنشر مبدأ العدالة في المجتمع ورفع الحيف والظلم والتعنت، كي يصبح بإمكان المجتمع الإندماج في بوتقة واحدة هدفها السهر على الوطن وبناؤه بمساهمة كل الشعب، بروح أكثر إيجابية وتفاعلاً وحماساً ، وأكثر ما يخشىٰ على مستقبل العراق هو تعرضه إلى أخطار جسيمة فادحة، تعرض وجوده الكلي إلى الخطر ، ولا يخفى بأن أعداء الإسلام والعرب يهيئون من المخططات الخبيثة ما يتلاءم كل مرحلة من مراحل المتغيرات الاجتماعية والإقليمية ، ولم يخفِ هنري كيسنجر، وهو الصهيوني العريق ما أعدته الدوائر الصهيونية من مخططات خبيثة للمنطقة الإسلامية لغرض تدميرها أو جعلها عاجزة عن مواجهة الخطر الصهيوني، وإلهائها في صراعات طائفية وعنصرية تشغل العرب والمسلمين إلى سنوات عديدة لاحقة، لتأمين وجود الاحتلال الصهيوني للأرض المحتلة فلسطين .

ـ يمكن أن نطلق على الطائفية بأنها (مرض التحدي) ، لأنها تمتلك المناعة الفائقة ضد كل أنواع المضادات التي يمكن أن تقف في طريقها ، إنني لا أُريد أن أخوض في معتقدات مذهبية صرفة ، لأن ذلك ليس من اختصاصي، وسوف لن أوفق وبقناعة تامة، لأن أتوصل إلى نتائج خاصة أشك بأنها حتى ولو كانت تمتلك من الثبات والحقيقة أن تكون قادرة على إقناع الآخرين بيسر ، أو تساعد في إغناء هذا البحث ، لكنني أردت أن اؤكد على الجانب العملي الصرف لهذا التحدي المستمر الذي يواجه المجتمع العراقي ، فالطائفية (مرض التحدي) قادرة على أن تقف أمام أقوىٰ الأفكار وأثبت الحجج ، ونحن وقد شاهدنا المجتمع العراقي الحديث يموج بالأفكار الحديثة ، الوطنية ، القومية ، الماركسية ، حيث شهدت الساحة نزاعاً فكرياً تارة ومسلّحاً تارة أخرى ، لم نلمس في يوم من الأيام بأن الطائفية قد اهتزت أسسها وجذورها أو انحنت وانزوت متراجعة أمام الأفكار الجديدة، التي أصبح الشباب ينادي بها ويعلن بأنه سائر على هديها ، بل إننا لمسنا بأن هذا المرض قد امتزج مع هذه الأفكار ، كلها بدون استثناء ، مما أصابها في الحقيقة بالتلوث الذي لم تكن تعي أبعاده الحقيقية ، أو إنها تعتبر بعض مظاهره ظواهر عابرة على المسيرة سرعان ما تختفي بسبب ضعف مرتكزاتها العملية والعلمية ، هكذا كان يظن بعض من زاول العمل السياسي ، القدامى منهم والمحدثون ، التقدميون والرجعيون ، فالذي يتحدث عن الاشتراكية العلمية ومستقبل العالم كله الذي سيظل تحكمه حتى يصل (أو لا يصل؟) إلى ذروة تطوره التاريخي ، تجده في لحظة

صفاء عفوية يتصرف وكأنه لم يكن قبل سويعات قليلة يضع العالم بين كفيه بقوة النظرية التي يحملها ، والواقع أن الإفراز الطائفي والعنصري قد لعبا دوراً خطيراً في النتائج والقرارات التي كانت تتخذها أحزاب يفترض بأنها تدير وجهها عن كل ما يقال عنه بأن له علاقة بالدين والعنصرية ، ولم يكن ما يسمىٰ بالنضال الذي كان يقوده الوطنيون ضد النظام الملكي الذي كتب عن مراحل تطوره الكثيرون ، لم يكن هذا النضال بعيداً عن هذه الأمراض ، بل إنه يسير معها خطوة فخطوة ، موازياً للنظام القائم الذي يراد إبداله، والذي يستند أساساً منذ قيامه على أسس صريحة من التميز الطائفي والعنصري ، فلقد تداخلت المسألة الطائفية في خنادق تبتعد عنها بعد السماء عن الأرض ، ففي الوقت الذي كان فيه قادة أحزاب وقوى تدعي الوطنية يناضلون من أجل تحقيق الديموقراطية وحرية الرأي والفكر ، ويعتبرونها محور نضالهم وأهدافاً سياسية تسعى أحزابهم ومنظماتهم إلى تحقيقها ، من خلال كل هذا كانت الطائفية تبرز كظاهرة يتمركز حولها نشاط، كان يقال عنه بأنه يهدف إلى الدفاع عن حرية الرأي والفكر ، ففي عام ١٩٢٧، وهي بدايات تأسيس ما يسمى بالحكم الوطني، والتي شهدت تحركاً واسعاً للقوى التي كانت تناهضه بزعم كونه ركيزة للأجنبي في العراق ، كانت الطائفية قد طرحت في قضية النصولي مدرس التاريخ في الثانوية المركزية ، الذي ألّف كتاباً تحت عنوان (الدولة الأموية في الشام)، والذي أثار عاصفة من الجدل والاعتراضات الطائفية بين صفوف الشعب العراقي، (وقد أثار طبع ونشر هذا الكتاب عاصفة شديدة من الاعتراضات الطائفية ، استغلت أبشع الاستغلال من قبل بعض الجهات الرسمية وبعض الجهات الدينية ، وأرادت وزارة المعارف إنهاء العاصفة بفصل الاستاذ نصولي وحده، وهو أحد أربعة مدرسين كانت وزارة المعارف قد استقدمتهم للتدريس في العراق من خريجي الجامعة الأميركية في بيروت وهم، عبدالله مشنوق وأنيس نصولي من بيروت، ودرويش المقدادي من طولكرم، وجلال زريق من اللاذقية . وما إن أُشيع خبر فصل (النصولي) حتىٰ أثار عاصفة من الاعتراض بين الطلاب ، فاجتمعوا بتاريخ ٣٠ كانون الثاني ١٩٢٧ وقرروا القيام بتظاهرة تسير إلى وزارة المعارف لتقديم عريضة إلى وزير المعارف ، السيد عبدالمهدي ـ وكان الطلاب يهتفون في طريقهم بهتافات لم يألفها الشارع من قبل، معظمها يدور حول (حرية الفكر)، وبعد مجابهة مع رجال الشرطة وتبادل المقاومة بخراطيم المياه ثبتت المظاهرة ولم تتفرق إلّا بعد أن خطب فيهم ـ يوسف زينل ـ الرجل الذي كان يثق به الطلاب وكان حصيلة هذه التظاهرة وما بعدها اعتصام الطلاب في المدرسة، بعد أن أعلنت وزارة المعارف فصل ـ يوسف زينل ـ باعتباره محرضاً، وتخفيض درجته من مدير مدرسة

ثانوية إلى معلم في دار المعلمين ، ويتضمن القرار أيضاً طرد الطلاب حسين جميل وفائق السامرائي وعبداللطيف محيي الدين وأنور نجيب طرداً مؤبداً)[1] . وهكذا فإن إثارة النعرات الطائفية وتمزيق وحدة الشعب تصبح (حرية رأي) في نظر الذين قادوا فيما بعد العراق، وأمسكوا بالحكم بعد سقوط العهد الملكي فكل من حسين جميل وفائق السامرائي تسلما مناصب مهمة بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، فالأول أصبح وزيراً والثاني سفيراً للعراق في الجمهورية العربية المتحدة، وكان من أقطاب حزب الاستقلال الذي شغل الساحة العراقية السياسية المعارضة لمدة لا تقل عن نصف قرن وكان يحمل راية المعارضة ضد النظام الملكي ، كما أن حسين جميل كان من أقطاب وقادة الحزب الوطني الديموقراطي الذي كان هو الآخر من أحزاب المعارضة الرئيسية . فالإساءة إلى طائفة تشكل أكثر من نصف سكان دولة وإهانة عقائدها ، وهذا ما حدث فعلاً، لأن هذا الكتاب كما يذكر المؤلف قد أثار موجةً من الاعتراضات بين أوساط مختلفة ، هذه الإساءة التي نفذتها أيدي كثيرة وساهمت فيها إضافة إلى من ذكرهم عبدالغني الملاح في هذه المأثرة الديموقراطية ، ويعتبر الدفاع عنها جزءاً من النضال عن حرية الفكر والرأي التي كان ينادي بها ويناضل من أجلها ذلك الرعيل الأول من القادة الذين كانوا يقودون المعارضة ، ثم تربعوا فيما بعد على مراكز القرار في النظام الجديد الذي لم يكن يختلف في أسسه عن النظام القديم ، والجدير بالذكر هنا أن وزير المعارف في ذلك الوقت ـ السيد عبد المهدي ـ وهو شيعي من مدينة الناصرية ، قد واجه من المضايقات والاعتراضات خلال عمله في وزارة المعارف مما اضطره إلى الاستقالة ، وكان للخلاف الذي كان ينشب بينه وبين ساطع الحصري ـ أبو خلدون ـ ، وهو طائفي معروف يشغل منصب مدير عام في تلك الوزارة ، آثار مباشرة في استقالته ، هذا هو مرض التحدي الذي ظل صامداً ضد الأمصال التي كان المجتمع العراقي يزرق بها بين فترة وأخرى ، ينفذ إلى كل زاوية ويختلط مع كل فكر وحركة ، انتفاضة ، انقلاب ، ثورة ، يضع عليها آثاره ويبرز تقيّحه على جلدها ، إلاّ أن أعراضه تلك كانت ترد إلى أسباب ترتبط بظروف يجهد المخرجون أن يعزوها إلى الجو والمناخ الصحي غير الملائم ، بوعي في بعض الأحيان ، ودون وعي في أحيان كثيرة .

ـ مرض التحدي هذا يقف حائلاً أساسياً أمام قيام نظام عادل، يصهر المجتمع ويحوله إلى خلية واحدة، يتناغم عملها ويظهر انسجاماً شاملاً يدفع إلى البناء الحقيقي ،

---

(١) تاريخ الحركة الديموقراطية في العراق ، عبدالغني الملاح، ص ٦٤ و٦٥.

إلى التقدم الحقيقي ، إلى نمو وصفاء الطاقات والأفكار وعملها باتجاه رئيسي واحد ، وإلى أن نجد أنفسنا قادرين على أن نتحصن منه ، مزودين بالمناعة الملائمة لإبعاده عن سلوكنا وأذهاننا ، حيث نصل إلى الكمال في معرفة الحق والعدل ، إلى أن نصل إلى هذا التحول وهو مطلوب وضروري ، فإننا سوف نلحق بأنفسنا ضرراً مستمراً، يستفيد منه الأعداء الذين كانوا ولا زالوا يستثمرون نقطة الضعف التي نعاني منها ، بل إن استمرار هذا المرض سوف يواكبه إلحاق الضرر بكل قضايانا الرئيسية والأساسية ، وإلى أن نجد الوسائل الحقيقية التي نعبّر فيها عن آرائنا بحرية حقاً ، تلك الوسائل التي تنبع من الضمائر النقية التي ترى مصلحة وطنها فوق مصالحها الشخصية الأنانية التي كانت من عوامل الهدم الرئيسية في مجتمعنا ، وإلى أن نصل إلى المجتمع الذي يأخذ فيه كل ذي حق حقه ومكانه الملائم الطبيعي في حركة المجتمع ، فإننا سوف نصبح عندئذٍ أمة قوية وشعباً قادراً على الخلق والإبداع بدون حدود ، فلدينا من الطاقات والإمكانات ما يوازي ما يملكه عدونا إنْ لم نتفوق عليه بأشواط كبيرة ، وعندما يخلو المجتمع من تلك الترسبات التي يحملها القابعون خلف أستار اللعبة،القادمون من أعماق عصور التخلف والجاهلية . عندما ينحسر الاصغاء إلى هؤلاء وتحريضهم الدائم والمستمر على تمزيق الشعب وتحطيم الوطن ، فإنه يمكن القول بأننا استطعنا أن نصل إلى المرحلة التي يستطيع فيها الإنسان العراقي أن يقول بأنه مواطن ، له ما لغيره وعليه ما عليهم ، تحكم سيره قوانين وأنظمة ارتضاها الناس جميعاً وتطبق عليهم جميعاً دون استثناء ، وهذه مهمة تقع على عاتق جميع المخلصين من أبناء الوطن السنة منهم والشيعة ، فالعدالة شرع ، والحرية ولدت مع الإنسان ، ويجب أن تشب وتنمو معه كلما تقدم ، لا أن تنحسر وتنعدم كلما تقدمنا في عصور ينظر إليها العالم كله بأنها عصور الانعتاق والتقدم ، وكما يجري بالفعل ، فهل ستخلق المحنة التي يمر بها شعبنا وشدتها تلك العقول والأيدي القادرة على إحداث هذا التغيير الهام والضروري . المهمة صعبة والأعداء كثيرون وهم لا يريدون لنا أن نتوحد ، لكن الإرادات الصلبة تخلق المستحيل ، ولا يوجد مستحيل على سطح هذه الأرض.

أثر التمييز الطائفي على الروح المعنوية للقوات المسلحة :

ـ هذا الشعب الذي ظل مكبلاً بالحديد، محملاً بهذه الأثقال والسياط تلهب ظهره وتقهره وتذلّه ، مطلوبٌ منه شاء أم أبىٰ ـ وهو لم يكن راغباً أبداً بكل ما فرض عليه ـ أن يقاتل ويدافع عن قتلته ومذلّيه وقاهريه ، يدفع الدم ضريبة لبقائهم وراحتهم ، هذا

الشعب يظل يدفع بأبنائه وفلذات أكباده لمحرقة لا يعرف الأهداف الحقيقية لنارها التي تستعر وتلتهب ملتهمة كل شيء أمامها ، تنشر البؤس والحزن في كل بيت وزاوية في العراق ، سوى أن أهدافها المعلنة هو الدفاع عن حضارة العالم ، كل العالم ، ضد هجمة يقال عنها بأنها همجية متخلفة ، ولكن وعلى أقل تقدير، لماذا يقف هو متحملاً أعباء الدفاع عن حضارة العالم التي لا يعرف عنها شيئاً ولا تربطه بها أية رابطة تاريخية أو دينية أو ثقافية؟. إن الواقع يقول إن كل بلائه وآلامه وبؤسه سببه يعود إلى أن هذه الحضارة قد فرضت نفسها عليه قهراً وقطعت أنفاسه ، فالذي أصاب وطننا من محن ومآسٍ ، والذي سبب ضياع أرضنا وثقافتنا وحضارتنا العظيمة ، هو هجوم هذه الحضارة الهمجية التي لا تعرف سوى السلب والنهب ، ومن هذه الحالة الراهنة القاتمة يدفع شباب العراق إلى الموت في جيش نسبة الشيعة فيه تصل إلى ٨٠٪، فهل تستطيع قوى نظامية أن تواصل حالة التصدي والصمود والقتال تحت ظروفها لها فعل معاكس على البناء النفسي بصورة تامة؟ الشعب يحس بأن هذه السلطات الحاكمة تقف منه بالضد ولا تمت إليه بصلة ، بل ولم يحسّ أصلاً في أي يوم من الأيام بأنها منه ، الفاصل بين الادعاء والدعاية والواقع العملي كبير جداً ، وليس دفع الناس بالقوة وعسكرتهم بقوانين تدعمها إجراءات زجرية قاسية ، أقسى من الموت نفسه ، والذي ينام على مشهده المتسلطون مطمئني البال ، لا يمكن أن يكون مظهراً حقيقياً للأزمة ، فما يعمل في النفوس شيء آخر ، لم يعد هذا الشعب يتحمل أكثر مما تحمله لحد الآن فقد جرى الانتقام بما فيه الكفاية ، وسالت الدماء أنهاراً وليس من العدل أن يستمر هكذا إلى ما لا نهاية له ، لقد دفع أبناء الجنوب كثيراً ثمناً لدماء نزيرة أُريقت في ثورة العشرين ، لقد سحق الناس حتى العظم ، وأصبح من العدل أن تُدار اللعبة باتجاه آخر كي يأخذ البؤساء قسطاً من الراحة .

ـ في بحثي لهذا الموضوع لم أقصد إطلاقاً الخوض في إثارة الطائفية وتأجيجها ، ولكنني أردت مخلصاً أن أضع الحقائق أمام كل من يرغب أن يراها كما هي ، إن الخطر المحدق بنا جميعاً أصبح يتزايد يوماً بعد يوم ، والاستعمار وعملاؤه يثيرونه بطرق وأساليب دنيئة قذرة ، وإذا أردنا أن نحفظ وطننا وأن ننعم بحياة هادئة ترتكز على الأخوة، ونحن أحوج ما نكون إليها ، فإنه يتوجب علينا أن نساهم جميعاً ونعمل يداً بيد لإزالة هذا الخطر الذي يقف وراءه أعداء العرب والإسلام وعملاؤهم ، لننشر العدالة في مجتمعنا، ولنسعى إلى إقامة نظام ينظر إلى الشعب العراقي ككل بعين واحدة، ويعامل أبناءه جميعاً بميزان واحد،وبذا نحفظ حقوق كل الطوائف الإسلامية منها وغير الإسلامية ، عندها سيشهد الوطن حركة واحدة عظيمة لبنائه ونشر الحب والسعادة فيه .

الفصل الثاني

تأسيس الجيش العراقي

خلفية تاريخية :

ـ لا يخفى على أحد بأن القيم العسكرية مثل النبل والاقدام والشجاعة وتحمل الصعاب والصبر ، تعتمد في سموها وتجذرها في نفوس المقاتلين داخل المؤسسة العسكرية على قدم هذه المؤسسة وتاريخها وعمق تأثيرها على المجتمع ككل ، بحيث تترسب في ذهن الشعب قيم ثابتة ،وتصور يأخذ مداه العملي عندما تشتد الأزمات وتأزف ساعة الخطر المحدق بالوطن والأمة ، فالجيوش الأوروبية مثلاً ،والتي خاضت حروباً طويلة على امتداد ما يقرب من الأربعمئة سنة ،تخللتها فترات قصيرة من الهدنة ، أرست قواعد وأسساً من العسكرية داخل المجتمعات الأوروبية نفسها ، بحيث كان ينعكس ذلك على بنية هذه الجيوش وأساليب تنظيمها وقتالها إضافة إلى تسليحها ، فالجيش الألماني مثلاً الذي وصل إلى ذروة أمجاده وتطوره خلال الحرب العالمية الثانية وقبلها، سواء من حيث مستوى التنظيم والتسليح ،أو من ناحية ابتكار أساليب جديدة لم تكن معروفة من قبل في القتال ، كالحرب الصاعقة والحرب السيّارة ، لم يكن بمعزل عن سيادة الروح الحربية وتجذّرها لدى الشعب الألماني نفسه وتأثره الشديد بمؤسسته العسكرية واستعداده الدائم لتلبية احتياجاتها الأساسية ، وكذلك الجيش الفرنسي الذي احتل كل أوروبا تقريباً، والذي بناه الأمبراطور نابليون حيث كانت لمبادىء الثورة الفرنسية والتفاعلات التي أحدثتها لدى الشعب الفرنسي أثر مباشر في احكام بنائه النفسي ونموه المعنوي والمادي وتطور أساليب قتاله وتجهيزه ، وكذا بقية الجيوش الأوروبية كالجيش النمساوي أو الإنكليزي أو الروسي ، أما في العراق فلا يوجد من هذه الروح شيء بعد أن انقطعت جذورها منذ سقوط الدولة العباسية، لأن أغلب الجيوش التي أسستها الدويلات التي تلت الحكم العباسي كانت جيوشاً أجنبية الطابع والتوجهات ، بل إن الجيش العباسي نفسه وفي أواخر عمر الدولة كان أجنبياً يتكون من خليط من الغرباء على العراق ، فلم يكن له تأثير على

المجتمع العراقي ورفع الحماسة لديه والتفاعل معه ومن ثم إشاعة روح عسكرية شعبية ونشرها بين أوساطه،بحيث يصبح المساهم الرئيسي برفده بما يحتاج من أموال ورجال ، بل إن الشعب العراقي ظل لفترة طويلة تزيد على الألف عام بعيداً عن المشاركة في بناء إطارات الجيوش النظامية، وخاصة أهل الأرياف منه الذين يشكلون في العادة نسيج الجيوش الأساسي ، هؤلاء ظلُّوا يعيشون تحت سلطة نظام قبلي تعارفوا عليه وعلى أحكامه ينظم كل شؤون حياتهم ، بحيث ظلَّت السلطة المركزية بكل مؤسساتها بعيدة عن الشعب الذي كان يعتبرها بدوره غريبة عنه ، بل كان في معظم الأحيان يدخل معها في صراع دام بعمق الهوة بينه وبينها ، لذا ظلَّت الروح العسكرية الجماعية محدودة جداً تنحصر أساساً في إعلاء شأن القبيلة والمحافظة على مصالحها والدفاع عن الأرض التي تحوزها من أجل الماء والكلأ . وفي العهد العثماني كان هناك جيش يستقر في بغداد واجبه الرئيسي إخضاع الشعب العراقي لسلطة الوالي العثماني وإرادته المطلقة في التصرف بخيرات أهل العراق ، ولم يكن له تأثير يذكر على تنمية مشاعر الروح العسكرية ، بل إن كثيراً من القبائل كانت تدخل في منازعات مستمرة معه باستثناء عدد من أبناء السُنَّة الذين كانوا يخدمون فيه كضباط أو جنود ، ولا يزال كبار السن من العراقيين يروون الأساطير عن ذلك العدد القليل من الأشخاص الذين جندوا في الجيش العثماني الذين لم يسمع عنهم خبر منذ أن دخلوا في الجندية واشتركوا في الحروب التي دارت بين الدولة العثمانية وبقية الدول التي كانت تنازعها، كروسيا القيصرية وهنغاريا والنمسا ، وكان من عاد من هؤلاء ، وأغلبهم كانوا يهربون من ساحات الحرب ، يروي ما لا يصدق عن قساوة الحياة والمعاملة اللاإنسانية التي يلقونها في الجيش العثماني ، لذا فإن ما كان عالقاً في أذهان الجماهير عن الجيش وحياته هو خليط من أفكار مبهمة في أغلب الأحيان، يلفّها الخوف وعدم الاطمئنان المشوب بالكراهية والمقت ، وبعد نشوء ما يسمىٰ بالحكم الوطني ظلَّت هذه المشاعر عالقة في أذهان الناس ، وكانوا يتهربون من الالتحاق بالخدمة ، وفي كثير من الأحيان كانت تحدث مصادمات عنيفة بين العشائر والسلطة بسبب رفضهم الالتحاق بالخدمة الإلزامية ، صحيح أن أناشيد حماسية كانت تُقرأ في المدارس مثل (الجيش سور للوطن) وغيرها ، ولكنها في واقع الأمر لم تكن تشكل إلَّا مظاهر تكابر غير مجدٍ ، لا يترك في النفوس أثراً أكثر مما تتركه فقاعة على سطح الماء ، لأن روح الشعب لم تكن خاضعة لحالة الانشداد العملي والواقعي إلى روح الجندية والعسكرية، وهو ما يمكن أن تبنىٰ به الجيوش وتتطور وتتقدم ، وليس بعض الأناشيد و (الهوسات)، وهي الأهازيج الشعبية العراقية التي يرددها المطربون والشعراء في المناسبات العامة والخاصة لغرض رفع الحماسة والتفاخر ، إن الاستعداد للحرب

والانخراط في الجندية وتحمل مشاق القتال التي تبنيها الشعوب التي أنشأت دولها جيوشاً ضخمة في كل الأوقات وتقبل عليه دون ضجر أو تأفف ، لم يكن ملموساً في العراق إلاّ بحدود ضيقة جداً ، بل كانت القوانين والمراسم هي التي تنظم هذه العلاقة فقط ، ولهذا الوضع المزمن أسباب جوهرية مهمة تضغط على وجدان العراقي فتحد من استعداده وتوجهه الحربي والعسكري ، وأهمها استخدام الجيش العراقي من قبل الحكام وبصورة مستمرة في شن حملات إبادة ضد الشعب،وخاصة العشائر التي تقطن منطقة الفرات الأوسط ، كما ظل الجيش أداة طيعة بيد المتآمرين والمغامرين الذين نفذوا سلسلة من الانقلابات والمؤامرات التي راح ضحيتها عدد كبير من أبناء الشعب الأبرياء .

تأسيس الجيش العراقي ، المراحل والأهداف :

ـ إن الحديث بصراحة عن مؤسسة مهمة لها من المكانة في الدولة ما يجعلها شبه مقدسة ، أمرٌ لا يشجع الكثيرين على الخوض فيه ، وربما كنت أوّل من يفعل ذلك ، خاصة وأن هذه المؤسسة ظلّت دوماً الأداة الرئيسية لخدمة أغراض وأهداف السلطات الحاكمة على اختلافها ، كما ظلّت هذه السلطات وباستمرار تضفي صفة القدسية عليها، ولم تكن تسمح أبداً على الرغم من تناقض أهداف هذه السلطات ولو ظاهرياً وتغيير الحكام والأنظمة لمرات عديدة ، وعلى يد هذا الجيش نفسه وبقوة السلاح ، لم تسمح بأن تمس هذه المؤسسة ويناقش وجودها ودورها وتاريخها ، بأسلوب جديد يهدف إلى التأكيد على الحقائق والوقائع التي تعطي الصورة الحقيقية لنشأة هذه المؤسسة وتطورها والأهداف التي توختها من مجمل نشاطها في تاريخ الدولة العراقية المعاصرة ، هذا الوضع جعل كل الدراسات والمؤلفات التي تناولت تاريخ الجيش العراقي ونشأته وتطوره واستمراره والعوامل والعناصر الفاعلة فيه وخارطته الاجتماعية تنحصر في اتجاه واحد هو خدمة أهداف السلطة بالتمجيد بهذه المؤسسة التي لعبت أدواراً مختلفة منها القليل الإيجابي والكثير السلبي في حياة الشعب العراقي منذ نشأتها ولحد الآن ، لذا فإن بحثي في تاريخ الجيش العراقي سوف يشتمل على تحليل كافة العوامل والعناصر الحقيقية الفاعلة ، وهذا في الواقع يمثل اتجاهاً بناءً في البحث والدرس والتنقيب،وهو ما لم يتناوله أحد قبلي من الكتاب والباحثين الذين تصدوا للكتابة في هذا الموضوع ، وعلى الأخوة الذين سوف يقرأون هذا البحث،والذين قد لا يعجبهم ما سيرد فيه أن لا يتصوروا بأن في هذا البحث ما يسيء إلى سمعة الجيش العراقي ، بل عليهم أن يفكروا مع أنفسهم ثم يصدروا حكماً فيما إذا كانت الحقائق والشواهد التي اعتمدتها صادقة أم لا ، وهذا هو المهم ، أما الآخرون وهم الكثرة فإنني أتوقع بأنهم سيفاجأون

بحقائق ربما لم تكن تخطر ببال أحدهم وقد يكونون عن سماعها بعيدين ، وبذا أكون قد ساهمت بالقسط والقدر الذي أُتيح لي بأن أنوّر أذهانهم ،وأصحح الأفكار التي قد علقت بها،والتي أرى بأنهم قد حملوها عن غير وعي ، وهدفي وغايتي الرئيسية هي أن نخرج في آخر الأمر بصورة واضحة جلية راسخة،نستمدّ منها العون لتصحيح موارد الخطأ ورفع مظاهر الضعف في هذه المؤسسة الهامة ، فيما لو أتاح الله لنا فرصة التأثير والعمل والقدرة على اتخاذ القرار في المستقبل .

ـ تأسس الجيش العراقي كنواة في ٦ كانون الثاني عام ١٩٢١ من عشرة ضباط عراقيين ممن كانوا في جيش الحجاز التابع للأمير فيصل بن الحسين إبان اعلان ما يسمىٰ بالثورة العربية عام ١٩١٦ ، حيث كان هؤلاء يقاتلون ضد الدولة العثمانية . (وأخذت هذه النواة تنمو مع قدوم بقية الضباط العراقيين الذين كانوا مع فيصل في الحجاز حتى بلغ عددهم ٢٠٦ ضباط ، أو من التحاق أولئك الذين كانوا ضمن الجيش العثماني وبقوا في العراق أو عادوا من الأسر وكان عددهم ٣١٣ ضابطاً،وهكذا أصبح عدد ضباط الجيش العراقي ٥١٩ ضابطاً)[1] ، أي أن بداية تشكيل هذه النواة كانت من ضباط كانوا يخدمون في جيش دولة كانت في حالة حرب مع الدولة التي نشأ تحت رعايتها هذا الجيش ، حيث كان كل هؤلاء الضباط قد خدموا في الجيش العثماني أو انهم تركوا الخدمة فيه تواً ، هذا الجيش الذي كان قبل ثلاث سنوات يقاتل الجيش البريطاني الذي ترعىٰ دولته الحكومة العراقية التي شكلت حديثاً، وتشرف عليها وتضعها تحت وصايتها المباشرة في ذلك الحين ، أي إن هؤلاء وبكل بساطة قد باعوا ولاءهم إلى ولي النعمة الجديد ، ومن المعروف أن المخابرات البريطانية وراء التحاق الضباط بجيش الحجاز، وشجعتهم على ترك الخدمة في الجيش العثماني ، لأن بريطانيا هي التي كانت تقدم الدعم والرعاية لجهود الشريف حسين كي يؤسس له جيشاً يساهم مساهمة فعّالة في القتال ضد الدولة العثمانية مما يساهم في التخفيف من أعباء بريطانيا العسكرية ، وهذا ما حدث بالفعل فلقد كان لما يسمىٰ بجيش الثورة العربية الكبرى أثر كبير في إضعاف الأتراك في فلسطين وسوريا والعراق، لقد رحبت السلطات البريطانية بقدوم هؤلاء الضباط عندما أظهر جعفر العسكري وزير دفاع الحكومة المؤقتة رغبته في عودة زملائه الضباط العراقيين ، وقد اقترح العسكري على المندوب السامي البريطاني برسي كوكس عودتهم ، فما كان من

---

(١) تأسيس الجيش العراقي ـ د. رجاء الخطاب ، بحث للدكتوراه قدم لجامعة بغداد عام ١٩٧٩ ، وطبع في مطابع الحرية ببغداد ص ٣٦.

كوكس إلا أن أبرق بدوره إلى الحكومة البريطانية طالباً إليها تسهيل عودتهم[1] ، مما يدل على أن المندوب السامي البريطاني في العراق كان على معرفة تامة بميول هؤلاء الضباط وإخلاصهم واتجاهاتهم ، كما كانت الحكومة البريطانية أيضاً على اطلاع تام بوضع هؤلاء المادي والنفسي ، لذا فقد كان من المشكوك فيه أن لا يضع هؤلاء الضباط مصالح ولي نعمتهم الجديد والمحافظة عليها نصب أعينهم،رداً لهذا المعروف الكبير الذي أسدته لهم السلطات البريطانية ، خاصة وأن الاستخبارات البريطانية كانت معنية بصورة مباشرة بتأمين الوضع وملاءمته بما يخدم المصالح البريطانية في العراق بصورة ثابتة ودائمة ، وعليه فإن موافقة بريطانيا على قدومهم كان يعني أنها سوف تضمن ولاءً غير محدود داخل أهم مؤسسة سوف تبنيها الحكومة المقبلة في العراق ولها أكبر الأثر في تأمين الهدوء والاستقرار بما يضمن نمو واستمرار المصالح البريطانية في العراق . إن أعداء الأمس قد أصبحوا أصدقاء حميمين ، وإن ما جمع الطرفين هو في الواقع المصالح المشتركة ليس إلاّ ، كُلٌّ يؤمِّن للآخر مصالحه ومنافعه المشتركة بصورة ثابتة ومستمرة .

ـ كان هاجس الأمن الداخلي من أهم العوامل التي لعبت دوراً في مسار حركة تطور ونمو الجيش العراقي ، فلقد كانت السلطة والإنكليز الذين نصبوها على العراق متفقين على أن الجيش العراقي يجب أن يهتم بأمور الأمن الداخلي للبلاد ، وعلى الرغم مما كان يبدو من خلاف بين السلطة وأسيادها متمثلة ببعض الرموز التي توصف زوراً بأنها وطنية كياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني وأمثالهما ، ففي الوقت الذي كانوا يدعون بأنهم يريدون جيشاً يساهم في حماية البلاد من الأخطار الخارجية ، كانت الأحداث التي تتالت على العراق تشير بوضوح إلى الغاية الرئيسية من تأسيس الجيش ، حيث استخدم الجيش، في أوقات مختلفة ولمرات عديدة، كأداة لقمع تطلعات الشعب وتحركاته وانتفاضاته بقسوة، ففي عام ١٩٣٥ قام الجيش العراقي وبأمر من ياسين الهاشمي رئيس الحكومة ، بالهجوم على منطقة الفرات الأوسط لقمع حركات العشائر هناك ، حيث قامت الطائرات التابعة للقوة الجوية العراقية بصب حممها من القنابل على رؤوس الفلاحين، وأحرقت القرى وقتلت وجرحت المئات من الناس ، كما سببت أضراراً بالغة بثروة الأهالي من المواشي والمزارع ، ولا يزال أهالي منطقة الدغارة والرميثة وغماس وعفك، ممن عاشوا تلك الفترة، يتذكرون تلك الأيام العصيبة التي كانت تمطر فيها الطائرات بقنابلها عليهم دون رحمة أو شفقة ودون تفريق بين ثائر مقاتل وآخر مسالم ، بين شاب وعجوز ، امرأة وطفل ، ولقد كانت حكومة ياسين الهاشمي من أكثر الحكومات قسوة وإرهاباً في مجال

---

(١) المصدر نفسه .

قمع التمـرّد وحركات قبائل الفرات الأوسط ، ولم يكن رشيد عالي الكيلاني أقـل قسوة عندما استخدم الجيش في ضرب حـركة العشـائر في منطقة الـرميثة في نفس العـام ، إن منـاهج الحكـومات والـوزارات لم تكن تخلو من الإشارة إلى أهميـة تطويـر القوة الجـوية العراقية للغرض نفسه، على اعتبار أن القصف الجوي هو أكثر الأساليب نجاعة في التأثير على صمود العشائر الثائرة ، بل إن تشكيل القوة النهرية والمـداولات الرسميـة التي جرت بهذا الخصوص كانت تهدف بالأساس إلى إخماد حركـات المعارضـة في الفرات الأوسط والأسفل كسلاح ملائم للعمل في تلك المناطق. « إن تطبيق قانون الـدفاع في ١٣ حـزيران ١٩٣٥، وظهور حركات المعارضة في الفرات الأوسط والأسفـل أظهرت الحـاجة القصـوى إلى تـأسيس أسـطول نهـري للتجـول في الأنهـار والأهوار، والمعـاونـة على تثبيت الأمن الـداخلي في المناطق التي يتعـذر على القوات العسكـرية الحـركة فيهـا بسهولـة ، ونظراً لوجود الأسطول البريطاني في الخليج العربي، واعتماد العـراق عليه في الـدفاع الخـارجي عن العراق بموجب المعاهدة العـراقية البـريطانيـة ، أصبح الاهتمـام موجهـاً نحو تـأسيس أسطول نهري صغير »[1] . وفعلاً فقد تمّ تزويـد القوة النهـرية ببـاخرة نهـرية واحـدة ذات غاطس محدود تحمل عدداً من المدافع وستة زوارق نهرية صغيرة مسلحـة تصلح للحركـة في الأنهر والأهوار في جميع الفصول ، وزورقين مدرعين مجهزين برشاشات تقوم بواجب الدورية المتحركة في الأنهر والأهوار[2] . فالاتفـاق كـان كامـلاً بين السلطة وأسيادهـا بأن الجيش العراقي يجب أن يأخذ على عاتقه الوقوف أمام جمـاهير الشعب ، وهـو ما كـانت تسمية السلطة بمهمات الأمن الداخلي ، وكان الهدف من إنشاء القوة النهرية هو تهيئـة قوة قادرة على الوصول إلى كل المنـاطق الوسـطى والجنوبيـة التي تكثر فيهـا الأنهار والأهـوار لضمان القضاء على تحرك شعبي ضد السلطة عميلة الأجنبي وكلب حراستها في العراق ، وبمـا أن منطقـة الاضطراب الـرئيسيـة المحتملة هي التي أشير إليها، والتي سبق وأن ذاق الإنكليـز فيها طعم المـوت ونـار الثـورة التي زلـزلت الأرض تحت أقـدامهم ، فقـد كيف العملاء والسادة جزءاً كبيراً من قوات الجيش لأداء مهمة إخمـاد التحركـات التي يمكن أن تحدث في المستقبل ، ولقد شهدت القوة الجوية والنهريـة أكثر التكيف والمـلائمة هـذه، فكيف ينسى الإنكليـز القائـد الثائـر المجاهـد شعلان أبـو الجون وواقعـة الـرميثـة وجسـر السوير؟ أم كيف ينسون الشيخ عبدالواحد آل سكر؟ هـل ينسون الـرارنجية حيث مـلأت جثث قتلاهم ساحـة المعركـة؟ ، لقد جـاء وقت الانتقام وهـذه هي السلطة التي نصبوهـا تنـوب عنهم بأمـانة في ذبـح الشعب وإبادتـه دون أن تكون هنـاك حاجـة لأن « يلطخـوا »

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) المصـدر السابق نفسه .

أيديهم مرة أخرى بدماء الشعوب ، فما دام الإنكليز يتعهدون بحماية العراق ، أي حماية عملائهم من الأخطار الخارجية ، فما على ياسين الهاشمي وأمثاله من العملاء سوى أن يعملوا بهذا الشعب ذبحاً وتقتيلاً ، والجدير ذكره أن السلطات البريطانية كانت تشرف وتصدر الموافقة على نوع التسليح والتجهيز في الجيش العراقي ضمن المعاهدات المعقودة بينها وبين عملائها ، وورد في الفقرة السادسة من الملحق العسكري لمعاهدة ١٩٢٨ المعقودة بين العراق وبريطانيا ما يلي : « ويتعهد أيضاً جلالة ملك العراق بأن التجهيزات الأساسية لقوات جلالته وأسلحتها لا تختلف في نوعها عن أسلحة قوات صاحب الجلالة البريطانية»[1] . وعليه فقد كان هناك تنسيق بين أهداف بريطانيا و« جلالة الملك » ، والعلاقة بينهما لا تتعدى علاقة السيد بالعبد ، والغريب هو إدعاء هؤلاء العملاء أن ثورات أبناء الفرات وانتفاضاتهم كانت بتوجيه من الإنكليز وخدمة لأهدافهم وكانت تستخدم كورقة ضغط على الحكومات العراقية من أجل إجبارها على التنازل أمام مطاليبهم ، فإذا كان الأمر كذلك فكيف تهيىء بريطانيا الوسائل اللازمة للفتك بهم وإضعافهم وتمكين أعدائهم منهم ؟ كيف يتفق ذلك والحقيقة التي تشير إلى أن بريطانيا كانت هي التي تنصب الحكومات والوزراء والنواب وغيرهم بصورة مباشرة؟ وهل قدمت بريطانيا لهذه العشائر الثائرة السلاح والأموال اللازمة للمقاومة؟ وهل وجد في أية وثيقة رسمية حكومية سواء أكانت عراقية أو إنكليزية ما يشير إلى ذلك؟ إننا لم نلحظ بأن الإنكليز قد كافأوا هذه الجماهير العريضة الثائرة بما تستحقه تجاه خدماتها لهم . بل إن العكس هو الصحيح فقد سعت بريطانيا من خلال اتباع سياسة مبرمجة مدروسة وعلى مراحل لجعل مناطق الشيعة كلها تعيش في حالة من البؤس والتخلف الاجتماعي والثقافي والصحي بمستويات متدنية جداً قياساً بالمناطق الأخرى من العراق ، ولقد كان للجيش العراقي دور بارز في قمع التحركات الشعبية وخنق المعارضة بصورة متواصلة، حيث شهدت المنطقة عمليات قمع قام بها الجيش لعدة مرات ، وفترات مختلفة ، أحرق وقتل وخرب وأتلف المزارع خلالها بصورة تقشعر لها الأبدان ، ولا يزال هذا الجيش يقوم بهذه المهمة القذرة بهدم المدن وتخريبها وتدميرها ، فأين « جيزان الحول »؟ وأين أصبحت مدينة « الدجيل » ببساتينها الوارفة؟ بل أين أصبحت الآلاف من القرى والمدن الكردية والعربية؟[2] ، وانها لم يبق لها وجود إلاّ في ذاكرة المواطنين من أهلها الذين نكبوا بأعز

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) تفيد آخر المعلومات الواردة من داخل العراق أن النظام الحاكم قام بإحراق عدة قرى تابعة لمدينة الديوانية نظراً لقيام بعض رجالها بعمليات ضده .

ما يملكون ، حيث فقدوا ملاعب الصبا التي تزخر ذاكرتهم بأحلى الذكريات عنها ، وفقد الصغار ملاعبهم الصغيرة الجميلة تحت أشجار الجوز الباسقة عند عيون المياه العذبة. حيث أماكن اللهو البريء تحت ظلالها الوارفة ، والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح ، هل اعترض الجيش العراقي على الأوامر التي صدرت له،أو تمرد عليها معلناً رفضه لاستخدامه كأداة لتنفيذ هذه الأعمال الوحشية القذرة التي تسيء إلى الشرف العسكري وتلطخ جبين الجيش بالخزي والعار؟ الجواب بالتأكيد لا ، لأنه كان ولا يزال أداة طيعة خنوعة لا تستطيع أن تقف مع الشعب وقضاياه العادلة ، جيش مسلوب الإرادة لم يمنح في أي يوم الفرصة للتمييز بين ما هو واجب حقيقي ـ الدفاع عن الوطن ـ وأعمال القتل والسلب والإرهاب والتدمير التي تطلب السلطة منه تنفيذها بحق أبناء جلدته ووطنه . وبالطبع فإن المسؤولية الأساسية لا يمكن أن تلقى على عموم جماهير المقاتلين البؤساء الذين يستخدمون للقتل في شمال الوطن وجنوبه، بينما يرون إخوتهم وأبناء عمومتهم في الجنوب وقد اختفوا من الوجود، لا يعلم أحد من الناس مصيرهم الذي ينتظرهم على أيدي جلادي الأمن والمخابرات ، بل لا أحد يعلم فيما إذا كانت جثثهم قد تسلم إلى ذويهم أم لا ؟. إن المسؤولية تقع كاملة على عاتق تلك الحفنة المتسلطة على شؤون الجيش من حثالة البشر،من القادة الذين يمسكون بمفاصل الحركة داخل القوات المسلحة والتي كانت ولا تزال أداة طيعة بأيدي الجلادين من الحكام ، على أننا لا نستطيع أن نبرىء ساحة الجماهير الغفيرة من الجنود والمراتب والضباط من الجرائم التي ترتكب بحق الشعب وهم أداتها المنفذة الطيعة .

ـ من المعروف أن الدولة العثمانية كانت تمارس أبشع أنواع التفرقة الطائفية ، فلقد كانت تعامل الشيعة في العراق كرعايا من الدرجة الثالثة،ولم تسمح لهم بالدخول في جيشها كضباط إلّا نادراً جداً ، وإذا ألقينا نظرة على القائمة التي تتضمن أسماء ضباط الجيش العراقي،والذين قدموا إلى العراق،والذين كانوا أصلاً يخدمون في الجيش العثماني، لتبين لنا أنّ اللبنة الأولى التي تشكل منها الجيش ، كانت محصورة بطائفة معينة من الشعب العراقي،حيث جاءت خطوة ضمن ترتيب المخطط الذي وضعته بريطانيا لطبيعة الحكم الذي سيسيّر دفة الأمور في العراق(*) ، حيث يعتقد الإنكليز بأن إتجاه هذا المخطط وهوية أداته التنفيذية هو الذي سيضمن لهم الاستمرار لوجودهم وتأمين

(*) الملحق (أ) قائمة بأسماء الضباط الذين قدموا إلى العراق حيث أسسوا اللبنة الأولى لضباط الجيش العراقي .

مصالحهم في العراق ، لذا فإن أبناء الشيعة الذين كان لهم الفعل الأساس وتحملوا الآلام والمصاعب في سبيل إركاع المستعمر وإجباره على الرضوخ لإرادة الشعب بإنشاء حكومة وطنية ، بدأوا يحسون بأن بريطانيا تخطط للانتقام منهم،وذلك بحرمانهم من الحصول على حقوقهم المشروعة بالمساهمة في الحكم بالقدر الذي قدموا فيه من التضحيات والدماء من أجل إقامته ، ومنذ ذلك الحين أصبح الجيش العراقي أداة فعّالة بأيدي السلطة الحاكمة التي تمثل الأقلية في الشعب العراقي ، يدافع عنها بقوة ويحفظ لها استحواذها على السلطة بأن أصبحت قيادة هذا الجيش وهي المخ والأعصاب التي تحركه بأيديها ، تسيره بالاتجاه الذي تريده وتعينه هي ، بل إن هذا الاتجاه ظل يلازم تطور الجيش العراقي ونموه ، فبعد التطورات التي حدثت بعد إنشاء أول فوج عراقي في ٢١ حزيران ١٩٢١ ،والذي أعقبه تشكيل أفواج ووحدات أخرى،حيث اقترحت بريطانيا إدخال أبناء العشائر في الجيش كضباط،ومن الذين يمكن اعتبار ولائهم مطلقاً لبريطانيا،حيث تمّ إدخال عدد من أبناء العشائر في الجيش، واختيروا من بين قبائل العزة والجبور وبيات[١]، حيث كانوا يشكلون تقريباً ٢٥٪ من مجموع الضباط ، والمعروف أن القبائل المشار إليها هي من طائفة السنة ، وعندما فتحت دورة في الكلية العسكرية سنة ١٩٢٤ كان فيها قسمٌ لأبناء العشائر ، والغريب أن الدكتورة رجاء الخطاب عزت ادخال أبناء العشائر كضباط في الجيش إلى ولاء العشائر العربية في جنوب العراق ، بينما تسكن قبائل العزة محافظة ديالى والجبور الشرقاط والبيات ديالى وكركوك،وهي مناطق يسكنها السُنّة ، تقول الدكتورة رجاء ما يلي : (ظهرت جهودهم ـ أي القبائل ـ في التأييد الذي تمتعت به بريطانيا بين شيوخ القبائل الذين سرعان ما أعلنوا تأييدهم للقوات البريطانية التي نزلت في الفاو ، والذين ازدادت أعدادهم كلما تقدمت الحملة داخل العراق)[٢] . ونفهم من قولها بأن أعدادهم كانت تزداد، وبأن أبناء العشائر كانوا يقاتلون مع القوات البريطانية التي كانت تتقدم داخل العراق،وهو مخالف لما هو معروف جيداً بأن أبناء القبائل العربية في الجنوب قد ساهمت إلى جانب القوات التركية في قتالها ضد الإنكليز ، كما شاركت في فرض الحصار على القوات الإنكليزية في مدينة الكوت الذي انتهىٰ إلى تسليم تالك القوات إلى الأتراك ، لقد وقعت الدكتورة رجاء الخطاب في تناقض واضح ، ولا يستبعد أن يكون ذلك متعمداً ويشكل جزءاً من النهج الخاطىء المزيف للحقائق من الذين يدونون التاريخ تحت رعاية سلطات لها رغبات وأهواء خاصة، يحرص هؤلاء الكتاب والباحثون على تأمينها

(١) تأسيس الجيش العراقي ، الدكتورة رجاء الخطاب .

(٢) تأسيس الجيش العراقي ، الدكتورة رجاء الخطاب .

لأغراض وأهداف مختلفة، هي أبعد ما تكون عن استهداف الحقيقة وإعلانها خدمة للتاريخ والأجيال القادمة والتزاماً بالأمانة في تدوين التاريخ ، وإذا أردنا أن نتحدث عمن كان يقف مع الإنكليز ويساعدهم، وهو ما يجب أن يحدث بالفعل أمانة وخدمة للتاريخ، فإننا يمكن أن نشير إلى عشائر الرمادي من أهل السنة الذين كانت مواقفهم تبعث على الأسى في أحداث حركة مايس عام ١٩٤١ ، فبينما كان الجيش العراقي يحاصر قاعدة الحبانية التي كانت تقع تحت سيطرة القوات البريطانية ، كان أفراد عشائر الدليم وغيرهم يهاجمون الجنود الذين كانوا منشغلين في أداء واجباتهم، ويقتلونهم من أجل الحصول على سلاحهم ، كما أن القوات البريطانية التي قدمت من فلسطين ومرت في محافظة الرمادي متجهةً إلى بغداد كانت تحظى بترحيب واستقبال حار من لدن عشائر الرمادي وسكانها ، فالإنكليز يعرفون جيداً أصدقاءهم في العراق الذين سلموهم مقاليد الأمور وظلوا يرعونهم في مختلف الأزمان ، ولا يستطيع مغرض أو متجنٍ أن يقلب حقائق ناصعة واضحة وضوح الشمس .

الفصل الثالث

تأثير الجيش العراقي على المجتمع

ـ من الواضح أن البلدان التي تتمثل فيها أكثر المشكلات تعقيداً هي التي تتهيب في كثير من الأحيان من إجراء الدراسات الأكثر أصالة ، لذا لم يكن بوسع أي باحث أو متتبع لمشكلة معقدة كمشكلة تدخّل الجيش المستمر في الشؤون السياسية لبلدان العالم الثالث ، لم يكن بوسعه أن يجد من المصادر أو يحصل على المعلومات ما تغني بحثه ، وعلى الرغم من أن الأبحاث التي أُجريت حول تاريخ العراق الحديث منه والقديم لم تكن تولي اهتماماً كبيراً لنوع التأثير الذي يتركه الجيش على نشاط وحركة المجتمع العراقي وتطوره ، بل كانت تنحى في مسارها إلى الإسهاب في ذكر مظاهر الأحداث وتدوين تاريخها أو دراسة انعكاسات بعضها بصورة مقتضبة ، مما لم يكن يشكل في حد ذاته سوى إضافات متعاقبة لتاريخ عدد من الحقب والعهود ، كتأسيس الجيش العراقي للدكتورة رجاء الخطاب، وثورة ١٤ تموز في العراق الذي كتبه اللواء الركن عبدالكريم فرحان ، أو العراق الجمهوري الذي كتبه مجيد خدوري ، وكتب عديدة أخرى لبعض الضباط الذين شاركوا في الثورة أو الانقلاب ، والذين دونوا أحداثاً كانت في معظمها لا تميل إلى التزام جانب الحياد ، لذا فإن الأصالة في أغلب الأحيان كانت مفقودة في أبحاثهم وكتاباتهم تلك ، وهذا مما يجعل قيمتها محدودة من الناحية العلمية والتاريخية على الرغم من الجهود التي بذلت في كتابتها والحصول على مصادرها ، والباحث الحقيقي هو الذي يتقدم بجرأة إلى مواقع الأمور التي يود أن يبحث فيها ويسلط الضوء عليها ، والتي يشعر بقوة بأنه لا يستطيع أن يتجنبها لأنها إن ظلّت خافية عن الأذهان، فإن عمله سيكون بأكمله أقل نفعاً مما كان يتوقع .

ـ يشكل وجود الجيش في دول العالم الثالث حضوراً قوياً إلى درجة تبقى فيه سلطة الدولة كلها في الظل ، ويتحدد نشاطها نمواً صاعداً أو ضموراً تبعاً لقوة الجيش أو

مدى تدخله المباشر في توجيه دفة سياسة الدولة ، وفي الحالة أو الحالات التي يشكل فيها الجيش نسبة كبيرة من بين السكان ، كحالة النفير استعداداً لحرب وشيكة الوقوع ، أو عند نشوبها فعلاً ، حيث يتم تجنيد أعداد كبيرة من السكان وجعلهم يمتثلون لسلطة الجيش ، فإن الدولة بكل مؤسساتها تقريباً ستخضع بصورة مباشرة لسلطة الجيش ، وبما أن الجيش يأخذ موقع السويداء في قلب السلطة ، أي في النقطة الحساسة الحرجة التي تحتوي الالتقاء بين المشروع السلطوي السياسي العام للدولة والجهاز الذي يؤمن الحفاظ على هذا المشروع وإدامته ، وبتعبير أدق فإن الجيش في الواقع هو الذي يحدد نمط المحافظة الاجتماعية الذي تتحدد بموجبه كل خواص المجتمع ومميزاته ، ويحدد اتجاهات السياسة الإدارية العامة للدولة وتشكيلاتها المختلفة ، السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية وسلامة العلاقات التي تربطها ، كما ويؤثر على نمط العلاقات الاجتماعية ، الاقتصادية ، الطبقية في بعض الأحيان، فإن مؤسسة تمتلك هذا الحجم من التأثير يجد الكثيرون في الظروف الاعتيادية أنفسهم غير قادرين على الخوض بمكوناتها ومفاصلها وطبيعة حركتها والعوامل الظاهرة والخفية العاملة في تحديد اتجاهات هذه الحركة ، نموها أو تراجعها ، ولهذه الحالة أسباب عديدة وأهمها ارتباط الجيش ارتباطاً معنوياً وسيكولوجياً بالنظام السياسي السائد الذي لن يسمح بأي حال من الأحوال بالخوض في البحث حول جهاز لا يحتمل أي نقد ، إذا لم نقل التشهير ، لأن ذلك سيعني بالتأكيد بأن الدولة نفسها قد سلط عليها الضوء ، فليس يهم الدولة أن يقال بأن سياستها الخارجية ليست متزنة ، أو أن وضعها الداخلي مرتبك ، أو أن اقتصادها ليس مستقراً ، لأن الدولة تستطيع وبكل بساطة أن ترد على مثل هذه الأمور بالطريقة التي تراها مناسبة دون أن تشعر بإحراج كبير ، فبيان مقتضب أو تصريح لمسؤول كبير يُطَمْئِن من يهمهم الأمر ، أو يُلهيهم على أقل تقدير ، بأن برامج جديدة قيد الدرس سوف يتم اعتمادها وتنفيذها كفيلة بأن تصحح ما يقال عنه بأنه نشاط ليس مجدياً ، أما الحديث عن الجيش، وهو مؤسسة (الأمن القومي الرئيسية) فهو يذهل مدبري السياسة ويعكر صفوهم إلى درجة تجعلهم يعيشون القلق الدائم ، فكيف سيكون بمقدور قائد أمة أو دولة أن يجيب على علامات شكوك تثار حول ضعف معنويات القوات المسلحة التي تشكل صمام الأمان الأساسي ، والتي تخضع ضمن ما يخضع غيرها من المؤسسات لسلطته ، وفي أحيان كثيرة بل ربما في كل الأحيان تعود مسألة ضعف الروح المعنوية إلى وضع القائد ، رجل الدولة الأول نفسه ، إلى ضعف قيادته شخصياً ، أو إلى عدم تقديره للموقف الاستراتيجي بصورة دقيقة . أما العامل الثاني الذي يضع كابحاً مهماً أمام الباحثين فيعود إلى أنهم في أغلبهم يخضعون بحوثهم وتحقيقاتهم لتصورات مسبقة تفرضها عليهم حالة

من الانتهازية أو الخوف من بطش السلطة ، أو أن توجهاتهم بالأساس تخضع لتصورات ومرتكزات عقائدية تتوافق مع ما يسود في البلد المشار إليه، والذي يراد دراسة وبحث وضع قواته المسلحة بصورة دقيقة ، ولم أجد في هذا المجال إلاّ ما يمكن أن نسميه نادر الندرة من يشير إلى ذلك بإشارات بسيطة إلى العوامل الفاعلة الرئيسية في دراسته لتاريخ وتطور القوات المسلحة لبلدان العالم الثالث ، وإذا كانت فكرة التقدم أي تحريك المجتمع والتاريخ باتجاه إيجابي يستند إلى عوامل دافعة حيوية من بينها قوة الجيش إضافة إلى عوامل مهمة أخرى كشيوع الايديولوجيات الحديثة مثلاً ، أو ظهور الإسلام في العقد الأخير من هذا القرن كأكبر قوة ثورية محركة ، فإننا لم نلمس مع الأسف الشديد تلك الآثار المرجوة من الجيوش التي نشأت في بلدان العالم الثالث ، حيث استنفذت الكثير من الامكانات والثروات الوطنية لشعوبها ، بل على العكس ، ومع تقديرنا للحجم المتواضع لتلك الجيوش الذي فرضته ظروف معروفة ، إلاّ أنها لم تكن تؤثر في حركة المجتمع بالقياس لما تملكه من إمكانات ، بل إنها كانت تقف دوماً ضد تطلعات شعوبها ، وظلّت تشكل عاملاً رئيسياً ينتهي بتطلعات الشعوب وآمالها إلى الخيبة ، والملاحظة الغريبة في جيوش العالم الثالث هي أنها كلما نمت وتوسعت وامتلكت من الوسائل المادية والبشرية قدراً كبيراً ، كان تأثيرها يتناقص تماماً ، وفي حالات كثيرة تصبح أداة طيعة لتنفيذ مطامع الأجانب سواء في بلدانها أو البلدان الأخرى ، والملاحظة الأخرى الجديرة بالاهتمام هي أن البلدان ذات الجيوش الضخمة المجهزة بأحدث الأسلحة المهداة إليها من دول أخرى كبرى فإنها غالباً ما تخضع لسيطرة تلك الدول بحيث تمتد أياديها علناً وسراً لتسيير ساسة بلدانها ، وغالباً ما تصبح تلك الجيوش أداة بديلة لتأمين مصالح دولة كبرى تتهدد مصالحها في بعض بلدان العالم ، كجيش المغرب ، مصر ، الكونغو ، باكستان ، تركيا . . الخ ، وعدنما نما الجيش العراقي وأصبح من الجيوش ذات الهيكل التنظيمي شبه المتكامل ، وبعد الفراغ الذي أحدثه سقوط الشاه في إيران ، فإنه أصبح أداة طيعة للحفاظ على مصالح الدول التي لديها استثمارات ووجود اقتصادي هائل في المنطقة ، ولو لم يكن الجيش العراقي مسلحاً في بداية الحرب بهذه الكمية الهائلة من الأسلحة المتطورة التي كانت تزيد عن حاجته لما شنت الحرب فعلاً ، ولظل العراق بعيداً عن النزاعات التي لم يكن له فيها مصالح هامة جداً تتعرض للمخاطر الجسيمة ، والتي يصبح عندها التوسل بالحرب مقبولاً ، ولأمكن على أقل تقدير حل النزاعات الدائرة بينه وبين جارته إيران بالأساليب الدبلوماسية، بعيداً عن التهديد الذي يشكل في حد ذاته نوعاً وممارسة لأحد أساليب الحرب ، إلاّ أن توسع القوات المسلحة العراقية وتزويدها بالأسلحة المتطورة جعل القيادة العراقية تحس بالغرور والغطرسة قبل

الحرب ، كما أصابها النشوة المؤقتة بعد شروعها ، ولم تكن المناورات الدولية وأهدافها بعيدة عن دفع العراق إلى واجهة الأحداث التي رمته في آخر المطاف بنار تلك المحرقة الهائلة .

ـ وفي رأيي ، فإن مستقبل الجيش العراقي في كل الأحوال ـ وكما ظل هكذا ـ سيكون محدود التأثير على المجتمع العراقي ، فخلال سنوات تشكيله الأولى وما تلاها ، وفي سني الحرب وهي أهم فترة في حياته ، لم يشهد أي تطور حقيقي في بناء صرح اكتفائه الذاتي ولو بقدر محدود ، في مجال تطوير الصناعة الحربية ، بل ظل معتمداً اعتماداً تاماً على ما يستورده من الأسلحة والأعتدة وكافة المواد الاحتياطية اللازمة لإدامتها ، أو معدات الخزن اعتباراً من أصغر جزء فيها إلى أكثرها تعقيداً ، لذا فإنه سيظل أسيراً لمصادر توريد السلاح التي يطلبها دوماً ، مما سيقلل من قيمته في نظر المجتمع وليس فقط سيعدم تأثيره فيه . كما أن السلطة نفسها سوف تظل عاجزة عن إقناع القوات المسلحة ومهما كانت المبرّرات لاستخدامه في أية حرب مقبلة ، مهما كان وضوح عدالة ترك الحرب ، وذلك بسبب عمق الهوة التي تفصله عن قيادته بل النظام كله ، وإذا لم تستجد عوامل جديدة حاسمة فإن الأوضاع الداخلية التي تتصارع علناً وخفية داخل القوات المسلحة ، وتجعل الحرب شبحاً رهيباً وعمل لا يمكن تصوره بأنه قابل للتكرار مرة أخرى ، نعم هناك من العوامل والظروف التي قد تستجد ـ ولا يستبعد أن يحدث ذلك ـ قادرة أن تفعل فعلاً كبيراً باتجاه تقبل الحرب على أساس أنها حرب حقيقية عادلة ـ حرب ذات أهداف لها من الجذب ما يجعل الإنسان ينقاد نحوها بحماس عظيم ـ ، إن أثر الجيوش وانعكاس وجودها على الشعب يعود أساساً إلى ثلاثة عوامل مهمة هي :

أ ـ نبل الأفكار وقوتها التي يتشبع بها ومدى فاعليتها ، وتطابقها ليس نظرياً ، كما هو سائد الآن ، بل عملياً ، وهو ما يفتقده الجيش العراقي حالياً تحت ظروف التشويش والتذبذب في ايديولوجية السلطة وسياستها الدولية والإقليمية ، وتبدّل تحالفاتها المستمر الذي يتضاد ويتنافر مع المبادىء التي تنادي بها ، يتوجب تشبع أفراد القوات المسلحة بأفكار راسخة تأخذ منحى متوافقاً مع رغبات الشعب ومعتقداته الراسخة، والذي يجب أن يبدي تناغماً وانسجاماً إرادياً معها،بحيث تبدو الحركة والنشاط ومجمل الفعاليات سائرة ضمن دائرة واحدة ، لا يبدو التنافر والتضاد بينها ، وهذا ما لا يملكه الجيش العراقي في الوقت الحاضر ، الذي يسير قسراً بالدرجة الأولى أو ترغيباً بالدرجة الثانية مما يضفي عليه صفة الارتزاق التي تعتبر من أكبر أسباب تمزق الجيوش الحديثة ، ولا يبدو الانسجام

والتوافق متلائماً بين حركة الجيش وفعالياته وبين الشعب ، نعم هناك صفة مشتركة بينهما هي شيوع حالة قسر عامة مفروضة على الجميع ، تحكم تلك الحركة وتسيرها بالاتجاه الذي يفترض أنها سائرة عليه وفقاً لرغبات القيادة ودوافعها .

ب ــ وجود صناعة حربية متطورة ، لأن العراق لا يملك صناعة حربية مؤثرة ، بل إنه يمكن القول بأن العراق لم يملك بعد أي نوع من أنواع الصناعة الحربية ، فلا تزال الأنشطة الصناعية فيه بداثية جداً في مجال الانتاج المعروف كصناعة حربية ، إلاَّ أن هناك طفرات في صناعة حربية تكميلية إذا كان جائزاً لنا أن نسميها هكذا في مجال إنتاج الأسلحة الكيمياوية التي لا تحتاج إلى تقنية عالية لانتاجها ، كما أن المؤسسة العسكرية العراقية تساهم بجزء بسيط محدود فيها على أنها صناعة حربية، وعندما يستطيع الجيش العراقي أن يصل في الصناعة الحربية إلى الدرجة التي يستطيع فيها أن يؤمن ما يحتاجه في أي حرب ولو بنسبة معقولة ، فإنه سيفرض عندها وجوده على المجتمع من خلال امتداد تطور صناعته الحربية التي ستشد إليها مجاميع مختلفة من الشعب الذي سينهمك في المشاركة فيها، وسيجد عندها نفسه منشداً إليها عندما يراها تتغلغل فيه بسبب ما تملكه من مؤهلات وطاقات إبداعية ، تضعه بعين الشعب في موضع الاحترام سواء كان ذلك في زمن الحرب أو زمن السلم .

جـ ــ القيادة الكفوءة : لا يمكن أن ننكر أن كفاءة القيادة تتجلى في مرونتها في إدارة الصراع السياسي أولاً ، وفي المناورات الدولية لكسب الدعم والأصدقاء ثانياً ، فإن هذا النشاط الهام يعتبر مكملاً للعمليات الجارية في ساحات المعارك ، إلاَّ أننا نرى في أغلب الحروب التي شهدها العالم بأن دولاً كثيرةً لم تكن لها مصلحة بالاشتراك في الحروب التي دارت ، لكنها وجدت نفسها منقادة بصورة لا إرادية إلى المساهمة فيها بطرق وأساليب مختلفة ، وما يحظى به النظام العراقي من تأييد كبير في الأوساط الدولية والإقليمية ليس مرده أساساً إلى أن القيادة العراقية تتمتع بحنكة فائقة في إدارة الصراع السياسي واقتناص الفرص الدولية وتناقضاتها لصالحها ، بل إن كافة الدول والتجمعات التي وقفت مع العراق تجد نفسها معنيّة ، بصورة أو بأخرى بالنتائج التي أسفرت عنها الحرب، وعلى ضوء هذه الحقيقة فإن ما حصل عليه النظام من الدعم المادي والسياسي الدولي والإقليمي كان ثمناً ومساهمة من قبل كل من وجد نفسه في الواقع مطالباً بأن يدفع عن نفسه خطراً يهدد وجوده ومصالحه اللامشروعة ، خاصة وأن النظام العراقي أصبح يشكل جداراً وخندقاً متقدماً لحماية كل المصالح الدولية في منطقة النزاع الحالية ، إلاَّ أن كفاءة وقدرة القيادة الحقيقية ، أي قيادة ، تتمثل في الحقيقة في مدى النجاح الذي

تتوصل إليه في صهر الشعب الذي يعيش تناقضات خطيرة ، طائفية وعنصرية ، في بوتقة واحدة ، يقف خلفها مطمئنة إليه بأنه يسير معها بناءً على ما تفرضه عليه قناعاته الحقيقية، بأنه صاحب المصلحة الرئيسية في إدامة حرب عادلة أعلنت من أجل استرداد حقوق مشروعة لم يكن ممكناً استعادتها عن غير طريق القوة . وليس هذا فقط ، بل إن هذا الموقف يجب أن يواكب أزمة الخطر إلى نهايتها دون تردد ، وهذا ما لا يمكن أن يتأكد أحد من وجوده على الاطلاق ، أما إذا كانت القيادة نفسها تحمل كل عيوب ونقائص المجتمع نفسه ، وينعكس واقعها المؤلم هذا على مجمل نشاطها وتعاملها ، وإذا كانت تلك القيادة لا تتمتع بالكفاءة اللازمة لإدارة الدولة من جهة ودفة الحرب من جهة أخرى ، والمشتعلة يومياً ، فلنا أن نتصور بأن أي أثر سيتركه الجيش العراقي كمؤسسة طليعية في الحاضر والمستقبل .

ـ أنهى أكثر القادة العراقيين المعروفين دراستهم العسكرية في المعاهد العسكرية الغربية ، وعلى الأخص في معاهد إنجلترا ، وهناك تقليد معروف في الجيش العراقي بأن أفضل العسكريين هم الذين ينجزون دراستهم ويتخرجون من المعاهد البريطانية ، التي تحرص وزارة الدفاع العراقية على حجز مقاعد دراسية خاصة بها كل عام في المعاهد الأجنبية ،خاصة في إنكلترا وفرنسا بالدرجة الأولى، ثم الاتحاد السوفيتي والهند ، أما البقية الباقية منهم فقد كان النمط الغربي منسحباً عليهم بصورة واضحة ، وتطلعهم العام على مختلف مشاربهم الفكرية ينشد إلى بناء تجربة على النمط الغربي ذات مسحة ثورية باهتة ، إلاّ أنهم كان يعوزهم في الحقيقة ، كي يحدثوا ما كانوا يسمونه بالتحديث في مؤسسات الدولة ـ الاندماج وتشكيل النواة الموحدة المنسجمة، أي على تشكيل نواة صلبة قادرة على توحيد وتنظيم مختلف مكونات المجتمع العراقي من طبقات وأعراف ومناطق وأقاليم متنافرة وثقافات متمايزة ، وأقليات عنصرية ومذهبية ، واختلافات طائفية ، وأفكار وايديولوجيات وحركات سياسية تمتد في المجتمع عميقاً ، ولقد حاول هؤلاء في الواقع أن ينهضوا بهذه المهمة ، إلاّ أنهم لم يكونوا في يوم من الأيام بمستوى خطورتها وشدة تعقيدها ، فلم يفلحوا في هذا المجال ، بل إن تدخلهم كان غالباً ما سبب زيادة التعقيد ، فبعد أن يصيبهم اليأس ، يتصرفون بالطريقة التي تعمق وتظهر إلى السطح كثيراً من المشاكل التي تحدثنا عنها ، بل إنهم لم يستطيعوا أن يشكلوا من الجيش، وهو أداة طيعة بأيديهم نموذجاً لتلك النواة التي كان يفترض بأنها أكثر طوعاً واستعداداً كي تصبح قادرة على أن تكون الأداة الفعّالة لصهر المجتمع ، ويمكن تتبع مراحل حكم العسكر في العراق للوقوف على ما وصلت إليه الحالة المعنوية للقوات المسلحة، وما عانت من تمزق وعمق التناحر الذي أثاره قادة الانقلابات بين أوساط

الجيش ، وبالتالي بين أوساط الشعب ، أقليات ، وعناصر ، وحركات سياسية ، إضافة إلى الفشل المستمر لكل المحاولات التي بذلوها من أجل احداث تطور اقتصادي وسياسي واجتماعي في بنية العراق ، التي لم تكن تتلاءم مع حجم التطور والتقدم الذي بدأ العالم يشهده ، أما ما يتعلق بطموحاتهم التي تمتد خارج القطر ، فقد كان نصيبها الفشل العام ، بل إن العراق في عهود تسلطهم ، باستثناء فترات قصيرة ، قد انطفأ بصورة تامة داخل حدوده ، ولم يعد له تأثير متواصل يذكر في السياسة الدولية والعربية ، إلاّ إذا كان اعتباره أداة في تنفيذ جزء من المخططات الدولية نوعاً من هذا التأثير ، وقد مثل الوضع داخل الجيش نفسه قبل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وضعاً فريداً من حيث عدم انسجام قادته، واعتماده كنواة بأيدي العسكريين لإحداث التغيير اللاحق الذي يفترض بأنهم كانوا ينوون إحداثه داخل بنية النظام الذي سيشكلونه ويدعمونه ، فلقد عملت عدة تنظيمات سرية داخل الجيش على الاعداد للعمل المقبل ، إلاّ أن التناحر كان يسودها، إضافة إلى ضعف الثقة المتبادلة بين أعضاء هذه التنظيمات من العسكريين ، وهم الذين كانوا يشكلون في الواقع نخبة الضباط في الجيش العراقي ، فعندما يقول رفعت الحاج سري، وهو من أكبر العقول التي عملت في مجال الاعداد للحركة ، وكان يترأس أول تنظيم سري في الجيش ، عندما يقول بأن عبدالكريم قاسم (لا يصلح لقيادة حظيرة مشاة)[١] ، فإننا نستطيع أن ندرك ببساطة عمق الهوة التي كانت تفصل بين المجموعة كلها التي كانت تدير الحركة سراً، وتتهيأ لإنجاز العمل الذي رهنت نفسها له ، أما بعد نجاح الحركة فقد شهدت القوات المسلحة انقساماً خطيراً، إضافة إلى كونه أساساً لم يحقق في داخله الانسجام المطلوب بعد مرور فترة وجيزة على وقوعه ، وظهرت عناصر النزاع والتسابق على الاستئثار بمقاليد الحكم بين كل مجموعات الضباط ، ولم يخل عهد من العهود بعدها من وجود تكتلات تسعىٰ إلى نسف حالة راهنة كانت تراها لا تتلاءم مع طموحاتها السياسية والاجتماعية ، على أن ذلك لم يعنِ على الإطلاق بأن النزاع الذي كان يدور داخل القوات المسلحة باستمرار يستهدف إحداث تطوير في بنية المجتمع الاقتصادية والثقافية والسياسية ، باستثناء فترة حكم عبدالكريم قاسم ، الذي كان يتمتع بديناميكية فائقة، ميزته بين أقرانه من الضباط الذين لم يبدوا من الكفاءة والمقدرة على مساعدته في إدارة شؤون الدولة ، حتى المقربين منه والمحسوبين عليه ، إلاّ أن هذه الفترة لم يكتب لها أن تستمر طويلاً بسبب ظروف عامة سياسية واقتصادية حاكمة متأصلة تساهم في وضع إطار خاص لبنية الدولة والمجتمع ، لم تكن تتوفر لعبدالكريم قاسم الفرصة والوسائل

---

(١) ثورة ١٤ تموز في العراق ـ اللواء الركن عبدالكريم فرحان .

الكافية للتغلب عليها ، ولم تكن الأسباب التي أدت إلى إخفاق العسكريين الذين يمسكون دفة الحكم إلى اليوم خافية على أحد ، فالطائفية والعنصرية وضعف البحرية لدى قادة الجيش في إدارة الدولة ، على الرغم من إمكاناتهم التنظيمية التي اكتسبوها خلال عملهم في مؤسسة يستند وجودها على نظام انضباطي صارم فعّال ، لقد شكلت تلك الأسباب عناصر محركة مضادة واسعة داخل القوات المسلحة من جانب وفي أوساط الشعب العراقي كله من جانب آخر ، وبالنتيجة فلم يسلم المجتمع العراقي الذي كان شبه مستقر على رفض النظام القديم على الرغم من سوء أو صناعة العامة ، لم يسلم من الهيمنة العسكرية وتدخل الجيش في شؤونه ، لأن نفس الظروف التي كانت سائدة في مجتمع ما قبل الحكم العسكري المباشر ظلّت دوماً في ظاهرها الأسباب التي دعت الجيش دوماً إلى التدخل مدعياً قدرته على الحسم الإيجابي وتغيير الأوضاع نحو الأحسن ، وذلك ما لم يحدث في واقعه إلاّ في نطاق محدود جداً ، تبعه تخريب اقتصادي واجتماعي وسياسي شامل .

ـ من الأسباب الرئيسية لفشل كل ما يسمىٰ بالثورات والانقلابات الرئيسية يعود إلى أن القوات المسلحة التي كانت تنجز هذه المشاريع لم تكن أساساً مؤهلة للحصول على ثقافة ثورية أصيلة تمتد إلى أعماق الشعب وتحتوي تطلعاته بصورة عملية منهجية ، بينما نجد بأن الثورات التي نمت جيوشها واتسعت بالتدريج خلال النضال الثوري المستمر ، أو التي أقامت جيوشها على انقاض جيوش قديمة، تم تحطيم أسسها تحطيماً تاماً ، أمّن لها استمرار جوهر مشروعهاوتطوره،حتى في اللحظات التي كان يبدو فيها بأنها تواجه العجز في تجاوز بعض المعضلات الاجتماعية أو الاقتصادية ، فإن تلك المؤسسة تظل كما هي تقريباً عنصراً هاماً ورئيسياً لإقرار التوازن المطلوب في العمل الذي يراد إنجازه لإحداث تحولات ملائمة . ولم تتدخل بأساليب العنف المعروفة لإجبار الرأي العام على قبول ما كان سائداً بأكمله ، إلاّ أنها تظل محافظة على احترام الشعب الذي يعتبرها بالفعل العنصر الفاعل في المجتمع للاحتفاظ بالاستقرار المطلوب والضروري لإحداث أي تغيير ، وهو يعترف لها بدورها هذا برحابة صدر ، بينما نرى في البلدان التي نشأت جيوشها تحت سلطة الاستعمار والهيمنة المباشرة ، ان مجريات واتجاهات تدخل الجيش غالباً ما تأخذ مجرى مخالفاً لرغبات الشعب ، فبعد كل انقلاب ينفذه الجيش ، ينتصب في ذهن الشعب حالة ترقب لحدوث انقلاب لاحق ، مما يشكل في الحقيقة عاملاً معطلاً للجهود التي تبذلها السلطة لتنفيذ برامجها التي تخطط لإنجازها في مراحل تحتاج إلى وقت ملائم كي تظهر آثارها للعيان ، بل إن أغلب الأحداث المهمة في بعض بلدان العالم الثالث ، كحدوث تغيير شامل ومعاكس في سياسة نظام ما ، يقف خلفه

الجيش في الخفاء دون أن يطلق طلقة واحدة ودون أن يسمع لمدافعه ودباباته دوي ، كما حدث في مصر بعد وفاة عبدالناصر واستلام السادات لمقاليد الحكم، حيث أبدل كل أسس النظام الذي كان يشكل هو والذين ساعدوه على تقويضه جزءاً منه ، وكما حدث أيضاً بعد إعدام السادات واستلام مبارك للسلطة .

ـ « لا شك بأنه من الممكن في كل مجتمع أن يصار إلى عرض مشروع سياسي ونعته بأنه وطني ، لكننا نستطيع أن نرى بسهولة أن ما هو فعّال في المشروع السياسي ، أي ارتقاؤه لمصاف المشروع الوطني الحقيقي ، يقاس بمقدار الطاقة الوطنية القابلة للتعبئة بناء عليه ، أي أنه مرتبط باستمرارية عمق الحقل التاريخي ـ الموضوعي ، ولكن أيضاً ـ كما هو مفهوم ومستوعب في وعي الجماهير ـ القادر وحده على التغذية والدعم ومجابهة الصدمات ، وعلى توفير الوقت والتراجع اللازمين حتماً لكل عمل عظيم »[1] .
نعم يمكن إجراء مثل هذا المشروع، ولكن يشترط فيه أن يراعي التفاعلات التي ولدتها الأحداث التاريخية لمجتمع ما ، إضافة إلى البحث عن خصائص هذا المجتمع ، ولكن يظل للجماهير دور أساسي في دعم هذا المشروع وإظهاره للدفاع عنه ورفده بمستلزمات النمو والاستمرار ، وهذا ما لم يكن مستهدفاً أن يوضع أمام أعين القائمين على إنجاز تلك المشاريع إلاّ نظرياً في أحسن الأحوال ، لذا فإن أكثر القادة واقعية هم الذين استطاعوا أن يقتربوا ، ولو بدرجات محدودة ، نحو فهم واقعي وحلول ملائمة للمشاكل التي كان الشعب العراقي يعاني منها ، وهي نادرة ، ولا يمكن أن تتكرر تحت ظل الظروف السائدة الآن مطلقاً ، لأن المشروع يجب أن يصبح مشروعاً شاملاً إذا كان يراد له النجاح والتجذر.
« كل شيء يصبح عندئذٍ مرتبطاً بطبيعة السلطة الطبيعية والإيديولوجية ، وعندما يصبح المشروع الوطني مهيأً للتشكيل والصياغة فإنه يكون عندئذٍ ما تقرره الطبقة السياسية الموجودة في السلطة بالارتباط مع البلاد في أعماقها»[1] . ففي كل الأحوال تظل طبيعة المنحدرات الفكرية ، والتي لا اسميها طبقية، التي تشكل فيها أسس الممارسات والخطط التي ترسم لإدارة الدولة والتخطيط لها ، تشكل العامل الرئيسي لتطور هذا المشروع وإنجازه ، ولم تكن الفئة العسكرية التي تولت السلطة في العراق تمتلك مثل هذا الأفق الواسع من الثقافة والتفكير الذي يجعلها قادرة على الارتباط مع البلاد في أعماقها ، لقد حققت ذلك في عهود الغوغائية والفوضى التي شجعت من كان يفترض أن

(١) الجيش والحركة الوطنية ـ د. أنور عبدالملك ، ص ٦٢.
(١) المصدر السابق نفسه.

يوجهوا للعمل المنتج الفعّال الذي يحتاجه بالفعل المشروع الجديد الذي ينتظر منه أن يبني كل ما ارتؤي بأن تهديمه ضروري لإعطاء سمات مميزة للتغييرات الجديدة ، شجعت هؤلاء على إظهار مشاعر التضامن الخالية من المضامين العملية المجدية والتي بدونها يعتبر المشروع فاشلاً من الأساس .

ـ أصبحت الجيوش في الدول المتقدمة بعيدة عن التدخل المباشر العلني في الأمور السياسية للدولة ، كتوجيه بعض الأنشطة المدنية في إدارة الدولة ، والتدخل لصالح حزب دون آخر ، الخ . . . إلاّ أن إمكانياتها الضخمة ، التكنولوجية ، الأسلحة النووية والاستراتيجية ، المؤسسات الصناعية الضخمة ، الاحتياجات المستمرة لتطوير الأسلحة لتحقيق التوازن أو التفوق الدولي ، أصبحت تفرض وجود سلطة قوية للجيش داخل المجتمع ، سلطة دائمة ومستمرة ، دون أن تحدث ذلك بالعنف والقوة . فالقوات المسلحة الأميركية مثلاً لها تأثير كبير على المجتمع الأميركي بسبب ما تملكه من إمكانات ووسائل كبيرة ، وبسبب وجود المركب العسكري ـ الصناعي الذي يتكون من المئات من الشركات المدنية المنتجة للأسلحة والمعدات العسكرية ، والتي تستثمر فيها من الأموال والخبرات ما يفوق أي مجال آخر من النشاطات الصناعية داخل الاقتصاد الأميركي . أما في بلدان العالم الثالث فلقد كان همّ سلطة التقرير سواء أكانت مدنية أو عسكرية ، ولغرض أن تمنع الجيش من التدخل في السياسة ، كانت تحاول إرغامه قسراً على عدم التدخل ضد مصالحها ، ولم تجد وسيلة فاعلة لمنحه وجوداً حقيقياً يعوض تدخله العنيف المستمر المتلاحق ، مما ترك المشكلة دوماً قائمة وقابلة للانفجار ، فلم يكن القادة المدنيون قادرين على إدارة الدولة بصورة ملائمة ، بسبب ارتباطهم المباشر بالمشاريع الاستعمارية ، كما ولم تتيسر للقادة العسكريين الذين قادوا الدولة فيما بعد ، والذين نموا وعاشوا ضمن نمط خاص من الممارسة والتعامل ، لم تتيسر لهم رؤىٰ واضحة لطبيعة مجتمعاتهم واحتياجاتها ومشاكلها ، اضافة إلى ارتباط عدد كبير منهم بالأجانب ، فلم يستطيعوا أن يديروا الدولة بالاتجاه الذي رسموه لها نظرياً ، إضافة إلى أسباب أخرى معروفة جيداً ، ولم يكن ظهور الجيش كقوة في العالم الثالث وفي دولة نشأت تحت السيطرة الاستعمارية بعيداً عن التطورات الجارية في العالم ككل أبدا ، بل كانت جزءاً منها وانعكاساً لها ، ولكنها انعكاس لصورة لم تكن واضحة في أذهان من أشرفوا على إدارة مشاريع كانت ترعاها قوىٰ لم تكن بعيدة عن التخطيط لإحداث تغيير ما ، يدفع الموقف إلى نقطة الاستثمار القصوىٰ بعد أن عجزت الظروف السابقة عن تأمينه ، أو أن استمرار وجودها أصبح يشكل خطراً جدياً على مصالحها ، فمن انقلابات تركيا

المستمرة ، إلى الباكستان فأندونيسيا والفليبين إلى العراق وإيران واليمن ، كما أن بلداناً صغيرة جداً لم تسلم من حمىٰ التغييرات هذه كدولة فيجي وهاييتي ، بل إن جيوش دول كان يفترض أنها كانت قد تم تأسيسها في ظروف ثورة شعبية ملتهبة انتهت إلى أن تصبح جيوشاً كلاسيكية ، أفرزت قادة لم يكونوا بمستوى الهموم والآمال التي توخت الثورة الوصول إليها ، كما حدث في الجزائر مثلاً ، وإلى حد ما في اليمن الجنوبي .

ـ مرَّ « الجيش العراقي » بتجربة خاصة فريدة ، فرضتها الظروف الاجتماعية والتاريخية ، ولأن النواة الأساسية التي شكّلت الجيش العراقي نواة واحدة هي التي شكلها فلول العسكريين الذين كانوا يخدمون في الجيش العثماني ، ثم خدموا الملك فيصل وأسرته في الحجاز وسوريا والعراق ، تلك الفئة من الضباط الذين كانوا يرتبطون بالاتجاهات التغييرية الجديدة التي هبّت على كل الوطن العربي ، والتي كانت تقودها بريطانيا ، والذين شكلوا الهيكل الأساسي لملاكات الجيش العراقي في بدايات تأسيسه إضافة إلى إدارة الدولة التي شكلها الإنكليز . وكان هؤلاء يشكلون الفئة الأكثر اعتماداً من قبل السادة الجدد الذين أمسكوا بمستقبل العراق ، وهم الذين نفذوا المخطط الإنكليزي في العراق بكل تفانٍ ، ولقد كان للأصول الطبقية والعرقية لهؤلاء أثر كبير في توجهاتهم التي تركت آثارها العميقة على واقع العراق منذ تسلمهم الحكم والإدارة ولحد الآن ، ولا يمكن توقع انتهاء تلك الآثار في المستقبل القريب ، ولقد شكل نوري السعيد ، وجميل المدفعي ، وجعفر العسكري ، وعلي جودت الأيوبي ، وياسين وطه الهاشمي ، وعبدالمحسن السعدون ، وجمال وجلال بابان ، ونور الدين محمود ، وتحسين علي ، ومحمود نديم السنوي ، وحسين فوزي ، وعلي غالب ، وكامل شبيب ، وخليل زكي ، وقاسم مقصود ، وخليل سعيد ، وبكر صدقي ، وصلاح الدين الصباغ ، وسري الحاج صالح ، وغيرهم من الضباط الذين ينحدرون من أصول كردية أو تركية إلاَّ القليل منهم ، شكلوا أساس النسيج الذي رسمت عليه كل اللوحات التي تتغير ألوانها بين حين وآخر ، إلاَّ أن الحقيقة أن هؤلاء جميعاً يعيشون في محيط واحد ، يفصل بين رؤآهم العملية غشاء شفّاف ، وتظل الأفكار التي تراود قسماً منهم والتي تبدو مختلفة عمّا يجول في خواطر الآخرين مختلفة ، تظل تنمو في نفس هذا المحيط ، هو النظرة التي يعوزها العمق لمشاكل المجتمع العراقي والعوامل المؤثرة على عدم نهوضه ، فالطائفية مرضٌ يتأصل في نفوسهم ، ويستأصل منها كل نزوع حقيقي للعمل المثمر ، على أن هذه الشريحة أو النواة لم تكن تتصارع فيما بينهما ، وربما كانا يشكلان في الجيش والدولة اتجاهين : الأول تقليدي ويقف على رأسه نوري السعيد ومجموعة كبيرة من الضباط ، والآخر يرىٰ

وجوب الاشتراك بعملية النهوض بالبلد ، وعدم الاكتفاء في المحافظة على أمن الدولة والنظام نفسه ، هذا ما كانوا يقولونه هم على الأقل ، إلّا أن المشكلة التي كانت تواجه كلا الاتجاهين هو أن أسلوب معالجة العسكريين للوصول إلى النتائج المرجوة واحد نظراً إلى الأصول الاجتماعية والعرقية والطائفية التي تربطهم جميعاً بوثاق واحد ، كل واحد منهم يتعلق بطرف منه ، حيث يتحول النظام الذي يقال بأنهم جميعاً يناضلون من أجل إقامته - إلى لعبة مسلية ، ولم يكن النظام في كل العصور التي مرّت على العراق ينتهي إلّا إلى نظام بوليسي مهمته المحافظة على الأسس المراد إشادته عليها ولكن دون جدوى.

ـ يلعب داخل الجيش العراقي اتجاهان رئيسيان اجتماعي وسياسي ، ولا يقل كل من الاتجاهين أهمية عن الآخر ، وهما في الحقيقة متداخلان إلى الدرجة التي يمكن القول فيها أن نسيج أحدهما يشكل القاعدة والأرضية التي ترتسم عليها صورة الآخر ، إلّا أن لكل منهما ملامح تختلف عن الآخر بالقدر الذي لا يبتعد عن التأكيد بأنهما متكاملان ، ونظراً لأن هذين العاملين يتفاعلان بصورة علنية مرة وخفية مرات كثيرة بحيث ينتج عنهما في أغلب الأحيان ظواهر أساسية ورئيسية عن عمق تأثيرهما داخل القوات المسلحة ، وربما كانت أحد عناصر هذين الاتجاهين قد ضعفت أو أصبح من غير الممكن أن يلمس أثرها بصورة واضحة ، إلّا أن ذلك لا يمكن أن يخدعنا أبداً ، فالمظاهر التي نشاهدها في ظاهر الصورة ليست هي في حقيقتها تلك العوامل الفاعلة أبداً ، فإن ما عملت على ترسيخه سنوات طويلة في حياة أمة وشعب لا يمكن أن يختفي خلال مدة قصيرة من الزمن ، أو تحت تأثير ظرف خاص يضغط عليه محاولاً إخفاءه من الوجود ، لكن العامل الاجتماعي في نظري هو الأكثر أهمية بحدود واضحة داخل الجيش العراقي ،لأن أصوله وجذور نموه تمتد إلى أعماق الشعب وماضيه وتاريخه ، وقد سبق هذا العاملَ العاملُ الآخر كثيراً في وجوده ، وربما يكون الأخير انعكاساً دائماً للأول وامتداداً له ، فمثلاً من العوامل الاجتماعية ، وجود رعيل كبير من الضباط الأتراك أو العراقيين الذين ساهموا بالقسط الأوفر بتشكيل الجيش العراقي ، ولم ينته تأثير هؤلاء بل إن أبناءهم شكلوا طبقة لها سمعة ووجود متوارث داخل الجيش ، ورثت امتيازات الآباء وسارت عليها وحافظت على النظام وأسسه التي وضعها آباؤهم ، نبيل خليل سعيد ، أياد خليل زكي ، إحسان كامل شبيب ، أنمار صلاح الدين الصباغ ، علاء الدين حسين مكي خماس ، عدنان أمين خاكي ، وليد محمود سيرت ، مدحت ورفعت الحاج سري ، وغيرهم كثيرون ، هؤلاء كانوا ولا يزالون وارثي العسكرية العراقية ويفاخرون بها دوماً ، وهم

بالفعل يمتازون بهذه الصفة عن أقرانهم من الضباط الآخرين ، وهو ما يمكن تسميته بالأرستقراطية العسكرية العراقية ، التي لم تكن تهتم كثيراً بالتقلبات السياسية أو التنظيمات الحزبية العاملة في الجيش إلاّ بصورة محدودة ، إلاّ أنها لم تكن بعيدة عنها بسبب ارتباطها عضوياً بالمؤسسة العسكرية واتجاهات عملها الرئيسية ، وعلى الرغم من أن ثقافة الأبناء لم تكن كثقافة الآباء ، إلاّ أن السمات الأساسية التي تشكل هذه الطبقة في الجيش تظل واحدة ، وهي مشتركة بين هذه الطبقة على الرغم من حدوث نزاعات بين الآباء ، فانمار صلاح الدين الصباغ وإحسان كامل شبيب قُبلا ضابطين في الجيش العراقي خلال الحكم الملكي الذي أعدم والديهما ، هذه الطبقة الأرستقراطية التي لم تقدّم للجيش شيئاً يذكر إلاّ القليل من أبنائها ممن فعل ذلك ، سوى أن يظل الجيش سائراً بنفس الأساليب الكلاسيكية القديمة بعقلية إنكليزية أوجدت منهم طبقة متميزة داخل الجيش ، تستطيع أن تتكلم باللغة الإنكليزية بطلاقة وتشرف على التدريب الأساسي داخل القوات المسلحة العراقية ، فلقد تولدت طبقة جديدة إضافة إلى هذه الطبقة ، هي طبقة لا تقل عنها تأثيراً من خريجي ساند هيرتس الكلية العسكرية البريطانية التي ضمّت إلى الجيش العراقي أعداداً كبيرة من الضباط الذين تصبغهم مثالية إنكليزية، يُعيّنون مباشرة عند عودتهم من إنكلترا في المعاهد العسكرية العراقية، وعلى رأسها وأكثرها أهمية الكلية العسكرية العراقية ، مطبقين أساليب الضبط والتدريب البريطانية على الكوادر العراقية الغنية التي ستأخذ أماكنها في مفاصل الجيش ومراكز الإدارة والقيادة فيه ، وإنّ نظرة بسيطة إلى الضباط العاملين في الكلية العسكرية ومدرسة المشاة وغيرها من مدارس الصفوف الأخرى إضافة إلى كلية الأركان ، ترينا الحجم الكبير من خريجي المعاهد العسكرية البريطانية ، فعلاء الدين حسين مكي خمّاس على سبيل المثال هو أحد خريجي المعاهد البريطانية ، عمل في الكلية العسكرية منذ عودته من إنكلترا وقضى فيها وقتاً طويلاً ، وبعد تخرجه من كلية الأركان عمل معلماً فيها لفترة طويلة . إلاّ أن الملاحظ عن هذه الطبقة داخل الجيش العراقي بأنها لم تكن موفقة في العمل في المراكز القيادية ، كقيادة الوحدات والتشكيلات ، فاللواء الركن علاء الدين حسين مكي خماس ، لم يكن قادراً على إدارة اللواء الذي أنيطت قيادته به ، ولم يكن مؤهلاً لهذا العمل على الاطلاق ، فكان أن توسطت والدته إلى الفريق حماد شهاب ـ وزير الدفاع في حينها ـ راجية إعادته إلى بغداد لأنه لا يستطيع العمل خارجها ، وكان أن أُعيد بعد ثلاثة أشهر إلى بغداد، وظل فيها يعمل في إحدى مديريات وزارة الدفاع في ترجمة المقالات التي تنشرها المجلات العسكرية الغربية باللغة الإنجليزية ، ونبيل خليل سعيد الذي قال عنه أحد ضباط وحدته عندما كان محاصراً في «زاخو» عام ١٩٧٤ بأنه كان يبكي أثناء الحصار

الـذي فرضتـه قوات الأكـراد على منطقـة «زاخو»، إلاّ أن الـرعيـل الأول من هؤلاء ومنهم اللواء الركن عبدالمنعم لفتة الريفي والفريق الركن إسماعيل تايه النعيمي استطاعوا بـدرجة وأخرى أن يقدموا للجيش من الخدمات ما يمكن أن تجد آثاره واضحة ، سوىٰ أن الفريق الركن اسماعيل تايه معروف بانتهازيتـه وعدم ثبـاته على رأيـه والإصرار عليـه ، مما سبب فشله في قيادة الفيلق الثالث ، فبعـد أن تم فك الحصـار عن « عبادان » في معـارك شرق « الكارون » عام ١٩٨١ سُمِعَ يهذي قائلاً « ألم نقل ذلك . . أَلَمْ نقل ذلك»؟. مشيـراً إلى أنه كان قد طرح فكـرة سحب القوات العـراقية إلى غـرب «الكارون» والابتعـاد عن مدينـة عبادان ، وكقائد ميداني فإنه يتحمل مسؤولية الفشل الذي أصاب الفرقـة المدرعـة الثالثـة والتشكيلات الملحقة بها والتي كانت بإمرة الفيلق الثالث ، وهو معروف بأنه ينشد الصعود والتسلق في المناصب العسكرية حتى ولو كان ذلك على حساب الآخرين من الضباط .

ـ من الأمراض الاجتماعية الشائعة جداً في الجيش العراقي هي العشائرية التي لعبت دوراً فعالاً في تحطيم وحدة القوات المسلحة ، فلقد كان كل عهـد من العهود التي أعقبت ثـورة ١٤ تموز ، وخـاصة بعـد انقلاب شبـاط ١٩٦٣ ، يعتمد اعتمـاداً كليـاً على العشائرية إضافة إلى الطائفية ، فحكم الأخوين عـارف الذي ابتـدأ في عام ١٩٦٣ وانتهىٰ في ١٧ تمـوز ١٩٦٨ اعتمد بصـورة مباشـرة على الضباط من أهـالي محافـظة «الرمـادي» (الأنبار)، لكون الأخـوين عارف من أهـالي تلك المحافـظة ، فكنت ترى كـل دوائر وزارة الدفاع ووحدات بغداد الفعّـالة تمتلىء بـالضباط من أبنـاء «الرمـادي»، إضافـة إلى اعتماد عبدالسلام عـارف على الضباط الـذين يميلون إلى تنظيم الإخـوان المسلمين أو المتديّنين من الضباط السنة، الذين كان يعتمد عليهم اعتماداً كبيراً نظراً للمواقف المتقاربة التي تربط الـطرفين تجاه طـائفة الشيعـة ، وبعد حـدوث انقلاب ١٧ تموز١٩٦٨، تعرض هؤلاء إلى حملات واسعة من النقـل خـارج بغـداد ، إلى وحـدات بعيـدة في شمـال العـراق أو في الـوحدات العـاملة في حينها في الأردن والمشـاة « قوات صـلاح الـدين » . أمّا في زمن الحكم التكـريتي فقد طغت على الجيش حملة واسعـة من العشائـرية التي لـم يشهـد لهـا العراق مثيلاً على الإطلاق ، إذْ سيطر التكارتة على كـل المناصب الحسـاسة في القـوات المسلحة،وانتشروا في كل المؤسسات والمديريـات التي تمسك بـزمام السيـطرة والحركـة داخـل القوات المسلحـة ، فمن مديـرية الاستخبارات، إلى لواء الحـرس الجمهوري، إلى الملحقيات العسكرية . . . إلى كل المؤسسـات والوحدات المهمة المـوجودة في بغـداد ، ونـظراً إلى حاجـة التكارتـة إلى حلفاء يسـاعدونهم على إدارة دفـة الدولـة والجيش ، فقد تركوا منـافذ عـديدة لمشـاركة بقيـة الضباط من مـدينة « الـدّور » التي تقع جنـوب تكريت بفاصلة قليلة ، إضافة إلى الضباط من مدينة الشرقاط،وقسم من الضباط من عشيرة العبيـد

في منطقة « الحويجة » في « كركوك » ، مما يبدو بأن حلفاً جديداً قد تم عقده داخل القوات المسلحة ، وكان من مظاهر طغيان الروح العشائرية أن عاث التكارتة في الأرض فساداً دون رقيب ، فلقد شكل الثنائي التكريتي « عمر الهزاع »، آمر الانضباط العسكري و « حسين حياوي » قائد القوة الجوية ثنائياً مشهوداً بالعبث والفساد والمجون البعيد عن الأعراف والأخلاق المعهودة سواء في الجيش أو على مستوى الشعب ، وعلى الرغم من أن الضباط من أهالي الرمادي الذين كانوا يمسكون السلطة في عهد الأخوين عارف ، كانت تمتلىء جيوبهم بأرقام هواتف وعناوين كل مومسات بغداد ، إلّا أن الثنائي الجديد قد فاق حد التصور في نشاطه ، وكانت دوائرهم مفتوحة باستمرار لكل سماسرة الجنس المعروفين في بغداد وغيرها من المدن ، فمعرض قاسم الخفاف الذي يملك ورشة صغيرة لصناعة الأحذية النسائية ، الكائن في شارع النهر الشهير في بغداد كان وكراً وملتقىً للعاهرات اللواتي يتوافدن عليه ، حيث يقوم هو بتقسيمهن بين « الهزاع » و « حياوي » ، وغالباً ما كان يحدث تنافس لا يمتّ إلى الشرف طبعاً بصلة ـ من أجل الحصول على مغانم جديدة وفرائس لهؤلاء السفاحين . لقد وصل « عمر الهزاع » إلى ذروة الاستهتار الخلقي بدعم من قريبه الثعلب الذي يدعي التدين « أحمد حسن البكر » رئيس الجمهورية آنذاك،عند استلامه لقيادة الفرقة الآلية الأولى،وهو الجاهل لأبسط العلوم العسكرية،والفاقد لكل متطلبات القيادة ، فلقد شكل كادراً متخصصاً في مقر الفرقة في الديوانية واجبه الأساسي تأمين رغباته اللامشروعة ، وكان مرافقه النائب الضابط « كامل زامل » يقود هذه الزمرة،ويسخر « الفرقة » كلها لأجل تأمين مطالب سيده،وأصبح الأمر مزرياً إلى درجة أنه أصبح لا يثير العجب أن ترى مومساً تتوسط لضابط أو ضابط صف أو جندي لنقله من مكان بعيد إلى مكان يقربه من أهله ، وأخذت الزمرة التي تحيط به تعيث فساداً،ولم يقتصر مجال نشاطها على نوع واحد من النشاطات،بل تعداه إلى مجالات الرشوة وأشياء أخرى لا يستطيع الإنسان الشريف أن يتحدث عنها ، وكان الرائد « دنخا أوشانا » ضابط ألعاب الفرقة الأولى التي كانت مخصصاتها تستقطع من رواتب الضباط وضباط الصف حتى أن الأمر قد وصل إلى درجة أخذ يتحدث عنها القريب والبعيد ، وانتشرت الفضائح التي تزكم الأنوف في كل مكان ، وفي إحدىٰ الاستعراضات السنوية للجيش العراقي اضطر « البكر » إلى أن يلمح لعمر الهزاع عند استلامه كأس فوز الفرقة الأولى بالمرتبة الأولى في الاستعراض ، أن يلمح له قائلاً: «أبا فاروق ألا تكتفي وصلتني أخبار كثيرة عنك » ، أجابه عمر الهزاَع ضاحكاً بأنه حرّ بالتصرّف بجسمه من الحوض حتى القدمين أما ما عدا ذلك فهو ملك للبكر ، إلّا أن أمور الفرقة الأولى ووضعها النفسي والتدريبي أخذا يتحدران إلى الحضيض ، فقائد الفرقة يقضي جل وقته مشغولاً بإشباع

رغباته التي لا تنتهي ، تلك الرغبات التي لا يخجل من إظهارها علناً ، لقد وصل مستوى التدريب إلى أدنىٰ حدوده المطلوبة في وحدات الفرقة الآلية الأولىٰ التي تنتشر ألويتها في العمارة والديوانية والناصرية ، وأتذكر بأننا دعينا مرة لمشاهدة تمرين ينفذه الفوج الأول للواء الأول الآلي من نظام معركة الفرقة الأولى عام ١٩٧٣ ، وكانت منطقة التمرين قد حددت بالقرب من قضاء « الشنافية » من محافظة « القادسية » على نهر الفرات ، وفي الموعد المحدد ليوم التمرين كان الفوج قد تهيأ لتنفيذ التمرين ، وكانت ناقلات الفوج الروسية بي تي ار / ٦٠ قد تمّ تهيئتها للعبور بعد أن سدت منافذها لمنع تسرب الماء إلى داخلها إضافة إلى الإجراءات الأخرى التي يجب اتخاذها في عمليات العبور ، وفجأة ظهرت في الجو طائرة سمتية نزل منها بعد لحظات ـ بعد أن حطت في شقة نزول قريبة من مكان التمرين ـ الفريق الأول الركن عبدالجبار شنشل رئيس الأركان العامة للقوات المسلحة ، حيث سبق وأن أُخبر الفوج والحاضرون بأنه سيحضر شخصياً التمرين لأنه الأول من نوعه الذي ينفذه اللواء الأول منذ تحوله إلى لواء آلي ، ظل رئيس الأركان ينتظر وصول قائد الفرقة الذي كان يفترض به أن يصل قبله كما يقتضي العرف العسكري ، وبعد حوالي النصف ساعة وصل « عمر الهزاع » الذي كان يحمل رتبة لواء إلى منطقة التمرين بالقيافة الخارجية[1]، لم يؤد القائد التحية إلى رئيس أركان الجيش بل لم يلتفت له مطلقاً ، وأرسل إلى آمر الفوج قائلاً له ، دون أن يكترث لوجود رئيس أركان الجيش : « يا الله خلصونا عبروا الجواميس»، وكان يقصد بالجواميس ناقلات الأشخاص المهيأة للعبور، وبدون أن يتم تقديم فكرة متكاملة عن التمرين وأهدافه، قامت الناقلات بالعبور إلى الضفة الأخرى من نهر الفرات، وقبل أن ينتهي التمرين، توجه اللواء «عمر الهزاع» إلى عربته عائداً إلى مقر الفرقة دون أن يؤدي ما يوجب عليه العرف العسكري من احترام إلى رئيس أركان الجيش، لم يعد الأمر قابلاً للتحمل مما اضطر «البكر» إلى نقله من منصب قائد الفرقة الآلية الأولى إلى مدير التفتيش العام لوزارة الدفاع، أما الرائد «دنخا أوشانا» فقد أُحيل فوراً على التقاعد، حيث أصبح كبش الفداء للأعمال القذرة التي نفذها قائده ، وهي طريقة تخلو من الشرف والنبل .

ـ ويظل « أحمد حسن البكر » مسؤولاً عن استشراء الفساد بين المحسوبين عليه بصورة مباشرة ، علماً بأن التكارتة معروفون عموماً بفسادهم وتهتكهم الأخلاقي الذي لا يقف عند حد، فهذا اللواء البحري « عبدو الديري » ـ ضابط مسيحي من الضباط

---

(١) القيافة الخارجية يرتدى بعد فترة التدريب أو بعد الدوام الرسمي اليومي .

السوريين الذين لجأوا إلى العراق مع الرئيس السوري السابق الفريق أمين الحافظ بطل فضيحة الجاسوس الإسرائيلي كوهين ـ قد حول القوة البحرية إلى مبغى كبير ، وأصبح نادي ضباط القوة البحرية في العشار مركزاً للحفلات المختلطة التي يمارس فيها الرقص وشرب الخمور والسباحة، والتي تقام على الطراز الغربي مما لم يعرفه الجيش العراقي ولم يره سابقاً ، وأصبح لا يسمح بدخول الضباط العزّاب إلى النادي، مما كان يضطرهم إلى جلب بعض المشبوهات معهم لفرض الدخول إليه ، ولم يكن الجيش قد عرف مطلقاً هذا النوع من الحفلات الخليعة الماجنة حيث يسبح النساء والرجال معاً في مسبح واحد ، ويتبادلون الراقصات أثناء الرقص على أنغام الموسيقىٰ الغربية ، ولم يكتفِ « عبدو الديري » بإفشائه هذا الأسلوب ونشره فقط ، بل إن دناءته قد وصلت إلى درجة من الخسة أن يطارد بعض زوجات ضباط القوة البحرية ، يساعده في ذلك بعض ضباط مقر القوة البحرية من ذوي النفوس الدنيئة ، وعندما أُحيل « الديري » على التقاعد بعد أن أصبحت الأمور لا تطاق في القوة البحرية ، حيث تنفس منتسبو القوة البحرية الصعداء ، كما شعر أهل البصرة بأن عنصراً من عناصر يقوم بأقذر أنواع الممارسات التي لا تليق بالقادة والآمرين، فعندما عيّن آمراً للواء المشاة الرابع عشر عام ١٩٧٣، قبل أن يصبح آلياً ، كان لا يخجل من أن « يخون » أحد آمري أفواجه ، فعندما كانت تتصل زوجة الصافي بمقر اللواء، عند انفتاحه في قاطع خانقين مستفسرة عن زوجها ، يقال لها بأنه قد ذهب عدة أيام متمتعاً بالإجازة الدورية ، تتعجب من الأمر مجيبة بأنه لم يصل إلى البيت لحد الآن ، لكن الضباط جميعهم يعلمون أين يقضي آمر لوائهم إجازته ، مما كان يثير الاشمئزاز والخجل في نفوسهم . ولكونه على علاقة جيدة مع «البكر» فقد عيّن قائداً للفرقة المدرعة السادسة التي لم يوفق مطلقاً في قيادتها ، بل إن الفرقة قد انحدرت إلى مستوى لا تحسد عليه، سواء من ناحية الضبط العسكري أو مستوى التدريب والتنظيم ، لعدم تيسّر أية خبرة لدى قائدها في عمل واستخدام الدروع إضافة إلى ضعف شخصيته ، لذا فقد نقل إلى منصب قائد فرقة المشاة الثامنة في أربيل بدلاً من العميد الركن « تامر الرحاوي » ، الذي أُحيل على التقاعد بسبب ضعفه هو الآخر، حيث كان يلقب بتامر الرخاوي دليلاً على ضعفه وهزال شخصيته ، استلم « الصافي » منصبه الجديد عام ١٩٧٨ ، وبما أن قاطع حركات الفرقة الثامنة الذي يمتد من حاج عمران عند الحدود الشرقية للعراق حتى مدينة أربيل ، يُعتبر من أجمل المناطق السياحية المعروفة بأجوائها اللطيفة أيام الصيف ، فقد تحول القائد الجديد هو وزوجته إلى مصطافين ممتازين ، وتحول قاطع الفرقة الثامنة، الذي كان يشهد

نشاطاً مكثفاً للثوار الأكراد، إلى مناطق اصطياف وترفيه ملائمة يتنقل القائد خلالها ، وكانت زوجته تصدر أوامرها نيابةعنه، تخبر فيها الضباط الذين تقع المصائف الجميلة في قواطع وحداتهم أن يعدوا لها مستلزمات الراحة التامة والأمان مع عدد من زميلاتها ، وبدأت تنتقل من مصيف إلى آخر مستخدمة طائرة سمتية لتنقلاتها هذه، وأخذت الوحدات تنشغل في الاستعداد لمقدم زوجة القائد ، فتذبح الذبائح وتهيىء أماكن اللهو والانس لها وتخصص القوة اللازمة لتأمين الحماية اللازمة لتلك الأماكن. . . . وأخذ الجميع يتحدثون عن أسلوب القيادة الجديد، يتذكرون نابليون ، والمثل الذي كان يضرب بأن وراء كل رجل عظيم امرأة ، فيقال بأن وراء عظمة هذا القائد الخائب امرأة عظيمة ، وفي إحدى المرات لم يستطع أحد آمري الأفواج أن يفهم أوامر « السيّدة القائد » ، وبدلاً من يُعدَّ لها المكان المطلوب ، أعدَّ لها مكاناً آخر ، وعند توجه الطائرة التي كانت تقلّها لتنفيذ الواجب ، لم تجد ما كان مقرراً أن تجده فعادت مسرعة إلى أربيل، واتصلت بآمر الوحدة توبخه على عدم إطاعته الأوامر وتنفيذها بصورة مرضية ، مما سيعرضه للعقاب ، وقد توعدته كثيراً نتيجة لخطأه الكبير هذا ، الذي سبب فشل العمليات التي كانت تنفذها الفرقة!!، أما السيد القائد فقد حجز له شقة جميلة في مصيف « صلاح الدين » يقضي فيها كل أوقاته تقريباً ، تاركاً قيادة الفرقة وإدارة الحركات فيها لوقت فراغه ، أما الليالي التي كان يضطر فيها إلى المبيت في مقر الفرقة في أربيل فإنه كان يقضيها بمنادمة نقيب من أهالي مدينته الموصل يشغل منصب ضابط التوجيه السياسي للفرقة، يتناولان الخمرة سوية ، ولم يكن العميد الركن « طالب محمد كاظم » وهو الآخر من المحسوبين على «البكر»، والذي شغل منصب قائد الفرقة المشاة الرابعة ، أقل قذارة من زملائه بقية الزمرة المحسوبة على «البكر»، فلقد عاث في مدينة الموصل فساداً، وله من بين المومسات المعروفات في الموصل حصة الأسد، وقد كان الضباط يكرهونه إلى درجة شديدة حتىٰ أنهم كانوا يسمونه (طُلْبة) للتدليل على مبلغ الاحتقار الذي يكنونه له . في عام ١٩٧٢ حدثت حادثة كان لها أثر كبير في نفوس الضباط الذين شعروا بأنهم يتعرضون لأكبر إهانة جماعية علنية ، فقد قيل بأن أحد الضباط الذين كانوا مشتركين بدورة في مدرسة المشاة في الموصل ، تحرش بإحدىٰ المومسات المقربات من قائد الفرقة ، وكانت تلك على علاقة وثيقة به، ومن المعروفات بأن لديها حظوة كبيرة عنده ، اشتكت «المصون» إلى شيخ الحريم الذي ثارت ثائرته ، وطلب منها أن تعطيه اسم الضابط أو أوصافه أو أي شيء يدل عليه ، لم تستطع السيدة « النبيلة » أن تقدم المعلومات المطلوبة لشيخ الحريم ، الذي نادىٰ بأعلى صوته :

[لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم]

واضطر السيد قائد الفرقة الرابعة أن يجمع كل الضباط المشتركين في دورات مدرسة المشاة حيث قامت السيدة باستعراض وجوههم الواحد تلو الأخرى كي تتعرف إلى من اعتدى على شرف القائد وكرامته وسمعته ، ولنا أن نتصور مبلغ الأثر الذي تركته هذه الحادثة في أذهان الضباط الذين رأوا بأن القادة على أتم الاستعداد لأن يبيعوا الشرف والقيم العسكرية وأُخوة السلاح من أجل عاهرة ، لم يكن الأمر مقتصراً على القادة الكبار ، بل إن انتشار حالة التفسخ الخلقي وانغماس عدد كبير من الضباط في الملذات، وممارستهم لكل أنواع المنكرات قد وصلت إلى الحد الذي أصبح يهدد المجتمع بالانهيار ، فقد كثرت الشقق المستأجرة للضباط إلى درجة استدعت السلطة أن تحدد ايجار الشقق للضباط العزّاب وتصدر أمراً بذلك . اشتكىٰ أحد الضباط مرة لأحمد حسن البكر بأن ابنته القاصرة قد اعتدي عليها من قبل عدد من الضباط الذين يسكنون في شقة أُعدت لمثل هذه الأغراض ، وبعد التحقيق تبين بأن ابنة هذا الضابط كانت تصحبها خادمة مصرية ، كانت تدور معها على عدد من الشقق المماثلة ، وبعد أن اتضحت القضية تماماً ارتأىٰ « البكر » ذراً للرماد في العيون وستراً للفضائح بأن يقدم هؤلاء الضباط إلى محكمة الثورة ، حيث تمّ الحكم عليهم بالسجن لمدد مختلفة والطرد من الجيش ، أصبحت هذه القصة من أشهر القصص المتداولة داخل الجيش وخارجه[1] ، علماً بأنه قد تبيّن بعد إجراء الفحص الطبي على المعتدى عليها بأن بكارتها قد أُزيلت قبل الوقت الذي زارت فيه شقة هؤلاء بمدة ليست قصيرة .

ـ أثرىٰ عدد كبير من المدنيين الذين بدأوا يتعاقدون مع الجهات العسكرية لتنفيذ المناقصات الضخمة ، والذين كانوا يحصلون على الفوز بالمناقصات دون منافسة كونهم من أقارب رؤوس السلطة أو من المحسوبين عليها ، وكان على رأس هؤلاء « آل الخربيط » من « الرمادي » ـ محافظة الأنبار ـ الذين حصلوا على مقاولات إنشاء المطارات التي أحدثت على الحدود السورية ـ العراقية ، والعراقية ـ الأردنية ، أو انجاز مشاريع الطرق الضخمة التي تربط العراق بكل من سوريا والأردن ، وقد استطاع هؤلاء أن يثروا ثراء لا يخطر على بال أحد ، فلقد وصلت أرباح هذه العائلة إلى الملايين من الدنانير ، وكانت شركتهم تمتلك من الشاحنات والمعدات والآلات الضخمة ما يفوق الخيال ، ويكفي أن نعطي صورة لحجم الأرباح التي حصل عليها هؤلاء، أن نقول إنهم تبرعوا إلى «قادسية صدام» بمبلغ مليوني دينار ، وقد ظهر صدام حسين على شاشة التلفزيون شاكراً لهذه العائلة مساهمتها المستمرة في دعم المجهود الحربي ، أما « حامد التكريتي » وهو

---

(١) لا يسعني لأسباب خاصة أن أذكر أسماء أطراف هذه القصة .

معلم متقاعد ، من أقارب « عبدالفتاح الياسين التكريتي » ، عضو القيادة القطرية للحزب ، والوزير السابق لشؤون الحكم الذاتي ، هذا التكريتي كان قد افتتح ملهىً ليلياً في صدر قناة الجيش في مدينة بغداد كانت تمارس فيه كل الأعمال المبتذلة ، ويشكل المكان المفضل لقضاء القيادات الحزبية والحكومية لسهراتها الليلية . وكانت السمسرة تمارس علناً في هذا الملهىٰ تحت إشراف مديره العتيد « حامد التكريتي » ، لقد أثار هذا التكريتي حفيظة أهل مدينته من أهل الحكم الذين كانوا يشعرون بأن « حامد التكريتي » لا يجب أن يكون هكذا ، فهم الذين يجب أن يكون الناس جميعهم سماسرة لديهم ، فقد اقترح عليه أن يبدل عمله هذا بعمل آخر أكثر ملاءمة يحفظ للتكارتة شرفهم وكرامتهم ، إذ مُهِّد له السبيل لأن يحصل على مقاولات كبيرة من الجيش دون مزاحمة مما در عليه أرباحاً طائلة ، فقد حصل على مقاولات في الفرقة الأولى والثامنة ، حيث كان قادة هاتين الفرقتين من التكارتة وهما : « عبدالحميد التكريتي » و « عبدالرحيم طُه التكريتي » ، وكان لا يُعامل كمقاول أبداً ، بل هو الدولة وهو الذي يشرف على كل ما يتعلق بالعمل ، فلا يستطيع المهندس المسؤول أن يرفض له أي جزء من العمل لا تتطابق مواصفاته مع كشف المقاولة ، لا أحد يستطيع أن يقف أمامه مطلقاً ، لقد مارس هذا التكريتي أقذر الأدوار وأحقرها ، فقد فتح بيته في أربيل ، حيث كانت له مقاولة عسكرية هناك ، هذا البيت الذي أصبح (تلّة خانة)[1] ، أي بيتاً يمارس فيه لعب القمار ، حيث يقوم هو بالنصب على الأكراد الذين يولع القسم الأكبر منهم به ، خاصة في منطقة أربيل ، لقد نشأ نوع من المرتبطين بالجيش من خلال المقاولات العسكرية ، مما أشاع حالة من قبول الرشوة المقنعة ، وهي الرشوة التي لا تقدم على شكل نقود بصورة مباشرة ، بل بشكل هدايا ثمينة تصل إلى سيارة فخمة أو سهرة ليلية خاصة تدار فيها الرؤوس و. . . ، لقد شجع هذا الوضع كثيراً من الضباط على قبول الرشوة والسرقة بأساليب ملتوية ، وقد أثرى إثر ذلك عدد كبير منهم بصورة مفاجئة وسريعة ، وأخذ الناس يتحدثون عن ذلك كثيراً مما ترك انطباعاً عاماً لدى أوساط كثيرة من الشعب بأن الجيش بدأ يتحول إلى مؤسسة يستشري فيها الفساد الإداري والأخلاقي ، كما خلق شعوراً لدى قسم كبير من الضباط الذين يعملون في الوحدات الفعالة ، والذين يقضون معظم أوقاتهم في تهيئة وإعداد وحداتهم للقتال سواء في الحرب أو السلم بأن قسماً من الضباط الذين يعملون في الخلف والمقرات منغمسون في أعمال لا مشروعة تدر عليهم أرباحاً طائلة في الوقت الذي يعيشون هم فيه حياة الشظف والقساوة ، مما أشاع بين أوساط واسعة من الضباط روح

---

(١) تلّة خانة ـ تعبير شعبي عراقي يطلق عادة على البيوت السرية التي يمارس فيها لعب القمار .

اللامبالاة وعدم الاهتمام بصورة تدريجية مطردة ، تاركاً آثاراً سيئة على مستوى الوحدات وأدائها ، ولقد نشأت بالتالي طبقة من المقاولين المدنيين يرتبطون بروابط وثيقة بعدد من العسكريين داخل القوات المسلحة، يسهل كل منهم للآخر الحصول على منافع متبادلة غير مشروعة تمتد إلى رأس الهرم القيادي في القوات المسلحة العراقية ، مما أحدث اعتقاداً لدى كل الضباط تقريباً بأنه يمكن أن يحصل لهم ما حصل لغيرهم عند سنوح الفرصة الملائمة .

ـ للمحاباة وصلة القرابة والمدينة الواحدة تأثير كبير على واقع الجيش العراقي ، الذي لم يترك مرضاً من الأمراض الاجتماعية الشائعة إلّا وحملها معه ، فقد كان ضباط المدينة الواحدة يشكلون فيما بينهم كتلة ، تظهر من خلال عمق العلاقات التي تربط الواحد بالآخر ، وقد تكون ذلك العلاقات مشروعة في حالة عدم تركها آثاراً ضارة على مسيرة الاندماج داخل القوات المسلحة ، ولكن يجري داخل القوات المسلحة العراقية ما لم يكن يؤدي دوماً إلّا إلى نتائج عكسية على عملية حصول اندماج حقيقي ، ولكي نوضح الأثر الذي تتركه مثل هذه النعرات على الوضع النفسي للقوات المسلحة العراقية نضرب مثلاً بسيطاً من مئات مما يجري من الممارسات المشابهة التي تصل في تأثيرها إلى مستويات بعيدة، فبعد انتهاء الحركات التي جرت في كردستان عام ١٩٧٥، لاحظت القيادة العسكرية العامة المتمثلة بوزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة « أحمد حسن البكر » ، بأن مستوى القادة، خاصة قادة الفرق لم يكن بالمستوى المطلوب . كما وأن عدداً من مناصب قيادة الفرق أصبحت شاغرة بسبب إحالة قسم من قادتها على التقاعد ، وبعد أن قُلّب الأمر بين « البكر » والفريق الأول الركن « عبدالجبار شنشل » رئيس أركان الجيش ، ارتأى رئيس أركان الجيش بأن يجري في المرحلة الأولى معالجة وضع قيادات الفرق ، واقترح في هذا المجال إجراء امتحان لبعض كبار ضباط الجيش العراقي لاختيار قادة فرق من بين الذين يجتازون الامتحان ، وكان أن أجري الامتحان تحت إشراف عبدالجبار شنشل وانتهىٰ إلى أغرب نتيجة عرفها الجيش العراقي ، وهي تعيين قادة ثلاث فرق من بين الضباط من أهالي الموصل من المعروفين بضعف كفاءتهم العسكرية باستثناء قائد الفرقة الآلية الأولىٰ ، فلقد عيّن العميد الركن « تامر الرحاوي » قائد للفرقة المشاة الثامنة، والعميد الركن «عبدالجبار الصافي» قائداً للفرقة المدرعة السادسة، والعميد الركن «لطفي الدباغ» قائداً للفرقة الآلية الأولى ، أما الأول فقد فشل فشلاً ذريعاً في قيادة الفرقة الثامنة، وأحيل بعدها على التقاعد فأراح وارتاح ، وكان لضعفه في إدارة الفرقة وعدم تمتعه بشخصية تلائم المنصب الذي أشغله من العلامات الواضحة عليه ، عندما جرت عمليات البحث عام ١٩٧٦ على الحدود

السورية ـ العراقية والأردنية العراقية ، حيث انفتح عـدد كبير من الفـرق المدرعـة والمشاة بدعوىٰ وجود تهديد عسكري ـ سوري ـ أردني ضد العراق ، لم تشترك الفرقة الثامنة بهذا الواجب ، لم يخفِ قائد الفرقة فرحه لعدم اشتراك فرقته بتلك العمليات إذ قال : (الحمد لله لم تشتـرك فرقتنـا بالعمليـات) ، وصلت هذه الهمسـة إلى آذان « البكر » الـذي أصدر أمره فوراً بإحالتـه على التقاعـد ، أما «عبدالجبار الصـافي» فقد تحـدثنا عنـه كثيراً ، أمـا العميد الركن « لطفي الدباغ » فلم يوفق هو الآخر لأنه لم يكن حزبياً،مما جعله يعجـز عن قيادة الفرقـة الآلية الأولىٰ بسبب تضـارب آرائه مـع آراء المسؤولين الحزبيين في الفـرقة ، فكان أن نقل منها ، وهكذا نلمس مدى الأثر السيء الذي تتركه هذه العلاقات على وضع القوات المسلحة وتطورها بسبب كونها تضـع المصالـح الشخصية فـوق كل اعتبـار ، فلم يكن بمقدور مصلحة الجيش وتطويره أن تقف أمـام نزوة رئيس أركـان الجيش الذي أقنـع «البكر» بتعيين ثلاثة من قادة الفرق من ضباط مـدينة الموصل، الأمـر الذي كـانت أصداؤه ونتـائجه على الجيش سيئـة التأثيـر جـداً ، ظلَّت تفعـل فعـلاً سلبيـاً بين أوسـاط الضبـاط خاصة ، والجيش بصورة عامة لمدة طويلة ، وربما كان كل من «البكـر» و«شنشل» متفقين على تسليم قيادة الفرق إلى مثل هؤلاء الضعاف الشخصية ،حيث لا يتوقـع منهم أي موقف يتخذونه تشمّ فيه رائحة المعارضة للنظام ، فلقد كان هؤلاء كالمطايا التي تحمّـل بالأثقـال دون أن تنبس ببنت شفة .

ـ لعبت السلطات على وتـر الطائفيـة والعشـائـريـة ، خـاصـة بين الأقليـات ، وبـأساليب دنيئـة خارجـة عن الأعراف والقـوانين المعمول بهـا والسـائـدة داخـل القـوات المسلحــة ، فلقـد لــوحظ ظهـور بعض الأشخــاص من ذوي اللحى بين أفـراد القــوات المسلحة ، وهو ما لم يكن في يوم من الأيـام معروفـاً داخل القـوات المسلحة العـراقية ، وقد تبيّن بأن هؤلاء الأشخاص هم من طائفة اليزيدية الـذين كانـوا يمتنعون عن الالتحـاق في الخـدمة الإلـزامية بسبب اعتـراضهم على حلق اللحىٰ الذي يعمـل بـه في الجيش ، ولقد رضخ « البكر » لهذا الطلب بعد أن تمّ تسوية الأمر معهم وذلك بأن ينشر كل يزيـدي لا يحلق لحيتـه في القسم الثاني للوحـدات لاستقطاع مبلغ « ٢٥٠» فلسـاً بدلاً عن عـدم حلق اللحية ، ولهذا الأمر دلالة واضحة هي عمق تقدير السلطة لهذه الـطائفة والاستجـابة لـطلباتهـا ، فلقد لعب اليـزيديـون دوراً انتهازيـاً خلال الحـركات التي قـامت بين السلطة والأكراد في كردستان العراق ، فكلمـا كانت كفـة الأكراد أرجـح من كفة الحكـومة، كـان هؤلاء يميلون إلى الأكـراد ويعتبرون أنفسهم بـأنهم من أصول كـردية ، ويـرفع قسم منهم السلاح تحت قيادة الحركة الكردية ، وعندما ينعكس الأمر فإنهم يـدعون بـأنهم ينحدرون

من أصول عربية أموية ، وأسماؤهم بالفعل تدل على ذلك ، فمعاوية ، وأبو سفيان ، ومروان ، ويزيد أسماء مشهورة بينهم ، وهذا ما كان يستهوي السلطة بأن تتقرب منهم بسبب عقلية مراكز القرار المتدنية التي تبيع الأكثرية من الشعب من أجل أقلية متذبذبة انتهازية ، ولم تترك السلطة، خاصة تحت ظل النظام التكريتي الحالي ، أقلية من الأقليات إلاّ وتعاملت معها بأساليب انتهازية تدل على ضحالة التوجه والتعامل الحقيقي، فلقد حظيت عشيرة «الجرجرية» وهي عشيرة ذات أصول مجهولة ، برعاية خاصة من لدن السلطة ، فهؤلاء أيضاً كاليزيديين مرة يدعون بأنهم من العرب ، ومرة أخرى يدعون بأنهم من الأكراد ، فيلعبون على الحبال مستفيدين من ضعف السلطة مرة ، وضعف الحركة الكردية مرة أخرى ، فترى شيوخهم يثرون على حساب الدولة وأموال الشعب الذي يبذره « البكر » و « صدام » لشراء الذمم ، فكنت ترىٰ شيوخ « الجرجرية » يركبون أحدث السيارات المعروفة وأفخرها ، ويبذرون الأموال التي تمنح لهم في كل مكان يرتادونه، ويعيشون حياة البذخ والترف متميزين عن غيرهم بكثرة المكافآة والعطايا التي تقدم لهم ، وهم والزيديون الذي تشكل مناطق شمال شرق الموصل وغربها وطن سكناهم ، لعبوا دوراً قذراً في الحركات التي دارت بين الحكومة والحركة الكردية ، استطاعوا من خلاله أن يبتزوا الحكومة ويحصلوا منها على أموال طائلة ومكانة خاصة لدى الدولة ، وكان لليزيديين بعض الضباط في الجيش العراقي،والذين كان يجب مناداتهم بكلمة سيدي كما هو متعارف عليه في الجيش العراقي ، مما شكل شعوراً بالألم والغبن بين أوساط الجنود وضباط الصف الشيعة الذين يشكلون ما لا يقل عن ٨٥٪ من وحدات الجيش العراقي الفعّالة ، إذ إنه من الصعب جداً على شيعي أن يقول ليزيدي وهو من عبدة الشيطان وكافر ، ومشبع بالكراهية للإمام علي وابنه الحسين ، يقول له (سيدي) مما يشكل إساءة حقيقية لمذهبه ودينه .



الفصل الرابع

المشكلة الكردية

ـ تشكل المشكلة الكردية في العراق ثاني أهم وأكبر المسائل بعد المشكلة الطائفية من حيث تأثيرها على القوة المعنوية، ليس فقط في محيط وإطارات القوات المسلحة بل على مستوى الشعب العراقي كله ، فامتداد هذه المشكلة المزمنة على فترات طويلة ونشوب القتال المستمر بين الحكومات العراقية المختلفة من جهة ، والشعب الكردي من جهة أخرى ، لم يترك آثاره على الشعب العراقي وخاصة الشيعة منه فقط ، بل ترك آثاره الواضحة أيضاً على الشعب الكردي الذي عانى من مشاكل الانقسام والفرقة والتمزق . فلقد شهدت الحركة الكردية عند نشوب النزاع المسلح في الأربعينات ظهور عناصر مسلحة من بين بعض العشائر الكردية كانت تقف مع قوات الحكومة ضد قوات الأكراد، ولأسباب عديدة أهمها: النزاع والخصومات العشائرية التي تكثر بين جماهير الفلاحين الأكراد والتي كان يغذيها الاستعمار البريطاني والسلطة العثمانية ، وأشهر تلك الخلافات هي التي تدور بين عشائر الزيباريين من جهة والبارزانيين من جهة أخرى ، ولقد كان من أسباب هذا النزاع محاولة كل عشيرة من هذه العشائر فرض السيطرة على العشيرة الأخرى ، ومد سيطرتهما إلى مناطق أخرى من كردستان العراق ، على الرغم من أن كلتا العشيرتين ترتبطان بروابط وثيقة، حيث تعتبران أقرب عشيرتين كرديتين من بين كل العشائر الكردية الأخرى .

كما أن محاولات بذر الفرقة والتنافر شملت كل قبيلة على حدة ، إذ لم تسلم عشيرة البارزانيين من الانقسامات المستمرة ،ـ فلقد عمل بعض وجوهها مع الدولة وحملوا السلاح ضد عشيرتهم ، كما فعل « أسعد شيتنه»، وهو بارزاني الأصل ، أو كما تم تحييد الشيخ « محمد خالد البارزاني » لمدة طويلة، وجعله خارج إطار النزاع الدائر ، إلاَّ أن

الشيخ محمد خالد كـان ـ وباعتقـاد الكثيرين ـ يتخـذ هذا المـوقف لتفادي تعـرض مناطق واسعة من قضاء الزيبار، خاصة منطقة بارزات نفسها للتخريب ، كما أن الخلاف الذي كان محتدماً بين الشيخ « محمد رشيد لولان » والبارزانيين كان شديداً وقديماً، وأمكن الاستفـادة منـه من قبل الحكـومات المتعـاقبة ، ولـم تكن بقيـة العشائـر الكرديـة بعيـدة عن التمـزق والانقسام ، بل كانت أيضاً تعـاني الكثير من تلك المشـاكل ، ففي الـوقت الذي كـان فيه قسم من أبناء تلك العشائر كالسورجية والجاف وغيرهمـا من العشائـر الكرديـة يقاتـل ضد الحكومة ، كان القسم الآخر يقاتل معها ، ويشكلون ما يسمى بفرسان صلاح الدين الذين تطلق عليهم جماهير الشعب الكردي كلمـة (جاش) احتقـاراً لهم ، إلّا أن هذا الـوضع مكن قيادة الحركة الكردية من الحصول على بعض المنافذ والمصادر ، سواء للاتصال مع الحكومة لبدء تفاوض معيّن ، أو الحصول على السلاح والعتاد من هؤلاء الذين كـان قسم كبيـر منهم يفرون إلى جهـة الأكراد الثائرين، فيشكلون معينـاً جيداً من الـرجـال والسـلاح والعتاد ، ولا يخفى بأن هنـاك علاقـات سريـة بين الطرفين تنـظم بعض الأمور الضـرورية والتي لا غنى لكل منهما عنها ، ففي أحيان كثيرة عندما يكلف الفرسان بواجب المسـاهمة مـع قوات الجيش التي تشن هجـوماً لاستعـادة أحد المـرتفعات المهمـة ، كمـا أن هؤلاء عنـدمـا يكلفـون على انفـراد بشن هجـوم لاستعـادة إحـدى القمم التي يحتلهـا الأكـراد الثـوار فـإنهم يشتـرطـون ثمنـاً لـذلـك ، وغـالبـاً مـا يكـون هـذا الثمن بـاهـظاً ، إلّا أن السلطة تضطر في أحيان كثيرة لتسليمهم المبلغ قبل الشروع بالتنفيـذ ، فيقومـون باقتسـامه مع الثوار الأكراد الذين يتخلّون لهم عنه لقاء هذا الثمن الذي يصل في بعض الأحيان إلى نصف مليون دينار عراقي ، لذا فـإن قادة الجيش كـانوا ينـظرون إلى الفرسـان من الأكراد بعين الشك والريبة، ويفضلون في أحيان كثيـرة تنفيذ الهجـوم دون الطلب إليهم بـالاشتراك فيـه ، أو بدفعهم أمـام القطعـات كي يضـطروا للقتـال دفـاعـاً عن أنفسهم ، وهـذا مـا لا يرضيهم غالباً فيعمدون إلى عدم إطاعة الأوامر ، ولقد كان لحالة شبه الحرب الدائمة التي عاشتها كردستان العراق تأثير خاص على الوضع الاجتماعي للشعب الكردي ، لقـد عشق الأكراد البندقية وحملها والتبـاهي بها، وأصبحت حـالة ملاصقة لحيـاة المواطن الكـردي ، وقيل كثيراً بأنه إذ لم يستطع أن يحملها ثائراً ، فإنه ربما سيجد نفسـه مدفـوعاً إلى حملهـا وهو عميل للسلطة ، ولا أقصد بذلـك أبداً التقليـل من الوعي الثـوري للشعب الكردي ، فلا أحد يستطيع أن ينكر وعيه وثباته وصبره على تحمل المشاق والصعاب . لكننا شاهـدنا بأن عدداً من البارزين في الحركة الكردية يتحولون إلى مرتـزقة ، وهؤلاء يشكلون بـالطبـع الفئة التيلا تتمتع بثقافة عالية أو وعي مناسب ، لكن ذلك لا يمكن أن يكون حكماً مطلقـاً فلقـد ساهم عـدد من المثقفين الأكراد، ولـو بدرجـة محدودة، في الفعـاليـات التي تنـظمهـا

الحكومة ضد الثورة الكردية، أو تنصيبهم كممثلين للشعب الكردي في المؤسسات التي كانت تؤسسها لتسيير كردستان العراق بصفة مؤسسات كردية خالصة .

ـ لقد عانى الجيش العراقي كثيراً من استمرار القتال في كردستان وأثّر ذلك بالفعل على معنوياته ، ومما أثر بوضوح على المعنويات، هو أن الحكومة بعد أن تكون قد شنت حملات إعلامية مكثفة مصحوبة بعمليات عسكرية ضد الحركة الكردية ، متهمة إياها بأنها تهدف إلى فصل كردستان، عن العراق بمساعدة قوىً خارجية ترمي إلى إنشاء إسرائيل أخرى داخل الوطن العربي ، كما وتصحب تلك الحملة ادعاءات بأن للقيادة الكردية صلة وثيقة بإسرائيل التي تهدف إلى إلهاء الجيش العراقي عن معركته الأساسية ، تحرير فلسطين ، بعد أن تكون قد شحنت الأفكار بهذه الدعايات تقوم فجأة بإيقاف القتال وبدء مفاوضات لإيقاف الحرب نهائياً، ويبدأ الجانبان بإصدار بيانات معتدلة يطمئن كل طرف الطرف الآخر فيها بأنه جاد للوصول إلى نتائج حاسمة ونهائية ستضع حداً للقتال ، وفجأة تنشب المعارك مجدداً وينهار كل شيء وتعود الحملات والحملات الدعائية المضادة ، ويبدأ الطرفان بتبادل الاتهامات، وهي خطيرة تمس مستقبل الدولة ووجودها ، ويتكرر هذا الأمر عدة مرات ، فيجد المقاتل نفسه حائراً متى يصدق ومتى لا يصدق ما يسمع ، حتى يصيبه الملل والضجر من هذه الحرب التي تبدو وكأن لا نهاية لها ، وتبدأ العمليات تأخذ طابعاً روتينياً يقتل الابداع ويميت المبادرة لدى المقاتلين عموماً .

ولقد اشتركت كل وحدات المشاة في الجيش العراقي والمتشكلة من فرق المشاة الأولى والثانية والرابعة وبعض الوحدات الآلية والمدرعة من الفرق المدرعة الثالثة والسادسة ، وبسبب كون الأرض وعرة قليلة الطرق فإن وحدات المشاة قد تحمّلت العبء الأكبر من القتال ، وبما أن مراتب وحدات المشاة يشكل الشيعة فيها نسبة تصل إلى ٩٠٪ من مجموعها ، فإن خسائر المعارك التي دارت رحاها في كردستان اعتباراً من عام ١٩٦١ لغاية عام ١٩٧٥ كانت تصيب الشيعة ، ولقد كان مألوفاً أن مدن الجنوب : البصرة ، العمارة ، الناصرية ، الكوت ، الديوانية ، النجف ، كربلاء ، الحلة ، إضافة إلى مدينة الثورة في بغداد التي يقطنها فقراء الشيعة، تستقبل يومياً العشرات من جثث الضحايا من ضباط الصف والجنود ، إلاّ أن الأغرب من ذلك هو أن القيادة لم تكن لتعير أيّ اهتمام لهؤلاء الضحايا الذين كانت أعدادهم تتزايد يوماً بعد آخر ، ففي الفترة التي كان عبدالسلام عارف يحكم فيها العراق لم يكن خافياً بأن من يتولىٰ قيادة الدولة لا يفرق بين الضحية من الأكراد أو من أبناء الجنوب ويعتبر مقتل أي واحد منهما ربحاً له ، بل إن

عبدالسلام عارف حاول أن يعقد حلفاً ضد الشيعة مع الملا مصطفى البارزاني كونه سنياً، في الوقت الذي كان فيه أبناء الجنوب يقاتلون ويبذلون الدماء حفاظاً على سلطته وعرشه ، وفي عام ١٩٧٤ عندما فشلت مسيرة اتفاقية الحادي عشر من آذار عام ١٩٧٠ ، وهي الاتفاقية التي عقدها النظام التكريتي مع قيادة الحركة الكردية ، كانت قيادة الجيش المتمثلة بقادة الفرق فيه لا تعير أي اهتمام لأرواح الآلاف من الجنود والمراتب الذين كانت تزج بهم في معارك مرتجلة بعيدة عن كل مفاهيم الحرب ومبادئها ، ولقد كان اللواء الركن طٰه الشكرجي نموذجاً للقائد الأهوج الذي لا يقيم لأرواح مرؤوسية أي اعتبار ، وعندما نشب القتال مرة أخرى كانت الأفواج تتحطم الواحد تلو الآخر في عمليات فاشلة، لم يتمْ التخطيط لها بصورة جيدة مما سبب خسائر جسيمة في الأرواح والمعدات .

ـ لا يفوتنا أن نذكر هنا حادثة مهمة جرت عام ١٩٦٤ حملت معها معاني كثيرة ، منها ضعف الروح المعنوية للقوات المسلحة العراقية ، واشتراك الشيوعيين الذين تعرضوا لحملة إبادة شاملة كما هو معروف بعد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ ، لأول مرة في هجوم لاقى نجاحاً كبيراً على اللواء المشاة الرابع الذي كان يحتل موضعاً دفاعياً في جبل « هندرين » المطل على مدينة « راوندوز » من الشرق، ويشكل المدخل الأيمن لمضيق « ريزانوك » الذي يمتد على محور راوندوز ـ جومان ، فالشيوعيون الذين فروا إلى منطقة كردستان ـ وخاصة العسكريون منهم ـ وجدوا في المنطقة الخاضعة لسلطة قيادة الحركة الكردية المسلحة مكاناً آمناً ، شكلوا وجوداً متزايداً ومسلحاً إلى جانب المقاتلين الأكراد ، وكان عدد كبير من الضباط الشيوعيين الذين استطاعوا أن يفلتوا من الملاحقة والإرهاب، إضافة إلى عدد آخر من الجنود وضباط الصف قد شكلوا هذا التنظيم ، الذي يبدو واضحاً بأن قيادة الحركة الكردية قد دعمته وزودته ببعض ما يحتاج إليه من السلاح والعتاد ، وبطلب من قيادة الحركة نفسها التي دعتهم إلى المشاركة في القتال إلى جانبها، تم وضع خطة للهجوم على « هندرين » حيث مواضع اللواء المشاة الرابع هناك ، ولقد اعتمد الهجوم على المباغتة باستخدام أسلوب جديد للحصول عليها بتفوق واضح . بدأ الهجوم مع الضياء الأول بتسلل عدد من الشيوعيين الذين كانوا من العرب في أغلبهم ويرتدون الملابس العسكرية داخل مواضع اللواء ، وما أن استطاعوا أن ينفذوا إلى داخل موضع الجيش، وبالعمق دون أن يشعر بهم أحد ، حتى بدأوا ينادون بأعلى أصواتهم باللغة العربية بأن المواضع قد تمّ اجتياحها من قبل الثوار الأكراد، مطالبين الجنود والضباط بإخلاء مواضعهم والنجاة بأنفسهم ، وما إن سمع الجنود بتلك النداءات حتى دب بين صفوفهم الذعر والفزع ، وبدأوا بالفرار حيث كان بقية المهاجمين يتبعونهم بوابل من

النيران مما أدى إلى تدمير اللواء بصورة كاملة ، فقد سقط عدد كبير من القتلى والجرحى والأسرى ، أمّا من ظل منهم حيًا فقد فرّ هارباً بجلده نحو معسكر « راوندوز » الكائن أسفل الجبل ، بحيث إن آمر اللواء وهيئة ركنه قد فروا بملابسهم الداخلية لا يلوون على شيء ، ولم يكن ممكناً إعادة اللواء المذكور إلى العمل مرة أخرى إلّا بعد مرور سنة كاملة، قضاها في إعادة تنظيمه وتسليحه وإكمال كوادره ومنحه فرصة ملائمة لإعادة روحه المعنوية التي انهارت بصورة تامة .

ـ عندما بدأ القتال في ١١ آذار عام ١٩٧٤ كانت القوات الكردية تسيطر على منطقة واسعة من كردستان اعتباراً من « زاخو » في الشمال الغربي من كردستان وحتى «قورتو» قرب مدينة خانقين في أقصى جنوب كردستان ، وكانت تحاصر وحدات وتشكيلات عديدة من الجيش العراقي ، وتسيطر على طرق رئيسية ومحاور استراتيجية تربط العراق بكل من تركيا وإيران ، وكانت إيران في عهد الشاه تقف إلى جانب الحركة الكردية وتدعمها بما كان لا يمكن أن يتيسر لها ، فكتائب المدفعية التابعة للجيش الإيراني تشكل عنصر الإسناد الناري الأساسي في هيكل نظام معركة الحركة الكردية ، إضافة إلى أن الحدود كانت مفتوحة إلى الخلف،يتم عن طريقها إخلاء الخسائر وتهيئة الدعم اللوجستيكي للحركة ، وكان الأمر يبدو غاية في الخطورة، وبما أن قيادة الحركة الكردية ومقراتها ومناطقها التموينية والإدارية تقع في المنطقة المحصورة من «كلالة» و « جومان » إلى « حاج عمران » ضمن محور الحركات الرئيسي الهام الذي يربط مدينة « اربيل » بحاج عمران ، حيث تقع إذاعة الحركة الكردية ومقر قيادتها والمكتب السياسي للحزب الديموقراطي الكردستاني ، فلقد تركزت خطة العمليات للجيش العراقي على هذا المحور، واعتبرته المحور الأهم في العمليات،وبأن مدينة « جومان » هي الهدف الخطير للعمليات ، لأن قيادة الحركة مجتمعة هناك ومنها تدير أعمالها وتمارس نشاطها ، ولقد كانت المسيرة طويلة حيث ابتدأت من ناحية صلاح الدين وبدأت بالتحرك ببطء مع اشتداد القتال وتطوره كلما تقدمت الوحدات العراقية التي كلفت بفتح هذا الطريق ، وقد كلفت الفرقة المشاة الثامنة التي كانت قد شكلت حديثاً بقيادة العمليات على هذا المحور، وكان يقود هذه الفرقة اللواء الركن طه الشكرجي ، وبعد أن تم فكّ الحصار عن لواء المشاة/٢٢ في « سبيلك » الذي يشرف على سهل خليفان،ظل اللواء المشاة/٢٣ محاصراً على جانبي مضيق «كَلي علي بك» ، وهنا بدأت المصاعب تتماثل للعيان ، فمضيق كلي علي بك يشكل مانعاً استراتيجياً هاماً جداً وبدون تأمينه وفكّ الحصار عنه لن يتم إحراز أي نصر أو تقدم باتجاه المنطقة الرئيسية التي تتحصن فيها القيادة الكردية، لذا فقد بدأت قيادة الفرقة الثامنة بشن عدة هجمات بلواء المشاة العشرين الذي بدأ يتكبد خسائر فادحة

بالأرواح ، وانخفض موجود قسم من الوحدات إلى درجة مريعة أثارت الرعب في نفس القيادة العامة للقوات المسلحة التي كان يقودها في ذلك الوقت المهيب « أحمد حسن البكر » . لم يكن ممكناً عمل شيء في تلك اللحظات، وبدأت إشارات الاتهام بالإهمال والتقصير توجه إلى اللواء الركن «طه الشكرجي» الذي وصفت قيادته للحركات بالرعونة وضعف التخطيط ، وهنا لم يكن في استطاعة «البكر» سوىٰ أن يعقد مؤتمراً موسعاً للقيادة العامة للقوات المسلحة حضره عدد كبير من الضباط ذوي الرتب الكبيرة ، وبعد أن شرح « البكر » الموقف للحاضرين موضحاً المخاطر والصعاب التي بدأت تواجه الجيش في هذا المحور من محاور العمليات ، توجه بسؤال للضباط الحاضرين طالباً منهم أن يساعدوه في إيجاد حل ملائم ، وأن من يجد من الضباط في نفسه القدرة على إدارة العمليات في هذا القاطع فإنه سيستلم قيادة الفرقة المشاة الثامنة فوراً، والتي يأخذ مقرها على عهدته إدارة الحركات،وكان مقرها في قرية « خليفان » التي لا تبعد عن المضيق أكثر من ثلاثة كيلومترات ، وبعد دراسة مستفيضة للموقف استغرقت وقتاً طويلاً ، أبدىٰ اللواء الركن عبدالمنعم لفتة الريفي ، وهو شيعي كان يشغل منصب آمر كلية الأركان ، أبدىٰ استعداده لاستلام قيادة الحركات في هذا القاطع ، حيث كانت العمليات قد توقفت لفترة بسبب الفشل الذي أدىٰ إلى حدوث خسائر كبيرة ، كان اللواء/٢٣ لا يزال محاصراً على كتفي المضيق على سلسلتي « كورك » يمين المضيق و « نواخين » الكائنة على يساره ، والجدير بالذكر أن « البكر » قد أرسل رسالة إلى مقر اللواء المحاصر يخبرهم فيها بأنه قد أصدر أمراً بمنح كافة منتسبي هذا اللواء رتبة كاملة اعتباراً من آمره وحتى آخر جندي فيه ، وفعلاً فقد وفىٰ « البكر » بوعده بعد صمود اللواء المذكور حتى يتم فكّ الحصار المفروض عليه .

ـ استلم اللواء الركن عبدالمنعم لفتة الريفي قيادة فرقة المشاة الثامنة وأُلحق بها عدد من الألوية الأخرى من بينها لواء المشاة الثامن الآلي ، وبدأ بالشروع بفتح مضيق « كَلي علي بك » ، حيث شهدت الأشهر الأخيرة من عام ١٩٧٤ حرباً طاحنة وصراعاً عنيفاً ، فكلا الطرفين يعطي أهمية بالغة للنصر الذي يحققه على الطرف الآخر في هذه النقطة ، وقد أصدرت قيادة الحركة الكردية أوامر مشددة بخصوص الصمود حتى النهاية وعدم فسح المجال أمام الجيش العراقي للتقدم واختراق المضيق، وقد بدأت قيادة فرقة المشاة الثامنة عملياتها بأسلوب جديد ، ونظراً لكون الطريق الرئيسي يمر عبر خانق المضيق، فلم يكن ممكناً التقدم عنوةً بعد أن تم تجربة هذا الأسلوب فأثبت فشله وكبد القوات العراقية خسائر فادحة ، لذا فقد عمدت القيادة العراقية إلى فتح طريق عبر سلسلة جبل « كورك » ، وهو ما كان يعرف بطريق « هاملتون » المسمى على اسم المهندس

الإنكليزي هاملتون الذي حاول شق طريق فوق كتف « كورك» باتجاه «عين بيخال»، ثم إلى «راوندوز»، ففشل في حينها،ويقال بأنه انتحر لأنه لم يكن قد وضع تصميماً ملائماً للعمل وإنجاز المشروع ، قامت الهندسة العسكرية بالعمل على إعادة فتح الطريق نفسه متتبعة آثاره التي كانت واضحة على الأرض، استمر العمل في المشروع تحت وابل من النيران التي كان يصبها الثوار الأكراد على عناصر الهندسة التي كانت منهمكة بصورة جدية على الرغم من الخسائر في الأرواح والمعدات التي كانت تتحملها ، حتى تم الوصول بالطريق إلى مراحل متقدمة ، وكانت القوات تتقدم راجلة وآلية مؤمنةً حماية جيدة للعمل إلى أن أمكن عبور قوات كبيرة وتصبح خلف المضيق في الجانب الآخر في السهل الفسيح المسمى « سهل ديانا » ، وعلى ضوء الموقف الجديد ، اضطرت القوات الكردية إلى الإنسحاب من كتفي المضيق كي لا تصبح تحت تأثير نار القوات العراقية التي أمكن توجيهها من الخلف ، وقد تتعرض إلى المحاصرة والإبادة هي نفسها ، وبذا تكون الحركة الكردية قد تعرضت إلى أكبر نكسة خلال مراحل الحرب ، وقيل إن قيادة الحركة الكردية قد نفذت حكم الإعدام ببعض القادة الذين كلفوا بالدفاع عن المضيق ، وبذا تمّ فكّ الحصار عن لواء المشاة/٢٣ الذي كانت إدامته بالأرزاق والعتاد تتم بالإلقاء الجوي ، وكثيراً ما سقطت حمولة الطائرات الملقاة جواً بأيدي الثوار الأكراد .

ـ انتشرت بعض الألوية التي اجتازت المضيق ، بعد أن أصبح سالكاً مؤمناً ، في سهل «ديانا» الواسع ، وانتقل القتال إلى مرحلة جديدة صعبة ، كانت خطط القتال تدور في اتجاه واحد دائماً ، فلقد كانت القيادات العسكرية التي تعاقبت على إدارة الحركات في كردستان العراق تعمد في خططها إلى توجيه القوات خلال مضيق « ريزانوك » الذي يمتد إلى مسافة طويلة تصل إلى أكثر من (٣٠) كيلومتراً ، وذلك بزج القطعات في الجانب الأيمن من المضيق ، وكان جبل « هندرين » الشاهق الذي يشرف على الجانب الأيمن من المضيق يشكل هدفاً أساسياً من أهداف العمليات ، وكانت وحدات، لا تقل عن لواء مشاة، تقوم بالسيطرة بصورة دائمة ، وهو يشرف على مدينة « راوندوز » ومناطق أخرى من سهل « ديانا »، إلاَّ أن الخطأ الواضح في تلك الخطط يرتكز في توجيه القطعات للسيطرة على هذا الجبل وجعله قاعدة أمينة للانطلاق في العمليات اللاحقة التي لم تتم أبداً ، يتجه جبل « هندرين » من الغرب إلى الجنوب الشرقي وهذا ما كان يفقده قيمته السوقية ، لأنه لا يتجه نحو الشرق تماماً، حيث مواضع القوات الكردية ومقراتها ، لذا فإنه يبعد القوات عن مركز ثقل الحركة الكردية ، ولقد شخصت القيادة الميدانية العسكرية للجيش العراقي هذا الخطأ في توجيه الحركات ، لذا فإنها عمدت على توجيه القطعات وإدامة الحركات في المرحلة التي تلت فتح مضيق

« كلي علي بك » ، باتجاه آخر ، هو الجانب الأيسر من مضيق « ريزانوك » ، حيث بوشر بالفعل بتنفيذ خطط الحركات باتجاه « ظهر السمكة » ، « جبل حسن بك » ، « جبل تاتان » ، هذه الجبال الثلاثة التي تؤدي السيطرة عليها إلى سقوط أراضي واسعة مهمة تصل إلى ناحية « كلالة » التي تشكل مركزاً هاماً من مراكز الوجود العسكري للقوات الكردية ، كما يصبح سهل « سيد كان » الكائن خلف جبل « حسن بك » تحت رصد ونار المدفعية العراقية والأسلحة المتوسطة الأخرى ، كما أن الطرق التي تربط منطقة « جومان » مركز قيادة الحركة الكردية بمناطق « حركَة سور » و « دهوك » و « الصمادية » تمر كلها خلف هذه الجبال،أو من بينها مما سيؤدي حتماً في حالة سيطرة الجيش العراقي عليها إلى قطع الارتباط بين منطقتي «سوران»آ الكائنة يمين محور «راوندوز ـ حاج عمران» و«بادنيان» الكائنة يساره، مما سيسبب مشاكل عديدة للحركة الكردية المسلحة لا يمكن التكهن بعواقبها ، استطاع الجيش العراقي أن يتقدم باتجاه سلسلة «ظهر السمكة»، وهي أول عارضة من العوارض الثلاث التي ذكرناها تواجه أي تقدم تقوم به القوات، وكان في الحقيقة يواجه مقاومة عنيفة وشديدة من قبل المقاتلين الأكراد الذين كانوا يستفيدون من الدعم المدفعي الذي يقدمه لهم الجيش الإيراني ، وكانت المدفعية بعيدة المدىٰ من عيار ١٧٥ ملم و١٥٥ ملم تطلق نيرانها من «جومان» فتصيب أهدافها،حيث كانت تدور المعارك عند «ظهر السمكة» ثم «تاتان».

ـ نشبت في هذا القاطع عمليات عسكرية عنيفة تكبد فيها الطرفان خسائر كبيرة ، كانت المواضع يتم تبادل احتلالها باستمرار ، إلاّ أن الجيش العراقي تمكن أن يؤسس له قاعدة أمينة نوعاً ما في جبل « ظهر السمكة » وفي قصبة « ديانا » التي تقع في السفح الغربي لهذا الجبل ، لقد أصيب الطرفان في الواقع بإنهاك شديد لاستمرار القتال واستخدام نيران كثيفة وشديدة ، وبدا بالفعل أن القوات لم تعد كافية للاستمرار بالقتال ، وتمرد آمرو أفواج لواء المشاة / ٢٣ ، إذ لم يعد ممكناً إحراز تقدم ملحوظ خاصة في المعارك التي جرت على جبل«تاتان»، التي تتشكل قممه من صخور على شكل أعشاش ضخمة تساعد على التمركز في الدفاع بسهولة،مؤمنة حماية جيدة اتجاه القصف المدفعي ونيران الأسلحة المباشرة المختلفة ، إضافة إلى أن الجيش العراقي قد بدأ يعاني من صعوبة إدامة الوحدات اليومية، والتي أصبحت في القمم بسبب عدم تيسر الطرق الملائمة لحركة العجلات ، فاستعيض عنها باستخدام الحيوانات للإدامة والتي غالباً ما كانت تتعرض للإصابات والخسائر، إضافة إلى محدودية الأحمال التي تنقلها والتي لم تكن كافية لتأمين احتياجات الوحدات وإدامتها اليومية من الأرزاق والوقود والعتاد ، كما وأن الضغط الشديد الذي كان يوجهه المقاتلون الأكراد على القوات العراقية أدىٰ هو الآخر إلى

تخلخل الروح المعنوية وإضعافها إلى حد ما ، فلقد كان المقاتلون الأكراد يتقدمون في تكتيك جديد باستخدامهم عدداً كبيراً من القاذفات الخفيفة وبإسناد من نيران الأسلحة الخفيفة والمتوسطة، حيث يتقدمون إلى أقرب ما يمكن من مواضع القوات العراقية التي لم تكن في الواقع ملائمة بصورة جيدة ، فيقومون بالرمي عليها في آن واحد مما يؤدي إلى حدوث إرباك شديد بين صفوفها ، يتبعه هجوم سريع لاختراق مواضعها ، ويدوم هذا الوضع ويتكرر عدة مرات إلى أن حدث الاتفاق الشهير الذي تم بين شاه إيران وصدام حسين في آذار من عام ١٩٧٥ ، والذي تبعه انهيار الحركة الكردية ودخول الجيش العراقي إلى كل المناطق التي لم يستطع دخولها منذ عام ١٩٦١، ومنها مركز قيادة الحركة في « جومان » و « حاج عمران » .

ــ لم تكن قيادة الحركة الكردية بعيدة عن ما يجري خلف الكواليس وفي دهاليز السياسة الدولية ، لقد أصبحت تلك القيادة على علم بما يجري فعلاً من مفاوضات بين الشاه وصدام حسين ، لذا فإنها حاولت تدارك الموقف والآثار المترتبة عليه، فقدمت عرضاً للحكومة بأن يتم التفاوض معها بصورة مباشرة للوصول إلى صيغ جديدة من الحكم الذاتي أو أي اتفاق آخر يلائم الطرفين ، إلاّ أن السلطة،وبسبب الغرور والعنجهية التي تطبع كل تصرفاتها وسلوكها لم تستجب لتلك الدعوة ، فقد كانت منتشية بالانتصار الذي حققه لها اتفاقها مع الشاه ، ولم تلتفت إلى أن تعالج القضية بروح التسامح والاخوة ، ولم تحسب للمستقبل أي حساب ، فأصدرت قراراً بالسماح لكل من يرغب بالتسليم دون قيد أو شرط على أن يسمح له بالعيش كمواطن عادي ، واستثنت قائد الحركة الكردية الملا مصطفى البارزاني وعائلته من هذا القرار ، وقد أعلن صدام بأن الملا مصطفى وأولاده سوف لن يفلحوا في شرب ماء دجلة مرة أخرى ، وبهذا يكون قد مهّد منذ اليوم الأول لإيقاف القتال لوضع عوامل وأسباب الثورة اللاحقة التي لم تمر سنوات قليلة حتى استعرت مرة أخرى ، كما أن مسعود البارزاني ابن الملا مصطفى قد وصل إلى نهر دجلة حاملاً بندقيته حيث عبّ من مائة ما شاء له .

ــ أبدت القوات العراقية تجاوباً واضحاً مع القيادة العسكرية وكانت معنوياتها ملائمة جداً عند بدء الحركات حيث استطاعت أن تنجز واجبات كبيرة وصعبة ، فلقد كانت كل المحاور الرئيسية في كردستان العراق عند بدء القتال تقع تحت سيطرة القوات الكردية ، كما أن وحدات عديدة كانت تعاني من الحصار الذي كانت تفرضه عليها القوات الكردية ، فمحور « الموصل ـ زاخو» كان مقطوعاً بالفعل، وكان أحد الأفواج محاصراً في مدينة « زاخو » ، ولم تكن القوات قادرة على التقدم على هذا المحور لأن

الطريق الدولي كان يمر بمحاذاة سلسلة «بي خير» الجبلية القاحلة التي كانت تقع تحت سيطرة الأكراد ، والتي تشرف على كل التنقلات على طريق « الموصل ـ زاخو » ، وبعد محاولات عديدة للتقدم والتي لم تثمر في حينها ، قامت الهندسة العسكرية بفتح طريق آخر بفاصلة ملائمة عن الطريق الأصلي تفادياً لنيران الهاونات البعيدة المدى ، حيث استطاعت القوات أن تتقدم بعدها بحرية ، حتى وصلت إلى المضيق الذي يؤدي إلى مدينة «زاخو» واجتازته بعد معركة قصيرة ، وأمكن فك الحصار عن القوة المحاصرة في «زاخو». وفي قاطع السليمانية لم يكن للقوات العراقية وجود حقيقي سوى في جزء محدود من المدينة التي تخضع بصورة كاملة لسيطرة القيادة الكردية ،التي عمدت إلى ترك المدينة بعد أن حملت معها ما يمكن حمله من أموال وسلاح يعود للسلطة المحلية ، وقد أُتهم العقيد عبدالعال الباسري آمر اللواء الثاني من نظام معركة فرقة المشاة الثانية بتخاذله وتردده ،حيث أُحيل فوراً على التقاعد ، وعند انتهاء الحركات كانت القوات العراقية تقف على مشارف ناحية سيد صادق ، في الوقت الذي كانت تخضع فيه مناطق واسعة من محافظة السليمانية لسلطة قيادة الحركة الكردية ، كمدينة « حلبجة » و « بنجوين » و « جوارتا » ، وهي أقضية محافظة السليمانية الرئيسية ، أما في محور « كركوك ـ قلعة دزه » ، فقد قاتلت القوات العراقية قتالاً شديداً جداً حتىٰ استطاعت أن تفتح الطريق عنوةً ، فاحتلت سلسلة « هيبة سلطان » الوعرة المطلة على مدينة « كوسينجق » من الغرب « وبحيرة دوكان » وسهل واسع يمتد إلى مسافة بعيدة من الشرق ، ثم واصلت قتالها حتى احتلت جزءاً مهماً من سلسلة « بيتواته » القريبة من قضاء « قلعة دزّه » ، وقد قامت القوة الجوية بشن حملات جوية شديدة ومكثفة على المدن الرئيسية التي كانت تخضع لسيطرة القوات الكردية كمدينة « حلبجه » و «قلعة دزه » التي أصبحت عاصمة كردستان ، بعد أن انتقلت إليها الجامعة بانسحاب التلاميذ والأساتذة من جامعة السليمانية إليها ، كما تعرضت مدينتنا «جومان» و«حاج عمران» إلى قصف شديد ومستمر قامت به الطائرات العراقية ، والتي تمّ إسقاط واحدة منها فوق «حاج عمران» ، حيث ادعى العراق بأن صواريخ هوك التي ينصبها الجيش الإيراني في تلك المنطقة قد قامت بإسقاطها ، وادعت القيادة العسكرية بأنه لم يكن ممكناً إسقاط تلك الطائرة بالأسلحة المتيسرة لدى القوات الكردية ، وإن سلاحاً متطوراً هو وحده القادر على إنجاز مثل هذا العمل ، والواقع أن ادعاء القيادة لم يكن مطابقاً للحقائق بصورة تامة ، لأنه لا يمكن الجزم بأن ما يتيسر من الأسلحة لدى القوات الكردية غير قادر على إسقاط تلك الطائرة ، إلاّ أن الحكومة العراقية كانت ترمي من وراء ذلك إلى إشعار الدول العربية بأن القتال الجاري في كردستان يتم بين العراق وإيران ، ولم يعد قتالاً داخلياً بين الحكومة العراقية وحركة الأكراد الذين يتمردون عليها ، ولم تكن علاقات العراق بالدول العربية

حينذاك جيدم، لذا فإنه لم يكن قادراً على أن يستفيد من هذا الطرح الجديد . خلاصة القول بأن الجيش العراقي،وكما نوهنا كان يمتلك من المعنويات ما كان يؤهله للاستمرار بالقتال خاصة في مراحله الأولى ، إلاَّ أن استمرار القتال لمدة تزيد على السنة مع تزايد الخسائر التي أصبحت لا يمكن تحملها، إذا علمنا بأن الجيش العراقي كان محدوداً . استمرار القتال هذا أدى إلى انخفاض الروح المعنوية بصورة واضحة ، وأصبحت الحرب تشكل كابوساً مؤرقاً وضغطها أصبح لا يطاق . لقد كانت السيارات المبرّدة التي تحمل الثلاجات تقف صفاً طويلاً في مناطق الإخلاء الخلفية تحمل كل يوم المئات من القتلى ، كما شهدت مستشفيات العراق العسكرية، سواء تلك التي في القاعدة أو التي في الميدان، أعداداً كبيرة من الجرحى الذين أصبحوا يشكلون عبئاً ثقيلاً ، إلاَّ أن من العوامل المهمة التي كانت تساهم في بناء وضع نفسي جيد قبل بدء الحركات هو حدوث خلافات شديدة بين قيادة الحزب الشيوعي العراقي والحزب الديموقراطي الكردستاني، والتي كانت متحالفة مع حزب السلطة بما يسمىٰ بالجبهة الوطنية القومية التقدمية . فلقد وقف الحزب الشيوعي العراقي إلى جانب الحكومة ودخل في نزاعات دامية قبل بدء الحركات ، وأخذت صحف الحزب الشيوعي العراقي والديموقراطي الكردستاني تتبادل التهم بصورة تركت أثراً كبيراً على مشاعر المواطنين العراقيين ، إضافة إلى أخطاء مهمة ارتكبتها قيادة الحركة الكردية قبل وأثناء القتال ، استطاع النظام أن يستثمرها لصالحه وبذل جهداً إعلامياً وتثقيفياً مكثفاً من أجل إقناع جماهير الشعب العراقي بوجهات النظر التي كان يطرحها ، ولم تكن الظروف العامة التي يمر بها العراق قبل نشوب القتال لصالح القيادة الكردية بصورة ملائمة ، ففي تلك الفترة استطاع الحكام أن يكسبوا أوساطاً دولية عديدة ، وطرحوا أنفسهم بأنهم نظام ثوري اشتراكي ، مما حرم الحركة الكردية حليفاً دائماً لها وهو المعسكر الاشتراكي .

ـ لن يفوتني أن أذكر هنا المصير الذي انتهىٰ إليه اللواء الركن عبدالمنعم لفتة الريفي ، فهذا الضابط الذي يتمتع بسمعة جيدة في القوات المسلحة ، كان من الضباط المرموقين القلائل في الجيش العراقي ، أكمل دورة متقدمة لضباط الأركان في إنجلترا، وكان تقريره النهائي يحمل تقييماً جيداً عنه يشيد بذكائه ومقدرته . وتتوقع له مستقبلاً باهراً كعسكري محترف في القوات المسلحة العراقية ، وكان البعض يعيب عليه اسم أبيه،وكان يلفظ بأسلوب ينم على الاستهزاء والسخرية ، إلاَّ أن ذلك في الواقع لم يؤثر على ثباته وصلابته ومقدرته على القيادة التي ظل الجميع يشهد له بها من بين أصدقائه وأعدائه ، فبعد انتهاء الحركات بإعلان اتفاق آذار عام ١٩٧٥ بين العراق وإيران على حل المشاكل

بين البلدين ، أُحيل مباشرة على التقاعد برتبتين أدنىٰ ، وقد قيل في حينها بأنـه قد أهمـل في أداء واجباته ، وقد رد سبب ذلك إلى أنه عندما بدأت القوات الكردية بالتسليم ، جاءه الشيخ محمد خالد البارزاني الذي كان مستقراً في قضاء «مركَه سور» عارضاً عليه التسليم حيث وافق هو على ذلك ، ونظراً لكون الشيخ محمد خالد لم يكن مشتركاً بصـورة فعالـة في الحركات التي جرت في كردستان في كافة مراحلها ، أو هكذا كـان يشاع عنـه ، على الرغم من كونه ابن عم الملا مصطفى البارزاني ، إضافة إلى أن كلاً من «إدريس» و«مسعود» ولدي الملا مصطفى متزوجان ابنتيه ، وربما كان ذلـك يجري بـاتفاق مـع الملا مصـطفى نفسه الذي لم يكن يرغب بأن يشترك الشيخ محمد خالد فعلياً بالقتال لضمان ابعاد منـطقة « مركَـه سـور» و«بارزان» بصـورة خاصـة عن أن تكون سـاحة عمليات ، تؤدي إلى تخريب المنطقة التي تعتبر مهداً للبارزانيين وتدميرها ، عـرض الشيخ محمـد خالـد التسليم ، ولكنه طلب من قائد الفـرقة الثـامنة مهلة كي يعـود إلى «مـركَه سور» مـرة أخرى ليضمن تسليم المقاتلين الأكراد الموجودين في تلك المنطقة ، وبما أن الشيخ محمـد خالـد كان يحـظى باحترام كل الحكومات التي تعاقبت على العراق ، فإن قائد الفـرقة اللواء الـركن عبدالمنعم لفتـه الريفي سمـح له بـالعودة كي يجلب معـه المقاتلين الـذين تخلفوا عن التسليم ، يتم بعدها التقدم باتجاه منطقة «الزيبار» التي يشكل قضاء «مركَـه سور» مركزها الإداري ، لكن الشيخ محمد خالد لم يعد ، بل تحرك هو ومن معه من المقاتلين إلى إيـران وطلب اللجوء هناك ، لذا فإن قائـد الفرقـة اعتبر مهمـلاً ومقصراً في واجباته ، ممـا استدعىٰ هـذا العقاب الذي واجهه بـه « أحمد حسن البكـر » جـزاءً لـه على الجهود التي بـذلها والصعـاب التي تحملها أثناء قيادة الفرقة المشاة الثامنة وفي ظروف صعبة للغـاية . إلَّا أن القصـة الحقيقية لما حدث لم تكن هذه أبداً ، لأن أي قائد عسكري وفي موقف مثل موقف هذا القائـد لم يكن ليتصرف خلافاً لما حدث فعلاً ، لقد لعبت الطائفيـة والعنصريـة دوراً قذراً للغـاية في حرب الشمال ، ولم يكن القـائد العـام للقوات المسلحـة الذي كـان يشغل منصب وزيـر الدفاع أيضـاً ، « أحمد حسن البكـر » أقل طـائفية وعنصـرية من غيـره من الحكام الـذين تعاقبوا على الحكم في العراق ، بل إنه كان يفوقهم في ذلك بمراحل كبيـرة ، ففي الوقت الذي كانت تدور فيه رحىٰ المعارك الطاحنة وتسيل الدماء على صخور ووديان كردستان ، ويدفع الجيش العـراقي من دمه وأعصـابه وعـرقه ثمن الحفـاظ على المتربعين على دست الحكم ، لم يكن هؤلاء يشعـرون بـالخجـل أو الحـرص على وحـدة وتمـاسـك الجيش العراقي ووحداته ، فقد كـانت ترد بـرقيات مـوقعة من قبـل وزير الـدفاع إلى مقـر الفرقـة المشاة الثامنة تأمر بنقل بعض الضباط من التكارتـة والدوريين وغيـرهم ، وذلك لإبعـادهم عن ساحات القتال التي قد تعـرضهم للموت ، والمعـروف بأن أوامـر نقل الضبـاط تصدر

بعد موافقة وزير الدفاع شخصياً عليها ، ولقد كانت تلك الأوامر تثير في نفس قائد الفرقة أقصىٰ حالات الألم والمرارة والشعور بالتمييز بين المقاتلين الذين يقفون جميعاً في ساحة واحدة ، حيث يفترض أن تعم العدالة والمساواة بينهم جميعاً ، فكان قائد الفرقة اللواء الركن عبدالمنعم لفتة الريفي يهمّش على أوامر النقل بعبارات تدل على عمق تذمره ورفضه لمثل هذا التخريب القاتل الذي يمكن أن يؤدي بالتأكيد إلى شيوع روح التذمر والحقد واللامبالاة في تنفيذ الواجبات الملقاة على عاتق الوحدات ، فقد كان يعلق على مثل هذه الأوامر (لماذا ألأنه تكريتي؟) أو (لماذا ألأنه دوري؟)، ولم يكن يصدر موافقته على انفكاك من ترد الأوامر بنقلهم إلى أماكن بعيدة عن ساحات الحرب، ولم يكن ذلك بعيداً عن اطلاع واسماع «البكر» نفسه، وبما أن «البكر» معروف جيداً بأنه حقود وأناني، فإنه عاجل اللواء الركن عبدالمنعم لفتة الريفي بهذا العقاب البعيد عن العدالة والنبل ورد الجميل، طالما أصبح ممكناً التخلي عنه بعد توقف القتال .

ـ لم يكن رأي قيادة الحركة الكردية متفقاً بالإجماع على الاستسلام في حالة رفض السلطة لمقترحها ، بل إن قسماً من أعضاء القيادة قد اقترح على الملا مصطفى البارزاني قائد الثورة الكردية ورئيس الحزب الديموقراطي الكردستاني أن يتم مواصلة القتال بأساليب جديدة وتحت الظروف المستجدة ، إلاّ أنه لم يوافقهم الرأي معللاً ذلك بأن الظروف الراهنة لم تعد تسمح بالاستمرار بالقتال ، ولم يعد ممكناً للثورة أن تستمر ، وأن الشعب الكردي سوف لن يتحمل من الأعباء والدمار ما لا يمكن تحمله بعد أن أصبح كل من العراق وإيران حليفين ، لهما مصالح مشتركة فرضتها بنود المعاهدة الجديدة ومن بينها إيقاف الحرب الجارية في كردستان العراق ، وربما كان الملا مصطفى البارزاني محقاً في موقفه هذا لأن الوضع العسكري والنفسي للجماهير الكردية لم يعد ملائماً على الإطلاق للاستمرار بخوض القتال ، مع هذا الحمل من المؤسسات التي كانت تثقل كاهل الحركة ، بعد أن تحولت إلى دولة ، لم يعد في الواقع من الممكن الاستمرار بحمل السلاح لأن ذلك بالفعل كان يقتضي أن تتهدم مؤسسات الحركة الكردية وامتداداتها الدولية والإقليمية ، والتفتيش لها عن أصدقاء وحلفاء جدد ، عندها تنطلق من هذا الركام حركة جديدة تأخذ على عاتقها البدء في المسيرة من نقطة انطلاق متواضعة ، تخلق لها ظروفاً ملائمة ووضعاً تستطيع معه أن تستمر مدة طويلة دون أن تجد نفسها مرغمة يوماً ما على الاستسلام دون قيد أو شرط ، ولقد كان ذلك يقتضي وقتاً ملائماً من الانتظار والمراقبة وهو ما حدث بالفعل .

ـ عانت الجماهير الكردية من وضع نفسي خطير ، فبعد كل التضحيات

الجسام التي قدمها الشعب الكردي خلال مدة تزيد على الأربعة عشر عاماً ، وجدت الجماهير الكردية نفسها وقد خرجت من هذا النضال الدامي خالية اليدين ، لذا فقد انتاب الشعب الكردي إحساس مرير بالألم والشعور بالمهانة التي فرضتها حالة الاستسلام .
ولقد عملت السلطة نفسها على تعميق هذا الشعور أملاً منها بإماتة مشاعر التوثب والثورة ، فلقد أقيم احتفالٌ عسكري كبير ، قامت فيه قوات من الجيش باستعراض عسكري في مطار المثنى حيث كان «البكر» و«صدام» يقفان على منصة التحية ويردان التحية على القطعات المستعرضة ، وقد سمي هذا الاستعراض العسكري باستعراض النصر ، بينما كان «صدام» ووسائل إعلامه يدعي بأن الحرب لم يكن فيها منتصرٌ أو خاسر ، بل كانت حرباً بين الأخوة انتهت إلى الوفاق والوئام . ولقد حدثني أحد قادة الحركة الكردية البارزين والذي شغل منصب وزير إحدى الوزارات ، وكان قد حضر شخصياً هذا العرض العسكري ، بأن ذلك اليوم كان من أكثر الأيام حزناً في حياته وألماً ، فهو يشاهد بأم عينه إعلان سقوط الثورة الكردية والاستهانة بكل التضحيات والآلام التي قدمها الشعب الكردي ، على الرغم من كونه كان في حينها على خلاف مع قيادة الحركة الكردية المسلحة ، وهكذا وبكل بساطة لقد غالبت الشباب الكردي أحاسيس كثيرة مختلفة ، وكان الموقف الشعبي العام الذي تلا عام ١٩٧٥ موقفاً يكاد يكون شبه سلبي بصورة شاملة ، وعلى الرغم من أن السلطة بدأت تصعد جهوداً محمومة لإضعاف إرادة الثورة لدى الشعب الكردي ، ابتدأت بامتداد التنظيم العائد للسلطة إلى أوساط البسطاء من الأكراد ، حيث تم تشكيل منظمات حزبية في كل محافظات كردستان نزولاً حتى الأقضية والنواحي ، أخذت على عاتقها تنظيم بعض الأكراد في صفوف حزب السلطة وربطهم بالتنظيم على شكل صفوف سميت (التنظيم الوطني) ، كما شهدت كردستان حملات واسعة من التهجير من المناطق الشمالية إلى وسط وجنوب العراق في ظروف قاهرة تبعث الأسى والألم في النفوس ، ويستطيع المسافر من الرمادي شمال بغداد وحتى الناصرية جنوباً أن يلمس عمق المأساة التي عاشها الأكراد الذين هجّروا من ديارهم وقراهم وأرضهم ، فهذا الإنسان الذي تعوّد أن يعيش في ظروفٍ جوية وجغرافية خاصة كان لسنين طويلة يتلاءم معها ، جبالها وثلوجها وشلالاتها كانت ملاعبة وحياته وروحه ، يشمر عن ساعده فيستخرج منها الخير والبركة والحب ، وجد نفسه يعيش في أكواخ حقيرة تنعدم فيها الشروط الصحية الملائمة في منطقة يحرق لهيبها جسده ووجدانه ، خارج المدن في الوسط والجنوب بعيداً عن كل وسائل الحياة التي يحتاج الإنسان العادي إليها ، إضافة إلى الشروط التي كانت تضعها السلطات الأمنية على تنقلهم ، فالذي كان يرغب منهم السفر إلى مسقط رأسه لزيارة أهله وأقاربه فإنه كان يواجه سلسلة من المضايقات

والتحقيقات التي تنتهي في أحيان كثيرة إلى رفض طلبه ، ولقد كان المواطنون الأكراد يعمدون إلى حرق تلك الأكواخ التي يعيشون فيها إظهاراً لاحتجاجهم على سوء الوضع الذي يعيشونه . إلاَّ أن عملية تهجير الأكراد للوسط والجنوب كان لها أثرٌ طيب في إيجاد تقارب أخوي بينهم وبين إخوانهم العرب الذين استقبلوهم بمشاعر الحب والأخوة، وقدموا لهم ما يستطيعون من المساعدة متناسين سنوات العنف والقتال والدماء والضحايا التي سقطت خلالها ، ولا يزال الأكراد يتحدثون عن ذلك معربين عن رضاهم عن حسن المعاملة التي تلقوها عندما كانوا يعيشون بين اخوتهم العرب في جنوب العراق ، لقد تحمل الشعب الكردي بعد فشل الثورة عام ١٩٧٥ من الآثار المعنوية ما يفوق ما تحمله من الآثار المادية خلال فترة اندلاع الحرب ، كان النظام يعتقد بأن الوضع الجديد أشد خطورة وأكثر تحفيزاً ، فلقد أوجد الفراغ السياسي الذي سببه انهيار الحركة حالة من الضياع والتيه بين جماهير الشعب الكردي ، خاصة بين الشباب والمثقفين منه ، وكان الوضع الجديد يحمل معه بالفعل بذور التمرد وعوامل انتشاره التدريجي ، فلم يكد يمضي عام واحد على توقف القتال حتى بدأت الأجواء تشير إلى وجود تململ واستعداد بين أوساط طلائع الشعب الكردي ، خاصة في منطقة السليمانية ، علماً بأن مناطق عديدة كانت تأوي عدداً من المسلّحين الذين لم يسلموا أسلحتهم للدولة ، تلك المناطق التي لم يكن من الممكن الوصول إليها بسبب شدة وعورتها واحتوائها على عدد كبير من المخابىء والكهوف ، إضافة إلى عدم تيسر أي نوع من الطرق التي تساعد على تنقل أي صنف من أصناف العجلات المستخدمة لدى الجيش ، كما هو الحال في منطقة قره داغ .

– لم تكن التدابير التي اتخذت عند إعلان البدء بإنشاء مؤسسات ما يسمى بالحكم الذاتي لتقنع الشعب الكردي ، لأنها في واقع حالها لم تكن تهدف أصلاً إلى مشاركة الشعب الكردي وممثليه الحقيقيين في إدارة تلك المؤسسات ، بل كانت أساساً تشكل مغانم للعناصر والرموز التي كانت تقف دوماً ضد إرادة الشعب الكردي ، فمن « أرشد الزيبادي »، إلى «سيردان الجاف»، إلى «محمود البشدري»، إلى «هاشم عقراوي»، إلى بقية العناصر التي يصنفها الشعب الكردي كخونة للقضية التي جاهد وناضل سنين طويلة في سبيلها ، لذا فإن تلك المؤسسات قد ولدت وهي تحمل معها عوامل موتها ، فقد تحولت مراكز إدارات الحكم الذاتي ،ومقرها في مدينة أربيل مركز الحكم الذاتي، إلى أوكار للبيروقراطية والتعالي والبذخ والإسراف للمجاميع المتعددة التي كانت مع السلطة في صراعها ضد الحركة الكردية ، وبذا لم تستطع أن تحدث أي تطور يذكر في واقع منطقة كردستان الاجتماعي والاقتصادي والثقافي ، فظلت معزولة تماماً عن الشعب

الكردي ، كما وأنها لم تقف ضد الإجراءات التعسفية التي مورست ضد الأكراد ، من التهجير إلى مناطق بعيدة في العراق إلى تجميع القرى الحدودية التي بلغ سكانها ربع مليون إنسان في مجمعات سكنية بنيت على عجل ، حيث شكل الأكراد الذين جمعوا فيها جماهير واسعة من العاطلين عن العمل، بعد أن كانوا من قبل منتجين في قراهم وأرضهم التي أجبروا على تركها، والتي قامت وحدات الهندسة العسكرية بتفجيرها وهدمها ، كما وأصبحت من المناطق المحرمة التي لا يجوز التجول فيها من قبل المدنيين تحت طائلة القتل الفوري ، وفي الحقيقة لم يكن للمؤسسات التابعة للحكم الذاتي أي وجود فعلي في الدفاع عن الشعب الكردي أو مشاركته في همومه ، بل تحول القائمون عليها من بين الأكراد إلى أداة منفذة لإرادة السلطة المركزية دون اهتمام بمصالح الشعب الكردي ووجوده وثقافته . والمجلس التشريعي الأول الذي أنشأته السلطة بأن اختارت كل أعضائه من بين المتعاونين معها ، وكان يحوي عدداً من الشيوعيين ، ولد ميتاً ، وهرب عدد من أعضائه الذين كانوا يضايقون باستمرار من قبل السلطة ، تاركين عضويتهم فيه مفضلين النجاة بأنفسهم ، أما ثاني مجلس تشريعي فقد أجريت له انتخابات هي أغرب انتخابات جرت في العالم ، ولقد قاطع الشعب الكردي بصورة جذرية الانتخابات مقاطعة تكاد تكون شبه تامة ، لقد أختير المرشحون من قبل هيئات خاصة كانت تعتبر ولاء المرشح للسلطة عاملاً أساسياً وهاماً في قبول ترشيحه ، ولم يفسح المجال للمعارضة مهما كان نوعها وشدتها أن تقدم مرشحيها للانتخابات ، بل إنه كان واضحاً بأن أحداً من الذين يشك بولائه للسلطة لم يكن قادراً، أوحتى يمتلك الجرأة لترشيح نفسه للانتخابات .

لقد قوطعت الانتخابات التي جرت في منتصف عام ١٩٧٩ ،وفشلت حتى في نتائجها بحيث أن السلطة لم تستطع أن تذيع أية إحصائيات تتعلق بعدد الناخبين ونسبتهم بين المواطنين المؤهلين للإدلاء بأصواتهم في الانتخابات ، وعلى الرغم من الأساليب الملتوية القسرية التي استخدمت لإجبار المواطنين على الإدلاء بأصواتهم فلم يصل عدد الناخبين إلى أكثر من ٢٥٪ من العدد الكلي لمجموع الناخبين ، ولقد كان للجيش دور كبير في إجبار المواطنين الأكراد على المشاركة في الانتخابات ، فقد قامت الوحدات بوضع قوائم بكل القرى التي تقع ضمن مسؤولياتها قبل فترة من بدء الانتخابات ، وصدرت الأوامر إليها من القيادات العليا بجلب أبناء القرى بالعجلات العسكرية إلى مناطق الاقتراع ، وفعلاً قامت الوحدات العسكرية صباح يوم الانتخابات بتنفيذ الواجبات التي كلفت بها بهذا الخصوص ، إلّا أن قسماً كبيراً من المواطنين كانوا قد تركوا قراهم وفرّوا إلى الحقول والجبال القريبة لعدم رغبتهم في الاشتراك بالانتخابات ، كما أن قسماً كبيراً من القرى لم تستطع القوات العراقية من الوصول إليها بسبب مجابهتها بمقاومة عنيفة

من قبل الثوار الأكراد الذين بدأ نشاطهم يظهر مرة أخرى بأشكال جديدة واسعة كما ستتطرق إليه ، وكانت أكثر المناطق عصياناً هي القرى الواقعة في وديان جبل «بيرة مكرون» المطل على مدينة السليمانية وقرى منطقة «خوشناو» في قضاء «شقلاوة»، وقرى «قلعة دزه»، وغيرها من المناطق التي تعتبر مراكز مهمة لوجود البيشمركة الأكراد ، والجدير ذكره بأن الحكم الذاتي الذي أعلن في ١١ آذار ١٩٧٠ كان يشتمل على سلطتين هما التشريعية التي تنتخب بصورة دورية ،والتنفيذية التي تقسم إلى عدة إدارات ، كالزراعة والبلديات والطرق. . . الخ.

ـ لم يكن عام ١٩٧٧ ينتهي إلاّ وبدأت الأخبار تأتي من بعيد عن وقوع هجمات ضد بعض الربايا والمخافر الحدودية البعيدة على الحدود التركية في منطقة «باطوفة» في محافظة «دهوك»، حيث حوصرت بعض الربايا والمخافر من قبل بعض المسلحين وتم احتلالها وقتل جميع من فيها والاستيلاء على ما تحتويه من الأسلحة والأعتدة ، وكان ذلك إيذاناً بعودة العمل المسلح الكردي في مرحلته الجديدة ، لقد كان للكادر المتقدم في القيادة الكردية الذي لجأ إلى إيران ثم تركها إلى دول أوروبا وبعض الدول العربية الأخرى دور هام بإعادة شمل الحركة الكردية وإعادة تنظيمها ، وبدأت وجوه الثورة الكردية القديمة تظهر في سوريا تجمع عدداً من القيادات الرأسية والوسطية والمثقفين وتتهيأ للعمل المسلح مرة أخرى ، وشهد عام ١٩٧٦ حضوراً مكثفاً لتلك القيادات في دمشق ، التي بدأت تقيّم الموقف على ضوء الفشل الذي أصاب الحركة الكردية عام ١٩٧٥ ، وكانت اللقاءات والمناقشات تدور باستمرار حول الأساليب التي ستعتمد للبدء بالحركة من جديد، بعد أن أصبحت أرض كردستان مرّة أخرى صالحة كأرضية لمشروع ثورة مسلحة جديرة ، إلاّ أن وجهات النظر كانت متباعدة بين أطراف رئيسية في مراكز القيادة الكردية ، فبعض تلك القيادات كانت توجه اتهامات شديدة مرة لقيادة الزعيم الراحل الملا مصطفى البارزاني وتعتبر أسلوبه في إدارة الحركة من الأسباب التي أدت إلى مواجهة الموقف الذي أصبحت فيه عاجزة عن الحفاظ على المكاسب التي حصلت عليها ، وأهم التهم الموجهة إليه في هذا المجال هي أسلوبه العشائري وتسلطه على شؤون الثورة وقيادتها ، إضافة إلى إهماله للحزب الديموقراطي الكردستاني الذي كان يجب أن يمثل اتجاه الثورة الأساسي في العمل السياسي ، ولقد كانت الكفة تميل إلى جانب الذين انتقدوا قيادة الحركة السابقة ، ويقود هذا الاتجاه السيد جلال الطالباني ومجموعة كبيرة أخرى ، إلاّ أن الطرف الآخر لم يكن يتفرج على ما يجري فقد كان كل من «مسعود» والمرحوم «إدريس» ولدا الملا مصطفى البارزاني يقودان تياراً آخراً له أنصاره

ومؤيدوه من بين الأكراد في الخارج ـ خارج العراق وإيران ـ إضافة إلى وجود آلاف العوائل الكردية التي لجأت إلى إيران بعد فشل الثورة الكردية عام ١٩٧٥، والتي شكلت فيما بعد مُعيناً كبيراً للحزب الديموقراطي الكردستاني الذي أُعيد تشكيله بقيادة « مسعود البارزاني » ، ولقد كان تشكيل الاتحاد الوطني الكردستاني من عدة منظمات كردية بقيادة السيد جلال الطالباني أسبق على الساحة الكردية، وهو الذي بدأ في الحقيقة إطلاق الشرارة المنظمة للثورة عام ١٩٧٧، والتي بدأت تنتشر بالتدريج إلى كل أنحاء كردستان مستخدمة حرب العصابات بصورة متقنة ، ولقد تكون الاتحاد الوطني الكردستاني أساساً من نسيج من المثقفين القوميين الماركسيين والماديين الذين كانوا يحملون معهم تعاليم «ماوتسي تونغ» كمناهج أساسية في التثقيف ، وكتباً لماوتسي تونغ في الحرب الشعبية مترجمة إلى اللغة الكردية ، ولم تمضِ فترة طويلة حتى حدث انقسام جزئي في الاتحاد الوطني الكردستاني ، حيث قاد السيد «رسول مامند» ومجموعة أخرى عملية خروج جماعية وتشكيل تنظيم جديد باسم «الحركة الاشتراكية الكردية» التي تحولت فيما بعد إلى الحزب الاشتراكي الكردستاني ، كما شهدت كردستان لأول مرة ظهور تنظيمات جديدة ذات طابع شوفيني علني مما لم يكتب لها النجاح بالامتداد والتوسع ، فلقد ظهر تنظيم مسلح جديد باسم «الحزب الاشتراكي الكردي» يحمل أفكاراً مقاربة لحزب البعث ، وقد أطلق عليه الأكراد اسم «حزب البعث الكردي»، وعلى الرغم من أن أحد مبادىء الحزب عدم قبول الأكراد غير المسلمين بين صفوفه ، إلاَّ أنه سقط في متاهة الشوفينية التي جعلته محصوراً بعدد معيّن من الأفراد الذين يشكلون القيادة والقاعدة في أغلب الأحيان ، ولقد ساهم الضباط الصغار الذين تركوا الخدمة عند بدء الحركات عام ١٩٧٤ بتشكيل هذا الحزب، إلاَّ أنه إضافةٍ إلى عدم انتشاره فإنه يعاني من مشاكل داخلية عميقة ساهمت هي الأخرى بعدم اتساعه وامتداده الجماهيري ، في منتصف عام بدأت القيادة المؤقتة للحزب « الديموقراطي الكردستاني » تتحول إلى قيادة دائمية، وتشكلت اللجنة المركزية والمكتب السياسي وبدأت نشرات الحزب تظهر في كردستان، خاصة في مناطق « بادنيان » و « سيد صادق » و « ينجوين » و « سهل شهروزور » ، إلاّ أن الخلافات كانت شديدة بين الجانبين في الوقت الذي كان النظام يشجع مثل هذه الخصومات ويغذيها بكل ما أوتي من قوة ، وشهدت المناطق الحدودية معارك شديدة بين «الحزب الديموقراطي الكردستاني» و«الاتحاد الوطني الكردستاني»، ذهب خلالها العديد من الضحايا .

ـــ وما أن حل عام ١٩٨٠ حتى كانت كل كردستان العراق تغلي بالثورة والتمرد ، وبدأت فرق الفيلق الأول المتشكلة من فرق المشاة الثانية ومقرها في «كركوك»

والـرابعة ومقـرها في «الموصل»، والسـابعة ومقـرها في «السليمـانية»، والثامنة ومقـرها في «اربيل»، والحادية عشرة ومقرها في «سرسنكك»، وقوات «نهاوند» التي تعادل فرقة مشاة تقريباً من قوات شرطة الحدود وما يقرب من ١٠ ألوية احتياط، ولوائَيْ قوات خاصة مشغولة بصورة كاملة بمطاردة الثوار الأكراد ، فمنذ ما يقرب من الثلاث سنوات والنصف، ابتداءً من عام ١٩٧٧ من إعلان «حالة الحركات» في كردستان ، ودخول وحدات الفيلق الأول بحالة الإنذار المستمرة ، إضافة إلى وضع وحدات جديدة أخرى كتشكيلات من الفرقة الآلية الأولى متمثلة باللواءين الآليين الأول والسابع والعشرين بإمرة الفيلق الأول ، بعد مرور هذا الوقت أصبحت وحدات الفيلق الأول تعاني من الإرهاق الشديد نتيجة كثرة العمليات التي تقـوم بتنفيذهـا على امتداد منـطقة واسعـة تبدأ من مـدينة «زاخـو» شمال «المـوصل» على الحدود التركية ـ العراقية وحتى جنوب «خـانقين»، وإذا علمنا بـأن حدود مسؤوليـة الفيلق الأول كـانت تشمل المنـطقة الممتـدة من زاخو في الشمـال حتى مدينة كلار على طـريق «دربندي خان ـ منصورية الجبـل»، فإن الفـرقة المـدرعة السادسة، والتي يقـع مقرهـا في يعقوبة، كانت هي الأخرى مشغولة بالحركات في المنطقـة الممتدة من جنـوب ناحيـة كلار وحتى «النفط خانه» جنوب مدينـة «خانقين»، وهـذا يعني بالضبط بـأن ثلثي قوات الجيش العراقي كانت حتى بدء الحرب العراقية ـ الإيرانية مشغولة بـالعمليات ضـد الأكراد ، فمن بين ثلاث عشرة فرقة عسكرية عراقية كـانت تشكل نـظام معركـة القوات الأرضيـة للجيش العراقي، كانت ما تزيد على الثماني فرق إذا أضفنا لهـا ألويـة القوات الخـاصة التي كـانت تقودها آمرية تشكل في واقعها فرقة بحد ذاتها، يشترك منها لواءان في الحركـات هما اللواء ٣١ و٣٢ قوات خاصة ، إضافـة إلى عشرة ألـوية احتيـاط تبدأ أرقـامها من ٩٠ وتنتهي إلى ٩٩ ، فإن القسم الأعظم في الواقع من القوات الأرضية العراقية كانت منهمكة ليـلاً ونهاراً بمطاردة الثوار الأكراد الذين توسع وامتد نشاطهم ليشمـل أرض كردسـتان كلها ، ولم تكن قادرة بالفعل على وضع حد للوضع الذي استمر بالانحدار ، لم تكن كل هذه الفرق قادرة على انهاء الحركة الكردية التي لم يبلغ عدد أفراد مسلحيها ولكـل الأحزاب مجتمعـة أكثر من أربعـة آلاف مسلح بأسلحـة خفيفة وفي أكثـر الحالات متـوسطة ، وهنـا تبرز مـلاحظة جديرة بالاهتمام وهي أن القوات العراقية التي اشتركت في القتال عام ١٩٧٤ ضد الحركة الكـردية التي كـانت تمتلك في حينها إمكـانات ومـوارد كبيرة لم يكن تعـدادها يـزيـد عن نصف القوات التي استخدمت لقمع الثورة بعد اندلاعها مرةً أخرى ، فلقد قـدرت القوات الكردية التي كـانت تقاتـل السلطة عام ١٩٧٤ بحـدود (٢٥) ألف مقاتـل ، إلاّ أنها كـانت تتراجع بصورة مستمرة نحو الحدود تاركة مواضعها المهمـة ومقدمـةً الكثير من الخسـائر ، إلاّ أن العامل الرئيسي الذي كان يحمي الثورة الجديدة ويشكل سداً حامياً لها هو المحيط

الذي كانت تعيش فيه المتمثل في الشعب الكردي الذي يتعاطف معها بصورة شاملة ، إضافة إلى اتباعها أساليب متطورة وجديدة من أعمال حرب العصابات التي لم يكن ممكناً في أي حال من الأحوال أن تقف وحدات نظامية، اعتادت أن تقاتل بأساليب كلاسيكية اتجاه عدو غامض لا يمكن أن تؤمن التماس به إطلاقاً ، بل إنه هو الذي يختار الزمان والمكان الملائمين للعمل والتحرك ، ولم تكن وحدات الجيش العراقي ذات التنظيم والتسليح الكلاسيكي قادرة أبداً أن تنجز الواجبات المكلفة بها ، وحتى القوات الخاصة ووحدات المغاوير التي تشكل في كل فرقة من فرق المشاة القوات الاحتياطية[1] ، والتي نظمت وجهزت تجهيزاً خفيفاً ملائماً لحرب العصابات ودربت تدريباً خاصاً أيضاً ، هذه القوات هي الأخرى لم تكن قادرة على إنجاز مهماتها بصورة ملائمة مطلقاً ، فالجندي، مهما كان تدريبه وتسليحه،لا يمكن أن يكون رجل عصابات مطلقاً ، فرجل العصابات إنسان آخر ، وسلاحه الرئيسي ليس ما يمسكه بيده ، ليس البندقية أو المدية ، إن سلاحه الرئيسي هو العقيدة التي يدافع عنها وترتبط بمجتمعه . ورجل العصابات ينتمي إلى الشعب ، والشعب هو الذي يقدم له الحماية ، أما الجندي فهو غريب ينظر إليه في كل الأحوال نظرة المحتل ، ولأن الوحدات العراقية العاملة في كردستان والتي اشتركت في الحركات السابقة استطاعت أن تنجز بعض الانتصارات الواضحة والكبيرة بسبب تحول القتال إلى ما يشبه القتال الكلاسيكي ، فلقد كانت مواضع القوات الكردية وأماكن وجودها واضحة لا يمكن أن يحدث عليها تغيير كبير، كما أنها لا يمكن نقلها إلى أماكن أخرى بسرعة ، أما ما شهدته كردستان بعد ذلك فهو حرب من نوع آخر لم تعد الوحدات العراقية قادرة على التكيف معه مطلقاً ، وكانت الخطط والأساليب التي تضعها قيادة الفيلق الأول ـ والتي غالباً ما كان يجري تحويرها ـ غير فاعلة على الإطلاق ، فلقد ابتدع اللواء الركن إسماعيل تايه النعيمي قائد الفيلق الأول حتى منتصف عام ١٩٧٩ ما يسمى (بالأسلوب المروحي)، وفكرته الأساسية هي أنه بعد أن يتم جمع المعلومات باستمرار عن وجود مسلح في منطقة معينة في كردستان تؤشر تلك المعلومات على خرائط الاستخبارات، حيث يتم بالتدريج أخذ فكرة عن طبيعة تحرك رجال العصابات الأكراد ، اعدادهم ، تسليحهم ، اتجاهات حركتهم ، مناطق إيوائهم ، يتم بعدها اتخاذ القرار بالقيام بعمليات محاصرة للمنطقة المشار إليها وبعدة مراحل وعمليات ، يتم أولاً تقدم وحدات مشاة ليلاً باتجاه القمم المحيطة بالمنطقة المراد حصرها وتفتيشها، والتي سبق أن تمّ تأشيرها على الخرائط ، بحيث تحتل تلك الوحدات أهدافها قبل الضياء الأول ، يتم

(١) تضم كل فرقة من فرق المشاة العراقية ٨ ـ ١٠ سرايا مغاوير .

بعدها نقل وحدات القوات الخاصة أو وحدات المشاة بالطائرات السمتية إلى مناطق تؤمنها نفس الوحدات التي كانت قد أمسكت المناطق المسيطرعليها،وبنفس الوقت يتم غلق المنافذ والمضائق التي تؤدي إلى المنطقة المراد تنفيذ الواجب فيها ، وحالما يتم إنزال القوات إلى الأرض يجري تفتيش المنطقة بحثاً عن رجال العصابات وبإسناد الطائرات السمتية المسلحة ، بحيث يُخصص لكل وحدة من الوحدات قاطع معين من المنطقة لتفتيشها وتنظيفها ، ولقد اعتقد اللواء الركن إسماعيل تايه النعيمي قائد الفيلق الأول بأنه سوف يحقق المعجزة التي عجز قبله كل القادة عن تحقيقها ، ولكن هذا الأسلوب واجه هو الآخر فشلاً ذريعاً ، إذ لم تتمكن الوحدات التي كانت غالباً ما تزيد على فرقة مشاة أن تفشل أو تلقي القبض على رجل عصابات واحد ، لقد كانت الطائرات السمتية تقوم بعمليات نقل وإسناد ناري واسع وكبير ، مما سبب إجهاداً كبيراً للطيارين الذين بدأوا يتذمرون من كثرة الواجبات التي ينفذونها ، حيث كان يتوجب عليهم باستمرار تنفيذ نفس الواجبات وبنفس الأساليب التي أصبحت تسبب لهم مللاً كبيراً بسبب فشل كل العمليات في الحصول على أية نتائج ، كما أنهم غالباً ما كانوا يخطئون أهدافهم فيقومون بالرمي على القطعات التي كانت تشترك في العمليات ، لقد أجاد الثوار الأكراد أساليب حرب العصابات إجادة تامة ، وكان أهم مبادىء هذه الحرب المتمثلة بالتمركز في زمان ومكان معيّن للقيام بعمليات سريعة مباغتة ثم التفرق بسرعة ، وكان عملها المتقن هذا يدعو إلى الإعجاب . إن كل حروب العصابات التي شهدها العالم الثالث طبقت تقريباً نفس الأساليب وتوصلت إلى نتائج متماثلة على وجه العموم ، «لقد تجمع أكبر أسطول من الهليكوبترات في التاريخ ـ ثمان وسبعون طائرة هليكوبتر مسلحة بالصواريخ والرشاشات ، وألف من مشاة الاقتحام ـ فوق قطاع « بن كات » الذي يسيطر عليه الشيوعيون ، وكان يدعم هذا الأسطول أربعة آلاف من القوات الخاصة (رانجرز) والمجموعات المضادة لحرب العصابات ، وكان على هذه القوات أن تحاصر أكبر قوة من الثوار الفيتناميين ، تضم ١٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ رجل ، كانوا قد هزموا قبل أسبوعين أربع كتائب حكومية في كمين تام الاحكام»[١] ، لكن كل هذه القوات لم تستطع أن تفعل شيئاً لأن الثوار كانوا قد غادروا المنطقة قبل شروع العمليات . ولقد كان الجيش العراقي يحشد في عمليات كثيرة مماثلة سواء من حيث عدد الطائرات السمتية، أو من حيث عدد القوات المكلفة بمطاردة المقاتلين الأكراد ، ولم تؤد في غالبها في الحصول على أي شيء ، وفي أحيان نادرة جداً إلى أسر واحد أو اثنين من الثوار الأكراد ، وفي الحقيقة لم تكن

---

(١) حرب المستضعفين ـ روبرت تابر، ص ٧.

العمليات الواسعة تؤدي إلى أية نتائج تذكر ، بل إن العمليات الصغيرة المتمثلة بالكمائن المختارة بصورة جيدة،والغارات التي تشن بسرية مشاة أو سريتين، كانت تؤدي إلى نتائج تفوق كثيراً النتائج التي تنتهي إليها العمليات الواسعة ، لأنها أساليب تشابه الأساليب التي كان يستخدمها الثوار ، ولقد كانت الكمائن التي تنصبها الوحدات في أماكن مختارة، تشكل على الرغم من صغر حجمها أكثر العمليات تأثيراً على حرية تنقل الثوار ، وعندما لم تعد أساليب العمليات الواسعة تجدي نفعاً،إضافة إلى تكاليفها المرهقة والأخطاء القاتلة التي كانت تؤدي إليها بسبب سوء التخطيط والتنفيذ في آن واحد ، استعيض عنها بأسلوب جديد آخر يمكن اعتباره مكملاً لها وهو إخراج مجموعات خفيفة من القوات تتسلل إلى المناطق التي يحتمل تردد الثوار عليها،فتقوم بنصب الكمائن أو القيام بالدوريات والغارات على بعض القرى الكائنة بالعمق ، وهذه أيضاً لم يثبت جدواها ، بل إن هذه القوة الصغيرة غالباً ما كانت تقع فريسة سهلة للكمائن المضادة ، مما سيتطلب بذل جهود مضنية لإنقاذها بعد أن تصاب بخسائر كبيرة ، ولم يكن خافياً على القيادات الميدانية عقم الأساليب المتبعة والانهاك المتواصل الذي بدأت الوحدات تصاب به ، لذا فإنه كان يستفاد من الموالين من الأكراد ، حيث تشكل منهم مفارز خاصة يقودها بعض الضباط الأكراد الموالين للسلطة ، وكانت ترتبط بصورة مباشرة بمديرية الاستخبارات العسكرية أو المخابرات العامة ، إلّا أن هؤلاء لم يكونوا نافعين أيضاً ، وكانوا يفرون عند أول تماس مع رجال العصابات الذين كانوا يظهرون قساوة كبيرة اتجاههم باعتبارهم خونة ، بل إن هؤلاء غالباً ما كانوا يتصرفون بالطريقة التي تؤدي إلى عدم تحقيق التماس مع رجال العصابات ، وفي بعض الأحيان كان بعضهم يهرب مع سلاحه إلى جانب رجال العصابات فيقدمون لهم دعماً لا بأس به .

ـ عانت الوحدات التي عملت في كردستان العراق من مشاكل كثيرة وعديدة، كان لها أثرٌ كبير على معنوياتها. وقد بدا ذلكُ واضحاً خلال الحرب، بعد أن انتقلت هذه الوحدات إلى القتال على الجبهات ضد القوات الإيرانية ، ولم يكن خافياً على الإطلاق بأن تشكيلات الفيلق الأول التي سحب معظمها من قاطع عمليات الفيلق في كردستان لتشترك في العمليات الهجومية والدفاعية في قاطعي العمليات الأوسط والجنوبي تعاني من مشاكل كثيرة يعتبر بعضها قاتلاً ومن هذه المشاكل :

أ ـ **ضعف التدريب** : فبسبب انشغالها لفترة طويلة بالعمليات المضادة لحرب العصابات لم يترك لها المجال والوقت لإجراء وتنفيذ التدريب بصورة صحيحة وكاملة على الإطلاق ، بل إن قسماً من التشكيلات عندما كانت تجري تدريباتها القليلة فإنها

كانت تخصص قوّة خاصة لحماية منطقة التدريب التي ينتشر على أطرافها رجال العصابات من الثوار الأكراد ، ولم تتمكن كثير من الألوية الفعّالة من تنفيذ تمارين على مستوى لواء بالهجوم أو الدفاع سوى مرة واحدة فقط طيلة مدة وجودها في كردستان ، وكان ذلك في الفترة التي سبقت الحرب بأشهر معدودة ، ولم تكن نتائج تلك التمارين مشجعة على الاطلاق، فلم يكن تعاون القوة الجوية مع القوات الأرضية ملموساً على الإطلاق ، كما وأن تعاون المشاة مع الدروع كان مليئاً بالأخطاء ، ولم يظهر دور المدفعية واضحاً وفعّالاً حيث لم يتم استخدام نيران الاسناد الساترة أثناء الهجوم حسب السياقات المعروفة ، وفي الوقت الذي لم تكن فيه الوحدات ، على مستوى الكتائب والأفواج ، قادرة على إنجاز التدريبات الأساسية لوحداتها الفرعية (السرايا والفصائل) ، انتقلت التشكيلات إلى تنفيذ تمارين بالهجوم المدبَّر الذي جاء مليئاً بالأخطاء والنواقص التي لم تكن القيادة توليها أي اهتمام ، بل إن قادة الفرق كانوا يرفعون تقارير كاذبة إلى المراجع العليا تتضمن معلومات لا تتطابق مع الواقع العملي المؤلم ، معلنين بأن تشكيلاتهم قد أكملت استعدادها لأي واجب مقبل قد تكلف به ، مستهينين بأرواح الآلاف من الجنود وضباط الصف والضباط الذين يقودونهم إلى معاركِ لم يكونوا مؤهلين لخوضها .

ب ـ **ضعف الروح المعنوية** : كان لامتداد حرب العصابات في كردستان العراق لفترة طويلة أثر بالغ على الروح المعنوية للجنود وضباط الصف والضباط ، وقد كان لعامل الملل الذي سببته العمليات المتكررة في مناطق وعرة وتحت ظروف جوية قاسية ، إضافة إلى عدم تجهيز القوات العاملة في الشمال بتجهيزات ملائمة للعمل في المناطق الشديدة البرودة عامل مهم أيضاً في التأثير على المعنويات . ولم يكن ممكناً في الحقيقة إدامة العمليات في منطقة كردستان لأكثر من يومين كحد أعلى ، خاصة في موسم الشتاء حيث تتساقط الثلوج بغزارة ، ولم تكن القوات مزودة بالخبرة الكافية لتوقي تأثير البرد الشديد أثناء تنفيذ العمليات ، كما أن الشعور السائد لدى منتسبي القوات العاملة في كردستان بأنهم من المغضوب عليهم،وأن وجودهم المستمر في تلك المناطق النائية ذات الطبيعة القاسية يشكل في حقيقته نوعاً من الإبعاد والعقوبة ، إضافة إلى أن بقاء الوحدات فترات طويلة في حالة الانذار كان يؤدي في أحيان كثيرة إلى تأخير تمتع الضباط والمراتب بالإجازات الدورية، التي كانت تمنح لهم في الظروف الاعتيادية بعد مرور مدة لا تقل عن شهر يقضيها العسكري في وحدته التي تبعد عن أهله مسافات بعيدة تصل إلى (١٠٠٠) كلم ، حيث يمنح العسكري بعدها إجازة لا تتجاوز الأسبوع،يقضي قسماً منهم يومين في الطريق كي يصل إلى منطقته في أقصى جنوب الأهوار .

جـ ـ نقص الملاكات : عانت وحدات الفيلق الأول من نقص شديد في ملاكاتها ، خاصة في الكوادر الفنية وشبه الفنية ، فلقد أدى التوسع الذي حصل في الجيش العراقي ،بتشكيل فرق جديدة كالفرقة المشاة الحادية عشرة ،والفرقة المدرعة التاسعة ، إضافة إلى فرقتي المشاة السابعة والثامنة إلى امتصاص قسم كبير من الكوادر الفنية ، ولم يكن ممكناً بالنسبة لأكثر وحدات الفيلق الأول الفعّالة أن تستصحب معها كل عجلاتها خاصة عجلات القتال[1] ، مما كان يضطرها لاستخدام سواق لم يكونوا أساساً ضمن ملاك هذه الوحدات كسائقي عجلات لتشغيلها ، كما استخدم عدد كبير من الضباط كسائقي عجلات أيضاً لضمان إيصالها إلى الجبهات في الوسط والجنوب ، كما يندر وجود برادي الأسلحة والعجلات في الوحدات ، مما سبب وجود عدد كبير من العجلات والأسلحة التي تحتاج إلى تصليح من « قدمات » مختلفة ، مما جعل الوحدات تحرم من الاستفادة منها أثناء العمليات ، ولم يكن « موجود الوحدات » كاملاً، بحيث إن « موجود » فصائل المشاة كان في واقعه لا يتعدىٰ «موجود» حظيرة مشاة في أي حال من الأحوال .

د ـ ضعف القيادة الميدانية : كان قادة وآمرو فرق وتشكيلات الفيلق الأول ، والتي في حقيقتها لا تختلف عن باقي فرق وتشكيلات الفيالق الأخرى إلاّ قليلاً ، يعانون من ضعف واضح في القيادة ، خاصة قادة الفرق الذين منح أغلبهم رتباًفخرية،وسلموا قيادات بعض الفرق،كقيادة الفرقة الثامنة التي كان يقودها العقيد الركن عبدالرحيم طه الأحمد الذي أصبح عميداً ، وقيادة فرقة المشاة السابعة التي كان يقودها العقيد الركن نزار الخزرجي[2] الذي أصبح هو الآخر عميداً ، وهؤلاء معروفون في أوساط كل الضباط بكونهم غير قادرين على قيادة لواء مشاة ، إضافة إلى قائد فرقة المشاة الحادية عشرة الذي منح رتبة أعلى ، كما أن تدريب القيادات على كافة المستويات لم يكن بالمستوى المطلوب المرضي إطلاقاً ، وخلاصة القول بأن القادة لم يكونوا بالمستوى الذي يؤهلهم لأن يقودوا فرقاً وتشكيلات في حرب نظامية ويخطط بهذا القدر من السعة بسبب عدم تيسر التجربة اللازمة لديهم والثقافة العسكرية التي تعينهم على إدارة المعارك .

ـ بلغ التعاون بين القوات المسلحة العراقية والإيرانية بعد الاتفاق بين الحكومتين العراقية والإيرانية عام ١٩٧٥ أعلى مراحله ، فقد كان أحد بنود الاتفاق ينص على عدم السماح بأن تكون أراضي كل بلد قواعد لانطلاق أعمال التخريب ضد البلد الآخر . وبالفعل فقد كان تبادل ضباط الارتباط يجري بصورة اعتيادية ، حيث يقوم هؤلاء

---

(١) وهي العجلات التي تستخدم في القيادة وحمل الأسلحة المتوسطة .

(٢) عيّن مؤخراً رئيساً لأركان القوات المسلحة العراقية .

بالإشراف على مسير تنفيذ الاتفاق بالصورة المطلوبة . إلاّ أن أعلى مراحل التنسيق قد تم أوائل عام ١٩٧٩ قبيل انتصار الثورة الإسلامية،عندما تقرر إجراء عمليات واسعة ضد الثوار الأكراد الذين بدأ نشاطهم يتسع ويشتد ، حيث كانوا يتخذون من المناطق الحدودية داخل إيران والعراق مقرات لهم في مناطق وعرة جداً ، وكانت منطقة جبل قنديل الذي يمتد مع الحدود العراقية ـ الإيرانية ابتداءً من جنوب «حاج عمران» وحتى منطقة «قلعة دزه»، حيث تتخلله وديان سحيقة ومناطق وعرة يصعب الوصول إليها ، لذا فإن رئاستي الأركان لكل من الجيشين العراقي والإيراني كانت قد نسّقت عمليات واسعة في منطقة تمتد من « حلبجه» وحتى «حاج عمران» شاملة تقريباً الجزء الأكبر من محافظتي السليمانية وأربيل بمحاذاة الحدود ، لغرض السيطرة على مقرات الاتحاد الوطني الكردستاني ، إضافة إلى تطهير المنطقة كلها من الثوار الأكراد ، وكانت الأجهزة اللاسلكية تعمل بصورة مباشرة بين رئاستي أركان كل من الجيشين بتنسيق تام واهتمام مشترك،إلاّ أن العمليات لم تكن تهتم بأحد المبادىء الرئيسية من مبادىء الحرب ألا وهو عامل الأمن ، حيث بدأت ألوية الفيلق الأول الذي كان يقوده اللواء الركن « وليد محمود سيرت»[1] ، تتحشد في مناطق قريبة من ساحة العمليات التي سيجري العمل فيها،وظلّت تنظر لمدة عشرة أيام ، ولم يكن أحد يعلم أسباب هذاالانتظار، في الوقت الذي ظلّت الظروف الجوية ملائمة بصورة يندر أن تحدث في تلك المنطقة وفي فصل الشتاء بالذات ، وما إن بدأت العمليات حتى تغيرت الظروف الجوية بصورة كاملة ، فبعد أن كانت الأجواء ملائمة ومثالية ، حيث استمرت السماء صافية رائعة لمدة عشرة أيام ، اجتاحت المنطقة عاصفة ثلجية شديدة ، وانخفضت درجات الحرارة إلى أدنىٰ مستوىً لها،حيث وصلت إلى ما يقارب الـ (٢٥) درجة تحت الصفر ، وبينما كانت الوحدات تتوجه إلى أهدافها ، كانت المشكلة الجديدة التي واجهت الآمرين هي كيفية المحافظة على الجنود في مثل تلك الظروف الصعبة التي لا يمكن تحملها ، فلقد كانت شدة الرياح تحمل معها كتلاً كبيرة من الثلج ترميها إلى مسافات بعيدة أحدثت إرباكاً شديداً بين الجنود، إضافة إلى البرد الذي لا يمكن تحمله ، ولقد تمّ إلغاء العمليات بصورة سريعة ، وصدرت الأوامر للوحدات بالإنسحاب إلى معسكراتها، ولكن بعد أن تكبدت أعداداً من القتلى الذين طمرتهم العواصف الثلجية، ولم يعثر عليهم إلاّ بعد انتهاء فصل الشتاء وذوبان الثلوج ، كما أن قسماً من الجنود والضباط

---

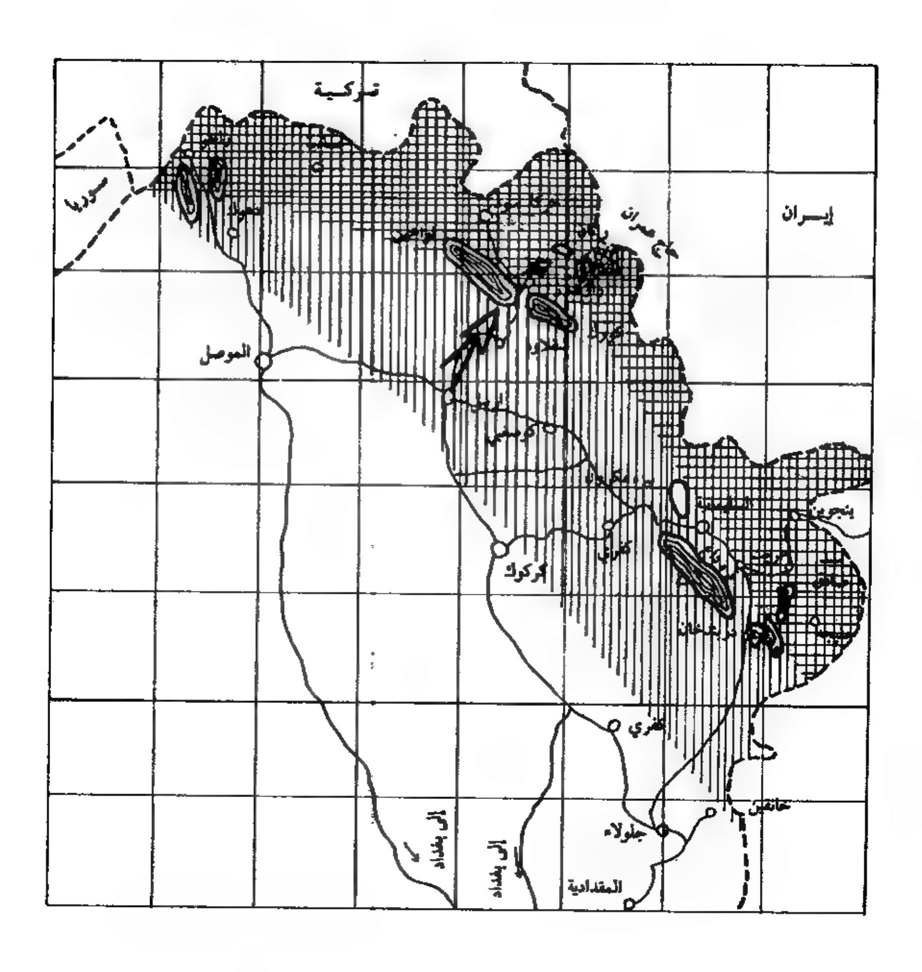
(١) أُعدم فيما بعد في تموز يوليو ١٩٧٩ بتهمة اشتراكه في محاولة لإقصاء صدام عن رئاسة الحزب والدولة .

تجمدت بعض أطرافهم ، وكانت هذه آخر عملية تعاون بين الجيش العراقي والإيراني حيث تصاعدت الثورة الإسلامية في إيران وأصبح الجيش الإيراني في حينها في وضع لم يعد قادراً على إدامة التعاون بسبب الأوضاع الجديدة التي خلفتها الثورة عليه .

ـ من المفيد التحدث هنا عن المحاولات التي جرت بين بعض أطراف الحركة الكردية المسلحة للتفاوض مع السلطة ، ففي بداية عام ١٩٧٩ حدث اتصال بين الحركة الاشتراكية الكردستانية والسلطة لغرض التفاوض ، ولكنه لم يكن مثمراً ، إلاّ أنه ولّد خلافاً بين الحركة والاتحاد الوطني الكردستاني ،وكانت آثاره تظهر في البيانات التي كان يوزعها الطرفان التي يتهم فيها كل طرف الطرف الآخر بالتخاذل أو . . . ، ويقوم الآخر بالدفاع عن نفسه مفترضاً بأن التفاوض ليس شيئاً رديئاً ، إلاّ أنني أود أن أشير هنا إلى المحاولة الأولى التي قام بها الاتحاد الوطني الكردستاني للتفاوض مع السلطة عام ١٩٧٨ ، فقد قام الشيخ « محمد رشيد لولان » الذي كان يتظاهر بأنه مع السلطة بترتيب مفاوضات بين الاتحاد الوطني الكردستاني والحكومة ، وقد وصلت أخبار الاتصالات التي يبدو أنها كانت مستمرة لفترة قبل أن تصبح واضحة للعيان ، ففي أحد الأيام وردت معلومات تشير إلى أن عدداً من المسلحين الذين يتراوح عددهم بين ٥٠٠ ـ ٦٠٠ مسلح في منطقة لولان الواقعة عند المثلث العراقي ـ الإيراني ـ التركي ويقودهم « علي العسكري » أحد قادة الاتحاد الوطني الكردستاني البارزين ينوون التفاوض مع السلطة ، وكان « رشيد لولان » يتحرك بين بغداد وكركوك واربيل وقريته لولان، حيث يجري تجميع خيوط الاتصالات وجمعها ، وبالفعل فقد تحركت طائرة سمتيّة من كركوك إلى أربيل ومنها إلى منطقة لولان عادت وهي تحمل السيد «علي العسكري» الذي تقرر نقله إلى بغداد كي يلتقي مع المسؤولين هناك للتفاوض معهم لوقف القتال والاتفاق على صيغة معينة ترضي الطرفين ، ولقد كنت شخصياً في كركوك ضمن من كان ينتظر وصول الطائرة لتحط في مقر الفيلق الأول ، وعند هبوط الطائرة نزل السيد « علي العسكري » وجلسنا معاً نتحدث قليلاً ،بعد أن أمكن أن تتاح لي فرصة التحدث معه لوحدنا قبل أن يذهب إلى بغداد ، لقد كان هادئاً متواضعاً مؤدباً للغاية ، لكن الحيوية كانت تبدو عليه رغم الاجهاد الذي سببه له المسير الشاق من قاطع « قلعة دزه » إلى « لولان » وسط الثلوج الذي يستغرق ما لا يقل عن يومين متواصلين ، ولقد كان متفائلاً بأن الأمور ستسير على خير ، وكان حديثه معي مليئاً بالصداقة وكأنه كان يعرفني منذ وقت ليس بقصير ، تمنيت له التوفيق في مهمته وتم توديعه إلى الطائرة التي أقلته إلى بغداد ، ولم يمضِ يومان إلاّ وعاد بعد أن علمنا بأن المفاوضات التي أجريت معه كانت قصيرة ، وأنه لم يتم بحث كل الأمور التي طرحت للنقاش ، كما أن الحديث الذي دار بينه وبين المسؤولين في بغداد

كانت تعوزه الجدية والصدق ، ولقد قابلته مرة أخرى حينما ودعناه وقد أبدىٰ أسفه بأننا ربما سنتقابل يوماً ما ونحن نحمل السلاح كأعداء ، بينما كان ممكناً أن يحدث غير ذلك ، وبعد أشهر قليلة علمت بأنه قد قتل في الأراضي التركية . لقد أسفت بالفعل لمقتله لأنه قد ترك في نفسي أثراً طيباً ، من دماثة خلقه وصراحته وشجاعته ، لقد تبيّن فيما بعد بأن المفاوضات التي جرت في بغداد لم يشترك فيها سوى نعيم حداد الذي كان في حينها رئيساً لما يسمى بالمجلس الوطني ، ولم تكن السلطة تعير اهتماماً جدياً للمفاوضات التي لم تستمر سوىٰ ساعات معدودة ، لقد فوت غرور صدام وعجرفته فرصة ملائمة للاتفاق مع الحركة الكردية المسلحة التي يقف قسم كبير من الشعب الكردي معها . لا أُريد أن أتحدث عن المفاوضات التي تمّت بين بعض الأطراف الكردية في المراحل اللاحقة ،لأن أمرها معروف جيداً، وكانت مثار جدال كثير وانتهت إلى ما انتهت إليه ، إلاّ أنني أحب أن أؤكد بأن التجارب قد علمتنا بأن صدام لم يكن يوماً من الأيام قد وفىٰ بأي التزام وقعه مع الأطراف . التي كان يتفق معها . وأنه في الوقت الذي كان يوقع فيه معها اتفاقاً معيناً كان يخطط فوراً لمرحلة لاحقة لتدميرها ، ولقد خرجت كل الحركات والأحزاب التي عقدت معه تحالفات جبهوية خاسرة .

تعتبر المشكلة الطائفية التي تحدث في واقعها شرخاً كبيراً بين العرب في العراق، مع المشكلة الكردية التي تقسم الشعب العراقي وتحطم وحدته من المشاكل التي يقتضي الوقوف عندها ملياً ، وبحثها جدياً وبصدق لإيجاد حلول ملائمة لها، وهذا الأمر ليس صعب التحقيق عند توفر النوايا الحسنة والاستعداد المطلوب للتعامل معها ـ المشكلة الكردية ـ وما دمنا بصدد البحث في المشكلة الكردية، فإن الشعب الكردي شعب طيب يلتصق بالإسلام التصاقاً غريزياً فطرياً، على الرغم من الأفكار الغريبة عن الإسلام، والتي مارست ضغطها عليه فترات طويلة من الزمن ، فالتزام الشعب الكردي التزام أصيل بالإسلام لا يمكن لأحد أن ينكره ، بل إن كل القوى الكردية والأحزاب التي تعمل في كردستان وتحمل السلاح وتقاتل الأنظمة التي توالت على الحكم ، كل هذه القوى لا تنكر تأثير الدين الإسلامي على الأكراد ، وهم يعلنون بأن الإسلام يمكن أن يكون الإطار الملائم لإيجاد حل مناسب للمشكلة الكردية إذا طبق بصورة صحيحة ، إلاّ أن المستقبل وحده هو الذي سيحدد معالم القوى الاجتماعية الفاعلة في كردستان العراق، والتي يمكن أن تؤدي إلى إشاعة الأمن وروح الألفة بين إخوة الدين والمصير ، بعد أن تتم إزالة كل العوامل والأساليب البغيضة التي اتبعتها السلطات لتعميق روح التباغض والعداء ، علماً بأن ساحة كردستان العراق بدأت تشهد ظهور حركة إسلامية واسعة، بدا تأثيرها واضحاً أثناء حملة الإضرابات والاعتصامات التي عمّت منطقة «حلجه» وسهل «شهرزور» عام ١٩٨٥ .



مناطق شبه مسيطر عليها من قبل الأكراد

منطقة مسيطر عليها بصورة تامة

مقر قيادة الحركة الكردية

محور هجوم الجيش العراقي الرئيسي

الفصل الخامس

الطائفية في القوات المسلحة العراقية

١ ـ من أهم المعضلات والآفات التي تنخر في روح وعزيمة القوات المسلحة العراقية وركائزها الأساسية ، الطائفية ، فهي تمارس في الجيش بصورة تكاد تكون علنية ، ولا يحتاج إلى جهد كبير لمعرفة المدى الذي وصل إليه التمييز الطائفي داخل القوات المسلحة ، فلقد ظلّت القيادات الرئيسية داخل القوات المسلحة دوماً بعيدة عن أيدي الضباط الشيعة في كل العهود ، كرئاسة أركان الجيش وقيادات الفرق والألوية الرئيسية والمناصب الهامة في وزارة الدفاع ، إلاّ نادراً ، وهو ما يمكن أن نسميه التفاتات قامت بها مراكز القرار في الدولة ، كانت أساساً بحاجة إليها ، كي تزيل ولو جزءاً بسيطاً من التهم الموجهة لها ، وهي مكرهة على ذلك . ويشكل الشيعة في الجيش العراقي نسبة كبيرة تصل إلى ما لا يقل عن ٨٥٪ من مجموع الوحدات الفعّالة العاملة ، لأن أبناء طائفة السنة،وبسبب كون السلطة وقيادتها الرئيسية تقع بأيديهم ، كانوا يستخدمون دوماً في أماكن بعيدة عن خط القتال ، ونستطيع أن نرى وجودهم الكثيف في مواقع معينة داخل المؤسسة العسكرية بصورة واضحة ، بل إن بعض المديريات والأماكن حكر عليهم بصورة مطلقة ، فهم يستخدمون في دائرة الانضباط العسكري في بغداد،ومديرية الاستخبارات العسكرية ودوائر المخابرات العامة ، والحمايات المخصصة للمنشآت الثابتة، كمحطات الإرسال الخاصة بالإذاعة والتلفزيون،ودوائر وزارة الدفاع،أو الوحدات الثابتة في بغداد، أو بالقرب من مناطق سكناهم ، كما أن الملحقيات العسكرية في الخارج تعج بالجنود من أهل السنة من «تكريت» و«الدور» و«الشرقاط» و«راوه» و«عنه» وغيرها من المناطق التي يقطنها السنة ، وهؤلاء إضافة إلى كونهم يقضون خدمتهم وكأنهم في رحلة سياحية أو سفرة استجمام ، فإنهم يعودون بسيارات ضخمة وأحدث الأثاث ، لأن القانون يعطي الحق لكل عراقي يقضي أكثر من سنة خارج العراق،لأسباب دراسية أو قضاء مهمة

وظيفية ، يعطيه الحق بأن يجلب معه السيارة التي يختارها مع أثاث بيت كامل ، وكان هؤلاء يستلمون رواتبهم بالعملة الصعبة ، بل إنهم عندما كانوا يضجرون مثلاً من بقائهم في عاصمة دولة معينة لمدة طويلة ، فإنهم يطلبون نقلهم إلى عواصم أخرى أكثر جمالاً وأرق جواً ، بينما يقضي أبناء الجنوب سني خدمتهم في مناطق نائية من كردستان، أو في الحركات والقتال يحرقون في أتون المعارك التي كانت تندلع على امتداد الفترة، منذ ١٤ تموز ١٩٥٨ وحتى الآن ، وقد وصلت ملاكات قسم من الوحدات ، خاصة تلك العاملة في مناطق الحركات ، من المراتب والجنود إلى ١٠٠٪ من بين الشيعة دلالة على فداحة الظلم الذي كان يلحق بهم .

ـ يلاقي الضباط الشيعة في القوات المسلحة معاملة سيئة من قبل القيادات العسكرية الرئيسية وبصورة منظمة ، وهم على قلتهم فهم لا يشكلون بأي حال من الأحوال نسبة تزيد على ٢٠٪ من مجموع ضباط الجيش العراقي ، وهم يعملون دوماً في وحدات بعيدة عن أهلهم، وفي مناطق الحركات التي تستقر فيها وحدات معينة لا يجري استبدالها بوحدات أخرى مطلقاً ، فوحدات الفيلق الأول الذي تشمل قاطع مسؤوليته منطقة كردستان العراق كلها، يشكل الضباط الشيعة فيها نسبة لا تقل عن ٥٠ ـ ٦٠٪ من موجودها ، وهذا يوضح ضخامة الاجحاف والظلم الذي يوجه ضد الضباط الشيعة ، وخاصة إذا علمنا بأن القيادة العسكرية قد وضعت ضوابط لنقل الضباط من وحدات الفيلق الأول ، منها أن الضابط لا يحق له طلب النقل من وحدته في شمال العراق قبل أن يمضي أكثر من خمس سنوات متصلة من الخدمة في الشمال . إلاّ أن الضابط الشيعي الذي يقضي الخدمة المطلوبة في هذه الوحدات فإنه يحصل على نقل إلى إحدى الوحدات القريبة من أهله بعد شق الأنفس ، وبعد أن يمضي فترة لا تزيد على السنة أو السنة والنصف ، يعاد نقله إلى وحدات الفيلق الأول مرةً أخرى، حيث يتوجب عليه أن يقضي مدة خمس سنوات متواصلة أخرى في هذه الوحدات، كي يحق له أن يطلب نقله إلى وحدات قريبة من أهله مرة أخرى ، بينما نرى في الجانب الآخر من الصورة، فإن الضابط من أهالي «تكريت» أو «الدور» أو «الرمادي» يجري نقله دون أن يقضي مدة سنة في وحدات ذلك الفيلق، خلافاً للتعليمات التي تصدر بحق الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة . وتشكل الأسماء التي يُسمي الضباط الشيعة بها أنفسهم عائقاً مهماً أمامهم في الجيش العراقي ، وتشكل في حالات كثيرة عاملاً من عوامل المضايقة والإزعاج بالنسبة لهم ، ونظراً لأن أسماء مثل عبدالحسين وعبدالحسن وعبدالرضا وعبدالكاظم وعبد الزهرة ، أسماء متداولة كثيراً بين الشيعة ولا يستخدمها غيرهم ، فإن تلك الأسماء كانت غالباً ما تجلب المشاكل لحامليها من الضباط . ففي إحدى الحالات لم يستطع أحد

الضباط أن يجتاز كلية الأركان بنجاح لأن اسم أبيه كان عبد الرضا ، حيث كان المعلم الأقدم لدورته في كلية الأركان ضابطاً سنياً متعصباً ، وهو العميد الركن عبدالقادر زينل التحافي ، الذي كان يتعمد الإساءة إليه وعدم منحه الفرصة الملائمة كي يجتاز الامتحانات بإطمئنان بكثرة الإلحاح عليه بمطالبته بأشياءتافهة،ومحاسبته عليها، مما لم يكن يطالب التلاميذ الآخرين بها ، وكانوا ممن وقفوا ضده عندما جرى البحث والمناقشة النهائية حول الضباط الذين تقرر استمرارهم في الدراسة بكلية الأركان حتى نهاية الفصل الثاني فيها ، وكان بعض الضباط السنة يطلقون على العميد الركن عبد الزهرة شكارة المالكي اسم (عبد المرأة)، استخفافاً به ، على الرغم من كونه من الضباط الجيدين المعروفين بين أوساط الجيش العراقي .

- تشكل مسألة القبول في الكلية العسكرية مظهراً آخر من مظاهر الطائفية في الجيش العراقي ، فإن نسبة التلاميذ الشيعة الذين يقبلون فيها لم تكن تزيد في أي وقت من الأوقات عن ٢٠٪ من مجموع التلاميذ الذين يقبلون في كل دورة من دوراتها ، ولم تستثنَ هذه القاعدة إلاّ نادراً ، فقد شهدت الفترة التي تلت سقوط العهد الملكي ،ومجيء عبدالكريم قاسم تغييراً ملحوظاً في هذه المعادلة التي لم تدم إلاّ قليلاً ، فما إن جاءت سلطة ٨ شباط ١٩٦٣ ومابعدها،حتى عادت الأمور إلى ما كانت عليه أو أسوأ منها ، وفي مسح أجري للدورتين ٤٤ و٤٥ من الكلية العسكرية في عهد الأخوين عارف ، كانت الخارطة الاجتماعية للدورتين كما يلي : ٢٠٪ من التلاميذ من الشيعة من مختلف المحافظات ، ٤٥٪ من الموصل ، ١٥٪ من الرمادي ، ١٠٪ من محافظة بغداد من مناطق السنة ، ١٠٪ أكراد ومسيحيين ويزيديين وتركمان ، ولم يكن ذلك يتناسب مع حجم أبناء الطائفة الشيعية التي تشكل في مجموعها أكثر من ٦٠٪ من سكان العراق ، وفي مسح للدورتين ٥٧ ، ٥٨ في حكم حزب البعث العراقي ، كانت النسبة مقاربة إلى النسبة التي كان يتم القبول على ضوئها في عهد الأخوين عارف ، مما يدل على أن التصميم الأساسي لبناء القوات المسلحة متفق عليه ضمناً بين من تعاقبوا على الحكم على الرغم من اختلاف مشاربهم وأهوائهم . ولم يكن القبول في كلية الأركان يشذ عن مخطط مرسوم مسبقاً معد باتقان ، خاصة وأن كلية الأركان تخرج ضباطاً مؤهلين لأن يتسلموا مراكز قيادة داخل القوات المسلحة ، وبسبب هذه الخصوصية فإن التشديد على القبول فيها يأخذ مدىً كبيراً ، لأن مركز التقرير في السلطة حريص على إبقاء أكثر ما يمكن من مفاصل الحركة الأساسية والرئيسية داخل الجيش في أيدي أبناء الطائفة السنية، على اعتبار أن الجيش هو القوة الوحيدة القادرة على ضبط المعادلة الأساسية لإدارة الحكم والدولة ، والذي يجب أن يظل دوماً بعيداً عن أيدي الشيعة ، فلم يشهد منصب

رئيس أركان الجيش العراقي تحولاً عن أيدي الضباط السنة مطلقاً ، ففي الوقت الذي شغل هذا المنصب ضباط من الأكراد، مثل نور الدين محمود، ومن الأتراك مثل حسين فوزي ورفيق عارف وغازي الداغستاني وغيرهم كثيرون ، لم نشهد مطلقاً وخلال تاريخ الجيش العراقي كله أن ضابطاً شيعياً استلم منصب قيادة الأركان العامة للجيش ، على الرغم من وجود أعداد كبيرة من بين الضباط الشيعة ممن يتمتعون بذكاء وخبرة وثقافة عسكرية تفوق ما يملكه غيرهم ممن استلموا هذا المنصب .

ـ وفي الحرب، حيث شهدت الطائفية نمواً كبيراً، فرضته ظروف محلية جديدة ، تحمّل الشيعة من ويلاتها ما لم تتحمل بقية الطوائف جزءاً يسيراً منه . فلقد رفض الأكراد الخدمة في الوحدات العاملة في الجبهة، وكانوا يفرون من الخدمة بأعداد كبيرة مما شكل خطراً ذا اتجاهين ، الاتجاه الأول هو خوف النظام من أن يتحول هؤلاء الهاربون إلى قوة إضافية للحركة الكردية المسلحة، التي تشن قتالاً واسعاً في كردستان ضد وجود السلطة هناك ، أما الاتجاه الثاني فهو النقص في القوة البشرية العاملة في القوات المسلحة العراقية الذي سَبّبه هروب هذه الأعداد الكبيرة من المجندين، أو الذين ستشملهم الخدمة بعد وصول أعمارهم إلى السن القانونية ، لذا فإن النظام قد عمد إلى أسلوب جديد اعتبره حلاً وسطاً مناسباً ، وهو موافقته على طلب الأكراد بالبقاء في مناطقهم عند التحاقهم للخدمة، مشكّلاً منهم ما يدعىٰ بالأفواج الخفيفة، يقودها ضباط من الجيش العراقي واجبها القيام بإنجاز المهام الأمنية في مناطق وجودها ، كما تمّ استخدامها في القتال الذي جرى بين القوات الإيرانية والعراقية على حدود كردستان، أو ضد الحركة الكردية المسلحة بحدود ضيقة ، وقبل النظام هذا الوضع مضطراً بسبب عدم إمكانيته على إيجاد حلول أخرى، بإجبار الأكراد على العمل في الوحدات العاملة على خطوط التماس الأساسية في الوسط والجنوب ، ولقد أثار الأكراد مسألة تسمية الحرب الدائرة الآن، والتي أسماها صدام بقادسية العرب الثانية ، معتبرين ذلك بأنه يحمل معنى حرب بين العرب والفرس ، بينما ليس لهم فيها ناقة ولا جمل ، لذا فقد أبدل اسم الحرب إلى اسم آخر، اعتقدت السلطة بأنه أكثر ملائمة ، فأصبح معركة قادسية صدام ، حيث وفر ذلك حدوداً معينة من المشاركة التي تفرضها الوطنية ، على اعتبار أن صدام يشغل منصب رئيس للجمهورية التي لا يستطيع أن ينكر أحد علناً بأن الأكراد هم جزء من شعبها، حيث يجب عليهم المشاركة في الدفاع عن وجوده . لكن هذا الأمر لم ينفع أيضاً ، مما اضطر النظام أن يدبر الأمر بالطريقة التي ذكرناها . وإذا علمنا بأن هناك نسبة قليلة فقط من طائفة السنة، من الذين لم يبقَ من الملاكات في المؤسسات الثابتة والمديريات التابعة لوزارة الدفاع والملحقيات العسكرية ما يمكن أن يشغلوه ، فإن الوحدات العاملة في جبهات الحرب

أصبح الشيعة يشغلون نسبة لا تقل عن ٩٠٪ من ملاكاتها ، وهم الذين وقع عليهم ثقل الحرب كلها ، وتحملوا من الخسائر والأضرار والتدمير قدراً بنفس النسبة التي شكلوا فيها من الوجود العسكري على جبهات الحرب ، وإذا علمنا أيضاً بأن المناطق الوسطى والجنوبية المتاخمة للحدود الإيرانية يقطنها مواطنون من الشيعة، وتكاد تخلو تماماً من وجود السنة ، فهذا يعطينا أيضاً صورة إضافية للضرر والتدمير الذي لحق بالمدن والقرى التي يقطنونها ، فالشريط الحدودي الممتد من خانقين وحتى الفاو، يشكل الشيعة ٩٩,٩٪ من مجموع سكانه ، فقد شهدت هذه المناطق تخريباً واسعاً ، وغادر أهلها بيوتهم وأراضيهم ومزارعهم هرباً من المخاطر التي يسببها قربهم من مناطق القتال ، كما شهدت السنوات الأخيرة حملات واسعة من الهجرة من المدن الحدودية كالبصرة والشريط الممتد من القرنة وحتى العزير ، ومن الفاو إلى البصرة ، لقد أصبحت مدن وقصبات كثيرة مهجورة تماماً من سكانها، كبدرة وجصّان ومندلي وبلدروز وخانقين ومئات من القرى والقصبات الأخرى ، وذلك هرباً من نيران المدفعية التي كانت تنصب على منازلهم وبساتينهم وفوق رؤوسهم أثناء رد القوات الإيرانية على القصف الجوي والمدفعي، التي كانت تقوم به القوات العراقية ضد المدن والأهداف المدنية داخل إيران ، ولنا أن نتصور عمق الفاجعة التي حلّت بمليوني إنسان من أهالي البصرة، الذين تفرقوا على عدد كبير من المدن الأخرى البعيدة عن ساحات القتال ، كالنجف وكربلاء والديوانية والناصرية والحلة ، بعد أن تركوا بيوتهم وأرضهم ومصالحهم الاقتصادية ، مما ترك آثاراً اجتماعية مفجعة سببته هذه الهجرة الواسعة من مناطق استقرارهم إلى مناطق أخرى أصبحت تكتظ بالسكان ، ولم تسلم مدينة خانقين هي الأخرى ، فقد هجرها أهلها تاركين منازلهم وأملاكهم طعماً لنيران المدفعية الإيرانية والغارات الجوية الانتقامية ، وواضح جداً جسامة الأضرار التي لحقت بالشيعة بسبب التمييز الطائفي الذي تسير عليه القيادة العامة للقوات المسلحة وتشجعه ، والأسرى العراقيون الذين يقارب عددهم الثمانين ألفاً يشكل المراتب وضباط الصف الشيعة من بينهم نسبة ٩٥٪ ، بينما تشكل نسبة الضباط الشيعة من بينهم ٣٠ ـ ٤٠٪ ، وهذه النسب في الواقع هي نفسها بالنسبة لجميع الوحدات العاملة في الخط الأول ، أي الوحدات التي تمسك المواضع الدفاعية على طول خط الجبهة، وأغلبها وحدات المشاة ، وهذا يعني أيضاً بأن نفس النسبة من الخسائر بالأشخاص تصيب أبناء الشيعة بين عموم الشعب العراقي .

ـ استخدمت قواطع ما يسمى بالجيش الشعبي ، وهو تنظيم شبه عسكري ، يطوع فيه المدنيون من المواطنين بالقوة، بعد إدخالهم دورات عسكرية خاصة قصيرة لتعلم استخدام عدد من الأسلحة الخفيفة والمتوسطة، تحت قيادة أعضاء فروع الحزب في

المحافظات الذين يمنحون رتباً عسكرية فخرية تصل إلى رتبة عقيد ، تضع القيادة برفقته أو تحت إمرته ضابطاً من دائرة التوجيه السياسي ،يشكل وجوده في الواقع ضابط ركن للقاطع وموجهاً وحاكماً لحركة قواطع المتطوعين من المحافظات العراقية كافة ، استخدمت هذه القواطع أيضاً بأسلوب بعيد عن العدالة التي يفترض بالقيادة، التي تقود الشعب خلال محنته، أن تتصف بها ، فلقد كان للتمييز الطائفي حصته في أسلوب استخدام هذه القواطع في الزمان والمكان ، عند نشوب المعارك، أو في الخطوط الأمامية لجبهات القتال التي تمتد إلى أكثر من ١٤٠٠ كيلومتر ، فقواطع الجيش الشعبي من المحافظات الوسطى والجنوبية كانت دائماً تستخدم في مسك قواطع دفاعية متقدمة في الجبهة ، ويجري استخدامها في عمليات الهجوم المقابل التي تشنها القوات العراقية دون رحمة ، ولأنها لم تكن مؤهلة ومدربة تدريباً ملائماً لإنجاز مثل هذه المهمات ، فإنها كانت دوماً تلاقي من المصاعب والمتاعب التي كانت تظهر عجزها الفاضح وعدم قدرتها على تنفيذ واجبات الهجوم تلك ، إضافة إلى عدم تيسر القيادة الكفوءة لها،بحيث تساهم في إدارتها سواء في وقت الحرب وأثناء المعارك، أو أثناء إعدادها وتنظيمها ، ولقد أدى ذلك إلى حدوث خسائر كبيرة بين صفوفها ، بل إن قواطع كاملة من الجيش الشعبي كانت تنتهي تماماً بعد كل معركة من المعارك التي كانت تدور في الجبهة ، ولقد سارت القيادة على أسلوب استخدام قواطع الجيش الشعبي من المحافظات الوسطى والجنوبية التي يقطنها الشيعة فقط في جبهات القتال ، بينما لم تكلف قواطع الجيش الشعبي لبقية المناطق من العراق التي يقطنها المواطنون من أهل السنة بمثل هذه الواجبات ، فمعارك البسيتين والشوش وخرمشهر وشرق البصرة انتهت بتحطيم قواطع الجيش الشعبي لكل من مناطق كربلاء والنجف والحلة والكوت والعمارة ومدينة الثورة في بغداد، التي يقطنها الشيعة الذين هاجروا إلى بغداد من المحافظات الوسطى والجنوبية ، بينما لم نسمع أبداً بوجود قاطع للجيش الشعبي من الأعظمية أو الرمادي،أو الموصل أو تكريت مكلفة بواجبات قتالية في ساحات الحرب ، ولقد كان إحساس المتطوعين من قواطع الجيش الشعبي للمناطق الشيعية مريراً بسبب وضوح التمايز الذي تتعمد القيادة اتباعه ، ولقد ترك ذلك آثاراً سيئة كبيرة على الروح المعنوية للمقاتلين الذين يرون أنهم الوحيدون الذين تبتلعهم القادسية ، وهكذا سرعان ما يفرون من ساحة المعركة حالما يبدأ الهجوم الإيراني على قواطعهم ، كما حدث في معارك الشوش عندما هرب مقاتلو قاطع الجيش الشعبي لمدينة العمارة الذي كان يقوده جبار طارش ، مما أدى بالنتيجة إلى إعدامه أمام صدام حسين نفسه بيد مرافقه الخاص أرشد ياسين التكريتي . لقد ذهبت قواطع كاملة من الجيش الشعبي التي كانت تودع بعويل وبكاء ذوي المتطوعين قسراً ، إلى الجبهة ولم

يعد منها إلّا أشخاص معدودون كانوا يردون لذويهم عند عودتهم المآسي والأهوال التي شاهدوها بأم أعينهم ، وكان هذا ما يحدث بالفعل دوماً ، وفي الحالات النادرة التي كان يشترك فيها قاطع من الجيش الشعبي من مناطق أهل السنة ، فإن هؤلاء سرعان ما يعلنون احتجاجهم لجلبهم إلى المناطق الأمامية الخطرة،ويعلنون حالات أقرب وأشبه بالتمرد ، يتم بعدها إعادتهم إلى المناطق الخلفية أو إلى مناطقهم الأصلية ، كما حدث عام ١٩٨٢ عندما جلب قاطع الجيش الشعبي لمنطقة الزبير،وهم من أهل السنة إلى الخطوط الأمامية من الجبهة . فبعد أن استقروا لمدة يومين في قاطع العمليات،حيث كانوا يتعرضون إلى القصف المدفعي الإيراني الشديد ، أخذوا ينسحبون إلى الخلف،وبدون أمر معلنين رفضهم البقاء في مناطق خطرة من الجبهة ، وبالفعل فقد تم سحبهم من المواضع التي كانوا فيها وأعيدوا إلى منطقة البصرة ، ولم نسمع مطلقاً بأن قواطع الجيش الشعبي من مناطق السنة قد تمّ استخدامهم في الخطوط الأمامية أو في العمليات خلال مدة الحرب كلها، وهذا يعطي دليلاً آخر من بين الكثير من الأدلة الأخرى على الخطة المبيتة التي تنتهجها القيادة العامة للقوات المسلحة التي يعتبر صدام حسين المسؤول الأول عنها . فالسنة في العراق عملة نادرة، أما الشيعة فهم البضاعة الأسهل تيسراً وتناولاً وتفريطاً .

ــ لم تكن القيادة العسكرية مجبرة على الإبقاء على وضع شاذ تعيشه القوات المسلحة مطلقاً ، ولو كان ما يحدث بالفعل ناجماً عن وضع تجد فيه نفسها عاجزة عن تغييره ، لانعكس سلوكها هذا على المجتمع كله والقوات المسلحة بصورة خاصة ، إلّا أنها تحمل بالفعل تصوراً وتصميماً مسبقاً للسير على هذا النهج الذي كان سائداً قبلها ، فأحمد حسن البكر، وهو واحد من أكبر الطائفيين الذين عرفهم العراق في تاريخه الحديث ، شخص يعتمد في سلوكه وتعامله مع الآخرين أقذر الأساليب وأكثرها مكراً ودهاءً وخبثاً . وهو لا يخفي حقده على الشيعة ، بل إن سلوكه وتعامله الشاذ كان يطفو على السطح بسبب ذهنيته وتصوره المتدني ، وهو لا يخجل ولا يجد في نفسه حرجاً أن يتعامل مع الآخرين ليس كطائفي فحسب، بل كطرف رئيسي من أطراف هذا الصراع الذي يفترض فيه كرئيس دولة أن يجد الحلول الملائمة لتهدئته على أقل تقدير . شاهد أحد الضباط امرأة في أحد شوارع بغداد، فيما كان سائق سيارة أجرة يحاول إجبارها على صعود سيارته بالقوة ، كانت تلك المرأة تستغيث وتطلب من ينقذها من خاطفها ، فما كان منه إلّا أن لحق السيارة وأوقف سائقها وأنزل المرأة ، ثم استأجر لها سيارة أخرى أوصلتها إلى بيتها . سمع البكر بهذه القصة فأرسل على الضابط الشهم كي يثني عليه ويكرمه على عمله هذا ، وبالفعل أحضر هذا الضابط أمامه ، سأله البكر ما اسمك أجابه الضابط :

سيدي اسمي علي . سأله : من أي المحافظات أنت؟ أجابه الضابط : بأنه من إحدى المحافظات التي يقطنها أهل السنة . فقال البكر : اعتقدت بأنك شيعي عندما قلت لي بأن اسمك علي ، ولكنني عندما عرفت بأنك لست منهم صدق حدسي ، فهؤلاء ـ يقصد الشيعة ـ لا يمكن أن يقوموا بعمل شريف كهذا أبداً لأنهم لم يتربوا على الشرف والكرامة . وبعد أن أكرمه البكر ، خرج الضابط متعجباً من قول من يفترض فيه أن يشيع الانسجام والمودة والحب بين الشعب ، وعلى الرغم من أن الضابط كان سنياً، إلّا أنه نقل ما دار بينه وبين البكر في تلك المقابلة لشعوره بثقل الإحساس الأليم بالإثم الذي تركته تلك المقابلة مع رئيس جمهورية العراق الممتدة من «زاخو» وحتى «الفاو» بكل ما فيها من أناس وثروات وقيم وشرف وكرامة!

ـ لا أعتقد بأن أحداً يستطيع أن يقدم سبباً معقولاً لتصميم الرئيس العراقي بأنه سوف لن يُبقي لشيعة العراق ذكراً بعد انتهاء حربه المجنونة ، فإذا كانت حربُه التي استمرت ثمانية أعوام قد أكلت من الشيعة في إيران والعراق الآلاف، وإذا كان خصومه الفعليون هم الإيرانيون، فما ذنب تلك الملايين من البشر الذين يدفعون أبناءهم للقتال نيابةً عن آل تكريت ودفاعاًعنهم،ليس في هذه الحرب فقط،بل في كل الحروب التي شنتها الأنظمة التي سبقته؟ هل نسي هو ومن على شاكلته العشرين ألف ضحية التي خلفتها المعارك التي جرت في كردستان حتى شهر آذار عام ١٩٧٥ ، والذي يشكل الشيعة نسبة ٩٠٪ منهم دفاعاً عن عرشه الذي كان يهتز؟ هل يستطيع قائد شعب إذا كان جائزاً أن نسمي صدام قائداً لشعب ـ أن يقود شعباً يرجو من ورائه أن يكسب نصراً في حرب ضروس طاحنة، وهو يكن في نفسه العداء والكراهية إلى أكثر من نصفه ، علماً بأننا نستطيع أن نقول بأن الرئيس يكره شعبه كله باستثناء حفنة قليلة منه؟. وهل يعتقد صدام حسين بأن الشعب جاهل تماماً لما يدور في ذهنه من أفكار بائسة سوداء؟ لنضع هذه الصورة أمام أكبر المحللين العسكريين والاستراتيجيين في العالم أمثال الجنرال «بوفر» و«ليدل هارت» ونرجو منهم أن يقدموا لنا مشروعاً موجزاً وتحليلاً مركزاً، يوضح لنا فيه كيف يستطيع قائد عام كهذا أن يدير صراعاً من هذا النوع ، وهل أن الوسائل التي تتيسر لديه استطاع بالفعل أن يجعلها منسجمة في أدائها ، الذي تحتمه خطورة حجم الصراع وآتساعه، وما هو المدى الذي يستطيع أن يسير فيه قائد كهذا؟ .

ـ ظلّت القيادات الرئيسية في الجيش العراقي باستمرار بأيدي الضباط من أبناء طائفة السنة ، ولم يحدث أن استلم ضابط شيعي منصب قائد فرقة إلّا نادراً ، وفي الحالات القليلة التي أمكن فيها أن يصبح ضابط شيعي قائداً لفرقة عسكرية في الجيش

العراقي فإنه أقصي عنها بصورة مفجعة ، كما حدث للواء الركن عبدالمنعم لفتة الريفي قائد فرقة المشاة الثامنة أثناء القتال الذي نشب بين الحكومة والأكراد عام ١٩٧٥ ، حيث أحيل على التقاعد برتبتين أدنى، وقد ورد في أمر إحالته إلى التقاعد إشارة إلى تقاعسه في إنجاز واجباته ، وكما حدث للعميد الركن عبدالجليل محسن قائد الفرقة المدرعة السادسة الذي أحيل على التقاعد برتبتين أدنى ثم اعتقل ، أفرج عنه بعدها وعين آمراً لأحد الأفواج الآلية للواء الخامس والعشرين من نظام معركة نفس الفرقة التي كان يقودها ، وهو أسلوب يحمل كل معاني القساوة في التعامل ، إضافة إلى عمق الإهانة التي وجهت إلى كل الأعراف والأنظمة العسكرية ، ولو استعرضنا أسماء قادة الفيالق والفرق الذين يشكلون الهيكل الأساسي للقيادة الميدانية للقوات المسلحة العراقية ، لما استطعنا أن نجد في قيادات سبعة فيالق قائداً شيعياً واحداً ، أما قادة الفرق التي يبلغ تعدادها ٤٤ فرقة مدرعة وآلية ومشاةراجلة، فإننا لا نجد سوى اثنين منهم من الشيعة قادة لفرق حديثة التشكيل مكلفة بواجبات دفاعية تكون عادة عرضة لكل عمليات الهجوم التي تشنها القوات الإيرانية ، مما يتركهم دوماً عرضة للحساب القاسي بسبب الاحتمال المتزايد لانهيار فرقهم، بسبب ضعف تدريبها وانخفاض روحها المعنوية من جراء بقائها مدة طويلة تحت القصف الجوي والمدفعي المقابل ، ولكن لعلَّ أحداً من الذين سيقع كتابي هذا بين يديه سيتقدم بسؤال يعتبره مهماً ، وربما يكون بالفعل كذلك ، هو لماذا يشدد الكاتب على التأكيد بأن القيادة العسكرية العراقية تكاد تخلو من الضباط الشيعة؟ .

والجواب : ان الذي لا يدرك نوع العلاقات التي تجري داخل القوات المسلحة العراقية فربما كان تساؤله مقبولاً ، أما إذا أدرك ما يجري فعلاً فإنه بالتأكيد سيتخلى عن سؤاله هذا ، ذلك لأن قادة الفيالق والفرق وآمري الألوية والتشكيلات الأخرى ، يعتمدون على أبناء مدنهم وأقاربهم في مساعدتهم على إدارة التشكيل الذي يقودونه ، فالتكريتي يعتمد على التكارتة والدوريين أكثر من غيرهم ، وابن الرمادي يعتمد على أبناء جلدته، وكذلك يفعل ابن الموصل ، وهكذا فإن القادة والآمرين غالباً ما يحيطون أنفسهم بمجموعة من أقاربهم وأبناء عشيرتهم أو مدينتهم ، فهؤلاء يكونون عوناً لأولئك ، أي إن أكثر أبناء طائفة السنة لديهم من يساعدهم على التغلب على المشاكل التي تصادفهم أثناء قضائهم للخدمة الإلزامية في الجيش ، كما إن الملاكات السنية الثابتة في القوات المسلحة تجد دائماً العون اللازم لها للعمل في مواقع ومراكز مريحة ، أما جماهير المقاتلين من الشيعة، والقلة من الضباط التي تشكل جزءاً من ملاكات الجيش فمحرومون من مثل هذا الدعم داخل القوات المسلحة ، وفي الحالات التي يضطر فيها المقاتل من أبناء الجنوب إلى طلب معونة أحد في قضيةمعينة، فإنه يتوجه إلى أحد أبناء السنة ملتمساً

إيّاه أن يساعده في حل مشكلة أو مأزق تعرض له خلال عمله أو أثناء تنفيذه لواجبه ، وغالباً ما لا يستطيع أن يوفق في مسعاه هذا ، ليس هذا فقط ، بل إن الضباط الشيعة الذين يملكون من المؤهلات والكفاءات التي تؤهلهم بالفعل لشغل مناصب عالية في الجيش يتعرضون إلى حملات تشويه مركّزة لإضعاف شخصيتهم والتقليل من قيمتهم ، فالعقيد الركن عبدالمجيد الجشعمي الذي يعتبر من خيرة الضباط في الجيش العراقي تعرض إلى حملة مسعورة من التشويه ،حتى اتهم بأنه مجنون وان تصرفاته لا تنم على عقل متّزن ، وأسباب ذلك لا يمكن أن تخفى على ذي عقل ، فإنه كان يطرح من الأفكار العسكرية والنظريات الجديدة ، مما لم يعتد عليه الضباط الذين اعتادوا مناقشة الأفكار العسكرية بأساليب كلاسيكية ، وكما يرد في الكراسات المعتمدة للدراسة والتدريب في الجيش العراقي ، وأغلبها بريطانية المنشأ ، جرت عليها تحويرات كثيرة على ضوء التجارب الكثيرة التي حصل عليها الجيش البريطاني ، بينما لم ينالها إلّا تطوير بطيء في الجيش العراقي بعيداً عن الواقع العملي الذي يعيشه الجيش العراقي نفسه . وبالفعل فقد كانت أفكار العقيد الركن الجشعمي الجديدة فيما يتعلق بالمدفعية والمشاة تتعرض لنقاش حاد ، ينتهي إلى اعتبار أنه يتخيل مثل هذه الأفكار المعقدة التي كانت تعتمد على قواعد وأساليب حسابية وجداول معقدة لا يستطيع الكثير من الضباط إدراكها ، لأن أغلبهم يرفضون النظريات التي تتصل بالعلوم التجريبية ، كما يحصل لكراسة «نظريات الرمي للأسلحة» لاحتوائها على معادلات كيمياوية وفيزيائية معقدة نوعاً ما ، وهكذا انتهىٰ به الأمر إلى التقاعد ، بعد أن قدم زهرة شبابه في خدمة الجيش ، دون أن يحصل على التكريم الذي يليق به كالذي يجري لضباط أقل منه عطاءً وخبرةً . بينما نجد من الضباط السنة من الذين لم يعرفوا يوماً من الأيام قيادة أكثر من كتيبة مدرعة ، مثل اللواء الركن طالع الدوري الذي أصبح قائداً للفرقة المدرعة التاسعة ، ثم قائداً للفيلق الخامس ، ومستشاراً عسكرياً للقائد العام للقوات المسلحة ، وهو لا يفقه شيئاً من العلوم العسكرية . كذلك يشكل وجود اللواء الركن عبدالعزيز إبراهيم الحديثي[1] على رأس أحد الفيالق ، وهو الذي حكم عليه بالسجن لعدة سنوات بعد احتلال خرمشهر في بداية الحرب بتهمة التخاذل وعدم المقدرة على القيادة ، يشكل جزءاً من التمييز الطائفي البشع الذي تعاني منه القوات المسلحة ، ولو أردنا أن نورد أمثلة أخرى فإننا نحتاج إلى وقت أكبر .

ــ شهد الجيش وجوداً كبيراً للضباط الشيعة من ذوي الخبرات الفنية من

(١) قتل عند إسقاط طائرة سمتية كانت تقله مع عدد من هيئة ركن الفيلق الخامس حيث كان قائداً له في شباط عام ١٩٨٨ .

خريجي الكليات العلمية ، كالمهندسين والأطباء وخريجي كليات العلوم الأخرى ، وذلك بسبب توسع الجيش الذي أدى إلى احتياجه إلى كوادر فنية كثيرة لم تجد القيادة بداً من أن تشغلها بخريجين من الكليات المذكورة من ذوي الاختصاصات المختلفة ، فالتوسع الذي حدث في القوة الجوية والبحرية، وإحداث معامل تصليح ميدانية جديدة أملاه توسع وحدات الجيش وزيادة عدد الفرق العاملة فيه ، جعل الحاجة ملحة إلى استخدام كوادر فنية بالقدر الذي يؤمن العمل في الأجهزة والمعدات الحديثة التي بدأت ترد إلى العراق بكثرة بصورة مستمرة ، وعلى الرغم من أن إنشاء الكلية الفنية العسكرية التي كانت تعد أفراداً مزودين بخبرات علمية متعددة لإشغال الملاكات الفنية داخل القوات المسلحة، إلاّ أنها لم تكن قادرة على أن تفي بالاحتياجات الكبيرة التي كانت تطلبها القوات المسلحة من الفنيين الذي كان لا يتناسب مع الخريجين الذين تقدمهم هذه الكلية سنوياً ، إضافة إلى ضعف التدريس فيها، ونقص الخبرة العملية التي كانت مطلوبة لإدارة تلك الأجهزة المعقدة، أو العمل في معامل التصليح الميدانية، أو العمل على ظهر السفن والزوارق الحديثة التي زوّدت بها القوة البحرية، أو العمل في ورشات تصليحها المعقدة ، لذا فقد أخذ عدد الضباط الشيعة من ذوي الاختصاصات الفنية يزداد بصورة كبيرة في كافة المؤسسات والمواقع والمراكز التي تسيّر أجهزة معقدة ، فشهدت القوة البحرية والجوية بصورة خاصة وجوداً كثيفاً لأعداد من المهندسين الشيعة ، كما شهدت دوائر الهندسة العسكرية، وهي المديرية التي تعنى بالإنشاءات والمباني العسكرية والمطارات وأداتها هي الأخرى وجود عدد كبير من المهندسين الشيعة بنسب كبيرة ، كما شهدت المستشفيات العسكرية وجود عدد كبير أيضاً من الأطباء الشيعة . كان لهذا الوجود تأثير كبير في الحقيقة على زيادة نسبة الضباط الشيعة في القوات المسلحة العراقية ، لكن هؤلاء الضباط كما هو معلوم لم يتمكنوا من أن يشغلوا مناصب قيادية في مجالات اختصاصهم ، حتى مناصب آمري الوحدات الفنية التي يعملون فيها ، فعند عدم وجود ضابط فني من السنة في تلك الوحدات من ذوي الرتبة التي تؤهله أن يصبح آمراً لها ، فإن تلك الوحدات يعهد بإمرتها إلى ضابط ثابت من أبناء السنة لا علاقة له باختصاص هذه الوحدة التي أصبح آمراً لها ، وهذا في الحقيقة جانب آخر من جوانب التمييز الطائفي داخل القوات المسلحة العراقية ، فلم يكن يغيب عن ذهن القيادة العامة للقوات المسلحة أن تفكر في إحكام السيطرة على القوات المسلحة وحركتها بذهنية طائفية مقيتة، لم تترك وجهاً من أوجه نشاطها دون أن تترك عليه مسحة طائفية شاهدة للعيان .

– اتبع في تشكيل ملاكات القوة الجوية من الطيارين العاملين على الطائرات المقاتلة بصورة خاصة أساليب دنيئة في إبعاد أبناء الشيعة في أن يصبحوا ضباطاً طيارين ،

وذلك يتم وفق مرحلتين متكاملتين ، وهما مرحلة القبول وتقديم الطلبات للانتماء للقوة الجوية ، ومرحلة التدريب الابتدائي الأساسية في كلية القوة الجوية في تكريت ، فيعمد في الجانب الأول إلى تقليص قبول التلاميذ الشيعة إلى أقل حدممكن،ويتم ذلك بأساليب ملتوية منها: إفشالهم بصورة متعمدة أثناء الفحص الطبي المعقد الذي يجري للمتقدمين للقبول إلى كلية القوة الجوية ، وثانيهما وضع عوائق أمنية تمنع قبولهم ، أما عند قبول القلة القليلة منهم بعد انتهاء الفحوص والإجراءات المعقدة الأخرى التي تسبقه ، فإنه يعمد إلى أسلوب قذر آخر، هو أن يتم تحويلهم إلى صفوف المشاة أو الصفوف الفنية الأخرى التي تعمل بإمرة القوة الجوية كوحدات الرصد الجوي الأرضية ، بعد أن يتم إفشالهم في فترة الطيران لأتفه الأسباب وحتى بدونها ، فمن بين كل أربعة تلاميذ من الشيعة يقبلون في دورة معينة من دورات كلية القوة الجوية ، يتم ـ بعد اجتياز مراحل التدريب ـ اختيار واحد منهم فقط ليصبح فيما بعد ضابطاً طياراً يعمل على الطائرات المقاتلة ، بينما يتم إبعاد الثلاثة الآخرين بطرق غير مشروعة وبعيدة عن العدل والانصاف ، في حين يحمل غيرهم من التلاميذ ، الذين لم يكونوا أبداً أكثر منهم كفاءة ومقدرة إذا لم نقل أقل منهم بكثير ، رتبة وشارة ضابط طيار عامل في القوة الجوية العراقية، وحتىٰ ذلك التلميذ الذي استطاع أن يصبح طياراً بشق الأنفس فإنه يرىٰ نفسه بعد مدة وقد حُوّل من طيار مقاتل إلى طيار في جناح الطائرات السمتية . ونستطيع أن ندرك أبعاد النهج الذي تسير عليه السلطة في اعداد كوادر القوة الجوية من الطيارين من استقراء نسبة الضباط الشيعة من بين طياري القوة الجوية، سواء العاملين على الطائرات المقاتلة منها أو السمتية الذي لا يتجاوز في أي حال من الأحوال نسبة الـ ٥٪ من مجموع الطيارين ، بينما نجد نسبة الفنيين العاملين في القوة الجوية من الضباط وضباط الصف والجنود الذين يقدمون الخدمات المطلوبة لتهيئة الطائرات للعمل تشكل نسبة لا تقل عن ٨٠٪ من الكادر الفني ، والجدير ذكره أن الطيارين من الضباط من أبناء الموصل يشكلون نسبة لا تقل عن ٦٥٪ من مجموع الطَيارين العاملين في القوة الجوية، و١٠٪ من تكريت والدور،و٢٠٪ من بقية المناطق التي يقطنها أبناء الطائفة السنية .

ـ لقد وصل الأمر من التمييز الطائفي إلى درجة أصبحت التقارير السرية السنوية التي يجب أن يملأها الضابط كل ستة أشهر تطلب منه أن يجيب على سؤال جديد أُضيف إلى فقرات التقرير السري السنوي هذا عن انتماء الضابط المذهبي ، فبينما كان التقرير يقتصر على حقل الديانة ، فيجيب الضابط بأنه مسلم، أو ينتمي إلى أي دين أو طائفة أخرى ، أصبح يتوجب عليه أن يذكر فيما إذا كان سنياً أم شيعياً أمام حقل جديد

تحت عنوان المذهب ، مما أصبح يشكل في حد ذاته تهديداً خطيراً لوحدة وانسجام القوات المسلحة العراقية ، ومما لا يخفى بأن الضباط الشيعة يعانون من وضع خاص داخل القوات المسلحة يتعلق أساساً بوجودهم فيها،والتحديدات التي تفرض عليهم في التدرج في المناصب العليا داخل القوات المسلحة ، فلقد شكّلت هذه الظاهرة إحراجاً كبيراً للضباط الشيعة الذين لم يكونوا يرغبون بأن يعرفوا بأنهم من هذه الطائفة تجنباً للمضايقات وعلامات الاستفهام التي توضع عليهم . ومن الطرائف التي نذكرها هنا أن قسماً من الضباط الشيعة يحملون أسماءً « سنية » صرفة كانت تشكل غطاءً لهم يبعد عنهم الشبهات ويرفع عنهم المضايقات ، فالرائد كيلان عبد القادر ضابط شيعي لم يكن أحد يستطيع أن يقف على حقيقته هذه لأن اسمه لا يطلقه الشيعة على أبنائهم ، وعندما عرض عليه التقرير السري السنوي ووصل إلى الفقرة التي يتوجب عليه أن يجيب فيها عن مذهبه ، توقف كثيراً لأنه أصبح أمام حالة راهنة جديدة لم يكن يواجهها من قبل ، فقد تعوّد أن يعامل بأنه سني وقد استفاد من ذلك مدة طويلة خاصة أثناء عمله في قوات الحرس الجمهوري كضابط في صف هندسة الميدان ، ولكنه أجاب أخيراً بأنه شيعي ، فلم يلبث في الخدمة بعدها إلّا عدة أشهر حيث أُحيل على التقاعد ، وربما كان سبب ذلك يعود إلى أنه كان يخدع النظام طيلة المدة التي قضاها في الجيش،لذا فقد استحق ذلك العقاب . إن السلطة لم تعد تخفي توجسّها وريبتها من الضباط الشيعة حتى المخلصين لها ، وما هذا التوجه إلّا جزء من مظاهر هذه المخاوف التي كانت تنتابها ، وهي بعملها هذا تكون قد وضعت إسفيناً في جسد القوات المسلحة العراقية، وبذرت الشكوك والريبة بين أبنائها ، فلم يعد خافياً على أحد الدوافع التي كانت تقف وراء هذا التوجه الجديد ، وأصبح واضحاً لدى كل ضباط الجيش العراقي بأن السلطة تسعى إلى تصنيف الضباط تصنيفاً جديداً. يرتكز على أقذر وأخس توجه هو التمييز الطائفي فيما بينهم بصورة علنية وصريحة .

ـ كانت أحداث مسيرة الأربعين[1]، في شهر صفر من عام ١٣٩٧هجري الموافق لعام ١٩٧٦ميلادي، تشكل انعطافاً حاداً في المسيرة الطائفية المنحرفة للنظام المتسلّط على رقاب الشعب العراقي ، أحدثت في الواقع تصدعاً خطيراً في بنية القوات المسلحة وانسجامها . وملخص ما حدث هو أن جماهير الشيعة قد اعتادت كل عام أن تتجمع من مناطق الجنوب وبقية المناطق الأخرى في العراق بمناسبة أربعين الإمام

---

(١) تنطلق هذه المسيرة عادة من مدينة النجف الأشرف حيث يتجمع الراغبون بالمشاركة فيها ومنها إلى مدينة كربلاء المقدسة .

الحسين عليه السلام ، فيقيمون التعازي ومراسم متعددة أخرى . ولم تكن السلطات طيلة العهود السابقة لتقف بوجه الناس الذين كانوا يفدون بأعداد كبيرة ، بل انها غالباً ما تتخذ من الاحتياطات ما يمنع حدوث بعض أعمال الشغب المحدودة ضدها في بعض الأحيان . وفي تلك السنة أمرت السلطات الناس على لسان محافظ النجف بالامتناع عن إجراء المراسم . فقد جمع محافظ النجف المدعو جاسم الركابي عدداً كبيراً من المهتمين بإجراء المراسم المذكورة مخاطباً إيّاهم ومحذراً بأن عليهم الامتناع هذا العام عن التحرك من النجف إلى كربلاء وكما هي عادتهم في كل عام . وقد أشار إلى أن هذه المسيرة تعتبر عملاً سلبياً لا يعطي مردوداً للوطن . إلاّ أن مشادة كلامية حدثت بينه وبين قسم من الحاضرين الذين أجابوه إذا كانت المسيرات عملاً سلبياً فلماذا تحتفلون كل عام بمناسبة ٧ نيسان « يوم مولد حزب البعث»؟. وهكذا بدا بأن الناس عازمون على تنفيذ ما اعتادوا أن يقوموا به كل عام، بغض النظر عن التحذيرات التي وجهت إليهم . وفي يوم الأربعين انطلقت المسيرات الحاشدة من مدينة النجف إلى كربلاء، وأعلنت الجماهير رفضها المطلق للسلطة وإجراءاتها الطائفية المقيتة ، وكان في حينها البكر رئيساً للجمهورية، وصدام نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة، وعزة إبراهيم الدوري وزيراً للداخلية[1] . وبدأ الموقف يتدهور إلى درجة خطيرة ، فقد أصرت السلطات على منع الجماهير من إجراء المسيرة، بينما أبدت الجماهير إصراراً عنيفاً على القيام بها. ولم تكن السلطات المحلية وقوى الأمن الداخلي قادرة على ضبط الموقف الذي بدأ يفلت من أيديها بسرعة بسبب عنف التحرك الجماهيري وشدته ، مما اضطر السلطة المركزية في بغداد إلى أن تستخدم الجيش وبسرعة لقمع المسيرات التي تحوّلت إلى مظاهرات معادية للسلطة .

ـ في ذلك العام شهد الجيش العراقي استقراراً ملحوظاً بسبب انتهاء الحركات في كردستان العراق ، وكانت أغلب الوحدات مستقرة في معسكراتها الدائمية ، حيث كانت الفرقة الآلية الأولى ومقرها في الديوانية مع لواءين يعسكران في نفس المنطقة أيضاً، أحدهما آلي وهو اللواء الأول، والآخر مدرع وهو اللواء ٣٤.

وتعتبر الفرقة الأولى من الفرق التي يشكل فيها الشيعة ما يقرب من ٩٥٪ من بين ملاكات جنودها وضباط صفها، إضافة إلى أن نسبة الضباط الشيعة فيها تصل إلى حدود ٤٠٪ ، بينما كانت الفرقة المدرعة الثالثة ومقرها في تكريت تستقر ألويتها في مناطق

---

(١) اثنان تكريتيان وواحد دوري .

متباعدة ، فاللواء المدرع السادس يستقر في مدينة المسيب على مسافة ٥٠ كلم من كربلاء باتجاه بغداد، واللواء الثامن الآلي في الرمادي ، أما اللواء الثاني عشر المدرع فيستقر في تكريت ، ويشكل السنة نسبة كبيرة من ضباط هذه الفرقة تصل إلى ٨٠ ـ ٩٠٪ ، كما أن نسبة كبيرة من الجنود وضباط الصف من بين أهل السنة، ومن بين هؤلاء يشكل التكارتة نسبة كبيرة . وبدلاً من أن تتحرك وحدات الفرقة الأولى القريبة من منطقة الاضطرابات ، فقد استعيض عنها بوحدات الفرقة المدرعة الثالثة، حيث تحرك اللواء المدرع السادس من المسيب، واللواء الثامن الآلي من الرمادي باتجاه المنطقة التي كانت تقع بين النجف وكربلاء في النقطة المسمّاة « بـ « خان النص» ، حيث قامت بقمع المتظاهرين وتفريقهم واعتقال أعداد كبيرة منهم وصلت إلى الآلاف. ويبدو أن السلطة كانت تدرك تماماً مخاطر استخدام وحدات الفرقة الأولى ، فعندما انتشر خبر قيام التظاهرات بين منتسبي الفرقة الأولى ، أمكن التأكد بوضوح قاطع بأن عدداً كبيراً من الجنود وضباط الصف وعدد من الضباط الشيعة كانوا يشعرون بامتعاض شديد للأسلوب الدموي الذي عولجت فيه الأحداث . وسمعت همهمات هنا وهناك مفادها بأن الجنود وضباط الصف الشيعة سينضمون إلى المتظاهرين مع أسلحتهم فيما لو استخدمت وحداتهم لقمع التظاهرات ، وربما سينضم إليهم عدد لا بأس به من الضباط وسيتحول الأمر إلى كارثة لم يسبق للنظام أن وجد نفسه يواجهها من قبل . لذا فإن السلطة لم تستخدم وحدات الفرقة الآلية الأولى ، وبالطبع فإن هذا لا يعني بأن مراتب اللواءين الثامن والسادس كانوا بعيدين عن التفاعل مع الأحداث التي زجوا بها ، فقد كان بعضهم ينصح المتظاهرين بالابتعاد عن أماكن الخطر ، بل وكانوا ينقلونهم إلى أماكن بعيدة بعجلاتهم ثم يطلقون سراحهم هناك، حيث يستطيع هؤلاء أن يتملصوا من أيدي السلطة التي كانت تحاصر المنطقة، وتلقي القبض على كل من يقع تحت أيديها .

ـ بدا واضحاً بأن الجيش قد هزته الأحداث من الأعماق، وأن الطائفية التي كانت تستعر تحت المظاهر العامة التي حرصت السلطة على إضفائها على كل نشاطاتها ، بدأت تظهر إلى العلن تحمل معها حقيقة توجهات السلطة واتجاهات حركتها بطريقة لا لبس فيها . ووجد الشيعة العسكريون منهم والمدنيون أنفسهم متهمين جميعاً بأنهم يشكلون جبهة معادية أمكن تحقيق الانتصار عليها ، وللمنتصر حقوق على المنهزم يجب أن يؤديها له فوراً ، ولم يكن الحزبيون منهم بعيدين عن دائرة هذا الاتهام . لقد كان لي صديق ضابط من أهل السنة تربطني به علاقات طيبة ، التقيت به قبل أن تخمد الأحداث ، بادرني هذا الصديق بالقول وبأسلوب مازح (لقد انتصرنا عليكم)، وكان ثغره يفتر عن ابتسامة رقيقة ، عندها شعرتُ بأنني كنت خارجاً لتوي من حربٍ قد خسرتها دون

أن أعلم ذلك ، وعلى الرغم من كوني اشكل إحدى عناصر دعائم السلطة بحكم كوني ضابطاً في الجيش العراقي ، شعرت بالفعل انني مهزوم ولن يفيدني شيء آخر على الإطلاق ، لا الرتبة العسكرية ولا كوني حزبياً قديماً في تنظيم السلطة . هذه الحقيقة التي واجهت كل العسكريين الشيعة منهم والمدنيين ، وكانت درساً قاسياً في معانيه ودلالاته ، إلّا أن قسماً من الضباط السنة كانوا يظهرون تعاطفاً مع الانتفاضة ، حيث كانوا يبدون تعجبهم بأنه لا تزال هناك قوة يمكنها أن تتحدى إرهاب النظام وقمعه ، ولقد سمعت منهم بعض الشعارات التي كان يطلقها المتظاهرون. وأهمها كان شعار يقول: (يا صدام قل للبكر الحسين ما ينكر) ، أي أن المتظاهرين كانوا يطلبون من صدام أن يخبر سيده البكر بأن الإمام الحسين عليه السلام لا يمكن لأحد أن ينكر وجوده ، معربين عن مشاعر السخط والغضب تجاه الأساليب والممارسات الطائفية التي تعتمدها السلطة .

ـ لم يكن حزب السلطة بعيداً عن التصدع الذي بدأ يهز المجتمع العراقي كله ، بل إن الحزب نفسه لم ينكر وجود هذه الظاهرة بقوة بين صفوفه ، فلقد أسفرت الأحداث عن حدوث انشقاق خطير بين صفوف القيادة القطرية للحزب الحاكم ، فعندما رفض كل من فلح حسن الجاسم التميمي والدكتور عزة مصطفى العاني،(وهما اثنان من ثلاثة أشخاص ضمتهم المحكمة الخاصة التي شكلها البكر في حينها) التوقيع على حكم الإعدام بحق عدد من المتهمين الشيعة ، تم اقصاؤهما فوراً من كل مناصبهما الحزبية والوزارية بعد اتهامهما بالتخاذل والجبن . وكان أن اغتيل الأول أمام داره على أيدي جلاوزة السلطة ، ولم يسمع عن الثاني أية أخبار تؤكد وجوده حياً . ولم يقتصر الأمر على القيادة العليا فقط،فقد امتدت إجراءات الإعدام والتطهير لتشمل عدداً كبيراً من الكوادر المتقدمة في حزب السلطة . فقد تمّ إعدام قاسم السماوي مسؤول مكتب الإعلام في القيادة القومية لحزب السلطة . وفصل حسن الشامي من الحزب وجُرّد من منصبه الحكومي، حيث كان يشغل منصب سفير العراق لدى السودان في حينها بسبب زيارته لجاره الذي أعدم ابنه بسبب مشاركته في التظاهرات . وكرّت المسبحة لتشمل أعضاءً آخرين في الحزب،حيث تمّ فصل أعداد كبيرة منهم بحجةالطائفية، أو عدم ولائهم للحزب والثورة الذي يعني في الحقيقة عدم ولائهم للبكر وصدام شخصياً . ولننظر إلى عمق الآثار التي تركته الطائفية وعلى لسان الحزب نفسه لنقف على عمق التمزق الذي يعيشه التنظيم الحزبي والمهاوي التي انزلق إليها،لنقرأ هذه الفقرة من التقرير المركزي للمؤتمر القطري التاسع لحزب البعث الحاكم في العراق: «وقبل ذلك علينا أن نتساءل ، إذا كانت مفاهيم وممارسات التدين قد اعتبرت من قبل بعض الرفاق بديلاً أخلاقياً أو عقائدياً عن

حـزب البعث العربي الاشتـراكي وسبيلاً لحـل المسائـل الجوهـريـة في الحيـاة ، فلمـاذا اختاروا حزب البعث العربي الاشتراك؟! إن الاتجاهات الدينية ـ السياسية كـانت موجـودة منـذ زمن طويـل ، وهي ليست اكتشافـاً حـديثـاً ، فلمـاذا لم يختبـر أولئـك الـرفـاق تلك الاتجاهات كطريق لهم في تغيير الحياة وبناء مثلها ورسم أهدافها؟! ولماذا بعد أن قطعـوا شوطاً طـويلاً في الحـزب يريـدون فرضهـا عليه أو إشـاعتها فيـه من دون أن يكون لـذلك أساس في عقيدة الحزب ، وفي تقاليده ، ومن دون أن تقر هذه المفاهيم والممارسات من قيادة حزبية مسؤولة ، أو من مؤتمر حزبي مسؤول؟!»[1] . وتظل هذه الأسئلة المهمـة التي طرحها صـدام في تقريـره المركـزي بدون إجـابة ، نعم لمـاذا يجري كـل ذلك ، ولمـاذا يحدث هذا الارتـداد عن مفاهيم الحـزب التي هي في حقيقتها أبعـد ما تكـون عن الدين والإيمان بالله؟ لأن « صدام » يريد أن تكون إطاعته والإيمـان به الـطريق الوحيـد والخيار الأساسي لكل الحزبيين بديلاً عن الإيمان بالله والدين الإسلامي ، وهذا واضح من تأكيـد التقـرير على أن حـزب البعث يجب أن يظل الاختيـار الوحيـد أمام العـراقيين كلهم وليس الحزبيين منهم . ولأن التقرير لم يجب على تلك الأسئلة ، فإننا سوف نـرد عليها لنشيـر إلى الأسباب الحقيقية لهذا التحول الذي يستشري بين صفـوف التنظيم الحـزبي ، فأول هـذه الأسبـاب وأهمها على الاطـلاق هو وقـوف عدد كبيـر من الحـزبيين على حقـائق الـواقـع ومرارته ، وادراك مـا يجري تنفيـذه في الواقـع العملي بعيداً عن الـطموحـات التي كانـوا يحلمـون بها قبـل وصول الحـزب إلى السلطة في انقـلاب ١٧ تمـوز ١٩٦٨ ، وهم الآن يـرون بأم أعينهم كيف استحـوذت فئة من الـرعاع والأميين على مقـاليـد الحكم تسيّـرهـا حسب أهـوائهـا ورغبـاتهـا بعيـداً عن الأهـداف التي كـان يحلم بهـا هؤلاء ، وأصبحت الشعارات التي كان ينـادي بها الحـزب حبراً على ورق ، فكـل شيء أصبح يسيـر باتجـاه معاكس لما كان يرتسم في مخيلة هؤلاء وتصوراتهم عن الدولة المقبلة التي يطمحـون إلى إنشائها ، وتظل التفرقة الطائفية عنصراً حاسماً في إحـداث هذا التحـول والتمزق ، وبعـد أن يئس هؤلاء من إمكانية إعادة الأمور إلى نصابهـا والعودة بهـا إلى مسارهـا الذي كـانت ترتسم خطوطه في أذهانهم ، جاءت الثورة الإسلامية في إيـران لتشكل عـاملاً إضـافياً في تعزيز مشاعر القلق والإحساس بالمرارة واليأس ، لذا فإن عدداً كبيراً من الحزبيين ، خاصـة الشيعة منهم ، اعتبروا بأن الحزب لم يُكن إلاّ كذبة مفضوحة وإيديولـوجية عـاجزة عن هضم وتحويل المجتمع إلى كتلة واحدة متماسكة تقوده إلى شاطىء الأمـان والسلام . والجـدير

---

(١) التقرير المركزي حزيران ١٩٨٢، ط دار الحرية للطباعة ببغداد، ١٩٨٣.

بالملاحظة أن الكادر الحزبي القديم كان الأكثر تأثراً في مجريات الأحداث وتطوراتها وهو الذي بدأت تدب فيه مظاهر التحول إلى ما يسميه صدام «ممارسات التدين»، واعتبارها بديلاً عملياً وعقائدياً عن حزب البعث الذي لم يتمكن فقط من حل المشاكل المعقدة داخل المجتمع العراقي، بل زاد من حدتها وتعقيدها ، وعندما وجد هؤلاء بأن السلطة التي كانوا يحلمون بأنها ستكون أداة لتحقيق الأهداف التي اعتقدوا في حينها بأنها ستحقق حلولاً جذرية للمجتمع العربي تتحول إلى غاية وهدف بحد ذاتها ، تنتهي إلى أن تكون أداة طيعة لخدمة مصالح فئة معيّنة محدودة، وأشخاص ورموز يتصرفون بها وكأنها ملك لهم ورثوه عن آبائهم وأجدادهم، وليست كثمرة نضال طويل مرير!! بعيداً عن كل الأعراف الحزبية والأدبيات التي كانت تهدف إلى توضيح مسيرة وأهداف الحزب ، تحولوا بصورة آلية عنه ، وهذه الحالة لا تزال تنخر ببطء بالحزب الذي لم يعد له وجود في الحقيقة، بعد أن تحول إلى جهاز أمني إضافي لخدمة رئيس النظام وعصابته ، وإنني أعني أولئك الذين لا يزالون في التنظيم والذين ينتظرون دورهم في التطهير الذي يتمّ تنفيذه على عدة مراحل وبدقة .

الفصل السادس

التيار القومي في القوات المسلحة

ـ « شهدت الفترة ما بين ١٩٢١ ـ ١٩٢٧ ظهور أول الحركات السياسية داخل الجيش ، فقد بدأت وبشكل منظم،عندما تفاهم الضابطان صلاح الدين الصباغ ومحمد فهمي سعيد اللذان كانا متأثرين بالنقيب حسن شوقي شقيق صلاح الدين الصباغ، والذي كان على رأس مجموعة من الضباط المعارضين لوزير الدفاع جعفر العسكري وقريبه نوري السعيد»[١] . ولقد كان النقيب حسن شوقي من أنصار طالب النقيب الذي يعتبر من أكبر الذين حملوا راية الطائفية في تاريخ العراق ، وكان حسن شوقي قد استقبل طالب النقيب عام ١٩٢١ في محطة قطار بغداد التي قدم إليها من البصرة ، مع كثير من رفاقه، حيث اعتدى عليه عدد من أنصار جعفر العسكري ونوري السعيد بعد أن استدعوه إلى وزارة الدفاع،وعلى رأسهم المقدم محي الدين رشيد آمر الانضباط العسكري ، مما أدى إلى وفاته فيما بعد . إذن فإن بذور التيار القومي كانت مشوشة ولم تنبت في التربة الملائمة التي يمكن أن تساعدها على النمو والازدهار والتفتح ، فلقد كانت مزيجاً من الحقد الذي تشبع في روح صلاح الدين الصباغ الذي اعتبر مقتل أخيه نتيجةً لمؤآمرة أوعز بتنفيذها نوري السعيد الذي كان يشغل آنذاك منصب مدير الشرطة العام ، إضافة إلى أن قدوة الجماعة حسن شوقي لم يكن يحمل أفكاراً قومية بدليل مناصرته لطالب النقيب الذي كان خادماً مطيعاً للإنكليز،ومن المنادين بشعار العراق للعراقيين بعيداً عن كل ما كان يسمىٰ في ذلك الوقت بالقومية . وعلى الرغم مما يبدو من أن الجماعة بدأت تتطور أفكارها بصورة أكثر وضوحاً ، أو هكذا قيل ، إلاّ أن العقداء الأربعة الذين أداروا حركة مايس عام ١٩٤١ كانوا يقفون مع نوري السعيد ، قطب السياسة البريطانية في

---

(١) تأسيس الجيش العراقي، د. رجاء الخطاب.

المنطقة ، الذي بدأ بعد سقوط بكر صدقي واغتياله يعمل للوصول إلى رئاسة الوزراء التي شكلها بدلاً عنه جميل المدفعي في ١٩٣٧/٨/١٧، والاستفادة من التناقضات التي حصلت في الجو السياسي الذي تلا تشكيل وزارة المدفعي ، حيث انتهت بحركة انقلابية قادها صلاح الدين الصباغ وجماعته ضد وزارة المدفعي، فقدم استقالته في ١٤ كانون الثاني ١٩٣٨، وجيء بنوري السعيد ليشكل وزارته الثالثة في ٢٥ كانون الثاني ١٩٣٨[1] ، والتي بدأت عهدها بمعاقبة كل الذين آزروا بكر صدقي في آنقلابه ، وكان نوري السعيد يهدف إلى تأمين غايتين من عمله هذا وهما : أولاً ، الانتقام لمقتل قريبه جعفر العسكري الذي قتل خلال حركة بكر صدقي وثانياً ، الحصول على رضى ودعم صلاح الدين الصباغ ومجموعته التي كانت تقف هي الأخرى ضد بكر صدقي . كما تمّت أيضاً مصادرة الحريات وتعطيل المجلس النيابي وإشاعة جو من الإرهاب شمل العراق كله من شماله إلى جنوبه . ومن هنا يبدو بأن الحركة القومية أو ما يسمىٰ بالتيار القومي داخل القوات المسلحة قد أرسى أسسه الأولى على مبدأين ساعدا على تعميق الهوة في القوات المسلحة فيما بعد وتسهيل عمليات اللعب على حبال السياسة ، وهما الطائفية والانتهازية ، التي ساعدت على إضعاف الروح المعنوية داخل القوات المسلحة ، مما ساهم بالنتيجة في فشل حركة مايس عام ١٩٤١ التي قادها العقداء الأربعة صلاح الدين الصباغ ، كامل شبيب ، محمد فهمي سعيد ، محمود سلمان .

ـ لا بد لنا أن نلقي ضوءاً على مسار أحداث حركة مايس ١٩٤١ وأسباب فشلها الرئيسية والنتائج التي تمخضت عنها ، على اعتبار أنها مثلت ذروة النشاط الذي حققه التيار القومي الذي كان يقوده صلاح الدين الصباغ ورفاقه . قاد العقداء الأربعة (صلاح الدين الصباغ ، فهمي سعيد ، كامل شبيب ، محمود سلمان) حركة انقلابية أدت إلى استقالة وزارة طٰه الهاشمي ، وتشكيل وزارة جديدة برئاسة رشيد عالي الكيلاني ، وإسقاط وصاية عبد الإلّه على الدولة ، وعيّن بدله الشريف مشرف . لكن هذه الحركة انتهت إلى الفشل ، وفي (١) حزيران عاد الوصي عبدالإلّه إلى العراق ومعه جوقته وعلى رأسها نوري السعيد، حيث عادت الأمور إلى ما كانت عليه قبل الحركة . كان من الأسباب الرئيسية لفشل هذه الحركة يعود إلى ضعف قيادة هذه الحركة، وموقفها المتردد إزاء الوجود البريطاني ، وعدم اتخاذها الإجراءات السريعة التي تكفل حماية الحركة بصورة فعّالة ، وذلك بالتحرك السريع لاحتلال القواعد الجوية البريطانية في الحبانية والشعيبة ، اللتين تعتبران الركيزتين الأساسيتين للوجود العسكري البريطاني ، ويمكن أن تشكلا التهديد

---

(١) تاريخ الحركة الديموقراطية في العراق ، عبدالغني الملاّح ، ص ١٥١.

الأساسي العادي ، علماً بأن القوات البريطانية التي كانت موجودة فيهما والمكلفة بحمايتهما كانت قليلة العدد ، وإنشاء موضع دفاعي قوي في شمال بغداد وفي منطقة الفاو لسد المنافذ الرئيسية لتقدم القوات البريطانية المحتمل نحو العراق بآن واحد ، إذ كانت ظروف الحرب العالمية الثانية تساعد على ذلك بسهولة ، حيث كانت القوات البريطانية تعاني من صعوبات كثيرة في أوروبا وشمال افريقيا ، فقد ظلّت القيادة مترددة فترة طويلة ، وهي ترىٰ بأم عينها تنقل القوات البريطانية من فلسطين والبحرين باتجاه العراق ، وتنقلها جواً وبراً داخل العراق باتجاه القاعدتين المذكورتين ثم باتجاه بغداد في آخر المطافه . لقد أتاح الوقت الذي منحته القيادة التي أشرفت على الحركة لتنقل القوات البريطانية جواً إلى مطار الحبانية لتعزيز القوات المحاصرة فيها ، وكانت قوات قليلة جداً في بادىء الأمر فرصة لتقوية القوات البريطانية . يذكر العقيد الإنكليزي ألبرت ميرغلن في كتابه «حرب المباغتة» تفاصيل عن حركة القوات البريطانية « في يوم ١٧ نيسان تحركت قوة مكونة من ٤٠٠ ضابط وجندي من قوات اللواء الملكي البريطاني واستقلت الطائرات إلى الشعيبة وشرعت في العمل منذ وصولها فوراً بهدف مساعدة اللواء الأول للغرفة العاشرة الهندية وتمكينه من النزول فوق خليج البصرة ، وبعد هذه المهمة كان على القوة ذاتها أن تتحرك جواً إلى الحبانية حيث كان الموقف يتزايد خطورة»[1] . إذن فالقوات البريطانية التي شرعت بتهيئة الظروف الملائمة للبدء في الحركات ضد القوات العراقية وهي لواءان، أحدهما تم إنزاله في البصرة، والآخر يتحرك من فلسطين إلى الحبانية[2] ، هي القوة الرئيسية التي انجزت أعمالاً كبيرة ضد قوات تفوقها عدداً وعدة ، فلقد كانت قاعدة الحبانية الواقعة شمال بغداد بحوالي ٣٠ ميلاً مثلاً مطوقة بأحد عشر فوجاً و٥٠ مدفعاً[3] ، وكان موقف القوات العراقية في نيسان ١٩٤١ كما يلي[4] :

أ ــ فرقة المشاة الثانية، موزعة في الموصل واربيل وكركوك والسليمانية .

ب ــ الفرقة الأولى ـ في بعقوبه .

جـ ــ الفرقة الثالثة ـ في بغداد .

د ــ القوة الآلية ـ في المسيب .

هـ ــ لواء مشاة ـ في الديوانية .

---

(١) حرب المباغتة ـ العقيد ألبرت ميرغلن ص ٦٥ .

(٢) المصدر نفسه، لم يستطع اللواء الهندي أن يتقدم إلى بغداد بسبب الفيضان .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) تاريخ الجيش العراقي ـ د. رجاء الخطاب ، الملحق رقم (١٥) .

و ــ فوج مشاة ـ في السماوة .
ز ــ لواء مشاة ناقص فوج ـ في الناصرية .
ح ــ فوج مشاة ـ في العمارة .
ط ــ لواء مشاة ناقص فوجين زائداً القوة النهرية ـ في البصرة .
ي ــ سرية مشاة ـ في الفاو .

أي أن مجمل القوات العراقية كان أربع فرق مشاة ، اثنتان منها في بغداد، بالإضافة إلى لواء مدعم بثلاثين دبابة، وفوجي مشاة منقولين على عربات نقل كبيرة ، و٦٠ طائرة حديثة نسبياً ، كل هذه القوات لم تستطع أن تقوم بإنجاز عمل حاسم وسريع ضد قوة قليلة تطلب نقلها وجعلها جاهزة للعمل مدة لا تقل عن شهر ، في الوقت الذي كانت فيه القيادة العراقية تقف متفرجة تنظر إلى تحرك القوات البريطانية واتخاذها لترتيبات الهجوم النهائية ، بينما كان المفروض أن تتم مهاجمة القواعد المذكورة بسرعة، وحرمان القوات البريطانية من القواعد التي تستخدم في نقل وحشد قواتها لتنفيذ عملياتها المقبلة ، وإذا علمنا بأن موقف الحلفاء في عام ١٩٤١ لم يكن ملائماً أبداً ، فالقوات البريطانية قد أصيبت بنكسات كبيرة في شمال افريقيا وأصبحت قوات المحور تدق أبواب مصر ، وسقطت أوروبا كلها تقريباً بأيدي ألمانيا ، حيث كانت القيادة البريطانية منشغلة بقلق بسحب قواتها من دنكرك في فرنسا إلى البر البريطاني ، وكانت روسيا تحت ضغط سرعة التقدم الذي قامت به القوات الألمانية في عمق الأراضي السوفيتية . والخلاصة هي أن الموقف العام كان أيضاً لصالح قادة الحركة الذين لم يستطيعوا أن يستثمروه بصورة جيدة، إن العوامل الرئيسية لفشل الحركة هو ضعف المعنويات وترديها بين صفوف القوات المسلحة إضافة إلى جبن الضباط[1] ، وتردد القيادة العسكرية واختلاف وجهات نظرها عن رأي الحكومة حول الإجراءات الواجب اتخاذها لمعالجة الموقف ، وقد عزا صلاح الدين الصباغ في كتيب صغير أسباب الفشل إلى ضعف الروح المعنوية، وأشار عدة مرات إلى «ضعف الروح المعنوية وحالة الجبن التي اعترت الضباط وخاصة آمري التشكيلات»[2] . فلقد كانت معركة الحبانية امتحاناً عسيراً لمجمل البناء المادي والمعنوي للقوات المسلحة العراقية ، حيث كانت دليلاً واضحاً على عمق الانهيار النفسي الذي كانت تعيشه القوات المكلفة بتطويق قاعدة الحبانية الجوية ، فلقد تمكنت قوة بريطانية قليلة مدعمة بسرية من الآثوريين بهجوم مباغت من احداث خسائر فادحة ،

---

(١) و(٢) على ضوء معلوماتي . صلاح الدين الصباغ.

وكانت العملية لا تتعدى عملية استطلاع بالقوة « ففي ليل ٥/٦ مايس ١٩٤١ تمّ تنفيذ عملية استطلاع جريئة أمكن بواسطتها الوصول إلى المعرفة الدقيقة عن وقوع خسائر كبيرة في صفوف العراقيين وصلت إلى ٥٠٠ قتيل وتدمير ٧٥ مركبة هذا بالإضافة إلى ٤٠٠ أسير كانوا قد وقعوا في قبضة قوات الهجوم البريطانية »[١] ، وبالتالي فإن هذه العملية قد أدت إلى التمهيد للهجوم الشامل البريطاني بعد وصول لواء آلي من فلسطين عن طريق الأردن وقيامه بالتنسيق مع القوات المحاصرة في الحبانية بالهجوم على القوات العراقية وتجريدها من سلاحها مما أفسح المجال للتقدم نحو بغداد واحتلالها بعد أن تمّ تنفيذ ٢١٠ طلعات جوية لإسقاط ٣٥ طناً من القنابل على المعسكرات وطرق المواصلات والتموين والمرافق العسكرية الأخرى[٢] . وربما كانت هناك أسباب أخرى أدت إلى فشل هذه الحركة ، ولكن لا يمكن اعتبارها أسباباً وعوامل رئيسية بقدر التأكيد على عامل مهم ورئيسي هو ضعف البناء النفسي والمعنوي للقوات المسلحة قبل انهيارها ، ولا يمكن اغفال دور عملاء الإنكليز الذين عملت أياديهم في الخفاء ومن بين قادة الحركة أنفسهم لشل المجهود الحربي وإشاعة روح الإستسلام . فبينما نرى العقيد صلاح الدين الصباغ الذي فرَّ إلى إيران،يعاد تسليمه إلى السلطات العراقية لتنفيذ حكم الإعدام الذي صدر بحقه غيابياً به ، نرى رشيد عالي الكَيلاني ينعم بالطمأنينة تحت ظل حكم آل سعود الذين أوجدهم الإنكليز حكاماً على الجزيرة العربية وأمدوهم بأسباب البقاء والاستمرار ، فهل يعقل بأن رشيد عالي الكَيلاني كان معادياً للمصالح البريطانية في العراق ويشكل وجوده تهديداً لها وتقف بريطانيا مكتوفة الأيدي ، ولا يلاقي نفس المصير الذي لقيه العقداء الأربعة؟ ، من الاحتمالات الواردة الأخرى بقوة هو أن الكَيلاني كان جزءاً من المخطط الذي أرادت بريطانيا تنفيذه في مرحلة من مراحل وجودها في العراق لتأمين استمرار هذا الوجود وترسيخه .

ـ الغريب أن العقيد ألبرت «ميرغلن» مؤلف كتاب «حرب المباغتة»، يعتبر العمليات التي قامت بها القوات البريطانية في ذلك الوقت قد أمنت المباغتة ضد الجيش العراقي ، بل إن هذه المباغتة يعتبرها نموذجاً رائعاً مدرجاً إيّاها في كتابه على هذا

(١) حرب المباغتة ـ العقيد ألبرت ميرغلن ص ٦٦.

(٢) يذكر اللواء الركن محسن حسين الحبيب الذي شغل منصب وزير الدفاع في زمن حكم عارف في كتابه حقائق عن ثورة ١٤ تموز في العراق ص ١٣ بأنه لم يكن بوسع الجيش العراقي الضعيف التسليح والتدريب المقاومة طويلاً ، وهذا خطأ فاضح وقع به ضابط كبير لأن ميزان القوى العسكرية كان يميل لصالح العراق في ذلك الوقت .

الأساس ، ولا نعلم كيف كان ذلك وما هي الأسس التي اعتمدها في دراسته لهذا الجزء من كتابه الذي يتعلق بحركات مايس ١٩٤١ في العراق ، بينما الواقع يقول إن القوات البريطانية لم تكن قد أنجزت أي نوع من المباغتة على الاطلاق، لأن تحركها كان يجري تحت سمع ونظر القيادة العسكرية العراقية التي وقفت كالمتفرج دون أن تتخذ من الترتيبات ما يحبط هذا التحرك في مراحله الأولى، وكانت تستطيع ذلك لو أنها كانت تتمتع بالجرأة الكافية، وإذا كان العقيد «ألبرت ميرغلن» يعتبر حركة ٤٠٠ من الضباط والجنود البريطانيين بالطائرات ونقلهم إلى الحبانية من عمليات المباغتة فهذا أمر لا يمكن تصديقه على الاطلاق، لأن القيادة العراقية كانت لديها من الوسائل ما يمكن به إحباط تلك التحركات المحدودة، لكن الخيانة وضعف الروح المعنوية وجبن القادة خاصة آمري الألوية وترددهم، وانهيار القطعات أثناء القتال،وهي ترى آمريها يفرون أمامها هي الأسباب الرئيسية لنجاح العمليات البريطانية وفشل حركة مايس عام ١٩٤١ التي كان مخططاً لها مسبقاً أن تفشل .

ـ ظل التيار القومي بمختلف اتجاهاته ومشاربه والذي سيطر على الحكم والقوات المسلحة في حقيقته ، وكما يدعي هو أيضاً ، امتداداً للحركة التي قادها صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد ، محتفظاً بنفس البنية الفكرية التي جعلته يعيش منعزلاً يمتد بين أوساط طائفة معينة ، على أنه لم يقتصر على ذلك، بل تعداها بحدود إلى طوائف أخرى،وأمكن أن يجد من بينها أنصاراً ساروا في هذا التيار لأسباب قد تكون من ضمنها عقائدية ، كالتركمان واليزيديّين والشيعة ، ولكن أغلب من تعاون مع هذا الاتجاه من الطوائف الأخرى لم يكن يملك من الأسباب الحقيقية لانتمائه هذا سوى أسباب شخصية ذاتية ، منها أن الالتصاق بهذا التيار يمكن من أن يوفر الحصول على بعض المناصب ، أو فتات من ما يسقط من موائد السادة الكبار ، ولم يكن التوجيه والتخطيط الاستعماري ذو التجربة والوجود الطويل في العراق بعيداً عن تبلور الاتجاهات السياسية وتنوعها وانتمائها تبعاً للمخططات التي وضعها السادة القدامى الذين يضعون آذانهم على قلب العراق ، يسارعون إلى زرقه بالعلاج اللازم كلما أحسوا بأن انتظام نبضه لم يعد متناسقاً مع التخطيط الذي اعتاد أن يقدمه لهم جهاز تخطيط القلب . فلو أخذنا واحداً من هؤلاء وهو العميد الركن ناجي طالب ، فهو ينحدر من عائلة إقطاعية معروفة في محافظة الناصرية ولم يكن في يوم من الأيام يملك من الشجاعة والاقدام ما يجعله مؤهلاً لأن يستثمر المناصب لفترات قصيرة ، ولم تستفد مدينة الناصرية ، حيث أهل جلدته وأبناء عمومته ، منه شيئاً ، ولم تشملها يده بأي نوع من أنواع الرعاية ، حيث تمتاز مدينة

الناصرية عن غيرها من المدن العراقية عامة خاصة مدن الجنوب ، بوضع اقتصادي واجتماعي مزرٍ ، كما كان يعتبر حلقة الوصل بين الشيعة والسنة في المراحل التي تلت ثورة ١٤ تموز ، ولم يكن جديراً بذلك أبداً ، فكان سرعان ما يتخلىٰ عن المسؤولية في اللحظات التي يتصاعد فيها الخطر ، مفضلاً أن يسلم برأسه متبعاً سياسة انتهازية متوخياً منها ارضاء كل الأطراف التي كانت تستعين به في بعض الظروف التي فرضت نفسها على العراق في أوقات معينة ، ولم يكن اللواء الركن محسن حسين الحبيب، وهو الآخر الشيعي الوحيد الذي شغل منصب وزير دفاع خلال فترة حكم الأخوين عارف، ولفترة قصيرة أكثر جدارة ولياقة من ناجي طالب .

ـ مما لا شك فيه أن أزمة الفكر القومي لم تكن وليدة الساعة، بل إنها كانت متلازمة مع نشاط هذا التيار منذ نشأته ، فالفكر القومي الذي كان يشغل حيّزاً محسوساً في العراق لم يكن متكاملاً واضح الرؤية على الاطلاق ، فالبعثيون الذين يشكلون أكبر تنظيم قومي في العراق لم تكن لديهم رؤية واضحة لماهية الأهداف التي يحملونها ، وكانت الفلسفة التي تسير نشاطهم والفكر الذي يهديهم ، عبارة عن طموح خالٍ من البرمجة والتخطيط العملي العقائدي ، لم يكن سوىٰ طموح شباب ينشد إلى تحقيق وحدة الأمة العربية وإعادة مجدها وعزها ، هكذا كانوا يقولون ، خاصة في بدايات نشاطهم في الخمسينات ، ولكن هؤلاء كانوا خليطاً من المثقفين الذين كانوا يمتلكون قدرة لا تخلو من السفسطائية والتخيل الذي لا تسنده العلمية ، على أن يطرحوا بعض الآراء الجديدة التي كانت تصلح للمناقشة الطويلة . آراء تلفها المثالية والضبابية حول الأهداف التي ينشدون تحقيقها . فالاشتراكية التي كانوا ينادون بها لم تكن سوىٰ آراء، لم تبلغ بعد مرحلة النضوج العلمي ، فلقد أسموها عربية تمييزاً لها عن الاشتراكية العلمية التي كان ينادي بها الشيوعيون ، وعندما يسأل ميشيل عفلق منظر الحزب ومؤسسه وواضع أسس أفكاره عن الاشتراكية فإنه يجيب ، اذهبوا إلى المصانع لتشاهدوا العمال ، وزوروا الأرياف لتروا الفلاحين ، هناك تعلمون معنى الاشتراكية[1] . نعم هناك ظلم اجتماعي ، ولكن كيف ستتم إزالته؟ . هذا ما تركه الحزب لما ستنسجه رومانسية ميشيل عفلق من حلول لمشاكل ثبت بأنها مستعصية تحتاج إلى حلول واضحة عملية جذرية ، على أن الخطر الأكبر الذي كان يجرف هذا التيار ويدفعه إلى حالة من الجاهلية ، هو وجود أعداد كبيرة من أنصاف المتعلمين والأميين من مدن وقرى وأرياف المحافظات التي يقطنها السنة في العراق ،

---

(١) في سبيل البعث ـ ميشيل عفلق .

بغداد ، الموصل الرمادي ، والذين لا يفهمون السبب الحقيقي لمشاركتهم في هذا المجهود المستمر المثابر الذي يصطبغ بالدم والإرهاب والرعب ، سوى احساسهم بالبداوة وقيمها المبنية على النهب والجشع والحصول على الامتيازات بسلب الآخرين حقوقهم ، كما كانت تفعل القبائل قبل الإسلام ، مما يعتبر لديهم أمراً مشروعاً متعارفاً . ولم يكن هذا التيار في الحقيقة تابعاً للطبقة القائدة فيه ، وإنما خضع لها فقط عندما كان يحس بأنه عاجز عن أن ينظم نفسه أو يخطط لإنجاز كبير ، بل إن القيادة نفسها كانت تنغمس بصورة تدريجية بهذا الاتجاه ، ووجدت نفسها على طول الخط تشجع عليه، لأنها وجدت نفسها مضطرة إلى مسايرته لأسباب عديدة منها: أنها وجدت فيه الوسيلة التي تحقق بها مآربها ، لقد كان تيار الغوغائية والجهل والعشائرية والطائفية هو الذي أمسك بالدولة آخر الأمر وسار بها إلى التفكك والتسلط والقهر ، هذا التيار الذي استبدل المثقفين في قيادته بقادة جدد من لحمه وشحمه ، يفكرون كما يفكر ويتصرفون كما يتصرف ، وبدأ العراق يسير متراجعاً إلى أعماق العصور المظلمة ، فلقد وجد هذا التيار ـ الذي مثّله انقسام حزب البعث نفسه إلى جناحين ، جناح عفلق ، والجناح السوري ـ نفسه غير قادر على أن يتسلط على كل شيء بوجود عدد من المثقفين في قيادته ، فبادر إلى إبادتهم دون رحمة منهياً وجودهم من الحزب تماماً ، مما جعل الساحة خالية له حيث بدأ يتصرف بالدولة وكأنها قطيع من الأغنام يرعى في بستان جميل مليء بالأثمار ، يذبحون منها ما يشاؤون ويقطفون من أثمار بساتينها ما يشتهون ، خلت الساحة من المثقفين أمثال عبدالخالق السامرائي الذي كان يمثل اتجاهاً أكثر عقلانية في حركة حزب البعث مع رهط كبير من الحزبيين من الوجود ، أما ما تبقى من الكوادر المتعلمة داخل الحزب فلم تجد لها وسيلة لأن تحافظ على وجودها من الفناء سوى السير على الخطى الهمجية والجاهلية ، فانسلخت بالتدريج عن ما كان يمكن تسميته بحسّ ثوري متواضع منحدرة إلى قعر الممارسات المنافية لكل الأخلاق والأعراف والعلاقات الإنسانية .

ـ أمّا حركة القوميين العرب التي تعتبر ثاني أكبر منظمة قومية في العراق، فلم تكن تهتم حتى بداية الستينات ومرحلة تأسيسها في الخمسينات بالايديولوجيات التي أخذت تهز العالم ، فلم تكن تتحدث عن الاشتراكية مطلقاً ، وقد كان ظهورها إلى جانب حزب البعث يمثل إلى حد كبير المنظمات الفاشية والنازية التي ظهرت في أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية ، فكانت تميل إلى جانب العنف في نشاطها اليومي وتعتبره زادها الأساسي، وعلى الرغم من أن قادتها في تلك المرحلة يعتبرون الآن من أكثر الماركسيين تطرفاً ، وهو في واقعه ناجم عن ردود فعل مشوهة لإخفاقات كانت تعتمل في مجمل

مخـاضات الـوطن العربي ، وهم اليـوم يعتبرون من قـادة الحركـات الماركسيـة المتطرفـة العاملة على الساحة القومية ، أمثال نايف حواتمـة الذي كـان يشرف بصـورة مباشـرة على تنظيم وإدارة الحركة في العراق في نهاية الخمسينات وبداية الستينات ، حيث سجن عـدة مرات ، انتهىٰ آخر توقيف له بخروجه من السجن صبيحة ٨ شباط ١٩٦٣ ، إلاَّ أن أفكـار هذه الحركة خليط من حب عبدالناصر الشخصي وإنجازاته والآمال التي كانت تضعها فيـه مع شعور قومي ينحدر من أصول نازية وفاشيـة . ولقد كـانت نشاطـات الحركـة السياسيـة على السـاحة العـراقية انعكـاساً لهـذه الأفكار التي لا تحمـل الاستقرار ، لـذا فـإن طبقـة الضباط من التيار القومي ، والتي استلمت مقاليـد السلطة بعد ١٤ تموز ، ثم انحسرت عنهـا مؤقتـاً حتى ٨ شباط ١٩٦٣ ، كـانت متأثـرة في سلوكهـا وتفكيـرهـا بهـذا النهـج الفكـري المشوش الفوضوي ، الذي لم يمكنها من أن تنجز أي تطور لصالح الشعب ، بل إنهـا لم تكن سـوىٰ وبال على العـراق وتدمير لكل أسس استقـراره الأساسيـة ووحدتـه الوطنيـة ، فبسبب ضعف البناء الفكري والثقافي الشمولي الذي تميز به التيار القومي بصورة عامة في العراق ، لم يكن قادراً على أن يحرك المجتمع العـراقي بصورة فعّـالة ، ويتـداخل فيـه ، فقد وقفت العقلية العشائرية والطائفية والأفكار الضبابية حـائلاً قـوياً أمامه ، ولم يستـطع أن ينمو على الاطلاق ، وكانت الارستقراطية والتعالي الذي يتسم بها تصرّف هؤلاء يؤدي إلى نفور الشعب من أي توجه أو نشاط يقوم به ، بل إن وحدات تنظيمية مختلفة منه كانت في أحيان كثيرة أداة بأيدي القوىٰ الأجنبية ، التي لم تزل لها مصالح جوهريـة في العراق لتنفيـذ مخـططاتها ، ولم تكن الأسمـاء التي بـرزت من بين الضبـاط الـذين لفّهم التيـار القـومي كالزعيم رشيـد مصلح التكريتي وعبـدالسلام محمد عارف ، وطاهر يحيىٰ ، وسعيد صليبي ، وعارف عبدالرزاق ، هذه الأسماء لم تترك في ذهن المواطن العراقي إلاّ مشاعر الاشمئزاز لكثـرة التجاوزات على القـوانين وحقوق المـواطنين التي كانت تـرتكبها ، فـرشيـد مصلح مثلاً ، الذي شغل منصب الحاكم العسكري العام بعد ٨ شباط ١٩٦٣ ، ارتبط اسمه بكل المجازر الدموية التي ارتكبت بحق الشيـوعيين وآخرين كثيـرين من الناس الأبـرياء الـذين اتهموا بأنهم شيوعيون أو موالون لعبدالكريم قاسم ، بإصدار بيان عسكري يبيح بـه قتل كـل من يشتبه به بـأنه منـاهض لـ « حكومـة » شباط دون محـاكمة ، ممـا أشاع جـواً من القتل والإرهـاب وهتـك الأعراض في جميـع أنحاء العـراق ، وبالـطبع فـإنـه لم يكن المسؤول الـوحيد عن ذلـك ، بل إن سلطة ٨ شبـاط ١٩٦٣ مسؤولة مسؤوليـة كاملة معـه ، وسيظل التاريخ يلعن إلى الأبد تلك الأيدي التي تلطخت بدماء الآلاف من الأبـرياء ، ولقـد ذهب المـومـا إليه كبشاً وضحية ضمن مسلسل طويل من سياسات المراوغة والخداع التي اتبعها النظام القائم في العراق لإخراج ما يسمىٰ بالجبهـة الوطنيـة والقوميـة التقدميـة للوجود ، من

أجل تعزيز وجود السلطة الذي كان لم يزل مهدداً بمخاطر كبيرة بسبب العزلة السياسية التي كان يعيشها بسبب ماضيه المليء بالجرائم بحق كل فئات الشعب السياسية الأخرى.

ـ على الرغم من أن الأنظمة البائدة التي انتهت بمجيء الحكم العسكري إلى الحكم، على أيدي القوميين من العسكريين، كانت تلتزم صورياً بالصيغ الديموقراطية الغربية، وقد شهدت بعض فترات ازدهار الديموقراطية بحدود مقبولة، وإنشاء الأحزاب والتنظيمات التي وإن لم تكن تحمل مفاهيم جذرية تغييرية بعيدة عن اللعبة التي يسير النظام في إطارها العام، إلاَّ أنها مارست نشاطاً من موقع المعارضة مرة وفي موقع السلطة مرة أخرى، على الرغم من أن اللعبة كلها تظل في أيدي الكبار البعيدين عن أرض اللعبة بآلاف الأميال، والسلطات التي انبثقت من انقاض الأوضاع القديمة لم تكن قادرة، بسبب عوامل ضعفها الذاتية المزمنة، على حل المعضلات المتفاقمة، هذه السلطات نفسها، التي وضعت لنفسها مبرراً لنسف النظام السابق بسبب معاداته للديموقراطية، أزالت من الوجود كل مظاهر الديموقراطية على بؤسها الذي كانت عليه سابقاً، واعتمدت أخيراً على نظام الحزب الواحد الذي يمسك بكل شيء، ولا يسمح للأحزاب الأخرى التي سبق وأن التقى معها وحالفها بمواثيق دائمية ومرحلية أن تتجاوز ما يمكن أن يصطلح مجالات ومرتكزات الحزب الحاكم، التي لم تكن محدودة، بل إن شمول هذه المجالات ترك الأحزاب الأخرى مجردة من كل نشاط حتى المشروع منه، فمن الاتحاد الاشتراكي العربي، التنظيم الوحيد الذي لم يكتب له النجاح عام ١٩٦٤، إلى نظام الحزب الواحد الذي يشهده العراق حالياً، لم يكن العسكريون في الحقيقة غير مؤمنين بالتنظيمات الحزبية وأثرها في تدعيم سلطة الحكم وقوته، لكن عجزهم عن إنشاء تنظيمات حزبية قوية فاعلة جعلهم يشنون حرباً على بعض الأحزاب التي تختلف مع توجهاتهم وطموحاتهم اختلافاً إيديولوجياً وفكرياً شاسعاً، وكل هذا بالطبع باسم المحافظة على مصالح الشعب وبهدف تحقيق إرادته، والتي لم يكن في يوم من الأيام قادراً على أن يفصح عنها بأي شكل من الأشكال. بسبب تحول الجيش في النهاية إلى مؤسسة أمنية بوليسية قمعية بأيدي العسكريين. الذين حولوا جهازهم الوظيفي إلى أداة تخدم مطامعهم، على أن الفرضية الأساسية التي تحكم وجود أي نوع من أنواع الحكومات التي توالت على العراق، هي حقيقة بديهية لا تقبل الجدل، وهي أن النظام السياسي المقام يمثل انعكاساً مباشراً للأوضاع الاقتصادية ومراكزها داخل المجتمع وأسلوب توزيع الثروة والمغانم ومراكز القرار وإصداره، وبتعبير أكثر دقة، هو تعبير للمصالح المحكمة تاريخياً والتي أمكن الحفاظ عليها خلال ظروف تاريخية وقوى وأجهزة توالت الواحدة

تعقب الأخرى، أوضاع محكمة داخل الأوضاع الاقتصادية الأساسية الكبرى المهمة ، المصالح الاقتصادية والسياسية والفئوية التي كانت دوماً تحكم السيطرة على مراكز التعبير والقرار التي كانت دوماً بيد فئة معينة داخل المجتمع العراقي ، أو تقف وراءه تعاقبياً ، تقف وكأنها لا تبدي اهتماماً بما يجري أمامها ، إلّا أنها في حقيقة الأمر تقف خلف كل حدث كبير وكل ظاهرة تهز المجتمع وتدفعه إلى الترنّح ، ثم تظل بعد كل هذه الهزات وما نسميه بالثورات أو الانقلابات تظل الأمور كما هي في أيدي الفئة أو الطبقة التي تبدي تضامناً عجيباً منظماً بصورة دقيقة ، والتي نجدها مرة هادئة مطمئنة إلى أن الأمور تسير كما رسم لها من قبل ، ومرة أخرى متشنّجة حاقدة تنشر الرعب والدمار . عندما تشعر تلك الطبقة ـ اللاطبقة ـ بأن مصالحها بدأت تتعرض للمخاطر ، فإنها تظهر للعلن وبعنف رافعة الأقنعة تماماً ، تظهر من الجشع والبشاعة ما يفوق التصور ، لكن أساليبها مختلفة تماماً عن ما هو معروف في الأوساط الأخرى ، فعمل هذه الفئة شبيه بعمل الماسونية والصهيونية اللتين تسيّران الأمور من وراء الستار ، وربما كانت هذه الفئة متحالفة معها ، إلّا أن طبيعة الأحداث العنيفة قد تلغي بعض المعالم وتزيحها عن الطريق ، وهي تبدو لمن يهمه الأمر ضرورية وحتمية ، إلّا أن أهمية وجود جوهر الوضع العام ضروري ، وهو وحده يجب أن يظل رافضاً لكل تغيير جذري ، لقد انتهت التنظيمات القومية، كحركة القوميين العرب وحركات صغيرة أخرى وشخصيات معروفة باتجاهها الناصري تماماً، واختفت من الوجود بعد أن شاركت في استقرار اللعبة حقبة من الزمن ، وجاء الآن دور النظام الحالي في العراق كي يديم استمرارها ويحكم سيطرتها ، لذا فإن ما نشهده من تعاطف بين أوساط واسعة تتماثل في الرؤية في أقطار عربية وإسلامية عديدة ، وبهذه الدرجة من التفاعل والاستعداد ، هو في حقيقته جزء من جهود مشتركة لإدامة وضع ظل يحكم المجتمع العراقي منذ مئات السنين ، لم يكن مقبولاً الآن تصحيحه ووضعه في قالب تاريخي منسجم مع حركته ويلبي رغباته الأساسية .

ـ شكلت ظاهرة تحول عدد من الضباط من ذوي الاتجاه الناصري ، والذي وقفوا ضد حزب البعث في حركة ١٨ تشرين عام ١٩٦٣ والفترة التي تلتها ، تحولهم إلى أداة طيعة في يد سلطة الحزب الحاكم بعد مجيئه إلى الحكم عقب مؤامرة ١٧ تموز ١٩٦٨ ، شكلت هذه العناصر أمراً يثير الاستغراب ، فاللواء الركن عبدالستار المعيني آمر الفيلق الثاني ، الذي أُحيل على التقاعد بعد مجيء البكر للحكم ، واللواء الركن ضياء توفيق إبراهيم آمر الفيلق نفسه سابقاً وغيرهم العشرات من الضباط الناصريين الذين حملوا السلاح في انقلاب تشرين ضد حزب البعث ، فهاجموا مقرات الحرس القومي ، وقاموا

باعتقال الضباط وضباط الصف من البعثيين ، كما نرى اللواء الركن الطيار صادق العزاوي الـذي قام بقصف مقـر القيادة العـامة للحـرس القومي في الأعـظمية يستمـر في الخـدمـة مستلماً أعلى منصب في قيادة القـوة الجويـة العراقيـة لفترة طـويلة ، اننا يمكن أن نعـزي ذلك إلى الأسس التي نشأت عليها الحـركة القومية في العراق نفسهـا ، فالانتهـازية ظلّت تلازم هذه الحركة خاصة بين صفوف الضباط الكبار الذين كـانوا لا يهتمـون عندمـا تحين ساعة امتحان العقيدة بغير مصالحهم واستمرار وجودهم في مناصبهم التي تتيح لهم وسائل الرفاهية والترف .

الفصل السابع

الحركة الإسلامية السنية
في القوات المسلحة العراقية

ـ شكلت حركة الإخوان المسلمين وحزب التحرير الإسلامي الاتجاهين التنظيميين الإسلاميين الرئيسيين بين أبناء السنّة بصورة عامة ، إلاّ أن التنظيمات الإسلامية السنية بصورة عامة لم تكن في يوم من الأيام ـ في العراق ـ تتسم بالثورية والشمولية بسبب صفتها الطائفية التي انتهت إليها ، ويهمني الحديث هنا عن حركة الاخوان المسلمين داخل الجيش العراقي ، إذ ربما كان حزب التحرير الإسلامي الذي انطلقت قيادته من الأردن وفلسطين يختلف في بعض الأوجه عن سياسة حركة الاخوان في العراق، كما أن حركة الاخوان المسلمين هي الحركة التي تمتلك امتدادات تنظيمية واسعة محسوسة . والجدير ذكره هنا أن حركة الاخوان المسلمين كانت تقبل بين صفوفها في الخمسينات أفراداً من طائفة الشيعة ، انسحبوا منها عندما أصبحت تأخذ طابعاً طائفياً في سلوكها التنظيمي والحركي والتثقيفي ، كما أنها لم تعد تقبل أحداً من الشيعة في تنظيمها مجدداً ، كما أننا لا يمكن أن نغفل ان حركات إسلامية عسكرية ثورية داخل الجيش العراقي كانت تعمل سراً ، أبدت مرونة لا بأس بها في تعاملها مع الطائفية،وهذا ما سنتطرق إليه بالبحث أيضاً ، شكلت المجموعات المرتبطة بالإخوان المسلمين في الجيش،وعلى رأسها اللواء الركن محمود شيت خطاب اتجاهاً يشغل حيزاً لا بأس به بين أوساط الضباط ، خاصة بين ضباط مدينة الموصل ، ومحمود شيت خطاب نفسه منها ، إلاّ أن اتجاه حركة الاخوان المسلمين العامة ارتبط ارتباطاً وثيقاً مع حركة أنظمة الحكم ذات التركيبة الطائفية الأحادية الجانب ، لذا فإن هذا الاتجاه قد انعكس على نشاط الضباط الذين ينتمون إلى حركة الاخوان المسلمين أو الذين يتعاطفون معها . وشكلوا في أغلب الأحيان أحد الدعائم الأساسية لبناء الحكم في مختلف عهوده ، فقد شكلت كتلة الضباط ذوي الاتجاه الإسلامي شريحة مهمة من الشرائح التي دعمت حكم عبدالسلام

عارف وأخيه عبدالرحمن ، وكان محمود شيت خطاب يشترك في بعض الوزارات التي ألفت في عهديهما وفي العهود التي تلت سقوط عبدالكريم قاسم كلها تقريباً ، كما كان عضواً في أول وزارة شكلت بعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨، إلَّا أن الملاحظة المهمة هنا هي أن هذا التيار لم يكن يعتمد استراتيجية ثورية تتوسل بالعنف لإقرار نظام إسلامي للحكم في العراق ، بل كانت دوماً تقف مع السلطة تساندها ، أو تتحالف مع تيارات أخرى لغرض تنفيذ مؤامرة أو انقلاب كما حدث في شباط ١٩٦٣ و١٨ تشرين ١٩٦٣ .
وفي الحالات التي تجد نفسها لا تستطيع أن تتلاءم بصورة تامة مع النظام الحاكم ، فإن مواقفها تتذبذب بين التأييد والسلبية في أقصى الحالات ، لذا فإن هذا الاتجاه لم يمسه الضرر الكبير الذي يهدده تهديداً كبيراً ، بسبب كون اتجاه الحركة العام لتنظيم الاخوان كما أشرنا يصب في مجرى سلطة النظام ويدعمه ، ما دام سائراً في الاتجاهات المعروفة التي تحكمه ، لا بل إننا نرى بأن قسماً من الضباط المعروفين باتجاههم الإسلامي السني داخل القوات المسلحة يستلم مناصب رفيعة في قيادة الجيش ، كالعميد الركن اياد خليل زكي الذي أصبح قائداً لإحدىٰ الفرق ، وعلى الرغم من تعرضه للنقل والابعاد عن صنفه إلى صنف آخر ، حيث تم نقله بعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ من لواء الحرس الجمهوري إلى إحدىٰ وحدات المشاة بعد إبدال صنفه المدرع ، وكانت أقصى الحالات التي تعرض لها هذا الاتجاه للضرر هي إحالة قسم من ضباطه المعروفين على التقاعد، أمثال العقيد الركن حكمت شاكر آمر اللواء المشاة الثاني سابقاً، والعقيد الركن طارق الهاشمي أحد معلمي كلية الأركان الذي يعتبر من أذكىٰ ضباط الجيش العراقي ، والمقدم الركن رمزي عبدالمجيد . وفي الحقيقة فإن سبب إحالتهم على التقاعد هو رفضهم وإصرارهم على عدم الانتماء إلى تنظيمات الحزب الحاكم ، ويشكل الضباط السنة المتدينون، أمثال العميد الركن عبدالكريم العيتاوي، والعميد الركن عبدالقادر زينل التحافي، والعقيد الركن فائق حميد الأعظمي وغيرهم العشرات من الضباط امتداداً لهذا الاتجاه الكلاسيكي في الجيش والذي لا تعارض السلطة وجوده أو تبدي تحفظاً شديداً اتجاهه، وربما كان عبدالجبار شنشل يقف على رأس هذا التيار داخل القوات المسلحة العراقية ، وكان الطرفان يتقاربان في معظم الأحيان ويرتبطان بروابط وثيقة على الرغم من موقف السلطة الذي يتعارض أصلاً مع الإسلام، ويشجّع على إفشاء الممارسات المنافية له في المجتمع . .

ـ إلَّا أن الحركة الإسلامية السنية تأثرت في السنوات الأخيرة تأثراً عميقاً بالثورة الإسلامية في إيران ، وظهرت تنظيمات عسكرية سرية جديدة بين أوساط الضباط من أهل السنة بعيدة عن النهج الذي كانت تسير عليه الفئة التقليدية المتدينة التي ترتبط بنوع من

الروابط مع حركة الإخوان المسلمين، هذا التيار الجديد الذي بدأ يتعاطف مع المد الإسلامي الذي بدأ يهز المنطقة هزاً عنيفاً ، ولقد كان للشخصية الإسلامية المجاهدة للشيخ ناظم العاصي العبيدي تأثير بالغ على بلورة هذا الاتجاه واتساعه ، فقد كان يجتمع حوله عدد كبير من الضباط المتدينين الذين يستمعون إلى محاضراته الحماسية بشغف ، والتي يحث فيها على مقاطعة النظام وعدم التعاون معه أو الانتماء إلى حزب السلطة ، وقد استمعت شخصياً إلى محاضرة له أثارت في نفسي التعجب والتأثر في نفس الوقت، فشجاعته الفائقة في فضح النظام وعدم تردده في كشف فضائحه ومخالفته للدين الإسلامي ، وبلاغته وحسن تعبيره وتأثيره الكبير في نفوس مستمعيه ، كانت لها آثارٌ واضحة على كل من كان على علاقة معه ، ولقد كان من نتائج جهوده الحثيثة ظهور تنظيم عسكري قاده الشهيد المقدم أحمد عبدالله صالح ،والذي امتد نشاطه في المحافظات الشمالية ، الموصل وكركوك خاصة ، ومن مآثر هذا التنظيم أنه لا يفرق بين السنة والشيعة ويقبل عضوية أبناء كلا الطائفتين فيه ويشجع عليه ، إلاّ أن هذا التنظيم تعرض للكشف من قبل مخابرات النظام عام١٩٨٣ ،حيث تمّ اعتقال عدد من قادة التنظيم وعلى رأسهم المقدم أحمد عبدالله صالح ، والمقدم الركن ميسر أحمد قدو، والنقيب أثير سعيد محمد، والملازم الأول الطيار عبدالقادر عبدالله ، والسيد محمد شفيق البدري ، حيث تمّ تنفيذ حكم الإعدام بهم جميعاً ، كما وأن الشيخ ناظم العاصي نفسه قد اعتقل هو الآخر أيضاً وتم إعدامه ، لكن الاعتقاد السائد هوان التنظيم التابع لهذه الجموعة لم يكشف بأجمعه ، وأن خطوطاً كثيرة منه ظلت بعيدة عن عيون السلطة ، وأنها ربما لا تزال تعمل بصورة أكثر سرية وبأساليب تختلف عن الأساليب التي اعتمدتها في عملها السابق .

ـ تجدر بنا الإشارة إلى أن بعض علماء الدين السنة من أهل الموصل قد أصدروا فتاوى غير مكتوبة في الأيام الأولى للحرب ، أعلنوا فيها بأن من يقتل في هذه الحرب فإن مصيره النار ، لأنها حرب شنت ضد مسلمين،حيث لا يجوز للمسلم أن يقتل أخاه المسلم ، لقد أخبرني بذلك أحد ضباط الفرقة التي كنت أعمل فيها، وكان ضابطاً متديناً ، حيث كانت الحيرة والاضطراب يبدوان عليه بسبب شعوره العميق بأنه يقف موقفاً مخالفاً لتعاليم الإسلام ، مما تركه مدة طويلة في حالة صراع نفسي شديد، بين تنفيذ الأوامر التي تصدرها القيادة بمواصلة وتنفيذ العمليات،وبين التزامه بتعاليم الدين الإسلامي التي جاءت صريحة على لسان علماء الدين والتي تدعوه إلى عدم مقاتلة المسلمين ، وقد سمعته يردد مرات عديدة بأن من سخرية القدر أن يطلق صدام المعروف بتهتكه وابتذاله كلمة مجوس على أناس يعتنقون الإسلام قبل ١٤٠٠ عام . وربما تركت تلك الفتاوى آثاراً متفاوتة على عدد آخر من الضباط من أهل الموصل وسامراء ، حيث كانت تسمع

همسات متباينة من بعض قسم من الضباط السنة ، إلاَّ أن الأمر لم يتعدَّ الهمس إلى العمل الفاعل باتجاه اتخاذ مواقف أكثر عملية غير الذي ذكرناه في التنظيم الذي قاده المقدم الشهيد أحمد عبدالله صالح ، وربما كان سبب ذلك هو سعي النظام إلى إعطاء الحرب صفة طائفية بأساليب قذرة وذلك بإقناع عدد من رجال الدين السنة على العمل بهذا الاتجاه ، إضافة إلى وجود عدد منهم ممن كان على استعداد مسبق لتقبل هذه الأفكار مع الأسف الشديد .

ـ أشارت الدكتورة رجاء حسين الخطاب في كتابها تأسيس الجيش العراقي إلى ظهور شكل من التنظيم عام ١٩٣٣، هو أقرب ما يكون إلى التكتل منه إلىٰ التنظيم، يقوده الرئيس الأول ـ مقدم ـ توفيق حسين الذي تخرج من الكلية العسكرية في الآستانة عام ١٩١٣ واشترك في دورة الأركان التركية وقضى فيها مدة ثلاث سنوات، تلقى العلوم العسكرية والسياسية والاقتصادية على أيدي أساتذة وقواد ألمان ، وأصبح معلماً في المدرسة العسكرية ببغداد بعد أن عاد إلى العراق ، واعتبرت الدكتور رجاء الخطاب هذا التكتل أول تكتل يحمل صفة إسلامية ، ويبدو أنها لم تكن تميز بين ما يعنيه الاعجاب بالنهضة الكمالية في تركيا والإسلام الذي لم يكن يربط بينهما أي رباط ، بل إن كمال أتاتورك كان أول من أعلن عداءه للإسلام واعتبره سبباً من الأسباب الرئيسية لتأخر تركيا ، كما فعل زميله رضا شاه (والظاهر أنه استفاد من كونه مدرساً لمادتي التاريخ العسكري والجغرافيا العسكرية في الكلية العسكرية في كسب الطلبة ، منطلقاً من إعجابه بنهضة تركيا الكمالية ، وكان من ضباط تنظيمه الطالب محمود الدرة)[1] . ويبدو بأن قائد هذا التكتل كان يعمل بصورة مباشرة لخدمة الأتراك لأنه وصل متأخراً إلى العراق نوعاً ما ، أي أنه قضى مدة طويلة تحت ظل حكم كمال أتاتورك الذي أخذ يروج لمبادئه ، وبما أن الحكم العثماني كان مرتبطاً بالإسلام كدولة، فإن توفيق حسين قد حاول الاستفادة من هذا الجانب لخدمة الغرض الحقيقي الذي كان يدعو له ، وقد بلغ أعضاء هذا التكتل حوالي السبعين ضابطاً ، ومن الأسباب التي دعت الدكتورة رجاء الخطاب للاعتقاد بأن هذا التكتل يحمل أفكاراً إسلامية هو عقده لاجتماعاته في جمعية الشبان المسلمين في الصالحية ، وهذا ليس دليلاً كافياً يثبت بأن الجماعة المذكورة تحمل أفكاراً إسلامية ، لأن توفيق حسين الذي ألّف كتاب (القيادة عند العرب) انتقد فيه السوريين واتهمهم بالتجسس، كما اتهم موقف كل من الملك حسين والملك بن سعود ، كان قد استلم قيادة

---

(١) تأسيس الجيش العراقي ، د. رجاء الخطاب ، ص ١٥١ .

اللواء المشاة الثالث تقديراً للخدمات التي قدمها للإنكليز أثناء حركات مايس ١٩٤١[1] .
لقد كان أغلب الضباط الأتراك الذين عملوا في الجيش العراقي معجبين بكمال أتاتورك وعلى رأسهم نوري السعيد التركي الأصل ، وهؤلاء جميعاً حاولوا إحداث تغيير في المجتمع العراقي على غرار التغيير الذي كان قد أحدثه كمال أتاتورك في تركيا ، لكنهم لم ينجحوا في ذلك دفعة واحدة نظراً للاختلافات الكبيرة بين المجتمع التركي والعراقي . . ولا يخفى بأن هذا الاتجاه قد استفاد من الدعم الذي قدمته له الماسونية والصهيونية العالمية ، التي كانت تخطط لإحداث تغييرات اجتماعية جذرية دعماً لمخططاتها التي أعدتها لمستقبل المنطقة، وعلى رأسها تحطيم الإسلام وإظهاره بأنه السبب الذي يقف وراء كل تخلّف تشهده المنطقة الإسلامية ، إلّا أن تنظيم توفيق حسين وتكتله هذا لم يستمر، إذ سرعان ما تفرقت جماعته عنه، وانضم القسم الأكبر منهم إلى التكتل القومي الذي كان يقوده كل من صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد[2] .

ــ لم يكن نشاط الاتجاه الإسلامي السني داخل القوات المسلحة ـ وكما نوهنا ـ متعدد الجوانب وشمولياً ، بل إن نشاطه كان ينحصر باتجاه تقديم النصح والإرشاد في مجال تدعيم الأسس المتعارف عليها لإدارة الدولة ، وكان دوره هكذا دائماً ، ونظراً لتشبع الاتجاه العام فيه بالروح الطائفية، فإنه كان يحرص حرصاً شديداً على ضبط عملية الموازنة التي تجري بين فترة وأخرى باتجاه سيادة الخط الذي يملك صلاحية إصدار القرار النهائي ، وعلى الرغم من أن نشاط الجماعة يبدو عادياً ولا يثير الشكوك كثيراً ، لكنه يملك من الوسائل والوسائط والقنوات التي تمكنه دوماً من أن يكون فاعلاً في هذا الاتجاه ، يساعده في ذلك عدم اعتماده لأسلوب العنف من أجل التغيير ، الذي ينجم أساساً من قناعاته الثابتة بأن الأنظمة التي تعاقبت على الحكم في العراق، منذ تأسيس ما يسمىٰ بالحكم الوطني وصولاً إلى النظام الحالي الذي يحكم العراق ، هذه الأنظمة لا زالت تسير وفق الأطر التي تصورتها الجماعة وتضعها في ذهنها دوماً لإدارة الدولة ، والتي لم تخرج عليها تلك الأنظمة أو تجتاز الخطوط الحمراء الرئيسية ، ولهذا فإنها ظلّت تعمل في هذا الإطار الذي ضمن لها استمرار وجودها وعمق تأثيرها الذي لا يمكن للمراقب العادي أن يلمسه ، إلّا أنها في حقيقة الأمر تشكل أخطر العوامل التي تؤمن الانسجام في بنية النظام واستمراره ، لأنها قادرة تحت كل الأنظمة والظروف أن تستمر في عملها بهدوء وحرية لأنها لا تجد نفسها مضطرة مطلقاً للاصطدام مع المتغيرات والهزات

---

(١) المصدر السابق. (٢) المصدر السابق.

وعناصرها متيقنة بأنها ستنتهي أساساً إلى استقرار أنظمة تجد نفسها مضطرة إلى قبول وجهات نظرها، لأنها تتوافق مع مخططاتها ولا تجد مع وجودها واستمرارها تعارضاً مع مصالحها ، بل انها تعتبر وجود هذه الطبقة من الضباط داخل القوات المسلحة دعامة مهمة من دعائم استمرار وجود ذهني متقبل دوماً للمشاريع التي تطرحها ، خاصة تلك التي يرى فيها كل من يهمه أمر استمرارها ضرورياً . فلقد انسجم هؤلاء الضباط مع كل الأنظمة التي توالت على العراق، ولم تتعارض معه باستثناء حكم عبدالكريم قاسم الذي كان يبدو لها وجوده خطراً على المشاريع التي تضعها في ذهنها لصورة الدولة ، فأبدت نشاطاً تآمرياً تحريضياً شديداً ضده، وساهمت مساهمة فعّالة في آخر المطاف بإسقاطه ، سواء باعتماد المساهمة في العمل المسلح الذي استهدف انهاء حكمه، أو من خلال تحريض الضباط الآخرين من السنة الذين حشوا أذهانهم بأفكارهم وتصوراتهم للحالة الراهنة أو التي ستليها ، ومنذ سقوط قاسم تخلّت هذه الكتلة عن أسلوبها هذا بصورة شبه كاملة ، حيث عادت إلى العمل بالطريقة المعهودة .

الفصل الثامن

التيار الكردي في القوات المسلحة

ـ شكل الوجود الكردي في القوات المسلحة العراقية حجماً لا بأس به ، فالسلطات العثمانية كانت تختار من بين متعلمي الأكراد عدداً من الضباط ، جرياً على عادتها في التعامل مع سكان العراق في التفرقة والتمييز الطائفي، ولكون النسبة الكبرى من أكراد العراق من طائفة السنة، فقد كانت لهم حصة في إدارة الحكم في العراق في العهد العثماني تتناسب إلى حد ما مع حجم وجودهم القومي السكاني ، حيث برز من بين الضباط الأكراد الذين خدموا في الجيش العثماني،ثم انتقلوا إلى الجيش العراقي في بداية تشكيله،وساهموا في بناء نواته الأولى ، كما تسلم قسم منهم مسؤوليات رفيعة أخرى في الدولة وأصبح منهم وزراء ورؤساء وزراء خلال فترة الحكم الملكي ، ومن بين هؤلاء كل من جمال وجلال بابان، نور الدين عبدالوهاب ، نور الدين محمود بهاء الدين نوري ، بكر صدقي ، وغيرهم العشرات ، وظل وجودهم واضحاً جداً خلال فترة الحكم الملكي الذي كان يعتمد الطائفية في انتقاء الضباط للعمل في الجيش ، وظل وجود الضباط الأكراد في القوات المسلحة يزيد عن وجود الضباط الشيعة فيها عن الضعف، ولم تعتره أية تغييرات وذلك لثبات الوضع السياسي واستقرار العلاقات التي كانت تحرص السلطة على تثبيتها داخل المجتمع العراقي ، حيث لم يحدث ما يعكر صفو العلاقات بين الأكراد والسلطة، سوى حركات الملا مصطفى البارزاني في الأربعينات، والتي أمكن إخمادها بسرعة، وانتهت بالانسحاب الشهير للملا مصطفى البارزاني وعدد من أفراد عشيرته وأهله إلى الاتحاد السوفيتي عبر المثلث العراقي ـ الإيراني ـ التركي ، حيث طلب اللجوء السياسي هناك ، وعلى الرغم من أن السلطات الحاكمة التي كانت تتعاقب على الحكم بعد سقوط الحكم الملكي كانت على غير وفاق مع الأكراد عموماً، وسادت بينها وبينهم علاقات متوترة بصورة مستمرة ودائمة ، إلاّ أنها كانت تحرص على انتقاء العناصر

الموالية لها من بين صفوفهم لإدخالهم كضباط للعمل في القوات المسلحة العراقية، وهي تكنّ لهم احتراماً كبيراً وتشجع وجودهم في الجيش لاعتبارات عديدة: أهمها محاولة إيجاد عدد كبير من الموالين لها من بين صفوف الأكراد بكل الوسائل، في وقت كانت تحتاج فيه إلى أي دعم مهما كان محدوداً بين أوساط الشعب الكردي للوقوف أمام الحركة الكردية المسلحة، التي استمرت إلى فترة طويلة متواصلة كانت تساهم في إنهاك الحكومات المتعاقبة وتستنزف الكثير من قواها المادية والبشرية .

ـ لا بد لنا أن نتحدث عن حركة الفريق بكر صدقي لما لها من آثار ترتبت في حينها على الوضع داخل الجيش بصورة خاصة والمجتمع بصورة عامة ، كما أن ذلك يفيدنا في إلقاء الضوء على شخصية عسكرية كردية لامعة مثلت في تحركها ذلك اتجاهات التيار الكردي في القوات المسلحة وأهدافه. كان الفريق بكر صدقي من الضباط اللامعين في الجيش العراقي، ويمتلك شخصية ذات تأثير كبير، إضافة إلى شجاعته وجرأته مما ساعده في أن يخلق له مكانة مرموقة بين الضباط، مما أدى إلى التفاف عدد كبير منهم حوله، خاصة بعد أن تمكن من القضاء على حركة النساطره وهم الذين يعرفون اليوم بالآثوريين، بعد أن قاموا بإعلان التمرد على السلطة مطالبين بمنحهم الحكم الذاتي وبعض الحقوق الأخرى بدعم من الإنكليز الذين كانوا يعتبرونهم رتلهم الخامس، حيث انشأوا منهم قوات خاصة سميت بقوات الليفي ، كانت تقاتل معهم عندما كانوا يجدون أنفسهم أمام مواجهة مسلحة معادية لهم في العراق ، وكانوا يحرصون على دعمهم وتمتعهم بمكانة خاصة داخل العراق ، بحيث أن ضباط قوة الليفي قد فرض قبولهم في الجيش العراقي بعد حلّ قوات الليفي ، وفي عام ١٩٣٣ أعلن هؤلاء عصياناً مسلحاً قام بكر صدقي بإخماده دون أن يستشير الإنكليز أو يطلب معونتهم ، وبذا ثبت بأنه وطني أولاً، وإنه قائد عسكري جيد ثانياً ، على الرغم من أن عليه مآخذ معينة منها، أنه كان يستميل الضباط عن طريق إقامة حفلات الغناء وموائد شرب الخمر، وهي في الواقع تهمة ليست شنيعة إذا ما قورنت بما يفعله القادة جميعاً، بحيث أن قسماً منهم كان يعدّ من « المبدعين » في إعداد برامج حفلات اللهو وشرب الخمر، وهي حالة ظلت تلازم الجيش على مختلف مراحل تاريخه وتشكل ظاهرة بارزة، حيث تشهد المناسبات الخاصة والعامة إقامة حفلات رقص وغناء وتحضرها فرق عديدة منها فرق أجنبية تستقدم من الخارج أو من ملاهي بغداد العامرة بها . على أثر القضاء على حركة النساطرة ارتفعت سمعة بكر صدقي بين أوساط الجيش والشعب ، وبذا أصبح قادراً على لعب دور هام في الحياة السياسية في العراق بعد أن أصبح يمتلك من القدرة ما يعينه على ذلك ، وكان ياسين الهاشمي يدير الدولة بأسلوب

ديكتاتوري مقيت مستخدماً الجيش لضرب العشائر تارة،واستخدامها لمساندته تارةً أخرى ، وهكذا أمسك بمقاليد الحكم مما أثار عليه الجيش والملك غازي في آن واحد، الذي كان يميل ويتعاطف مع بكر صدقي ، وفي ٢٩ تشرين الأول ١٩٣٦ قاد بكر صدقي انقلابه وأسقط حكومة ياسين الهاشمي ، حيث شكل حكمت سليمان الوزارة التي أصبح فيها بكر صدقي وزيراً للدفاع ، كانت الحركة تحظى بتأييد قسم من المدنيين من السياسيين،خاصة جماعة «الأهالي» ، وفي ١١ آب ١٩٣٧ أغتيل بكر صدقي في الموصل بينما كان يروم التوجه إلى تركيا لحضور مناورات يقوم بها الجيش التركي في تراقيا في ١٨ آب ١٩٣٧، وقد قيل بأن القوميين في الجيش قد قاموا بقتله لأنه نادىٰ بأن لا عروبة في العراق ، ولكن الأيدي الحقيقية التي قتلته هي أيدي الإنكليز، وذلك لأنهم كانوا يكرهونه لأسباب عديدة ، وأرى أن التهمة التي ألصقت به بأنه عميل للإنكليز لا تستند على وقائع قاطعة تدينه بالفعل ، بل هي مجرد إشارات بسيطة لتكليفه ببعض المهمات لمدة محدودة في المنطقة المتنازع عليها بين تركيا وبريطانيا في منطقة الموصل ، ومما يثير الشكوك حول صحة الاتهام هو أن النص الإنكليزي الذي ورد في هامش الصفحة ١٦٨ من كتاب تأسيس الجيش العراقي للدكتورة رجاء الخطاب لم يترجم بصورة دقيقة ، والتي تقول أن شعبة الاستخبارات في وزارة الطيران قد اكتشفت بأن بكر صدقي كان قد عمل وكيلاً للمخابرات البريطانية في المنطقة المتنازع عليها بين العراق وإيران لمدة محدودة ، بينما لم تترجم المؤلفة ما ورد بالفعل متعمدة ذلك،كي تستطيع أن تقتطع منها ما يعزز وجهة نظرها التي تبدو انها كانت تحملها مسبقاً عن بكر صدقي لدوافع شخصية ، ومما يلفت الانتباه هو أن شعبة الاستخبارات تقول في تلك الرسالة بأنها (قد اكتشفت) أن بكر صدقي كان يعمل لحسابها ، كأن بكر صدقي وهو شخص يحتل مركزاً مهماً في الدولة يحتاج إلى فترة يتم فيها اكتشافه عميلاً لبريطانيا ، وكأن الانكليز لا يعرفون عملاءهم العاملين في الطرق بصورة دقيقة .

ــ لم يكن بكر صدقي عميلاً للإنكليز استناداً إلى الحقائق التالية :

أ ــ إنه لم يكن على علاقة ملائمة مع قطب السياسة البريطانية في العراق والمنطقة نوري السعيد ، بل إنه كان يكرهه،إضافة إلى قريبه وزير الدفاع جعفر العسكري وكان موقفه منهما معادياً(١) . فهل يعقل أن يكون عملاء يعملون لخدمة جانب واحد أعداء فيما بينهم؟ ألم يكن الأجدر بالإنكليز أن يوحدوا جهود نوري السعيد مع جهود بكر صدقي عميلهم القوي الآخر كي يحكموا السيطرة على العراق والجيش،بصورة خاصة لإبعاده عن

---

(١) تأسيس الجيش العراقي ـ د. رجاء الخطاب.

التأثير في السياسة لغير مصالحهم، كما يدعي من أرّخ لهذه الفترة كالدكتورة رجاء الخطاب؟ هل هناك شك في أن ممثل السياسة البريطانية الأول ومنفذها في المنطقة كان نوري السعيد الذي حضر مؤتمر القاهرة الذي عقد في آذار عام ١٩٢١ برئاسة ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطاني لبحث الشؤون العربية، أي تقسيم الوطن العربي وتوزيعه على عملاء الإنكليز وأذنابهم ومن بينهم رجلهم الأول نوري السعيد ، الذي لم يترك مجالاً إلاّ وندد فيه ببكر صدقي عندما كان هارباً في القاهرة، يحث كل الأطراف على العمل ضده وإسقاطه؟ .

ب ـ قام بكر صدقي بالقضاء على حركة النساطرة مما أدى إلى غضب الإنكليز لهذا العمل الذي يتم دون استشارة خبرائهم العسكريين الموجودين في الجيش العراقي وقياداته .

جـ ـ كانت علاقة بكر صدقي بالملك غازي جيدة وكانا على تفاهم واتفاق تامين . وكان الملك غازي معروفاً بعدائه للإنكليز وكرهه لعميلهم الأول نوري السعيد ، لذا فإن الإنكليز قاموا بتصفية بكر صدقي أولاً ثم جاءت تصفية الملك غازي ثانياً .

و ـ حاول بكر صدقي التقرب من إيطاليا والدانمارك وتشيكوسلوفاكيا لشراء الأسلحة ، وهي لا تعتبر بنظر « رجاء الخطاب » جريمة كبرى بنظر الإنكليز وإنهم قد تغاضوا عنها ، وكأنها نسيت بأن الرئيس عبدالناصر قد واجه متاعب كثيرة عندما عقد أول صفقة للأسلحة مع الكتلة الشرقية ، حيث آعتبر الإنكليز والأميركان هذا العمل سابقة خطرة لا يمكن السماح لها أن تمر دون أن تتخذ ضدها رداً ملائماً ، كما أنها نسيت بأن بريطانيا كانت قد أصرّت في ملحق المعاهدة العسكري التي عقدتها مع الحكومة العراقية عام ١٩٢٨ بأن التسليح العراقي يجب أن يكون مصدره الرئيسي بريطانيا ، وانها لا يمكن أن تسمح بأي حال من الأحوال أن يجري نقض نصوص المعاهدة التي أملتها دولة كبرى تدير نصف المعالم على بلد صغير مثل العراق .

هـ ـ كان سلوك بكر صدقي العام يدل على عدم ولائه للإنكليز ، وكان توجهه وطنياً حقاً ، يروي فؤاد عارف الذي رافق بكر صدقي في جولته مع رشيد عالي الكيلاني في منطقة الرميثة عام ١٩٣٥، عندما قام الجيش بإخماد حركة العشائر في هذه المنطقة ، قال الكيلاني لبكر صدقي : «الآن أقدر أفخر بالجيش العراقي ، فأجابه بكر صدقي بحضور بعض الضباط ومنهم فؤاد عارف بأنه على العكس لا يفخر بجيش قتل أبناء شعبه ، لأن

مهمة الجيش الحقيقية أوسع بكثير من ذلك»[1] ، وهذا موقف يدل على عمق فهم بكر صدقي للوطنية ، ففي الوقت الذي كان فيه ياسين الهاشمي والكيلاني اللذان يعتبران من أبطال الوطنية والقومية يستخدمون الجيش لقتل أبناء العراق في الفرات الأوسط والجنوب حفاظاً على كراسيهم ومصالحهم وخدمة أسيادهم الإنكليز ، كان بكر صدقي لا يجد في هذا العمل أي شرف وفخر للجيش أن يقوم به ، وهو موقف الضابط الوطني النبيل .

و ـ يتهم بكر صدقي بأنه يميل إلى هتلر وموسوليني، وقد حاول التقرب إلى ألمانيا ، وهو ما كان يمكن أن يخلق له عداء مستفحلاً من قبل الإنكليز ، فرضا شاه الذي حاول أن يوجد علاقات وثيقة مع ألمانيا، ويعلن حياد إيران في الحرب العالمية الثانية ، انتهىٰ به إلى أن يقصى عن العرش ويتم نفيه من إيران وتنصيب ولده بدلاً عنه ، على الرغم من الخدمات الكبيرة التي قدمها للإنكليز ، فهل يعقل أن بريطانيا كانت غافلة عن توجهات بكر صدقي هذه وتتسامح عنها ، بالطبع إن ذلك غير ممكن والإنكليز لا يتسامحون في قضايا أقل من هذا بكثير ، فكيف يسمحون لبكر صدقي أن يجر العراق، وهو مصدر النفط والثروة، إلى جانب إيطاليا وألمانيا، ممّا يؤدي بالتالي إلى حرمانهم من العراق وخيراته؟ إضافة إلى موقعه المهم على طريق الهند الذي تحرص بريطانيا حرصاً عظيماً على أن يظل بعيداً عن أي تهديد .

ز ـ نظمت مؤامرة اغتيال بكر صدقي بعلم وتفاهم تم مع اللواء أمين العمري آمر حامية الموصل ، وهو من المعروفين بولائهم المطلق للإنكليز ، كما وأن عائلته ـ العمري ـ كانت من العوائل المتنفذة في العهد الملكي ، فأرشد العمري شغل مناصب حكومية رفيعة في ذلك العهد ، ولا يمكن لأمين العمري أن يقدم على خطوة كهذه دون علم الإنكليز وموافقتهم ، بل إنه ليس من المستبعد أن تكون الخطة قد رسمها الإنكليز أنفسهم لاغتيال بكر صدقي .وتعاونت على انجازها أطراف عديدة ، فقد تمت ثلاث محاولات لاغتياله ،نجحت الثالثة منها في الموصل خلال الفترة التي عزم فيها المغدور على السفر إلى تركيا ، فهل يعقل بأن الاستخبارات البريطانية التي تمسك بكل شيء في العراق، ولديها مستشاروها الذين يسيرون دفة شؤون الدولة وإدارتها ، لا تعلم بالنوايا المبيتة ضد بكر صدقي ، إذا كان عميلاً لها؟ والجدير بالذكر بأن العمري قد كوفىء على عمله هذا بتعيينه قائداً للفرقة الأولى بعد مقتل بكر صدقي .

ح ـ يورد كل من صفاء المبارك في كتابه انقلاب سنة ١٩٣٦ ،وإبراهيم الراوي في

(١) تطور الحركة الديموقراطية في العراق ـ عبدالغني الملاح ص ١٣٤ .

كتابه من الثورة العربية الكبرى إلى العراق الحديث بأن بكر صدقي كان مناهضاً للإنكليز وان استخباراتهم هي التي قامت بتدبير مؤامرة اغتياله لأنهم كانوا يكرهونه بسبب إخماده لحركة النساطرة عام ١٩٣٣ .

ـ ربما كان بكر صدقي وبسبب كونه كردياً ينظر بعين العطف إلى قضية الشعب الكردي ، الذي وعده الحلفاء بإنشاء وطن قومي له بعد انتهاء الحرب العالميةالأولى ، ثم نكثوا عهدهم هذا ، مما حدا بالضباط الأكراد بصورة خاصة إلى أن يلتفوا حوله ، إلاَّ أنّه ليس من الثابت بأنه قد سعى إلى إظهار نواياه إلى العلن، لأن علاقته بالملك غازي كانت طيبة، بحيث أن الملك نفسه قد خضع إلى الابتزاز عندما هدد بأنه كان يساند بكر صدقي بعد أن تم اغتياله ، كما أنه لم يعثر على أية وثائق تشير إلى أن بكر صدقي كان يعمل من أجل هدف قومي خاص .

ـ تبلورت الاتجاهات الرئيسية للتيار الكردي في القوات المسلحة العراقية بعد نشوب التوتر بين الحكومات العراقية المتعاقبة بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ والأكراد، واندلاع الحركة الكردية المسلحة في كردستان ، وقد تمثلت بأربعة اتجاهات رئيسية عينت مسير تحرك التيار الكردي في الجيش العراقي وهي :

أ ـ التيار الموالي للسلطة .
ب ـ التيار المحايد .
جـ ـ التيار الانتهازي .
د ـ التيار الموالي للحركة الكردية المسلحة .

ولقد كان كل تيار من هذه التيارات الأربعة يقوى أو يضعف تبعاً للحالة السائدة بين السلطة والحركة الكردية ، فعندما تكون العلاقة متوترة بين السلطة والحركة الكردية، فإن التيار الموالي لها والانتهازي يكون هو الطابع الغالب على حركة التيار الكردي داخل القوات المسلحة ، وعندما تكون العلاقات بينهما جيدة، فإن التيار الموالي للحركة الكردية يكون هو التيار الذي يمسك بحركة الأكراد داخل القوات المسلحة بحرية ، يوجهه بالاتجاه الذي يرغب فيه وهكذا .

التيار الموالي للسلطة :

ـ لهذا التيار جذور قديمة تمتد إلى الأربعينات عند إندلاع حركة الملا مصطفى البارزاني الأولى، والتي انتهت إلى الفشل وما قبلها من الحركات الكردية التي نشبت في

كردستان ، وكان للخلافات الدائرة بين العشائر الكردية الرئيسية في منطقة كردستان العراق ، والخلافات التي نشبت بين القبيلة الواحدة ورؤسائها أثر كبير في ظهور هذا التيار ووضوحه ، والتي شجعت السلطات العراقية على تغذيته بدعم إحدىٰ العشائر ضد الأخرى ، أو دعم شخص معيّن في القبيلة الواحدة ضد آخر ، فالخلافات بين عشائر الزيباريين التي تقطن المنطقة الممتدة من شمال شرق راوندوز وحتى مدينة عقرة في محافظة الموصل والعشائر الكردية الأخرى، كالسورجية والهركية والتي كانت تهدف إلى بسط نفوذ قبيلة على حساب القبيلة الأخرى ، ساهمت في الحقيقة باستمرار وجود هذا التيار وتغذيته وبلورته ، كما أن الخلافات التي كانت تدور بين الزيباريين أنفسهم والبارزانيين الذين ينتمون إلى عشيرة واحدة ساهم هو الآخر في ظهور هذا التيار واستمراره ، فلقد وقف كل من رشيد لولان وأسعد شيتنه مثلاً، وهما من البارزانيين مع الحكومة وقاتلوا الملا مصطفى البارزاني في حركته الأولى،وقدموا مساعدة كبيرة وهامة للجيش أثناء تقدمه من منطقة راوندوز باتجاه منطقة بارزان مركز الحركة الكردية في حينها ، حيث استطاع الجيش العراقي أن يصل إليها رغم المقاومة الشديدة للبارزانيين ، مما أدى إلى فشل الحركة وإنهائها ، كما ساهم الزيباريون أيضاً في هذا المجهود وشاركوا الجيش العراقي في العمليات التي شنت ضد الحركة الكردية ، كما وأن بعض العشائر الكردية كانت تقف دوماً إلى جانب الحكومة،وهو موقف شبه دائم وتقليدي كعشيرة الجاف في منطقة السليمانية . ولقد أصبح لهذا التيار وجود قائم ومستمر نتيجة لموقفه هذا تدعمه السلطة وتزوده بكل وسائل القوة والنفوذ ، فلقد كوفىء أسعد شيتنه مثلاً على مساندته الواسعة للحكومة بأن منح رتبة ملازم في الجيش العراقي ، ولا تزال صورته بالملابس العسكرية معلقة في بيته في راوندوز ، ومنذ ذلك التاريخ بدأ هذا التيار يحصل على الموقع المتميز والامتيازات المتعددة في منطقة كردستان،حيث يحظى بدعم السلطة ومساندتها ، فظهرت إلى الوجود كتل دائمة الولاء للسلطة بين عدد من العشائر الكردية، استمرت في ولائها هذا في مختلف العهود التي توالت على الحكم في العراق .

ـ بعد نشوب الحركات عام ١٩٦١ في كردستان واستمرارها وأخذها مساراً جديداً واسعاً، أصبح لهذا التيار في القوات المسلحة وجود أكثر اعتماداً ووضوحاً، وبرز من بين الضباط الأكراد من يساهم بصورة مباشرة واندفاع في القتال إلى جانب السلطة ضد الحركة الكردية ، وكان على رأس هذا الاتجاه أرشد الزيباري الذي كان طالباً في الكلية العسكرية ، الصف المستجد فيها ، والذي ترك الكلية وذهب ليقود عدداً من الزيباريين من عشيرته مؤلفاً جزءاً كبيراً من القوات المسماة بقوات صلاح الدين،وهي قوات تضم

الأكراد الموالين للسلطة، والذين يتعاونون معها ويقدمون بعض المساعدات، وعلى رأسها المساهمة في القتال ضد الحركة الكردية ، وقد استمر أرشد الزيباري يقاتل ضد الحركة الكردية إلى أن توقف القتال بين سلطة عبدالسلام عارف والحركة الكردية بإعلان الهدنة، لغرض بدء التفاوض، حيث عاد إلى الكلية ودورته كانت على وشك التخرج ، حيث تخرج معها ومنح رتبة ملازم ثانٍ في الجيش العراقي ، وما أن عادت الحركات مرة أخرى، عاد هو الآخر إلى قيادة قسم من القوات المذكورة، واستمر على ذلك حتى مؤامرة ١٧ تموز ١٩٦٨ ، حيث توقف القتال اعتباراً من عام ١٩٧٠ حتى عام ١٩٧٤ ، وما إن بدا بأن السلطة والحركة الكردية لم تتوصل إلى اتفاق يرضي الطرفين حتى نشبت الحركات مرة أخرى في آذار من عام ١٩٧٤ ، وأعيد تشكيل قوات صلاح الدين، حيث كان لأرشد الزيباري دور بارز في قيادتها بعد أن أصبح يحمل رتبة مقدم ركن إضافة إلى أخيه الرائد الركن صابر الزيباري الذي قتل في جبهة الحرب الدائرة الآن، وكان وجودهم يشكل الثقل الأساسي للتيار الكردي الموالي للسلطة في الجيش العراقي، وأكثر اعتماداً وثقة من قبل السلطة ، كما شكل كل من العميد الركن جواد أسعد شتينة الذي أعدم عام ١٩٨٢ بتهمة التخاذل في عمليات الطاهري وأخيه الرائد رسول جزءاً من هذا التيار ، وكان للعقيد محمد الجاف دور بارز أيضاً في خدمة السلطة، وذلك باشتغاله في مديرية الاستخبارات وفي الشعبة الخاصة بجمع المعلومات عن الأكراد بالذات ، وإضافة إلى عمله التخريبي داخل العراق بين صفوف الأكراد ، فإن له دوراً خاصاً في العمليات التي كان يجري تنسيقها بين المخابرات العراقية والأكراد المناوئين للحكومة الإيرانية في كردستان إيران ، فقد أشرف على تنظيم العلاقات بين المخابرات العراقية وجلال الحسيني وعبدالرحمن قاسملو ، وكان له دور بارز في عودة سالار الجاف إلى العراق الذي أعدم أخيه سردار الجاف في إيران بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران بتهمة مهاجمة المتظاهرين في مدينة بادة الإيرانية خلال أحداث الثورة ، كما قام بترتيب عودة الشيخ النقشبندي إلى العراق ، وهو رجل دين دعي كان يقوم بخداع الأكراد البسطاء ويسلبهم أموالاً كثيرة، حيث كان يبيعهم صوره وهو ممتطياً حصانه الأبيض بمبلغ خمسة دنانير لكل صورة ، وكان يقوم بأعمال الشعوذة ما يشعر بالخجل . لقد كان هذا العميل على علاقة وثيقة وشخصية مع الشاه المخلوع، حيث لم يستطع أن يظل في إيران بسبب كونه من ركائز النظام الملكي المنهار في إيران ، والمعروف بأن كل من سالار وسردار الجاف والشيخ النقشبندي كانوا يسكنون العراق في العهد الملكي، وكانوا يشكلون أكبر دعائمه في كردستان العراق خاصة في منطقة قضاء حلبجه ، وقد فروا جميعاً بعد ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ إلى إيران، ووجدوا في النظام الملكي هناك مأوىً وملجأً لهم ، وهكذا

تدور الأيام حيث يصبح العراق ملجأ للعملاء وأعداء الشعب مرة أخرىٰ ، ويعود هؤلاء مرة أخرى مكرمين معززين .

ـ بعد فشل الثورة الكردية المسلحة عام ١٩٧٥ إثر اتفاق الشاه مع صدام حسين في الجزائر،والتي لم يستطع صدام أن يستثمرها بوجه أفضل بسبب كون كل من صدام والبكر يعتقدان بأن الحركة الكردية قد انتهت إلى الأبد،وأن الأكراد ليسوا قادرين بعد الآن على النهوض والثورة مجدداً ، مطمئنين على التحالف الجديد مع نظام الشاه الذي كان يوفر الامكانات المادية والسياسية لاستمرار الحركة الكردية ، لكن الأمور في الواقع لم تكن تسير في كردستان بعد فشل الثورة بالاتجاه الذي كان يعتقده به ويخطط على ضوئه رؤوس السلطة ، فسرعان ما بدأت أعمال العنف تتجدد وتظهر إلى الوجود عام ١٩٧٧ . الذي أخذ يتصاعد باستمرار إلى هذا اليوم الذي أصبحت فيه الحركة الكردية المسلحة في كردستان تتمتع بموقع قوي لا يقل عمّا كانت عليه عام١٩٧٥،ولكن بصيغ حركية وقتالية جديدة أكثر ملاءمة للظروف الحالية ، ولذا عادت السلطة إلى عملائها القدامى والجدد تطلب منهم المعونة لمقاومة الحركة الكردية ، ومن ضمن الذين تم التوجه إليهم قسمٌ من الضباط الموالين للسلطة الذين تمّ نقلهم من وحداتهم ووضعهم بإمرة مديرية الاستخبارات العسكرية، حيث شكّلت بإمرتهم بعض المفارز الخاصة التي كلفت بتنفيذ واجبات ملاحقة الثوار الأكراد ومقاتلتهم بنفس الأساليب التي يقاتلون بها ، أي أن هذه المفارز اعتمدت أساليب حرب العصابات في مطاردتها للثوار الأكراد، وذلك بنصب الكمائن لهم ومتابعتهم إلى مناطق كائنة بالعمق بعيداً عن متناول الجيش ، إضافة إلى تزويدها للاستخبارات العسكرية ومديرية المخابرات بالمعلومات التي تحصل عليها عن حركة العصابات وتنقلاتها ، وكانت هذه المفارز تتقاضى رواتبها من مديرية الاستخبارات، كما يتم تزويدها بما تحتاج إليه من الأسلحة والأعتدة وبقية مستلزمات عملها مباشرة من المديريتين المذكورتين ، إلاّ أن هؤلاء في الحقيقة لم يتمكنوا من أن يفعلوا شيئاً على الإطلاق ، وكانوا غالباً ما يقعون هم ضحايا الكمائن التي ينصبها لهم الثوار الأكراد الذين كانت تصلهم معلومات دقيقة ومستمرة عن تحركاتهم، وليس خافياً بأن قسماً من أفراد تلك المفارز الخاصة كان على علاقة مع الثوار الأكرادأنفسهم، وغالباً ما كان يهرب عدد منهم ويلتحقون بالثوار الأكراد مع سلاحهم وعتادهم ، لقد عادت الوجوه القديمة التي عرفت بارتزاقها وسعيها إلى الكسب في أوقات الأزمات التي كانت تنشب بين السلطة والأكراد إلى الظهور واستثمار الفرصة التي أتاحها بدء الحركات مرة أخرى ، فسعيد أسعد شيتنه ظهر مرة أخرى على رأس عدة مفارز مسلحة في قاطع راوندوز ، كما شهدت مناطق

كثيرة من كردستان ظهور بعض العملاء والمرتزقة يقودون بعض المفارز التي كانت تديرها مديرية الاستخبارات العسكرية، وتوجه عملها بالتنسيق مع العمليات التي كان ينفذها الجيش أو تكلف بواجبات خاصة على ضوء المعلومات التي تتيسر لديها عن تحركات مجموعات الثوار الأكراد ، إلاّ أن جهود هؤلاء في الحقيقة ، وعلى الرغم من كل الأموال التي صرفت من أجلهم والأسلحة والأعتدة الكثيرة التي كانوا يزودون بها لم تأتِ بأي ثمار ، وكانوا غالباً ما يبيعون قسماً من الأعتدة التي تسلم إليهم إلى أفراد العصابات الثائرة بأسعار مرتفعة ، كما أنهم ظلوا يتعرضون بصورة مطردة لهجمات الأكراد ، كما أصبحوا موضع احتقار وازدراء من قبل الشعب الكردي كله .

ـ لم يكن هذا التيار يهتم لنوع السلطة المركزية في بغداد فهو على استعداد للتعاون مع أي حكومة تخلف أخرى بعد نجاح انقلاب يدبر ضدها، فالذي يهمّه هو مصالحه الخاصة ونفوذه واستحواذه على المنافع والمغانم ، وقد شجعه على ذلك حاجة كل سلطة تعاقبت على الحكم إليه بسبب استمرار نزاعها مع الأكراد ، فلقد عمل هذا التيار مع عبدالكريم قاسم،ثم مع سلطة الانقلاب في ٨ شباط ١٩٦٣،ثم مع عبدالسلام عارف وأخيه عبدالرحمٰن ، واستمرا بالتعاون مع سلطة انقلاب ١٩٦٨،وكانت الأوامر تشتد بينهما تبعاً لسعة المنافع التي يتبادلانها ، وهم يعارضون كل صلح وتفاهم يتم بين السلطة والحركة الكردية المسلحة لأنها تحرمهم من نفوذهم الذي ينتقل آلياً إلى الحركة الكردية المسلحة، التي تكون قد اتفقت مع السلطة مشترطة انتقال إدارة كردستان إلى أيدي كوادرها ، وبذا يكون التيار الموالي للسلطة قد حرم من المنافع والمناصب الحكومية، ويكون مضطراً عندها إلى الانسحاب على مضض،تاركاً المجال لممثلي الحركة الكردية للحلول محله وسلبه امتيازاته ومواقعه ، لكنه يظل مترصداً مترقباً بفارغ الصبر انهيار أي اتفاق يبرم بين السلطة والحركة الكردية ، ويسعىٰ هذا التيار جاهداً إلى تخريب كل اتفاق يتم مع السلطة ، وبث الإشاعات التي تهز الثقة وتزعزعها بين الحركة الكردية والسلطة ، كما أن حالة السلم لا تخدم هذا التيار أبداً، لأنه لا يستطيع أن يحصل على المغانم والأرباح إلاّ من خلال حالة الفوضىٰ والقتال والخلاف بين السلطة والحركة الكردية ، حيث تجد السلطة نفسها مضطرة إلى التعاون مع هذا التيار وإفساح المجال له واسعاً للكسب والحصول على المغانم ، فإضافة إلى الأموال الطائلة التي كانت تقدمها السلطة لهم مقابل مشاركتهم إلى جانبها في القتال ضد الثوار الأكراد، فإنهم كانوا يحصلون على مناقصات مشاريع كبيرة،كانت الدولة تقطعها لهم بأسعار أكثر من المناقصة كأسلوب آخر من أساليب الدعم المستمرة، التي تقدمها إلى رموز هذا التيار ، لذا فقد أصبح هؤلاء

يحصلون على أموال كثيرة كانوا يصرفونها ببذخ كبير على شراء السيارات والبيوت الفارهة في بغداد وبعض مدن كردستان الرئيسية ، إضافة إلى تبذيرها على موائد القمار التي أصبحت تنتشر في مصايف كردستان . كشقلاوة وصلاح الدين وسره رش وسواره توكه وسولاف وغيرها،والذي شكل هؤلاء زوارها الجدد الثابتيين ، إضافة إلى انتشار بيوت لعب القمار في أربيل والسليمانية التي أصبحت تجتذب لها رواداً جدداً من بقية مناطق العراق الأخرى خاصة مدينة بغداد ، كما أن هؤلاء أصبحوا يترددون على بغداد كثيراً يمضون أوقاتهم في أماكن اللهو ولعب القمار ، وفي الواقع فقد شكل هؤلاء بؤرة خطرة ساعدت على تفشي الفساد الأخلاقي في كردستان بصورة عامة ، كما وقع هؤلاء أيضاً ضحايا للنصب من قبل عصابات كانت تنظم عمليات لعب القمار والإشراف عليها، تتنقل بين بغداد وبعض مدن كردستان الرئيسية ، وسرعان ما يجد هؤلاء أنفسهم قد فقدوا ما كان بأيديهم من أموال بسرعة فائقة ، وعندئذٍ يسارعون إلى الدولة التي يبرعون في ابتزازها والحصول على أموال جديدة منها لسد احتياجاتهم الكبيرة إليها بسبب تعدد وسائل اللهو والفساد التي أصبحوا يرتادونها ويمارسونها .

التيار المحايد :

ـ يضم هذا التيار أغلب الضباط الأكراد العاملين في القوات المسلحة العراقية ، وهم في الواقع يؤدون واجباتهم العسكرية بصورة جيدة ومقبولة ، كما وبرز من بينهم عدد كبير من الضباط اللامعين الذين وصلوا إلى مناصب عليا في قيادة الجيش ومؤسساته المختلفة ، وإطلاق تسمية المحايد على هذا التيار لا يعني أنه لا يتعاطف مع القضية الكردية،على اعتبار أن ضباط هذا التيار هم طليعة مثقفة من الشعب الكردي ، بل إنهم في الحقيقة يتخذون لهم مسلكاً وسطاً بين ما تطلبه السلطة منهم وبين أحاسيسهم التي يفرضها عليهم انتمائهم القومي كأكراد ، فهم يؤدون واجباتهم بصورة مرضية دون الانغماس بأعمال توحي بأنهم يقفون مع جهة ضد جهة أخرى أو التظاهر بذلك ، ولقد كان وجود هؤلاء الضباط،وقسم لا بأس به من ضباط الصف والجنود الأكراد يشكل عنصراً ملطفاً من حدة العلاقات المتوترة بين العرب من جهة والأكراد من جهة أخرى ، والتي قد تسببها الدماء والضحايا التي تسقط من الطرفين ، ويحظى هذا التيار باحترام بقية منتسبي الجيش على مختلف مشاربهم واتجاهاتهم ، ويمتاز أغلب الضباط منهم بحسن التعامل والسيرة ودماثة الخلق والاستقامة ، ويمكن أن يعزى ذلك في الحقيقة إلى أن أغلب هؤلاء الضباط هم أبناء عوائل كردية معروفة في كردستان العراق بموقعها الاجتماعي المرموق وعراقتها وحسن تربيتها لأبنائها ، ويقف على رأس هؤلاء الضباط اللواء الركن عبدالله سيد

أحمد ، قائد القوات العراقية في الأردن بعد حرب حزيران عـام ١٩٦٧ مدة من الـوقت ، واللواء الركن مصطفى عزيز محمود الذي شغـل منصب قائد الفرقـة الآلية الأولى ، وهـو ضابط يمتاز بخلقه العالي ، وطيب تعامله مع مرؤوسيه ،وحسن إدارته إضافة إلى غزارة ثقافته العسكرية ، فهو خريج معاهد بريطانيا العسكرية ،ويجيد اللغة الإنجليزية ،وقد كتب مواضيع وأبحاث عسكرية عديدة نشرتها له المجلات العسكرية التي تصدرها وزارة الدفـاع ، فقد كتب بعض المقالات المهمة نذكر هنا بعضاً منها وهي كثيرة :

أ ــ مفاهيم وآراء في مدفعية العالم .

ب ــ تطوير المشاة الآلي السوفيتي .

جـ ــ الدفاع في الحرب الصاعقة .

د ــ تقدير الموقف ، أسلوب مقارنة قوات الطرفين .

هـ ــ المدفعية في الجيش السوفييتي .

و ــ تعبئة الخـرق والانتشار .

ز ــ الحرب الصاعقة.

ح ــ دروس من المعارك الحاسمة في التاريخ .

ط ــ دروس من معارك الجبهة الشرقية (فلسطين) .

ولا زلت أتذكر محاضرته الرائعـة التي ألقاهـا في البصرة، عندما كـان قائـداً للفرقـة الأولى عن الدفاع الجوي عن مدينة البصرة ، حيث بين بحسـابات دقيقـة ما يجب تيسـره من المدافع المختلفة العيارات ، حيث حدد عدد الكتائب المطلوبة للدفاع ضـد الطيـران المنخفض والمتوسط اعتباراً من مدفعية ١٠٠ ملم،حتى مدفعية ٢٣ملم، مـروراً بالعيـارات الأخرى لمدفعية مقاومة الطائرات، إلى وحدات الصواريخ سام وطائرات الاعتراض المقاتلة بالإضافـة إلى معلومات فنيـة مهمة أخـرى ، وهي من المحاضـرات التي لم أحضر مثلهـا قبلاً ، والجدير بالـذكر أن صنفـه كان مـدفعية مقـاومة الطائرات، ممـا ساعـده في أن يأتي محاضرته متكاملة ، إلاّ أنه وبسبب كونه حزبياً فإنه لم يستطع أن يؤدي مهـام عمله بصورة أكثر فعالية ،لأنه كان خاضعاً لتوجيه المنظمة الحزبية التي كانت تتخذ القرارات وهـو يوقـع عليهـا فقط ، وهو مـا يجـري مـع أغلب الضبـاط الكبـار في القـوات المسلحـة من غيـر الحزبيين ، ولقد وقع مرة ضحية لانتهـازية بعض القادة من ضباط القيادة العـامة للقـوات المسلحة الذين كانوا يتنمرون على غيرهم من القادة الذين لا يحتلون موقعاً حزبياً كبيراً أو انهم ليسـوا من أقارب العـائلة التكريتيـة الحاكمـة ، فبعـد انتهـاء أحـد التمـارين التي تم إجراؤها في الصحراء الغربية على الحدود الأردنيـة ـ السورية، والتي اشترك فيهـا ما يـزيد

على الفيلق المدرع ووحدات آلية ومدرعة أخرى ، بعد إنتهاء هذا التمرين وكما تجري العادة، فقد تم عقد مؤتمر تحليلي لتقييم التمرين حضره قادة الفرق والألوية وآمري الصنوف للفرق ، وخلال المناقشات التي جرت بحضور أحمد حسن البكر بصفته القائد العام للقوات المسلحة في حينها،والفريق الأول الركن عبدالجبار شنشل، واللواء الركن اسماعيل تايه النعيمي وعدد كبير من الضباط ، بدأ كل من عبدالجبار شنشل واسماعيل تايه النعيمي ، وهذا الأخير من أكبر الانتهازيين في الجيش العراقي ، يوجهون اللوم على الفرقة الأولى لعدم إجرائها التمرين بصورة جيدة وبصورة لا تظهر اللياقة والاحترام لقائدها ، وفي الواقع فإن التمرين نفسه قد أظهر الكثير من الأخطاء والمعضلات والمشاكل، وأهمها فقدان الوحدات لاتجاهاتها مما أبعدها كثيراً عن أهدافها ، لكون التمرين يجري لأول مرة على نطاق واسع وبهذا الحجم من الوحدات المدرعة والآلية ، وبالطبع فإن اللوم الذي وجه إلى الفرقة الآلية الأولى كان يعني توجيه النقد إلى قائدها، وإظهاره بمظهر العاجز عن إدارة فرقته في التمرين . وكان اللواء الركن مصطفى عزيز محمود هادئاً بينما كانت توجه إليه حملات النقد الشديدة ، وعند انتهاء شنشل والنعيمي ، وقف قائد الفرقة الأولى،وقال بكل هدوء: (أيها السادة إنني سوف لن أُزاحمكم أو أطمع بأن أستولي على مناصبكم) ، وكانت إجابته تلك كالقنبلة التي انفجرت ليس فقط في المؤتمر التحليلي،ولكن بين أوساط الجيش الذي كان يحتقر كل من شنشل والنعيمي لتملقهم وانتهازيتهم اللتين اشتهرا بها ، وقد اضطر البكر إلى إصدار توجيه خاص حول وجوب إظهار الاحترام المتبادل وتوخي المصلحة العامة عند مناقشة القضايا المتعلقة في نشاطات القوات المسلحة خاصة في المؤتمرات ، إشارة إلى ما جرى في ذلك المؤتمر التحليلي السابق الذكر .

ـ شكل عدد آخر من الضباط الأكراد هذا التيار ، من بينهم العميد جميل محمد مصطفى الذي شغل منصب آمر مدرسة ضباط الصف المهذبين ، وهو ضابط خريج المعاهد العسكرية البريطانية أيضاً،وله ترجمات كثيرة في مجال البحوث والمقالات العسكرية ، وهو ضابط جيد طيب المعاملة هادىء الطبع حسن الأخلاق ، كما يعتبر كل من العقيد الركن سردار عبدالقادر، والعميد الركن محمد نجم الدين النقشبندي،والعقيد الركن نزار النقشبندي ابن السيد خالد النقشبندي عضو مجلس السيادة الذي أنشىء بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، والذي أُعدم في جبهات الحرب بتهمة التخاذل ، والعقيد الركن مصطفى كمال عبدالقادر،إضافة إلى عدد كبير آخر من الضباط الذين لا زالوا في الخدمة ، إلاّ أن الملاحظة الجديرة بالاهتمام هي أن عدد الضباط الأكراد بدأ ينخفض بعد مؤامرة

١٧ تموز ١٩٦٨ بصورة ملحوظة ، وأخذ قبولهم في الكلية العسكرية يتناقص تدريجياً .

التيار الانتهازي :

ـ كانت ظاهرة الانتهازية في سلوك بعض الضباط وضباط الصف والجنود الأكراد أمراً ليس مستغرباً ، وذلك لأن السلطات المتعاقبة كانت تشجع على هذا النوع من السلوك المنحرف ، فبسبب حاجتها دوماً لأي سند من جانب،ومواصلة جهودها لإضعاف الحركة الكردية من جانب آخر،فإنها كانت تتبع دوماً نوع من السلوك يشجع على انتشار ظاهرة اللعب على الحبال ، فإن السلطة كانت تتسامح مع كل من يفر إلى جانب الحركة الكردية ويعود إليها مرة أخرى،وتسقط عنه كل التهم والاجراءات القانونية التي ينص عليها قانون العقوبات العسكري ، وفي الحالات التي كان يفر فيها الجنود مع أسلحتهم،فإنها لا تطلب منهم وجوب جلب أسلحتهم معهم عند تسليمهم مرة أخرى لمراكز السلطة العسكرية أو الأمنية ، بل إنها كانت تدفع له ثمن البندقية التي يجلبها معه والتي هي غالباً ما تكون من الغنائم التي حصل عليها الثوار الأكراد من الجيش،أو أن الشخص نفسه كان قد استصحبها معه عند فراره من الخدمة ، كما وأن عدداً من الضباط الأكراد والذين كانوا يقومون بعمليات اختلاس لأموال الدولة كانوا يهربون إلى جانب الحركة الكردية المسلحة، عندما يحسون بأنهم على وشك أن يتخذ بحقهم الاجراء القانوني الذي يتخذ في مثل هذه الحالات عادة ، وهؤلاء يمكثون مع الحركة الكردية مدة ثم يعودون إلى تسليم أنفسهم لسلطة مرة أخرى،حيث تُسقط عنهم جميع التهم السابقة والدعاوى والمجالس التحقيقية التي سبق وأن شكلت بحقهم ، والمثير للسخرية بأن هؤلاء عندما يعودون إلى تسليم انفسهم يقومون باختلاس قسم من أموال الحركة الكردية ، وبذا يكونون قد حققوا كسباً من الطرفين وأتقنوا فن اللعب على الحبال ، ومن بين هؤلاء الضباط يبرز كل من العقيد الركن ناريمان بكرسامي والنقيب طارق أحمد اللذين هربا من الجيش إلى جانب الحركة الكردية لأسباب لم تكن تمتّ إلى اعتقادهم بضرورة اتخاذ موقف يفرضه عليهم انتمائهم القومي،بل بسبب سرقتهم لبعض أموال الدولة،ثم عودتهم مرة أخرى إليها بعد أن قاموا بسرقة قسم من أموال الحركة الكردية المسلحة ، لقد شهدت ساحة الأحداث في كردستان أعداداً من المقاتلين من بين أفراد القوات المسلحة أو المدنيين من الذاهبين إلى هذا الصف أو العائدين إلى الصف الآخر،مما شكل في الحقيقة سلوكاً شبه متعارف عليه ، ولقد وجد من الأشخاص من ترك صف السلطة ثلاث مرات مستفيداً من التسهيلات التي تقدم له ، كأن يعوض عن ثمن السلاح الذي يحمله،حيث أصبحت السلطة تضع أسعاراً لكل نوع من السلاح يتم استصحاب العائد إلى الصف الوطني،وهي التسمية التي

أمست السلطة تطلقها على هؤلاء إضافة إلى إعادتهم إلى وظائفهم التي كانوا فيها ، إلاّ أن السلطة لاحظت في الآونة الأخيرة شيوع هذه الحالة،فأصدرت تعليمات جديدة بأن لا يحق للشخص أن يفر من الخدمة أكثر من مرتين، وعند تكراره الفرار للمرة الثالثة فإنه يصبح تلقائياً محكوماً بالإعدام ينفذ به حال إلقاء القبض عليه .

التيار الموالي للحركة الكردية المسلحة :

ـ ظهر هذا التيار بصورة علنية بعد نشوب القتال بين السلطة والحركة الكردية عام ١٩٦١ والفترة التي تلتها حتى نهاية الحركة الكردية، بعد أن تمّ إحباطها بعد اتفاق الجزائر بين الشاه وصدام حسين ، ففي بدايات الحركة شهد الجيش العراقي حركة فرار واسعة من الخدمة ، شملت عدداً كبيراً من ضباط الصاف والجنود الأكراد وقسم من الضباط والتحاقهم بالحركة الكردية وتشكيل كوادرها العسكرية ، وكان أهم الضباط الذين التحقوا بها المقدم الركن ـ في حينها ـ عزيز عقراوي الذي كان له دور بارز في تنظيم الجهاز العسكري للحركة . ولكونه ضابط مدفعية، فقد كان وجوده بين صفوف الحركة الكردية مبعثاً لظهور استخدام المدافع والهاونات الخفيفة ضد مواقع الجيش العراقي بكثافة، حيث عمل في قاطع أربيل على محور صلاح الدين ـ راوندوز وكان يشرف بنفسه على توجيه نيران هاونات ومدافع القوات الكردية على أهدافها ، ونقلها إلى أماكن أخرى بسرعة تلافياً لعدم كشف مواضعها ، ولقد وصل إلى مراكز عالية في قيادة الحركة حيث أصبح عضواً في اللجنة المركزية للحزب الديموقراطي الكردستاني ، وعلى الرغم من انشقاقه عن الحزب الديموقراطي الكردستاني قبل حركات عام١٩٧٤، وتأسيسه للحزب الديموقراطي الكردستاني مع هاشم عقراوي وعدد آخر من الأكراد ، وهو حزب قامت السلطة بدعمه لسحب الشرعية من الحركة الكردية المسلحة ولو ظاهرياً ، إلاّ أنه شعر بالندم لعمله هذا ، وقد حدثني شخصياً عن مبلغ الألم الذي قاساه عندما كان وزيراً للشؤون البلدية والقروية ، وقد ترك منصبه وكل شيء لديه حتى زوجته وقسم من أولاده والتحق إلى جانب الحركة الكردية عند اندلاعها مرة أخرى عام ١٩٧٧، ومن ضباط الصف الدين خدموا في الحركة الكردية نادر هورماني الذي كان ضابط صف مدفعية في الجيش العراقي، والذي أصبح فيما بعد يحتل مركزاً متقدماً في الحزب الديموقراطي الكردستاني ، وهو من أشهر المقاتلين الأكراد،وكان له حضور مشهود في قاطع شهرزور، خاصة في منطقة حلبجه وبيارة وطويله وخورمال كونه من أهل المنطقة نفسها ، كما شهدت الساحة التحاق عدد كبير من الضباط إلى جانب الحركة الكردية، وظلوا معها حتى انهيارها عام ١٩٧٥،ولم يعودوا إلى العراق مع الأعداد الكبيرة التي سلمت نفسها إلى

السلطة . بـل انسحبوا إلى إيـران ومنها إلى بعض البلدان الأوروبيـة وسوريا، حيث بـدأوا هنـاك مرة أخـرى ترتيب أوضـاعهم للعودة إلى كردستان، والشـروع بتنظيم القتـال وحـرب العصابات في مناطق واسعة منها ، ومن هؤلاء النقيب قوات خاصة يونس عبدالله، والملازم الأول أبو بكر اللذين يشغلان الآن مناصب قيادية في اللجنة المركزية للحزب الديموقراطي الكردستاني، وأسماء كثيرة، منهم من توفي، ومنهم من لا يزال على قيد الحيـاة، يعملون مع مختلف التنظيمات الكردية المسلحة ، كالاتحاد الوطني الكـردستاني والحـزب الاشتراكي الكردستاني والحزب الاشتراكي الكردي (الياسوك) .

ـ بعـد اتفـاقيـة آذار عـام ١٩٧٠ التي عقدت في حينهـا بين السلطة من جهة، والحركة الكردية المسلحة من جهة أخـرى ، شهدت الكليـة العسكريـة انضمام عـدد كبير من الشباب الأكراد إليها ، وكان ذلك ضمن الشروط التي وردت في تلك الاتفاقية ، وقـد وصل عدد هؤلاء إلى العشرات وكانوا في الحقيقة يمثلون الحركة الكردية نفسها وجودهـا الذي أقرته الاتفاقية داخـل القوات المـسلحـة العراقيـة ، وكان ولاء هؤلاء خـالصاً للحـركة وقيادتها ، يخضعون بصورة مباشرة لتوجيهاتها وأوامرها، على الرغم من كـونهم ضباطـاً في الجيش العراقي الذين كـانوا يعملون فيـه بطريقـة مرضيـة وملائمة، وكانت السلطة نفسهـا مضطرة للقبول بواقع وجودهم هذا ، وربما كانت في الحقيقة مرغمـة عليه بسبب حـاجتها الماسة للخضوع إلى مطالب الحركة الكردية المسلحة الذي يؤمن رضاها استتبـاب الهدوء وتوقف القتال في كردستان، الـذي تحتاج إليـه بشدة، بسبب كـونها كـانت ضعيفة في بـداية وصـولها إلى الحكم ، ومـا إن لاح في الأفق بأن اتفـاقية آذار عـام ١٩٧٠ بدأت بالانهيار، وأخذ الموقف بالتأزم بين السلطة وقيادة الحركـة الكرديـة المسلحة، وبـات من المؤكد بـأن القتال سيندلع مجدداً في كـردستان ، حتى بـدأ هؤلاء الضباط بتـرك وحداتهم والالتحـاق بجـانب الحركـة الكرديـة ، وما إن بـدأ القتال، حتى كـان كـل هؤلاء قـد تـركـوا جميعهم وحـداتهم التي كانـوا يعملون فيها، وانتقلوا إلى جـانب الحركـة الكـرديـة يقـاتلون الجيش العراقي وفي أحيان كثيرة ضد الوحدات التي كانوا يعملون فيهـا قبلاً، حيث كـانوا يـظهرون نوع من التعاطف معها أثناء القتال الدامي الـذي دار لمدة سنـة بصورة شـرسة متـواصلة ، وبعد فشل الحركة، تـوجه هؤلاء إلى إيران، ولم يسلموا أنفسهم إلى السلطة التي أصـدرت عفـواً عاماً عن المقاتلين الأكراد ، ورد ضمن بنـود الاتفاق الـذي تم بين صدام والشـاه . وعند اندلاع القتال مرة أخرى، كان لهؤلاء الضباط دور فعّال ومؤثر في تنظيم الحركة وقيادة العمليـات العسكرية، وأصبح عـدد منهم في مراكـز قياديـة هامـة في مختلف التـنظيمـات الكردية المسلحة في كردستان العراق ، وعلى سبيـل المثال، فإن قيادة الحـزب الاشتراكي

الكردي (الباسوك) يتألف أكثر من نصفها من هؤلاء الضباط الشباب .

ـ كان موقف الجنود وضباط الصف الأكراد في الجيش العراقي بصورة عامة موالياً للحركة الكردية المسلحة ، وبالإضافة إلى العدد الكبير الذي ترك الخدمة في صفوف الجيش العراقي وانضم إلى جانب الحركة الكردية، فإن القسم الذي ظل مستمراً في الخدمة، كان يتم عزلهم عن مناطق القتال وإبعادهم إلى المعسكرات الخلفية ، فقد شهدت الوحدات العاملة في كردستان حملات واسعة من النقل إلى مناطق الجنوب شملت عدداً كبيراً من ضباط الصف والجنود الأكراد ، كما أن الوحدات التي تحركت من الجنوب ومناطق أخرى إلى منطقة العمليات في كردستان قد تركت خلفها أعداداً كبيرة من الجنود وضباط الصف الأكراد في معسكراتها الخلفية ووضعتهم تحت المراقبة ، وكان ذلك يعني بالطبع أنهم ليسوا أهلاً للثقة لحمل السلاح والقتال مع وحداتهم لأنهم من المحتمل أن يلتحقوا مع أسلحتهم إلى جانب الحركة الكردية ، لذا فقد صدرت تعليمات من المراجع العليا بترك كل الأكراد في المعسكرات الخلفية، باستثناء عدد قليل منهم ممن يوثق بهم بصورة مطلقة، وكان عدد هؤلاء قليلاً جداً بالنسبة للأعداد الكبيرة من المتروكين الذين بدأوا أيضاً بالالتحاق بالحركة الكردية بصورة تدريجية ، ولم يكن أفراد الشرطة المحلية في منطقة الحكم الذاتي هم الآخرين موضع ثقة السلطة لذا فقد تمّ نقل أعداد كبيرة منهم إلى محافظات الوسط والجنوب ، بحيث أصبح يشكل وجودهم ظاهرة عامة بسبب كثافة وجودهم ، كما تمّ نقل أفراد من الشرطة العرب من مديريات شرطة محافظات الوسط والجنوب إلى منطقة كردستان للحلول محل الشرطة الأكراد الذين نقلوا ، وقد عانى هؤلاء من مشاكل كثيرة أهمها: تعرضهم للاغتيال في الشوارع العامة داخل المدن والقصبات الكردية، إضافة إلى عدم استعدادهم للتأقلم مع المجتمع الجديد بسبب اختلاف اللغة والعادات ، إضافة إلى كونهم أصبحوا بعيدين عن عوائلهم وأهلهم الذين بدأ القلق يدب في نفوسهم خوفاً عليهم من الوقوع ضحايا القتال المستعر أواره في كردستان .

ـ لم يظهر تيار كردي إسلامي منظم، إلاّ أن من الواضح أن أعداداً كبيرة من الجنود وضباط الصف الأكراد كانوا من المتدينين . يرتادون المساجد بصورة منتظمة لأداء مراسم الصلاة خاصة صلاة الجمعة ، كما وأن قسماً من الضباط الأكراد متدينون وملتزمون في تدينهم، إلاّ أن عددهم قليل قياساً لعدد الضباط الأكراد في القوات المسلحة العراقية ، وظاهرة التدين والتمسك بالإسلام عامة بين أوساط الشعب الكردي ، فإن الزائر للقرى الكردية، وحتى النائية منها يجد فيها مسجداً متواضعاً يؤمه المصلون بصورة منتظمة ، كما

أنه يمكن مشاهدة عند كل عين ماء صخرة تتجه نحو القبلة، يستخدمها الفلاحون الأكراد كمكان طاهر للصلاة ، ولا يعدم بأن يكون لقسم من الضباط السنة من العرب علاقات وثيقة معيّنة مع حركة علماء الدين الأكراد، لأن قادة هذه الحركة كانوا على علاقة وثيقة بالشيخ ناظم العاصي الذي عرف بأن لديه عدد كبير من الأنصار من بين الضباط السنة ، وبما أن الشعب الكردي شعب متمسك بالإسلام، فإن من المتوقع أن تحصل قيادة الحركة الإسلامية لعلماء الدين الأكراد على بعض الأنصار لها في المستقبل بين أوساط الجيش العراقي سواء الأكراد منهم أو العرب ، على الرغم من أننا لا نعدم أن تكون لها صلات معينة حالياً مع قسم من العناصر العسكرية .

الفصل التاسع

التيار الشيعي في القوات المسلحة العراقية

ـ بسبب كون القاعدة الرئيسية التي تتألف منها لحمة القوات المسلحة العراقية مؤلفة من ضباط الصف والجنود من الشيعة، فإن هؤلاء ينقلون بصورة آلية العادات التي تتبعها جماهير الشيعة في المناسبات الخاصة بهم ، كالمراسم التي تجري كل عام في اليوم العاشر من شهر محرم، بمناسبة استشهاد الإمام الحسين (ع) ، وقد اعتادت جماهير الجنود وضباط الصف في القوات المسلحة أن تؤدي مراسم العزاء هذه بأسلوب ملائم ، يختلف بالطبع عمّا يتم اجراؤه من مراسم خارج ثكنات الجيش في المدن الشيعية ، لأن القوانين العسكرية وأعرافها لا تسمح بالقيام بتلك المراسم كما تجري خارج المعسكرات ، لذا فإنها كانت تقتصر بأن يتجمع عدد من ضباط الصف والجنود الشيعة في أغلب وحدات الجيش ، حتى في حالة انفتاحها لأغراض الحركات لليلة العاشر من محرم، حيث يقومون بإجراء مراسم التعزية واللطم على الصدور ، وهي حالة تعايشت معها الأنظمة التي سبقت نظام الحكم الحالي في العراق، وبحدود تتفاوت من نظام حكم إلى آخر تبعاً إلى شدة تمييزه الطائفي ، أو لعدم إثارة الحساسية بين جماهير غفيرة داخل القوات المسلحة العراقية ، ولقد كانت حركة الشيعة وتيارهم الأساسي يظهر على هذا الشكل الذي لا يحمل بين طياته أي مظهر من مظاهر الخطر الذي يهدد أمن الدولة ووجودها ، ويتكرر هذا العمل في ذكرى الأربعين لاستشهاد الإمام الحسين (ع) أيضاً ، ولكن بصورة أكثر اتساعاً ، حيث يقوم بعض ضباط الصف والجنود الشيعة فيما بينهم بجمع مبلغ من المال يشترون به ما يُحتاج إليه من الذبائح والرز والسمن وغيره من أجل تقديم الطعام يوم الأربعين، كما تجري العادة التي يحرص عليها الشيعة حرصاً عظيماً في هذه المناسبة .

ولقد كان القادة والضباط لا ينظرون بعين الارتياح لما يجري أمامهم في هذه المراسم ، وقد حاولوا منع القائمين بها من إجرائها في الوحدات والمعسكرات، إلّا أنهم

كانوا يواجهون بالاصرار والعناد من قبل ضباط الصف والجنود، الذين كانوا يبدون استعداداً استثنائياً لتحمل كل العقوبات مهما كانت شدتها من أجل أن يقيموا هذه المراسم والاستمرار عليها ، وكانت السلطات المتعاقبة جميعها في الواقع تنظر إلى تلك المظاهر بعين الشك والاضطراب وعدم الارتياح ، إلاّ أنها كانت تضطر إلى التغاضي عنها ، ولكن هذا لم يكن يمنع حدوث بعض الاحتكاك بين ضباط الصف والجنود، وبين الضباط وأغلبهم من أهل السنة ، فقد حاول الضباط التدخل مرات عديدة لمنع إقامة مراسم العزاء تلك وتوسلوا بالقوة لفضها ، ولكن غالباً ما كان يتم إخماد الجدال بسرعة، وقبل أن يتحول إلى خصام لا تحمد عواقبه ، كأن يؤمر المشتركون بمراسم العزاء بأن يقوموا بإجرائها في مكان معزول بعيد ، كما يشترط عليهم عدم التحرك والتنقل من مكان إلى آخر أثناء اجراء المراسم . إلاّ أن إصرار بعض آمري الوحدات على عدم السماح بإجراء تلك المراسم كان يولد مشاكل كبيرة داخل الوحدات، مما يؤدي في الغالب إلى تشكيل مجالس تحقيقية بحق بعض ضباط الصف والجنود الشيعة الذين كانوا يصرون على إقامة تلك المراسم، كما حدث عام ١٩٦٨ في وحدة الميدان الطبية التابعة للواء المدرع السادس، الذي كان منفتحاً في منطقة الرمثا الأردنية على الحدود الأردنية ـ السورية ، وقد عوقب عدد من ضباط الصف، ونقل عدد آخر منهم إلى وحدات أخرى، ووضعت أسماؤهم في سجلات المراقبين والمشبوهين.

ـ عمدت السلطات الحالية إلى إصدار أوامر مشددة إلى الوحدات بعدم منح ضباط الصف والجنود أي نوع من الإجازات، سواء الدورية منها أو الاعتيادية قبل مدة لا تقل عن أسبوع من يوم العاشر من محرم أو ذكرى الأربعين ، كما أنها لم تعد تسمح بأي حال من الأحوال بإقامة أي نوع من مراسم العزاء في الوحدات وبصورة مطلقة، بل ان من يفكر من ضباط الصف والجنود الشيعة بإجراء تلك المراسم يعرض نفسه لأقسىٰ أنواع العقوبة بتهمة تشجيع الطائفية ، وهي تهمة تقود من يتهم بها إلى الموت بسهولة بالغة . ومع كل تدابير الضغط والتشديد فإن عدداً كبيراً من الجنود وضباط الصف كانوا يختلقون من الأعذار ما كان يمكنهم من التسرب والاشتراك في المراسم التي تقام عادة في المدن الشيعية، كالنجف وكربلاء والكاظمية وغيرها ، وينبع حرص الشيعة الشديد على إجراء مراسم العزاء تلك واهتمامهم الكبير بها من كونها تشكل التعبير الوحيد عن رفضهم للظلم المسلط عليهم بصورة دائمة ومستمرة ، وحتى لو كانت تلك المراسم خالية من كل شعار سياسي معادٍ للدولة ، إلاّ أنها تظل لدى الشيعة تحمل مفهوماً يحمل معه ديمومة وقوة ، وهو ان تلك المناسبات تنطوي في معانيها على رفض الشيعة لكل أنواع القهر والاستبداد

الذي يوجه ضدهم ، فيقومون بالتنفيس عن الكبت والشعور بالاجحاف والتمييز خلال تلك المناسبات بطرق سلمية لا تتعدى اجراء المراسم الاعتيادية، كالتجمع وتنظيم المسيرات التي تردد شعارات تتضمن مظلومية الإمام الحسين وأهل بيت النبي (ص) ، والملاحظ هو أن كلما كانت السلطات الحاكمة أكثر ظلماً وتمييزاً وإرهاباً ، فإنها كانت تواجه في المقابل إصراراً عنيداً من قبل أبناء الشيعة فيه حقداً عليها وكراهية لها ، بل إننا نلاحظ بصورة واضحة أن تلك العهود التي مرت على العراق، وسمح فيها بإجراء تلك المراسم بحرية، كانت السلطة تواجه فيها مشاكل قليلة، ويشهد الوضع العام انفراجاً ملحوظاً في التوتر المستمر بين أبناء الشيعة والسلطة نفسها ، ويضعها في موضع الرضى في أعين أبناء الطائفة الشيعية على الرغم من كونها سلطة تعتمد الطائفية في إدارة الدولة وتسيير شؤونها ، ولم تكن تلك المناسبات، التي يتجمع فيها الشيعة بالملايين في مدينة كربلاء، بعيدة عن تأثير الأحداث الكبرى التي كانت تهز العرب والمسلمين ، فلقد كانت بعض الشعارات التي تطلق خلال المسيرات الكبرى توضح موقف الشيعة تجاه ما يجري من الأحداث الجسام التي كانت تعصف بالمنطقة، فبعد نكسة الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ ، والنتائج المروعة التي انتهت إليها، وانشغال القادة العرب بعقد مؤتمرات القمة الواحد تلو الآخر، كان أحد الشعارات التي تشير إلى ضعف موقف الحكومات العربية وعجزها عن الوقوف أمام تحرشات واعتداءات النظام الصهيوني المستمرة على الأقطار العربية المحيطة به، هذا الشعار تردده الجماهير بأعلى أصواتها (إسرائيل تضرب بالعرب.. والعرب نومه[١].. ما بيها گومه[٢]... كل يوم تعقد مؤتمر فاشل اعماله[٣]... وين العدالة)[٤]، أي ان إسرائيل توجه ضرباتها المستمرة ضد العرب وهم نائمون لا يستطيعون النهوض بوجه هذا العدوان ، وهمّ قادتهم الوحيد هو عقد المؤتمرات التي لا قيمة لقراراتها، وبين المؤتمرات الفاشلة وغطرسة العدو الصهيوني تضيع عدالة القضية وحقوق العرب والمسلمين . وفي هذا الشعار ادانة لمواقف بعض القادة العرب المترددة المتخاذلة اتجاه عدو شرس متغطرس لا يفهم إلاَّ منطق القوة التي تشكل جزءاً مهماً من عقيدته .

ـ ظل التيار الشيعي في القوات المسلحة يسير على النمط نفسه من النشاط ،

---

(١) والعرب نيام .

(٢) لا يستطيعون القيام والنهوض .

(٣) أعماله فاشلة .

(٤) أين العدالة .

والذي كان يسوده طابع اللاتنظيم وضيق الطموحات ومحدوديتها ، حتى جاءت سني الستينات، ومنذ عام ١٩٦٠ وبعده، حيث شهدت الساحة الشيعية ظهور تنظيمات حزبية، كانت تجد لها انصاراً كثيرين بين أوساط المثقفين والطلبة، وعدداً محدوداً من بين ضباط الصف ومراتب الجيش من الملاكات الدائمة فيه، ثم أخذت تتوسع أكثر متغلغلة بين أوساط جماهيرواسعة، شجعها إحساس عام وشعور شامل بالغبن والاجحاف سببه موقف السلطة وممارساتها الطائفية ، إضافة إلى فشل تيارات الأحزاب العلمانية وتيار الحركة القومية، خصوصاً في تحقيق انجاز تاريخي هام، وتواصلت انتكاساتها خاصة بعد حرب حزيران، منذ ذلك التاريخ بدأ التيار الشيعي في القوات المسلحة يأخذ اتساعاً وحجماً منظماً ، رافقه تنامي فكر إسلامي جديد يحمل مضامين فلسفية راسخة، كان لها تأثير كبير على اقبال الشباب على الانخراط في صفوف الحركة الإسلامية الشيعية ، فلقد اصدرت بعض المؤلفات لشخصيات إسلامية معروفة، ومنها مؤلفات الشهيد السيد محمد باقر الصدر تتداول بين الشباب لاحتوائها على مضامين فكرية وسياسية جديدة، ولم تكن تخلو أيضاً من حلول وجدها الشباب أكثر ملاءمة للأوضاع القائمة في العراق وعلى امتداد الوطن العربي والإسلامي ككل ، وبدا بأن الساحة الشيعية أخذت تتحول تحولاً هائلاً إلى ساحة منظمة سياسياً، أدى إلى خروج التنظيمات السياسية والأحزاب الأخرى منها بصورة تدريجية ، ولم تكن القوات المسلحة بعيدة عن المؤثرات والعوامل الجديدة التي بدأت تلعب دورها الهائل داخل المجتمع العراقي ، وكان أن سرت حركة التنظيم بين القوات المسلحة ولكن ببطء ملحوظ، مقتصرة على اعداد قليلة من ضباط الصف والجنود ، ويبدو بأن العقول التي كانت تقف وراء هذا التحول الجديد، لم تلتفت بصورة جدية بعد إلى العمل الجدي داخل القوات المسلحة العراقية، وإن جهدها الرئيسي كان يتجه نحو توجيه وتثقيف الجماهير التي كانت تتشكل في معظمها من أوساط الطلبة، خاصة طلبة الجامعات ، وأوساط المثقفين ، حيث بدأت مراسم العزاء تأخذ شكلاً تنظيمياً جديداً يختلف كلياً من حيث الشكل والجوهر، فصفوف المثقفين والطلبة كانت تنتظم في مسيرات، كان الطابع الشامل لها دقة التنظيم وعمق معاني الشعارات التي ترددها، وكثرت الاحتفالات الدينية، وبدأت حملة شاملة من التثقيف الديني تنتشر بين أوساط الشعب الذي بدا بأنه قد تأثر إلى حد كبير بالتوجه الجديد .

ـ وما أن قارب عام ١٩٦٨ على الانتهاء، حتى أصبح للحركة الإسلامية الشيعية المنظمة وجود كبير على الساحة السياسية، وكانت مظاهر هذا الوجود متعددة، فالمسيرات المنظمة والاحتفالات بدأت تنتشر في كل المحافظات الوسطى والجنوبية، إضافة إلى مدينة

بغداد بصورة مدهشة ، وبدا بأن الأمر سوف يخرج عن طوره الاعتيادي المألوف، مما شكل سبباً رئيسياً لعمل الدوائر الاستعمارية التي رأت بأن العراق بدأ يتجه الوجهة التي سوف تهدد مصالحها ووجودها حتماً، وان هذه الموجة الجديدة سوف لن تنتهي بسلام دون استعادة زمام المبادرة التي بدأت تتسرب من يدها دون أن تستطيع أن تفعل شيئاً .

ومن العوامل التي رافقت التحرك الإسلامي الشيعي، والتي أدت هي الأخرى إلى الإسراع بتغيير نظام عبدالرحمن عارف، ظهور القيادة المركزية التي انشقت عن الحزب الشيوعي العراقي الذي أصبح يسمى باللجنة المركزية تمييزاً له عن الاتجاه الجديد الذي يقوده عزيز الحاج، الذي اعتمد استراتيجية الكفاح المسلح وحرب العصابات وسيلة لإسقاط النظام العارفي ، وكان من المؤمل لحرب العصابات هذه أن تمتد وتتوسع حيث بدأت بأهوار الجنوب في محافظة الناصرية .

وفي بداية عام ١٩٦٨ وصلت الأوضاع إلى حالة من التردي والقلق إلى أقصى مداها، حيث بدأت العصابات تنشط في قتالها، حيث أسقطت في إحدى المعارك إحدى الطائرات السمتية التي كان يقودها ضابط طيار مسيحي ، أصيب إصابة بالغة أخرجته من الجيش لأسباب صحية ، ولم تستطع السلطة أن تجد لهذا الموقف المتأزم مخرجاً ، ووجدت القوى التي كانت تسهر على العراق بأن استمرار الوضع بهذه الوتيرة سوف يؤدي بالتأكيد إلى انهيار النظام القائم الذي كان يسير في ركاب مخططاتها عاجزاً .

ولم يكد شهر تموز من عام ١٩٦٨ يشارف على الانتهاء، حتى قادت المخابرات الغربية متكاتفة عملية تغيير جديدة، معتمدة هذه المرة أساليب تختلف عن كل الأساليب التي اعتمدتها سابقاً ، وجيء بالنظام الجديد الذي استطاع أن ينفذ لها مخططاتها بدقة وكفاءة، عجز عن أدائها النظام السابق، وبدأ بتنفيذ المخطط المرسوم بدقة وعناية خطوة بعد خطوة ، وكان أن بدأ بتصفية جماعة القيادة المركزية، وإلقاء القبض على منظرها عزيز الحاج الذي خرج من على شاشة التلفزيون معلناً انتهاء الكفاح المسلح الذي خاضه الشيوعيون ووضعوا لبناته الأولى في أهوار الجنوب، مستلهمين أفكار وأساليب وتكتيك جيفارا في حرب العصابات والكفاح المسلح ، بل ان عزيز الحاج أصبح من أكبر عملاء السلطة وأبواقها لاحقاً . وبما أن السلطة لم تكن من القوة الكافية لبدء الصدام مع الحركة الإسلامية الشيعية، فإنها أرجأت الصدام معها إلى مرحلة تالية، وعندما تصبح الظروف أكثر ملاءمة، وبعد أن يتم ترتيب الأوراق على ساحة العمل السياسي الذي كان يشهد اضطراباً شديداً في العراق عند استلام البكر للسلطة عام ١٩٦٨ ، بل ان السلطة قد أفسحت

المجال أمام التيار الشيعي العام لأن يمارس أداء مراسم العزاء التقليدية بحرية تامة ، ولم تكتفِ بذلك ، بل انها كانت تقدم المعونات والمساعدات المالية للمشرفين على إقامة تلك المراسم تقرباً منها لجماهير الشيعة ، ولقد ادعى أحمد حسن البكر بأنه قد طلب المساعدة قبل الانقلاب من أحد أبناء سلالة النبي الكريم ، وهو «الحمزة العربي» الواقع ضريحه جنوب مدينة الحلة ، حيث أخذ يزوره عدة مرات في السنوات الأولى لاستلامه الحكم ، وأمر بإعادة تجديد بنائه وتوسيعه ، بحيث أصبح من المزارات المشهورة في العراق ، وهي من أساليبه الملتوية وحيله الخبيثة التي اشتهر بها في خدع الجماهير والتغرير بها ، انطلت على الكثيرين من الناس البسطاء .

وفي الفترة من ١٩٦٨ حتى عام ١٩٧٣ شهدت الساحة نمواً وأسعاً مطرداً للحركة الإسلامية ، ليس فقط بين أوساط الشعب ، بل بين أوساط الجيش أيضاً ، وأصبح من البساطة لمن عمل في الجيش في تلك الفترة ، أن يحس بوجود تنظيم آخر يعمل داخل القوات المسلحة غير التنظيم الرسمي التابع للحزب الحاكم .

وفي نفس الفترة المشار إليها ، تم عقد اتفاقية آذار ١٩٧٠ مع الحركة الكردية ، وأوقف القتال في كردستان العراق ، كما تمّ التوقيع على ميثاق ما يسمى بالجبهة الوطنية القومية التقدمية التي ضمّت ، عدا حزب السلطة الحاكم ، كل من الحزب الشيوعي العراقي (اللجنة المركزية) ، والحزب الديموقراطي الكردستاني الذي كان يقوده الملا مصطفى البارزاني ، وبذا بدأ النظام يكسر طوق الحصار النفسي والشعبي الذي كان يحاصره ويضيّق عليه أنفاسه ، عندها شهد المخطط تنفيذ مرحلة جديدة من مراحله ، وهي مرحلة الهجوم على الحركة الإسلامية ومحاولة تصفيتها ، حيث افتتحت السلطة هذه المرحلة بإعدام الشيخ عارف البصري ، وهو من أبرز الوجوه العلمائية الحركية الشيعية في بغداد وعدد من رفاقه ، وكانت مرحلة اختبار للخيارات الجديدة التي استطاعت السلطة أن تجتازها بنجاح .

٥ ــ ما إن نشبت الثورة الإسلامية في إيران ، حتى بدأت بالبروز بوادر النهوض العام لدى الشيعة بصورة خاصة ، والشعب العراقي بصورة عامة ، حيث أخذت مظاهر التعاطف مع هذه الثورة تطفو على سطح الأحداث ، وأصبح الناس يتحدثون عن هذه الثورة والأساليب الجديدة التي اعتمدتها في مقارعة النظام الشاهنشاهي ، فالجماهير الإيرانية التي خرجت إلى الشوارع بأيد عزلاء تفتح صدورها أمام الرصاص ، وتتحدى السلطة تحدياً أسطورياً ، أذهل كل المراقبين في العالم ، وأحدث زلزالاً لم يقتصر أثره على العراق وحده ، بل عمّ المنطقة الإسلامية كلها من أقصاها إلى أقصاها ، بل إن تأثيراته قد

امتدت إلى بقاع كثيرة من العالم ، ولقد شعر النظام الحاكم بعمق الخطر والتهديد الذي شكله هذا الحدث على وجوده، باعتباره نظاماً متسلطاً ديكتاتورياً يشترك مع نظام الشاه بملامح كثيرة، مما دفعه إلى العمل سريعاً للقضاء على إمكانية تطور هذا التعاطف إلى حركة شعبية شاملة، تطيح بكيانه ووجوده المفروض على الشعب العراقي بقوة الإرهاب والقمع . وكان أخطر ما يهدد هذا النظام وجود تنظيم واسع للحركة الإسلامية داخل القوات المسلحة العراقية، لم يكن من السهل أول الأمر التعرف عليه ، لأن أعضاءه كانوا متممين في أحيان كثيرة لتنظيم حزب السلطة، مما أحدث وضعاً خطيراً متداخلاً ، إلّا أن السلطة بدأت توجه جهودها المكثفة والحثيثة إلى كشف هذا التنظيم والقضاء عليه وتدميره بدون رحمة، مستخدمة أقسىٰ أساليب الإرهاب والبطش ، وبعد أن بدأت عمليات المطاردة وإلقاء القبض تتصاعد وتشمل أعداداً كبيرةً من هذا التنظيم على المستوى الشعبي ، بدأت السلطة تضع يدها بالتدريج على التنظيم العسكري ، وشيئاً فشيئاً كانت حلقات وخطوط هذا التنظيم يتم كشفها ويُدفع أعضاؤها إلى ساحات الاعدام دون محاكمة.

وكانَ لعملية إلقاء القبض على السيد عبدالأمير المنصوري أحد قادة التنظيم أثر كبير على كشف جانب مهم من هذا التنظيم، لأنه كان مسؤولاً عنه بعض الوقت ، فإن المراقب يقف مذهولاً أمام سعة هذا التنظيم داخل القوات المسلحة وانتشاره ، فلقد شهدت القوة البحرية مثلاً أكبر عملية اعتقال بين صفوفها خلال الأيام الأولى للحرب عام ١٩٨٠ ، حيث تمّ اعتقال ما يقارب من (٤٠٠) عنصر فني وكادر ثابت، بحيث أصبحت القوة البحرية عاجزة تماماً عن إدارة العمل على قواربها المسلحة وزوارق الطوربيد وبقية القطع البحرية، مما اضطر السلطة إلى أن تطلق سراح قسم كبير منهم أمام ضغط الحاجة الماسة، لتشغيل معدات القوة البحرية وأسلحتها ، كما شهدت قاعدة الحرية الجوية اعتقال اعداد كبيرة من ضباط الصف الفنيين، الذين كانوا يقدمون الخدمات الأرضية كالادامة وإعادة املاء الوقود والتسليح للطائرات المقاتلة. ويكفي أن نشير إلى سعة التنظيم، أن صباح الفخري قائد الفرقة المدرعة العاشرة في حينها، قد وجد منشوراً للحركة الإسلامية فوق مكتبه بمقر الفرقة في معسكر التاجي في بغداد ، كما بدأت تظهر الشعارات مكتوبة على جدران المعسكرات المهمة في بغداد، كمعكسرات التاجي وأبي غريب والراشدية والرشيد، مما خلق أجواء مضطربة بين صفوف مسؤولي السلطة، خاصة رئيس النظام نفسه صدام حسين .

٦ ــ كان للضباط الصغار دور هام في تنظيم الحركة الإسلامية داخل الجيش العراقي ، فقد تمكن النقيب حميد البندر، الذي كان عضواً بارزاً في تنظيم حزب السلطة

أن يقود جزءاً كبيراً من التنظيم الشيعي داخل الجيش، يساعده في ذلك اكتسابه لثقة عدنان خير الله وزير الدفاع ، وفي إحدى المرات وجدت بعض الشعارات المعادية للسلطة مكتوبة على جدران أحد المعسكرات في بغداد، مما حدا بالسلطة إلى تشكيل مجلس تحقيقي بإمرة النقيب حميد البندر نفسه الذي بادر بسرعة وذكاء إلى الباس تهمة كتابة هذه الشعارات برأس عدد من الحزبيين المعروفين بإخلاصهم للحزب الحاكم ورئيس النظام شخصياً ، حيث أسرع صدام بعد اطلاعه على قرار المجلس التحقيقي القاضي بإعدامهم على تصديق القرار فوراً ، حيث تم تنفيذ حكم الاعدام بهم بسرعة ، إلاّ أن اكتشاف تنظيم شيعي إسلامي في إحدى القواعد العسكرية الجوية، سبب كشف تنظيمات أخرى، كان من بينها ظهور اسم النقيب الشهيد حميد البندر، مما أثار ذهول السلطة وأجهزتها الأمنية ، حيث حكم عليه بالأعدام، وقبل أن ينفذ بع الحكم، أرسل رئيس النظام إليه عدداً من الضباط يحملون له عرضاً بأن يعلن عن ندمه وإدانته للعمل الذي قام به مقابل أن يطلق سراحه ويعاد إلى وظيفته ، فكان جوابه بأنه لا يريد أن يبيع آخرته بقذارة ما تقدمه السلطة له ، ثم بعدها تنفيذ حكم الاعدام به رمياً بالرصاص في نهاية عام ١٩٧٩ .

وبرزت من بين كوادر القوات المسلحة عناصر، كان لها دور مهم أيضاً في التنظيم العسكري ،يشكلون كوادر فنية واسعة للقوة الجوية أمثال النقيب المهندس غالب الزيدي ، والنقيب المهندس عاصم اللذين لعبا دوراً آخر هاماً وخطيراً، فقد خطط النقيب غالب الزيدي لتفجير طائرة صدام الخاصة أثناء تحليقها في الجو ، إلاّ أنه تراجع عن تنفيذها تحت ضغط ظروف معينة ، وكان من المفترض أن تصاحب عملية تفجير طائرة صدام عصيان مسلح وانتفاضة شعبية، تحدث اضطراباً واسعاً في العراق ، وعلى الرغم من أن احتمالات نجاحها لم تكن مؤكدة ، إلاّ أنها بالتأكيد كانت ستسبب انهياراً كبيراً في أجهزة السلطة ويصيبها بالشلل لفترة طويلة ، وفي الواقع فإننا لا يمكن أن نتحدث الآن عن كل الوقائع ومجريات هذا المخطط، وربما سنجد الفرصة الملائمة للحديث عنه بصورة أكثر تفصيلاً ، وقد كشفت السلطة هذا التنظيم ، حيث قامت بإعدام كل أعضائه بما في ذلك الشهيدين غالب الزيدي والنقيب عاصم .

ـ لم تكن الحركة الإسلامية ككل، والتنظيم العسكري فيها متهيئا للمواجهة الشرسة التي قام بها النظام بسرعة، مستخدماً عمليات قمع وحشية أدت إلى تصفية الآلاف من أعضائها من العسكريين والمدنيين ، إضافة إلى أن الحركة الإسلامية لم تكن منظمة بدرجة محكمة ، كما وأنها لم تكن تملك الوسائل القادرة على مواجهة الهجمة الشرسة التي واجهتها ، ومن الأسباب التي أدت إلى عدم تمكن التنظيم العسكري من أن ينجز

عملاً حاسماً ومؤثراً هي :

أ ـ افتقاد التنظيم العسكري إلى ضباط كبار يشغلون مناصب عليا في القيادة العسكرية العليا للقوات المسلحة ، كما أن غياب الضباط الكبار من ذوي الخبرة العسكرية عن التنظيم، جعله عاجزاً عن التخطيط لعمليات كبيرة بهدف إسقاط النظام .

ب ـ وجود حاجز بين الحركة الإسلامية بتنظيمها العسكري من جهة ، وكبار الضباط الشيعة في القوات المسلحة من جهة أخرى، والذين يشعرون بالتعاطف مع الحركة الإسلامية ، بسبب شعورهم بالاجحاف والغبن والتمييز الطائفي . ولكن كان لانغماس هؤلاء الضباط بالملذات واهتمامهم بتوفير وسائل العيش المرفهة والجري وراءها ، إضافة إلى كونهم منخرطين في التنظيم العسكري لحزب السلطة ، دورٌ في عدم حدوث تعاون أو تنسيق معيّن بين هؤلاء والتنظيم العسكري للحركة الإسلامية ، وعلى الرغم من ذلك فإن كبار الضباط الشيعة لم يسلموا من سيف السلطة التي بدأت تطيح برؤوسهم الواحد تلو الآخر، لقد شكل الحاجز الذي كان يفصل كبار الضباط الشيعة والتنظيم العسكري للحركة الإسلامية ضعفاً واضحاً في التنظيم العسكري، الذي كان بحاجة إلى فكر عسكري واسع يشرف على التخطيط والتنظيم بالمستوى الذي يستطيع أن يواجه شراسة هجمة السلطة، التي لم تدخر أي جهد، ولم تترك أية وسيلة للقضاء بصورة تامة على التنظيم الإسلامي بصورة عامة، والتنظيم العسكري بصورة خاصة.

جـ ـ شكل التنظيم العسكري للحركة الإسلامية في الجيش العراقي خطوطاً عديدة، كان من الصعب توجيه جهودها باتجاه عمل حاسم وبالصورة التي كانت عليها، وربما كانت هذه الطريقة في التنظيم تستهدف حمايته من الكشف كلياً من قبل السلطة، فإذا أمكن كشف خط من التنظيم أمكن حماية الخطوط الأخرى، إلاّ أن السلطة استطاعت أن تلقي القبض على المئات من أعضاء التنظيم العسكري وأعدمتهم، بينما كان ممكناً أن يوضع كل التنظيم تحت قيادة واحدة، في الوقت الذي تكون فيه الأخطار جسيمة ومدمرة، للوقوف بشدة أمام هجمة السلطة الشرسة، ولقد كان عندئذٍ أن تكون الوقفة قوية وصارمة، قد توقف النظام عند حده وتشعره بخطورة تطور الأمر، إلى حد يمنعه من التمادي بدلاً من أن تذهب تلك الأعداد الكبيرة من الضحايا دون أن يكون الثمن الذي تدفعه السلطة باهظاً جداً، وقد كان ذلك ممكناً بالفعل.

ـ ليس من السهل القضاء بصورة تامة على النشاط الإسلامي داخل القوات المسلحة، لأنها ترتبط أساساً بعواطف ومشاعر الشعب، وجذورها تمتد عميقاً في وعيه

وشعوره ، وكم كانت حملات السلطة قاسية وخالية من كل ما يمت إلى الإنسانية بصلة ، فحربها كانت حرب حياة أو موت مع التيار الإسلامي ، إلاّ أنها لم تكن قادرة في الحقيقة على اقتلاع جذور هذه الحركة من ضمير الشعب ووجدانه، على الرغم من حملات السلطة الإعلامية المركزة التي حاولت فيها أن توحي للشعب بأن التنظيم الإسلامي الشيعي تنظيم لا يمت إلى الوطن بصلة، واتهمته بالعمالة والشعوبية إلى آخر معزوفة اعلام النظام، فقد استمرت أعمال المقاومة داخل الجيش وفي المدن والأرياف تتسع وتتصاعد ، ونشاطها آخذٌ بالازدياد والاتساع ، وعندما تصل الحركة إلى مرحلة النضوج الكامل،فإنها ستتمكن بالتأكيد من أن تصبح عاملاً رئيسياً وهاماً من عوامل سقوطه وانهياره .

ــ لعب بعض الضباط الشيعة في الجيش دوراً انتهازياً قذراً في خدمة النظام وتقوية بنيته ، وقد تفانوا في عملهم ،وأظهروا من الإخلاص ما كان يفوق ما يظهره زملاؤهم من الضباط السنة ، والعقيد الركن محمد جواد أحمد من أهالي كربلاء يمثل نموذجاً شاخصاً لهذا البعض ، فقد شغل منصب آمر الرقابة العسكرية ، حيث كان يشرف على مراقبة وتسجيل المكالمات الهاتفية التي تدور بين الضباط وتحصي عليهم أنفاسهم ، وكان متفانياً إلى درجة لم يكن يجاريه فيها أحد في خدمة النظام ، وقد كان يكتب في مجلة الجندي التي تصدرها وزارة الدفاع مقالات تحت عنوان (دروس من حياة القائد)، باذلاً جهده للإشادة بنضال البكر ومن بعده صدام، واظهارهما وكأنهما اسطورة في مجال العمل في مرحلة ما يسمى بالنضال السلبي للحزب، والإبداع والعبقرية في مرحلة البناء، ويشاع بين أوساط الجيش بأنه يقدم لصدام خدمات خاصة في مجال السمسرة، حيث تربطه به علاقات متينة خاصة، إلاّ أنه لم يسلم من مصيره الأسود ، فقد تم إعدامه بتهمة التخاذل، عندما كان آمراً لأحد الألوية في قاطع سومار ، ولم يسلم أخوه النقيب محمد حسين أحمد، الذي كان يعمل في مديرية الاستخبارات العسكرية مدة طويلة، هو الآخر من نفس المصير الذي واجهه أخوه ، فبعد أن أُحيل على التقاعد (وهي العادة التي يجري عليها النظام حيث يتم فصل وابعاد أقارب كل شخص يعدم حتى الدرجة الرابعة من أقاربه)، اقتيد بعد مدة إلى المعتقل، ثم سلمت بعدها جثته إلى ذويه ، ولم يسلم والده هو الآخر الذي يعمل في حضرة الإمام الحسين، حيث تمّ إعدامه هو الآخر أيضاً ، علماً بأن العائلة كلها كانت معروفة بولائها وتفانيها وإخلاصها في خدمة صدام شخصياً .

وشكل المدعو عادل الدبوس ، وهو ضابط من أهالي الناصرية نموذجاً آخر من تلك الزمرة المتهافتة البائسة ، فقد اندس بين عدد من العسكريين المتدينين في الفرقة الأولى متظاهراً بأنه منهم ، واستمر في العمل معهم تحت علم وإشراف مديرية الاستخبارات

العسكرية، التي كانت تراقب نشاطهم أولاً بأول عن طريقه ، وعندما قررت السلطة أن توصل تنظيمهم إلى نهايته، فقد ساهم هذا المتهافت في وضع تفاصيل الخطة التي وضعت لإلقاء القبض عليهم، فقد طلب أحد الضباط من هذا التنظيم الإسلامي من عادل الدبوس أن يساعده في الحصول على بعض الأعتدة والمتفجرات، حيث سهل له أمر سرقتها من مشجب أحد الوحدات، وبعد نقلها إلى مدينة النجف من الديوانية، كانت عناصر الاستخبارات العسكرية تراقب العملية وتقوم بتعقب العجلة التي أقلت المواد، وعندما باشرت السلطة في مداهمة المحل الذي أودعت فيه المواد المذكورة، حدثت مقابلة مسلحة بين عناصر هذا التنظيم، وعناصر الاستخبارات، استشهد على أثرها هذا الضابط وعدد من أعضاء التنظيم الذي تمّ كشفه وملاحقته ، لقد وقع التنظيم في خطأ كبير، كان سببه ثقة هؤلاء بعادل الدبوس الذي كان «عضو شعبه» في التنظيم العسكري للسلطة، وعلى الرغم من أن قسماً من أعضاء التنظيم كان يشك بإخلاصه وولائه، إلاّ أن الضابط الذي كان يدير التنظيم، والذي قام بنقل المواد في عجلته، كان يعتقد بأن عادل الدبوس يتعاطف معهم ويساعدهم على هذا الأساس على الرغم من كونه حزبياً .



الباب الثالث

الفصل الأول : ركائز النظام الحاكم في العراق.

الفصل الثاني : القوات المسلحة تحت ظل النظام الحالي.



الفصل الأول

ركائز النظام الحاكم في العراق

ـ في عام ١٩٥٣ رفع جيمس ايخلبرغر خبير وزارة الخارجية الأميركية بالأنظمة العسكرية في الدول النامية تقريراً إلى الحكومة المصرية ، وكان هذا التقرير يحمل عنوان «الأنظمة الثورية ومشاكل السلطة»[1] ، ولقد شكل هذا التقرير في الحقيقة المنهاج والدستور الذي سارت على هديه ونفذته أغلب الأنظمة العميلة لأميركا . والتي جاءت بعد سلسلة من الانقلابات والمؤآمرات التي شملت بلدان العالم الثالث، ابتداءً من الخمسينات إلى وقتنا الحاضر ، والتي سوف لن تتوقف في المستقبل ، وحدد هذا التقرير مراحل تطور الأنظمة العميلة التي سماها ثورية[2] . وبغض النظر عن الآراء التي قيلت بحق الكتاب، ومؤلفة، والأهداف التي نشر من أجلها، والتي قيل بأنها تهدف إلى بذر الشكوك والريبة حول حقيقة وطنية كثير من الأنظمة السائدة في العالم الثالث، وأهمها نظام الرئيس عبدالناصر في مصر، بغض النظر عن ذلك، فإننا نعتقد بأن هذا التقرير لم يقدم للحكومة المصرية فقط، وإنما قدمت تقارير مشابهة له إلى الكثير من الأنظمة الأخرى، ومما لا شك فيه فإن النظام العراقي قد تلقى عدة تقارير مشابهة أو معدلة منه ملائمة للعمل في ظروف العراق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، التي تختلف عن ظروف مصر بدرجات متفاوتة ، وعندما نتتبع مجرى تطور الأحداث ومسارها في العراق، ابتداءً من مؤآمرة ١٧ تموز عام ١٩٦٨ حتى اليوم ، فإننا نجد بأن الأحداث وخطة العمل التي سار عليها النظام العراقي الحالي، جاءت مطابقة إلى حد كبير لهذا التقرير الذي أُعد قبل (٣٥) عاماً من اليوم ، أما الاختلافات الجزئية التي جاءت في التطبيق، فإنها في واقعها تشكل تكيفاً مع الظروف

---

(١) لعبة الأمم ـ مايلز كوبلاند ص ١٧ .

(٢) الثورية لا تعني هنا العمل الإيجابي في مفهومه العام ، بل تعني اتباع أساليب جديدة للحكم غير معروفة قبلاً، بغض النظر عن الوسائل والأهداف التي تتوخاها .

السائدة، فرضه ظرف وزمان خاص، ولم تكن في حقيقتها تخرج عن التوجيه الأساسي لهذا التقرير، بل هي تطوير له وسد لبعض الثغرات والنواقص التي برزت فيه من خلال تنفيذه خلال المدة التي انقضت عليه، إلاّ أن الواضح جداً، هو أن مسحة من مزاجية صدام السادية وحبه المفرط للتسلط قد لفت المشروع بأجمعه.

ـ قسم التقرير مراحل تطور الانقلابات إلى ثلاث مراحل، تبدأ بمرحلة الانقلاب، وتمر بمرحلة الانتقال إلى الدستور، ثم تنتهي إلى المرحلة الدستورية، ولم يكن التقرير يشير إلى مراحل اعداد المؤامرة، لأنه لا حاجة للإشارة إليها بعد أن أشرفت المخابرات المركزية الأميركية منفردة، أو بالتعاون مع المخابرات الغربية الأخرى، وعلى رأسها البريطانية على اعدادها والتخطيط لها، ولم يلح التقرير على انجاز المرحلة الدستورية بصورة حقيقية، فقد أشار إلى أهمية الانتقال إليها، بغض النظر عن كونها مطابقة للأسس الديموقراطية أو بعيدة عنها، (ولهذا كانت أنجع الوسائل لإجراء عملية التعاقب بشكل منظم ومستقر (دون الحاجة للقيام بثورة أخرى)، هي تلك التي تستخدم أي نوع من «أنواع الانتخابات»، التي غالباً ما تقود إلى عهد ذي صبغة دستورية، مهما كان مشوه الحقيقة، ممسوخ الفاعلية)[1]. وفي الحقيقة لم يرَ العراق أي تحول ملموس في حياته، ولم يلحظ الشعب العراقي أنه يعيش أوضاعاً تتناسب مع التحولات التي كان يدعي النظام بأنه ينتقل إليها، فحالة الإرهاب والقمع والتي يفترض بأنها تطغى على المرحلة الأولى من مراحل تطور الانقلاب، ووسيلة أساسية من وسائل تثبيت السلطة الجديدة، لم تشهد هذه الحالة تبدلاً أو تخفيضاً في حدتها في المراحل اللاحقة، بل انها كانت تأخذ بالتصاعد المستمر، في وقت يفترض فيه بأن سلطة الانقلاب قد هيأت من الوسائل ما يجعلها تستعيض عن جزء كبير من أساليب القمع والإرهاب. فإنشاء قاعدة اقتصادية وجماهيرية ملائمة هي الوسيلة البديلة عن القمع المنظم في مرحلة الدستور، على الرغم من أن حالة القمع تظل وسيلة إضافية لا يمكن الغاؤها بصورة كاملة، وقد ظلّت السلطة التشريعية أي ما يسمى بالمجلس الوطني متخلفة إلى درجة مخجلة، فليس لها أي دور فعال في تسيير سياسة الدولة أو التأثير عليها، مما جعلها تابعة وذيلاً للسلطة التي سلبتها كل وجود حقيقي لها، ولم تكن الوسائل التي اتبعت في الانتخابات، بما في ذلك قانون الانتخابات نفسه تتيح لغير عملاء السلطة أي فرصة للترشيح، وكان المواطن العراقي يجد نفسه مرغماً على الادلاء بصوته، لأن أسماء الناخبين وعناوينهم كافة مدونة بقوائم منظمة، وفي

---

(١) لعبة الأمم ـ مايلز كوبلاند.

الحالات التي كان فيها المواطنون لا يرغبون بالادلاء بأصواتهم في الانتخابات ، فإن زمرة من الحزبيين كانت تتوجه إلى بيوتهم تستفسر عن أسباب عدم ادلائهم بأصواتهم ، وهذا يعني عرفياً بأنهم سيعرضون أنفسهم للحساب الشديد في حالة استمرارهم في مقاطعة الانتخابات ، مما كان يضطرهم إلى التوجه إلى صناديق الاقتراع ، التي كانت يشرف عليها مسؤولو المناطق الحزبية الذين يأمرون الناخب بكتابة أحد أسماء المرشحين ، وبهذا يحرم الناخب من فرصة القاء بطاقته بيضاء في صندوق الاقتراع ، ومع ذلك فقد شهد العراق في الحقيقة مقاطعة متباينة تختلف من منطقة إلى أخرى للانتخابات المزعومة، فقد صرح رئيس النظام بعد انتهاء الانتخابات للدورة الأولى ، بأن مدينة السليمانية هي المدينة التي ترفع علم المعارضة في العراق بالدرجة الأولى ، تليها مدينة البصرة الصابرة .

ـ حدد التقرير قواعد القمع والإرهاب لما أسماه بمرحلة الثورة ، وهي المرحلة التي تلي نجاح المؤآمرة بخمسة قواعد وهي :

أ ـ الأنظمة والقوانين .

ب ـ قوى الأمن الداخلي .

جـ ـ أجهزة المخابرات والمباحث ذات الكفاءة العالية .

د ـ وسائل الدعاية .

هـ ـ قوة عسكرية بكفاءة عالية أو الجيش .

وإننا نجد أنفسنا مضطرين لإلقاء الضوء على الدعائم تلك ، والتي اعتمدها النظام العراقي ، لنقف على سعة المخطط المتقن الذي أعدته القوى الاستعمارية ، كي تحكم سيطرتها وتبسط نفوذها على وطننا بواسطة عملائها الذين يبدون استعداداً خارقاً لتنفيذ تلك المخططات ، والتمسك بالتوجيهات التي تقدمها لهم دوائر القوى الكبرى في العالم ، ثم سنعود بعد ذلك إلى تاريخ العصابة المتحكمة برقاب الشعب العراقي ، قبل أن تنفذ المؤآمرة المشبوهة صبيحة ١٧ تموز ١٩٦٨ ، لنقف على خلفياتها الاجتماعية والسياسية .

الأنظمة والقوانين :

ـ كي تفرض السلطة رغبتها بفرض اللاشرعية على كل النشاطات التي يسميها التقرير بالهدامة ، والداعية إلى الشغب والفوضى ، يجب أن تصدر السلطة قوانين ومراسم جديدة ، وتعيد النظر بكل القوانين التي أصدرتها السلطات السابقة بهذا الشأن ، وتعديل ما يلزم منها حسب الظروف الجديدة ، ثم جمعها بمرسوم واحد ، كما يجب أن تكون هذه القوانين عامة في روحها ، تمنح الحرية للأجهزة التنفيذية باتخاذ كل الاجراءات التي تراها

ضرورية للمحافظة على الأمن، كما أن الملاحظة الهامة هنا هي وضع السلطة القضائية التي تعالج القضايا التي تمس أمن الدولة، التي يلح التقرير على أنها يجب أن تخضع بصورة تامة لإرادة الحاكم ورغباته ، ويجب أن يكون مفهوماً لديها بأن ما يجب أن تصدره من أحكام وتتخذه من إجراءات يجب أن يلبي الرغبات الحقيقية للحاكم، (كما أن كافة الأحكام الصادرة بحق المخالفين لأنظمة أمن الدولة، يجب أن لا تكون ـ بأي حال من الأحوال ـ مخالفة لرغبة الثورة وانشراح صدرها)[1] . وقد أصدر رئيس النظام الحاكم في العراق بالفعل مراسم عديدة لمعالجة النشاط المعادي له ، مراسم لا تتفق مع أي مبدأ من المبادىء والقوانين المعروفة في العالم، اتسمت بأقسىٰ طابع إرهابي إجرامي ، فالحكم بالاعدام على كل شخص ينتمي إلى التنظيمات الإسلامية، أو من يأويه، أو يقدم له أية مساعدة، وحجز أمواله المنقولة وغير المنقولة، إضافة إلى إجراءات أخرى، كانت ترافق إصدار أي حكم بالأعدام يتخذ في هذا المجال، لم يأتِ المرسوم على ذكرها، وهي حجز عائلة المتهم وأقاربه، وفصلهم من وظائفهم، حتى لو ثبت بالدليل القاطع بأنهم لا علاقة لهم أساساً بالقضية التي اتهم بها صاحب العلاقة ، وهي إجراءات كانت تعمم على شكل وصايا رسمية، ولم تكن تأخذ شكل قانون أو مرسوم يحدد الاتجاهات والمستويات التي يتبعها هذا الإجراء بصورة أكثر وضوحاً ، ولأن هذا الإجراء مخالف لأبسط قوانين العدالة الإنسانية ، فإن النظام لم يشأ أن يعطي دليلاً واضحاً رسمياً على ممارسته الخرق المستمر لحقوق الإنسان المعروفة دولياً .

ومن المراسم المعروفة الحكم بإعدام كل عسكري مستمر في الخدمة لكافة منتسبي الجيش العراقي ، عند شروعه بأي نوع من أنواع التنظيم، سواء تلك التنظيمات المرتبطة بأحزاب حليفة، أو أية تنظيمات أخرى باستثناء حزب السلطة ، أما بالنسبة للضباط فإنه يحرم عليهم العمل الحزبي المذكور حتى بعد انتهاء خدمتهم في الجيش وإحالتهم على التقاعد ، وقد طال هذا المرسوم اعداداً كبيرةً من العسكريين ، كما حدث للرائد محمد سعيد الذي كشفت السلطات الأمنية تنظيماً عسكرياً ـ مدنياً كان يديره ، وهو ضابط معروف باتجاهه الناصري، شاركه في هذا التنظيم عدد من الضباط والمدنيين في الفرقة السابعة في السليمانية ، حيث تم إعدامهم جميعاً عام ١٩٧٦، وكذلك ما جرى لعدد من الشيوعيين، من بينهم ضابط برتبة رائد، قيل بأن لديهم تنظيماً في الجيش حيث تمّ إعدامهم رمياً بالرصاص، بينما كان التحالف قائماً مع الشيوعيين فيما يسمى بالجبهة الوطنية القومية التقدمية .

---

(١) لعبة الأمم. مايلز كوبلاند .

ـ لم تكن المراسم التي تصدرها السلطة كافية من وجهة نظرها في الحفاظ على الأمن ، لذا فقد كانت المؤسسات الأمنية للنظام ، وما زالت تمارس أعمال قمع وإعدام سرية دون المثول أمام المحاكم ، فقد تم الكشف عن مقابر جماعية كبيرة في مناطق نائية من قبل المواطنين الذين يسكنون بالقرب من تلك المناطق . كما تم إعدام الأطفال الذين لا تنطبق عليهم أية قوانين أو مراسم معروفة ، سواء في العراق أو في بقية بلدان العالم المختلفة ، وهذا ما جرى تنفيذه بصورة خاصة في منطقة السليمانية واربيل ، حيث سلّمت مئات الجثث لأطفال مدارس لم يبلغوا السن القانونية ، اعتقلوا على أثر القيام بتظاهرات معادية للسلطة في عامي ١٩٨٣ و١٩٨٤ والأعوام التي تلتهما ، بحيث شهد العراق حالة استثنائية منفلتة غريبة من القمع والإرهاب لم تكن تخضع لأية ضوابط وقوانين ، ولم تشهد الساحة العراقية في أي يوم حالة من التنبيه ، وليس الاستنكار للتجاوزات المستمرة على حقوق الإنسان من قبل أي مصدر رسمي حكومي على الاطلاق ، بل ان رئيس النظام نفسه عندما سئل مرة من قبل أحد الصحفيين الأجانب عن وجود أعمال قمع وإرهاب واسعة في العراق أجاب : بأن مثل هذا الوضع اعتيادي ، لأن العراقيين لا يفيد معهم إلاّ هذا النوع من الأسلوب . كما أن أغلب مناطق العالم تشهد تجاوزات من هذا النوع دون علم مركز القرار في الدولة ، وهذا ما يقدم دفعاً وتشجيعاً وتأييداً من أعلى سلطة في الدولة للأجهزة الأمنية التي تمارس القمع والإرهاب بتوجيه مباشر منها ، وأصبحت قوى الأمن الداخلي بكافة مؤسساتها تتمتع بحرية لا حدود لها خارج كل الأعراف والقوانين ، باتخاذ أية وسيلة تراها مناسبة لتصفية قوى المعارضة ، أو التي يشتبه بأنها معارضة ، أو حتى تلك التي يحتمل أن تكون معارضة أو لديها نوايا في هذا الاتجاه ، فمن الاغتيال في الشوارع العامة ، إلى الاعتقال بطريقة الاختطاف التي شملت الكثير من المشتبه بهم ، إلى القتل رمياً بالرصاص ورمي جثة المغدور أمام بيته ، كما وأن المحتجزين لم يكونوا يخضعون لأية تحديدات واضحة سواء من ناحية مدة الحجز ، أو التوقيف ، أو من ناحية المثول أمام محاكم تلتزم بقوانين معروفة ، كما أن كثيراً من الذين كانوا يعتقلون تُدس لهم مادة الثاليوم القاتلة ذات التأثير البطيء ، بحيث إن أغلب من كان يطلق سراحهم يفارقون الحياة بعد مدة لا تتجاوز العشرة إلى خمسة عشر يوماً ، بعد أن تظهر عليهم أعراض تناولهم لهذه المادة ، كما أُذيبت أجساد بعض المتهمين في أحواض تحتوي على سائل حامض النتريك المركز ، كما كانت الأجهزة الأمنية تتبع وسائل ملتوية عديدة لإخفاء عمليات التصفية الجسدية ، منها أن يتم توقيع المتهم على وثيقة إطلاق سراحه من المعتقل يتم بعدها إعدامه ودفنه ، وعندما يستفسر ذوو المغدور عنه تقدم لهم وثيقة إطلاق سراحه موقعة من قبله ، بقصد رفع أي اتهام يوجه إلى المؤسسة الأمنية المعنية ، كما أن

وسائل التعذيب النفسي والجسدي التي تمارس ضد المشتبه بهم تشتمل في الحقيقة على كل الأساليب المعروفة في العالم، إضافة إلى تلك الوسائل التي ابتكرتها أجهزة النظام الأمنية.

ـ وخلال ما يقرب العشرين عاماً من عمر النظام، لم يشعر المواطن العراقي بأن وسائل القمع والإرهاب التي كان يعتمدها النظام ضد المعارضة السياسية، أو الذين يشتبه بهم بأنهم منها سوف تتوقف أو توضع لها حدود معقولة ، وان الوضع الذي يستمر فيه انتهاك حقوق الإنسان سوف تخف حدته ، بل ان الوقائع تشير كلها إلى أن النظام آخذٌ بتصعيد تلك الإجراءات وتنويعها، على الرغم من اجتياز النظام القائم لمرحلة اسماها التقرير المشار إليه بمرحلة الثورة، حيث وصل على ضوء التصنيف الذي اعتمده التقرير إلى مرحلة الدستور، والتي يفترض بأنها تعتمد في بقائها على وسائل البناء والمكاسب التي يكون الشعب قد أحس بها ، وبذا تصبح هي الوسيلة البديلة للقمع والارهاب، فبالرغم من مرور العراق بدورتين انتخابيتين ـ إذا كان جائزاً ان نسمي ما جرى انتخابات ـ فإن الإرهاب والقمع واشاعة الخوف والقلق ظل القاعدة الأساسية التي يرتكز عليها النظام .

ـ لقد خضعت السلطة القضائية خضوعاً تاماً لرغبات الحكومة فيما يتعلق بالأحكام التي تصدرها ، بل ان محكمة واحدة كانت تأخذ على عاتقها في الحقيقة النظر في القضايا المتعلقة بالأمن الداخلي منذ مجيء النظام الحالي إلى السلطة ولحد اليوم ، إضافة إلى النظر في قضايا كثيرة منها الجرائم الاقتصادية وجرائم الرشوة ، وهذه المحكمة تخضع بصورة مطلقة لتوجيهات السلطة، ولا تتمتع بأي مظهر من مظاهر المحاكم المعروفة في العالم، والتي تأخذ بنظر الاعتبار بدرجات متفاوتة حقوق المتهمين التي يقرها لهم القانون. فمحكمة الثورة التي لا تتمتع بأية لياقة أخلاقية وقانونية، لأن رئيسها معلم ليس لديه أية خبرة قانونية من جهة، كما وأنها لا تخضع لأي قانون معروف من جهة ثانية ، تصدر هذه المحكمة على المتهمين بطريقة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً إلاّ في عصور الهمجية والبربرية ، فهذه المحكمة تتميز بأنها أسرع محكمة في العالم في إصدارها للأحكام ، حيث يتم كل يوم عقد عدة جلسات لأعداد كبيرة من المتهمين، يتم فيها إصدار الحكم بالاعدام أو السجن لمدد طويلة خلال عدة دقائق فقط ، وغالباً ما يكون محامي الدفاع، والذي ترى هذه المحكمة في بعض الأحيان أن تعينه هي للدفاع عن المتهمين، ضد المتهم نفسه الذي يجد نفسه تحت وطأة الشعور والاحساس بأنه مدان لا محالة حتى في حالة كونه بريئاً، وهي حالة شائعة جداً، وفي الحقيقة فإن أعضاء المحكمة والمدعي العام فيها يختارون من بين الحزبيين المعروفين بإخلاصهم للسلطة بصورة مطلقة، ويبدون

استعداداً تاماً لتلبية ما تطلبه منهم ، وفي إحدى المرات عندما وجد المدعي العام للمحكمة،وهو ضابط حقوقي بأن المتهم الماثل أمام المحكمة بريء بصورة لا تقبل الشك ، اقترح في مطالعته أمام المحكمة بأن يطلق سراحه لعدم كفاية الأدلة ضده ، بينما كان رأي رئيس المحكمة المدعو مسلم الجبوري بأنه يستحق العقاب ، فما كان من أحمد حسن البكر إلاَّ وأن أحاله فوراً على التقاعد بدرجة أدنى قائلاً (جبناك عون .. طلعت فرعون)، وهومثل شعبي يقال عندما يطلب شخص ما من آخر أن يساعده فلا يجد منه غير الاحباط ، وعلى الفور استخدم المقدم الحقوقي طارق شكر كمدع عام لهذه المحكمة المهزلة، والذي كان واعياً لمهمته،وهي أن من يدخل محكمة الثورة يجب أن لا يخرج منها سالماً على الاطلاق.

ـ لم تكن حالة الإرهاب والقمع تخضع إلى قانون خاص كقوانين الطوارىء التي تعلنها الحكومات المشابهة لحكومة النظام القائم في العراق ، فعندما كانت السلطات الحاكمة في العراق تشعر بأن الوضع الأمني بدأيتدهور، فإنها تسارع إلى إعلان ما يسمى في العراق بالأحكام العرفية ، كما حدث عدة مرات أثناء الحكم الملكي، وبعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، حيث يتم تحت ظله مصادرة كافة الحريات العامة والخاصة، كمظاهر التعبير عن الرأي بالقيام بالتظاهرات أو الاعتصامات، أوتوجيه النقد لنشاط الدولة في الصحف، ويتم اعتقال المشتبه بهم دون اذن لفترات غير محدودة، أو اتخاذ إجراءات قمعية أخرى ملائمة ، فالعراق الذي يعيش في حقيقة الأمر حالة خرق لحقوق الأنسان، وسحق كرامة المواطن وسلبه كل ما أقرته له القوانين الصادرة في العراق على الرغم من ضآلتها ، لم تعلن فيه لحد الآن حالة الطوارىء ، بل ان السلطة تدعي بأن ليس هناك ما يوجب إعلان قانون المحاكم العرفية والطوارىء ، حتى أن ظروف الحرب التي كان يعيشها العراق، والتي تقتضي إعلان مثل هذا القانون على كل البلاد ، لم تجبر السلطة على إعلانه لأنها في الحقيقة تنفذ بحق المواطنين العراقيين من الذين تشتبه بأن لهم نشاطاً معادياً لها، إجراءات قاسية جداً تفوق في حقيقتها ما يتيحه لها أي قانون آخر ، وهي حالة استخفاف صريحة بكل حقوق الإنسان والقوانين المعروفة التي تنظم علاقة الفرد بالدولة ، حيث ظلَّ الشعب العراقي يعيش تحت ظل قانون طوارىء غير معلن، مضافاً إليه كل ما ترغب السلطة من اتخاذه من تدابير قمعية وإرهابية بحق المواطنين ودون حدود .

ـ يظل القانون الوحيد والأساسي في العراق هو ورقة صغيرة يكتبها رئيس النظام الذي لم يخفِ استخفافه بكل القوانين المعروفة في العراق، وانه يستطيع أن يغيّر أو يضيف لها أي قانون يشاء، تتحول تلك القصاصة من الورق إلى مرسوم صادر من رئيس

الجمهورية، أو من ما يسمى بمجلس قيادة الثورة، يتم الإشارة فيه إلى المادة ٤٤ من الدستور المؤقت التي تتيح لرئيس الجمهورية اتخاذ ما يراه مناسباً من الوسائل للمحافظة على أمن الدولة، وإصدار ما يلزم من مراسم وقوانين خاصة، بل ان رئيس الجمهورية يستطيع أن يضع الشعب العراقي كله في السجن بقصاصة ورق، يأمر فيها باتخاذ ما يلزم لتنفيذ ما ورد فيها، لذا فإن حرص النظام القائم على عدم إبدال الدستور المؤقت بآخر دائم يظهر جلياً للعيان[١]، فعلى الرغم من وجود برلمان أو ما يسمىٰ بمجلس وطني، فإن العراق يعيش اليوم تحت ظل دستور مؤقت، تم إصداره قبل (٢٠) عاماً، في الوقت الذي يفترض فيه أن أيّ دولة في العالم عندما تكتمل دعائمها الأساسية المتمثلة في سلطاتها التشريعية والتنفيذية والقضائية، فإنها يجب أن تعيش تحت ظل دستور دائم، يحكم حركتها وينظم نشاطها بصورة معقولة، حتى أن الإجراءات القمعية التي تتبعها وتتخذها أجهزة أمن الدولة، تخضع هي الأخرى ضمن حدود ملائمة لقوانين تقوم بصياغتها الدولة نفسها، على الرغم من أنها يجب أن تتيح أكبر ما يمكن من المناورة وحرية الحركة لقوى الأمن وأجهزتها المختلفة، إلاّ أن المواطن في آخر المطاف يجب أن يجد نفسه مطمئناً إلى أنه يستطيع أن يحصل على الحد الأدنى المعقول من الحماية التي يشترطها له القانون، الذي يجب أن تسعى أي دولة تريد أن يحترمها العالم إلى الالتزام به. ولم يكن النظام العراقي محظوظاً في هذا المجال لعدم مقدرته على استيعاب مفاهيم الحياة وشروطها، التي يستطيع المواطن العراقي أن يعيش تحت ظلها وتحمل ضغوطها، وهذا مما خلق حالة جديدة لدى المواطن نفسه، بعد أن وجد نفسه محاصراً وعاجزاً عن ممارسة أي حق من حقوقه، بالتفكير بطريقة أقرب ما تكون إلى الانتحار، وهي مواجهة الموت وتفضيله على العيش تحت ظل ظروف ليست قابلة للتحمل، وهي حالة بدأت تتحول من الممارسة السلبية على المستوى الفعل إلى حالة إيجابية، وهي التحول من التفكير بتحطيم الذات بأساليب مختلفة إلى التفكير بالقضاء والتخلص من نفس الظروف التي أوجدت مثل هذا الشعور والإحساس، فمن حالة الخضوع التام، وفقدان الإرادة المطلقة، والانقياد بصورة تامة لتوجيهات السلطة ومشاريعها، انتقلت الجماهير من السلبية إلى العمل الإيجابي، حيث بدأت بوادر الرفض والتمرد تطفو على السطح، باعتماد الفعل المؤثر باتجاه تحطيم الأداة التي كانت سبباً في إيجاد وشيوع تلك الظروف التي لا تطاق، وهي حالة آخذة بالتصاعد، بينما تتصاعد إجراءات السلطة القمعية والإرهابية، وهي في حقيقتها تمثل

---

(١) أعلن النظام العراقي مؤخراً عن تشكيل لجنة برئاسة عزت الدوري لوضع مسودة الدستور الدائم للعراق.

معادلة جديدة، لا تعد في صالح بقاء النظام واستمراره ، فعندما يرى الشعب بأن الوسيلة الوحيدة لخلاصه وانعتاقه تتمثل بمقابلة الإرهاب والقمع بقمع وإرهاب مماثلين ، فإن السلطة التي تجد نفسها منغمسة في مواجهة الشعب كله ، سوف تواجه اللحظة التي تجد فيها نفسها عاجزة عن الاستمرار وضبط الأوضاع بنفس الأساليب التي ظلّت تعتمدها، عندها لن يفيدها أن تظهر من التسامح أو تغيير أساليبها المعروفة شيئاً ، لأن شقة الخلاف واتساعها لن تكون قابلة للردم ، وعندما تكون ممتلئة بالجماجم والدماء فإن العبور عليها، لغرض إقرار نوع من التفاهم والتعايش سوف يكون مستحيلاً، لأن كل شبر من تلك الهوة سوف يذكر بضخامة المأساة وهو لها ، مما لا يتيح فرصة لإعادة أي نوع من أنواع الانسجام بين جماهير الشعب الواسعة من جهة والسلطة وزمرها المسعورة من جهة أخرى، والتي تعودت على اتباع الأساليب اللاقانونية واللاشرعية . وعندما تأخذ الأمور مساراً جديداً في نوع العلاقة والأساليب المتبعة لكل من طرفي النزاع ، وفي الحالات التي تفلح السلطة من خلال مؤسساتها القمعية في إخماد مظاهر التململ والتمرد، فإنها ستجد نفسها أمام تمرد من نوع جديد أكثر تنظيماً واستعداداً لمواجهة أساليبها القمعية ، بل انها ربما وجدت نفسها أمام عدة أنواع من الرفض والتمرد التي تشمل مناطق عديدة وواسعة من البلاد، عندها ستجد نفسها بالكاد قادرة على حماية نفسها في البقعة أو المركز الرئيسي لها ، الذي يصبح هو الآخر مهدداً وبالتدريج بالانهيار والتدمير ، وهذا الاستنتاج الذي توصلنا إليه ليس مبنياً على الوهم، بل انه يستند على وقائع بدت واضحة للعيان ، فالأوضاع السائدة الآن في العراق ليست كما كانت عليه قبل سنوات قليلة، والسنوات أو الأيام القادمة سوف تشهد اتجاهات جديدة، ستضع السلطة أمام مصيرها المحتوم ، إذ لا يعقل أن يظل شعب بأكمله متحملاً لأوضاع تهدد وجوده ومصيره بالتدمير والفناء، وما دامت قوى الشعب هي الأرجح لأنها المعين الذي لا ينضب، فإن حركة التغيير سوف تتجه بالتأكيد لصالحها .

قوى الأمن الداخلي :

ـ أولى النظام القائم اهتماماً ورعاية فائقتين لجهاز الأمن الداخلي ، المسمى بمديرية الأمن العامة، وأعطاها الأولوية على سائر الأجهزة الأخرى للدولة ، وكان رئيس النظام العراقي يحرص حرصاً شديداً على مواصلة اجتماعاته بكوادر هذا الجهاز مزوداً إيّاهم بتعليمات مباشرة ووصايا خاصة ذات هدفين أو اتجاهين ، أولهما، تطمين جهاز الأمن بأنه يتمتع بحماية شخصية منه ، وانه لا يمكن أن يتعرض لأي تأثير من جانب أية مراكز قوى أخرى، سواء حزبية أو شخصية، وان عليه أن يواصل عمله في الاتجاهات

المرسومة له دون أن يلتفت لأي اعتبار، وثانيهما، تزويد كادر هذا الجهاز بخطط واتجاهات العمل المطلوبة بصورة مباشرة،وتقديم الدعم اللامحدود لتطوير كفاءة هذا الجهاز وتزويده بما يحتاجه من الأفراد والمعدات والصلاحيات المطلقة والأموال التي تكفل له العمل بأقصى ما يمكن من القوة والكفاءة ، مما يسهل على هؤلاء في الحقيقة انجاز كافة المهام الملقاة على عاتقهم ، لأن واجباتهم تحتاج إلى قدر كبير من الإحساس بالطمأنينة والثقة لأنها تنجز في وسط أنهار من الدماء ، تاركة وراءها آلافاً من الضحايا التي ربما ترتب عليها نوع من الضغوط الاجتماعية، أو السياسية بسبب جسامة الآثار التي تتركها على المجتمع العراقي بصورة شاملة وواضحة . لقد أصبح جهاز الأمن العراقي من أكثر أجهزة الأمن في العالم معادة لشعبه ، الذي يقابله هو الآخر بكراهية لا حدود لها ، ولقد ضم هذا الجهاز على عناصر تتمثل فيها كل عناصر الاجرام والخسة، أمثال فاضل البراك مدير هذا الجهاز ، وهو تكريتي،عمل مرافقاً عسكرياً لأحمد حسن البكر بعض الوقت ، ثم نقله بصورة مفاجئة إلى موسكو، حيث عمل ملحقاً عسكرياً فيها أثر افتضاح علاقته بإحدى الغانيات المشهورات في بغداد، وتسرب معلومات خطيرة تتعلق بوضع الدولة عن هذا الطريق ، حيث لم يعد السكوت عليها ممكناً ، وتتمتع الشعبة الخامسة من هذا الجهاز، والمكلفة بمكافحة ما يسمى بالنشاط الرجعي ،وهو اصطلاح يطلق على الحركة الإسلامية، بوجود كادر من ذوي المواصفات الخاصة الفريدة، فمدير هذه الشعبة الرائد سعدون، الذي يبدو على مظهره الخارجي بأنه لا يمكن أن يؤذي حشرة ، يعتبر من أكبر المجرمين والسفاحين الذي لم يشهد تاريخ العراق ضابطاً ارتكب هذا الحجم من الجرائم التي تقشعر لها الأبدان، وبكل برودة أعصاب، اضافة إلى عدد آخر من حثالات البشر من الضباط والقتلة الذين يمثلون نماذج أخرى من انحطاط العنصر الإنساني إلى أقصى درجات الانحدار، هؤلاء لا يملون من التعذيب والقتل ودفن المشتبه بهم أحياءً ، إلى ممارسة أقسى أنواع التعذيب الجسدي والنفسي ، وكأن قلوبهم قد تحوّلت إلى حجر، وفقدوا كل مشاعر الإنسانية والرحمة ، ولقد استطاع هذا الجهاز أن يحقق تقريباً كل المهام الإجرامية والقمعية التي أوكلت إليه بصورة تكاد تكون قاطعة .

ـ لم يفلح النظام في بعض الأحيان في جعل قوى الأمن الداخلي كافية لوحدها للسيطرة على التظاهرات والاضطرابات أو أعمال التمرد والعصيان ، فلقد ظلَّ النظام يستعين في أحيان كثيرة بالجيش لقمع التظاهرات وأعمال التمرد التي كانت وما زالت تقوم ضده ، كما حدث دوماً في كردستان العراق ومناطق الأهوار في الجنوب والوسط ، وكما حدث عام ١٩٧٦ في مسيرة ذكرى أربعين الإمام الحسين خلال المسيرة

التي جرت من مدينة النجف إلى كربلاء، والتي رافقتها أعمال معادية للسلطة بسبب إصرارها على منع الجماهير من الشيعة الذين اعتادوا على إجراء مراسيم الأربعين سيراً على الأقدام من النجف وبقية المدن القريبة إلى كربلاء في كل عام . فبعد أن عجزت قوى الأمن من أن تسيطر على الموقف ، استخدم الجيش لقمع هذا التحرك ، كما اشتركت القوة الجوية أيضاً في إرهاب الجماهير وذلك بإطلاق النار على المتظاهرين من الجو، والتحليق فوقهم على ارتفاعات منخفضة واختراق حاجز الصوت ، كما قامت بعدة طلعات فوق مدينة النجف لغرض إرهاب الأهالي، حيث بدا حينها بأن الموقف بدأ يفلت من أيدي السلطات المحلية في المدينة ، إلّا أن مما لا شك فيه بأن اشتراك الجيش في مثل تلك الأعمال، وعلى الرغم من أنه كان غالباً ما يوفق في إخماد الاضطرابات، كان يترك آثاراً سيئة عليه بسبب الشعور الذي يعتري ذهن الضباط والجنود بأنهم يستخدمون في أعمال قذرة بعيدة عن واجباتهم الأساسية ، كما قلل من هيبة الجيش وسمعته والثقة به بنظر عموم الشعب .

ـ لقد شكل جهاز الأمن في العراق دولة مستقلة داخل الدولة ، خاصة عند استلام ناظم كزار المسؤولية بعد انقلاب عام ١٩٦٨ حتى عام١٩٧٣، وهو العام الذي أعلن فيه عن أن ناظم كَزار قد دبّر مؤآمرة لقلب نظام الحكم بالاتفاق مع عدد من القياديين في الحزب، ومن بينهم عبدالخالق السامرائي عضو القيادة القومية، ومحمد فاضل عضو القيادة القطرية مسؤول المكتب العسكري ، وعلى الرغم من تعرض هذا الجهاز لحملة تطهير واسعة، شملت تنفيذ احكام الاعدام بحق عدد كبير من أعضاء هذا الجهاز، وعلى رأسهم ناظم كَزار نفسه، وكريم وحسن المطيري من كوادره الرئيسية ، وتسريح أو نقل أعداد كبيرة أخرى من كوادره المهمة، أمثال باسل الأعرجي وغيره الكثيرون ، إلّا أن هذا الجهاز تم إعادة بنائه بسرعة كبيرة عند استلام فاضل البراك مهام إدارته ، ولم يفقد هذا الجهاز أهميته وصلاحياته ، بل استطاع أن يعود إلى الساحة بسرعة وفاعلية أكبر وبميزة جديدة، وهي أنه أصبح أكثر أمانة وإخلاصاً لشخص صدام حسين وأكثر ثقة واعتماداً .

أجهزة المخابرات :

ـ بعد فشل ما سمي في حينها بمؤآمرة ناظم كَزار عام ١٩٧٣ ، ظهر إلى الوجود جهاز أمني جديد سمي بجهاز المخابرات ، وهو جهاز على غاية من السريّة ، والذي يعتبر العقل المفكر بالنسبة لكافة الأجهزة الأمنية الأخرى، ولا يعرف بتفاصيله سوى رئيس النظام الحاكم، والذي أصبح شقيقه لأمه المدعو برزان إبراهيم التكريتي رئيساً

له ، وهو شخص همجي لا يتمتع من الثقافة بشيء ، يمتاز بمواصفات غريبة من البربرية والوحشية التي يندر أن يمتاز بها غيره، حيث لا يفوقه في هذا المجال سوى الرئيس نفسه ، قام هذا الجهاز الجديد بنشاطات متنوعة ومختلفة داخل العراق وخارجه ، وهو الذي يشرف في الحقيقة على كل الخطط والنشاطات التي تنفذ خارج العراق ، كعمليات الاغتيال، أو الحصول على المعلومات، أو العمل على شراء أجهزة خاصة متطورة للجيش ودوائر الدولة الخاصة الأخرى (راجع فصل الديكتاتورية) . ويعتبر هذا الجهاز في الحقيقة أهم وأخطر الأجهزة الأمنية لدى السلطة وأكثرها خضوعاً لسيطرة رئيس النظام وإشرافه ، فهو يرتبط معه بصورة مباشرة، وينفذ أوامره التي يصدرها له، والتي تشمل كل الإجراءات السريعة التي يرى رئيس النظام لزوم اتخاذها في أي موقف من المواقف، والتي يرىٰ بأن السرعة في تنفيذها هي العنصر الحاسم .

إضافة إلى جهاز المخابرات ، هناك جهاز آخر يسمى بالجهاز الخاص، وهو يرتبط، بل يعيش مع رئيس النظام نفسه ، ومقره بالقرب من مقر عمله ، مهمته الإشراف على كافة الأجهزة الأمنية، وتنسيق العمل فيما بينها، وتبادل المعلومات التي تهمها ، ولم تستثنَ مديرية الاستخبارات العسكرية من هذا التوجه ، فقد تمّ فك ارتباطها برئاسة الأركان العامة للقوات المسلحة، وارتبطت بصورة مباشرة بسكرتير رئيس الجمهورية الذي أخذ يدير نشاطها عن قرب، بعد أن تحوّلت إلى مؤسسة قمعية إضافة إلى عملها الأساسي الذي يتمثل بجمع المعلومات عن جيوش بلدان الدول المجاورة للعراق وإسرائيل، أو أي عدوّ محتمل آخر ، وبذا يكون النظام قد استطاع أن يهيىء دعامة أساسية محكمة من دعائمه، وهو وجود شبكة واسعة من أجهزة تعمل كخلية نحل ليل نهار من أجل الحصول على المعلومات واتخاذ ما يلزم من الإجراءات المختلفة المتعددة على ضوء الاستنتاجات التي يتم التوصل إليها .

الرعاية والاعلام :

ـ سارع النظام إلى إنشاء مؤسسات الدعاية والاعلام، وبذل جهوداً وأموالاً كثيرة في هذا المجال ، ولم يكتفِ بالعمل في داخل العراق، بل امتدت يده إلى الخارج، حيث قامت بشراء عدد كبير من الصحف والمجلات، ودعم قسم آخر منها، بحيث أصبحت تشكل امتداداً لوسائله في الداخل ونسخة طبق الأصل منها، وشكل اهتمام النظام بوسائل الاعلام ودعمها ظاهرة فريدة وسمة مميزة للنظام، الذي اعتبرها سلاحاً فعالاً وهاماً يزيح عن كاهله الكثير من الأعباء . ويخفف عنه وطأة الهزائم الكبيرة في القتال كبقية القوات ،

ولكن بالصورة والصوت والقلم بدلاً من البندقية والمدفع ، فلقد أطلق النظام على وسائل إعلامه (الفيلق الثامن) إشارة إلى أهميتها، وإذا علمنا بأن الجيش العراقي يتألف من سبعة فيالق ، فلنا أن نتصور الأهمية والنفوذ الذي يتمتع به الإعلام ووسائله المتعددة بوصفه فيلقاً إضافياً . إن وزير الإعلام العراقي يحضر شخصياً في اجتماعات القيادة العامة للقوات المسلحة، خاصة عند اشتداد المعارك على الجبهة، وهي ظاهرة فريدة من نوعها توضح ترابط الإعلام والقتال برباط لا ينفك، يجد فيه النظام حلاً لبعض مشاكله في الجبهة والتي يأخذ الإعلام على عاتقه بذل الجهود لحلها .

ـ إلاّ أن النظام العراقي، وعلى الرغم من كل هذه الجهود التي يبذلها للعناية بأجهزة إعلامه، لم يحقق نجاحاً كبيراً داخل العراق بمستوى الامكانات الموضوعة بخدمته ، أي انه لم يحقق لدى جماهير الشعب العراقي قناعات ثابتة تدعم موقف السلطة ، بل إن كل وسائل الإعلام داخل العراق أصبحت لا تلاقي أُذناً صاغية من قبل أبناء الشعب العراقي، لاعتمادها على الكذب والدجل والتهويل الذي أصبح المواطن العادي يمجها ويستهجنها، أما على مستوى الخارج فإنها قد حققت وجوداً وتأثيراً لا بأس به، بسبب كونها توجه إلى أُناس بعيدين عن الساحة الفاعلة الحقيقية ومجريات الأوضاع فيها أولاً ، لذا فإنهم يتعرضون إلى عمليات غسل دماغ مستمرة ومثابرة، تتعاون عليها كل الأنظمة التي تقف مع النظام موقف المساندة والتأييد، إضافة إلى وسائل الإعلام الدولية التي تبذل جهوداً كبيرة في الوقوف إلى جانب النظام العراقي، أو أن هؤلاء هم أصلاً على استعداد لتقبل ما تقوله أجهزة ووسائل الإعلام، وتبثه لاعتبارات صارت معروفة ثانياً .

ـ وأجهزة الدعاية والإعلام العراقية، هي أجهزة إرهابية التوجه، متأثرة بذلك بكل النشاطات الأخرى التي يغمرها الإرهاب حتى أُذنيها وعلى مستوى كل أجهزة الدولة ، فعناصر الإرهاب والتخويف من سماتها الرئيسية ، ولا يتورع الجهاز الإعلامي للسلطة من استخدام تعابير تدل على عمق همجية النظام ووحشية وبربرية الأساليب التي يعتمدها ، كالذبح والتدمير والإبادة، وتعابير ومصطلحات أخرى جديدة تستخدم لأول مرة من قبل أجهزة إعلام النظام ، تفتقد لأبسط المفاهيم الإنسانية ونبلها، تبرز الجوهر الحقيقي للسلطة وتوجهاتها بخلاف ما تدعيه وتحرص على الظهور به أمام العالم كالتقدمية والمعاصرة والدفاع عن الحضارة ، فجهاز الإعلام، هو جهاز أمني فتاك، يذبح الناس ويبث الرعب في نفوسهم عن طريق الوسائل المتطورة والإمكانات التي لا حدود لها ، ويساهم مساهمة فعّالة في تعميق حالة الذعر والرعب والقلق داخل المجتمع العراقي كله، ومن ضمنه القوات المسلحة العراقية .

المنظمة الشعبية :

ـ قبل أن ننهي هذا الفصل يجب أن نعرج على دعامة مهمة أخرى من دعائم النظام، وهو ما أسماه التقرير بالمنظمة الشعبية أي الحزب ، والذي وضح التقرير أسلوب عمل هذه المنظمة بين أوساط الجماهير والوسائل التي يجب أن تتاح لها كي تحقق قاعدة النظام داخل المجتمع وامتداداتها ، والتي يرتكز عليها قادة الانقلاب بصورة نهائية ، لقيادة البلاد والإمساك بمقاليد الأمور فيها باطمئنان وثقة بالمستقبل ، ولكون التقرير كان قد قدم لقادة الانقلاب في مصر الذين لم يكونوا يملكون تنظيماً سياسياً تم إعداده قبل الانقلاب ، فإن الأمر يختلف عنه في العراق، حيث كان لقادة الانقلاب في العراق تنظيم سياسي تمثل في الحزب الحاكم الآن، الذي مرَّ أساساً بسلسلة طويلة من الانقلابات والانقسامات والتطاحن انتهى إلى ما انتهىٰ إليه الآن ، ويستحق منا أن نبحث في موضوع نشأة وتطور هذا التنظيم وأهم الأحداث التي مرّ بها ، وسوف أحصر البحث في مرحلة ما بعد ١٨ تشرين عام ١٩٦٣ ، لأنها شهدت أهم الأحداث التي تمخض عنها الشكل الحالي لتنظيم الحزب الحاكم ورموزه البارزة، على أننا نلاحظ بالفعل بأن التوجيهات التي وردت في تقرير وزارة الخارجية الأميركية، والتي استهدفت تقديم خطة لتوسيع هذا التنظيم، قد تمّ الاستفادة منها فعلاً بدرجة مدهشة ، بحيث أصبحت الدولة تضع أمام المواطن العراقي شرط انتمائه للحزب الحاكم لوجوده الطبيعي داخل المجتمع، والاستفادة من كل الخدمات التي تقدمها .

ـ وجدت المخابرات البريطانية والأميركية نفسها عاجزة عام ١٩٦٣ بأنها ملزمة باحداث تغيير جذري وسريع ، فوضعت مخططاً لإزالة عبدالكريم قاسم ، حشدت له كل إمكانياتها وطاقاتها ودفعت عملاءها ، كل في مجال عمله ، للمساهمة النشطة في إنجاح هذا المخطط ، حيث شهدت الفترة التي سبقت سقوط عبدالكريم قاسم تحالفاً واسعاً بين كل العناصر المعادية للشيوعية على مختلف مشاربهم ، كل عنصر من هذه العناصر كان يدعي لنفسه سبباً ومبرراً للعمل في هذا المخطط ، اعتباراً من عناصر العهد الملكي المباد ومخلفاته من الطبقات التي أضرت ثورة ١٤ تموز بمصالحها، إلى بقية الفئات والشخصيات التي وجدت نفسها لسبب وآخر تدعم هذا المخطط . ولم يكن حزب البعث بعيداً عن هذا المخطط، بل كان النواة التي تجمعت حولها كل العناصر الحاقدة السوداء ، ولم يخفِ علي صالح السعدي أمين سر القيادة القطرية لحزب البعث في تلك الفترة، وجود علاقات مشبوهة ومخططات مشتركة استعمارية ـ محلية ، فقد قال كلمته المشهورة بعد انهيار حكم حزب البعث عام ١٩٦٣ ، وهو الذي يعرف جيداً أسرار المخطط كله (لقد

جئنا بقطار أمريكي) ، لذا فقد شهدت قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي في الفترة التي سبقت الانقلاب، دخول عناصر عسكرية جديدة إلى قيادته، إضافة إلى عقد تحالفات مع عدد من العسكريين الآخرين الذين كان لهم دور بارز في التخطيط للانقلاب وإدارة دفة الحكم بعد نجاحه ، ولم تكن تلك التحالفات والتغييرات تستند على أسس فكرية واضحة ، أي أن العلاقة بين هؤلاء وحزب البعث لم تكن علاقة ناجمة عن إيمان هؤلاء بفكر الحزب والالتزام به ، بل ان هذه التحالفات عقدت بصورة سريعة بين الحزب وهذه العناصر العسكرية ، التي ساهمت بالإطاحة بحكم الحزب عام ١٩٦٣ بحركة مضادة في ١٨ تشرين الثاني عام ١٩٦٣، وبعد مرور تسعة أشهر فقط على هذا التحالف الحاشد من الوجوه الكثيرة.

وعلى سبيل المثال : فإن أحمد حسن البكر ومجموعة الضباط التكارتة الذين كانوا معه في السجن، وهم حردان عبد الغفار ورشيد مصلح وذياب العلگاوي وطاهر يحيىٰ قد تمّ الاتصال بهم عام ١٩٦٠ لغرض ضمهم لصفوف الحزب، ولم ينتم البكر وحردان والعلگاوي إلى الحزب إلاّ في بداية عام ١٩٦٢، أما طاهر يحيىٰ فلم ينتسب إلى الحزب إلاّ بعد نجاح مؤآمرة ٨ شباط ١٩٦٣، ولم ينتم رشيد مصلح للحزب مطلقاً ، إلاّ أن البكر وطاهر يحيىٰ استطاعا أن يصبحا أعضاء في القيادة القطرية للحزب بسرعة مذهلة، وبفترة قياسية، حيث استطاعت في الحقيقة أن توجد لها كتلة خاصة بها، كانت تتهم دوماً من قبل كل الحزبيين بأنهم زمرة يمينية متخلفة، لا تؤمن بالحزب بقدر إيمانها بمصالحها وارتباطاتها السرية،وأساليب التآمر والتحايل حتى لو أدت أساليبها تلك إلى تدمير الحزب نفسه .

وهذا ما حدث بالفعل في ١٨ تشرين الثاني عام ١٩٦٣ ، حيط ظهرت إلى الوجود حقيقة ارتباط هؤلاء بالحزب وأهدافهم ، فلقد اشترك البكر وحردان وطاهر يحيىٰ وذياب العلگاوي ورشيد مصلح بتنفيذ الجزء الأكبر من «المؤآمرة» على الحزب، بالاشتراك مع عبدالسلام عارف ، فقد اشترك البكر وحردان بالحكم الذي جاء بعد انهيار الحزب ، أما طاهر يحيىٰ فإنه لم يكن ليبدي أي اهتمام بالحزب الذي أصبح عضواً بقيادته ، كما أن رشيد مصلح الذي أصبح وزيراً للداخلية كان مهتماً أكثر من غيره بملاحقة العناصر الحزبية من البعثيين،وتعطيل نشاطها أو ملاحقتها وزجها بالسجون والمعتقلات ، وبعد أن أصبح عبدالسلام عارف يمسك بزمام الحكم بقوة، أقدم على اقصاء كل من البكر وحردان من الحكم ، أما طاهر يحيىٰ فقد أصبح رئيساً للوزراء ، كما استمر رشيد مصلح بمساندته لحكم عارف مدة طويلة ، وفي الحقيقة لم يكن هؤلاء يؤمنون بحزب، أو أي فكر سياسي آخر ، بل كانوا يعملون ضمن مخطط أميركي ـ بريطاني، ينفذون فصوله بدقة في

كل مرحلة من مراحله ، وقد عرف أحمد حسن البكر بانتهازيته وجبنه وعدم إيمانه بالحزب، حيث أعلن بعد أن كشفت مؤآمرة في ٥ أيلول عام ١٩٦٤، تستهدف تنظيم انقلاب لصالح حزب البعث، أعلن بأنه سيعتزل السياسة بصورة تامة، وينصرف إلى العمل في مزرعة صغيرة في تكريت يدير فيها ويرعى عدداً من الأبقار ، لذا فقد كان البكر مشهوراً بلقب (أبو الهوش)، أي صاحب البقر بين أوساط الشعب العراقي، ولقد نشرت بعض الصحف المحلية في حينها براءته من الحزب وانصرافه لتصريف شؤونه الخاصة .

ـ أما صدام حسين فهو الآخر من هذه الفئة التي لم تكن تؤمن بالحزب وأفكاره ووجوده مطلقاً ، إنه ربيب بيوت العناكب التي نسجها البكر وعفلق وأوهامهم وتوجهاتهم ، فقد شوهد صبيحة ١٨ تشرين فوق إحدى ناقلات الأشخاص المدرعة للواء الثامن الآلي، الذي ساهم في عملية إزاحة الحرس القومي والحزب كله من السلطة، وهو يحمل بندقية في يده يساهم مع المتآمرين ضد حزبه في النشاط الذي انتهى إلى تحطيم الحزب وإفلاسه ، ليس هذا فحسب، بل إنه عندما اعتقل مع عدد من الحزبيين بعد مؤآمرة ٥ أيلول، كان أول الذين أدلوا باعترافات صريحة كاملة حول التنظيم الحزبي وأوكاره .

يروي فريد محمد عبد الرحمٰن، وهو فلسطيني من حزب التحرير الإسلامي، كان نزيل المعتقلات والسجون العراقية مدة طويلة، يروي هذه القصة :

كنت عام ١٩٦٤ معتقلاً في أحد السجون في العراق، وكان معي في السجن عدد من كبار البعثيين آنذاك، ومن ضمنهم صدام حسين، وكانت السلطات تجري معهم التحقيق حول اشتراكهم بمؤآمرة لقلب نظام حكم عبد السلام عارف، وجاء دور صدام حسين للتحقيق، حيث أخذ المحقق يستجوبه، وما ان ضربه المحقق ضربة كف واحدة، (يسميها العراقيون راشدي) على خده، حتى بدأ يعترف وبالتفصيل، قائلاً للمحقق لا حاجة للضرب خذ كل ما تريده ، فأعطاه أسماء أعضاء التنظيم والأوكار وعلاقاته التنظيمية الأخرى، وعندما عاد من غرفة التحقيق إلى زملائه الذين علموا بموقفه الشائن، تعرض إلى حملة عنيفة من التشهير والمقاطعة والاحتقار، كما نبذوه وبدأوا يحذرون منه لأنه أصبح لا يتمتع بثقة أحد منهم ، والجدير بالذكر بأن فريد محمد عبدالرحمٰن كان قد روىٰ هذه القصة عام ١٩٧٤، وهو نزيل أحد السجون في العراق مبدياً عجبه بأن صدام حسين قد أصبح أحد الزعماء البارزين لحزب البعث وقادة الدولة .

ـ بعد اطلاق سراح البعثيين من السجون، كان حزب البعث قد انقسم على نفسه إلى مجموعتين ، الجماعة الأولى موالية لسوريا يطلق عليها اسم اليساريين ،

والأخرى قامت بتشكيل تنظيم منفصل خاص بها أُطلق عليه التنظيم اليميني ، وكان اليساريون هم الأكثرية الساحقة ، ولم يكن للفئة الأخرى التي كان يتزعمها البكر من الأنصار إلاَّ عدد قليل جداً، معتمدة في وضعها وعلاقاتها التنظيمية على الروابط العشائرية التي كانت تربط رؤوسها القيادية كصدام حسين التكريتي وحردان التكريتي وعبدالفتاح الياسين التكريتي وصلاح عمر العلي التكريتي، وبالطبع كان زعيمهم تكريتياً أيضاً وأعني به البكر ، إضافة إلى عوامل أخرى كانت تلعب دوراً هاماً في جمع هذا التنظيم، وأهمها الطائفية التي كانت تمتلك حيزاً كبيراً في عقل هذه الكتلة ، وقد ظلَّت كتلة البكر منبوذة تثار حولها الشكوك بخصوص علاقاتها بالمخابرات الأجنبية التي كانت تدير تنظيمها وتقدم له المساعدة اللازمة ، حيث ان هذه الفئة كانت قد طردت كلها من التنظيم اعتباراً من ميشيل عفلق أمين عام قيادتها إلى البكر وحردان وصالح مهدي عماش ، أي أنها في الواقع كانت محرومة من الدعم الذي كانت تقدمه القيادة السورية للتنظيم الذي تشرف عليه في العراق .

ولم يكن وضع هذا التنظيم والشكوك التي تثار حوله سائدة بين أوساط الأحزاب والمنظمات السياسية الأخرى فقط ، بل ان هذه الشكوك كانت تعتمل في نفوس عدد كبير من أفراد هذا التنظيم على قلته، والتي ظلَّت تشكل عوامل أساسية لكل الهزات والانقسامات اللاحقة ، فلقد شكل وجود زمرة البكر ـ صدام على رأس الدولة والتنظيم فيما بعد، من الأسباب الرئيسية التي كانت تثير حفيظة بقية الحزبيين العسكريين منهم والمدنيين ، فبعد نجاح مؤآمرة ١٧ تموز التي تمت نتيجة تحالفات لم ينكر الحزب بأنها كانت مفروضة عليه ، وهو محض ادعاء واهٍ ، لأن العناصر التي تحالفت معها القيادة التي أشرفت على تنفيذ المؤآمرة كانت معروفة بارتباطاتها بالمخابرات الأجنبية، وخاصة المخابرات البريطانية ، وعلى رأس تلك العناصر المقدم إبراهيم عبدالرحمن الداود آمر قوات الحرس الجمهوري، والعقيد عبدالرزاق النايف مدير الاستخبارات العسكرية، والمقدم سعدون غيدان آمر كتيبة دبابات الحرس الجمهوري ، مما عزز الشكوك لدى عدد كبير من الحزبيين القدامى الذين بدأ صدام بتصفيتهم بصورة مستمرة بإعدامهم، أو إقصائهم من المسؤولية في الحزب والسلطة، لأنه أدرك جيداً بأنه لا يمكن أن يستمر في الحكم والسيطرة على الحزب بوجود هؤلاء الذين يعرفون كل شيء عن ماضيه . وكان ان بدأ بتصفيتهم الواحد تلو الآخر، ابتداءً من عبدالله سلوم السامرائي وزير الإعلام السابق إلى عبدالخالق السامرائي ومحمد فاضل ، ثم عدنان حسين ومحمد عايش ومحمد محجوب والعشرات من القياديين ،بحيث أن أول مجلس قيادة ثورة لم يبقَ منه على قيد الحياة سوى

ثلاثة أشخاص عدا صدام من أصل ١٥ عضواً ، وكان الشعار الجديد الذي أطلقه صدام وعمل بكل قوة على تنفيذه (اكسب الشباب تضمن المستقبل)، يعني في الحقيقة التخلص من الكادر الحزبي القديم الذي بدأت تأكله الحيرة والشكوك والخيبة، بعد أن أصبح يرى أن كل الآمال التي علقها على الحزب أصبحت تتحول إلى أوهام، بعد أن سيطرت زمرة مشبوهة من الرعاع على مقاليد الحكم ، تتلاعب بمقدرات الشعب بالطريقة التي تحلو لها دون احترام لإرادة الشعب، أوما يسمىٰ بالحزب الذي يفترض به أنه يقود عملية التغيير داخل المجتمع باتجاه الأهداف التي نادى من أجلها ، ولم يخفِ صدام مقاصده في هذا المجال ، فهو يريد جيلاً جديداً من الحزبيين الذين لم يواكبوا مسيرة الأحداث التي مرت بالحزب، والتي تشير إلى عمالة زمرة البكر ـ صدام وارتباطاتها المشبوهة وأساليبها الملتوية للسيطرة على كل شيء ، وبذا يتحول الحزب إلى أداة طيعة إضافية أخرى من الأدوات التي يمسك بها رأس النظام من أجل المحافظة على استمرار وجوده على رأس السلطة .

ـ لم تكن القاعدة الشعبية للحكم ذات امتدادات مؤثرة في المجتمع العراقي مطلقاً، ولقد وجدت الزمرة التكريتية نفسها تعيش في عزلة خانقة ، وكانت تعتبر التنظيم الموالي لسوريا هو أكثر المزاحمين لها، لأنه يحمل نفس الاسم الذي تحمله ، وتعمل تحت نفس العنوان الذي تعمل تحته ، لذا فإن أول عمل قامت به هو تصفية هذا التنظيم وكشف عناصره، حيث شهد عام ١٩٦٩ حملة عنيفة ضد أعضاء هذا التنظيم من العسكريين والمدنيين ، ولأن صدام لم يكن بعيداً عن هذا التنظيم وأساليبه وأوكاره، فإنه استطاع وبسرعة أن يكشفه، حيث ساهم ناظم كزار مدير الأمن السابق، وهو حزبي متمرس بأعمال الإرهاب والعمل السري في إنهاء هذا التنظيم بصورة تامة ، إلاّ أن صدام كان يحس بأنه بحاجة إلى أن ينقل أعضاء هذا التنظيم بصورة هادئة إلى صفوف تنظيمه ، لذا فإن أعضاء التنظيم الموالي لسوريا قد تم إطلاق سراحهم، بعد أن أخذت لهم اعترافات مصورة تلفزيونية لضمان ابتزازهم وإجبارهم على العمل مع تنظيم صدام بصورة اعتيادية وانسجام تام ، وهكذا تحول عدد كبير من أعضاء هذا التنظيم إلى أعضاء في تنظيم صدام الذي اعتبر خلافه معهم خلافاً أخوياً تم تجاوزه بروح التسامح والأخوة!!، وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يستطع أن يخفِ مخاوفه وشكوكه من أعضاء هذا التنظيم الذين انتقلوا إلى تنظيمه ، فقد قال في الندوة المشهورة التي عقدها للكادر المتقدم للحزب في قاعة الخلد بمناسبة كشفه عن ما أسماه بمؤآمرة كان يقودها محمد عايش وعدنان حسين بالاتفاق مع سوريا : بأنه يجب أن يعير اهتماماً خاصاً لمراقبة العناصر التي كانت تعمل

مع التنظيم المنشق،وهو المصطلح الذي تطلقه جماعة صدام على التنظيم الموالي لسوريا .

ولقد تمّ أيضاً كشف التنظيم العسكري في الوقت الذي كان فيه التنظيم المدني قد أوشك على لفظ أنفاسه الأخيرة، حيث تمّ اعتقال ما يقرب من (٤٠٠) ضابط وأعداد أخرى من ضباط الصف ، بعد أن تمّ اغتيال العقيد الركن عبدالكريم مصطفى نصرت مسؤول هذا التنظيم العسكري ، ولقد ساهم وليد محمود سيرت في كشف هذا التنظيم، حيث كان عضواً فيه، ويشغل منصب معاون مدير الاستخبارات العسكرية ، وكان مديرها الفعلي لأنه لم يكن قد تمّ تعيين مديراً لها ، تم نقله بعدها إلى منصب الملحق العسكري في السفارة العراقية في لندن ، عاد بعدها إلى العراق بعد أن قدم رسالة اعتذار إلى أحمد حسن البكر، حيث تم تعيينه آمراً للواء المدرع ٣٠،ثم قائداً لإحدى الفرق ، فقائداً للفيلق الأول، حيث لاقى حتفه بتهمة الاشتراك بالتآمر على قلب نظام الحكم في مؤآمرة محمد عايش عام ١٩٧٩ .



الفصل الثاني

القوات المسلحة تحت ظل النظام الحالي

القوات المسلحة تحت ظل النظام الحالي :

ـ أشار التقرير الذي قدمه جيمس ايخلبرغر للحكومة المصرية إلى الجيش كدعامة أخرى من الدعائم التي تستند عليها سلطة الانقلاب تحت عنوان (القوة العسكرية)، ننقل من هذا التقرير فقرة هامة عن القوات المسلحة وأساليب الإمساك بمقاليدها والسيطرة عليها: (في الوقت الذي لا يجوز التقليل من أهمية وجود قوة عسكرية ذات كفاءة عالية وولاء تام للنظام الحاكم، فإنه لا يجوز أيضاً اعتبار وجودها ذا أهمية مسلم بها جدلاً ، فمن أكثر الأمور أهمية ، توفر جهاز فعال جداً للمخابرات ضد التآمر والنشاط الهدام في داخل القوات المسلحة ، ومن المستحسن وضع برامج ثقافية سياسية وتلقينها لكافة أفراد الجيش ، ومن المهم فوق كل هذا وذاك ، إدخال التحسينات على أسلحة ومعدات وتدريب القوات المسلحة ، كما ويجب دفع المرتبات بانتظام وسخاء حتى تكون أحسن المرتبات في الدولة، وحتى يصبح ذلك الجيش باختصار «جيشاً موالياً تملأ الغبطة قلوب أفراده، ويغمر السرور نفوس ضباطه»)[1]، والآن فلننظر إلى النظام العراقي كيف ترجم هذا التوجيه إلى الواقع العملي، وكيف أصبحت القوات المسلحة تعيش تحت ظله ؟ فالتقرير يدعو إلى ما يلي :

أ ــ يجب عدم التقليل من أهمية وجود جيش كفوء.

ب ــ ضمان ولائه التام للنظام الحاكم .

جـ ــ عدم الاطمئنان إليه بصورة كاملة، بل يجب إقامة جهاز فعّال للمخابرات ضد التآمر والنشاط الهدام داخله .

د ــ وضع برامج ثقافية سياسية وتلقينها لكافة منتسبي القوات المسلحة .

(١) لعبة الأمم. مايلز كوبلاند ص ٣٠.

هـ ـ ادخال تحسينات على الأسلحة والمعدات وتدريبه بصورة جيدة .
و ـ رفع المستوى المعاشي لمتنسبي القوات المسلحة، بحيث تكون رواتب أفرادها من أعلى الرواتب التي تدفعها الدولة لمتنسبيها .

وقد حرصت السلطة حرصاً شديداً على تطبيق ما ورد في هذا التوجيه،وواصلت التمسك به إلى اليوم، حيث شهدت القوات المسلحة العراقية تغييرات هامة وأساسية منذ ١٧ تموز ١٩٦٨ ، وقد أمكن الحصول على نتائج مهمة في هذا المجال، وعلى الرغم مما يبدو من أن السلطة قد توصلت إليه ، إلاّ أن الجيش العراقي يمكنه أن يتخلص مما علق به نتيجة للجهود التي بذلها النظام ، وذلك في حالة تخلص القوات المسلحة العراقية من تسلط النظام وجلاوزته ، وإجراء تعديلات ملائمة في قيادته ، إضافة إلى تغيير الأساليب المتبعة حالياً داخلها، خاصة فيما يتعلق بالتعامل بين متنسبيها من الضباط وضباط الصف والجنود والتوجيه العقائدي السليم .

ـ لم يغفل النظام أهمية وجود جيش كفوء يستند عليه في وقت الأزمات والمحن التي تمر به، ولم يعمد إلى إيجاد قوة ظهيره له منظمة تسلبه وجوده الأساسي كقوة وحيدة ، كما حدث عام ١٩٦٣ ، عندما انشىء ما يسمى بالحرس القومي الذي أحدث وجوده حساسيات قاتلة بينه وبين الجيش، إلاّ أن السلطة لم تغفل إنشاء قوة شبه نظامية دائمة وهو الجيش الشعبي ، وهو قوات ميليشيا كلفت بواجبات عديدة أهمها : الحفاظ على الأمن الداخلي ، ومشاركته الجيش في تنفيذ بعض الواجبات على جبهات الحرب ، وكانت تهدف من إنشاء وتوسيع الجيش الشعبي إلى عسكرة المجتمع كله ، ودفع الشعب بالقوة إلى المشاركة في القتال بأساليب وطرق جديدة ، في حالة كون المواطن لا تشمله الخدمة في الجيش لأي سبب من الأسباب، فإنه لم يعد ممكناً أن يفلت من المشاركة في الحرب بعد أن فتحت باباً أخرى لزجه بها وهي باب الجيش الشعبي ، إلاّ أن الملاحظة الهامة هنا هي أن معنويات الجيش الشعبي كانت بدرجات كبيرة أقل منها مما لدى الجيش نفسه ، الذي أصبح ينظر بازدراء إلى هؤلاء المدنيّين الذين يرتدون ملابساً جميلة ، يخافون من كل شيء ، ويختلقون المشاكل العديدة من أجل التهرب من تنفيذ الواجبات المناطة بهم ، والتي كانت دوماً لا تتلاءم وإمكانيات وقابليات وحدات الجيش الشعبي ، مما خلق بالفعل حساسية بين قيادة الجيش الشعبي المتمثلة بقائدها العام طه ياسين رمضان ، وبعض القيادات الميدانية ، ففي عام ١٩٨١ وصل متنسبو أحد قواطع الجيش الشعبي للعمل في قاطع الفرقة المدرعة العاشرة ، وصل قائد الفرقة في حينها هشام صباح الفخري وأحضرهم أمامه ، وكان يريد أن يختبر استعدادهم وروحهم المعنوية حيث قال لهم : إنني

سوف أتقدم إلى الخطوط الأمامية للعدو، وأريد أن أرى أياً منكم سوف يصحبني إلى هناك ، فلم يتقدم أحد ولم يظهروا استعدادهم للتقدم معه باستثناء عدد لا يتجاوز ١٧ شخصاً منهم من بين (٣٠٠) مقاتل، عندها ظهرت علامات الغضب الشديد على وجه قائد الفرقة ، قائلاً لهم : « أيها الجبناء لست بحاجة إليكم عودوا من حيث أتيتم! » ، مما سبب حدوث أزمة بين قيادة الجيش الشعبي العامة وقيادة الفرقة المدرعة العاشرة ، اطلع عليها صدام شخصياً ، وأمكن تسوية الأمر بعد أن ترك آثاراً سيئة على العلاقة بين الجيش من جهة والجيش الشعبي من جهة أخرى. إلاّ أن منتسبي القوات المسلحة كانوا يشعرون بفرح عميق عندما تتعرض بعض وحدات الجيش الشعبي لخسائر كبيرة، أوعندما يهربون من ساحة المعركة ، على اعتبار أن منتسبي الجيش الشعبي هم من قيادات الحزب وأعضائه وأنصاره، والذين يفترض فيهم أن يضحوا من أجل «معركة صدام» أكثر من غيرهم، مظهرين الشماتة بهم! ولقد ظلّ موضوع رفع كفاءة الجيش العراقي يصطدم باستمرار برغبات السلطة التي تريد أن يكون موالياً لها بصورة تامة ، لذا فإن الجيش العراقي ظل يعاني باستمرار من فقدان كوادره الكفوءة بسبب مواصلة السلطة تطهيره من العناصر المشكوك بولائها لشخص البكر وطغمة التكارتة ، وغالباً ما كان الذين تطالهم إجراءات التطهير من العناصر الكفوءة التي كانت تشكل صفوة كوادره .

ـ لقد عانى الجيش العراقي منذ استيلاء زمرة البكر ـ صدام على السلطة من هزات عنيفة، كان لها أثر كبير في تحطيم كفاءته ، فلم تكد تمضي شهور قليلة على استلامهم السلطة حتى شهد الجيش حملات تسريح وإحالة على التقاعد شملت العديد من الضباط وضباط الصف من خيرة كوادره ، وكانت القوى الناصرية في الجيش أو ذات الاتجاه القومي ، وهي من أكبر التنظيمات وأكثرها اتساعاً في القوات المسلحة قبل عام ١٩٦٨ ، قد تلقت أقسى الضربات وأشدها، بحيث لم تسلم وحدة من وحدات الجيش العراقي كله من إحالة على التقاعد أو سجن عدد من الضباط، وما ان كادت هذه الحملة توشك على الانتهاء، حتى بدأت حملة أخرى شملت التنظيم الموالي لسوريا في الجيش حيث تعرض للاعتقال ، ثم الإحالة على التقاعد ، عدد كبير من الضباط وضباط الصف، بحيث أصبح واضحاً بأن الجيش أصبح بالفعل عاجزاً عن أداء مهامه، بعد أن فقد خيرة ضباطه وضباط صفه ، كما أن حالة من القلق والترقب سادت هي الأخرى البقية الباقية من الضباط الذين بدأوا يحسون بأن أدوارهم سوف تحين عاجلاً أم آجلاً، وهم سيلاقون نفس المصير الذي بدأ المئات من الضباط يواجهونه . وبالمقابل لجأت السلطة إلى إجراءات سريعة لضبط التوازن داخل القوات المسلحة في الأشهر الأولى خاصة، وذلك لشعورها

بأنها مهددة بسبب قلة الكوادر الحزبية العسكرية المتمرسة ، فقد لجأت إلى إدخال عدد كبير من المدنيين في دورات عسكرية سريعة لم تتجاوز الثلاثة أشهر، ومنحتهم رتباً عسكرية ، وقامت بتوزيعهم على كافة وحدات الجيش العراقي بالتزامن مع خطة التسريح التي شملت الضباط المشتبه بعدم ولائهم لسلطة الانقلاب الجديدة ، مما أضعف الجيش بهذه الإضافة الهزيلة من أشباه العسكريين الذين جمعوا من الشوارع ، والذين لم يكونوا ليصلحوا كضباط صف في الجيش، فضلاً عن صلاحيتهم كضباط ، وبذا سادت حالة جديدة هي خليط من الفوضى والارتباك، كان لها تأثير كبير في المراحل اللاحقة من حياة الجيش العراقي ، كما أفرزت هذه الحالة ظهور السلوك الانتهازي لدى قسم كبير من الضباط، الذين كانوا يخشون أن يتعرضوا لنفس المصير الذي تعرض له زملاؤهم ، وبذا تكون القيادة قد دقت إسفينها الأول في جسم القوات المسلحة، حيث تمكنت بعد أن استطاعت أن تشيع روح القلق والخوف والتملق داخل الجيش، أن تبدأ بإحكام سيطرتها عليه ، وذلك باللعب بأعصاب منتسبيه وتحطيم قواهم المعنوية والروحية .

ـ لم يسلم الحزبيون من العسكريين من حملات التطهير والابعاد والسجن ، فلقد كانت زمرة البكر ـ صدام تخترع بين آونة وأخرى وجود مؤآمرة انقلابية يدبرها عدد من الضباط البعثيين، الذين لا يبدون انسجاماً مع توجه البكر العشائري والطائفي في إدارة الدولة ، ونورد نموذج لأساليب البكر وصدام الملتوية للتخلص من الضباط البعثيين .

في شهر آب من عام ١٩٦٩ اتصلت القيادة العسكرية العامة بآمر معمل ميدان السابع ، وهو حزبي كبير ، ولكن بمرتبة نقيب ، وكلفته بإلقاء القبض على العقيد الركن محمد علي سعيد قائد فرقة المشاة الثانية، وإرساله مخفوراً إلى بغداد . لكن آمر المعمل اعتذر عن تنفيذ الأمر قائلاً : بأن رتبته العسكرية لا تساعده على القيام بمثل هذا العمل . لذا فقد كلفت القيادة المقدم الركن عامر خالد الحمدان مدير منظومة استخبارات المنطقة الشمالية، ومقرها كركوك بتنفيذ الأمر ، وبالفعل فقد اصطحب معه قوة صغيرة وذهب إلى بيت القائد، وأخبره بأنه تلقى أمراً من القيادة باعتقاله وإرساله مخفوراً إلى بغداد، وفعلاً تمّ تنفيذ الأمر. وقد أظهر في حينها المقدم الركن عامر الحمدان ما يلزم من الأدب أثناء تأديته لما طلب منه أن يؤديه ، ولم تكن أسباب هذا الأمر خافية على أحد ، فالعقيد الركن محمد علي سعيد أحد الحزبيين القدامى ،وكان حتى قيام انقلاب ١٧ تموز وما بعده عضواً في المكتب العسكري للحزب ،والمسؤول عن تنظيمات الحزب العسكرية في المنطقة الشمالية ، وعند نشوء فكرة الانقلاب والتخطيط لها بمشاركة المقدم إبراهيم عبدالرحمن الداود آمر قوات الحرس الجمهوري ،والعقيد عبدالرزاق النايف مدير

الاستخبارات العسكرية، كان محمد علي سعيد، وكان برتبة مقدم ركن، أحد المعترضين على فكرة اشتراكهم بالمؤآمرة، إضافة إلى اعضاء آخرين في المكتب العسكري، منهم الرائد فاضل العاني. إلاّ أن محمد علي سعيد لم ينجح في منع اشتراك المشار إليهما، واضطر إلى المشاركة بالانقلاب، منح بعدها رتبة إضافية، وعيّن قائداً لفرقة المشاة الثانية في كركوك، وكان يعتبر من الشخصيات القوية ذات التأثير الواضح على مرؤوسيه، وكان يتمتع باحترام ومحبة عدد كبير من الضباط، خاصة ضباط فرقة المشاة الثانية.

ويبدو أن الاعتراضات التي أبداها قد جعلت البكر يفكر بالخلاص منه بأقرب فرصة ممكنة، إضافة إلى أن اقصاءه من المكتب العسكري كان سيفسح المجال لكل من الرائد الركن عدنان خير الله، والرائد الركن عدنان شريف ابن أخ حماد شهاب وزير الدفاع الأسبق لتسلم مسؤوليات المكتب العسكري، باعتباره أخطر جهاز في الحزب يستطيع أن يحكم السيطرة على القوات المسلحة من خلال ضمان ولاء الحزبيين وتوجيههم.

رافقت عملية اعتقال العقيد الركن محمد علي سعيد عمليات اعتقال أخرى شملت عدداً من الضباط العاملين معه في وحدات ومقر الفرقة، من بينهم مرافقة الخاص، وهو عضو قيادة شعبه كركوك للحزب، والملازم عطا السامرائي العامل في مستشفى كركوك العسكري، إضافة إلى عدد آخر من الضباط. وقد أودع محمد علي سعيد السجن بدون محاكمة لمدة خمس سنوات، تم بعدها الإفراج عنه مع فرض الإقامة الجبرية عليه. كما تم اعتقال آمر معمل ميدان السابع مدة من الوقت بسبب عدم تنفيذه الأمر الذي صدر له باعتقال قائد الفرقة. وقد تعرّض العقيد الركن محمد علي سعيد لمحاولة اغتيال بالسم هو وأفراد عائلته، فلقد اعتادت زوجته أن تضع كيساً فارغاً تعلقه على باب المنزل الخارجي لكي يضع فيه موزع «الصمون» - وهو نوع من الخبز يصنع في العراق - ما تحتاجه العائلة منه صباح كل يوم. وفي إحدى المرات خرجت مبكرة دون عادتها لجلب الصمون، ثم أعادت الكيس إلى محله، في في تلك الأثناء جاء وكيل للمخابرات العراقية فوضع خبزاً مسموماً في الكيس، وعندما خرجت زوجة المشار إليه إلى ساحة المنزل، وجدت أن الكيس لا يزال مملوءاً بالخبز، فأصابتها الحيرة حيث أخبرت زوجها بالأمر، الذي فهم بأن السلطة تنوي قتله مع عائلته، فدفع بقطعة من الصمون إلى قطة كانت أمامه، فماتت في الحال عندما تناولتها.

ـ افتتح صدام حسين في نهاية عام ١٩٧٩ عهده بمجزرة رهيبة، راح ضحيتها عدد كبير من الحزبيين العسكريين والمدنيين من الذين كان يشتبه بولائهم لصدام حسين، ومعارضتهم لتوجهاته، واستئثاره بالسلطة وإدارة الدولة بعيداً عن المفاهيم التي كان يطمح

هؤلاء إلى اعتمادها ، فلقد ادعى صدام بأن محمد عايش عضو القيادة القطرية ووزير الصناعة كان يشرف على تنظيم مؤآمرة يشترك في إعدادها عدد من أعضاء القيادة الحزبية ، إضافة إلى عدد من الضباط الكبار في الجيش ، وقد قيل في حينها إن السفارة السورية في بغداد كانت على علم بالمؤآمرة وإنها موّلت المتآمرين بمبالغ من المال ، والغريب أن محيي عبدالحسين الذي أغراه صدام بالوقوف أمام الكادر المتقدم ، والحديث عن المؤآمرة المزعومة ، ذكر بأن محمد عايش قد اتصل بالقنصل السوري طالباً منه تقديم مبلغ من المال لم يتجاوز الثلاثة آلاف دينار، وهو أمر لا يمكن أن يعقل، لأن محمد عايش يستطيع أن يحصل على أضعاف هذا المبلغ من مصادره الخاصة دون اللجوء إلى دولة أخرى للحصول منها على هذا المبلغ التافه ، بل ان محمد عايش وطبقة الوزراء أمثاله يصرف بقدر هذا المبلغ يومياً على سهراته الخاصة، إلاّ أن ما يهمنا في هذا المجال هو الأثر الذي تركته نتائج هذه المجزرة على القوات المسلحة ، فلقد ادعى صدام بأن عدداً من الضباط الحزبيين القدامى ، والذين كان لهم دور بارز في التحضير لانقلاب ١٧ تموز، قد اشتركوا في تدبير محاولة الانقلاب والتآمر هذه، وقد تمّ تنفيذ حكم الإعدام بعدد من الضباط وكان أبرز من تم إعدامه في الوجبة الأولى كل من :

أ ــ اللواء الركن وليد محمود سيرت
قائد الفيلق الأول عضو فرع الشمال العسكري للحزب

ب ــ العقيد الركن سليم شاكر الامامي
آمر لواء مدرع مسؤول حزبي كبير

جـ ــ العقيد الركن عبد الواحد معيدي
آمر لواء مشاة عضو شعبة في التنظيم العسكري

د ــ العقيد إبراهيم عبد علي
آمر هندسة ميدان الفيلق الأول عضو فرع الشمال العسكري للحزب

هـ ــ العقيد الركن حامد الدليمي
آمر لواء مشاة مسؤول حزبي كبير

و ــ المقدم صالح فليح الساعدي
عضو المكتب العسكري للحزب مسؤول تنظيم الفيلق الأول

ز ــ إضافة إلى عدد آخر من الضباط والمدنيين من الحزبيين القدامى ومن كادر الحزب المتقدم .

وكل هؤلاء قد دفعوا ثمن عدم رضوخهم لصدام ، ورفضهم الانصياع لأوامره

وإجراءاته المنافية لكل عرف وقانون حزبي وعسكري ، فلقد أحس هؤلاء الضباط الذين عملوا للحزب بكل جد وإخلاص، وتفانوا في سبيل تثبيت سلطته ، أحس هؤلاء بأن جهودهم قد ذهبت هباءً، حيث بدأ التكارتة باللعب بمقررات الجيش والحزب دون مراعاة لكرامة وأحاسيس من قدم كل ما لديه في سبيلهما . وكانت الضربة القاضية الحقيقية التي وجهت إلى هؤلاء هي تعيين عدنان خير الله وزيراً للدفاع، ومنحه رتبة فريق أول طيار ركن ، ليس بسبب كونه أكثر الضباط عطاءً وتضحية وجهداً ، بل لأنه تكريتي من أفراد العائلة الحاكمة ، ابن خال صدام حسين وزوج ابنة البكر .

لقد وجد كبار الضباط أنفسهم يقدمون فرائض الطاعة والاحترام لهذا الطفل المدلل مرغمين ، وقد أحسَّ صدام بذلك ، فوضع له حلاً سريعاً وبأساليبه الدموية المعروفة، باختراع هذه المؤآمرة المهزلة التي انتهت بإعدام عدد كبير من الضباط والمدنيين بطريقة مفجعة على أيدي رفاقهم الآخرين في الحزب ، والذين جمعوا من كافة أنحاء العراق، حيث كلفوا بواجب «فصيلة اعدام»، حيث كانوا يطلقون النار بأيديهم على رفاق الأمس صاغرين . وكان صدام يهدف بذلك إلى إدخال الرعب والهلع في قلوب بقية الحزبيين من العسكريين والمدنيين، واضعاً أمام أعينهم الصورة المأساوية لكل من يفكر بأي نوع من المعارضة، أو الاعتراض على تصرفاته، أو طريقة حكمه وإدارته للدولة ، إلاّ أن ذيول ذلك الحادث لم تنته مطلقاً ، فقد استمرت الزمرة المتسلطة بإصدار قوائم طويلة من الفصل من الحزب، شملت أعداداً كبيرة من الحزبيين في الجيش بحجة عدم ولائهم للحزب والثورة ، والذي يعني في الحقيقة عدم ولائهم لشخص صدام والزمرة التكريتية المتسلطة . ولقد كانت هذه «القوائم الطويلة» ترد بدون انقطاع، وتعمم على التنظيم العسكري ،والمدني، بحيث أن أحد الحزبيين الكبار قد علّق على ذلك في حديث خاص، بأن اليوم الذي سيظل فيه صدام الحزبي الوحيد الباقي في التنظيم ليس بعيداً .

- لم يترك الجيش دون رقابة مشددة مستمرة اعتباراً من وزارة الدفاع وحتى آخر وحدة عاملة في أقصى الحدود ، فلقد انهمكت أجهزة عديدة داخل القوات المسلحة العراقية برصد ومراقبة المشبوهين، أو الذين ترد معلومات تفيد بأنهم من المحتمل أن يشكلوا بؤراً مخلة بالأمن ، إضافة إلى وضع منتسبي القوات المسلحة بصورة عامة تحت مراقبة مستمرة تعزز بصورة دورية بتقارير نصف شهرية عن وضع الوحدات الأمني . وبالإضافة إلى عناصر الاستخبارات والتوجيه السياسي التي تخضع أفراد الوحدات لنوع من المراقبة والملاحقة، فإن الجهاز الحزبي في الوحدات هو الآخر أصبح جهازاً أمنياً إضافياً، يشارك مسؤوليه مشاركة مباشرة في وضع خطط المراقبة والرصد في كل وحدة ،

ولم يكتف رأس النظام بهذه الأجهزة المتعددة، فعمد إلى إنشاء جهاز خاص يرتبط به بصورة مباشرة ، فكل وحدة من وحدات الجيش العراقي ، خاصة الفعالة منها ، تضم عنصراً غير معروف، مرتبطاً مباشرة بهذا الجهاز الذي يشطر القوات المسلحة طولياً وافقياً ، يرفع تقاريره بصورة مباشرة إلى رئيس النظام ، وعلى الرغم من خضوع الجيش لكل هذه الأجهزة الأمنية التي تضعه تحت مراقبة شديدة ، إلّا أن الأوضاع لم يمكن ضبطها بالصورة التي كان النظام يطمح إليها ، فكانت تظهر بين آونة وأخرى بذور تنظيمات مناوئة للنظام، وعندما يتمكن النظام من كشفها تكون قد بدأت تنظيمات أخرى بالتشكل، وهكذا وباستمرار يجد النظام نفسه في مواجهة خفية مع قوى غير مرئية، تظهر استعداداً متفاوتاً ضده وبأشكال متنوعة ، على الرغم من كل الإجراءات القمعية القاسية التي تواجهها في حالة كشفها .

ــ حرص النظام على اعداد برامج ثقافية متنوعة وبوسائل مختلفة وتلقينها لكافة منتسبي القوات المسلحة، فلقد تمّ إنشاء دائرة التوجيه السياسي التي ترتبط مباشرة بوزير الدفاع ، أخذت على عاتقها إعداد برامج ثقافية سياسية خاصة لالقائها بصورة دورية على شكل ندوات أسبوعية على مسامع كافة منتسبي القوات المسلحة ، وتركز مضامين تلك المحاضرات على التمجيد برئيس النظام وإسباغ الكثير من الصفات الخارقة عليه ، والواضح بأن العقد التي تختزنها نفسية الرئيس العراقي وماضيه المليء بالإجرام وعدم الاستقامة ، والتي يعرفها الشعب العراقي كله ، هي التي تدفع تلك الأجهزة الإعلامية والتوجيهية للتعويض عنها ، ولقد ظلت عقدة تمسك صدام وعائلته للسلطة وسرقته لها، من العوامل الأساسية في ضعف الروح المعنوية، وشيوع حالة اللامبالاة التي يبديها المجتمع كله تجاه الأنشطة والفعاليات التي تديرها الدولة، ومنها نشاطاتها داخل المؤسسة العسكرية، فالشكوك التي تثار حول صلاحيته لقيادة الدولة وتسيير شؤونها كانت ولا تزال تشكل عاملاً أساسياً في ضعف حركة المجتمع والدولة، كما أن أساليب معالجة صدام وعائلته لشؤون القوات المسلحة، والتي تعتمد أساساً على أساليب ليست مألوفة أو معروفة من قبل، ساعدت هي الأخرى على ضعف الأداء العام وصدق ونبل العواطف المتبادلة بين هذه المؤسسة وقيادتها التي فرضت عليها فرضاً ، فتعيين الفريق الأول الركن عبدالجبار شنشل مثلاً في منصب رئيس الأركان العامة للقوات المسلحة لمدة تزيد على الثمانية عشر عاماً حتى أصبح هذا الشخص الذي يدير أعلى منصب في القوات المسلحة ضعيف السمع والبصر لشدة تقدمه في السن ، كما وأن الطاعة العمياء البعيدة عن روح اللياقة واحترام النفس، كانت مثاراً للشعور بالاستياء لدى عدد كبير جداً من الضباط بمختلف

الـرتب، عنـد ذكـر اسمـه أمـامهم، حتى أن لقبـه الـذي أصبـح يعـرف بـه يشيـر إلى عمق الكراهية والاحتقـار الذي تكنـه له القوات المسلحة. فـالخروف العنيـد، وهو لقبـه المشهور، ليس له أدنى اهتمام بكرامة وسمعة القوات المسلحة. وعلى سبيـل المثال فـإن اللواء الـركن حسين صادق، أمين سر وزارة الدفـاع، قـد طلب من البكـر أن يحيله على التقاعد عندما علم بأن عدنان خير الله سيصبح وزيراً للدفاع، وأن عليه عنـدئذٍ أن يتصـرف معه كما يتصرف المرؤوس مع الرئيس، وهو وضع لا يمكن أن يقبـل به ضـابط كبير السن والرتبة، أما عبدالجبار شنشل فقد أظهر ولاءً وطاعة غريبة أقرب ما تكـون إلى الذل، ولم يكن يعير أي اهتمام لوضعه وهو يؤدي التحية لشخص دونه بمراحل كبيرة، سواء في العمر، أو التجـربة والخـدمة في القـوات المسلحة، وبـالفعل فقـد ظل شنشـل طيلة المـدة التي قضاها كرئيس لهيئة الأركان العامة للقوات المسلحـة العراقيـة موضـع ازدراء وسخريـة من كـافة منتسبي القـوات المسلحة، بسبب مـوضع الصغـار والضعـة التـي وضـع نفسـه منها. وبالطبع فإن هذا الأمر لم يكن يعنيه شخصياً فقط، بل ان هذا الإحساس أخذ ينسحب على القوات المسلحة كلها.

ـ يظل تعطش الزمرة التكريتية للسلطة والتسلط والـذي لا حدود لـه، واعتمادهـا أسـاليب غريبـة عن كل الأعـراف والقوانين المعـروفة، يشكـل عامـلاً مهمـاً من عـوامـل إحساس القوات المسلحـة العراقيـة بعد رتبـة «مهيب»، علماً بـأن كافـة منتسبي الجيش، وحتى أقرب المقربين له يعلمون جيداً بأن إجراء مثل هذا يشكل تعـدياً صـارخاً على كـل الأعراف والقوانين المعمول بها في القوات المسلحة، خاصة وإذا علمنا بأنه لم يخدم يـوماً واحداً في القوات المسلحة، وهي سابقـة لم يشهدهـا الجيش طيلة حياتـه، وما إن نُحيّ البكر عن رئاسة الدولة حتى سارع صدام، الذي أصبح رئيساً، إلى إصدار مرسـوم يمنح فيـه نفسه رتبـة مهيب ركن ومنصب القائـد العام للقـوات المسلحة، وفي الـواقع لم يكن صدام بحاجة إلى أن يفعل ذلك كله، لأنه أصبح الرجل الأول في الدولة، ويستطيع أن يفعل ما يريد نتيجةً لمـا يتيحه لـه منصبه الجـديد من صـلاحيات لا حـدود لها، إلاّ أن صـداماً الذي يحرص على أن يسد كل عوامل النقص والإحساس بالضعـة في نفسه، لم يكن يـريد أن يترك شيئاً دون أن يجربه، وما دامت الملابس العسكرية يمكن أن تضفي عليـه مسحة خاصة من الهيبـة والجلال، فليجـرب إذن أن يلبسها، هكـذا وبكل بسـاطة دون أن يلتفت إلى الآثار القاتلة التي سوف يتركها عمله، فانتحل صفة ضابط في الجيش العراقي، بـل انه أصبح يحمل أعلى رتبة فيه، وهي حالة تذكرني بأولئك الشباب العراقيين الذين كـانوا يحلمون أن يصبحوا ضبـاطاً في الجيش العـراقي، وفي الحالات التي لم يكـونوا يـوفقون

فيها إلى نيل مآربهم ، فإنهم يبادرون إلى ارتداء الملابس العسكرية حاملين رتبة ملازم ، سداً للرغبة الشديدة التي تلح على أذهانهم ، متحلين صفة ضابط في القوات المسلحة ، حيث يخرجون إلى الشوارع العامة بلباسهم الجديد الذي غالباً ما كان يسبب لهم مشاكل عويصة ، لأنهم يكونون عندها قد ارتكبوا جنحة انتحال صفة رسمية يعاقب عليها القانون ، وسيأتي اليوم الذي سيحاسب فيه صدام على انتحاله صفة مهيب ركن ، وقائد عام للقوات المسلحة العراقية خلافاً لكل القوانين والأعراف .

ـ أما عدنان خير الله ابن خال صدام وأخ زوجته ،فلم يكن أقل منه استهتاراً وشهوة ، فبين ليلة وضحاها قفز المقدم الركن عدنان خير الله قائد قوات الحرس الجمهوري قفزة لم تكن تخطر على بال أحد ، فأصبح وزيراً للدفاع ونائباً للقائد العام للقوات المسلحة ، ونائباً لرئيس الوزراء فيما بعد، حاملاً رتبة فريق أول ركن ، ويقدم يلي قدم القائد العام للقوات المسلحة ، ابن خاله صدام ، وذلك كي يستطيع أن يدير منصبه الجديد بكامل الحرية، بعد أن يكون قد أصبح أقدم ضابط في القوات المسلحة بعد رئيس الجمهورية ، وهذا يعني بأن عدداً كبيراً من الضباط من رتبة عقيد فما فوق، والذين كان يؤدي لهم التحية العسكرية، أو انهم على الأقل لم يكونوا يؤدون التحية له ، أصبحوا الآن يطأطئون رؤوسهم أمامه ، ولم تكن مسألة استلامه لوزارة الدفاع هذه بعيدة عن التخطيط الذي وضعه صدام وأسياده لإحكام قبضته على القوات المسلحة منذ مدة بعيدة ، فبعد أن أقنع صدام ابن خاله عدنان على الزواج من ابنة البكر، معلقاً آمالاً كبيرة على هذه الزيجة السياسية ، حيث كان عدنان خير الله قد خطب فتاة قبلها ثم فسخ خطوبتها ، بعدها أخذ صدام يقنع البكر بأن قد أصبح لا يحتمل مهام وزارة الدفاع الكثيرة ومشاغلها، إضافة إلى مهامه كرئيس للجمهورية وأمين سر القيادة القطرية للحزب الحاكم . وان من الأفضل له وللجميع أن يسلم مهامها إلى شخص يثق به هو وبقية الزمرة التكريتية ، فكان أن اقتنع بتسليم وزارة الدفاع إلى زوج ابنته ـ التي تركها بعد وفاة أبيها ـ الأمر الذي أخذ يؤدي إلى تقلّص نفوذه في الجيش . استطاع صدام أن يحكم قبضته على الجيش من خلال وجود ابن خاله المدلل على رأس وزارة الدفاع .

ـ لم يكتفِ صدام بأن يظل وجوده سبباً لإثارة مشاعر عدم الرضا بين صفوف القوات المسلحة ، بل أخذ يمارس أنواعاً جديدة من الإهانات والتحقير للقوات المسلحة ، فقد أصدر أمراً صار بموجبه على الضباط من ملازم إلى عقيد أن ينادوا ابنه عدي بكلمة سيدي ، ومن عميد فما فوق بكلمة استاذ، وهو لا يزال طفلاً غراً مشغولاً

بملذاته واستهتاره الذي يفوق ما عرف عن أبيه وخاله المدلل عدنان، وأعمامه برزان ووطبان وسبعاوي.. والله أعلم...

ودون أن يكون لهذا الوضع الجديد أي سند قانوني أو عرفي، ولا أحد يعرف الأسباب التي حدت بالقائد العام للقوات المسلحة أن يتصرف هذا التصرف اللامسؤول تجاه قوة أساسية من القوى التي تقف الآن تدافع عن عرشه. وربما كان صدام يتصرف بهذا الأسلوب على أساس أن ابنه عدي سيكون خليفته في الحكم، وهو التبرير الوحيد المقبول في هذه الحال، على الرغم من كونه يشكل نوعاً من الشذوذ والخروج عن المألوف، فالعراق الآن يعيش ولو ظاهراً تحت ظل نظام جمهوري، وإلى أن تعلن الملكية التكريتية، فإنه لا يوجد أي سند شرعي أو قانوني لهذا التصرف. وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد، بل ان صدام قد تمادى في الاستخفاف بكرامة وعزة واعتزاز القوات المسلحة العراقية، ولم يعد يقف في وجهه أي وازع أخلاقي أو إحساس بضرورة احترام مشاعر منتسبي القوات المسلحة، فلقد أقدم على أغرب إجراء، لم يكن أحد يصدق بأن أي رئيس دولة في العالم يمكن أن يتخذه.

ففي إحدى سفراته إلى الاتحاد السوفيتي أصدر مرسوماً يخول فيه قيادة الدولة وإدارتها إلى زوج ابنته المدعو حسين كامل، وهو لا يملك أية صفة قانونية أو رسمية تؤهله أن يقوم بأداء مهام أعلى منصب في الدولة، فهو رسمياً لا يملك مركزاً هاماً في قيادة السلطة، وكذلك على مستوى الحزب، فهو مسؤول حماية الرئيس سابقاً، ومدير مؤسسة الصناعات الحربية حالياً، مما جعل الحيرة والارتباك يلفان العراق وشعبه كله، وخاصة القوات المسلحة العراقية، التي تجد في كل بدعة جديدة للرئيس انتهاكاً صارخاً لكرامتها وأسس الانضباط والسلوك العسكري فيها، وكأن الرئيس يفقد الثقة بكل مسؤولي الدولة الكبار من مدنيين وعسكريين، ويعلن ذلك على الملأ، دون تردد أو خجل من رفاق النضال والطريق الذي سلكه معهم وكأنه يقول لهم: لا حاجة للمجاملة، فالقضية مهمة بالنسبة له ولا تحتمل ذلك! لذا فإن على كافة المسؤولين أن يطيعوا شخصاً لا يعرف عنه إلّا أنه زوج ابنة الرئيس، ضابط يحمل رتبة لا تزيد عن نقيب في الجيش ـ منح أخيراً رتبة عقيد ـ لا يزيد عمره عن (٢٦) عاماً، لقد طبقوا على الجيش العراقي شروط الغالب المنتصر على المهزوم، الذي يتوجب عليه أن يرضخ لشروطه التي أمليت عليه بالقوة، هكذا كانوا يعاملون القوات المسلحة في وقت تقف في الخطوط الأمامية، وتحت النار تدافع عن عروشهم وملذاتهم واستهتارهم، كان الله في عون الشعب العراقي وقواته المسلحة التي يلحق بها كل هذا الذل والهوان!

ـ اعتاد الجيش العراقي أن يعيش وضعاً خاصاً في العهود السابقة قبل عام ١٩٦٨، تمثل في سلسلة من الضوابط التي كان يتم الالتزام بها بدقة وعلى كافة المستويات، منها، عدم جواز إلقاء القبض على أي عسكري من قبل أية دائرة أمنية بصورة مباشرة، دون أن تطلب ذلك من الجهات العسكرية إلاَّ في حالات جرائم القتل.

وكانت علاقات الأخوة والتكاتف تلعب دوراً مهماً في إشاعة روح الأخوة والتضامن بين أفراد القوات المسلحة، وقد اعتبر ذلك جزءاً من عوامل بناء أواصر قوية داخل الجيش، ولم يكن من المعروف أن يُلقىَ القبض على ضابط في الجيش واقتياده إلى مكان مجهول دون أن يستطيع أحد أن يسأل عن مصيره. ولم يسمع أحد بأن ضابطاً أو ضابط صف تم الاعتداء عليه علناً، دون أن يفعل شيئاً مخالفاً للقوانين، أو يلحق ضرراً عاماً أو خاصاً بمصالح الآخرين. إلاَّ أن إهانة الضباط والاعتداء عليهم أخذت اتجاهاً صريحاً متعمداً من قبل جهات مختلفة، وعلى رأسها جلاوزة رئيس النظام، فمما أثار دهشة الناس جميعاً أن حوادث اعتداء وتوقيف كانت تتكرر في طريق المطار الجديد. فعندما كانت إحدى السيارات العائدة من المطار تصاب بعطل ما في موضع محدد من هذا الطريق، ويتوقف سائقها لغرض إصلاحها، يفاجأ بهجوم من قبل عدد من الأشخاص الذين يبدأون بضربه واقتياده إلى جهة مجهولة، دون أن يفيده أن يبرز هويته. وقد تكرر مثل هذا الحادث لعدد من الضباط الذين كانوا لا يعلمون سبب الاعتداء عليهم أو توقيفهم. وقد أصبح الأمر معروفاً بعد ذلك، وهو أن لرئيس النظام قصراً أسطورياً فخماً في تلك المنطقة يقضي فيه بعض سهراته الماجنة. وان من يتوقف في هذا القسم من الشارع الذي يقع فيه قصر «الخليفة الجديد» فإنه يساق مهاناً إلى التوقيف، مهما كانت صفته الشخصية أو مركزه في الدولة، وقد قضى قسم من الضباط مدة تزيد على العشرة أيام في توقيف سري، وقد تكررت الحوادث تلك مع عدد من المواطنين الآخرين، بحيث أصبحت المنطقة معروفة تماماً، مما استدعى أن تعلن منطقة خطر بين أبناء الشعب العراقي بصورة عامة، وبالطبع فإن قصر الرئيس لم يكن قريباً من الشارع، ولا توجد أي علاقة تدل على عدم السماح بالتوقف لأي سبب كان، مما كان يوقع الناس في مصيدة السيد الرئيس وجلاوزته الذين يظهرون من سوء الخلق والأدب والفظاظة ما يعجز عن وصفه القلم، ولا غرابة في ذلك فإن معلمهم الأول يفوقهم في كل ذلك، فهم يتعمدون إظهار عدم اهتمامهم بأي شخص ومهما كان مركزه، هذه هي توجيهات قائد الطغمة التي لا تريد أن تحفظ لأي إنسان كرامة، ولا تضع لبقية أبناء الشعب أي قيمة أو احترام، ودون أسباب وجيهة معقولة سوى الاستهانة في كرامة واذلال الشعب وقواته المسلحة، وإظهارهما دوماً بمظهر العاجز الأسير

اتجاه إرادة الطاغية، الذي يجب أن تمتد يده إلى كل حياة الشعب وجيشه تعصرهما عصراً، وتجعلهما يعيشان دوماً حالة الشعور بالخوف وعقده النقص.

لقد كانت كل البدع الجديدة التي خلقها النظام تتجه أساساً إلى الإساءة إلى القوات المسلحة، فعند تطبيق قانون المرور الجديد مثلاً، طالت يد شرطة المرور، وبصورة متعمدة، عدداً كبيراً من الضباط بحجة مخالفتهم لأنظمة المرور الجديدة، حيث أظهروا عداءً صريحاً لضباط الجيش وأبناء القوات المسلحة بسرعة اتخاذ إجراءاتهم التي كانوا يتسامحون فيها مع الآخرين، كما أن شرطة الأمن أصبحوا يمتلكون القدرة والجرأة على الاعتداء على منتسبي الجيش، وهي خطة متعمدة أيضاً لإذلاله والتضليل من هيبته وقيمته، واستمر النظام في عده التنازلي لتنفيذ خطته للتقليل من هيبة الجيش ومكانته في المجتمع، فبعد أن كان الجيش يشكل العنصر الحاسم والرئيسي في الحياة السياسية لعدة عقود من الزمان في تاريخ العراق، أصبح الآن أداة طيعة خنوعة خائفة قلقة منزوياً متخلياً عن دوره الذي كان يلعبه باستمرار.

ـ لقد لعب التنظيم الحزبي دوراً هاماً في تحطيم الجيش وتخريبه، فقد أصبح مسؤول التنظيم الحزبي هو الآمر الحقيقي للوحدة أو التشكيل، وفي حالات كثيرة يجد الآمرون أنفسهم مجبرون على الانصياع لمطالب ورغبات وأوامر المسؤول الحزبي، وبذا يفقد آمر الوحدة احترامه بنظر مرؤوسيه، وهو ما يهدف إليه النظام في هذا الاتجاه، كي يمكن عزل وفصل قدرة الآمرين على إصدار الأوامر عن الاتجاهات التي يمكن أن تشكل خطورة في سلوكهم، كما اتبع التنظيم الحزبي للوحدات دوراً آخر خطراً بإشاعة الفرقة بين الضباط من جهة وضباط الصف والجنود من جهة أخرى، كي يساهم مساهمة مباشرة في زعزعة الضبط وتحطيم أواصر المحبة بين صفوف منتسبي القوات المسلحة، مما يسهل بالتالي السيطرة والإشراف عليها، اعتماداً على مبدأ فرق تسد السيء الصيت، أما خرق القوانين والاستهزاء بها، فهو الآخر شكل منذ مجيء الطغمة التكريتية ظاهرة بارزة في السلوك داخل القوات المسلحة، فالتكريتي هو الصفوة المختارة من المجتمع، هم صفوة الله المختارة، فهم بهذا فاقوا اليهود بادعائهم بأنهم شعب الله المختار، فالقوانين وضعت لتطبق على الآخرين الذين ينظر إليهم التكارتة واليهود بأنهم ليسوا جديرين أن يتساووا معهم تحت ظل قانون واحد، عام ١٩٧٥ قام أحد الضباط من تكريت بقتل جندي رمياً بالرصاص نتيجة شجار حدث بينهما.

حدث ذلك في إحدى كتائب اللواء المدرع ٣٤ من نظام معركة الفرقة الآلية الأولى، ولأن الضابط المشار إليه هو شقيق رئيس أركان الفرقة الأولى، وهو الآخر بالطبع

تكريتي ، فإن المحكمة لم تستطع أن تصدر عليه حكماً أكثر من السجن لمدة سنتين ، ولم تمضِ مدة شهرين حتى أصدر عدنان خير الله وزير الدفاع أمراً بالعفو عنه، وإعادته للخدمة خلافاً لكل قانون معروف يعمل به في القوات المسلحة .

ـ تعامل وحدات الجيش العراقي وتشكيلاته بأسلوب يميز بين بعضها البعض، وبطريقة تبعث على الحزن والأسىٰ في قلوب منتسبي الجيش ، خاصة تلك الوحدات التي تجد نفسها خاضعة للتمييز بينها وبين الوحدات الأخرى ، فوحدات الفيلق الأول مثلاً ينظر إليها المسؤولون في القيادة على أنها وحدات تأوي الأشخاص المشكوك بهم، أو غير المرغوب في وجودهم في بغداد ، كما أن الأشخاص الذين يرتكبون مخالفات في الوحدات العاملة في بغداد ومناطق الجنوب، ينقلون إلى وحدات الفيلق الأول العاملة في كردستان العراق كعقوبة لهم . ويقول تذييل في كتاب نقل أحد ضباط الصف من بغداد إلى وحدات الفيلق الأول من قبل عدنان خير الله وزير الدفاع : (ينقل إلى إحدىٰ وحدات الفيلق الأول ويستخدم في أعلىٰ ربيئة) ، هكذا وبكل بساطة فالذي يغضب عليه ينقل إلى وحدات الفيلق الأول التي أصبحت تمثل في الحقيقة وحدات مغضوب عليها ، وكم كان ضباط الوحدات وضباط الصف والجنود المكلفون بواجبات مسك المواقع والربايا الشاهقة في كردستان، يحسون بأنهم معاقبون ومبعدون في نظر وزير الدفاع ، وهو شعور كان يتنامى بصورة متزايدة بين صفوف الفيلق الأول، الذي كان مكلفاً بالقتال ضد الأكراد ، مما سبب وجود حالة من عدم اللامبالاة وقلة الاندفاع في العمل، أو عند تنفيذ الواجبات القتالية .

ولقد وصل الأمر إلى درجة أن فيلقاً يصل تعداد قواته إلى ما يزيد على سبع فرق ليس قادراً على «تطهير» كردستان من الثوار، الذين لم يكن يبلغ عددهم في أي حال من الأحوال أكثر من ثلاثة آلاف ، وهي حالة جديرة بالتوقف عندها طويلاً . كما أن الوحدات المدرعة كانت تعامل بأسلوب خاص، حيث يتم تأمين كل ما تحتاجه من أسلحة وعملات وتجهيزات جيدة ومواد احتياطية خاصة تلك العاملة في منطقة بغداد، بحيث أن ما يتيسر لدى فوج آلي في بغداد من مواد احتياطية لتصليح العجلات العاطلة، كان يفوق ما لدى معمل ميدان يعمل لخدمة لواء مشاة في كردستان ، وبينما تكون عجلات الوحدات منهمكة في العمل المستمر في مناطق وعرة وطرق رديئة ، حيث تتعرض عجلاتها للاستهلاك السريع ، فإنها تظل تشكو عدم تيسر الإطارات والمواد الاحتياطية اللازمة لتصليح عجلاتها التي تعاني من العطلات الكثيرة، بحيث ان بعض وحدات أفواج المشاة في الشمال كانت تعاني من توقف نصف عجلاتها عن العمل .

وبهذا يكون الجيش العراقي تحت ظل الزمرة وتوجيهاتها قد انقسم إلى طبقتين ، الأولى : طبقة النخبة ، والأخرى : طبقة الدرجة الثانية والثالثة . . مما خلق آثاراً سيئة على بناء الروح المعنوية وادامتها ، وتحطيم أسس الضبط ورفقة السلاح الذي يجب أن يبنى على وحدة المشاعر والأحاسيس بين كل صنوف ووحدات القوات المسلحة دون تفريق أو تمييز ، لأنها ستعمل يوماً من الأيام سوية ، حيث تظهر عندها آثار التمييز واضحة على أدائها .

لقد كانت الوحدات العاملة في بغداد أو المناطق القريبة منها تستطيع أن تحصل على كل ما تريده من أموال ومعدات دون حساب ، وبما يزيد عن ملاكاتها بمراحل كبيرة ، لأن مسؤولي السلطة ، وعلى رأسهم البكر وصدام وعدنان خير الله ، كانوا يقومون بزيارات مستمرة لهذه الوحدات ، حيث يلبّون كل ما تحتاجه بصورة مباشرة ، إضافة إلى ابدائهم الاهتمام المستمر بمشاكل منتسبيها الخاصة حيث يجري حلها آنياً ، كقضايا العلاج في الخارج ، أو الزواج ، أو بناء دار أو أية قضية أخرى يحتاج إلى حلها بصورة سريعة ، حيث تنهال الأموال على منتسبيها عند عرضهم لمشاكلهم أو احتياجاتهم وبالآلاف ، بينما تظل الوحدات البعيدة محرومة من كل شيء ، تشعر بثقل الغبن والاجحاف الذي تتعرض له .

ـ تم تعديل رواتب الجيش مرتين ، الأولى خلال القتال الذي دار في كردستان بعد عام ١٩٧٤ ، والثانية جرت في أوائل عام ١٩٨٠ ، لذا فإننا نلمس الأسباب التي حدت بالسلطة لزيادة رواتب القوات المسلحة ، ففي الوقت الذي كانت فيه المعارك الطاحنة تدور على أرض كردستان العراق ، ويتعرض الجيش العراقي إلى خسائر فادحة يومياً على امتداد السنة التي استمر فيها القتال ، وأخذت معنويات الجيش فيها تنخفض بصورة مستمرة ، وبعد أن لمست القيادة بأن لا مخرج للأزمة في الأفق ، وان الجيش سيكون هو الوسيلة الوحيدة للحصول على وضع جيد لغير صالح الحركة الكردية ، وان المعارك الطاحنة سوف تستمر تحصد المئات يومياً عندما رأت كل ذلك ، فإنها عمدت إلى تعديل قانون رواتب الجيش ، وبالفعل ساهم هذا الاجراء في إشاعة شعور في صفوف القوات المسلحة بنوع من الغبطة والسرور ، كان يشكل دافعاً جديداً إلى القتال والاستمرار فيه .

والمرة الثانية كانت أيضاً بهدف جعل الجيش يشعر بالارتياح ـ على الأمل لفترة معقولة ـ وتقبل ما سيطلب منه في وقت لاحق ، كالخروف الذي يقدم له العلف باستمرار بانتظار أن يذبح ، هكذا كانوا يتعاملون مع القوات المسلحة بروح انتهازية أنانية ، هكذا كانوا يفعلون بالقوات المسلحة دوماً ، لم يكن ينظر مطلقاً إلى وجود أسباب واقعية

تفرضها ظروف معاشية متغيرة، وأسباب واقعية تقتضي رفع رواتب الجيش ، كارتفاع الأسعار مثلاً وظهور طبقة اجتماعية استفادت من ارتفاع أسعار النفط الذي بدوره أدى إلى تنفيذ مشاريع عديدة درت على هذه الطبقة أرباحاً خيالية ، وعلى رأس هذه الطبقة المقاولون وأصحاب المهن الفنية الحرة، الذين أصبح الواحد منهم يصرف في اليوم الواحد في أماكن اللهو التي أخذت بالانتشار في كل مكان، بقدر ما يتقاضاه ضابط برتبة نقيب لشهر كامل ، مما أصبح يشكل تفاوتاً مخيفاً في الدخل بين أفراد المجتمع ، بل كانت الأنانية والحاجة الآنية الملحة هي السبب في رفع مرتبات منتسبي القوات المسلحة ، كما وأن تعديل الرواتب للمرة الأولى،واجه اعتراضات عديدة من قبل كبار موظفي الدولة من المدنيين الذين كانوا يرون بأن الجيش لا يزال حتى ذلك الوقت يتقاضى رواتب أعلى من رواتب بقية موظفي الدولة ، مما حدا بأحمد حسن البكر إلى إرسال عدد كبير من المدراء العاملين في الوزارات إلى مناطق القتال ، وقد عاد هؤلاء إلى دوائرهم مقرين بأن ما يدفع للقوات المسلحة من رواتب ليس بكثير مقارنة بالمعاناة التي تقاسيها ، كما وأن كوادر الجيش ظلّت تتعرض للابتزاز والاستقطاعات المستمرة من رواتبها، بسبب فرض بيع الكتب التافهة الباهظة التكاليف عليهم ، فلقد ألّف خير الله طلفاح كتاباً بعنوان (كنتم خير أمة أخرجت للناس)، خالياً من أي محتوى علمي وثقافي، تم فرض بيعه كرهاً إلى الضباط الذين كانوا يجدون في هذه العملية ابتزازاً واضحاً من «خال الحزب»، أو«حرامي بغداد»، وهي من الألقاب الشائعة لخير الله طلفاح ، حتى انهم كانوا يقولون عند مشاهدتهم لقوائم الاستقطاع الطويلة التي ترد عليهم كل شهر،بأنه إذا كان أمر شراء هذا الكتاب فرضاً عليهم فإنهم يفضلون أن لا يأخذوه، لذا فقد تكدس الكتاب المذكور في دوائر ضباط الرواتب بسبب رفض الضباط استلامه منهم ، بحيث انهم أصيبوا بالحيرة لأنهم،لم يعودوا قادرين على التصرف فيه ، فهو كتاب لا يمكن أن يقدم أية فائدة لقارئه ، إضافة إلى عدم إمكانية اتلافه لأن ذلك قد يؤدي بهم إلى الحساب العسير ، لأن كتاب الخال يجب أن يحفظ في القلوب!!، كما ترجم اللواء الركن فاروق عمر الحريري كتاب (انتصارات ضائعة) من الألمانية إلى العربية بجزئين،وبيع بنفس الأسلوب السابق على الضباط الذين لم يجدوا فيه أي نفع،حتى انهم كانوا يطلقون على الكتاب (الانتصارات التائهة) ومرة أخرى بالنقود الضائعة ، ومؤلف برزان إبراهيم التكريتي (محاولات اغتيال السيد الرئيس القائد) قد فرض بيعه هو الآخر، ليس فقط على القوات المسلحة، بل على الشعب العراقي كله الذي تعرض إلى عملية ابتزاز وضيعة خالية من كل قيم الأخلاق ، ولم يفت الفريق المتقاعد سعيد حمود أحد كبار الضباط الذين خدموا في الجيش العراقي، أن يؤلف كتاباً يرتزق منه فكان كتابه الذي لم يأتِ بأي شيء يستحق أن يقرأ من أجله (مذكرات آمر لواء

مشاة)، اضافة أخرى من عمليات الابتزاز أضيفت على كـاهل منتسبي الجيش ، ويجد كل من يستطيع أن يؤلف كتاباً يمتدح فيه الطاغية، ويتودد له الأبـواب مفتوحـة لبيعه قسـراً على منتسبي القوات المسلحة، التي يدفع منتسبوها أثمان تلك الكتب، التي دائماً ما تكون خيالية، صاغرين لا ينبسون ببنت شفة .

ـ زودت القـوات المسلحة العـراقية بـأحـدث الأسلحـة المعـروفـة في العـالم وبالكميات التي كانت تطلبها ، فعلى سبيل المثال فإن حضيرة المشاة العراقية تمتلك أكبر قوة نارية بالمقارنة مع مثيلاتهـا في الجيوش الأخـرى ، ولـم تكن بقيـة الصفـوف والأسلحة أقل تجهيزاً من صنف المشاة ، فلقد حصلت المدفعية العراقية على أنواع عديـدة ومتطورة من المـدافع النمسـاوية والـروسية والفـرنسية والأميـركية حيث أشـرف خبراء من الكـويت والسعودية على تدريب اعداد مدفعية ١٥٥ ملم و١٧٥ ملم الأميركية، وقـامت بفتح دوريـة عـالية لعـدد من ضباط ومـراتب المدفعيـة العراقيين للعمـل عليهـا، ولـم تتخلف الـدروع والطيران مطلقاً، بل حصلت على أحدث أنواع الدبـابات والـطائرات المعـروفة في العـالم وبسيل لا ينقطع ، منها دبابات (ت ٧٢) وطائـرات (ميغ ٢٥) والميـراج والسوبـر اتندارد، كمـا زود الجيش العراقي بـأحدث معـدات الرصـد والمراقبـة الجوية والأرضية، وأحـدث الرادابات المعروفة في العالم من الشرق والغرب، إلاّ أن الحقيقة الشاخصة للعيان هي أن الجيش العـراقي لم يستطع أن يهضم خـواص هذه الأسلحـة ويتقن التدريب عليهـا، لـذا فإنها كانت غالباً ما تشكل عليه عبئاً ثقيلاً ، فهي إما تصاب بالعطل المستمر لضعف اداتها وقلة الامكانيات لتصليحها، أو تسقط غنائم في أيدي القوات الإيرانية .

وكان للتوسـع الهائـل في القوات المسلحـة أثره الـواضح في خفض كفـاءة الجيش وقدراته ، فبعد أن كان الجيش العراقي يتألف من ستة فرق اثنتان منها مـدرعة تحـول إلى ١٢ فرقة حتى عام ١٩٨٠ ، منها أربع فرق مدرعة واثنتان آلية ، ثم قفز العـدد إلى ٤٤ فرقـة حتى عام ١٩٨٨ ، وهو رقم هـائل لا يمكن تصـور الوصـول إلى درجة مقبـولة في تـدريبه وتسليحه وإدامته ، لذا فقد كلّف هـذا الجيش وباستمـرار بمهام وواجبـات ظل يقف دومـاً عاجزاً عن انجازها، كما وأن السلطة ظلّت تحمّله بواجبات جديدة متنوعـة مرهقة، دون أن تراعي قدراته الحقيقية ومعنوياته التي بدأت تنخفض بصورة مخيفة وبـاطراد ، لقـد أصبح الجيش العراقي الآن كالجمل الذي حمّـل بأقصىٰ طاقته، بحيث أصبـح ينتظر القشـة التي ستقصم ظهره ، وإلى أن يحين ذلك الوقت فإنه سوف يـظل يئن ويتألم رازحاً تحت ثقـل وعبء أحماله ، ويبدو بأن هذه اللحظة ليست بعيدة الحدوث، وانهـا بدأت تلوح في الأفق القريب .



البَابُ الرّابِعْ

الديكتاتورية



مقدمة موجزة

ـ النظام في العراق ليس ديكتاتورياً فقط، لأن الديكتاتورية تشكل الإطار العام لهذا النظام، وعندما تعني الديكتاتورية بأنها نظام إرادة الشخص المطلقة ، فإنها تترك حيزاً معقولاً وفسحة للتنفس حتماً ، فهناك نوعان من الأنظمة الديكتاتورية ، الأول : نظام يضع فسحة يشغلها هو بعقيدة تلتف حولها الجماهير ، يرافق ذلك تحقيق انجازات يهدف منها إلى تحسين أوضاعها المعاشية ، أو الارتفاع بروحها وقواها المعنوية إلى الدرجة التي تؤمن فيها كسب طاعتها وحسن أدائها بدرجة مقبولة ، وتظل العقيدة تتكفل بتوجيه حركة المجتمع بالاتجاه الذي يرسمه لها الزعيم ـ القائد ـ الديكتاتور ، وربما تكون هذا الجماهير بالفعل مقتنعة به ، ولدى هذا النوع من الأنظمة القدرة على البقاء لفترة طويلة . وفي الحالات التي يكون فيها القائد قادراً على استشفاف حركة المستقبل اضافة إلى العوامل الفاعلة في الحاضر ، فإنه سيكون قادراً على الاستمرار في الحكم كبقية الأنظمة الأخرى، سواء ما يسمى منها بالديموقراطية أو أنظمة الحكم في الدول الاشتراكية . والأمثلة على هذا النوع من الأنظمة كثيرة، منها نظام الحكم النازي الذي لم يسقط بفعل ضعفه الداخلي بالدرجة الأولى ، ونظام حكم فرانكو في اسبانيا، وكذلك يمكن اعتبار الفترة التي حكم فيها ستالين نموذجاً لهذا النوع أيضاً .

أما النوع الآخر من الأنظمة الديكتاتورية ، وهو النموذج السائد في العالم الثالث ، فإنه يترك أيضاً فسحة من الحرية، حتى لو كانت محدودة جداً، وعلى الرغم من أن السمة الرئيسية له هي الكبت والعنف والإرهاب الذي يشمل كل أوجه الحياة ، إلاّ أنها وبسبب وجود مؤسسات ثابتة تدعم النظام ويستند هو عليها ، وربما تكون تلك المؤسسات نفسها موجودة لدى الأنظمة التي سبقت إعلان النظام بصيغته الجديدة ، معبأة ومهيأة لأن تلعب دوراً في النظام الجديد . إلاّ أنها ربما احتاجت إلى بعض التطوير الذي يلائم المرحلة

الجديدة ، حيث يأخذ النظام الجديد هذه المسألة بنظر الاعتبار ، أي ان النظام الديكتاتوري وعلى الرغم من صفاته ومميزاته الأساسية، فإنه وبسبب شعوره بالاطمئنان ، حتى وان كان هذا الشعور خادعاً أحياناً ، فإنه يترك حيزاً معيناً من الحرية لجماهير الشعب وقوى المعارضة التي تمارس أساليب معينة من الرفض والاحتجاج، حتى في الظروف التي يجد فيها النظام نفسه قد فقد توازنه ووقاره ، فالعالم كله اليوم يتفاعل ويتأثر وعلى امتداده الوسيع ، ويرفع يده بالاحتجاج ، مرة بصدق وإخلاص ونزاهة ، وهو نادراً ما يحدث ، ومرة أخرى تظاهراً ورياءً ، إلَّا أن تلك الصيحات التي تنادي بالإنسانية وحقوق الإنسان ، تجد لها صدى في كل بقاع العالم ، وخاصة تلك التي توجه أصابع الاتهام إلى الأنظمة التي تحكمها ، وتجد حينها تلك الأنظمة نفسها مطلوب منها أن ترد على الاتهامات التي توجه إليها وتدفعها عنها، وتكون عندئذٍ مضطرة للدفاع عن نفسها .

وهكذا نظام بينوشيت في الشيلي ، وقبله نظام ماركوس في الفليبين، وبقية أنظمة أمريكا الوسطى والجنوبية الديكتاتورية ، حتى نظام الشاه كان يرتعب من العتاب الرقيق الذي يصدر من أصدقائه في الغرب ، كل الأنظمة الديكتاتورية في العالم تريد من الشعب أن يسكت عنها ، أن يترك الدولة تنفذ خططها، ومن لا يعارضها في تنفيذ أهدافها فإنه لن يرى نفسه مكرهاً على المشاركة ، فالدولة لديها حتماً الأجهزة التي تعهد إليها تنفيذ أهدافها وخططها ، بل ان الأنظمة الديكتاتورية تعتمد دوماً على النخبة في تسيير دفة أمورها، وهي على الأغلب لا تعير للرأي العام اهتماماً ، إلَّا في الحالات التي يحدث فيها تعارض شديد يهدد وتاثر مسيرة عجلة الدولة بالتوقف باتجاه أهدافها ، فالدولة لا تطلب من الفرد الذي لا يؤيدها هنا سوى أن يقوم بانجاز واجباته الاعتيادية التي تؤمن حاجاته ورغباته، وتصب بالتالي باتجاه الحركة العامة للدولة بهدوء ، كما أنها لا تطلب من المواطن العادي أن يساهم قسراً في نشاط منظمة تتعهدها الدولة وتعتبرها واجهة لها ، صحيح أن التعبير العلني عن الآراء مفقود، والصحف تخضع إلى مراقبة شديدة لأنها ليست مملوكة كلياً من قبل الدولة . وصحيح أن وسائل الاعلام الأخرى تشرف عليها الدولة وتديرها بالطريقة التي تؤمن لها استمرار تأمين الدعم المعنوي وتدفقه، ضد موجة عارمة تضطرم في نفوس الشعب وبؤر المعارضة والفعل المعاكس لها ، وصحيح أن المؤسسات الدستورية معطلة في أغلب الأحيان أو فاقدة لدورها، لأنها لم تأخذ وضعها ذلك بأساليب نزيهة ، إلَّا أن هذه الأنظمة تضطر في أحيان كثيرة إلى أن تترك بعض الأبواب مهما كانت صغيرة وضيقة مفتوحة، لأنه يزعجها أن يقال عنها انها تخالف القوانين التي أقرها المجتمع الدولي، والتي تحفظ للإنسان حقوقه الأساسية ولو نظرياً ، وهي حقه في التعليم والعبادة والتعبير عن الرأي والمعتقد .

وهذا النوع من الأنظمة الديكتاتورية ، أي النوع الثاني منها ، من أكثرها عرضة للانهيار والزوال ، وأكثرها اضطراباً ، بسبب عدم قدرته على الإقناع وكسب التأييد ، إضافة إلى عجزه عن تحقيق انجازات ملموسة تساهم في سد أفواه الجماهير وتلهيها ، لأن تشكيلتها الأساسية مصلحية أنانية ، أي ان ما جمع رؤوس النظام هو المصالح المشتركة سواءً المادية منها أو المعنوية الفكرية ، ونظام من هذا النوع لا يكتب له أن يستمر طويلاً ، فالمصالح ليست ثابتة ، والأهواء والرغبات لن تظل كما هي ، بل ان أشد الروابط عرضة للتغيير هي المصالح والرغبات التي تتجمع مصادفة ، أو التي تأتي انعكاساً لآراء وأفكار الآخرين من ذوي المصالح الحقيقية الثابتة ، فهؤلاء يشكلون أوصياء، أو قل أزلاماً لأصحاب المصالح الأصلية الذين اقتضت مصالحهم أن يساهموا في مجهود معيّن هدفه إيجاد ظروف أكثر ملاءمة واستقراراً لضمان استمرار الهيمنة والسيطرة ، دون الأخذ بنظر الاعتبار فيما إذا كانت تلك الظروف ملائمة لحركة التاريخ أو ضده ، فالأساس هو المصلحة والنظرة المحدودة.

وهذا النوع من الأنظمة الذي ابتلي به العالم الثالث يأكل نفسه بالتدريج ، وينتهي للتفسخ ، لأنه غير قادر على أن يهيء تلك الظروف إلى ما لا نهاية ، وهي أساساً ظروف غير طبيعية لإدامة عملية المحافظة على الامتيازات والمصالح التي غالباً ما تكون غير مشروعة ، لأنها تمثل منافع جانب واحد من جانبي الصراع ، والذي إن أُريد له أن يكون هادئاً بحدود معقولة ، فإنه من الضروري الأخذ بعين الاعتبار مصالح كل الأطراف المتصارعة ولو بدرجات متفاوتة من الناحيتين المادية والمعنوية ، إلاّ أن الاسفاف في السعي لإدامة وجود امتيازات الطبقة الحاكمة ومن يقف وراءها دولياً في الأنظمة الديكتاتورية ، تعتبر من أهم وأبرز العوامل التي تؤدي إلى انهيارها وتفتيتها ، ولولا الدعم الذي تلقاه هذه الأنظمة من المصالح الدولية الكبرى، التي تجد فيها أفضل وسيلة ممكنة لا يمكن التخلي عنها بسهولة ، لما وجدت تلك الأنظمة التي تعاني منها شعوبها الأمرين على وجه الكرة الأرضية .

الديكتاتورية في العراق :

- يفعل النظام الحاكم في العراق كل ما تفعله الأنظمة الديكتاتورية الأخرى المعروفة في العالم ، ومساوئها موجودة لديه ، إلاّ أنه لا يملك من حسناتها ، القليلة جداً ، شيئاً ، فنظام يرفع شعار : « من لم يكن معنا فهو ضدنا » يحول الوطن كله إلى سجن كبير ، لا فرق بين الألوف التي تعيش في السجون والملايين التي تعيش

خارجه ، ويسعى النظام إلى ربط كل أبناء الشعب بعلاقة خاصة به ، وبأساليب متعددة ومختلفة ، تتيحها له وفرة الامكانات التي تملكها الدّولة، كمؤسسات حكومية ومصالح مستقلة. فعلى كل فرد في هذا المجتمع أن يكون حزبياً ، وأن تكون له علاقة بالحزب الحاكم ، الطالب الذي يرغب في مواصلة دراسته العليا يجب أن يرتبط بالحزب ، وإذا كان لا يرغب ذلك فإنه سوف لن يفلح في مواصلة دراسته، حتى لو كان قادراً على ذلك خارج العراق في جامعات العالم الأخرى ، وعلى نفقته الخاصة ، لأنه سيجد نفسه في أي مكان يذهب إليه مطالباً أن توافق الحكومة العراقية على دراسته وسفره ، ويتم إبرام اتفاقات ثقافية ثنائية بين العراق ودول العالم الأخرى، يتم فيها الإقرار بذلك ، وسيجد الطالب الأبواب أمامه مغلقة تماماً ، والضابط وضابط الصف والجندي يجب أن يكون حزبياً حتماً، وإلاّ تعرّض إلى الحساب العسير جداً ، وكثير من الضباط فقدوا حياتهم لمجرد أنهم ليست لديهم رغبة للانضمام للحزب الحاكم ، وعلى الرغم من كونهم من المعروفين جيداً بأنه ليس لديهم أي نشاط آخر تنظيمي داخل القوات المسلحة ، كما أن الكثير منهم قد تم إحالتهم على التقاعد بسبب عدم إبدائهم لرغبتهم بالانضمام للحزب ، والذي يرغب من المواطنين العاديين أن يحصل له على وكالة لإحدى الشركات الحكومية ،التي تأخذ على عاتقها استيراد مختلف المواد والأجهزة الضرورية ، فإنه يتوجب عليه أن يحصل على موافقة مديرية أمن المحافظة التي يسكن فيها ، والذي يعني بأنه سوف لن يحصل على الترخيص فيما لو لم يكن حزبياً ، والموظف العادي في الدولة يجد نفسه ملاحقاً من قبل التنظيم الحزبي الذي يطالبه باستمرار بالموافقة على انضمامه للحزب، وغالباً ما تكون المحاورة التي تجري بين المسؤول الحزبي وهذا الموظف بالأسلوب التالي :

المسؤول الحزبي أنت تعلم بأن الحزب قد حقق تأميم النفط، ويقف من القضية الفلسطينية موقفاً ثابتاً على الرغم من تخلي بقية الأنظمة عنها، وتعلم بأن علاقاتنا بالدول التقدمية وحركات التحرر في العالم جيدة، واننا أعداء حقيقيون للامبريالية العالمية و. . و. . الخ . .

الموظف : نعم أعلم ذلك. . ولكنني لا أرغب بأن أنظم لأي حزب. . إنني أعمل وانجز واجباتي بصورة جيدة، وهذه خير خدمة للوطن وحتى للحزب. . والسيد النائب[1] اطلق شعار « المواطن الجيد هو البعثي الجيد » .

---

(١) اشارة إلى صدام حسين يوم كان نائباً لرئيس «مجلس قيادة الثورة».

المسؤول الحزبي نعم.. نعلم ذلك، ولكننا نعتقد بأن المواطن الجيد هو المواطن الذي يكمل أعماله الجيدة بانضمامه للحزب .

الموظف : إنني لست مستعداً الآن للعمل الحزبي ، فهو يحتاج مني إلى تخصيص وقت كثير للاجتماعات وغيرها، مما يتطلبه العمل الحزبي .

المسؤول الحزبي أنت الآن لست مطالباً بتخصيص وقت كبير لهذا العمل، فساعة واحدة بالأسبوع تكفي .

الموظف : أعتقد بأنني لست قادراً على ذلك الآن،فلدي التزامات عائلية واجتماعية كثيرة، والوقت الذي يتيسر لدي في الواقع لا يتيح لي حتى قضاءها .

المسؤول الحزبي اسمع! لقد تحملتك كثيراً لحد الآن ، كلمتي الأخيرة ، انه لمصلحتك أولاً وأخيراً أن توافق على الانضمام للحزب ، وأنا أنصحك بذلك ، وإلاّ فإنك ستندم ، وهذا آخر ما أقوله لك .. ولن تلوم إلاّ نفسك .

وبعد مدة من المضايقات والممارسات التي تهدف إلى إحداث حالة نفسية من الشعور بعدم الاطمئنان والخوف لدى من يراد ضمه إلى الحزب ، يضطر بعدها إلى القبول ، بعد أن يكتشف أنه لا مفر له من ذلك ، عندها تبدأ مرحلة جديدة من الإذلال والمسخ للشخصية ، حيث تقدم له أربع أوخمس «استمارات» يقوم بإملائها كلها ، حيث تتضمن معلومات تفصيلية عنه ، وعدد أفراد عائلته ، اسم زوجته ، عملها ، أولاده ، إخواته واخوانه ، أسماؤهم وأعمالهم وعناوينهم ، هل أن أحدهم يعمل في تنظيم حزبي آخر ، هل هذا التنظيم معادٍ للسلطة؟[1]، هل اعدم أحد من أفراد أسرتك وما سبب ذلك؟، اذكره حتى ولو كان من الدرجة الرابعة . وهل وهل وهل؟!! . . . وكل نموذج يتكون من أربع إلى خمس صفحات، وفوق هذا كله يكون عليه أن يملأ «استمارة» أخرى ويوقع على صحة ما فيها من معلومات ، وهي من أخطر ما يمكن أن يفعله الإنسان، لأنها تجعل الإنسان عبداً للسلطة والحزب ، وهي الاستمارة التي تتضمّن تعهد الشخص الذي يراد انضمامه للحزب ، وبالقوة ، بعدم انضمامه لأي حزب آخر ، وإلاّ تعرض لعقوبة الإعدام ، وليس المهم أن يكون الشخص الذي انضم للحزب أو الذي سينضم

---

(١) لا يوجد تنظيم آخر عدا تنظيم ما يسمى بالحزب الديموقراطي الكردستاني ، وهو تنظيم زائف جرى تشكيله ليكون بديلاً للحزب الأصلي ، إضافة إلى أحزاب كردية هزيلة لا وجود لها .

إليه قريباً فعالاً نشطاً ، أو معتقداً بصدق أفكار الحزب الذي دخله أو الذي سيدخله ، فالقيادة تستند على قاعدة رئيسية وتخريبية قذرة ، وهي أن كل شخص عندما ينتمي إلى الحزب سوف لن يكون أداة بالتأكيد لقوى أحزاب المعارضة الأخرى، لأنه سوف يهتم بالمأساة التي يعيشها خلال وجوده الجديد في صفوف الحزب، كما أن توقيعه على موته إن خان الحزب، سوف يعيش معه كظله يمنعه أن ينتظم بأي حزب آخر، لذا فإن جماهير الشعب أصبحت تساق كالعبيد وبالقوة والإكراه للدخول في صفوف الحزب الحاكم .

ـ اما التنظيمات السياسية الأخرى، فلقد اتبعت أساليب مختلفة لتدميرها وتحطيمها واجتثاثها، فالحركات الإسلامية تعامل بعنف وقسوة بالغتين ، وكل من ينتمي لها يتعرض لعقوبة الإعدام ، بل ان من يأوي أي فرد من أفرادها مطلوب للسلطة، يعاقب هو الآخر بالإعدام وتحجز أمواله المنقولة وغير المنقولة ، أما الأحزاب والحركات الأخرى فقد تمّ اتباع أساليب عديدة لانهائها وتدميرها ، فالحزب الشيوعي تم تدمير قياداته وتحطيمها ، وقامت السلطة بكشف تنظيماته على مستوى العراق كله . وبما أن الحزب الشيوعي يمتلك من الجماهير العريضة الواسعة، وان السلطة نفسها قد أخذت بنظر الاعتبار علاقتها بالاتحاد السوفيتي الذي سوف لن يكون موقفه لصالح النظام في حالة شنه حملة دموية شاملة كالذي حدث عام ١٩٦٣ ، إضافة لكون الحزب الشيوعي كان حليفاً لحزب السلطة مدة طويلة ، فإن أسلوب التعامل مع الشيوعيين الذين أصبحوا بغير تنظيم اعتمد على تدمير الثقة بالنفس وتحطيم الشخصية ، فقد عمدت السلطة إلى ابتداع صيغة جديدة من التنظيم ، لا هي تحمل صفة حزبية كاملة ولا هي تنظيم مستقل ، فقد عمدت السلطة إلى ابتداع تنظيم (الصف الوطني)، حيث جمعت كوادر الحزب الشيوعي وأعضاء ممن سلموا من التصفية في هذه الصفوف ، اعداداً كبيرة ، يقوم بالإشراف عليها أعضاء من تنظيم الحزب الحاكم من ذوي الدرجة الحزبية المتدنية، ومن ذوي الثقافات الضحلة المستوى امعاناً في إذلال جهابذة الفكر الماركسي ، الذين يملكون من التحليلات والتفسيرات للظواهر الاجتماعية ، ويملكون من الوعي الثقافي الماركسي ما يجعل المسؤول عنهم قزماً اتجاه ما يتيسر لديهم من الفهم والثقافة، لقد أدى هذا الوضع المأساوي الذي عاشه الشيوعيون، بعد أن تركوا وحيدين يواجهون هذا المصير البائس ، فقد مات قسمٌ منهم على أثر نوبات قلبية أو جلطات دماغية، وذلك لعدم تحملهم الوضع الذي يعيشونه ، فكان يقال للشيوعي بأي صف أنت؟، ألا زلت في الصف الأول؟ إمعاناً بالسخرية والإحساس بالألم معاً ، أما الأكراد فهم أيضاً لم يفلتوا من تنظيم حزب السلطة ، فلقد تمّ تنظيم صفوف خاصة بهم، بنفس العنوان الذي ضم به الشيوعيون قسراً،

وبصيغة متدنية، وهي صيغة (الصف الوطني)، وقد واجه الحزبيون من أعضاء حزب السلطة جماهير الأكراد عندما كانوا يدعونهم للانضمام إلى صفوف الحزب، بادعاء مفاده بأنه ما دام الحزب يعمل لخير كل العراق من الشمال إلى الجنوب ، وللعرب والأكراد على حد سواء ، فإن الأكراد يجب أن ينضموا إلى الحزب، ليس بالصفة الحزبية الكاملة ، لأن الحزب بالأساس ينادي، بالطبع زوراً ، بتحقيق أهداف الأمة العربية ، أي أن الحزب أسس أساساً من أجل ايجاد تنظيم للعرب ، فهو تنظيم يخص السكان العرب في العراق ، إلاّ أن الأكراد مع ذلك يستطيعون أن ينضموا إليه بالصفة الوطنية، وليس بالصفة القومية ، على اعتبار بأن الخيرات ـ أقصد بالواقع المآسي ـ يوزعها الحزب على العرب والأكراد على حد سواء، وهي حيلة مفضوحة الأهداف تبعث السخرية والأسىٰ في قلب من يتطلع إليها، على الرغم من وضوح فشلها ومقاطعة الشعب الكردي لها .

ــ لا تتمثل المأساة في واقعها التراجيدي بالانضمام إلى صفوف الحزب، لأن كل حزب من الأحزاب في العالم، ومهما كانت عقيدته، يمتلك من المبادىء والأهداف ما يستوعب بقدرٍ معيّن طموحات وآمال الشعوب، أو طبقات معينة منها، إلاّ أن المأساة الحقيقية هي أن حزب السلطة في العراق يمثل جهازاً من أجهزتها الأمنية ، واجبه الأساسي هو مراقبة الناس، وإحصاء أنفاسهم وكتابة التقارير عنهم ، ويجهد الحزب بكل واجهاته الأخرى، وبكل وجوده، من أجل أن يخدم السلطة، ويثبت أقدامها بالسهر على الجانب الأمني فقط، فواجب الحزبي أولاً أن ينخرط في المليشيات المسلحة المسماة بالجيش الشعبي، والتي تكلف بأداء الواجبات الأمنية داخل المدن والقصبات، أو تعقب الهاربين من الجيش وأفراد التنظيمات الأخرى المعارضة، اما ممارسة العمل الحزبي الحقيقي الهادف، الذي يؤدي إلى إتاحة الفرص الكفيلة بإطلاق طاقات الشعب وتطويرها في مجالات البناء والإبداع ، فهو من الأمور التي لا نجد لها أثراً في العمل الحزبي مطلقاً ، لذا فإن المرتبط أو المنتمي لتنظيم السلطة يتحول إلى «عنصر» في جهازٍ قمعي ، يمتد طولياً وأفقياً داخل المجتمع العراقي ،دون أن يحمل صفة رسمية بذلك، أو يتلقى أجوراً أو أتعاباً عن ما يقوم بانجازه للسلطة . فالحزبي الجيد هو ذلك الشخص الوضيع الذي يكتب تقريراً عن أخيه، أو والده، أو أقاربه عندما يتحدثون أمامه، أو يسترق السمع منهم عن أي حديث ليس في مصلحة السلطة، أو معادياً لها.

ــ أمّا العراق وثرواته وأرضه ومياهه وشعبه وهواؤه فهو ملك لرئيس الدولة، وهو الذي منح نفسه هذا الحق ومارسه على حيز الواقع العملي طيلة مدة حكمه ، ومن يعيش على أرض العراق، أو من كتب عليه هذا، وفي ظل السلطة القائمة الآن، فإن عليه أن

يتقبل الواقع بأنه مملوك لرأس النظام وحفنة من أقاربه والمقربين جداً إليه ، وان من بركات هذه العبودية أنه يتنفس الهواء، ويشرب الماء، ويسير على الأرض، ويأكل وينام، ويمارس كل نشاطه اليومي بفضل هذا الرئيس والقائد المبارك وبرضاه ، الذي يحق له أن يمنع كل هذه النعم التي لم ينعمها الله عليه ـ استغفر الله ـ بل أنعمها عليه هذا الرئيس الضرورة ، الأهم من كل شيء ، من الأرض والوجود والمياه والهواء، هذا هو جوهر الفكر السائد الآن في العراق، والذي ترتكز عليه الدولة وتستلهم منه كل نشاطاتها وفعالياتها ، وتدار بهذا الاتجاه من قبل جهاز شديد المركزية والحرص على تنفيذه ، فكل أجهزة الدولة ، الأمنية ، الاقتصادية ، العسكرية ، السياسية ، الثقافية ، تصب جهودها باتجاه واحد لا غير، وهو أننا مُنحنا الحياة بفضل وجود القائد وبركاته التي ينثرها في كل مكان من أرض العراق ، دماراً وموتاً وغازات سامة ، آلاماً ودموعاً وحزناً ، وهو له الحق وحده أن يسلبنا هذه الهبة الإلّهية ، وتقوم الأجهزة الأمنية بقبض أرواح الناس و إذلالهم وتحطيم كرامتهم ، وتأخذ الأجهزة الإعلامية على عاتقها دون كلل أو ملل إقناع الشعب بأن ما يراه ويعاني منه كل يوم هو الشيء الأفضل ، وإن ما يجري من بؤس وآلام ان هي إلّا آلام السعادة والفرح الغامر، وآلام السعادة هي أفضل من غبطة الفرح، فالفرحة تزول، أما الآلام وتحطيم الكرامات فلا تزول آثارها إلى الموت، وبالطبع فهي أفضل لأنك تحملها معك إلى القبر، نياشيناً وانواطاً ، تشهد لك يوم الحساب بأنك تألمت وظلمت وعذبت، أليس ذلك منطقياً وصحيحاً؟.

ـ استطاع النظام أن يدفع الشعب إلى الموت،وهو مسلوب الإرادة ، يعلم بأنه يساق إلى المحرقة ظلماً ، لا لذنب جناه أو جريمة اقترفها، بل انه يدفع كل هذه الدماء والدموع والعرق من أجل أن يظل القائد ينعم هو وأهله بخيرات العراق ، يصرف منها ما يشاء ويبذر ما يشاء ، يوزع المال على أقصى البعيد ، وأقرب القريب ، لقد وصلت الدولارات التي قدمها العراق إلى شعاب ووديان مجاهل افريقيا ومستنقعات آسيا ، الرئيس كريم جداً،ولديه الكثير من المال، وهو يحب أن يقال عنه كريم،وانه معروف في كل أنحاء العالم بهذا الكرم، انه قائد تاريخي وانه حتى يشعر اللسان بالتعب وتنقطع الأنفاس ، ويجب أن لا يشعر بالتعب أحد، فالقائدسيغضب عندما لا يجد من يمدحه ، أو يذمه، لأنهم يمدحونه بما ليس فيه بالفعل، ولذا فأن لا تستطيع أن تجد شيئاً في العراق ليست فيه رائحة أو صورة أو لمحة أو ابتسامة أو غضب أو كرم الرئيس القائد ؛ صوره في كل مكان ، ساعات يدوية تحمل صورته توزع بالمجان ، العملة العراقية بدأت تحمل صورته أيضاً ، التماثيل في مداخل ووسط ومخارج المدن ، المعلقات الشعرية ،

الإذاعة ، التلفزيون ، كل شيء كل شيء . . والشعب العراقي ينظر إلى ما يجري مبهوتاً بائساً ، لا يستطيع أن ينفس عن ألمه حتى بكلمة (آه) خجولة ، فالرئيس يفهم ما تعنيه كلمة (آه)، تنطلق من فم الشعب وتعبّر عن حزنه وبؤسه ، فالسيف مسلط على الرقاب ، والأسواق مليئة بأحسن أنواع المواد الغذائية الأجنبية ، والملاهي والبارات عامرة ، و«الموضات» تصل تباعاً ، فالذي يريد أن يهرب من نفسه سيجد الأجواء الملائمة لأن يحصل على كل شيء يخدعه وينقله من واقعه الأليم إلى بؤس الأحلام وتيهها ، ومن يظل واعياً لذاته لا تؤثر به تلك الظروف التي يتكالب النظام على وضعه تحت شروطها وتأثيرها ، فإن السيف سوف يهوي على رقبته منهياً حياته .

وتعتبر أجهزة الأمن العراقية المتعددة ، والتي تحدثنا عنها في فصل سابق باقتضاب، والتي تأخذ على عاتقها تنفيذ سياسة الإرهاب والقتل والتعذيب والإذلال وتحطيم الكرامة الإنسانية للفرد العراقي ، من أكثر الأجهزة دقة في التنظيم، وسعة في الإمكانيات،وشدة في البطش والقتل . وكل جهاز من هذه الأجهزة يتبارى مع الجهاز الأخر بعدد الجرائم التي يرتكبها، والتجاوزات التي يمارسها كل يوم، بل كل لحظة وثانية من وجوده ضد المواطن العراقي لجعله يعيش في دوامة رهيبة من الخوف ، لقد وصل الأمر بجهاز مديرية الأمن مثلاً إلى أنها أصبحت تشجع المواطنين الآمنين البؤساء على ارتكاب أعمال تعتبرها السلطة مخالفة ومخلّة بالأمن ، ثم تقوم باعتقالهم .

في إحدى المرات ألقت سلطات أمن مدينة النجف على شخص كان يقوم بتهريب بعض العوائل إلى إيران ، مقابل مبالغ كبيرة من المال ، فكان ان أقنعته سلطات الأمن بأن يستمر في عمله هذا، ويقوم بترغيب بعض العوائل على الهرب إلى إيران ، ولأن هذه العوائل تعاني من مشاكل كبيرة وعديدة بسبب إبعاد عدد من أفرادها إلى إيران ، فإنها كانت تبدي رغبة محضة للالتحاق بهم،وهي حالة إنسانية مجردة من أية دوافع سياسية ، ساهمت السلطة نفسها بإيجادها بين أوساط عديدة من العوائل العراقية ، فكان أن تمكن هذا الشقي من إقناع قسم من عوائل مدينة النجف على تهريبها إلى إيران، حيث تمّ تسليمهم إلى سلطات الأمن، بينما كانوا في سيارة تقلهم كانت تتجه إلى بغداد من النجف ، وظلوا بالاحتجاز مدة طويلة . وقدم قسم آخر منهم إلى المحاكم،حيث حكم على قسم منهم بالاعدام ، وعلى البعض الآخر بأحكام طويلة المدة ، وكان الجهد الرئيسي لهذه الأجهزة موجهاً بالأساس نحو القوات المسلحة، على اعتبار بأنها المؤسسة الوحيدة تقريباً القادرة على احداث تغيير مهم على مستوى السلطة في العراق ، فما هي

تلك المؤسسات الأمنية التي تلاحق الفرد العراقي كل يوم، وتجعل حياته جحيماً لا يطاق :

أ ـ **رئاسة المخابرات** : وهي جهاز قذر، يمارس أبشع صور الإرهاب والقتل ضد المواطنين، ويديره صدام شخصياً، ويشرف عليه باستمرار، وقد وضع على رأسه أخوه من أمه برزان إبراهيم التكريتي مدة طويلة . لدى هذا الجهاز من الصلاحيات والإمكانات ما لا يعد ولا يحصى ، ويكفي أن نأخذ صورة عن ميزانية هذا الجهاز من حجم المبلغ الذي تبرع به رئيس هذا الجهاز ، فقد تبرع بمبلغ (٣٠) مليون دينار، أي ما يعادل مبلغ (٨٠) مليون دولار بموجب صرف البنك المركزي العراقي دعماً للمجهود الحربي ، لمرة واحدة فقط ، وفي حملة من حملات التبرع ، ويقوم هذا الجهاز بالإشراف على الأمن الداخلي والخارجي ،وتنسيق عمل الأجهزة الأمنية الأخرى في هذا المجال، ويتألف من الشُعَب التالية :

أولاً : شعبة التطوير السري.
ثانياً : شعبة التطوير الالكتروني.
ثالثاً : شعبة التطوير البايولوجي (الإحيائي).
رابعاً : شعبة التحقيق.
خامساً : شعبة المراقبة.
سادساً : شعبة الدراسات السياسية.
سابعاً : شعبة الحركات السياسية الخارجية .
ثامناً : شعبة مكافحة الاستخبارات.
تاسعاً : شعبة مكافحة الحركات السياسية.
عاشراً : شعبة تطوير الأسلحة.
حادي عشر : شعبة الإشاعات (الحرب النفسية، مركز الدراسات).

ولهذا الجهاز أكثر من ١٥٠ بناية في بغداد وحدها، وتحت واجهات مختلفة ، ويملك مبنى خاصاً تحت الأرض في منطقة سلمان ياك (المدائن)، يحتوي على سجن رهيب ، مزود بأحدث معدات التعذيب التي حصل عليها من مختلف دول العالم «المتقدمة» في مضمار اختراع أجهزة التعذيب ، كألمانيا الغربية والشرقية وفرنسا وغيرها، كما تقوم شعبة تطوير الأسلحة بالإشراف على صنع الأسلحة الكيمياوية ، وتأمين ما تحتاجه من أجهزة ومعدات ومواد أولية ، ويشرف هذا الفرع على معمل الأسلحة الكيمياوية في منطقة بحيرة الثرثار، وعلى مسافة ٣٠كلم إلى الجنوب الغربي من مدينة سامراء ، ويشتمل هذا

المصنع على منشآت عديدة وكبيرة معقدة ، وهو المسؤول أيضاً عن تهيئة الكوادر والخبراء العراقيين والأجانب للعمل فيها ، حيث يقوم بتحقيق هوياتهم للتأكد من ولائهم المطلق للسلطة ، كما قام هذا الفرع أيضاً بتهيئة أجهزة الرازيت،وهو نوع من الرادارات تستخدم في المواضع الدفاعية، لمراقبة كافة التحركات أمام المواضع الدفاعية لمسافة ٢٠كلم، كما أشرف على تدريب السوريين الهاربين،واعدادهم للقيام بالأعمال التخريبية في سوريا ، وقد أعد لهم معسكراً خاصاً لتدريبهم في معسكر التاجي شمال بغداد، وقد ساهم بعض ضباط مديرية الأمن العامة بالإشراف على تدريبهم أيضاً ، كما أشرف على تدريب الخوزستانيين العرب لاشراكهم في العمليات التخريبية داخل إيران، أو العمل في الجبهات بواجبات خاصة ، حيث تمّ اعدادهم وتدريبهم في معسكر مدرسة قتال الفرقة الآلية الأولى في الديوانية ، كما قام هذا الجهاز أيضاً بتنسيق عمل كل الإيرانيين الفارين، وتوجيه نشاطهم ،وتزويدهم بالأسلحة والأموال، وبقية ما يحتاجون إليه في عملهم المعادي للنظام الجديد في إيران .

ب ــ مديرية الاستخبارات العسكرية : وهي منظمة تعنى بجمع المعلومات عن العدو الحالي أو المحتمل للعراق ، حيث ظل هدفها لفترة طويلة محضراً بهذا الاتجاه، قبل مجيء الزمرة التكريتية إلى الحكم ، وهي تشكل جزءاً من تنظيم وزراة الدفاع، وترتبط برئاسة الأركان العامة للقوات المسلحة ، وتتألف من ست شعب ، كل شعبة تعنى بتوجيه الجهود لجمع المعلومات العسكرية والجغرافية والسياسية والاقتصادية نحو دولة من الدول المجاورة للعراق، ومن ضمنها شعبة تعنى بجمع المعلومات عن إسرائيل، وشعبة أخرى خاصة بنشاط الأكراد ، إضافة إلى شعبة خاصة بالتحقيق في النشاطات المعادية للدولة داخل القوات المسلحة، وهي الشعبة الخامسة ، ونظراً لعدم تعود المديرية المذكورة على تعذيب العسكريين وانغماسها في هذا العمل، ولأن العسكريين لم يألفوا تعذيب بعضهم البعض إلاّ نادراً، لأنهم يستنكفون القيام بمثل هذا العمل ، فإنه قد تمّ فك ارتباط مديرية الاستخبارات العسكرية من نظام وزارة الدفاع، وتمّ ربطها بالقصر الجمهوري بصورة مباشرة، وبسكرتيررئيس الجمهورية الذي يدير عن طريقه هذ الجهاز، وقد كان الهدف من انتقالها هذا هو جعلها قريبة من روح الرئيس الإجرامية، وإجراء تعديل جذري في أساليب عملها ، على اعتبار أن القائمين على الأمر في القصر الجمهوري هم من أكثر الأشخاص استعداداً لتنفيذ الإجراءات الإجرامية التعسفية ، ففي القصر الجمهوري الذي يملك تاريخاً عريقاً في عمليات الإعدام والقتل ، يتم ممارسة أقسى أنواع التعذيب الجسدي والنفسي، ففيه اعدم عدد من الذين اتهموا بالمؤآمرة التي قيل انها كان يتم تحضيرها

لإسقاط النظام عام ١٩١٩، والتي ذهب ضحيتها عدد كبير من الضباط المتقاعدين والعاملين، حيث تمّ إعدامهم في ساحات القصر الجمهوري دون محاكمة، وفي القصر الجمهوري تم تعذيب ناظم كزار وجماعته حتى الموت، لذا فإن مديرية الاستخبارات قد تحولت إلى جهاز قمعي جديد بيد النظام، بعد أن أصبحت قريبة من مركز نشاطه الإجرامي، الذي أصبح يتوجب عليها أن تمارسه وتتعود عليه بسرعة، فقد أصبحت هذه المديرية تمارس إرهاباً منظماً دموياً ضد القوات المسلحة بالدرجة الأولى، والشعب العراقي كله بالدرجة الثانية، وانتقلت المديرية المذكورة إلى بناية جديدة في شارع المحيط الواقع في مدينة الكاظمية على شاطىء نهر دجلة عند جسر الأئمة، تاركة مبنى وزارة الدفاع كي تستطيع أن تمارس نشاطها بحرية بعيداً عن الأنظار، وعندما بدىء بإنشاء هذه الأبنية الجديدة، كانت المعلومات المتيسرة عنها بأنها مستشفى عسكري جديد، تقوم بإنشائه إحدى الشركات الفرنسية لحساب وزارة الدفاع لسعة مساحة الأرض وكثرة وضخامة الأبنية التي كان يجري العمل فيها، استمر العمل فيها لعدة سنوات. ويمارس في البناية الجديدة لمديرية الاستخبارات العسكرية كل أنواع التعذيب المعروفة ضد العسكريين، وتقبع في أقبيتها السرية أعداد غفيرة من العسكريين المتهمين بممارسة نشاطات معادية للدولة، أومن المشتبه بهم لأسباب أخرى، وأصبحت الممارسات الإرهابية وتنوع التعذيب واتساعه مدار الحديث بين أوساط القوات المسلحة، وبهذا يكون النظام قد قام بهدم أحد الأسس الرئيسية التي تربط أبناء القوات المسلحة، وهو روح التضامن والمحبة والأخوة بين أبناء القوات المسلحة، والذي كان سائداً فترة طويلة، حيث أن العسكري يأنف أن يقوم بتعذيب أخيه العسكري، وتأبىٰ نفسه الحاق الأذى به وإهانة كرامته، لأنه يعتبره رفيق سلاحه، ورفقة السلاح هذه تسمو فوق كل الخلافات الجزئية، وكانت السلطات التي تعاقبت على الحكم في العراق تدرك هذا الواقع ادراكاً عميقاً، لذا فإنها كانت دوماً تتجنب استخدام العسكري لأغراض دنيئة ووسائل قذرة ضد زملائه العسكريين، وعندما كان يحدث ذلك فإن نطاقه محدود جداً، ويحرص حرصاً شديداً على عدم إفشائه، إلاّ أن النظام العراقي، وكما دأب باستمرار على تدمير أواصر العلاقات الكريمة النبيلة التي تربط جماهير الشعب العراقي ببعضها، عمد إلى تدمير روح الأخوة والتضامن بين رفاق السلاح، لهدف دنيء وهو إحكام السيطرة والتسلط على مقدرات القوات المسلحة، وقد اعتبر هذا النوع من العلاقات الشريفة حائلاً يقف دون تنفيذ غاياته الدنيئة، لذا قام بتدمير أسسها ومرتكزاتها وتحطيمها.

جـ ــ مديرية الأمن العامة: وهي مؤسسة ضخمة لها امتدادات كبيرة ونشاط متعدد

الوجوه ، ومن أهم شعبها الشعبة الخامسة، والمسماة بشعبة مكافحة النشاط الرجعي ، والمقصود بهذا العنوان هو النشاط الإسلامي ، لقد قامت هذه الشعبة بإعدام الآلاف من الشعب العراقي وإخفاء آثارهم تماماً ، وقد اتبعت هذه الشعبة وسائل عديدة من أجل القضاء على جماهير الحركة الإسلامية ومناصريها ، فمن السم ، إلى الإذابة بحامض التتريك المركز ، إلى القتل الجماعي ، إلى التعذيب حتى الموت ، لقد كان ذروة نشاط هذه الشعبة في الفترة التي سبقت إعلان الحرب ضد إيران ، حيث وصل من طالهم الاغتيال إلى عشرات الألوف من الناس ، وذلك بتوجيه من صدام لتصفية الجو العام من أي معارضة، أو أي توجه مشكوك فيه يمكن أن يعرقل المجهود الحربي ، وذلك لجعل الأجواء الداخلية أكثر اطمئناناً لشن الحرب ضد إيران ، وكان ان انتشرت المقابر الجماعية في أماكن عديدة من العراق، وخاصة مناطق الصحاري البعيدة في السماوة والفلوجة وغيرها ، كما عثر على اعداد كبيرة من الجثث الملقاة في مناطق عديدة أخرى، بعد أن يتم اعدام المغدور رمياً بالرصاص ، وعندما كان سكان هذه المناطق يعثرون على هذه الجثث،ويقومون بالاخبار عنها، فإنهم يتعرضون إلى السجن والتعذيب ، وكان الشخص من هؤلاء يعاني أبشع أنواع المعاناة والإرهاب حتى يخلص نفسه مما يسميه ورطة لن يعود إلى الوقوع فيها مرة أخرى ، لذا فقد كانت الجثث تظل مرمية على الأرض دون أن يقترب منها أحد أو حتى يدفنها ، فتصبح طعماً للوحوش والحيوانات السائبة الأخرى ، ولقد لوحظ في الأعوام التي تلت عام زيارة السادات إلى الكيان الصهيوني بعض الجثث المرمية التي يرتدي أصحابها الملابس الشعبية المصرية، وقد اشيع في حينها بأن حرباً دموية سرية تجري بين المخابرات العراقية والمصرية، وكان ذلك جزء من خطة الذبح والتعتيم عليها في العراق، وقد كان هذا النشاط الإرهابي يهدف في الواقع إلى تأمين هدفين في آن واحد ، الأول : تصفية المعارضين ، وثانيهما : إرهاب الشعب وإماتة شعور المواطنة لديه . وتعتبر مديرية الأمن العراقية من أبشع الأجهزة في العالم ، والحديث عنها وعن الجرائم التي ترتكبها يومياً بحق الناس ، يحتاج إلى وقت طويل ومجلدات خاصة به ، كما وانني لا أريد في الواقع أن أدخل الرعب والخوف في نفس القارىء الكريم .

د ـ جهاز الأمن الخاص : أنشىء هذا الجهاز عام ١٩٨٥ ، ليقوم بواجب الإشراف الخاص على كل نشاط الأجهزة الأمنية الأخرى ، ومقره في القصر الجمهوري ، يديره المدعو حسين كامل زوج ابنة صدام والذي أصبح ضابطاً دون أي مؤهلات[1]، ومنح رتبة

---

(١) أصبح مديراً للمؤسسة العامة للصناعات الحربية قبل مدة .

عقيد، حيث يتوقع أن يصبح فريقاً في المستقبل القريب، يرتبط هذا الجهاز بصدام مباشرة، بل ان هذا الجهاز يعيش مع صدام نفسه في قصره، وهو الذي يعالج الوضع الأمني وكل ما يتعلق به بصورة سريعة، فهو الذي ينقل توجيهات رئيس النظام وأوامره بصورة آلية إلى الأجهزة الأمنية الأخرى، أو أي مؤسسة، أو وزارة يجد رأس النظام بأن خللاً أمنياً بدأ يتسرب إليها .

هـ ـ **التنظيم الحزبي** : تحدثنا عن دور الحزب وواجباته الحقيقية تحت ظل النظام القائم في العراق، ولا نزيد على ذلك، إلاّ أننا نود أن نألب انتباه القارىء إلى أن الحزب نفسه تحول إلى مؤسسة إجرائية أيضاً ، أي أنه بعد أن تمّ تشكيل ما يسمى بالجيش الشعبي، أصبحت واجبات الحزبيين هي أمنية صرفة ، فعلاوة على كتابة التقارير ومراقبة المواطنين ، أصبح الحزبيون يمارسون حملات الاعتقال وإلقاء القبض على المواطنين أو الهاربين من الخدمة في المدن والأرياف والأهوار الجنوبية، إضافة إلى واجبات عديدة أخرى .

ـ ويظل المواطن العراقي العادي محاصراً خائفاً متردداً بائساً ، فكل هذه الدوائر والمديريات والمؤسسات تحاصره ، تعذب نفسه وجسمه ، تضعه في مطحنة لا تتوقف أبداً ، ففي خلف الجبهة تطلب منه أن يكون جباناً ، كسيراً ، خائفاً يرى اخوته وأهله وأقاربه يموتون أمامه ، يذبحون. وتلقى جثثهم على قارعة الطريق ، تأكل جثثهم الكلاب، يلتفت إلى جاره في قلب الليل، يصغي إلى الأنين الخفي الذي يتسرب من داره ، فتتملكه الحيرة والاضطراب ، وعندما يأتي النهار تقول له زوجته أو اخته بأن جارهم قد مات ، وعندما يسأل كيف مات ، علماً أنه لم يكن كبير السن أو مريضاً ، فقد كان شاباً متعافياً، يقال له بأنه اقتيد قبل عشرة أيام إلى دائرة الأمن بتهمة كونه شيوعياً[1]، وقد اطلق سراحه قبل أيام معدودة ، يقول أهله : بأنه تحطم بالتدريج ، وعندما مات بالأمس كان جسمه أزرق اللون ، هذا الإنسان العراقي العادي يرى كل شيء حوله يتحطم ، يموت بالتدريج ، ولكن يجب أن لا يحمل معه همومه تلك إلى خط الجبهة ، مطلوب منه هناك في خط الجبهة أن يكون شجاعاً، أية معادلة تلك التي يجب أن يسير عليها؟ وأي أرض يتحرك فوقها هذا الإنسان البائس؟ هنا يجب أن يكون جباناً ، وهناك تحت النار والموت مطلوب منه أن يكون شجاعاً ! وأي شجاعة يجب أن يمتلكها؟ انها من نوع خاص فريد، مطلوب منه أن يكون صنديداً من صناديد القرن العشرين، أي انه يجب أن

---

(١) مثل هذه الحادثة تتكرر كل يوم ومع مختلف الأحزاب .

يمتلك من الشجاعة ما ليس معروفاً ومسموعاً به على الكرة الأرضية، وهل أعطي الحرية لأن يكون شيئاً حتى يكون أغلى شيء، هل أعطته السلطة متنفساً ليرى نفسه بأنه إنسان كغيره من شعوب الأرض ؟ إن زمرة النظام ترتكب خطأً كبيراً لأنها ألبست المواطن البائس حذاءاً أقل من قياس قدمه ، وعندما لم تره مناسباً ، لم تهيء له حذاءً بدلاً عنه ، فالقادسية لا يمكن أن تبدل ، إن الشعب هو الذي يجب أن يلائم قدمه حذاء القادسية القميء ، لقد أُزيلت أجزاء من أصابع قدمه ،وشُذبت منها أجزاءً أخرى ، ثم ادخلت في هذا الحذاء والدماء تسيل منها ، والآلام تحطمه وتصده عن إمكانية التفكير بأي شيء ، حتى في محنته الراهنة، إضافة إلى عدم تمكنه من الحركة ،فهو لا يزال واقفاً في مكانه صابراً يحمل كل آلامه وهمومه وأحزانه ، فهل يستطيع « القائد العام للقوات المسلحة العراقية » أن يستمر في شن حربه إلى ما لا نهاية بهذا الإنسان المشلول المعقد؟ في الواقع إن العالم ينتظر أن تصل المأساة إلى ذروتها القصوى ، عندما لا يستطيع الشعب أن يظل واقفاً على قدميه تلك إلى أقصى مدى وأطول وقت .

هل هي مصادفة؟

ـ لفتت انتباهي بشدة المحاضرة التي ألقاها السيد جان غيتون من المجمع العلمي الفرنسي عام ١٩٤٠ ، تحت عنوان (هتلر والثورة والحرب) ،والتي نشرت كما هي في كتابه (الفكر والحرب) لما ورد فيها من التشابه الكبير بين الديكتاتور ادولف هتلر، صفاته ، طبائعه ، طموحاته، أساليبه، حياته الشخصية ومعالم مشتركة أخرى بينه وبين الرئيس العراقي صدام حسين ، وعلى الرغم من أن هتلر كان ألمانياً من النمسا ، وأن هناك فرقاً كبيراً بين خط سير هتلر وطموح الرئيس العراقي ، إلاّ أنني وجدت بأنهما متشابهان في جوهر وجودهما ، كما أعتقد بأن المسيرة التي سارا عليهامتشابهة ، وربما انتهت بالثاني إلى نفس المصير الذي انتهىٰ إليه الأول ، إلاّ أن الفرق الرئيسي بينهما أراه شاسعاً وجوهرياً ، فهتلر لم يكن يتصرف اتجاه الشعب الألماني كتصرفه ضد عدوه ، بل ان الاستراتيجية النازية بنيت في ذلك الوقت على أساس سمو العنصر الجرماني ،الذي يشكل الشعب الألماني لحمته بين الشعوب الجرمانية الأخرى، وعلى الرغم من أن هتلر كان السبب في كل الأهوال والكوارث التي واجهت الشعب الألماني ، وانتهت باحتلال أرضه وتقسيمها بين دول الحلفاء الغربيين والاتحاد السوفييتي ، فإن هتلر كان هدفه وولاؤه يتجه نحو إعلاء شأن شعبه ، والنضال من أجل الحصول على ما كان يسميه هو (المجال الحيوي) للشعب الألماني المتفوق ، وعلى الرغم من خطل هذه النظريات وبؤسها كغيرها من النظريات العنصرية ، إلاّ أننا نريد أن نؤكد حقيقة هي أن هتلر قد قاد شعبه ، الذي لم

يبخل عليه بشيء ، فقد كانت الملايين من الألمان مستعدة لتحمل أعباء ومهام المخططات التي وضعها من أجل تنفيذ مبادئه واستراتيجيته ، بعكس الرئيس العراقي صدام حسين الذي يكره شعبه ، ويشكل هو وأقاربه ومجموعة صغيرة من المقربين السبب الأبرز، وربما الوحيد لإذلال شعب بأكمله ، يدفعه ويسوسه بكل الأساليب والوسائل الدنيئة ، من الإرهاب بأقصى صوره ، إلى الترغيب وشراء الذمم بأحط وأخس السبل وأقذرها ، فصدام حسين ، بعكس أدولف هتلر ، يعامل شعبه كما يعامل عدوه وبميزان واحد ، ولا يفرق بينهما إلاّ بمقدار ما تفرضه عليه الظروف وتفاوت شدة ضغطها ، وعندما يشعر صدام بالخيبة والمرارة الناجم عن ضعف الأداء والتجاوب الشعبي العام ، وهي حالة تكاد تكون مستديمة ، فإنه يأخذ بخناق شعبه ، ويتحول الإرهاب الدائم ضد عدوه ، إلى حالة من الإرهاب المنظم ضد شعبه ، وهذا ما لم نسمع به عن هتلر ، وما جرى لمدينة حلبجة ، عندما عرضت للقصف الجوي والكيمياوي الذي ترك خلفه الآلاف من الضحايا من أهل المدينة ، وهم مواطنون عراقيون ، مثال واضح لما أردنا أن نورده ، إلاّ أن صفات الديكتاتور العامة تربطهما بوثاق شديد ، إضافة إلى صفات مشتركة بينهما ، ينفردان بها عن بقية طغاة العالم .

المقارنة التاريخية[1] :

ـ لقد اسميت المقارنة هذه تاريخية ، لما لها من مظاهر وفعل مشترك على التاريخ العام للبشرية ، فهتلر قد جر العالم إلى كارثة مدمرة مروعة ، ولو أن الحرب قد تأخرت عدة أشهر أخرى لما كانت خارطة العالم السياسية والجغرافية على ما هي عليه الآن ، ولو أن الوقت قد أمهل هتلر لحين إكمال بحوث العلماء الألمان حول السلاح الذي ، لأصبح عالم اليوم بشكل آخر ، أما الرئيس العراقي ، فحربه أوشكت أن تجر العالم إلى كارثة جديدة . كما تم استخدام أسلحة جديدة محرمة دولياً خلال الحرب ، إضافة إلى القصف والقصف المقابل للأهداف المدنية ، وإطلاقي لهذه التسمية (التاريخية) لا يعني بالتأكيد بأن فعل كل من هتلر وصدام ينسجم مع السياق التاريخي ، وهو فعل إيجابي ، بل انهما وبالتأكيد قد سارا عكس إرادة التاريخ ، فانتهى الأول إلى ما انتهى إليه ، وينتظر الثاني مصيره إن عاجلاً أم آجلاً ، لندخل الآن في صلب المقارنة لنكتشف معاً ما يجمع بين الرجلين ، وهو كثير ، وما يفرق بينهما ، وهو قليل .

---

(١) اقترح على القارىء الكريم أن يقرأ كتاب الفكر والحرب لجان غيتون ، الفصل الأول تسهيلاً له على فهم هذا البحث .

ــ وردت في المحاضرة التي ألقاها جان غيتون صفات متعددة وكثيرة لهتلر، سوف أنقلها حرفياً، ثم أعمد إلى مقارنتها مع صفات الرئيس العراقي صدام حسين فقرة بعد أخرى :

أ ــ (لكي نقرر الحقيقة نقول بأن هتلر كان رجلاً فاشلاً ، لم يكن لديه عائلة، ولا يحمل ألقاباً جامعية ، ولا يملك مهنة أو رتبة ، وكان فاشلاً أينما حلّ وأقام ، وكانت نجاحاته الوحيدة ترجع إلى أحاديثه وأقواله ، فلم يكن شيئاً يذكر ، وأنتم تعرفون الباقي) ، وصدام حسين لم يحقق شيئاً في حياته الخاصة سوى الفشل الدائم ، فلم يحصل على أية وظيفة أو لقب جامعيّ حتى انقلاب ١٧ تموز، لقد حاول مرة أن يصبح «مفوضاً» في الشرطة، وهي تقارب رتبة ضابط صف في الجيش العراقي ، إلاّ أنه لم يفلح في ذلك ، وفي إحدى المرات ، قال : بأنه عندما يرى ضابطاً يمر من أمامه حاملاً رتبة عسكرية فإنه يحسده ! وصدام لم يحصل على نجاحه الوحيد من أحاديثه وأقواله ، بل ان ما أمكن أن يحققه من نجاح واسع، كان بسبب اتقانه لاستعمال مسدسه ويديه في المعارك التي كانت تدور بينه وبين خصومه ، داخل السجن مع رفاقه، أو خارجه ضد رفاقه ومعارضيه من الأحزاب الأخرى ، إلاّ أن أكثر ما يشير إلى المصادفة العجيبة التي جمعت هتلر وصدام كون كل منهما بلا عائلة ، فالرئيس العراقي لم ينشأ في بيت أبيه، ولم يستطع أن يعيش حياة اجتماعية هادئة في ظل أسرة مستقرة ، بل ان أصله غير معروف اطلاقاً ، وخير دليل على ذلك هو طلبه من أحد المشهورين بأنساب العوائل والقبائل أن يخترع له شجرة لعائلته الكريمة بحيث يوصله بالنبي الكريم (ص) ، ليخرج أمام العالم بأنه سليل الأسرة الهاشمية العريقة ، وسبحان الله فكل الذين ليس لهم أصول يعمدون إلى هذا الأسلوب المبتذل ، ففاروق ملك مصر الألباني الأصل، فعل ذلك أيضاً وأصبح هاشمياً ، ومحمد عبدالوهاب المجهول الأصل أصبح من أحفاد النبي (ص) أيضاً ، والسلسلة طويلة لا تنتهي ، أما باقي حياة صدام حسين وصفاته فالكل يعرفها جيداً ولا حاجة للتحدث عنها .

ب ــ (وهناك ما هو أشد غرابة أيضاً ، وهو وصوله إلى السلطة « بصورة شرعية » بتاريخ ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ ، دون إهراق دماء)، اما صدام حسين فقد وصل إلى السلطة عام ١٩٦٨ بدون إراقة دماء في الأيام الأولى ، واستحوذ عليها بصورة كاملة عام ١٩٧٩ ، بعد أن أراق من دماء رفاقه انهاراً ، وهو ما كان أغرب من الغرابة نفسها ، ففي عام ١٩٦٨ وصل إلى منصبه كنائب لرئيس مجلس قيادة الثورة لحركة انقلابية سميت (بيضاء) ولكنه لم يكن ليتحمل أن يستلم السلطة عام ١٩٧٩ ، دون أن ينحر القرابين الكثيرة

على عتبة رئاسته الميمونة ، ولكنه في كلتا الحالتين لم يصل إلى السلطة «بصورة شرعية» ، بل بالتآمر والعمالة للأجنبي ، بعيداً عن إرادة الشعب ورغبته .

جـ ـ (وشن ـ هتلر ـ أخيراً في أيلول سبتمبر ١٩٣٩ ـ بعد رفض أربع عشرة محاولة للتوسط ـ حرباً تهدد بالانتشار إلى العالم كله ولا يتجاوز عمره ٥١ عاماً)، ولقد شن الرئيس العراقي حربه في أيلول عام ١٩٨٠ على إيران، ولم يقبل أية وساطة قبل نشوبها ، فلقد رفض وساطة الرئيس السوري حافظ الأسد عندما اتصل به صدام حسين يعلمه فيها بأنه سيشن حربه ضد إيران ، إلاّ أنه بعد أن شن حربه المجنونة، أصبح يتوسل بالدنيا كلها ، الأمم المتحدة ، الدول الكبرى، لأن تساعده على إيقافها .

د ـ تتحدث الدعاية العراقية كثيراً عن صدام، وتسهب في ذلك حتى تصل إلى درجة الاسفاف الممل ، أما هتلر فـ (تمزج هذه الدعاية بين حياته الشخصية وحياته العامة ، انه يعيش على المسرح ، وليس هناك من موضوع الا يخوض فيه ويتحدث عنه)[1]، فكل منهما يهتم بأن تتحدث وسائل الإعلام عن حياته ، ماضيه ، انتصاراته ، الهامه ، وكلاهما يعيشان على المسرح ، إلاّ أن صداماً يعتبر من أكثر الممثلين فشلاً ، وإذا كان ريغان معلمه ممثلاً من الدرجة الثانية، فإن صدام لا يصلح أن يكون ممثلاً من السابعة بين الممثلين ، لأنه على الرغم من اصطناعه ظاهرياً مواقف إنسانية ، عطوفة ، ريادية ، فإنه يعود في لحظات مفضوحة إلى الكشف عن ذاته الحقيقية المليئة بالحقد والكراهية والجريمة، وأمام الجماهير التي أصبحت تعلم من هو هذا الممثل الذي يقِف أمامها ، وصدام أيضاً مثل هتلر يتحدث في كل المواضيع ، الفلسفة ، الاقتصاد ، الاستراتيجية ، الحرب ، السياسة ، كل أنواع العلوم التطبيقية ، وكأنه يحمل درجة استاذ فيها كلها، فهو الطبيب الأول بين الأطباء ، والمهندس الأول بين المهندسين ، والفيلسوف الأول بين فلاسفة العالم ، لا يدانيه ماركس أو هيغل أو ديكارت، أوحتى استاذه الماسوني ميشيل عفلق ، وهو القائد الأوحد في ميادين الحرب وهو وهو. . . . إلاّ أن الميزة المشتركة بين هتلر وصدام هي أن الأول يتحدث أمام الجماهير يشدها ويدهشها ، يخاطب عواطفها ، يوصلها إلى أقصى درجة من الغليان والثورة ، لذا تنعدم المناقشة بينه وبين هذه الكتل البشرية الحاشدة أمامه، وتخضع له بصورة مطلقة ، أما صدام حسين فإنه عندمايُتحدث أمام طبقة معينة فإنه لا يقبل أن يناقشه أحد، أويقاطع رأيه بأية صورة من الصور ولأي سبب كان، فرأيه هو الأول والأخير، ولا حاجة بعدها للوقوف على مدى

(١) الفكر والحرب ، جانّ غيتون .

صواب هذا الرأي أو خطأه، ويكمن السبب الرئيسي في موقفهما المشترك هذا إلى تمتعهما بثقافة محدودة وبائسة، لا تسمح بإجراء مناقشة مباشرة لآرائهما وأفكارهما.

هـ ـ (إن هتلر يمقت التقنيين والخبراء والاختصاصيين إلى حد كبير، ولا يهتم أبداً بحكمهم، وكان يعتبرهم أدوات بسيطة... وكان يردد القول التالي: اعتمدوا على حدسكم وغريزتكم وعلى كل ما تريدون، ولكن لا تعتمدوا أبداً على معارفكم، إن التقنيين لا يملكون غريزةً أبداً)[1]. ولا يختلف صدام في كرهه للخبراء والاختصاصيين عن هتلر، بل يفوقه في هذا كثيراً، ولنستمع إليه يتحدث خلال استقباله لعدد من منتسبي وزارة النفط، بمناسبة يوم التأميم بتاريخ ١٩٨٣/٦/١: (فعندما جاء يوم واحد حزيران، لم يكن هناك مجال إلا وأن يتخذ قرار التأميم.. وقبلها جئنا كي نستشير الفنيين، لأن تجربتنا كانت محدودة في هذا المجال، فدعونا مجموعةً من الفنيين العاملين في مجال النفط لاستشارتهم، وأتذكر أن أحد موظفي النفط استدعي إلى اجتماع مشترك لمجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية للحزب، وأخذ يشرح لنا على السبورة، ويحسب لنا العوائد التي تأتينا في حالة التأميم، والعوائد التي تأتينا في حالة استمرار الشركات الاحتكارية أفضل من موردنا المالي في حالة التأميم... وأوضح ذلك بشرح على السبورة وبالطباشير، وإزاء ذلك فإن جواً من اهتزاز الثقة بالمستقبل قد خيم على الاجتماع، لأن فهمنا للأمور الاقتصادية والمالية والفنية في ذلك الوقت كان محدوداً... وكان لسان حالنا يقول: فلماذا إذن نتخذ قرار التأميم، ما دامت الموارد التي نحصل عليها من التأميم أقل من الموارد التي تأتينا من الشركات؟، عندها بدأت أناقش هذا الموظف أكثر مما أناقشه بالجانب الفني، بمعاونة ما نعرف من معلومات فنية قليلة في ذلك الوقت، فقلت له: أنا أسألك سؤالاً: إذا كان موردنا عن طريق الشركات أعلى من موردنا في حالة التأميم، فلماذا تتمسك الشركات بوضعها، وتستميت على مصالحها ولا تريدنا أن نؤمم.. وإلا قالت استلموا مؤسساتكم النفطية، وانتهى كل شيء؟.. قال لي: لديهم وسائلهم.. وطريقة تسويقهم، وهم يأخذون من عندنا النفط لكي يصفونه، وفائدتهم ليس في بيع النفط الخام، ودار نقاشي حول هذا الكلام، وكان هدفي ليس أن أهدم حجته نهائياً وإنما أهز ثقة المستمعين بكلامه على الأقل، إلى أن يقول: (ونجحت بها، بالنقاش، لأن الأغلبية من الحضور كانوا مقتنعين أن كلامه غير منطقي.. كنا نسأل الخبراء الماليين وكانوا يقولون لنا: أمورنا لا تتحمل، نسأل النفطيين هكذا يتكلمون معنا.. من أين تأتي

---

(١) المصدر السابق نفسه.

يقول لك الجانب الفني.. لا...)[1].

٩ ـ فمّا جرى بين الديكتاتور والاختصاصي، بل العدد الكبير من الاختصاصيين في هذه القصة المضحكة المبكية نستطيع أن نخرج بالاستنتاجات التالية :

أ ـ إن صدام حسين يعترف بأن خبرته الفنية لا تؤهله لمناقشة مثل هذه المواضيع والبحث فيها، كانت محدودة في هذا المجال.

ب ـ ان المختص في شؤون النفط قد طرح الموضوع وناقشه بطريقة لا تقبل الشك، بأن التأميم ونتائجه بالصيغة التي طرحت فيها ليست لصالح العراق أبداً ، والدليل على ذلك بأن أعضاء مجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية قد اقتنعوا به، وإن قناعاتهم بالتأميم ونتائجه قد اهتزت .

جـ ـ ان صداماً قد اعتمد على تحريك العاطفة، أي انه اعتمد على الحدس، وليس على العقل والمنطق عندما سأل المختص عن السبب الذي يدفع الشركات إلى التعنت وعدم قبول التأميم .

د ـ إن صداماً قد أثبت بأنه يجهل القانون الأساسي للتفاوض أويتجاهله، وفي كلتا الحالتين يظهر عدم اهتمام حقيقي بمصالح الشعب، فهذا القانون الذي أصبحت جامعات العالم تفرز له حيزاً مهماً ومستقلاً في دراسته والتعمق به، لم يكن يعيره أي اهتمام مطلوب في تلك اللحظات التي يحتاج فيها إلى نباهة وإخلاص فائقين، لأنها تتعامل مع أخطر القضايا التي تهم مستقبل الوطن ، وبذا يعترف بجهله وضحالة ثقافته، ليس في مجال محدود ، بل في كافة مجالات العلوم الأخرى، التي يدعي زيفاً وعدواناً بأن له باعاً طويلاً فيها، ويتصرف دائماً على ضوء ذلك ، فالقاعدة الأساسية في كل تفاوض ، خاصة عند التفاوض في مسائل هامة واستراتيجية ، والتي يعتبر موضوع النفط واحداً من أهمها على الاطلاق ، على اعتبار أن النفط يعتبر في عصرنا هذا من أهم المواد الاستراتيجية في العالم، والتي تؤثر سلباً وإيجاباً على مستقبل وحاضر القوى العظمى في العالم، وخاصة الدول الغربية وأميركا واليابان ، القاعدة الأساسية هي (التمسك بأقصى ما يمكن من المطالب للحصول على أكبر ما يمكن من المكاسب) ، ولقد تمسكت شركات النفط بهذه القاعدة، والتزمت بها، ولم تتنازل عنها أبداً خلال فترة المفاوضات التي تجاوزت السنة ، وكانت تهدف من ذلك إلى إيهام المفاوض العراقي بأنها لا ترغب بالتأميم، لأنه

---

(١) صدام حسين كراسة (التأميم بداية الدفاع الصحيح عن العراق، دار الحرية للطباعة والنشر ـ بغداد).

يضر بمصالحها ، لكنها في الحقيقة قد درست أهداف المفاوض العراقي ومشاريعه التي يحملها معه يومياً إلى مائدة المفاوضات ، وكانت بالفعل على اطلاع كامل بكل مجريات الأمور واحتمالاتها ، خاصة إذا علمنا بأن الدكتور سعدون حمادي ، وهو من أعمدة السياسة البريطانية في العراق ، هو رئيس الوفد العراقي المفاوض .

هـ ـ ان صداماً لم يقنع الحاضرين من أعضاء القيادات المحترمة برأي يستند على معلومات وأرقام وخبرة ملائمة، بل يبدو أنه حاول أن يرهب هذا (الموظف) كما يسميه هو، للتقليل من شأنه وتسفيه آرائه (كان كل هدفي ليس أن أهدم حجته نهائياً)، حيث يبدو واضحاً بأنه لا يستطيع أن يهدم حجج هذا الاختصاصي التي أوردها أمام الحاضرين، وبعد أن يكون قد أسكت هذا (الموظف)، يلتفت إلى الحاضرين متطلعاً إلى وجوههم، عندها يكونون جميعاً ضد هذا الموظف المسكين يؤيدون سيدهم الذي لا يُعصىٰ له رأي ، ونرى هنا مبلغ الديكتاتورية التي يمارسها صدام ، حتى مع القيادات العليا التي يفترض بها أن تكون مؤهلة وقادرة على اتخاذ قرارات صائبة علمية مدروسة درساً جيداً ، يستند أساساً على حقائق علمية وفنية غير قابلة للشك أو الإهمال .

و ـ لقد كانت لعبة تأميم شركات النفط من أقذر المؤآمرات التي دبرتها شركات النفط مع عملائها الجدد في العراق، فبعد أن شعرت تلك الشركات بأن وجودها المباشر يشكل إحراجاً لعملائها ويثير شكوكاً ، تم ترتيب أمر هذا التأميم بصيغته التي انتهت إليه ، حيث تم ضمان تعويضات سخية للشركات عن منشآتها النفطية في العراق ، وكأن هذه المنشآت لم يحسم ثمنها خلال مدة تزيد عن (٤٠) عاماً من الاستثمار والاستغلال ، إضافة إلى أن الشركات ضمنت في اتفاقها ذلك الحصول على حصصها الثابتة من النفط الخام، علماً بأن الحكومة العراقية هي الأخرى تبيع انتاجها وحصتها في أسواق النفط العالمية التي تسيطر عليها نفس الشركات الاحتكارية ، ولو أن التأميم يضرُّ بمصالح الشركات لاتخذت الدول الكبرى تدابير انتقامية صارمة ، ولو أن الشركات تتضرر بالفعل لما اتفقت شركة أرامكو العاملة في الحجاز، وهي أكثر الشركات رجعية واستغلالاً وهيمنة في العالم، مع نظام آل سعود حول إبرام اتفاق خاص يحدد حصص الحكومة من النفط بـ ٥٥٪ .

ز ـ أثبت صدام بأنه يحتقر التقنيين تماماً كموقف هتلر منهم ، وذلك بسبب ضحالة مستواهما الثقافي ، إنني لا أظلم الرئيس العراقي أبداً ، فهو الذي يعترف بأنه لا يملك من الخبرة الفنية ـ في حينها ، أي عند التأميم ـ إلاَّ قليلاً ، ونعود إلى القول الآن : هل استطاع الرئيس أن يعوض نقصه هذا؟ ، وهل أمكنه أن يردم الهوة السحيقة التي تفصله

عن التقنية والاختصاص والتنظير؟، وإن كان جوابه بالإيجاب، فما هي الوسائل التي اعتمدها في ذلك، هل هي شهادة كلية الحقوق التي حصل عليها وهو يشغل منصب نائب رئيس مجلس قيادة الثورة، وهل يصدق أحداً بأنه قد حصل عليها بطرق سليمة ومشروعة؟. لا أعتقد بأن أحداً من الناس يصدق ذلك، وعلى فرض بأنه أخذ تلك الشهادة بجدارة، فهل تغنيه عن ضرورة حصوله على معارف تقنية متعددة أخرى، اقتصادية، علمية، هندسية، وأخيراً عسكرية كي يصبح قائداً فذاً لجيش يصل تعداده إلى أربعة أضعاف الجيش المصري، الذي قام بعبور قناة السويس في حرب تشرين عام ١٩٧٣[١] ؟ والواقع أننا لم نكن لنطالبه بضرورة حصوله على كل هذه المعارف المتنوعة، لولا أنه يصر علينا بأنه عبقري وقادر أن يساهم في إعطاء حلول لأية مشكلة مهما كان نوعها ودرجة تعقيدها، والحق أن لدى صدام العشرات من الاختصاصيين في ما يسمى بمجلس قيادة الثورة، الذي يضم مكاتب متعددة لهؤلاء، لكن صداماً يتعامل معهم بنفس الأسلوب الذي تعامل فيه مع الاختصاصي الذي قدم له شرحاً حول موضوع التأميم، والذي أسماه (موظفاً)، ولديه مستشارون عسكريون ومدرسون في مجال الدراسات العسكرية، ولكن لا أحد يثق بأن صدام الذي يتمتع بعقلية متسلطة يستطيع أن يهضم أن يدرس أو يوجه بصورة جيدة، فاستاذه اللواء الركن شاكر وجر الإمارة قد رماه في السجن محكوماً لمدة سبع سنوات، فهو تلميذ غير نجيب لا يحفظ لاستاذه فضله عليه.

ـ إن هتلر أفضل من صدام، فقد خدم في الجيش الألماني كمتطوّع في فوج المشاة ٤١ من القناصة البافاريين عام ١٩١٩، ثم استطاع أن يمسك السلطة بيديه الحديديتين، أما الرئيس العراقي فإنه لم يدخل الجيش يوماً واحداً، ولم ينهِ حتى الآن خدمته الإلزامية، وظل سنوات طويلة مطلوباً من السلطة بسبب تخلفه عن أداء خدمة العلم، إلّا أنه يحمل اليوم على كتفيه أعلى رتبة في العالم، إضافة إلى شهادة فخرية منحتها له كلية الأركان، فكلاهما قد حققا أحلامهما في غفلة من التاريخ، ولعلّ مصيرهما سيكون واحداً، وهذا ما تشير إليه واقع مجريات الأحداث، والمراقب الدقيق لأوضاع العراق يستطيع أن يضع حكماً محايداً لمستقبل النظام الحالي في العراق.

ـ (لقد فهم هتلر قوة الكلمة وقيمة الكلام الحي، وقد قال عن ذلك ما يلي: «لا تنصاع الحشود الكبرى إلّا لقوة الكلمة»[٢]، فللفوهرر ثقة كاملة بأن للكلمة قيمة

---

(١) يتألف الجيش العراقي حالياً من (٤٤) فرقة مشاة وآلية ومدرعة تشكل سبعة فيالق.

(٢) الفكر والحرب ـ جان غيتون.

عظمى ، وأن من يجيد صنعها وإتقان إلقائها على الجماهير، بالأسلوب الذي يتيح له نفاذها إلى قلوبها وعواطفها ، فإنه سيتملكها، ومن ثم يستخدمها كأداة رئيسية وفعّالة لتحقيق أهدافه ، أما الرئيس العراقي فإنه معروف جيداً بأنه لا يستطيع أن يتحدث إلى الجماهير بالطريقة التي تمتلك عقلها وعواطفها وذلك لأسباب مهمة وأساسية، وعلى رأسها عدم قدرته على التحدث باللغة العربية الفصحى إطلاقاً ، ولم يفلح في ذلك إلاّ في المرات القليلة التي كان يظهر فيها من شاشة التلفزيون في خطاب مسجل مسبقاً ، حيث يقرأ خطابه مكتوباً أمامه ـ وهو خطاب يكتبه له اختصاصيون ـ ولكنه يرتكب مع ذلك أخطاءً نحوية كثيرة، وكأنه طالب في المدرسة الابتدائية ، وقد اعترف شخصياً أمام الناس بأنه غير قادر على التحدث بالعربية الفصحى ،وطلب من مستمعيه أن يعذروه عن التحدث فيها ، إلاّ أن الرئيس يستعيض عن الكلمة وقيمتها، وعن الكلام الحي المباشر مع الجماهير لغرض إقناعها ، باستخدام المسدس والساطور لإسكاتها وتدمير إرادتها ، ومن ثم استخدامها بالطريقة التي تحلو له ، على أي حال فهتلر وصدام يصلون إلى الغاية نفسها ، ولكن لكل منهما أساليب مختلفة ، وليس مهماً نبل الأساليب وسموها، ما داما يعتقدان بأنهما سيصلان إلى الغاية، تطبيقاً لأهم مبدأ من مبادىء الاستراتيجية الميكيافيلية (الغاية تبرر الوسيلة).

ـ سيفرح الرئيس العراقي جداً ، وستأخذه الغبطة والسرور إلى عالم وردي وسط هالة من الأنوار الساطعة ، محاطاً بأكوام من الجماجم ، سيجد نفسه في جو احتفالي كبير مشبع بالزهو والفخر تفوح منه رائحة الموت المنتشر على كل شيء يحيطه، عندما يرى نفسه يقارن بهتلر ، وهو يسعى دوماً لأن يقارنه الناس مع عظماء التاريخ ،أو الذين استطاعوا أن يكونوا أحد معالمه على الطريق الطويل، حتى وان كانت هذه العلامة تحمل شعار القراصنة، وبالطبع لن يجد، من يسعى لأن يقارنه مع العظماء، شيئاً لدعم مقارنته تلك سوى الأكاذيب والأباطيل المتهافتة المعروفة، انه، وبسبب إحساسه الدفين الذي يحركه لا شعوره بمهانة ماضيه وأصوله ، فهو يقبل التشبه أو التشبيه حتى بأولئك الذين لا يحسدهم أحد على ماضيهم ،سوى أنهم كانوا أمراء أو ملوكاً، ففي حادثة يرويها فاروق ـ صاحب مطعم فاروق الشهير في بغداد قرب المعرض الدولي ـ يقول فاروق : والذي كان يعمل مرافقاً عسكرياً للأمير عبدالإلّه وصي العرش ابان الحكم الملكي : « في إحدى الأمسيات الجميلة التي قضاها صدام ورفاقه في مطعمه، وعندما وصل السيد النائب ـ في حينها ـ إلى ذروة النشوة والانشراح، وبعد أن لعبت الخمرة في عقله ، تقدمت له قائلاً اصطنع الحياء والخجل ، سيدي إن لدي شيئاً أريد أن أقوله لسيادتكم ، ولكني

أجد نفسي محرجاً خجولاً . ألحّ عليّ السيد النائب بأن أخبره بما يجول في فكري ، فقلت له : والله سيدي كلما أراك أتذكر الوصي عبدالإلّه ، إنك تشبهه كثيراً ، في جلسته ، في كلامه ، بل في كل شيء ، ضحك السيد النائب ضحكته المشهورة ، قهقهة متواصلة قصيرة ، وقد بدى عليه الفرح والسرور لهذا الاطراء ، نعم فهو أمير ، ولكي يضفي إلى هذه الصفة بعدها التاريخي ، تناول ورقة وكتب عليها ثمن هذا المديح ، لقد سجل باسمي قيمة ناقلة من النفط كانت تبحر محملة في طريقها إلى إحدىٰ الدول الأوروبية »، فكم هو مغفل ـ لأنه يفقد عقله عند المديح والاطراء المبالغ فيه ـ وهي حالة يسمعها كل يوم من الإذاعة والتلفزيون ،ويقف أمامه حثالات من الشعراء يطرونه ويمدحونه بما ليس لدى إلّا الأنبياء والرسل ، لقد قبل أن يقارن بعبدالإلّه لمجرد كونه كان وصياً للعرش الضائع ، ولم يلتفت إلى أن عبدالإلّه كان من المعروفين بانحراف سلوكه الأخلاقي ، وفاروق هذا يعرف خفايا عبدالإلّه جيداً ، لا بأس، المهم أن يقال بأنه كبير وكبير جداً، وربما سيصبح أميراً أو ملكاً على العراق، أو انه سيجد له مكاناً أكثر ملاءمة مع زملائه طغاة التاريخ .

المقاومة مستمرة :

ـ كل هذا الإرهاب والتسلط، وجميع هذه الأجهزة الأمنية التي تحصي على الناس أنفاسهم ، وكل مظاهر الحرمان من الحرية ، وفي هذه الظروف فوق الاستثنائية من الضغط والمراقبة ، هل استطاع هذا النظام أن يحد من نشاط معارضيه؟ ويخيل لمن يقرأ ويسمع عن النظام ووضعه وأسلوب إدارته للدولة والحرب، يخيل إليه بأنه من المستحيل أن يوجد أي نشاط معاد له تقوم به المعارضة، ولا يستطيع أحد في العالم كله أن يصدق بأن هناك معارضة داخل صفوف الشعب العراقي، تعبر عن رفضها لهذا النظام بصورة عديدة ، لكن الحقيقة هي ليست كذلك، فهناك أحزاب ومنظمات عديدة تقوم بنشاطات متعددة ومتنوعة ضد النظام، خصوصاً داخل القوات المسلحة، وفي المناطق التي أصبحت بؤراً لنشاط المعارضة العراقية، بسبب بعدها عن يد السلطة، ولا تستطيع أجهزتها أن تفرض سيطرة كاملة عليها ، بل إنها في الفترة الأخيرة من الحرب بدأت تفقد وجودها فيها بصورة ملموسة، ومنها مناطق الأهوار في الجنوب، والتي أصبحت آنذاك مأوى للآلاف من الهاربين من الخدمة العسكرية الذين كانوا ينسقون أعمالهم وينتظمون في مجاميع تحمل السلاح وتهاجم مراكز السلطة وأماكن وجودها، وخير دليل على ذلك، هو تكليف سبعاوي أخو صدام من أمه لمهام محافظ ذي قار ـ الناصرية ـ مما يوحي بأن المنطقة تحتاج إلى مسؤول أمني أكثر منه إداري ، وما سنورده في بحثنا من شواهد على هذا

النشاط لم يكن مما نسمعه أو نشاهده كثيراً ، بل إننا اعتمدنا في إيراده على وثائق صادرة عن مؤسسات أمنية عراقية تأخذ على عاتقلها رصد كل الأعمال المعارضة للنظام ومعالجتها، وتظل الحقائق التي يجهلها العالم، أو التي يحاول أن يتجاهلها عمداً ، تظل هذه الحقائق كبيرة وخطيرة ، وحتى تلك التي يضطر النظام إلى الاعتراف بوجودها بصورة سرية جداً داخل أروقته ، تحمل بين معانيها معالم الخطر والتهديد الجدي .

ـ لا يزال الحزب الشيوعي العراقي الذي انتقل ما تبقىٰ من كوادره وأعضائه ، إلى كردستان العراق، لا يزال هذا الحزب ، يعمل من قاعدته الجديدة للأمتداد، إلى المناطق الأخرىٰ، داخل العراق، خاصة المحافظات الوسطى ، الناصرية ، العمارة ، الديوانية ، الحلّة ، السماوه ، وهي مناطق اصبحت تأوي الكثير من الهاربين من الخدمة العسكرية ، وما يسمىٰ بالجيش الشعبي ، فبعد أن تمّ كشف تنظيماته الواسعة ، في تلك المناطق ، وهروب كوادره وقياداته ، واستسلام قسم كبير من ما تبقىٰ منها للسلطة ، حاول الحزب أن يعيد تنظيمه في تلك المناطق ، معتمداً على المناخ الجديد ، الذي ولّدته الحرب في مناطق كثيرة من العراق ، ويجد الحزب الشيوعي مشاكل عديدة ، من وجود أعضائه ، وكوادره من العرب ، في منطقة كردستان العراق ، بسبب جو من الشوفينية في أجواء كردستان . وقد عانىٰ الكثير من الشيوعيين العرب ، من هذه الممارسات ، حتىٰ من قبل بعض رفاقهم الأكراد ، الذين يسيطرون حتىٰ علىٰ قيادة الحزب . لذا فإن قيادة الحزب ، وجدت الفرصة المناسبة لدفع عناصرها العربية ، إلى مناطق الجنوب ، لتأمين غايتين مهمتيمن ، وهما إعادة تنظيم الحزب في الجنوب ، والتخلّص من ثم من حساسية الوجود العربي في كردستان . ولقد عمّمت مديرية الإستخبارات العسكرية ، كتاباً عن هذا الموضوع ، إلى كل من وحدات الجيش العراقي ، يتضمّن معلومات بهذا الصدد (علمنا ما يلي :

١ ـ أرسل الحزب الشيوعي عدد من كوادره من أهالي المحافظات ـ ذي قار ـ ميسان ـ القادسية ـ بابل ـ المثنىٰ ، للعمل على إيجاد علاقات وصلات مع العناصر الهاربة والمتخلفة عن الخدمة العسكرية ، والجيش الشعبي في المحافظات إعلاه .

٢ ـ عدد المذكورين (١٧) كادر ، بينهم (٤) نساء تتراوح أعمارهم (٤٠ ـ ٤٥) سنة ، ويستقرون في أرياف المحافظات المذكورة .

٣ ـ تحمل الكوادر إعلاه ، دفاتر خدمة لأشخاص متوفين وهويات فلاحين ، وعمال ،

مزورة صادرة عن مديرية طرق وجسور السليمانية[1]. وإذا علمنا بأن الحزب الشيوعي العراقي كان يمتلك في هذه المحافظات، تنظيمات واسعة وكبيرة، وجماهير لا بأس بها، من الأنصار والمؤيدين، فإنه من المشكوك فيه، بأن كوادر الحزب التي أرسلت إلى تلك المناطق، لم تتمكن من البدء بإنشاء خلايا تنظيمية لها، يحتمل أن تتحول إلى بؤر مسلحة في المستقبل، إذا كان لم تتحول بالفعل الآن إليها، بعد أن اعتمد الحزب المذكور، على تقسيم جديد لمجمل الأوضاع، التي مرت به، حيث أعلن عن ضرورة إسقاط النظام الحالي بقوة السلاح، متخلياً عن أساليبه القديمة، ومن المؤكد بأن هذه الخلايا، تمارس الآن الكفاح المسلح في أرياف بعض تلك المحافظات، وقد تحقق بعض النجاحات.

ـ رسالة مديرية الاستخبارات العسكرية السرية والفورية ٤٦١٦ في ٣١/١/٨٥
(علمت مديريتنا من مصدر موثوق ومؤكد دخول مجموعات من حركة المجاهدين العميلة، غايتها القيام بعمليات تفجيرية تستهدف المؤسسات الحيوية والعسكرية، ومعهم كافة مستلزمات التفجير (٥). تتواجد إحدى المجموعات في بغداد، وتستغل سيارة أجرة نوع كراون (٠) نرجو تشديد المراقبة والحماية خاصة الأهداف والمنشآت الحيوية ضمن قواطعكم، وزيارتها باستمرار من قبل ضابط الاستخبارات والأمن مع متابعة العناصر المشبوهة (٠)، إذن فهناك عناصر تتسلل داخل العراق وتقوم بأعمال تخريبية ضد المنشآت المهمة، إضافة إلى وجود عناصر مشبوهة داخل القوات المسلحة يقتضي متابعتها وصرف الجهود اللازمة لذلك.

ـ لم يكفّ الجناح السوري لحزب البعث عن العمل، وهو يبتدع وسائل جديدة لنقل الرسائل والتعليمات بين أفراده، والأسلوب الجديد الذي يتبعه أفراده لم يكن ليخطر على بال جهاز الأمن العراقي، فاقترح الاستفادة منه في مجال عمله الأمني (اتبعت الزمرة المنشقة أسلوباً جديداً للتمويه عن مراسليها الحاملين لبريدهم المعادي، حيث سيحمل المراسل بضائع مهربة كغطاء الرأس (الغترة)، وذلك لتكون غطاءً لما يحمله من رسائل سياسية معادية، نرجو الاطلاع وتعميم ذلك لغرض إفشال هذا الأسلوب، والاستفادة منه في مجال عملنا الأمني)[2].

---

(١) كتاب مديرية الاستخبارات العسكرية سري وشخصي وعلى الفور ١١٣٦٣ في ١٦/٧/١٩٨٤.
(٢) كتاب مديرية الاستخبارات العسكرية السري والشخصي ٣٣٢١٧ في ١٦/ك٢/١٩٨٥

ـ يواجه النظام نشاطاً معادياً واسعاً وذا أبعاد خطيرة داخل القوات المسلحة ، تعبر عن عمق الرفض الذي يواجه به أبناء القوات المسلحة العراقية لوجود النظام وجهوده الحثيثة لضبط سير العمل وتاثره بين صفوف الجيش ، وردت في رسالة لمديرية الاستخبارات العسكرية صادرة عام ١٩٨٥ معلومات تشير إلى نوع من تلك النشاطات المعادية للنظام داخل القوات المسلحة العراقية (رسالة مديرية الاستخبارات العسكرية سرية فورية ٤٦٨٩ في ٤/٢٦ ، أعلمتنا مديرية الأمن العامة بوجود مجموعة يشك بعلاقتها بحزب الدعوة العميل ستقوم برفع رايات بيضاء كتب عليها لا إلّه إلّا الله خلال تعرض العدو، لافهام أفراد العدو كونهم من اتباعهم، وان هذا الأسلوب يعتبر بمثابة توجيه للقوات الايرانية)، كما ورد كتاب صادر من مديرية الاستخبارات العسكرية حول توجيهات حزب الدعوة في المرحلة التالية، وهو كتاب مطول يشتمل على ثلاث صفحات كبيرة، تتضمن الأساليب التي سيتبعها حزب الدعوة واتجاهات عمله داخل القوات المسلحة، وهي معلومات مطولة تصل إلى (٣٠) فقرة، تشتمل على معلومات تفصيلية عن نشاط الحزب المذكور داخل القوات المسلحة[1]، ويبدو واضحاً بأن مديرية الاستخبارات العسكرية قد ألحقت بالقصر الجمهوري، وأصبح ارتباطها برئيس الجمهورية مباشرة وعن طريق سكرتيره.

ـ كتاب مديرية الاستخبارات العسكرية العامة السري للغاية ١٣٥٧٣ في ١ شباط ١٩٨٥ (وردتنا معلومات تفيد ما يلي) :

١ ـ دخل القطر قبل فترة شخصان هما (ابراهيم حسن وحمدان سامار) من أهالي خانقين، كانا سابقاً في حركة الفتح الإسلامي، ولديهما معلومات عن التنظيم السري للحركة في العراق، وأسلوب دخول أعضاء التنظيم من أجل الالتقاء بأعوانهم)، والكتاب يوضح بصورة لا لبس فيها بأن هناك تنظيماً سرياً قائماً وعاملاً داخل العراق لحركة الفتح الإسلامي، ولديها نشاط واضح في معارضة النظام والجهاد ضده .

ـ وإذا علمنا بأن ما يقارب من ربع مساحة العراق، وهي تمثل الجزء الأكبر من كردستان العراق، تخضع لسيطرة فعلية من قبل الحركات الكردية المعارضة، والتي ترفع السلاح وتعتمد الكفاح المسلح من أجل الوصول إلى أهدافها ، إضافة إلى وجود أحزاب معارضة أخرى إسلامية وعلمانية إلى جانبها تمارس النشاط المسلح ضد النظام، فإننا

---

(١) كتاب رئاسة الجمهورية ـ السكرتير ـ مديرة الاستخبارات العسكرية السري والشخصي ١٠٥٤٥ في ١٩٨٥/٦/٧.

ندرك عمق المأزق الذي يعاني منه النظام الديكتاتوري المتسلط على العراق، فالحركات السياسية الإسلامية والعلمانية لها وجود على أرض العراق لا ينكره النظام، بل ان هذا الوجود يشكل بؤر معارضة خطرة تمارس فعاليات وعمليات لها تأثيرها الكبير على واقع المجتمع العراقي بصورة عامة، إضافة إلى العمل العسكري في ساحة العمليات أثناء المعارك، لكن الأنباء التي تنقلها وتتحدث عنها وكالات الأنباء الدولية ـ مضطرة ـ تشير إلى تصاعد العمليات النوعي، وازدياد نشاط الحركات والأحزاب المعارضة للنظام كما جرى في بعقوبه في استعراض عسكري أُقيم في المدينة، حيث قام عدد من العسكريين بفتح النار على المنصة التي يجلس فيها المدعوون من رتل كان يمر من أمامهم مستعرضاً، وبنفس الطريقة التي قتل فيها أنور السادات، لكن المستقبل القريب الذي يخبىء الكثير سوف يكشف عمق الهوة التي تفصل جماهير الشعب عن النظام المتسلط على رقابه، فبعد أن وصلت الممارسات الديكتاتورية والإرهابية للنظام درجة لا يمكن أن تطاق، أصبح الناس في وضع مجبرين فيه على مقاتلته ومقاومته، بعد أن أصبحت لديهم القناعة التامة بأن طريق الخلاص الوحيد هو اسقاطه والقضاء عليه، وان غداً لناظره قريب.

البَابُ الخامِسُ

كيف تبنى الروح المعنوية
تحت ظل النظام الحالي

- المعنويات والعوامل المؤثرة فيها.
- القائد .
- التدريب .
- التسليح والتجهيز .
- العقيدة .
- الضبط .
- التوجيه السياسي .
- الإيمان .
- الشؤون الإدارية والاخلاء الطبي.
- العلاقات الإنسانية.
- الحرب النفسية.
- الانتصارات .



المعنويات والعوامل المؤثرة فيها

ـ في العدد رقم (٦) لسنة ١٩٨٥ من الثورة العربية الجديدة الداخلية لحزب البعث الحاكم في العراق، ورد تعريف وتحديد لمفهوم الروح المعنوية والعوامل المؤثرة فيها ، وعلى الرغم من أن هذا التعريف لم يكن ليختلف كثيراً عن بقية ما هو معروف من التعاريف الأخرى، إلَّا أننا في واقع الأمر ـ وهذا هو جوهر القضية ـ نجد أن ما يجري وينفذ فعلاً داخل القوات المسلحة العراقية، سواء في أوقات السلم، أم خلال الحرب، لم يكن في أي حال من الأحوال مما يعزز الروح المعنوية للقوات المسلحة، ويرسخ العوامل التي تؤثر فيها، وتدفعها إلى أقصى طاقتها وجهدها، لتعمل في روح المقاتل الفعل المطلوب ، كي تجعله صامداً يقاتل حتى الاطلاقة الأخيرة. . ، بل إن كل جهد بذل داخل القوات المسلحة من قبل السلطة ، كان يهدف بالأساس إلى تأمين سيطرة فئة قليلة جداً على مقاليد الأمور في القوات المسلحة ، وجعلها أداة طيعة بأيديهم ، ولقد كانت أهداف هؤلاء وطموحاتهم بعيدة جداً عن تعزيز وضع نفسي مستقر وملائم لخوض حرب ضد دولة كبيرة مجاورة، تمتلك من الامكانات والطاقات أضعاف ما يملكه العراق ، لقد وردت سلسلة من الادعاءات والأكاذيب تحت عناوين جميلة ، تحمل كل واحدة منها عنواناً لأحد العوامل المؤثرة في المعنويات ، بينما يجري في الواقع العملي اتباع سياسة مدروسة تتضافر فيها جهود عدة جهات، منها محلية وأخرى إقليمية ودولية، تستهدف تمزيق الروح المعنوية للقوات المسلحة العراقية بأساليب ووقائع مغايرة لما ورد تحت هذه العناوين البراقة ، وكما سيرد هذا في بحثنا لاحقاً ، وبأساليب تشويه وتزوير للحقائق ظل دوماً دأب أجهزة السلطة ومحاولاتها التي لا تنقطع ليل نهار من أجل تشويه وقلب الحقائق حتى البديهية منها ، إلَّا أن هذه الحقائق بأبعادها وحجمها الحقيقي الذي لا يمكن أن يتغير ، تظل راسخة في ذهن المقاتل وروحه ترتسم أمامه دوماً ، فهو وحده الذي يقف مواجهاً الحقائق والوقائع في ساحات الحرب بعيداً عن الكذب والتضليل ، فذهن الجندي

يرتكز دوماً على الصورة المعاكسة، لادعاء السلطة، ومن يسعى إلى تكوين صورة خاصة عن الموقف بعيدة كل البعد عمّا تدعيه السلطة وتطبيل وسائل إعلامها ، فمثلاً عندما يرد في بيان عسكري صادر عن القيادة العامة للقوات المسلحة، بأنه تمّ دحر هجوم العدو واحتواؤه ، وإن قواتنا الاحتياطية تتهيأ لتدميره نهائياً ، يلتصق ذهن المقاتل وفكره وحواسه، وتظل متوثبة باتجاه الجانب الآخر من صورة الحدث ، وهو يشعر بصورة غريزية بأن الحقيقة هي عكس ما يدعيه البيان، أو ما تذيعه وسائل الاعلام ، لذا فإنه يظل منتظراً بصورة قدرية ما يتفق فيه مع نفسه بأنه اللحظة القاتلة ، التي سيصل فيها إليه اللهب الذي سيحرقه إذا لم يكن بالفعل قد احترق قبل إذاعة بيان القيادة العامة للقوات المسلحة ، يظل هو البائس منتظراً ما يمكن تسميته وعد الفاجعة ، حيث ينشد ذهنه باستمرار إلى حالة رهيبة من التجريد ، تمنعه عن التفات إلى ما حوله وتحدد ردود فعله ، التي غالباً ما تكون إذا أُتيح له الوقت لذلك ، هو كيف ينجو بنفسه ، وبهذا فإنه سيلقى في وضع من السلبية المذهلة ، هذه الحالة التي يصبح فيها هم الإنسان الأساسي هو البقاء على قيد الحياة ليس إلاّ ، أما التطبيل والتزمير ، أما القائد وأمجاده. . أما. . أما. . فكلها لن ترى لها وجوداً في ذهنه في تلك اللحظة، وفي وضع كوضع الجندي والمقاتل العراقي ، فليس أمامه في أغلب الأحيان فرصة أكثر من اختيار نسبة أقل من احتمالات الموت ، أي القتال، إذا لم يجد فرصة أكثر ملاءمة وهي الهرب من ساحة القتال ، إلاّ أنه لا يستطيع الهرب إلى الخلف، لأن موقفاً رهيباً يتنظره هناك، وفي الحالات التي لا يستطيع فيها الهرب أو الوقوع في الأسر. فإنه يفضل أن يظل في موضعه لأن ذلك يؤمن له احتمالات البقاء على قيد الحياة بصورة أكبر، لأنه في حالة تقهقهره إلى الخلف فإن فرق الاعدام سوف تتلقفه فوراً .

ـ عرفت الجريدة الروح المعنوية بأنها «العامل غير الملموس في العوامل الأخرى، والذي يشكل من بينها ركناً أساسياً في القدرة القتالية للمقاتل وبدونه، لا يمكن انجاز الواجبات القتالية، حتى لو توفرت أغلب الشروط المادية لانجاز تلك الواجبات» . كما أوردت بعض التعاريف الأخرى التي لا تختلف في جوهرها عن التعريف السابق ، أما العوامل التي تؤثر في الروح المعنوية، والتي يمكن أن نسميها العوامل التي تبني الروح المعنوية وتقديمها بصورة أساسية ، فهي حسب الجريدة ما يلي :

أ ـ القائد
ب ـ التدريب .
جـ ـ العقيدة .
د ـ التوجيه السياسي.
هـ ـ التسليح والتجهيز.
و ـ الضبط.

ز ــ الإيمان .
ح ــ الشؤون الإدارية .
ط ــ الاخلاء الطبي .
ي ــ العلاقات الإنسانية .
ك ــ الحرب النفسية .
ل ــ الاعداد الفكري والنفسي
م ــ الانتصارات .

سوف نبدأ في مناقشة كل عامل من هذه العوامل التي وردت أعلاه في جريدة حزب البعث الحاكم في العراق ، وسوف نلتزم جانب الحقائق ، والتي عن طريقها وحدها يجري تفنيد ما ورد من ادعاءات وتشويه وقلب للحقائق ، وسنرى بأن وسائل الإعلام الرسمية والحزبية ظلّت دوماً تلتزم خطاً واحداً لمسيرها ، ، هو الادعاء بعمل عكس ما تنفذه أجهزة السلطة كلها على مستوى الواقع العملي .

القـائـد

ـ أكدت الجريدة على أهمية وجود القائد الذي يتميز بمواصفات خاصة، واعتبرته من أهم العوامل التي تساعد على إدامة الروح المعنوية لدى المقاتلين ، وقـد أشارت إلى نوعين من القادة ، الأول القائد العـام للقوات المسلحـة ، والآخر القـائد الميـداني الذي يشرف على إدارة القتال وتنفيذ الخطط في الميدان ، وبالـطبع لم يفت الجـريدة أن تشيـر إلى أهميـة وجود صـدام حسين على رأس القيادة العسكـرية « وكـان للرفيق صدام حسين الدور الرائد في هذا المجال، حيث رأيناه مع القطعات الأمامية في المعارك الحاسمة التي خاضتها قطعاتنا، وقد جعل القطعـات تلتهب حماسـاً وتندفـع كالأعـاصير في تـدمير العـدو وتحقيق الأهداف المرسومة »[1]، وبالطبع فإن الجريدة لم تخالف العرف السـائد الآن في الاعـلام العراقي الـذي يجهد نفسـه بصورة متـواصلة، مملة، مقرفـة، من أجل أن يـظهر صدام بأنه الرجل الذي أرسلته السماء هدية لهذه الأمة ، وانه لو لم يكن موجوداً في هـذه المـرحلة لكان ذلـك يعني عدم وجـود العرب كلهم، إلى آخـره من النكبـات والآلام التي سوف تحل بهذه الأمة المسكينة، فيما لو لم يكن صدام حياً يرزق، وكأن ما لحق بالعراق لحد الآن من المآسي والأهوال ليست كافية ، وان عليه أن يظل يدفـع المزيـد من الدمـاء والأرواح لضمان راحة وبقاء القائد الضرورة «القاتلة»!، وإذا كان صدام بطلاً هكذا فكيف إذن يقـود القوات المسلحـة ، وما هي وسـائله لإدارة الحرب وفـرض الطاعـة داخل هـذه المؤسسة التي تعتبر من أكثـر المؤسسات أهميـة في الدولـة ؟ بل إن مصيـر الدولـة يعتمد عليها ويرتبط بها ارتباطاً وثيقاً .

ـ ممـا لا شك فيـه بأن صـدام رجل «شجـاع»، لكن شجاعتـه في حقيقة الأمـر

(١) الثورة العربية ـ جريدة حزب البعث الداخلية ـ العدد ٦ لسنة ١٩٨٥، ص ٢٢ .

شجاعة رجل عصابة ، وبما أنه معروف جيداً بين أوساط الشعب العراقي بصورة عامة، وأوساط الحزبيين بصورة خاصة ـ من مختلف الأحزاب ـ قبل انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ بأنه من أمهر رجال الشوارع، وأعتى رجل عصابة في العراق ، وان سجله لدى مراكز الشرطة في بغداد يشهد له بأنه السياسي الأول الذي يستخدم المسدس بمهارة خاصة ، قبضته التي يجيد الضرب بها على الرأس بخفة رائعة ، ويحتفظ مركز شرطة الحيدرخانة بمحضر التحقيق مع المدعو حسين هزبر الذي اشتكى على صدام، مدعياً بأنه ضربه على رأسه بقبضة مسدسه ، حيث نشب بينهما خلاف في مقهى الحيدرخانة، لأن الأول من تنظيم حزب البعث الموالي لسوريا ، والثاني من قيادة اليمين في حزب البعث . انتهى إلى أن يسحب صدام مسدسه ويضرب بقبضته على رأس رفيقه المنشق الذي سال دمه على وجهه ، حيث نصحه بعض أصدقائه بتسجيل شكوى ضده في مركز الشرطة . مثل هذه الحوادث كانت تتكرر باستمرار، وفي مناطق متعددة من بغداد ، وهل ينسى طلبة جامعة بغداد كيف كان يدخل صدام حرم الجامعة عام ١٩٦٨ أثناء الاضراب الطلابي الذي نفذه الشيوعيون بالتعاون مع الجناح السوري لحزب البعث ، وبيده مسدسه يهدد به الطلبة المضربين ، يسبهم ويلعنهم ويتوعدهم ، وكأنه شرطي أمن لدى سلطة عارف؟ ترى هل ينسى العراقيون ماضي هذا «القائد»، والذي يشكل بأكمله سلسلة من أعمال الأجرام والتهديد والابتزاز؟ بل هل ينسى البعثيون أنفسهم كيف كان صدام يمتطي إحدى الناقلات صبيحة ١٨ تشرين الثاني عام ١٩٦٣ وبيده الكلاشنكوف يساهم مع الانقلابيين في تدمير وقتل رفاقه في الحزب؟ وعلى أي حال، فإنه لا يمكن أن يكون أشجع من رئيس عصابة الكابوني أو إحدى عصابات المافيا ، التي تقتل كل من يقف في وجهها من أجل السيطرة على مرافق الربح غير المشروع الرئيسية ، كالمباغي ، وكازينوهات القمار، ومنظمات تهريب الحشيشة وبيوت الدعارة، وأخلاق رئيس العصابة هذا تعتمد على أقذر وأخس الأساليب وأحقرها، فهو يعتمد الغدر إحدى الوسائل المهمة في تصفية خصومه ، يقضي على أقرب المقربين إليه دون رحمة، حينما يشك به بأن لديه نوايا للعمل ضده ، يعتدي على اعراض الآخرين وشرفهم، سواء من أفراد عصابته، أو الآخرين الذين ائتمنوه عليه، شره في أكله وشربه ، ليس لغرائزه حدود من الاشباع ، شخص يعتمد كل الأساليب وأقذرها من أجل أن يظل حياً في وسط، تنشط فيه العصابات الأخرى وتتناحر وتتقاتل من أجل أن تبقى سيدة الساحة لوحدها، وهدف رئيس العصابة هدف محدود ، شخصي نفعي وآني ، وتفكيره لا ينتهي إلى الأهداف الكبرى الشريفة النبيلة ، لأن الأهداف الكبرى تحتاج إلى روح وعقل وطهارة القائد الحقيقي الذي يعتمد بدوره

الوسائل والأساليب النبيلة ، ويحرص على ذلك دوماً ، كي تتلاءم الوسائل مع الأهداف ، إننا لا نتجنى على «القائد العام للقوات المسلحة العراقية» إذا قلنا بأنه أكبر رئيس عصابة، لأن هذه المسألة يعيها ويعرفها الشعب العراقي حق المعرفة وببساطة متناهية، وليس أدل على ذلك بأن العراقيين يطلقون على صدام (غليص) و(بطيحان)[1] ، وهما رئيسا عصابة من الأعراب البدو، يتجلى فيهما كل مظاهر الخسة والنذالة والغدر وعناصر الجريمة ، حتى أن جهاز الأمن العراقي يعتقل كل شخص يتفوه باسم (غليص) أو(بطيحان)، أو يذكر اسمهما أمام الملأ العام، لأن ترابط صورة صدام كرئيس عصابة برئيسي العصابة المذكورين هو ترابط وثيق ، فمجرد ذكر اسم أحد رئيسي هاتين العصابتين، فإن صورة صدام ترد مرادفة لهما ببداهة وعضوية ، فهل يستطيع رئيس عصابة أن يقود شعباً وأمة في مسيرة شاقة مدمرة إلى أهداف نبيلة وعظيمة؟ هل يستطيع أن يتعامل مع الأحداث بشرف ونبل، ويحفظ كرامة وسمعة شعب وأمة من أن تلطخ بالعار بعد أن لطخها بالدماء؟. وهل يستطيع أن يقود جيشاً يمتلك أحدث الأسلحة وأكثرها تدميراً، وبملاك يتجاوز الأربعين فرقة عسكرية ، كأب عطوف رحيم متفانٍ، يدفعه إلى تحقيق أهدافه بشرف وبأساليب يقره عليها الناس الشرفاء في العالم؟، يحرص أن يتقدم الصفوف بتفانٍ عند ساعات الخطر، يدفع الجيش إلى الالتزام بالمثل والقيم العسكرية التي تتعارف عليها جيوش العالم ، فلا تتلطخ أيدي أبناء القوات المسلحة بدماء الناس الأبرياء العزل الذين لا ناقة لهم ولا جمل بالحرب، والذين يبعدون عن ساحاتها مئات الكيلومترات؟ بالطبع كلا، لأن رئيس العصابة لا يستطيع أن يتعامل بمثل هذه الأخلاق مطلقاً ، فليس ذلك من طبعه ، بل انه سيسعى لأن ينغمس كل ما يحيط به، وكل الجموع التي يقودها إلى مهاوي الجريمة والانحطاط، حتى تشكل نسيجاً منسجماً متناغماً، ولربما استطاع رئيس العصابة هذا، بما يملكه من الوسائل والمواصفات التي ذكرناها، أن يقود مصير شعب أو أمة عندما ينتقل بغفلة من التاريخ، من منصب رئيس عصابة إلى رئيس دولة ، ولكن ليس للمدى الذي يتيح للأمة أن تصل إلى شاطىء الأمن. أن يبني حضارة وقيماً وأخلاقاً سامية، كي تصبح قادرة بجدارة على التعامل مع غيرها من الأمم، على أسس من العدالة والمصالح المشتركة ، بل ان وجود مثل هذا الشخص على رأس الدولة يشكل كارثة حقيقية ، لأن أخلاق رئيس العصابة هذا سوف تنعكس على سلوك وتصرفات بقية كادر الدولة الذي سيصبح عصابة كبيرة، وستظل جماهير الشعب تشعر بأنها تساق قسراً صاغرة فاقدة لإرادتها، ليس لها رأي

---

(١) عرض التلفزيون العراقي مسلسلين هما (رأس غليص) و(بطيحان).

بما يبيت ويدبر لها علناً أو في الخفاء ، كل ذلك من أجل أن تنعم هذه العصابة الكبيرة ورئيسها بالراحة والطمأنينة ، وتظل تمسك بمواقعها بقوة غير عابئة بما يصيب البلد من نكبات ومآسٍ ، وهذا مما ينعكس بدوره على قوى الشعب وروحه المعنوية ، ويحدث فيها تدميراً هائلاً، وهذا ما سينعكس بدوره حتماً على جموع المقاتلين من القوات المسلحة ويترك آثاراً عميقة عليهم، على أن أحداً لا يستطيع أن يضع جهازاً لقياس آثار هذا الوضع على الروح المعنوية، وقد تبرز إلى السطح مظاهر تشير وتعطي دلالات تعزز اتجاهاً آخر من الحالة، ولكن نستطيع أن نتلمس الأمر بوضوح عندما تأزف أوقات الشدة والخطر، حيث لا يستطيع أحد أن يسيطر على جموع تعبر في سلوكها وتصرفها عن حالة الوضع الحقيقي الدفين الذي تعيشه في واقع أمرها، ولأن القيادة العسكرية يمسك بها التكارتة من الضباط وبعض المحسوبين عليهم ، ولأن شعوراً عاماً يسود أبناء القوات المسلحة بأن هؤلاء يتربعون على عرش القيادة والسلطة بالقوة،غير عابئين بمشاعر الشعب وكرامته، يتصرفون وكأنهم أسياد صفوة هذا المجتمع ، وغيرهم من الناس عبيد يجهدون ويكدحون من أجل أن تظل هذه الزمرة ، العصابة تنعم بهذا الخير الوفير الذي لم تكن تحلم به في يوم من الأيام.

لذا فإن إحساساً عميقاً بالغبن المشوب بالألم والانكسار، هو الشعور السائد بين جموع الشعب كله تقريباً ، وهو الحاكم الحقيقي والموجه لكل فعاليات الشعب والمقاتلين ، وعندما تحين الفرصة الملائمة ، يظهر ويعبر عن نفسه بعنف ، وعندما تصبح سلطة العصابة وإرهابها غير قادرة أن تطال إرادة الناس، عندها ينتقم هؤلاء الذين يرغمون على بذل أرواحهم ودمائهم من أجل أن ينعم رئيس العصابة بكل شيء مع عصابته، بالطريقة التي يراها ملائمة لذوقه المتخلف . لم يلحظ الشعب أن هذا الرئيس قد تصرف يوماً من الأيام بالطريقة التي تبعث الثقة في النفوس، من أن النتائج الأساسية والأهداف العامة هي حفظ وجود الشعب ومصلحته وكرامته . فأي نفع لهذا الشعب أن ينقل صدام حسين بطائرةٍ خاصةٍ السمك مع العدد اللازم من العمال من بغداد إلى باريس ، كي يُطهى على الطريقة البغدادية ، ويقدم لضيوفه الفرنسيين،وعلى رأسهم رئيس الوزراء جاك شيراك؟ ماذا سيترك هذا الأمر من أثر في نفوس الضيوف؟ ما هو هذا الرئيس، وكيف يعيش الشعب تحت ظله؟ وهل أن رئيس وزراء فرنسا يفعل نفس الشيء فيما لو قام بزيارة العراق؟ بالطبع كلا ، فإنه يحترم نفسه، وهناك شعب وبرلمان يحاسبه على أي تبذير لأموال الشعب ، إلاّ أنني أظن بأن القادة الغربيين قد تعودوا على مشاهدة القسم الأكبر من القادة العرب ، وهم يفعلون مثل هذا، خاصة الأغنياء منهم، إن صداماً يفعل ويتصرف بمصير

الشعب العراقي وأمواله كما يفعل الملوك والشاهات، وليته كان واحداً منهم لاختلف الأمر قليلاً، لأن هؤلاء لديهم مـا لا يمكن لصدام أن يمتلكـه اطلاقـاً، فهل يستـطيع شخص مثله، عاش حياة الرعاة في جـو صراع مستمـر مع قـطاع الطرق بين العـوجة وتكريت، أن يصبح ملكاً أو شاهاً؟، لذا فإن اشكال الانتقام التي تنفذها جماهيـر الشعب، والمقاتلين بصـورة خاصة، تتبـاين وتختلف حسب الظروف والحـالة السـائدة، فمن التسليم الجمـاعي للعدو بدون قتال أحياناً، إلى الهروب المستمر الواسع من الجبهة، إلى بث الإشاعـات والأخبار التي تثبط العزائم، كتضخيم حجم الخسائر التي تحدث لدى الوحـدات أثناء العمليـات، وقد نوهت القيادة العسكرية بهـذه الظـاهـرة، وطـالبت بالحـد منها والقضـاء عليها، وفي أحيان كثيرة كان الجنود وبعض ضباط الصف يلجأون إلى القيام ببعض الأعمال الانتقـامية الانتحارية ضد بعض المسؤولين، أو تعطيـل قسم من الأسلحة والمعـدات التي تستخدم في ساحة العمليات، بهدف التأثير على نتائج الحرب، وبنظرة فـاحصة إلى أعمـاق وجدان الشعب العراقي نجد بأن هذا الشعب يعيش فـي وادٍ، والقيـادة العسكريـة والسياسيـة التي فـرضت عليه فـرضاً، تعيش في وادٍ آخـر، شعب يعيش الألم والحسرة في وجـدانه على مصير أبنائه وشبابه وموارده التي يراها تهدر، من أجل أن تظل حفنة من المجرمين متسلطة عليه، حتى لو قدم آخر قـطرة دم وآخر دينـار من موارده، فكيف هي الـروح المعنويـة التي يقاتل بهـا الجندي العـراقي من أبناء هـذا الشعب، وما هي العـوامل الـواقعية التي تفعـل فعلهـا في هذا الـوضع المؤلم، هـذا ما سنحـاول إلقاء الأضـواء عليه في فقـرات البحث التالية، وسيـظل السؤال: كيف أدار القائـد هذه الحـرب مطروحاً، ينتظر الاجـابة وهـذا ما سنفعله.

كيف أدار القائد العام الحرب؟

ـ هناك أخطاء كبيرة ومتعددة، استراتيجية (سوقية) وتعبوية، وقع فيها القائد العام للقوات المسلحة العراقية، وهي أخطاء فادحة مميتة، يجب أن يتحمل المسؤولية الكـاملة مع بقية أعضاء عصابته، نتيجةً لها، ولو أن شخصاً آخـر غير صـدام حسين يتمتع بقليـل من الاحساس بالعزة والكرامة والحرص على شعبه لاستقال من منصبه قبل فترة ليست وجيزة، معترفاً علناً أمام شعبه بأنه يتحمل مسؤولية عمله الذي لم يوفق به، ويعلن أمامه بأنه يستقيل من كافة منـاصبه التي سـرقها عنـوة، ولكن رجلاً مثله لن يفعـل ذلك على الاطـلاق، أما الأخطاء ومظاهر الضعف في إدارته للحرب فهي :

أ ـ عدم تقدير قوة الخصم الحقيقية.

ب ـ عدم معرفة ذهنية القيادة الإيرانية.

جـ ـ الكذب .

د ـ التدخل الفظ في وضع وتنفيذها الخطط.

هـ ـ مقتل القائد العام .

و ـ الإرهـاب .

ز ـ شراء الذمم .

عدم تقدير قوة الخصم الحقيقية :

ـ يبدأ الخطأ القاتل الذي ارتكبته القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية ، متمثلةً في الواقع بالقائد العام للقوات المسلحة ، في عدم تقدير قوة الخصم تقديراً حقيقياً ، ليس لما يتيسر لديه الآن من إمكانات بشرية ومادية ومعنوية ، بل بما يمكن أن يهيئه ويعده في المستقبل ، ولقد كانت القيادة العراقية تجهل تماماً ، أو كانت متعمدة أن تتجاهل القوى التي يمكن أن تستحثها الحرب للتهيؤ والعمل ، والتي يمكن أن تظهر إلى حيّز الوجود بعد أن تبدأ ، بالإضافة إلى أن صدام حسين نفسه قد شن الحرب ضد الشعب الإيراني كله دون تمييز ، عندما أطلق على الإيرانيين كلمة مجوس ، وبذا وضع عوامل إضافية لحث قوى جديدة للانخراط في المجهود الحربي لخصمه ، وهي نفس الخطيئة الكبرى التي اقترفها هتلر ، عندما اعتبر أن جميع شعوب الاتحاد السوفيتي تستحق الموت بسبب تدني نقاء عنصرها ، ولقد كانت أجهزة الإعلام العراقية تجهد نفسها في سبيل الإيحاء للقوات المسلحة بأن إيران لا يمكن أن تفعل أكثر مما فعلته لحد الآن ـ عند بداية الحرب ـ وليس أدل على ذلك ما ذكره صدام في إحدى خطبه التي قال فيها بأن وزير النفط الإيراني ، الذي أسر بالقرب من عبادان ، أوائل الحرب بعد إصابته بجروح ، قد ذكر بأن تعداد القوات الإيرانية العاملة في ساحة الحرب الجنوبية لا يصل تعدادها في أي حال من الأحوال أكثر من (٢٠) ألف مقاتل ، حيث علّق على ذلك قائلاً بأننا نستطيع أن نحصل على هذا العدد أو يزيد عنه بأن نوقف عجلات الحمل في شارع الرشيد ، فتمتلىء خلال ساعتين بعشرين ألف مقاتل !! أي قائد يقول هذا الكلام ، وأي شعب وأمة وجيش يتحمل منه هذا البهتان ؟ . . وإذا كان هذا صحيحاً فكيف أصبح عدد الأسرى العراقيين حوالي السبعين ألفاً ؟ ، وإذا كان ذلك صحيحاً ، فهل يستطيع صدام أن يجيبنا كم كلف القوات المسلحة العراقية من الخسائر عند احتلال خرمشهر ؟ ، بل لماذا لم يتم احتلال مدينة عبادان التي كانت تواجه عدة مرات محاولات القوات العراقية لاحتلالها ، ولكن دون جدوى ، حتى صرف النظر عن خطة احتلال المدينة نهائياً ، على الرغم من أن القوات العراقية كانت في كل مرة تهجم فيها على المدينة بقطعات لا يقل حجمها عن فرقتين من

الألوية المدرعة والمشاة والقوات الخاصة؟ هل من المعقول أن القيادة العسكرية العراقية ليست لديها معلومات تفيد بأن الشعب الإيراني الذي انتصر لتوه بأيد خالية من السلاح على نظام لا يعرف الرحمة والشفقة ، هذا الشعب لا يستطيع أن يجند أكثر من (٢٠) ألف مقاتل، بينما يبلغ تعداده (٤٥) مليون إنسان؟ إذا كان هذا صحيحاً فكيف يتهم صدام إيران بأنها هي التي بدأت الحرب، وانها تنوي احتلال أجزاء من العراق، أو ربما العراق كله وتتدخل في شؤونه؟، ما هي الوسائل التي أعدتها إيران لتنفيذ أهدافها تلك؟ هل يستطيع صدام أن يجيب على تساؤلات أبناء القوات المسلحة الذين شاهدوا بأم أعينهم كيف أن الإيرانيين كانوا لا يعلمون بأن القوات العراقية كانت تتحشد على حدودهم لشن هجوم واسع على بلادهم ، ولم يكونوا في أي وضع من أوضاع الدفاع ، بل انهم بدأوا يدافعون عن أراضيهم في اللحظة التي بدأت فيها القوات العراقية بالهجوم الواسع عليها؟ وهل أن العالم كله لا يعلم من الذي بدأ الحرب؟ . . وان القدرات العسكرية الإيرانية قد تنامت بصورة مطردة خلال سني الحرب، وان الحرب هي التي خلقت في إيران قوة عسكرية جديدة، وتنظيماً عسكرياً جديداً، تطور من حيث مستوى كفاءة القيادة والتسليح بصورة مستمرة خلال سنوات الحرب وليس قبلها؟ .

عدم معرفة ذهنية القيادة الإيرانية :

ـ إن الحرب هي صراع الإرادات ، وفي الواقع فإنها صراع ارادتي خصمين، كل واحد منهما يحاول أن يجبر خصمه على الرضوخ لإرادته ، فالهدف الأساسي لأي حرب هي كسر إرادة الصمود لدى العدو، وبالدرجة الأولى قيادته، وإجباره على القبول بالشروط التي أعلنت قبل بدء الحرب أو خلالها لإيقافها ، إذا لم يكن بالإمكان دفعه إلى الاستسلام الكامل غير المشروط بصورة تامة ، أي تجريده من قواه المعنوية والمادية حيث يصبح بعدها مضطراً للاعتراف لخصمه بكل ما يريده . فهل كانت القيادة العسكرية العراقية، وعلى رأسها صدام حسين، على يقين بأن الحرب سوف تجبر القيادة الإيرانية على القبول ، إذا لم يكن تحقيق الاستسلام، للشروط التي أعلنها صدام لإيقاف الحرب؟ وهل كان القائد العام الذي اتخذ قرار الحرب لوحده متأكداً بأن القيادة الإيرانية سوف تعلن استسلامها ورضوخها، بعد أن تصاب بانتكاسات كبيرة على جبهات الحرب، كأن يتم احتلال مساحات معينة من أراضي إيران، يكون تأثيرها الاقتصادي شديداً على الدولة الناشئة ـ وهو ما لم يمكن تحقيقه؟ أو أن الخسائر الكبيرة في الأرواح أو الممتلكات التي سيسببها الاجتياح العراقي لعدد من المدن والقصبات، ستجبر القيادة الإيرانية على الجلوس

معه على مائدة المفاوضات، وتعترف له بكل ما يدعيه من حقوق وديون على إيران؟، لقد كان رد القيادة الإيرانية واضحاً وصريحاً ومختصراً في آن واحد، فعبارة (الخير في ما وقع) التي جاءت على لسان القيادة الإيرانية، والتي سخر منها صدام - في لحظة زهو ونشوة - متهماً إيّاها بجهل الموقف العسكري والسياسي، هذه العبارة نفسها أوجزت موقف القيادة الإيرانية الذي ظلّت متمسكة به. وهو خير دليل على صلابتها واستعدادها التام لتحمل كل ما ستفرزه الحرب، وما ينجم عنها من خسائر وأضرار خلال المراحل اللاحقة، وما إن مرت الأيام والشهور حتى بدأت الحرب تأخذ منحى جديداً، وبدأ كل شيء يشير إلى احتمال وقوع تغير كبير في مجرى الحرب، وباتجاهات لم تكن في حسبان من خطط لها وأشعلها، وبدا الجيش العراقي منهكاً متهالكاً، متهاوياً، يتراجع في كل مكان وموقع وقاطع، حاملاً معه جراحاته الدامية، خسائره الكبيرة في الأسلحة والمعدات والأفراد، حدث ذلك بسرعة كبيرة أذهلت كل المراقبين العسكريين في العالم، ولقد بدا واضحاً بأن القيادة العراقية قد خسرت الرهان، وانها تعيش فعلاً في ورطة لا ترى لها مخرجاً على الاطلاق، حيث ظلّت القيادة الإيرانية تصر وباستمرار على مطالبها هي من أجل إنهاء الحرب، إذن لم يستطع صدام أن يركّع القيادة الإيرانية ويجبرها على التفاوض معه ليس من أجل المطالب، في الأرض والمياه التي أعلنها في خطابه الأول بعد الحرب، والذي سمي بخطاب النصر؟!، بل لم يستطع أن يحصل على هدف ثانوي من أهداف الحرب، وهو إيقاف مؤقت لإطلاق النار على الجبهة لمدة شهر واحد، وهو شهر رمضان، وبذا يكون قد قدّم بنفسه برهاناً ساطعاً لقصر نظره في أمور تحتاج إلى بعد نظر، كان يجب أن يتمتع به قائد دولة، يمتلك من الإمكانات والقدرات ما لا تمتلكه كثير من الدول المجاورة للعراق، وكان أن تصرف بمصير شعب ووطن كتصرف طفل لا يدرك كيف يحافظ على لعبة ثمينة - قدمت له هدية، في مناسبة خاصة -، لقد ظلّت المطالب العراقية لانهاء الحرب تتضاءل يوماً بعد آخر، على الرغم من الدعم اللامحدود الذي يلقاه من معظم الأوساط الدولية والإقليمية، بينما ظلّت مطالب القيادة الإيرانية نفسها منذ اليوم الأول للحرب وحتى الآن، على الرغم من الضغوط التي تمارس ضدها من أوساط مختلفة داخلية منها وخارجية من أجل إيقاف الحرب، والتفاوض لحل المشاكل المعلقة بين إيران والعراق، وهنا يطرح السؤال الاستراتيجي الهام، وهو إذا كانت الحرب غير مجدية، وانها لا يمكن أن تحقق الهدف المنشود فلماذا نشبت؟!، ولماذا شنت القيادة العراقية الحرب؟ ومن المسؤول عن الانتكاسات والخسائر والمآسي التي يتعرض لها الشعب العراقي وقواته المسلحة؟. وإذا كانت الحرب غير مجدية فهل أن الوسائل قد استنفذت كلها قبل الحرب، ولم يبقَ بيد

القيادة العراقية من الوسائل والإمكانات المتاحة؟ كـلًا ، فلقد كـان بيد الحكـومة العـراقية وسـائل ضغط عـديدة لم تمـارسهـا اطـلاقـاً ، وخيـر دليـل على ذلـك هـو أن العـلاقـات الدبلوماسية لم تكن مقطوعـة بين البلدين قبل الحـرب، بل انهـا ظلّت ـ رسمياً ـ مـوجودة إلى فترة تزيد على السبع سنوات خلال فترة الحرب ، وهي من الوسائل الأساسية للضغط التي تسبق مرحلة إعلان الحرب ، ولم يكن معروفاً لحد الآن ـ إلّا نادراً جداً ـ بـأن تنشب الحـرب بين بلدين ،قبل أن يتم قـطع العلاقـات الدبلومـاسية بينهمـا . لقـد سعت القيـادة العراقية عن عمد إلى تعقيد الموقف والقفز بصورة مذهلة إلى مـرحلة إعلان الحـرب دون الاستفادة من الوسائل الأخرى المتاحة، ألم يكن ممكناً أن تقوم بعض الدول العـربية التي لها روابط حسنة مـع إيران بتصفيـة الأجواء بين البلدين، قبل أن تصبح سيئـة إلى درجة لا ينفع معها إجراء أي تحرك إقليمي ودولي لتحسين الأجواء وحل المشـاكل بصـورة سلمية؟ لقد اعتقد صدام مخطئاً بأن إيران تشرف على الانهيار، أو أنها بـالفعل منهارة، فأعلن إلغـاء معـاهدة الجـزائر لعـام ١٩٧٥، ثم أصدر أوامـره للقوات المسلحـة يوم ٢٢ أيلول ١٩٨٠ بالتقدم داخل الأراضي الإيرانية واحتلال الأهداف التي سبق أن وضعتها القيادة العراقيـة ، وقد سبق هذا التاريخ القيام باحتلال المخافر الحدوديـة الإيرانيـة المنتشرة على طـول خط الحدود بين البلدين ، من فوراتو ، شمال خانقين ، وحتى خرمشهر في أقصى الجنوب .

وسائل السياسة :

ـ وبدلاً من أن تكون الحرب آخر وسيلة من وسائل السياسة، فإنها كانت أولها ، وكانت القيادة العـراقية تقـوم بتصعيد المـوقف الحربي وبـاستمرار وبشـدة على الحدود ، بالاتجاه الذي يخدم تصـوراتها لخلق ظـروف ملائمـة لشن حرب شـاملة كانت تتعجلهـا، فتعليمات رئاسة أركان الجيش العراقية، فيما يتعلق بالـرد على الرمي عبـر الحدود الإيرانية، كانت صريحة وواضحة، «إذا رمىٰ العدو الفارسي طلقة واحدة فارموه بمئـة » مظهـرة كرمـاً وسخـاءً عظيمين ، كـأن الأمر يتعلق بـأيهما الأكثـر شطارة ، العـراق أم إيـران ، هـذا في الوقت الذي لم يكن لهذا الأمر أي ضرورة، حيث كان يفترض أن يسود التعقـل والتصرف باعتبارهما السبيل لحل المشاكـل بين دولتين جارتين تـربطهمـا علاقـات تاريخيـة قديمـة راسخة . ان القيادة العراقية قـد نصبت فخاً أوقعت نفسها فيه، ولم تعـد قادرة أن تتخلص منه بعد أن تمّ إحكـام حلقاتـه بشدة عليهـا ، ولم تعد تنفـع صيحات الاستغـاثة إلّا قليـلاً جداً . أما إذا كان بقاء صدام حياً إلى الآن يعني أن العراق بخير ، فتلك مسـألة أخـرى، يقف أخلص أصـدقاء صـدام حائـراً أمامهـا على أقل تقدير،عنـدما ينـاقش هذا الأمـر مع نفسه ، لا يوجد أحد في العالم من السياسيين من لا يفهم بـأن القيادة الإيـرانية لهـا طراز

خاص من التفكير غير متعارف عليه ، وان اصرارها على الاستمرار بنهجها الذي تعلنه أمراً ليس قابلاً للمناقشة أصلاً ، ولقد جربها العالم قبل انتصار الثورة وبعدها، ألم يكن هدفها هو إسقاط الحكم الملكي والإصرار على ذلك، حيث ظلّت ملتزمة به دون أن تتنازل عنه في أحلك الظروف والمراحل التي مرت بها حركة الثورة نفسها؟ ألم يكن هذا الدرس كافياً وواضحاً للقيادة العراقية كي تتعرف على طبيعة الذهنية والتفكير الذي تسير عليه القيادة الإيرانية ، حتى تتأكد بأن ليست هناك أية فائدة من شن الحرب، لأنه لا يمكن أن يحقق أي هدف من شنها؟، وفي مثل هذه الحال فإن الحرب كان يجب أن لا تقوم مطلقاً، بل انه ربما كانت هناك وسائل أخرى أكثر فاعلية من الحرب تكفي لإحلال التفاهم وحل المشاكل ذات الطابع الحدودي بين البلدين، والتي ورثها النظام الجديد من حكومة الشاه، ولكن من المسؤول عن كل ذلك؟ أليس هو القائد العام للقوات المسلحة العراقية الذي أصدر أوامره بشن الحرب ضد إيران لإجبارها على الرضوخ لشروطه التي أعلنها على الدنيا كلها ، دون أن ينتخب أهدافاً استراتيجية مباشرة أو غير مباشرة لتحقيق ذلك؟ ولكن من نلوم على هذا الأمر؟ هل نوجه لومنا إلى رئيس عصابة يعتبر الحرب اختبار قوة عضلات ـ وليست إرادة ـ عندما دعا في إحدى خطبه الإمام الخميني أن « يلاويه » ـ وهذه كلمة شعبية عراقية تعني وضع كف شخص بكف الشخص الآخر ورسغهما على الأرض لاختبار قوة كل منهما، عندما يقومان بالضغط كلٌ على الجهة المعاكسة ـ حيث تنتهي الحرب بفوز أحد المتبارين على الآخر ؟ هكذا يفكر القائد العام للقوات المسلحة، حتى في الحالات التي تنشب المعارك حيث تدار العمليات بنفس العقلية المتخلفة التي اعتادها، وأصبحت نسيجاً يمتزج في روحه ودمه ، ولقد وجد مخططو الاستراتيجية الكبرى في العالم في هذا الإنسان ضالتهم ، فدخل منفذاً أهداف ومخططات تلك الاستراتيجيات دون أن تكون له استراتيجية خاصة به .

الكذب :

ـ الكذب من الصفات الرئيسية التي تتصف بها القيادة العسكرية العراقية. وجماهير المقاتلين ، أبناء القوات المسلحة ، هم أكثر من يعي ويفهم هذه الحقيقة . إن البيانات العسكرية الصادرة عن القيادة العامة للقوات المسلحة التي تتحدث عن سير القتال في الجبهات ، تشكل أمثلة «بارزة» لكذب هذه القيادة واستهانتها بمشاعر الجنود والمقاتلين ، ففي الوقت الذي يشاهد الجنود بأُم أعينهم حجم الخسائر التي تحدث بين صفوفهم، أو في الأسلحة والمعدات العسكرية التي يديرونها، تأتي البيانات اليومية لتتحدث عن خسائر تدعو إلى الضحك والسخرية ، ففي أحد الأيام أورد البيان العراقي

خسائر القوات العراقية بقتيل واحد ، وهكذا أصبح ذكر هذه البيانات من المواضيع التي يتندر بها الجنود والضباط العراقيون ، فقد أخذ الجنود يوردون أرقاماً تدل على مدى انعدام الثقة بين القيادة وجماهير المقاتلين ، كأن يقولوا مثلاً : خسائرنا على كافة الجبهات «نصف شهيد»، حال سماعهم بالبيان العسكري الذي يقرأ عادة عدة مرات من إذاعة بغداد وصوت الجماهير، كدليل على وعي الجنود والمقاتلين لحالة الكذب التي تنتهجها القيادة العامة في تعاملها مع الوقائع التي تتعلق بمسير العمليات ونتائجها ، مما يعزز لديهم الاعتقاد السائد بينهم بأن القيادة العامة مستمرة في الكذب على الشعب وعليهم ، مستخفة بمصائرهم وحياتهم . إن القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية لا تعمد للكذب في مواقف خاصة، يؤدي فيها هذا الأسلوب إلى إيهام الناس وابعادهم عن الحقيقة ، لكنها تعمد إلى هذه الوسيلة حتى في المواقف التي لا يمكن لأحد أن يكذب فيها ،عندما تصبح الأمور واضحة كوضوح الشمس في رابعة النهار ، بل إن من السمات الأساسية للقيادة العسكرية عندما تمر بمواقف حرجة ، حيث تكون الأمور قد فلتت تماماً من يدها، هو الكذب الذي تصر عليه على الرغم من كونه لم يعد نافعاً أن تستمر فيه ، لكنها تتمسك به وتواصله بهدف أن تبلع ما يجري على الجبهة بسرعة، مسدلة على الوقائع الصارخة ستاراً من النسيان وعدم الاهتمام . ففي معارك الطاهري مثلاً، وعندما استطاعت القوات الإيرانية أن تعبر الكارون عام ١٩٨٢ ، كانت البيانات العراقية، ولعدة أيام تتحدث عن (جيب مهلك) أوقعت القوات الإيرانية نفسها فيه، وانها تنتظر التدمير والفناء إذا لم تسلم نفسها بأقرب وقت ممكن، بينما كان المقاتلون العراقيون يرون بأم أعينهم كيف أن القوات الإيرانية استطاعت أن تنجز عبورها بنجاح، بعد أن استطاعت أن تقيم رؤوس جسور عديدة على نهر الكارون وبدأت بتوسيعها ، ثم شرعت بتضييق الخناق على القوات العراقية التي كانت تستقر في خرمشهر وتدافع عنها . وعندما تطورت العمليات وتم تحرير خرمشهر ، ظلّت القيادة العراقية تتحدث عن استبسال القوات العراقية وبطولاتها التي تسطرها كل يوم، في الوقت الذي كان فيه التلفزيون الإيراني يعرض للمشاهدين في كل أنحاء العالم صوراً لآلاف من الجنود العراقيين وهم يقعون أسرى وقتلى . حتى أن محطات الإذاعة الأجنبية المعروفة بمساندتها الإعلامية للعراق اضطرت أن تعترف بسقوط خرمشهر بأيدي القوات الإيرانية ، وفي الفاو حيث كانت القوات الإيرانية تمسك بأهدافها بقوة بعد أن عبرت شط العرب بكفاءة عالية، واستقرت في مواضع جديدة على الجانب الغربي منه، استطاعت أن تصد كافة الهجمات المقابلة التي كانت القوات العراقية تزج فيها قسراً تحت طائلة الاعدام في معارك خاسرة، ترى نتائجها أمام أعينها ، كانت تصريحات لطيف نصيف جاسم وزير الإعلام العراقي تؤكد بأن الإيرانيين

لم يدخلوا مدينة الفاو. بعدها لجأت القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية ، بعد أن افتضح أمر ما يجري في الفاو ، إلى إطلاق تصريحات على لسان قادة بعض الفيالق تؤكد على أن تحرير مدينة الفاو سيتم في موعد لا يتجاوز الثلاثة أيام، وان الاستعدادات اللازمة لانجاز ذلك قد اتخذت، حيث تم تهيئة الوحدات وما يلزم من الاسناد لتنفيذ عمليات التحرير . ولقد تم تشكيل ثلاثة أرتال، كل رتل يتقدم من اتجاه بقيادة ثلاثة من الضباط المعروفين ، وهم الفريق الركن طالع الدوري ، واللواء الركن ماهر عبدالرشيد ، واللواء الركن سعدي طعمة الجبوري ، بعد أن تم إقصاء قائد الفيلق السابع اللواء الركن شوكت أحمد عطا الذي حدث الاختراق في قاطع فيلقه، حيث لم يسمع عنه شيء بعدها ، ولم تتمكن تلك الأرتال المدرعة والآلية المدعومة بقوة نيران هائلة من المدفعية والطائرات من أن تعيد الفاو، ولم تحقق شيئاً يذكر ، على الرغم من أن وسائل الإعلام العراقية كانت تصم الآذان عويلاً وصراخاً جاهدة أن تصور الأمور وكأن الإيرانيين أصبحوا في كماشة هذه الأرتال التي تتقدم كالبرق لتطبق عليهم ، ولكن مرت الأيام ولم يحدث ما تحدث عنه وزير الإعلام أو غيره من جوقة الكذابين ، ولم يستح أحد منهم جميعاً ، فما كان من القيادة العراقية إلاّ أن ابتلعت كذبتها مقدمة تبريراً غريباً للوضع المزري الذي وصلت إليه العمليات، بأن المنطقة لا تساعد على عمل الدروع والمشاة الآلي . أي تجنٍ هذا على القيم العسكرية ومفاهيمها البسيطة؟ أي قائد هذا الذي يقود تلك القوات، وكيف قدّر الموقف ووضع الخطط على ضوئه؟ وكيف قدّر بأن ثلاثة أيام تكفي لإخراج الإيرانيين من الفاو؟ ، بل كيف عاد وبالتدريج ، وبأساليب رخيصة إلى لفلفة كذبته السمجة تلك؟، وكيف يتصور المراقب المحايد الوضع النفسي الذي تتركه تلك الأكاذيب على القوات المنهكة المرهقة؟ وما هي الأسس التي يمكن أن تبنى عليها الثقة بين مثل هذه القيادة التي اعتادت ان تقدم الكذب غذاءً يومياً ، وبين جموع المقاتلين الذين يرون بأن قيادتهم تكذب عليهم باستمرار؟ ولن تغادر ذاكرة المقاتلين وجماهير الشعب العراقي تلك المفاهيم العسكرية التي ابتدعتها القيادة العسكرية والمعاني الحقيقية التي تستهدفها ، ان مفهوم الانسحاب التكتيكي ،والقول المأثور لصدام «التقدم إلى الخلف كما هو للأمام»، إنْ هي إلاّ مصطلحات تطلقها القيادة العامة للقوات المسلحة بعد أن تنكشف فضيحة اندحار القوات العراقية في إحدى الجبهات، وعندما يصبح ليس من المفيد التحدث عن الصمود والانتصارات التي تسطر على جبهة لم تعد موجودة أصلاً ، فمثل هذه المصطلحات والتعابير التي يطلقها القائد العبقري وزبانيته لم يعد لها معنى سوى الفشل والاندحار ، فبعد عمليات الشوش وتدمير قوات الفيلق الرابع المؤلف في حينها من الفرقة الآلية الأولى، والعاشرة المدرعة، إضافة إلى الفرقة المدرعة الثالثة الموضوعة بإمرته،

ووحدات وألوية مدرعة ومشاة مستقلة كثيرة أخرى ، وبعـد أن أصبحت القيادة لا تعلم ما يحدث على الجبهة،ولم تعد تسيطر على شيء ، أصدرت القيادة العـامة العـراقية للقـوات المسلحة أوامرها بالانسحاب في اليوم الثالث للعمليات التي بدأت بتاريخ ١٩٨٢/٢/٦، والذي لم تستلمه الوحدات أصلاً، لأن أغلبها كان قد وقع في الأسر أو أبيـد ، وقد ادعت القيادة في حينها بأن انسحاب القـوات من هذا القـاطع كـان انسحابـاً تكتيكياً . ولكن أي تكتيك كان هذا، وما هي الأهـداف التعبويـة التي تلت هذا الانسحـاب؟ هل تم استعـادة الموضع الدفاعي مرة أخرى بتنظيم هجوم مقابل؟ وهـل تم تدميـر القوات المهـاجمة؟ لم يحـدث شيء من هذا القبيـل على الاطلاق ، بـل إن القيادة نفسهـا كـانت في حـالـة من الانهيار شبه التام،حيث كانت العمليـات تمر في أسـوأ وضع لهـا منذ أن بـدأت الحرب، فالكل ينسحب في حالة فوضى وارتباك شديدين ، بعد أن فقدت السيطرة على الوحـدات بصورة كاملة، حتى أن الدبابات وناقلات الجنود المـدرعة كـانت تصطدم مـع بعضها، أو كانت تدوس وهي في طريقها على المشاة الهاربين المذهولين الـذين يتجهون إلى الخلف بصـورة تبعث على الشفقة . لقـد كانت الحـالة على الـطريق الوحيـد التي كانت تسلكـه الوحدات التي استطاعت التملص من جنانه إلى مخفر الفكه لا يمكن أن توصف . فالكل كـان يريـد أن يجتاز منطقة دوسلك جنـوب قريـة جنانه وعند هضبـة الرادار، حيث كـانت القوات الإيرانية تحكم الطوق فيها ، وكان كـل ما تهـدف إليه القيـادة العامـة العراقيـة في حينها هو أن يتم تخليص أكبر قدر ممكن من القوات وسحبها من المـوضع الـدفاعي قبـل أن تدمر أو تقع بالأسر، ولم تكن لدى القيـادة في حينها أيـة اعتبارات تكتيكيـة كما كـانت تدعي على الاطلاق .

ــ إن عشرات من المواقف العسكرية المحرجة تمر عليها القيادة العامـة للقوات المسلحة العراقية ، بكذبة مفضوحـة تمامـاً مروراً سـريعاً ، أمـا المقاتلون ، امـا جماهيـر الشعب ، فهي وحدها التي تعرف ما الـذي يحدث بـالفعل ، ولا يستـطيع بيـان عسكري مدبلج، يشتمل على تعابير طنانة رنانة تستخرج من الكراسات التعبوية البريطانية المتـرجمة في كلية الأركان العراقية، أن يـزيل من أذهـان المقاتلين مـا يحدث فعـلاً أمام أعينهم في جبهات القتال. فأية هوة تلك التي يخلقها الكـذب بين هذه القيـادة وجموع المقـاتلين؟، وأي نـوع من أنواع الثقـة يتبادلهـا هؤلاء مع هؤلاء؟ وهـل يستطيـع أن يديـر القائـد العـام للقوات المسلحة الحرب بهذه الأساليب إلى ما لا نهاية له؟، نعم يستطيـع أن يفعل ذلك، ولكن من خـلال الفشـل المستمـر، ففي الـوقت الـذي يثبت فيـه عجز القيـادة عن إدارة الحركات في معارك كبيرة وحاسمة ، أصبح راسخاً في ذهن كل من له صلة بالحرب، بأن

من أسباب فشل الحركات التي تديرها القيادة العراقية هو وجود صدام حسين على رأسها ، على الرغم من كل ذلك، فإن اللواء الركن عبدالرحيم طه الأحمد ، أحد الضباط التكارتة الفاشلين ، مدير التطوير القتالي حالياً، يؤلف كتاباً حول عبقرية صدام القيادية، محاولاً أن يظهره بأنه يمتلك من سمات قيادية مبكرة منذ نشأته[1]، معتمداً في ذلك على حديث صحفي أجرته جريدة الجمهورية البغدادية مع والدة صدام ـ صبحة طلفاح ـ حول حياة صدام ونضالاته ، ولقد ورد في هذا الكتيب البائس معلومات تفيد بأن صدام كان عندما يذهب إلى المدرسة من قريته العوجة إلى تكريت ، ويلاقيه اللصوص الذين كانوا ينتشرون في المنطقة لقطع الطرق على الناس ، كان يتصرف معهم ، وهو لا يزال طفلاً غضاً ، وكأنه رجل كامل النضوج ، وقائد فذ ، يحذرهم أولاً بأن خاله يسير خلفه على مسافة قريبة ، وهو يحمل سلاحاً ، ثم يسهب الكاتب بتحليل واستنباط معاني لتصرف صدام هذا، منها : انه كان يسبق النظر ويأخذ موقف الهجوم بدلاً من الدفاع ، يهدد العدو بوجود قوة احتياطية تسير خلفه، وهي مسلحة وسريعة الحركة على وشك أن تدخل ساحة المعركة. . إلى آخره من الصفات التي يجهد هذا الضابط نفسه الذي لم يصل إلى هذه الرتبة إلاّ بهذا التملق الرخيص الدنيء ، يجهد نفسه كي يجد لصدام من خلال نضاله المبكر في أرض ـ قطاع العراق ـ صفات فريدة، وهكذا يظهر صدام، الذي يعيش في تلك البيئة من قطاع الطرق واللصوص قائداً فذاً منذ كان عمره ١٠ سنوات ، إذن فهذه هي الأكاديمية التي درس فيها صدام الاستراتيجية العسكرية والدولية، فلا بأس أن يصبح قائداً عاماً للقوات المسلحة العراقية ، حتى يتصرف معها ويقودها كما كان يتصرف مع اللصوص وقطاع الطرق، ولكن لا ندري لماذا كان هؤلاء يقطعون الطريق أمام صبي عمره ١٠ سنوات، لا يملك من متاع الدنيا سوى دفاتر المدرسة وكتبها، وباستمرار؟ سؤال نطلب أن يجيب عليه عبدالرحيم طه الأحمد، لو كان لديه ذرة من الشجاعة، وهذا الكتاب بالطبع يجري توزيعه على أبناء القوات المسلحة، كي يطلعوا فيه على ماضي قائدهم العظيم هذا، الذي تمرس على القيادة منذ نعومة أظفاره ، والذي يجب عليهم أن يموتوا من أجله كل يوم، وتسفك الدماء دونه بغير حساب، من أجل أن يظل البطل والقائد وكل شيء إلاّ . . . الحقيقة! . . . .

التدخل في وضع وتنفيذها الخطط :

ـ كون القائد العام للقوات المسلحة العراقية لم يخدم في القوات المسلحة

(١) اللواء الركن عبدالرحيم طه الأحمد ، السمات العسكرية المبكرة للرئيس القائد صدام حسين .

العراقية يوماً واحداً ، حيث حصل على رتبة فريق أول من سلفه أحمد حسن البكر، أضافت إليها كلية الأركان شارة ركن حمراء، بعد أن قامت بمنحه شهادة تخرج فخرية منها ، وبذا أصبح الهارب من الخدمة العسكرية فريق أول ركن، وهي أعلى رتبة في الجيش بعد سلفه ، القائد العام للقوات المسلحة المهيب أحمد حسن البكر ، الذي ظلَّ ، ضابطاً إدارياً[1] ، دون أن يمنح نفسه شارة ركن ، تقديراً منه لأهمية الجهد الذي يجب أن يبذله الضابط من أجل الحصول على شارة ضابط الركن في الجيش العراقي ، ولكونه ضابطاً قديماً في الجيش، ويدرك أهمية التقيد بالأعراف والتقاليد العسكرية . فإنه شخصياً لم يخالف ذلك كثيراً ، سوى بمنحه رتبة لصدام حسين كان لا يستحقها أبداً ، وبعد اقصاء البكر، واستلام صدام حسين لمنصب القيادة العامة للقوات المسلحة، فقد قام بمنح نفسه بمرسوم جمهوري وقعه بيده، رتبة مهيب ركن، وهي أعلى رتبة معروفة في كل جيوش العالم، وعلى ضوء هذا الوضع المحزن الذي يراه قادة الجيش وضباطه ومراتبه ، فإن وضع صدام كقائد عام للقوات المسلحة أساساً ، تكتنفه كثير من الشكوك، وتثار حوله العديد من علامات الاستفهام ، حول قدرته ولياقته لهذا المنصب ، سواء على المستوى الذهني ، قابليته الفكرية ، خلقه وأسلوب تعامله ، وضعه القانوني ، ماضيه السياسي ، علاقته بالقوات المسلحة ، وبالتأكيد فإن كثيراً من الضباط كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم ، بأن القائد العام للقوات المسلحة ، يمارس قيادته للقوات المسلحة ويحتل منصبه هذا دون حق، وانه ليس كفوءاً لأن يقود هذا الحجم من القوات المسلحة المجهزة بأحدث الأسلحة والمعدات ، والذي يحمل كل هذه الرتب والنياشين التي لا يعرفها أصلاً ، حيث صرح مرة بأنه لا يفرق بين نوط حرب فلسطين ـ عام ١٩٤٨ ـ ونوط حركات الشمال، والتي حصل عليها دون جهد يذكر .

لقد أصبح أبناء القوات المسلحة أمام وضع مفروض عليهم فرضاً ، وعليهم أن يقبلوه ، ولقد كان من أهم إفرازات ما يسمى بمؤآمرة محمد عايش عام ١٩٧٩ ، بعد تولي صدام الحكم مباشرة ، اعدام عدد كبير من الضباط، أمثال وليد محمود سيرت قائد الفيلق الأول، وسليم شاكر الامامي، وحامد الدليمي ، لأنهم كانوا يحسون بأن استيلاء صدام على أعلى منصب في الدولة لم يكن يحمل معه إلاّ إصراره على احتقار كل القيم العسكرية وقوانينها ، كما واجه الكثير من الضباط الآخرين من المواقف التي أدت إلى

---

(١) كل ضابط في الجيش العراقي لا يحمل شارة ركن ، وهي قطعة قماش حمراء توضع على كتافية القميص مع الرتبة ، يسمى ضابطاً إدارياً ، وهي لا تعني بأنه يعمل في مجال الشؤون الإدارية للقوات المسلحة ، بل تعني أنه ليس خريج كلية الأركان .

إحالتهم على التقاعد برتب أدنى ، أو إيداعهم السجن، أو اختفائهم كلياً عن مسرح القيادة في القوات المسلحة العراقية .

ففي عام ١٩٨١ ، عندما زار صدام حسين مقر الفرقة المدرعة السادسة في الجزء الجنوبي من الجبهة، والتي كان يقودها في حينها العميد الركن عبدالجليل محسن ، قام صدام بشرح خطط العمليات المقبلة والترتيبات التي يجب أن تتخذها الفرقة المدرعة السادسة لمواجهة الهجوم الإيراني المقبل ، وعندما جلب قائد الفرقة انتباه القائد العام للقوات المسلحة بأن ما تفضل به الآن لا يطابق ما كان متفقاً عليه في الخطط المحفوظة في مقر الفرقة والصادرة من القيادة العامة للقوات المسلحة ، فما كان من القائد العام إلاّ أن أمر حمايته المتأهبة المحيطة به ، والتي ترافقه دوماً بقوة لا تقل عن فوج قوات خاصة ، أمرهم باعتقال قائد الفرقة وجلبه مخفوراً إلى بغداد ، حيث أودع سجن رقم واحد العسكري الكائن في معسكر الرشيد ، وجرّد من رتبته ومنصبه ، هكذا وبكل بساطة دون اهتمام بمشاعر الآخرين من الذين شاهدوا الحادث، أو الذين سيسمعونه من ضباط ومراتب القوات المسلحة ، وبعد توسطات مضنية وعديدة ، وبسبب العلاقة الخاصة التي تربط عبدالجليل محسن بعدنان خير الله وزير الدفاع ، أخرج من السجن بعد أن خفضت رتبته إلى مقدم ، وعيّن آمراً لأحد الأفواج الآلية التي كانت تحت إمرته إمعاناً في احتقاره ، وهي سابقة لم تعرف ولم يسمع بها أحد قبلاً في الجيش العراقي مطلقاً .

ـ أصبح تدخل صدام حسين في تنفيذ الخطط العسكرية وإدارة العمليات أمراً يكاد يكون يومياً ومتواصلاً ، بحيث أصبح القادة والآمرون في وضع مأساوي ، لأن عليهم أن ينتظروا الأوامر المباشرة من القائد العام للقوات المسلحة، لأنهم لا يتحملون اتخاذ بعض الاجراءات في ساحة المعركة ، وبذا فقدت روح المبادرة لدى القادة والضباط ، لأن أي فشل في العمليات سوف يعني بالتأكيد بأن ثمن ذلك سوف يكون الإطاحة برأس من أصدر أمراً معيناً ، مهما تكون رتبة ومنصب هذا الضابط ، كما حدث للواء الركن صلاح القاضي، الذي أصدر أوامره للفيلق الثالث الذي يقوده بالانسحاب من قاطع خرمشهر عندما أخبر بأن المدينة بدأت تسقط ، حيث كان هذا الأمر سبباً بإعدامه . وفي معارك بستان التي دارت ليلة ٢٨ ـ ١٩٨١/١١/٢٩ ، والتي انتهت إلى استعادة مدينة بستان من القوات العراقية، وتدمير وانهاك القوات العراقية التي كانت تدافع في هذا القاطع، وتعرضها إلى خسائر فادحة، أدت إلى سلبها أي إمكانية في استعادة المبادأة، إضافة إلى انهيار الروح المعنوية ، في هذه المعارك أصر صدام على أن تقوم القوات العراقية المنهكة بهجوم مقابل لاستعادة المدينة ، وأصدر أوامره للهجوم مع الضياء الأول ليوم

١٢/٤، على الرغم من أن آمري التشكيلات قد طلبوا مهلة لعدة أيام لإعداد قطعاتهم وتهيئتها وإعادة تنظيمها بعد الخسائر الفادحة التي منيت بها، علماً بأن معركة بستان كانت قد استمرت لثلاثة أيام، أي انه لم تكن تتيسر لدى الوحدات سوى أقل من يومين لإكمال استعداداتها للهجوم المقابل، الذي كان بالفعل يحتاج إلى وقت كبير لإكمال الاستعدادات اللازمة له ، إلاّ أن صداماً رفض ذلك بشدة، ونهض واقفاً في مؤتمر الأوامر الذي عقد بالساعة ١٦٠٠ يوم ١٢/٣ ، وحضره كافة آمري التشكيلات والألوية، طالباً اعطاءه بندقية حيث قال لهم بالحرف الواحد : « سأهجم على الإيرانيين هذه الليلة ولو لوحدي » ، مما حدا بالحاضرين إلى إظهار التملق والمحاباة له حيث أجابوه بأنهم مستعدون لاستعادة المدينة، وبشروه بالنصر المؤزر ، إلاّ أن المعارك انتهى إلى خسارة أخرى لا تقل قسوة عن خسائر الهجوم الإيراني ، حيث اضطرت القوات العراقية بعدها إلى الانسحاب بصورة غيرمنظمة، وأقرب ما يكون إلى الهزيمة، بعد أن تركت خلفها معداتها وأسلحتها وقتلاها تغطي ساحة المعركة ، كل ذلك كان بسبب إصرار صدام على التدخل في عمل القادة والآمرين، وإجبارهم على شن الهجوم المقابل، في وقت لم تكن فيه الوحدات والتشكيلات مستعدة لذلك بما فيه الكافية، وبما يضمن إمكانية سير الأمور بصورة مقبولة . لذا فإن الضباط القادة أصبحوا يشعرون دوماً بأن عليهم أن ينتظروا أوامر القائد العام، تخلصاً من المسؤولية التي سوف تلقى على عواتقهم عند حدوث فشل في العمليات؛ عليهم أن ينتظروا الأوامر منه مباشرة، وأن ينفذوها حرفياً وهم يرتعدون من الخوف والرعب، لأن لا أحد من القادة لديه ثقة بنفسه بأنه قادر على ارضاء القائد العام وكسب وده ويضمن ذلك مطلقاً ، فبعد انتهاء عمليات الطاهري تم اعدام العميد الركن جواد أسعد شيتنه قائد الفرقة المدرعة الثالثة، واختفى من الوجود اللواء الركن شوكت أحمد عطا الحديثي قائد الفيلق السابع في عمليات الفاو ، ولم يعد أحد يسمع بقائد الفيلق الثاني اللواء الركن ضياء توفيق إبراهيم بعد عمليات استعادة مهران عام ١٩٨٦، عدا العشرات من آمري الألوية الذين قدموا إلى المحاكمات وأودعوا السجون ، فقد حكم على العقيد الركن خلف عليان آمر لواء ٢٣ المشاة بالسجن لمدة ٧ سنوات، وعلى المقدم الركن عبدالعزيز الحديثي آمر اللواء المدرع السادس بالسجن لمدة ٨ سنوات[١] ، وتم تنفيذ حكم الاعدام بالمقدم الركن برهان خليل الأسعد آمر لواء المشاة الثامن والثلاثين ، ولا يسعنا هنا أن نذكر بالتفصيل حوادث أخرى كثيرة مشابهة، لأنها تحتاج في الواقع إلى جهد ووقت كبير ،

---

(١) أخرج من السجن وأعيد إلى الجيش ، أصبح قائداً للفيلق الخامس، وقتل في حادث طائرة سمتية نهاية عام ١٩٨٧ في قاطع جوارته .

كل ذلك يجري بعد أن يتم توجيه تهمة التخاذل وعدم إدارة المعركة بصورة صحيحة ، ولقد وصل الأمر إلى درجة من الشعور بالخيبة بين أوساط القادة من الضباط في الجيش العراقي إلى أن صداماً نفسه أخذ يشعر بهذا ، فلقد صرَّح بعد عمليات الفاو بأنه سوف لن يتدخل في المستقبل في إدارة العمليات بصورة مباشرة ، بل إنه سوف يترك الأمر للقادة كي يتدبروا الأمر بأنفسهم ، لكن شخصاً مثل صدام تترسخ في نفسه روح الاحتقار والتسلط على الآخرين ، لا يستطيع على الاطلاق أن يترك غيره يدير أمراً خطيراً جداً بالطريقة التي يراها مناسبة ، ولقضية تتعلق بوجوده الشخصي هوالمحافظة على رأسه ، اضافة إلى أن صداماً لا يثق بالآخرين الذين يحيطون به مطلقاً ، وتاريخه السياسي يشهد له بذلك ، فكم من المرات تعرضت فيها القيادة السياسية والعسكرية للحزب والدولة إلى عمليات تصفية دموية رهيبة، نتيجة لانتياب صدام حالة من الشكوك وفقدان الثقة بمن يحيط به، لمعرفته الدقيقة بنفسه كونه ديكتاتوراً متسلطاً ، سارقاً ، يتحين الآخرون الفرصة للإطاحة به والتخلص منه .

مقتل القائد العام :

ـ من المعروف جيداً في تاريخ الحروب في العالم، بأن القائد العام للقوات المسلحة لأحد طرفي النزاع، عندما يعتبر فشله في تحقيق نصر واضح في موقف خاص، وإصراره المستمر على تحقيق ذلك النصر بأي ثمن، والذي يسمى عسكرياً «تعزيز الفشل». عندما يعتبر هذا الفشل إخفاقاً شخصياً له وتعريضاً لهيبته وسمعته ، بالرغم من اعتقاد أعضاء قيادته، خاصة القائد الذي تجري العمليات تلك في قاطع مسؤوليته ، أو ساحة الحركات التي يديرها ، إن استمرار هذا القائد العام وإصراره على هذا النهج إنما يعني الانتحار الحقيقي ، وان الحرب سوف تأخذ بالتأكيد مساراً آخر يختلف تماماً عن ما يرسم في مخيلة ذلك القائد . وفي التاريخ أمثلة كثيرة تشهد على ذلك .

ومما يلاحظ على هذا النوع من القادة بأنهم من ذوي النزعات التسلطية أو الديكتاتورية، فلقد اندحر نابليون اندحاراً تاماً أمام أبواب موسكو، عندما اعتبر مسألة احتلالها أمراً يتعلق بكرامته الشخصية وسمعته كقائد مرموق. وقد حدث مثل ذلك لهتلر عندما اعتبر مسألة احتلاله مدينة ستالينغراد أمراً يجب أن يتم، على الرغم من أن كافة قادة الجيش الألماني تقريباً كانوا يرون بأن يصرف النظر عن احتلال المدينة، ويتخطاها لأهداف أخرى تسهل فيها إدارة الحركات ، والانتقال من حرب ساكنة مستقرة إلى حرب الحركة التي يتقنها الجيش الألماني ، والاهتمام بإدارة الحركات الملتهبة في ساحات الحرب

الممتـدة على أراضي واسعة في الاتحـاد السوفيتي ، لكن هتلر كـان يعتبر احتـلال مدينـة ستالينغراد وسقوطها، يعني سقـوط ستالين نفسـه، غريمـه وخصمه الـذي لا يلين، وبهذا يكـون قد جرَّ نفسه إلى مـوقف كان عـدوه هو المستفيـد الأساسي منه، بعـد أن أصبحت المـدينة غيـر قابلة لـلاقتحام، وحتى في الحـالات التي استطاعت فيهـا القوات الألمـانية التقدم كيلومترات معدودة، اثنين أو ثلاثة داخل المدينة ، فإنها كـانت تتعـرض لخسـائـر فادحة بالأرواح والمعدات، لا تتناسب على الاطلاق مع هذا التقدم المحدود الـذي كانت تحرزه القوات المهاجمة ، وفي أكثر الأحيان كـانت تضطر إلى الانسحـاب خارج المـدينة مرةً أخرى ، إن خضوع العمليات للرغبات الشخصية البعيدة عن الاعتبارات الحقيقيـة في الواقع العملي، يعتبر من المهالك التي تؤدي إلى خسارة الحرب، ووضع القـوات في مآزق كبيرة لا تستطيع أن تتجاوزها، دون أن يتم تبديل الأهداف التي لم يكن اختيارها والإصـرار عليها مبنياً على تقدير للموقف يستند على عناصره الأساسية .

وفي الحرب العراقية ـ الإيرانية حدث ذلك مراتٍ عـديدة . فلقـد أصر صـدام على احتلال مدينة عبادان في الأيـام والأشهر الأولى للحـرب ، ووضع الخـطط الكفيلة بتحقيق ذلك ، وجلبت القوات، التي كان مَن المقرر أن تكـرر الهجمات السابقة، التي لم تنتـهِ إلى نتائج ملموسة ، واحتلت تلك القوات مناطق تحشدها حسب الخطة المقررة ، حيث كـان مقر الفرقة المدرعة الثالثة العراقية التي كان يقودها في ذلك الوقت العميـد الركن قـدوري الـدوري ، هـو المكلف بـإدارة عمليـة الهجـوم ، وقـد وضعت بـإمـرة الفـرقـة وحـدات وتشكيلات أخرى لتحقيق هـذا الهدف ، حيث شنت الفـرقة والقـطعات المتحجفلة معهـا عـدة هجمات لاحتـلال المـدينـة، إلاَّ أنهـا لم تستـطع أن تحقق شيئـاً يـذكـر ، إلاَّ أنهـا استطاعت في إحدى المرات أن تتقدم عدة كيلومترات داخل المدينة في حي ذو الفقـاري في الجزء الجنوبي منها ، إلاَّ أن القوات المهاجمة تعرضت لنيران كاسحة شديدة، ومقاومة عنيفة اضطرت معها القطعات إلى الانسحاب تاركة خلفها خسائـرها الفـادحة ، وقـد تكرر ذلك عدة مرات ، مما اضطر القيادة العراقية إلى أن تصرف النظر عن هذا الهدف الصعب التحقيق، حتى تتهيأ الظروف الأكثر ملاءمة .

وعلى الرغم من أن صداماً قد استجاب لرأي قادته مضطراً، إلاَّ أنه ظلَّ مرتكباً خطأه القاتل، ولم يتخلَّ عن حلمه هذا، حيث ظلت الوحدات تحاصر المدينة لمدة مـا يزيـد عن السنة، حيث أصبحت وبمرور الوقت صعبة المنال، بسبب قوة الاستحكـامات التي أنشـأتها القوات الإيرانية فيها . هذا الوضع الفريد أتاح الفرصة الملائمة للقوات الايرانيـة أن تشن هجومها الصاعق على القوات العراقية يـوم ١٩٨٠/٩/٢٧، حيث كانت القـوات العراقيـة

التي تحاصر مدينة عبادان، والتي تقع شرق نهر الكارون محتلة منطقة تشكل نتوءاً داخل القوات الايرانية خارج المدينة، والتي تحيط بالقوات العراقية من جميع الجهات تقريباً، عدا طريق انسحاب هذه القوات الوحيد الذي يستند على نهر الكارون ، حيث أنشأت عليه جسرين احدهما في قصبة، والآخر في الحفار الغربي ، حيث كانا المعبرين الوحيدين اللذين يؤديان إلى المنطقة الدفاعية للفرقة المدرعة الثالثة، والقطعات المتجحفلة معها شرق نهر الكارون، والتي تحاصر مدينة عبادان، بينما تضرب عليها القوات الايرانية حصاراً شديداً حولها في نطاقها الخارجي، مما يجعلها في الواقع محاصرة من اتجاهين رئيسيين ، فالقوات الايرانية تقف داخل المدينة بوجه القوات العراقية بشراسة، كما وأنها تطوقها أيضاً من الخارج ، ولولا سبق نظر هيئة ركن مقر الفرقة المدرعة الثالثة بتهيئة جسر احتياطي، لم يتم نصبه إلى أن ينجلي الموقف في حالة هجوم القوات الإيرانية ، ولو لم يتم التفكير بهذا الأمر، لما استطاع قسم من الوحدات والدبابات والآليات أن تنجو عندما بدأ الهجوم .

واستطاعت القوات الإيرانية أن تمسك كلا الجسرين في اليوم الثاني للهجوم ، وتم تدمير قوات الفرقة كلها، أو أسرها بمجموعها ، لكن هندسة الفرقة استطاعت أن تنصب الجسر الاحتياطي المهيأ على مقربة من النهر، مما سهل عبور قسم من وحدات الفرقة المدرعة الثالثة إلى غرب نهر الكارون ، إلّا أن بعض الوحدات كانت لا تعرف موقع الجسر الذي تمّ نصبه خلال العمليات، مما جعلها تتوجه إلى أماكن الجسور القديمة، حيث تم أسرها بالكامل ، والجدير بالذكر هنا، هو أن قائد الفرقة المدرعة الثالثة كان قد اقترح بالفعل أن تنسحب كل قواته إلى غرب الكارون، كما أيده في ذلك قائد الفيلق الثالث في حينها الفريق الركن اسماعيل تايه ، لكن صداماً رفض ذلك بشدة، واعتبره إهانة شخصية له . ان عدم احتلال المدينة يجب أن لا يعني تركها تتنفس بحرية ، لقد كان شائعاً في العالم بأن القوات العراقية تحاصر عبادان، وصدام لا يريد أبداً أن يتخلى عن هذا الوهم القاتل، لقد كان الشيء الوحيد الذي أنقذ قائد الفرقة هو صحة توقعاته، بأن قواته سيتم تدميرها بصورة كاملة، في وضع كانت فيه تشكل جيباً تستطيع القوات الايرانية التي تحاصره أن تطبق عليه بيسر ، كما وأنه من المقربين إلى العائلة الحاكمة التكريتية، مما سهل له أن يفلت من عقاب صارم كان سيصيب أي قائد آخر غيره ، لذا فإن قائد الفرقة لم يكن من الذين شملهم عطف القائد العام، على من يطلق عليهم بالمتهاونين، وهم الفئة التي تتحمل دوماً نتائج كل معركة خاسرة ، ولقد كاد رأس اللواء الركن علي حسين العلكاوي أن يطير ، كان برتبة عقيد ركن آمراً للواء الآلي الثامن الذي حدث الاختراق الرئيسي في جبهة لوائه ، شوهد قائد الفرقة المدرعة الثالثة يقف إلى جانب صدام في

فيلم عرضه التلفزيون العراقي، وقد عينّ مستشاراً عسكرياً لصدام حسين.

الإرهــاب :

ـ الإرهاب سمة مميزة من سمات القيادة العراقية، سواء على مستوى الإدارة المدنية أو العسكرية، إلاّ أنها في الجانب الثاني أكثر عمقاً وشدة بسبب حساسية وحراجة النتائج التي تترتب على نشوء أي خلل في هذا الجانب، ولأن النظام يعرف مقتله، ولأنـه يفهم جيداً بأن حدوث أي خلل في الجانب العسكـري، والذي لا يمكن أن يتكهن أحـد بـالمدى الـذي سيصل إليـه والنتائـج التي سيتمخض عنهـا، والإرهـاب التمستـه القيـادة واستخدمته بكل ما أوتيت من قوة باتجاهين، الأول ضدإيران،ليس فقط قواتهـا المسلحة، وإنما ضد الشعب الإيراني عموماً، بصرف النظر عن موقفهم من نظام حكمهم أو موقفهم من الحـرب، فالشعب الإيـراني يُعتبر في نـظر صدام كله عـدوه، والمبدأ الـرئيسي الذي وضعه صدام هو قتل أكبـر ما يمكن من الإيرانيين، وبكل الـوسائـل المتيسرة، خـاصة في المـراحل الأولى من الحـرب، والفترات التي شهـدت الضرب والضـرب المقابـل للمدن والمنشآت الصناعية لكلا البلدين. وإطلاق صفة المجوس على الإيرانيين،هو الذي يعطي صورة واضحة عن النوايا التي كانت تدور في ذهن صدام، والتي تبيح له قتل أكبـر عدد من الإيـرانيين على اعتبـار انهم كفـرة، يحق قتلهم وإبـادتهم، لقـد كـان هـدف صـدام من الأعمال الإجرامية التي كان يوجه قادته إلى ارتكابها، هـو دفع القـوات المسلحة العـراقية إلى الانغماس في جرائم بعيدة عن النبل والشـرف العسكري، كقتـل الأسرى، وضـرب المدن بالمدفعية، وقصـف الأحياء والمنشآت الصنـاعية بالطائـرات، كي يترسـخ في ذهنها حالة دائمـة مستمرة وهي أن لا رجعـة أبداً إلى حـالة الـوفاق بين إيران والعراق، وأن على الجميع أن يسيروا فـي هذا الطريق حتى النهاية.

وبالطبع لـم تكن القوات المسلحة بأجمعها مؤمنة بهذا النهج، بل على العكس من ذلك، فهناك القلة من الحثالات التي ارتبط مصيرها بمصير صـدام، تطيـع ما يـأمرهـا به طاعة عميـاء، وهذه القلة هي غـالباً مـا تكون من النـوعية التي لهـا استعداد تـام لارتكاب القذارات والأعمال التي يأبى العسكري الشريف أن يرتكبها في ساحـة الحرب، لقـد أراد صـدام في حربـه التي شنها ضـد الجمهوريـة الإسلاميـة الإيرانيـة أن يقطع كـل الجسـور المؤدية إلى الصلح والتفاهم مع إيران، وممـا شجعه على ذلـك اعتقاده بـأن إيران مشـرفة على السقوط، وبأن لا حـاجة لمـراعاة القـوانين والأعراف العسكـرية التي تتبعهـا جيـوش العـالم، وان النهج الـذي يسلكه هـو نهـج يسهـل عمليـة إنهـاء الحرب، وإيصـالهـا إلى

الأهداف التي كان يرجوها منها، ان اخطر الحروب هي تلك التي تأخذ طابعاً يتسم بالكراهية، التي تسعى مراكز القرار إلى تصعيدها بقوة وإيصالها إلى المدى الذي يعطيها سمة الصراع الإيدولوجي ، والحقيقة لم يكن هناك أي صراع فكري بين الشعبين العراقي والإيراني ، لكن جهوداً حثيثة بذلت لأن يحمل هذا الخلاف بين النظام العراقي والجارة إيران هذه السمة والايغال بها، ان الأمر اليومي رقم (١) الذي أصدره القائد العام للقوات المسلحة العراقية بتوقيعه، يعطينا صورة لحالة صدام ووضعه الذهني والنفسي عند شنه الحرب، فهو من اللحظات الأولى قد وضع نفسه في قفص الاتهام كمجرم حرب، إذ ان هذا الأمر لا يمكن أن يصدره رجل سوي ، يتصارع مع خصمه بشرف وفق ما هو معروف من قوانين تعارف عليها المجتمع الدولي ، لننظر إلى هذا الأمر إذن :

سري وشخصي

أمر يومي رقم (١) صادر من القائد العام للقوات المسلحة

ينفذ ما يلي حرفياً :

١ ـ يذبح كل فرد من أفراد حرس خميني يتم أسره في ساحة المعركة .

٢ ـ يذبح كل فرد من أعضاء الحزب الديموقراطي الكردستاني يلقى القبض عليه مع القوات الإيرانية .

٣ ـ يذبح كل شيوعي يلقى القبض عليه مع القوات الإيرانية .

٤ ـ يذبح كل عربي يلقى عليه القبض مع القوات الإيرانية جزاءً لخيانته لقوميته العربية .

التوقيع
صدام حسين
القائد العام للقوات المسلحة

إن استخدام صدام حسين لكلمة يذبح تبعث على القشعريرة في النفس، وتدل على عمق سوداوية وسادية صدام ، لأنه يستطيع أن يستخدم كلمة أخرى بدلاً من كلمة يذبح ، مثلاً كأن يقول يعدم ميدانياً، وهي كلمة متداولة في الجيش العراقي ، ولكنه لتركيبته النفسية المعقدة، لا يستطيع أن يفهم سوى الذبح ، والذبح وحده عند تعامله مع كل ظرف وحدث وحالة تهدده بالخطر. لقد أراد أن يطبع كل شيء بين يديه ، وكل وسائله وقواه المتيسرة ، خاصة القوات المسلحة بهذا الطابع الدنيء ، وليت صدام حسين كان يحس بعمق المرارة والألم والحيرة التي انتابت ضباط الجيش العراقي عند قراءتهم لأمره اليومي

هـذا . إن الإحساس الشـامل الـذي انتاب القسم الأكبـر من الضباط ، خـاصـة من ذوي السيرة السوية ، هو أن قائدهم يريد منهم أن يصبحوا جزارين بكل ما تحمـل تلك الكلمة من معنى ، إلاّ أن عدداً من الضباط وخاصة قـادة الفرق ، وعـدداً من آمري الألـوية كـانوا ينفذون حرفياً ما كان يصدره من أوامر ، بل ربما فاقـوه في ساديتـه ، ربما لأنهم التقـوا به شخصياً ، واستلموا الأمر منه بضرورة تنفيذ مثـل هذه الأوامـر بدون تهـاون ، وصدام عنـدما يصدر مثل هذه الأوامر وجهـاً لوجـه فإنـه يترك لـدى السامـع ممن يتلقى مثل هـذه الأوامر منه ، انطباعاً حسيـاً خاصـاً ، خاصـة وان من يختارهم صـدام لمناصب قيـادية رفيعـة في الجيش ، هم ممن لديهم الاستعداد التام لأن يكونوا نسخة مصغـرة عنه ، فلقـد قام اللواء الركن طالع الدوري ،عندما كان قائداً للفرقة المدرعة التاسعة في قاطع بستان، بأعمال يندى لها جبين الإنسانيـة ، كقتل الشيوخ ، وإعدام قسم كبيـر من الأسرى الإيـرانيين ، بعد كـل معركة ، أما اللواء الركن هشام صباح الفخري فإنـه كان يقـوم شخصياً بـرمي الأسرى من طائرة هليكوبتر تمر من فوق الـوحدات العـراقية على طـول قاطـع فيلقه الـرابع في قـاطع الشوش وديزفول .

ـ تشكل عمليات قصف المدن الإيرانية جانبا من اشاعة حالة الرعب والخوف ، ليس فقط بين سكـان المدن الإيـرانية ، بـل بين سكان المـدن العـراقيـة الـذين يتحملون عمليات الرد بالمثل الذي تقوم به القوات الإيـرانية ، وهـو بهذا العمـل يكون قـد استهان بأرواح العراقيين ، الذين تشكل من بين صفوفهم القوات المسلحة ، فلقد تعـرضت المناطق العراقية المحاذية للحدود الإيرانيـة إلى عمليات انتقـام متقابل ، قامت بـه القوات الإيـرانية اعتبـاراً من الفاو ، التي اخليت من السكـان في الأيـام الأولى من الحـرب ، وحتى حـاج عمران في أقصى الشمال ، حيث تضرّرت كثير من المـدن والقصبات ، ممـا اضطر عـدد كبير من السكان إلى ترك بيوتهم والهرب إلى مناطق أخرى أكثر أمنـاً ، كما لم تسلم مـدن بغداد والموصل وكركوك وتكريت من القصف الصـاروخي والجوي هي الأخـرى ، وهكذا يكون ادعاء صدام ، بأنه إنما شن الحرب لأسباب عديدة منها ، إبعاد نيـران القوات الإيـرانية عن المناطق الحدودية باطلاً ، لأنه يقوم بالفعل بإجبار الإيرانيين بضـرب المدن الحـدودية للرد على القصف العراقي للأهداف المدنية داخل إيران ، مما يؤدي إلى إحـداث خسائـر مادية وبشرية بين صفوف المدنيين العراقيين ، ففي إحدى المرات قامت المدفعية الإيرانية البعيدة المدى ، ورداً على القصف العراقي بضرب منطقة تمتد إلى مسافة ١٥٠ كلم من أبو الخصيب جنوباً وحتى مـدينة العـزير جنـوب العمارة ، ممـا أدى إلى إخلاء عـدد كبير من المدن والقصبات كالقرنة والنشوة والعزيز ، إضافة إلى الأضـرار الكبيرة التي لحقت بسكـان

مدينة البصرة وممتلاكاتهم، لقد ظل صدام ينتهج هذا الأسلوب بصورة مستمرة، معتقداً بأن إيران غير قادرة على الوصول إلى الأهداف الكائنة بالعمق العراقي ، وهذا خطأ آخر يرتكبه إضافة إلى أخطائه العديدة الأخرى بإدارة الحرب ، إذ لا أحد يستطيع أن يؤكد بأن إيران لا تمتلك من الأسلحة القادرة على الوصول إلى كل الأهداف المهمة الكائنة في العمق العراقي ، ولقد تأكد ذلك بالفعل ،عندما تعرضت بغداد ومدن عراقية أخرى إلى قصف صواريخ أرض ـ أرض، والذي لا يبدو بأنه سوف ينقطع، ونصب صواريخ أرض ـ بحر في مضيق هرمز، والتي قيل بأنها صينية الصنع .

ـ لم يترك صدام سلاحاً معروفاً إلاّ واستخدمه ضد إيران ،وكان آخر ما استخدمه من الأسلحة الفتاكة هو السلاح الكيمياوي ، والذي يقذف من الطائرات والمدفعية ، ففي الوقت الذي لا تسمح فيه الدول الكبرى باستخدام مثل هذه الأسلحة، وتعلن عن شجبها واستنكارها الشديد لاستخدامه، نراها تقف لا مبالية تجاه استخدام النظام العراقي له ، وبذلك يفتح العالم عينيه على صفحة جديدة من المآسي التي يتركها استخدام تلك الأسلحة . فإن بإمكان أية دولة الآن مهما كانت إمكانياتها التكتيكية متواضعة أن تنتج وتستخدم الأسلحة الكيمياوية بحرية ، بعد أن أصبح استخدامها أمراً لا يثير العالم ، إلاّ أن القيادة العسكرية العراقية لم تأخذ بعين الاعتبار بأن إيران قادرة على إنتاج مثل تلك الأسلحة، التي لا تحتاج إلى تكنولوجيا متطورة جداً، سواء من حيث الانتاج أو الاستخدام، وبذا أصبحت القوات المسلحة العراقية هي الأخرى ليست بعيدة عن نتائج استخدام هذه الأسلحة.

إن القيادة العسكرية العراقية، باستخدامها مثل هذا النوع من الأسلحة المحرمة دولياً ذات التأثير الشديد على الإنسان ، فإنها تضع الإنسان والفرد العراقي ، عسكرياً كان أم مدنياً، أمام خطر وامتحان آخر، هذا الخطر الذي لا يمكن أن يعادله خطر نشوب القتال نفسه على جبهات المعركة ، لأن آثاره المادية والمعنوية رهيبة ومدمرة . وبذا فإن المخاطر المستمرة التي كانت تتعرض لها القوات المسلحة العراقية والشعب العراقي نفسه ، تزايدت بصورة مستمرة بسبب رعونة هذه القيادة وعدم شعورها بالمسؤولية الإنسانية تجاه شعبها وقواه المسلحة ، فالقائد العام للقوات المسلحة يضع قول الشاعر: «إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر» نصب عينيه، وإذا كان عليه أن يموت ، فليمت جميع الناس أولاً ، العراقيون أو الإيرانيون لا فرق وبمختلف الأسلحة المتيسرة لدى الجانبين ، وكانت مذبحة حلبجة التي راح ضحيتها الآلاف من المواطنين العراقيين الأكراد مثلاً شاهد عن عمق وحشية رئيس النظام وزمرته المتسلطة .

ـ الجانب الآخر من صورة الإرهاب الذي يمارسه القائد العام للقوات المسلحة العراقية هو الإرهاب المسلط على القوات المسلحة العراقية نفسها وعموم الشعب العراقي ، فإن حملات الاعدام والسجن كانت تطال رؤوس القادة والآمرين بعد كل عملية من العمليات التي تقوم بها القوات الإيرانية ، ولقد حدث أن قام صدام بإعدام المدعو جبار طارش مسؤول الجيش الشعبي لقاطع العمارة، متهماً إياه بالفرار في عمليات الشوش وديزفول قائلاً له : لماذا هربت يا جبان ، فأجابه : بأنني لم أهرب ، والجبان الذي يأتي إلى الجبهة بحماية فوج قوات خاصة ، فما كان منه إلاَّ أمر مرافقه أرشد ياسين بإطلاق النار عليه ، فأطلق هذا النار عليه فأرداه قتيلاً في الحال ، وكان أمر صدام لأرشد ، «أرشد طخّه» أي ارمِهِ ، إضافة إلى تشكيل فرق الاعدام التي تأخذ على عاتقها تنفيذ حكم الاعدام بحق كل ضابط أو ضابط صف أو جندي يترك مكانه وينسحب إلى الخلف، حيث تعترضه هذه الفرق أو المفارز، وتوقفه حيث تقوم بإعدامه، دون أن تستفسر منه أو تسأله عن سبب وجوده في المكان الذي أُلقي القبض عليه فيه .

ولقد حدث بأن أحد الضباط الإداريين كان قد كلف من قبل آمر وحدته بأن يذهب إلى المنطقة الإدارية لجلب ما تحتاج إليه الوحدة من عتاد وأرزاق، وكان يحمل معه الأوراق الخاصة بطلب المواد المطلوبة ، وكانت العمليات تجري على أشدها في الجبهة ، وحينما وصل هذا الضابط إلى نقطة السيطرة، أُلقي عليه القبض، وتم تنفيذ حكم الإعدام به ، وهو ينادي بأنه ضابط إداري مكلف بجلب العتاد والأرزاق، ويقسم بالله بأنه يقول الحقيقة ، ولكن لم يكن أحد يسمع منه أبداً ، ومثل هذه الحوادث تكررت مرات عديدة . لقد كانت حملات السجن والاعدام تطال عدداً كبيراً من الضباط بعد كل معركة، إشباعاً لرغبة القائد العام في إراقة المزيد والمزيد من الدماء ، وإشاعة الرعب والخوف بين أوساط القوات المسلحة ، ظناً منه بأن هذه الأساليب سوف تجبر أفراد القوات المسلحة العراقية على الاستمرار في القتال ، لكن هذه الأساليب والاجراءات لم تؤدِ إلى النتيجة المرجوة ، بل كان لها في أحيان كثيرة مردود عكسي ، لأن المقاتلين ازداد شعورهم باليأس ، وانهم ميتون في كل الأحوال ، فالنار من أمامهم وفرق الإعدام من خلفهم ، الأمر الذي يخلق حالة من الارباك الذهني لدى المقاتل ، ويحطم روحه المعنوية ، ويشل قواه عن العمل الحقيقي ، إن ساحة الحرب قد شهدت إجراءات قمعية، لم يُشهد لها مثيل طيلة تاريخ القوات المسلحة العراقية ، فلم يَجرِ مشاهدة إعدام المقاتلين دون محاكمة وإثبات بالأدلة والقرائن بأن المتهمين قد فروا من المعركة ، بل إن عمليات الاعدام كانت تجري بصورة سريعة وفورية ، خلافاً لكل الأعراف والقوانين

العسكرية ، صحيح أن حالة الخوف والجبن التي تدفع بعض المقاتلين إلى الهرب من ساحة المعركة ، يجب أن يتم معالجتها بوضع قوانين صارمة، تشعر المقاتل بأنه في حالة عدم صموده أمام خصمه فإنه سيتعرض للموت عقاباً له ، ولكن ذلك يجب أن يجري وفق ضوابط وقوانين ومحاكمات أصولية ، لا بالطريقة التي يتبعها قادة الفرق وآمرو الألوية بتجميع الفارين والمنسحبين حيث يتم إعدامهم دفعة واحدة دون أن يتم التحقيق معهم ، وضبط إفاداتهم بصورة أصولية وقانونية . تؤلف فرق الاعدام هذه بالغالب من عناصر المخابرات أو الاستخبارات والانضباط العسكري والجيش الشعبي ،وتزوّد بصلاحية إطلاق النار على كل من ينسحب أو يفر إلى الخلف فوراً . لقد وصل الأمر أن يصدر القائد العام للقوات المسلحة تعليمات تقتضي بإعدام كل شخص يتغيب عن وحدته ثلاثة أيام، في حالة انفتاح تلك الوحدة في الجبهة، وتكليفها بواجب الحركات الفعلية . وبذا تمّ تنفيذ حكم الاعدام بالمئات من الجنود الفارين من الخدمة، والذين يلقىٰ القبض عليهم في عمليات مداهمة وتطويقي لأحياء في مراكز المحافظات والأقضية ، حيث تمنح لآمر القوة التي تقوم بالتفتيش والمطاردة ـ وغالباً ما تكون هذه القوة من الجيش الشعبي ـ صلاحية تنفيذ حكم الإعدام الفوري بحق الجنود الهاربين الذين يلقى القبض عليهم .

وفي إحدى المرات، وفي أوائل عام ١٩٨٧ تم تنفيذ حكم الإعدام بأربعمائة جندي هارب، تم إلقاء القبض عليهم في مدينة كربلاء، بعد حملة تفتيش واسعة قام بها أفراد الجيش الشعبي ، قامت أولاً بتطويق أحد أكبر أحياء المدينة، وأغلقت المنافذ المؤدية له ، حيث تمّ تفتيش البيوت بيتاً بيتاً بحثاً عن الهاربين . كما أن المحافظات الأخرى قد شهدت حملات تفتيش واسعة عن الهاربين الذين يلاقون نفس المصير، إن حالة الرعب والخوف هذه تكون قد شملت كل مواطن عراقي، حتى الناس الأبرياء الذين لم يكن لديهم أي ذنب، كانت تشملهم عمليات الإرهاب والتفتيش ، حيث كانت بيوتهم تتعرض خلال تلك الحملات إلى عمليات انتهاك لحرماتها، مما يسبب لهم ولذويهم حالات من الفزع والقلق والخوف والارباك ، وبذلك يكون الشعب العراقي بمجموعه عرضة للإرهاب المنظم الذي تجعله يعيش في حالة دائمة من الخوف والرعب، والتي تشل فيه القدرة على التعاطي مع الأحداث بروح إيجابية بناءة ، وتشل فيه الروح الثورية، وتعطل قدراته وإمكانياته .

شراء الذمم :

ـ رافق عمليات الإرهاب المنظم ضد القوات المسلحة، والذي مارسته القيادة العامة للقوات المسلحة، وبتوجيه من القائد العام نفسه ، عمليات شراء الذمم، وإغداق

الأموال، ومنح الرتب والأنواط بمختلف درجاتها ، وقد سار هـذان الاتجاهـان سيراً متـوازياً مترادفاً ، السيف بيـد ، والذهب بـاليد الأخـرى ، فمن لم يكن ممكنـاً شـراؤه بـالـذهب والإغراء، أطاح رأسه هذا السيف المشهـور على رقاب القـادة والآمرين والجنـود وكل أبنـاء الشعب العراقي ، ولأن القائد العام للقوات المسلحة يعلم بصورة أكيدة بأن الشعب وقواته المسلحـة لا تؤمن بالحـرب وأهدافها، والتي يواصـل النظام شنهـا والتمادي فيهـا ، بل إن صداماً لا يخفى عليه بأن الناس يدركون معنى أن القـادسية تمـل اسمـه ، فقضيـة الحرب هي قضية وجود صدام نفسه وعائلته ، وانه لولا صدام لما حـدث ما حـدث ، ولما عـانى هذا الشعب من كل هذه المآسي والآلام التي يمر بها ، وعليه فإن الشعب وقواته المسلحة لا تمتلك من الدوافع الكافية ما يجعلها تتفاعل وتندفع في العمل والانجاز الجيـد في هذه القادسية المفروضة ، لذا فإن صداماً كان مضطراً لإيجاد اتجاه انتهازي ومصلحي داخـل صفـوف الشعب والقوات المسلحة، يدفعهـا للمشاركـة في قـادسيتـه ، وهـو شـراء الـذمم بالأموال والهدايا والأنـواط والاغداق في ذلك، وابتكار أسـاليب وطرق دنيئـة لإماتـة ضمير المقاتل، وجعله يلهث باتجاه الحصول على المغانم الرخيصة، نظراً لغياب العقيـدة الحقيقية التي تدفع المقاتل إلى الدفاع والقتال حتى النفس الأخير .

ولقد اتبع القائد العام من أجل الوصول إلى أهدافه، ومن أجل أن يحول أعداداً كبيرةً من القـادة والضباط والمـراتب إلى مرتـزقة ، أسـاليب عديـدة لم يسمع بهـا من قبل، ولم يستخدمها أي من قـادة جيوش العـالم المعروفين خـلال حروبهم ، وهي أسـاليب أقل مـا تـدل عليه هـو دناءتهـا لدفـع شعب بأكمله مـع قواتـه المسلحة خـلافاً لإرادتـه ، فهـل يعقـل أن الذي يدافع عن وطنه وكرامته وكرامة شعبه يحتاج إلى كل هذه الإغراءات؟ كلا بـل إن كثيراً من أبناء الوطن هم بطبيعـة الأمر مستعـدون للتضحية في سبيـل الوطن والـدفاع عنـه برحابـة صدر وبكـل استعداد واطمئنـان ، دون حاجـة لأن يقدم لهم ثمن لـذلك ، وربمـا يشعر المواطن المخلص بالخجل إزاء ذلك ، لأنه يعتبر الدفاع عن الوطن أمانـة في عنقـه عليه أن يؤديها ويحافظ عليها ، فهل يستطيع المال أن يخلق شعور المواطنة الأصيل وحب الوطن والدفـاع عنه لـدى شعب يعيش تحت سيطرة حفنـة من المتخلفين الذين لا يكنـون لـلآخـرين من أبنـاء الشعب أي احترام، ولا يقيمـون لهم أي وزن؟ بـل إنهم يشكلون في وجودهم التسلطي عليه وصمة عار إلى أبـد الآبدين ، لقـد اتبع صـدام أساليب كثيـرة من أجل شراء ذمم الناس منها :

أ ـ منح عائلة القتيل مبلغ (٣٠٠٠) دينار مع قطعة أرض في مكان مناسب ، إضافة إلى سيارة تويوتا من الطراز الحديث ثمنـاً لرأس القتيـل، وشراءً لسكـوت أهله وتذمـرهم ،

لقد أثر هذا القرار الذي أصدره القائد العام للقوات المسلحة تأثيراً سلبياً حتى على العلاقات الإنسانية التي يفترض أن تسود المجتمع، لقد سلخ هذا القرار من الأب حنان الأبوة، ومن الأم عطف أمومتها، لقد أصبح عدد من آباء المقاتلين، الذين لم يكونوا ليحملوا بجزء قليل من هذه العطايا والامتيازات، ينتظرون نزول هذه الهبة السماوية عليهم بفارغ الصبر، حتى ان أحد الآباء قال لابنه العائد من الجبهة: «إنك لم تمت لعنة الله عليك، لماذا لا تموت»، بدلاً من أن يأخذه بأحضانه معانقاً مرحباً شاكراً الله على سلامة ولده، إلاّ أن عدداً من الآباء كانت لا تنطلي عليه تلك الأساليب الدنيئة، فلقد صب أحد آباء القتلى البنزين على السيارة التي جيء بها إليه ثمناً لحياة ولده وأحرقها قائلاً بأنه، «لا يبيع ابنه بكل أموال الدنيا».

ب ــ ابتكر القائد العام للقوات المسلحة أسلوباً جديداً بتكريم المقاتلين، وذلك بأنه قرر أن يمنح مبلغاً ما بين ٥٠٠ ـ ١٠٠٠ دينار إلى كل مقاتل في الجبهة يقتل أكثر من ٢٥ شخصاً من القوات الإيرانية، وبهذا يكون قد عزز متعمداً روح القتل وسفك الدماء لدى المقاتل العراقي دون الالتزام بروح الفروسية، وهي عادة جرى عليها طيلة حياته، فالجندي لا يريد أن يقتل غريمه في خط النار لمجرد القتل، وهذا ما هو معروف لدى كل جيوش العالم، بل إنه إنما يفعل ذلك لحالة ربما تكون في أغلب الأحيان لسبب يجهله أو يكون مفروضاً عليه، بل إن المتقاتلين ربما يحسون بعطف متقابل بعض الأحيان كل اتجاه الآخر، على الرغم من أنهم لم يلتقوا مع بعض من قبل، ولم يَرَ أحدهم وجه الآخر بسبب الشعور المتبادل، بأن أمر ما قد تم فرضه عليهم مجتمعين، وبهذا يقود القائد العام للقوات المسلحة قواته إلى حالة من التخلي عن النبل الإنساني والروح والقيم العسكرية الشريفة، وترسيخ مفهوم القتل المجرد لدى المقاتل العراقي، مما يجعله فريسة لحالة من التفكك الأخلاقي وإحساس بالتفاهة. يقابل القائد العام للقوات المسلحة الجنود وضباط الصف ويسلمهم بنفسه مبلغاً من النقود موضوعة في مظروف من الورق، ويسألهم عن عدد قتلى العدو الذين أُبيدوا على أيديهم، حيث يتم عرض هذه المسرحية الدنيئة في التلفزيون أمام الناس على أمل إشاعة هذه الحالة البائسة بين أوساط الشعب كله. ولقد استغل عدد من الضباط هذا الوضع، حيث يتفق قسم منهم مع عدد من ضباط الصف، بأن يقوموا بترشيحهم لنيل مكرمة السيد القائد العام، علماً بأنهم لم يقوموا بمثل هذا الانجاز النبيل، بشرط أن يقاسموهم هذه الغنيمة السهلة.

جـ ــ منح الضباط سيارات مدنية جديدة من أحدث الموديلات باسم (مكرمة السيد الرئيس)، وذلك لضمان شراء ذممهم وتأمين استمرارهم في القتال، كان ذلك في السنتين

الأوليين من الحرب ، حيث كانت السيارات تقدم بدون حساب ، وبعد أن أصبح العراق يعيش وضعاً اقتصادياً سيئاً نتيجة لاستمرار الحرب مدة طويلة ، حيث أدى ذلك إلى استنفاذ أموال الدولة ، فلم يعد بالإمكان الاستمرار بمنح هذه المكرمة بسهولة ، مما حدا بالضباط لأن يتحدثوا عن سبب انقطاع مكرمة السيد الرئيس هذه ، مما أثار لديهم المرارة لأنْ قسماً منهم قد استلم هذه المكرمة بينما حرم القسم الآخر ، ولقطع دابر التقولات « أمر السيد القائد العام بعدم تحدث الضباط حول توزيع السيارات مكرمة السيد الرئيس القائد حفظه الله ، وان توزيعها يقوم على شروط موضوعة من قبل الجهات العليا ، وسوف يشكل مجلساً تحقيقياً بحق من يخالف ذلك»(١) .

د ــ تعوّد الضباط القادة، آمرو الألوية وقادة الفرق ، أن يستدعوا في المناسبات والأعياد إلى مقر وزارة الدفاع ،ليستلموا ظروفاً مدونة عليها أسماءهم تحتوي على مبلغ (٥٠٠) دينار عراقي لكل واحد منهم هدية السيد الرئيس القائد لهم ، ولا يخفى على أحد بأن عدد المناسبات والأعياد في العراق لا يقل عن (١٢) مناسبة في العام ، أي في كل شهر تقع مناسبة واحدة تقريباً ، فمن مولد الرئيس القائد ، إلى مولد الحزب القائد ، إلى ذكرى ثورة ١٤ و١٧ ـ ٣٠ تموز ، إلى ذكرى تأسيس الجيش العراقي ، إلى عيدي الفطر والأضحى . . . الخ . لذا فإن كل قائد فرقة وآمر لواء يرده في السنة ما يزيد على ضعف راتبه ومخصصاته السنوية بأجمعها ، علماً بأن راتب الضابط برتبة عميد لا يصل إلى أكثر من ٣٠٠ دينار شهرياً ، ويظل الضباط الآمرون ينتظرون المواسم والمناسبات السعيدة جداً بفارغ الشوق والصبر ، ويترسب في ذهنهم قليل من العرفان بالجميل للقائد الذي يوزع أموال الشعب ، وكأنها ملك أبيه ، أو عمه زوج والدته إبراهيم الحسن ، حكيم الحكماء والد برزان إبراهيم التكريتي ولله في خلقه شؤون .

هـ ــ توزيع سيارات مرسيدس ضخمة يبلغ ثمن الواحدة منها (٣٠) ألف دينار عراقي أو يزيد ، على قادة الفيالق والفرق وقسم من آمري الألوية ذوي الحظوة لدى القائد العام للقوات المسلحة ، فبعد أسبوع من نشوب الحرب ، بدأ توزيع الهدايا تلك إلى قادة الفرق وقائدي الفيلق الثاني والثالث ، وهي عبارة عن سيارة مرسيدس جديدة من النوع الفاخر ، والذين اشتركت فيالقهم وفرقهم في تنفيذ صفحة الهجوم من العمليات ، باستثناء قادة الفيلق الأول ، وقائدي فرقتي المشاة السابعة والحادية عشرة ، لأنها لم تشترك بالهجوم بسبب أن الفيلق الأول ـ أو ماتبقى منه ،بعد أن سحبت أغلب ألويته إلى الجنوب والوسط

---

(١) كتاب شعبة الاستخبارات والاستطلاع التعبوي السري والشخصي ٨٠٧ في ١٩٨٤/١٠/٨ .

ـ كان مكلفاً بواجب الدفاع عن محاور التقدم في شمال العراق، والمتمثلة بمحاور حاج عمران ـ اربيل ، قلعة دزه ـ كركوك . بنجوين ـ سليمانية ، ثم استمر هذا الوضع إلى الحد الذي أصبح ظاهرة تتكرر كل يوم ، ولقد كانت حصة طياري القوة الجوية من هذه الهدايا بالحجم الذي أصبح معه كل طيار عراقي يملك عدداً من السيارات ، بحيث أصبح فيه الطيارون يهدون بدورهم تلك الهدايا الثمينة إلى أصدقائهم وأقاربهم ، أو يبيعونها في السوق التي غصت بالهدايا من السيارات المتعددة الأنواع والأشكال ، فهل سمع أحد من الناس على طول التاريخ وعرضه بأن جيشاً بهذا الحجم يقاتل ومعه هذا السيل من الهدايا العجيبة؟ إن كل من يطلع على هذا الأمر سوف لن تقفز إلى ذهنه سوى أن هذا الجيش لا يمثل إلّا جموعاً من المرتزقة ، الذين ينتظرون من قيادتهم كل هذه المكارم والهدايا على حساب الواجب الأساسي ، الذي يفترض بأنهم يقومون بتأديته بطيبة خاطر، إن كل هذه الأساليب التي يتبعها النظام ، من أجل ترغيب المقاتلين ودفعهم إلى القتال ، إنما تسيء بالدرجة الأولى إلى سمعة القوات المسلحة العراقية ، حيث تضعها أمام التساؤل عن جدوى ونهاية وجودها في ساحة المعارك ، فهل تستمر هذه القوات في القتال في حالة نضوب خزانة الدولة ، أو تعرضها لأي سبب آخر إلى حالة من الجدب؟ وهل يتصور أحد الحالة التي ستكون عليها هذه القوات عندما لا تجد الدولة ما تقدمه لقادتها وآمريها ، والذي اعتادت أن تقدمه باستمرار؟ .

توزيع الأنواط :

و ـ تمنح الأنواط الخاصة بالحرب ، كنوط الشجاعة ، وأنواع أخرى لغرض تكريم المقاتلين الذين يقومون بأعمال بطولية متميزة ، لكن هذه الأنواط تمنح من قبل القيادة العامة العراقية بمناسبة وبدونها ، لمن يستحقها ولمن لا يستحقها ، فلقد جرت العادة أن تمنح أنواط الشجاعة للمقاتلين بأسلوب رخيص ، أصبحت فيه قيمة هذه الأنواط لا قيمة لها على الإطلاق ، ترسل رسالة إلى مقرات التشكيلات بترشيح عدد من المقاتلين لمنحهم أنواط شجاعة ، يقوم القائد العام للقوات المسلحة بتقليدها للمقاتلين بنفسه في أغلب الأحيان ، أو من ينوب عنه شخصياً ، وعندما ترد تلك الرسائل إلى الوحدات ، فإن آمريها يقومون بترشيح العدد المطلوب ترشيحه ، حسب ما ورد بتلك الرسالة ، وفي أحيان كثيرة ـ وغالباً ما يحدث ذلك ـ فإن آمري الوحدات يقومون بترشيح من هو أقرب المقاتلين إليهم ، ومن الذين لم يشتركوا بأي معركة من المعارك ، ويتكرر هذا الأمر دوماً ، مما يجعل المقاتلين لا يرون أي معنىً أو قيمة للنوط الذي يمنح ، على أن غالباً ما يرافق عملية منح النوط هدية نقدية قد تصل إلى مبلغ (٥٠٠) دينار عراقي .

إن مهزلة منح الأنواط أصبحت معروفة بين أوساط القوات المسلحة العراقية . فكم من الذين منحوا أنواط الشجاعة تم إعدامهم بعد فترة وجيزة من تقليدهم إياها، بسبب ما تسميه القيادة «الجبن والتخاذل»، وعندئذٍ يترسخ الاعتقاد لدى منتسبي القوات المسلحة بأن هذه الأنواط لا قيمة لها على الاطلاق ، وإنها خدعة إعلامية يمارسها النظام من أجل إضفاء بريق زائف على نشاط مشكوك فيه، يمارسه مقاتلون متميزون في القوات المسلحة ، بل إن القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية تلجأ إلى أسلوب منح أنواط الشجاعة بعد كل معركة خاسرة، تخرج منها القوات المسلحة في حالة يرثى لها من اليأس والتردي والضعف ، كي تتستر فيها على شعور الانكسار والفشل ، وإظهار حالة من الانتحار الزائف تعكس في واقعها عمق الضعف التي تعاني منه الحالة المعنوية العامة .

إن عدداً كبيراً من الضباط والمراتب كانوا يمنحون أنواط الشجاعة، وهم لم يكونوا أصلاً في الجبهة، عندما كانت تنشب المعارك ، في إحدى المرات قام الفريق الركن هشام صباح الفخري بترشيح كافة ضباط مقر الفيلق الرابع للحصول على نوط الشجاعة، وقام برفع أسمائهم إلى القيادة العامة، باستثناء المقدم عباس الملقب بعباس قومية ، وهو ضابط فاشل كان يعمل كتابع لقائد الفيلق ومديراً لشؤونه الترفيهية ، حيث كان هذا مجازاً عندما أرسلت قوائم الترشيح ، وعندما التحق بمقرّ عمله أُخبر بالذي حدث ، فما كان منه إلاّ أن دخل على قائد الفيلق مطالباً إيّاه بترشيح اسمه للحصول على نوط الشجاعة، وقد حصل بالفعل على ذلك، حيث خرج وبيده رسالة لاحقة ترشحه للحصول على النوط .

إن الحديث عن منح نوط الشجاعة في القوات المسلحة طويل ويحتاج إلى فصل خاص لوحده ، لقد وصل الأمر إلى درجة أن المقاتلين أصبحوا لا يميلون إلى ترشيح أنفسهم لنيله ، إلاّ أن أكثر ما يغريهم في هذا الأمر هو المكافأة المالية التي ترفق معه، وليس قيمة هذا النوط البائس ، ولم يُسمع من قبل بأن أي قيادة عسكرية في العالم كله قد قامت بمنح هذا العدد الكبير من الأنواط، الذي لا يدل إلاّ على المستوى الحقيقي من الانهيار الخلقي والتشويه الذي تمارسه قيادة لا تعي سوى أساليب الدجل والخداع والكذب على القوات المسلحة التي أؤتمنت عليها ـ بغفله من التاريخ . إننا نرثي لمديرية العينة العسكرية في وزارة الدفاع العراقية ، وهي الجهة المسؤولة عن تأمين الأنواط والنياشين في الجيش العراقي ـ لشدة ما تعانيه من أجل تأمين هذا العدد الكبير من الأنواط والنياشين، التي لم يسبق للجيش العراقي أن شهد من قبل هذه الموجة العارمة من الكرم الحاتمي والاسفاف في منح هذه الأنواط ، إذا علمنا بأن المديرية المذكورة تستورد هذه

الأنواط من الخارج، بعد أن تقوم الشركات الأجنبية بتهيئتها حسب المواصفات التي تطلب منها .

منح رتبة إضافية :

ز ـ من الأساليب الشائعة لدى القائد العام للقوات المسلحة العراقية منح رتبة كاملة للمقاتلين، فالعريف يصبح رئيساً للعرفاء، ونائب الضابط الممتاز يصبح ملازماً، وفي حالات أخرى يصبح فيها الجندي ضابطاً دفعة واحدة ، والملازم يصبح ملازماً أولاً ، والعقيد يصبح عميداً وهكذا ، والأساليب والأسس التي يعتمد فيها لمنح هذه الرتب لا يختلف بأي حال من الأحوال عن أسلوب منح الأنواط والنياشين ، إلاّ أن الفارق الوحيد هنا، هو أن كل منتسبي القوات المسلحة يطمحون في الحصول على رتبة أعلى بحق - وغالباً بدون حق ـ أما القيادة نفسها، فلم تبخل هي الأخرى في منح المقاتلين هذا التكريم ، وغالباً ما تكون الوحدات المحاصرة هي التي تغرى بمنح رتبة أو رتبتين أعلى لكافة منتسبيها في حالة صمودها ونجاحها في فك الحصار عنها وتملصها ، إلاّ أن تلك الوحدات غالباً ما تكون في حالة من الانهيار، لا ينفع معها هذا الإغراء، حيث تنتهي إلى التدمير أو الاستسلام بدون مقاومة تذكر .

لقد كثر منح الرتب في الجيش العراقي، إلى درجة أن عدداً كبيراً من الضباط منحوا رتباً أعلى ثلاث مرات، أو أكثر في فترة قصيرة ، حيث أصبحوا يحملون من الرتب ما كان يحتاج إلى سنوات طويلة من الخدمة كي يحصلوا عليها ، كما ان عدداً كبيراً من الجنود وضباط الصف قد حصلوا على رتبة ملازمين في الجيش ، مما كان له أثر سيء على الضبط العام داخل القوات المسلحة، بسبب عدم إمكانية هضم هؤلاء لهذا الانتقال المفاجيء من مرتبة المراتب إلى مرتبة الضباط ، كذلك ولدت عملية منح الرتب إلى الضباط وجود عدد كبير منهم برتب عالية، مما كان يصعب في أحيان كثيرة معالجة هذا الأمر دون إحداث خلل في ترتيب القيادة داخل الفرق والألوية .

لقد كان للأهواء الشخصية والقرابة أثر كبير في الحصول على رتب أعلى ، بل ان أشخاصاً كان يفترض بأنهم سيقدمون إلى المحاكم بسبب ضعفهم في إدارة المعارك ، هؤلاء الأشخاص كانوا يمنحون رتباً أعلى وأوسمة ونياشين وأنواطاً تكريماً لهم ، فالعميد الركن في حينها ثابت سلطان، الذي كان قائداً للفرقة المدرعة العاشرة في عمليات الشوش وديزفول عام ١٩٨٢ ،والذي قدر له الضباط بأنه سوف يعدم أو يحال إلى محكمة عسكرية، لأنه لم يستطع في حينها أن يدير المعركة، حيث كان مشلولاً وعاجزاً عن إصدار أية أوامر ، بل إنه لم يكن يعلم أصلاً عمّا يجري في جبهة فرقته ، حيث صدر الأمر بحجزه في غرفته

أثناء سير المعارك ، مما ترك انطباعاً لدى كافة الضباط بأن مصيره سوف ينتهي إلى الموت ، كما جرد من قيادة الفرقة، وسلمت إلى رئيس أركان الفيلق الرابع الذي كان يصدر الأوامر مذيلة بتوقيعه ، إلاّ أن ما حدث بعد انتهاء المعارك كان مفاجأة رهيبة لكل منتسبي الفيلق الرابع ، فبدلاً من أن يحاسب على تقصيره وإهماله، تم ترقيته إلى رتبة أعلى، وعيّن رئيساً للجنة تحقيقية كان واجبها التحقيق في أسباب الفشل الذريع والنكبة المروعة التي انتهى إليها الفيلق الرابع في هذا القاطع ، كل ذلك جرى لأن المشار اليه كان من أقارب صدام والمخلصين له ، في الوقت الذي حوسب فيه قائد الفرقة الآلية الأولى العميد الركن تامر حمود الامارة، وحكم عليه بالسجن سبع سنوات بعد اتهامه بالتقصير في تلك العمليات ، لأنه من أهالي البصرة، وليس لديه من يتشفع له لدى القيادة، لقد ارتقى ثابت سلطان درجة أعلى ، وبصورة مفاجئة، حيث أصبح لواءً، ومن ثم قائداً للفيلق الرابع، بدلاً عن هشام صباح الفخري ، جرى ذلك في نفس العام الذي دارت فيه معارك الشوش وديزفول دفعة واحدة ، هذه هي العدالة التي يبني عليها القائد العام للقوات المسلحة تعامله مع القادة والمراتب في القوات المسلحة ويسبغها عليهم ، فأي غبن واجحاف سوف يتركه هذا النوع من التمييز ، وأي تهديم للروح المعنوية الذي يحدثه وجود قائد كهذا ، يعامل رعاياه بأساليب الخسف والإذلال والتمييز ، ينأى عنها كل قائد شريف، ينظر إلى كل فرد من أفراد قواته المسلحة نظرة الأب العطوف ، الحازم بعدل ، دون تفريق أو تمييز بينهم؟

نائب القائد العام :

– يبرز عامل مهم من العوامل المؤثرة سلباً على الروح المعنوية للقوات المسلحة العراقية، استلام عدنان خير الله لمنصب نائب القائد العام للقوات المسلحة ووزير الدفاع ، حيث أحدث ذلك شرخاً كبيراً في وجدان وضمير القوات المسلحة ، لقد كان صعوده المفاجيء غير المرتقب، وارتقاؤه ثاني أرفع منصب في القوات المسلحة سبباً في حدوث حالة من الاضطراب الشديد في ذهن عدد كبير من قادة وضباط القوات المسلحة ، فضابط برتبة مقدم ركن له سمعة لا يحسد عليها بين صفوف الجيش ، لا يمتلك من الخبرة والكفاءة العسكرية ما يؤهله لأن يقود فرقة عسكرية ، يصبح وبمثل لمح البصر نائباً للقائد العام للقوات المسلحة ووزيراً للدفاع، بعد أن يمنح رتبة فريق أول ركن متخطياً في قدمه عدداً كبيراً من ضباط الجيش، الذين كانوا ضباطاً في الجيش العراقي، في الوقت الذي لم يكن فيه عدنان خير الله قد رأى النور بعد ، ومن بين هؤلاء الفريق الأول الركن عبدالجبار شنشل رئيس الأركان العامة للقوات المسلحة، الذي أصبح يؤدي التحية

إلى ابنه ـ مع الأسف الشديد ـ إذن فأية قيمة للضبط العسكري وللمفاهيم المسلكية الانضباطية تحت ظل هذا الوضع المزري ، وكيف سيكون أداء القادة والضباط والمراتب على مختلف المستويات؟، وما هي الأفكار والهواجس التي سيحس بها هؤلاء نتيجة لهذا الاستخفاف الواضح والصريح بكل القيم والمثل العسكرية المتعارف عليها؟.

ولقد أحس المتسلطون على مقاليد الأمور، بأن حركة غير اعتيادية من التذمر غير المعلن والسلبية بدأت تعتمل داخل صفوف القوات المسلحة، خاصة بين الحزبيين من الضباط الذين يرون بأنهم كان لهم الفضل في نجاح انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ ، أمثال العقيد الركن عدنان شريف الذي قتل في حادث سقوط طائرة عمودية في الأشهر الأولى للحرب عام ١٩٨٠ ، واللواء الركن وليد محمود سيرت قائد الفيلق الأول، وأعداد كبيرة أخرى من الرعيل الأول من الحزبيين ، وكان ان دبرت ما سمي بمؤامرة محمد عايش وزير الصناعة عام ١٩٧٩ ، وبعد استلام صدام لمنصبه كرئيس للجمهورية التي أدت إلى إعدام عدد كبير من الضباط ،الذين قد يفكرون بالتململ أو التحدث مع الآخرين عن هذه الفاجعة التي حلّت بالجيش العراقي ، سواء قبل استلامه لمناصبه أو بعدها ، فإن نائب القائد العام لم يتصرف أبداً في أي يوم من الأيام بالطريقة التي توحي للآخرين بأنه شخص سوي ومستقيم ، فقبل انقلاب ١٧ تموز ، حيث كان ضابطاً صغيراً في البصرة ، كانت سمعته من السوء بحيث أصبح موضوعاً للحديث بسبب السلوكية المنحرفة والممارسات التي يأنف كثير من الناس العاديين من اقترافها ، فضلاً عن الضباط الذين يجب أن يحافظوا على سمعتهم محافظةً على سمعة القوات المسلحة العراقية ،وإعطاء صورة مشرقة عنها بين أوساط الشعب ، إلّا أنه عندما استلم مناصبه برزت نوازعه المنحرفة وسلوكيته النابعة من انحداره الفكري المتدني الذي يرتكز على روح عشائرية ضيقة نهمة ،لا تقيم وزناً لمشاعر الآخرين وأحاسيسهم ، فلقد استغل منصبه أبشع استغلال ، وقام بارتكاب مخالفات كثيرة لا تعد ولا تحصى ، وكان يتصرف وكأن وزارة الدفاع بما فيها ملك صرف ، و«ضيعة» من ضياع والده خير الله طلفاح ، فدخل وسيطاً للشركات الأجنبية التي تعمل في العراق ، بعد أن أصبح دخله من النفط كبيراً بسبب ازدياد الأسعار ، مما أتاح فرصاً كبيرة لهذه الشركات في الحصول على بعض المشاريع المهمة الكبيرة التي تقرر انجازها. ولقد كان للمدعو عبدالحميد الحلوجي الدور الرئيسي في ترتيب أمور الشركات وفوزها بالمناقصات التي كانت تعلنها الحكومة العراقية ، وكان هذا يتفق مع هذه الشركات بأن تخصص نسبة معينة من قيمة العرض لعدنان خير الله ، والحلوجي هذا هو صاحب شركة الحلوجي لاستيراد الأفلام السينمائية في العهد الملكي ، وله مكتب ضخم في ساحة الأندلس،

يحتوي على غرف نوم مؤثثة بأحدث الأثاث الايطالي، وقاعة سينما صغيرة لعرض الأفلام الخاصة ، إضافة إلى مكتب أنيق وعدد من السكرتيرات الأجنبيات الجميلات من السويد وسويسرا ، حيث كان يتردد عدنان خير الله على هذا المكتب بصورة منتظمة لقضاء أوقات من اللذة الحرام والتسلية المشبوهة .

ونذكر في مجال استغلال منصبه للحصول على منافع لا شرعية ولا أخلاقية، تضع شرف وكرامة الجيش في أدنى درجة . يقول أحد ضباط كتيبة هندسة ميدان المقر العام، ومقرها في معسكر الرشيد في بغداد في عام ١٩٨٥ : وصلتنا رسالة مستعجلة من مديرية الحركات العسكرية تطلب منّا تهيئة سرية هندسة ميدان مع معداتها اللازمة لإنشاء طريق طوله ٢ كلم في منطقة الفخامة ، إحدى ضواحي بغداد الشمالية الشرقية ، حيث يوجد مطار للطائرات الشراعية والسمتية، أنشأه عدنان خير الله في مدينة فخمة حديثة تحتوي على أحدث المرافق وأجملها. اشتركت في إنشائها عدة شركات أجنبية ، وبالفعل فقد تمّ إخراج سرية هندسة مع معداتها اللازمة واتجهت إلى المكان المطلوب ، وعند وصولها إلى المنطقة كان بانتظارها بعض الادلاء الذين أشاروا لهم بوجوب إنشاء طريق مبلط من نقطة مؤشرة إلى نقطة أخرى، وبأن العمل يجب أن ينتهي غداً حتماً ، أجابهم الضابط بأن هذا الأمر خيالي لأنه يحتاج إلى أعمال هندسة متكاملة، كفرش التراب والحصى الناعم والرش والحدل ثم التبليط بوضع الاسفلت كمرحلة نهائية من العمل ، وبأن العمل يحتاج إلى وقت أكثر من (٢٤) ساعة ، لكن المشرفين أصروا عليه بأن ينجز هذا العمل بالوقت المقرر ، وإذا كان العمل يقتضي الاستمرار ودون توقف ليل نهار فإنهم سوف يجلبون له أجهزة إضاءة ضخمة لإنارة منطقة العمل ليلاً ، وبالفعل فقد هيأت الإضاءة اللازمة، واستمر العمل لمدة ٢٤ ساعة بدون توقف، إلى أن تم إكمال العمل في الطريق الذي يصل بين البساتين التي أنشئت فيها القصور والمدرج .

يقول الضابط : بينما نحن لا نزال نشرف على العمل الذي أوشك على الانتهاء، وإذا بعدد من سيارات الخطوط الجوية العراقية تصل، وهي محملة بعدد كبير من الغانيات والراقصات من الفرق الأجنبية ، بقينا ننظر إليهم بألم والعرق يتصبب من جباهنا ، وقد انتابنا شعور من الكراهية والحقد والذل بسبب هذه الحالة المؤلمة التي نعيش فيها ، إذن فنحن استدعينا لعمل الطريق من أجل هؤلاء ، أين هي كرامتنا وشرفنا العسكري؟ هل نحن مكلفون فعلاً من أجل حماية الوطن ، أم فتح الطرق للعاهرات من الغانيات اللواتي جلبن لترفيه هذا المدلل؟ (يقصد عدنان خير الله) ، الذي لا يعرف الخجل ولا للجيش كرامة؟!، وصل آمر السرية ـ سرية الهندسة ـ فقلنا له : بأننا كنا نعمل طريقاً للعاهرات

كي ينعمن بالراحة والهدوء وحتى لا تتسخ أقدامهن الجميلة ، لقد كنا نعد لهن طريقاً للعبور إلى أحضان المجد ـ كما نفعل ذلك لجيشنا العزيز ـ ، والطريف بالأمر أن حماية عدنان خير الله كانوا ينهرون الجنود وضباط الصف الذين ينظرون إلى هذا الحشد من الراقصات والغانيات بشدة ، وكأنهم يقولون لهم لا تنظروا إلى عائلة الوزير على اعتبار أنهم خاصات بعدنان نفسه ، ولن يسمح بأي حال من الأحوال أن ينظر الغرباء إليهن ، لأن ذلك يسيء إلى شرفهن الرفيع وشرف الوزير المدلل .

ـ أما استهتار هذا الصبي مدلل اللاأخلاقي الذي لا يحده حدود أو يردعه خلق أو عرف أو قانون ، ففي هذه الرواية التي يرويها مدير شرطة مدينة الثورة في بغداد نلمس مدى استهتار هذا المدلل ، وحيرة الناس ، وحجم الإهانة التي يتلقونها منه ومن أبيه ، يقول هذا المدير المسكين بعد أن دخل عليه أحد ضباط مديريته ، فوجده حائراً ساهماً منكسراً حيث استفسر منه عن سبب وضعه المؤلم هذا :

ـ اغلق الباب خلفك لأنني أريد أن أقول لك شيئاً ثقل صدري من شدة حمله .

وبعد أن أغلق الضابط الباب ، كي لا يتسرب الحديث إلى آذان الجواسيس .

ـ ماذا أقول لك ، بل كيف أبدأ الحديث ومن أين؟ ، على أي حال ، قبل ثلاثة أيام اتصل بي خير الله طلفاح تلفونياً ، والذي يقع بيته في شارع القناة ، وهو يقول لي بأنه يوجد بيت للدعارة في حي ١٤ تموز ، وأعطاني رقم البيت وبقية المعلومات والأوصاف ، وطلب مني أن أذهب إلى ذلك البيت وأخليه من ساكنيه ، ذهبت إلى ذلك البيت مع مفرزة من الشرطة وسيارة تحمل رشاشة ، ووصلنا إلى البيت ، وبعد أن طرقناه خرجت إلينا فتاة حيث بادرتنا إلى القول : ماذا تريدون . . خير؟ . . قلنا : تفتيش ، أجابتنا انتظروا لحظة واحدة ودخلت إلى البيت . . ولم تمر إلاّ لحظات قليلة حتى خرج لنا عدنان خير الله وهو يرتدي بجامة ملقياً على كتفيه روباً خفيفاً ، بعد أن شاهدته قلت له عفواً سيدي ! ! ، لا يوجد شيء نحن مشتبهون ، قال : لا هذا ليس اشتباه . . هل لديكم شيء تكلموا؟ أجبته لا سيدي ليس لدينا شيء ، انفجر بعدها غاضباً وهو يقول : أيها السفلة فاقدو الغيرة والشرف لماذا أتيتم إلى هنا ، وأخذ يسبنا بأقذر السباب وأحقر النعوت ، أديت له التحية وأنا أعتذر وتراجعت بسرعة مهموماً مقهوراً في كرامتي ، وأنا لم أفعل سوى تأدية واجبي فقط ، ولم أفعل شيئاً يخالف ذلك ، الأدهى من ذلك اتصل بي بالأمس خير الله طلفاح مرة أخرى مستفسراً فيما إذا تم إخلاء البيت أم لا؟ قلت له : لا يا سيدي فتشنا البيت ولم نجد فيه شيئاً ، فلما سمع ذلك قال : أيها السفلة الحقيرون ، ماذا أعطوكم كي تتركوهم وكيف حدث ذلك ؟ ثم أخذ يوجه لي أقذع السباب والكلام البذيء ، وأنت

تعرف لسان الحاج كم هو بذيء. . . كيف أجيبه وبماذا؟ هل أقول له إن ابنك المحروس المدلل كان هناك بين أحضان العاهرات؟. فتقع في بلاء أشد، حيث لا نعلم بعدها ما هو مصيرنا؟. .

القادة الميدانيون :

ـ يغرق القادة الميدانيون في وحل من الانتهازية الممزوجة بالخوف والتردد، وذلك يرجع في الواقع إلى أسباب عديدة متشابكة، منها ما يمكن أن نشخصه بدقة، ومنها ما لا يمكن أن نصل إليه بتلك السهولة، الوضع النفسي وانعكاساته السلوكية اليومية، الذي يتركب من مزيج من العقد والاحساس بالنقص التي يساهم النظام نفسه، أبى أم شاء، بترسيخها في نفوس هؤلاء القادة، فهو باتباعه أساليب بعيدة عن التأكيد على شخصية فذة متكاملة واثقة بنفسها لدى المقاتلين عموماً، والقادة منهم بصورة خاصة، فالإرهاب، وتسليط سيف الاعدام على الرقاب، وشراء الذمم والاستهانة بكرامة المقاتلين، كل ذلك أدى إلى أن يشكل ضغوطاً مختلفة التأثيرات على نفسية المقاتلين والقادة، كان من نتائجها الرئيسية الواضحة ظهور نوع من التعامل مع الحياة، بكل مواقفها المتغيرة المتبدلة التي تفرضها استمرار الحرب وشدة ضغوطها اليومية على أعصاب وقلب القائد والمقاتل معاً، تعامل يتسم بالحذر والتردد والترقب والأنانية، يظل كافة القادة الميدانيين، اعتباراً من قائد الفيلق، وحتى قائد الفصيلة يرزحون تحت ضغط الاحساس بهذا الوضع الغريب، إضافة إلى الاعتقاد السائد بين أوساط كافة القوات المسلحة بأن هذه الحرب ليست عادلة إطلاقاً، باستثناء القلة القليلة منهم الذين يرتبطون بالنظام ارتباطاً مصيرياً لأسباب مختلفة، منها بالدرجة الأولى أواصر القرابة التي تربط عدداً كبيراً من رؤوس النظام، حاجة النظام إلى انتقاء نوع من القادة من ضعاف النفوس، يمكن إدارتهم وتوجيههم بالطريقة والاتجاه الذي يرغب به، إلاّ ان هذه الغالبية العظمى من القادة التي تعيش ازدواجاً في الشخصية، وتظهر ما لا تبطن، تستمر بصورة تدريجية بالانحدار إلى هاوية الانتهازية، عندما ترى أمامها هذه المكرمات التي لا تعد ولا تحصى التي يقدمها القائد العام للقوات المسلحة على القادة الميدانيين، بل حتى المقاتلين العاديين، فإن لم يكن الطمع بالحصول على المغانم كافياً لإسكات هؤلاء، فإن سيف الإرهاب المسلط عليهم كفيل بالعمل على ترشيد حركتهم بالاتجاه الذي يريده النظام، على أن هؤلاء أو أولئك لا يستطيعون بأي حال من الأحوال أن يستمروا في اللعبة إلى نهايتها، ما دام العامل المؤثر الفاعل الذي ينبع من ذات الفرد وضميره مفقوداً، إذ سرعان ما تتعرى النفس تماماً أمام صرامة المواقف وشدة التأثير الذي تفرضه، بحيث يصبح هؤلاء جميعاً أمام حالة يتناسى

فيها الإنسان نفسه، والظروف أو المغريات التي تدفعه أن يسلك نوعاً من السلوك الذي يبدو بأنه لا ينبع من قناعة وإدراك، وفي مثل هذا الظرف يختلف تصرفه تماماً، حيث يبدو وكأنه ينقاد بصورة غريزية قدرية، لا قدرة له على التأثير فيها، يدفعه إلى نوع من التصرف الذي يرى نفسه فيه بأنه قد فرض عليه فرضاً ولا طاقة له أصلاً على تجنبه، سلوك يختلف عمّا اعتاد أن يريه للآخرين من القادة أو المرؤوسين في ظروف توقف القتال أو حالات السلم، إنه يرى نفسه عندئذٍ كالإنسان الذي يسير إلى قدره وحيداً مستسلماً، حينها سيرى النظام نفسه وقد خسر كل شيء، وسيرى هؤلاء جميعاً أنفسهم في مرآة جديدة، لم يعتادوا أن يروا أنفسهم فيها، ومرآة تخلو من نوط الشجاعة، ومظروف يحتوي على (١٠٠٠) دينار أو سيارة حديثة، بل إن سيف الإرهاب سيبدو في هذه المرآة ظلاً شاحباً لا يكاد أن يرى، ستظهر صورة أخرى تختلف عمّا كانوا يرونه من قبل، صورة إنسان متردد، شاحب اللون، ليس في ذهنه من تلك الشعارات البراقة أو الأقوال التي تسمى مأثورة زوراً، ليس في ذهنه منها شيء، سترسم ذاته فقط في هذه الصورة، صورة من يفتش عن وسيلة لانقاذ رأسه من هذا الخطر الكبير المحدق به، الذي يتلمس طريقه إليه في كل لحظة، وفي آخر الأمر سيجد نفسه مضطراً إلى أن يسابق لحظات الزمن، من أجل أن يبتعد عنه، وسيجد الحل الملائم له حسب العلاقة التي تربطه بمحيطة وظروفه، فمنهم من يهرب إلى الخلف، خاصة القادة والآمرون، فعندما تحين ساعة الخطر فإن قسماً من القادة آمري الألوية والوحدات، وحتى الفرق يجدون أنفسهم مضطرين إلى التشبث بكذبة شائعة مفضوحة، كأن يقولون مثلاً إننا ذاهبون للوقوف على الموقف عن كثب، فيركبون عجلاتهم ولا يعود يراهم أحد إلاّ بعد انتهاء المعارك، والقسم الآخر يسلم نفسه دون قتال، وقليل منهم من يقاتل، وكثير منهم يأخذ الإرباك منه مأخذاً، فلا يعود قادراً على التصرف والعمل، وبذا يكون في حالة انتظار لمصيره لا يدوم طويلاً، وفي أوقات الشدة والامتحان تبرز النفوس على حقيقتها، حيث ينسى الإنسان نفسه تماماً، لا يتمعن ويدقق كثيراً بالظروف المحيطة به، بل إنه يقطع الصلة ـ في أحيان كثيرة ـ بكل ما حوله حيث ينهمك بالتفكير بنفسه فقط، وكأنه يعيش في الفراغ تماماً، لكن هذا الفراغ محاط بهالة من الألوان المختلفة، تدفعه بصورة مستمرة لتعزيز حالة العزلة والخوف في نفسه.

لقد قام العميد الركن رياض طٰه آمر لواء ١٧ تموز المدرع، بعد استلامه أمر الانسحاب إلى مواضعه القديمة في العمليات التي سميت «الاجهاضية»، والتي سبقت عمليات الشوش وديزفول بأيام قليلة، قام بالقفز إلى دبابة القيادة وساقها بنفسه، دون أن يلاحظ بأن عدداً من طائفة الدبابة ومراسله الخاص ـ مسيحي اسمه صباح ـ كانوا ينامون

تحت الدبابة، لأنها تشكل ملجأ جيداً ضد القصف المدفعي الذي كان على أشده ، مما أدى إلى مقتلهم جميعاً تحت سرف الدبابة وتقطيعهم إرباً إرباً ، انها تلك الحالة النفسية التي تحدثنا عنها آنفاً .

ـ لقد شهدت الحرب نماذج من القادة يختلف بعضهم عن البعض الآخر اختلافاً كبيراً ، فمن هؤلاء من يستمر محافظاً على رأسه، مسايراً هذا الموج المتلاطم من الزيف والكذب والادعاءات الفارغة ، اما عن قناعة بأنه يفعل ذلك، على أقل تقدير للمحافظة على منصبه الذي حصل عليه ، مما لم يكن في باله في يوم من الأيام أن يصله أو حتى يحلم به ، وهذا النوع من الناس ـ خاصة الجهلة منهم ـ شديدو التمسك بما يصل إلى أيديهم ، ويبدون استعداداً غريباً من أجل تهيئة ظروف تخدم بقاءهم،ويتشبثون بمختلف الأساليب وأقذرها وأخسها من أجل ذلك ، وهؤلاء غالباً ما يكونون من ضعاف النفوس، أوعديمي الكفاءة والمؤهلات التي لا يمكن بواسطتها أن يصلوا إلى ما هم فيه ، لذا يعمدون إلى سد هذا النقص بهذا النوع من الوسائل والأساليب، والبعض الآخر من هؤلاء القادة من الذين لديهم سوابق أخلاقية ،أو مواقف تظهر فيها دناءة نفوسهم، فتنحط إلى مستوى من القذارة مما يجعلها أداة طيعة بيد رأس السلطة الذي يعمد إلى اصطياد مثل هذه النماذج، ويبرع في استخدامها مستثمراً عوامل النقص فيها، ومن هؤلاء ، الفريق الركن طالع الدوري ، هشام صباح الفخري ، ضياء توفيق إبراهيم ، والثلاثة اشغلوا منصب قائد فيلق ، العميد الركن فوزي حميد العلي ، العميد الركن رياض طه ، العميد الركن أياد خليل زكي من قادة الفرق العراقية ،وغيرهم الكثير من آمري الألوية ، إلاّ أننا نستطيع أن نقدم ترجمة لحياة بعض القادة الميدانيين لنقف وجهاً لوجه أمام الشواهد والبراهين التي تدعم آراءنا، ما دمنا كلنا بحاجة إلى أن نورد ما يعزز أفكارنا ويجعلها أكثر وضوحاً ورسوخاً وقبولاً ، وتظل الحقيقة الأكثر أهمية ماثلة أمام أنظارنا،وهي أن القائد والقادة مهما كانوا أكفاء ومقتدرين فإنهم سوف لن يحصلوا على أي نتائج مثمرة، مهما كانت الخطط التي يضعونها لإدارة الحرب محكمة ومتكاملة ، إذا كان المقاتلون عاجزين عن تنفيذ هذه الخطط أو لا يبدون الرغبة اللازمة لذلك .

ـ ٢٣ الفريق الركن طالع الدوري :

أ ـ من محافظة صلاح الدين ـ تكريت ـ قضاء الدور .

ب ـ من منتسبي الدورة ٤٢ في الكلية العسكرية، حيث فصل منها بعد ١٨ تشرين ١٩٦٣ ، ولم يكمل فيها (١٠) أشهر ، أُعيد إلى الجيش برتبة ملازم عام ١٩٦٨ بعد انقلاب ١٧ تموز، حيث كان يعمل معلماً في المدارس الابتدائية.

جـ ـ دخل كلية الأركان الدورة ٤١، وتخرج منها بعد منحه شارة ضابط ركن، يعتبر من أغبى ضباط الجيش العراقي وأقلهم خبرة في الشون العسكرية.

د ـ عضو المكتب العسكري المتفرغ المسؤول عن الدورات وتقييم الضباط .

هـ ـ أصبح قائداً للفرقة المدرعة التاسعة بأشهر معدودة قبل الحرب، لم يتدرج في المناصب أبداً، حيث لم يعمل آمر رعيل دبابات، أو آمر سرية، بل عمل آمر كتيبة في لواء المدرع العاشر.

و ـ قائد الفرقة المدرعة الثالثة .

ز ـ قائد الفيلق الخامس .

ح ـ قائد الفيلق الثالث.

ط ـ اشغل منصب مستشار عسكري للقائد العام للقوات المسلحة .

ـ يعتبر طالع الدوري من المقربين إلى عزت الدوري نائب رئيس مجلس قيادة الثورة ، انقطع عن الخدمة لمدة تزيد عن (٥) سنوات، وهي المدة التي يقضيها الضابط الحديث في العمل المثابر والمنتج الذي يزوده بالخبرة ويصقل مواهبه وقدراته العسكرية ، الفكرية والجسمية ، لم يشغل منصب آمر رعيل دبابات كضابط حديث ، اشغل منصب آمر سرية دبابات لفترة قليلة جداً لا تتجاوز الأربعة أشهر ، ثم دخل كلية الأركان ، في واقع الأمر لم يكن ممن يملك من المؤهلات والكفاءة التي تؤهله لارتقاء المناصب الرفيعة التي ارتقاها سوى أنه مطيع ومخلص للنظام بصورة مطلقة، لأنه يحس بأن ما حصل عليه ليس إلاَّ منّةً من رئيس النظام، وليس بفضل جهوده ومثابرته ، ولم يكن ناجحاً على الاطلاق في تأدية المهام التي أوكلت له، بل إن بعض التوفيق الجزئي المحدود الذي حصل عليه لم يكن بأي حال من الأحوال ثمار جهوده وتعبه ، بل إنه كان دوماً عاملاً سلبياً ومعيقاً لمرؤوسيه ، لقد مارس القيادة، خلال توليه لقيادة الفرقة المدرعة التاسعة، بطريقة ألغت وجود هيئة ركنه، إضافة إلى إرباك وتوهين آمري الألوية، وضباط ركن مقراتها بإلحاحه المستمر المتواصل للحصول على المعلومات عن تطور المعارك، وبأسلوب لم يسمح لآمري التشكيلات أن يتخذوا القرارات الملائمة.

ففي عمليات الطاهري، التي جرت بتاريخ ٣٠ نيسان ١٩٨٢، وبعد عبور القوات الإيرانية إلى الضفة الغربية لنهر الكارون، وتدميرها للفرقة المدرعة الثالثة في المراحل الابتدائية للهجوم، ووصلت إلى الطريق العام أهواز ـ خرمشهر ، صدرت الأوامر يوم ٥ مايس للفرقة المدرعة التاسعة لإزاحة القوات الإيرانية عن مواضعها الجديدة وتدميرها ، ولقد تبرع طالع الدوري ـ وكعادة القادة العراقيين ـ للقيادة العامة، أن يحقق لها هذا الانجاز

الذي عجزت بقية الفرق عن تحقيقه ، ومن مهازل القدر أن يبرز هذا الأمي كمنقذ لهذا الجيش التعيس والوطن المدمر .

عندما تقدمت التشكيلات المكلفة بالهجوم، والمؤلفة من اللواء المدرع ١٧ تموز، والآلي ٢٤ ، والثامن الآلي ،وكان الهجوم قد شن ليلاً ، بدأ طالع الدوري على الفور اتصاله المباشر مع آمري الألوية ، وبصورة مستمرة ،وفي اللحظة التي بدأت فيها الوحدات بالحركة من مناطق اجتماعها ، بحيث لم يتح لهم فرصة لتوجيه وحداتهم وإدارتها ، بعد فترة قصيرة اتصل العقيد الركن صابر الدوري آمر اللواء الثامن الآلي بقائد الفرقة، يخبره بأن وحداته قد وصلت أهدافها، وبأنها الآن على حافة الطريق العام أهواز ـ خرمشهر ، وصابر الدوري هو من أقرباء طالع الدوري ومن أصدقائه المقربين ـ أصبح فيما بعد مديراً للاستخبارات العسكرية ـ كان آمرا اللوائين ١٧و٢٤ ، يستمعان إلى المكالمة على شبكة قيادة الفرقة ، فأُصيبوا بالذهول، لأنهم لم يخبروا من قبل وحداتهم الجانبية بأن اللواء الثامن قد وصل قبلهم إلى أهدافه ، طلب قائد الفرقة، وبصورة مستعجلة الموقف من اللوائين المذكورين، واستفسر عن سبب تأخرهم عن الوصول إلى أهدافهم ، أُجيب بأن المقاومة شديدة، والقوات ليس لديها الإمكانية على حسم الموقف بالسرعة المطلوبة ، أجابهم بأن اللواء الثامن قد وصل إلى هدفه، وانه يتوجب عليهم عدم تركه لوحده ، وقد كرر هذا الأمر عدة مرات، مما سبب ارباكاً لعمل آمري اللوائين الآخرين ، أُجيب بأن اللواء الثامن لم يصل لحد الآن إلى هدفه ، اتصل باللواء المذكور حيث أخبره آمر اللواء بأنه قد وصل إلى هدفه بالفعل، ولأن اللوائين الآخرين لم يصلا إلى أهدافهما، فإنه اضطر إلى التراجع لانكشاف جناحيه ، وكان هذا كذب محض، لأن آمر اللواء الثامن كان في واقع الأمر ينتظر كل من اللواء المدرع ١٧ واللواء الآلي ٢٤ أن يصلا إلى أهدافهما، ليسهلا عليه عملية التقدم، لأن هدف اللواء كان في الوسط ولأن الهجوم على جناحيه كان مناطاً باللوائين الأخرين ، لقد فشل الهجوم فشلاً ذريعاً، حيث قتل آمر اللواء ٢٤ هو وعدد من ضباط ركنه، كما وقع في الأسر من تبقى منهم، وأُصيب اللواء بخسائر فادحة ، كما أُصيب اللواء المدرع ١٧ تموز بخسائر جسيمة أيضاً ، وهكذا فإن اللواء الركن ـ عندما كان قائداً للفرقة التاسعة ـ قد برّ بوعده وانجز واجبه بالطريقة المعهودة بأن زج الفرقة في معركة خاسرة مسبقاً ، حيث لم يتح للآمرين فرصة الاستطلاع الجيد، وإصدار الأوامر والاستعداد للدخول في المعركة بصورة مرضية .

ــ في عمليات الفاو ، التي نشبت في شباط من عام ١٩٨٦، حيث كان الفريق الركن طالع الدوري قائداً لأحد الارتال الثلاثة الشهيرة التي طبل لها النظام وزمّر، والتي

كانت تتقدم من ثلاثة اتجاهات نحو الفاو، لغرض استعادتها من قبضة القوات الإيرانية التي أحكمتها على المدينة ومشارفها ، في تلك العمليات مارس هذا الطالع السوء أحقر وأخس الأساليب التي يأباها أي قائد لديه قليل من الإحساس بالشرف والكرامة ، مارس هذا القائد الفاشل إدارته للمعركة معتمداً على غش وخداع الوحدات والتشكيلات التي كان يقودها، دون أدنى إحساس بتأنيب الضمير أو تقدير لرابطة أخوة السلاح والمصير - وغالباً ما كان القادة يمارسون هذا النوع من الأساليب مع وحداتهم - فليس المهم ما يصيب الوحدات من الألم والإحساس بالمرارة ، المهم أن يُشْعِر هؤلاء القادة قائدهم العام بأنهم يقودون ويديرون المعارك، بصرف النظر عن النتائج التي تنتهي إليها ، وغالباً ما يستطيع هؤلاء أن يعبروا مواقف مغايرة تماماً لما يجري في ساحة المعركة ، خاصة في المعارك المحدودة ، التي لا تتضح نتائجها بسرعة .

في معارك الفاو حدثت هذه القصة المضحكة المبكية ، استدعي أحد آمري أفواج لواء مغاوير الفيلق الخامس، الذي وضع بإمرة الرتل الذي يقوده الفريق الركن طالع الدوري ، إلى مقر لوائه، وأخبر بأنه لديه واجباً لحماية أحد الألوية المدرعة في منطقة مأوىً أمامية : « عليك أن تهيء الفوج لهذا الواجب، وسيصل بعد قليل فوج آلي سيقوم بحمل جنودك ثم تتقدمون إلى مسافة معينة ، هناك سيكون بانتظاركم ضابط ركن، سوف يصدر لكم أمراً نهائياً حول الواجب»، وصل الفوج الآلي، ولم يكن آمر فوج المغاوير يعرف أي فوج هو، ولأي تشكيل يتبع ، اعتلى الجنود ظهور الناقلات ووصلوا إلى النقطة التي كان ينتظرهم فيها ضابط الركن الذي كلف بإصدار الأوامر النهائية ، كان الوقت ليلاً ، قال ضابط الركن ، انفخوا كثيراً وتقدموا لمسافة من ٥٠٠ - ٦٠٠ متر، ويمكنكم الاستفادة من عداد الناقلات لهذا الغرض ، عند وصولكم إلى المسافة المقررة توقفوا، ثم أقيموا مواضعكم هناك ، احفروا واكملوا التحكيم وسيتم غداً صباحاً إكمال نواقصكم واحتياجاتكم، وما إن تقدم الفوج مسافة لا تزيد على ٣٠٠ متر، حتى انفتحت عليه نار شديدة من أسلحة خفيفة وقاذفات ورشاشات ثقيلة ومتوسطة ومدفعية وهاونات، لم يكن لدى القوة فرصة لتشخيص ما يجري، أو أخذ فكرة عن الموقف ، ترجل الجنود وامتدوا بسرعة، حيث كان الرمي ما يزال على أشده ، استمر الوضع هكذا لمدة نصف ساعة ، وبعد توقفه، نهض آمر الفوج يفتش عن جنوده، فوجدهم بين قتيل أو جريح ، منهم من يصيح بأعلى صوته ، ومنهم من يئن من جراحه ، وكانت ليلة لا تنسى ، اتصل آمر الفوج بالخلف يخبرهم بالموقف ، لقد أخبرتموني بأن الواجب هو حماية منطقة مأوى للواء مدرع، ولا أعلم ما الذي يحدث ، أجابه صوت من الجانب الآخر : انهوا العملية وعودوا

إلى أماكنكم ، أجاب آمر الفوج : ما هي العملية التي سأنهيها ، كان الجواب : أوقفوا عملية الهجوم ، وعودوا إلى أماكنكم التي انطلقتم منها ، أجاب آمر الفوج : إنكم ربما تكونون متوهمين ، فلم يكن الواجب هو هجوم ، بل كان حماية مأوى لواء مدرع ، عندئذٍ أجابه آمره بلهجة قاطعة : أنت تفهم شيئاً ونحن نفهم شيئاً آخر ، باشر بالتنفيذ ، وسنخبرك عند العودة ، انتهى .

باشر آمر الفوج بجمع جنوده ، أو بالأصح ما تبقى منهم ، فمن بين (٥٠٠) مقاتل لم يسلم منهم سوى (٨٠) ، إضافة إلى أعداد كبيرة من الجرحى ، لقد فقدت الوحدة ما لا يقل عن ثلثي موجودها ، سأل الضابط نفسه : لم نعد نعلم شيئاً عمّا يجري ، أو نفهم ما يجب عمله ، ماذا أقول : حقاً انه انهاء عملية ولكنها (جراحية) ، ظل الضابط حزيناً متألماً محتاراً . . يعصره البؤس والحزن على مصير جنوده الذي وضعته الأقدار بأيدي هذه الحثالة من البشر ، في اليوم التالي وصلت برقية ـ رسالة ـ إلى مقر الفوج تطلب حضور آمره إلى المؤتمر التحليلي لعملية الهجوم المزعوم ، حضر آمر الفوج المؤتمر الذي كان يرأسه قائد الرتل الفريق الركن طالع الدوري ، كما حضره كل من العقيد الركن إبراهيم عبدالستار آمر اللواء المدرع العاشر ، وآمر لواء مغاوير الفيلق الخامس ، تكلم آمر اللواء المدرع العاشر شارحاً عملية الهجوم ، وهي عبارة عن احتلال ساتر ترابي تشغله القوات الإيرانية ، حيث أُخبر اللواء المدرع العاشر بأن الساتر تحتله قوة إيرانية ضعيفة ، وقد يكون خالياً بالتعاون مع فوج المغاوير المذكور ، بعد أن أكمل آمر اللواء المدرع كلامه أشار قائد الرتل إلى الرائد آمر فوج المغاوير ، طالباً منه الوقوف والتحدث عن سير العملية ، عملية الهجوم :

قائد الرتل ـ رائد (. . .) أكمل الموضوع ، ما هو دوركم في هذه العملية؟ .

آمر الفوج : سيدي إنني لا أعلم بأن هناك عملية ، حتى أنني لم أكن أعلم بأن اللواء الذي اشتركت معه في الواجب هو اللواء المدرع العاشر إلاّ الآن ، وان الفوج الآلي الذي قام بحمل جنودي هو من هذا اللواء ، لم أكن أعلم شيئاً ، بلغت بأن نذهب لحماية لواء مدرع ليس إلاّ ، لقد تقدمنا وكأننا نزف عروساً ، لا أحد يعلم بأن أمامنا عدو وعلى مقربة منا .

قائد الرتل : الواجب الذي كلفتم به كان في الواقع هجوماً ، لكن الأمر لم يكن واضحاً لديكم .

آمر الفوج : لم أُبلغ بهذا أبداً ، وإذا كان الواجب هو هجوم فعلاً ، فلماذا لم نعط

فرصة للاستطلاع والتهيؤ له بصورة مناسبة، بعد أن نضع خطة الهجوم؟

قائد الرتل : إن المعلومات المتيسرة لـدينا هي أن قـوة العدو المـوجودة في السـاتر قليلة، وقد يكون خالياً، قوة العدو الرئيسية في الساتر الخلفي الذي يلي الساتـر الأول، إنني لم أخبـركم بأن واجبكم هـو هجوم لأنني لم أكن أرغب بـأن ألقي الخوف في قلوب بعض المـراتب، إذ ربمـا سيتلكـأون في تنفيـذ الـواجب، لقـد رأيت أن من المفيـد أن أترككم تتقدمون، فلا ترون أنفسكم إلاَّ وأنتم فوق العدو حيث يتم احتلال مواضعه.

آمر الفوج : سيدي هل يقبل الله ما تقوله؟ لم يعد من مجموع الفوج البالـغ (٥٠٠) مقاتل سوى ثمانين.

قائد الرتل : يا هذا يبدو أن لسانك طويل، لا تتدخل في عملنا، نحن نصـدر لك الأمر وأنت تنفذ، هذا هو واجبك، ثم استمر بتوجيه الإهانة والتهديد إلى آمر الفوج أمـام بقيـة الضباط، هـذا هو نمـوذج من الأساليب التي يتبعهـا القادة الميـدانيون الـذين داروا المعارك التي دارت رحاها على جبهة طولها أكثر من (١٤٠٠) كيلومتر، فـأية مـأساة تلك التي عاشها الجيش والشعب العراقي؟.

ـ من المعـروف بـأن طـالـع الـدوري شخص دميم الخلقة، مصـاب بمـرض الجـدري الذي شـوّه وجهه، قصيـر القامـة، بدين، قـاسي القلب، كان يـأمر بـإعـدام الأسرى الإيرانيين فوراً، عندما تخبره الوحدات بأنها قـد أسرت عـدداً منهم، كانت أوامـره واضحة بأن لا يحتفظ بالأسرى مطلقاً، بل يعدمون فوراً بعـد استنطاق سريع، ويـدفنون في حفرة واحدة بصـورة جماعيـة، خلافـاً للقوانين والأعـراف الدولية، وبعيداً عن كـل معاني الفروسية التي تقضي بعدم إيذاء الأسرى وإهانتهم والتقيد بمبادىء الشرف والشهامـة، لا غرو في ذلك، لأن طالع قد تتلمذ على يـد قائـده الذي أرسى هـذا المنهج والسلوك الشـاذ والغريب بين أوساط القوات المسلحة العراقية.

ـ الفريق الركن ماهر عبدالرشيد :

هذه ترجمة أخرى لحيـاة قائـد عسكري ميداني، حاول الاعـلام العراقي جـاهداً أن يحيطه بهالـة براقة، ودفعه إلى الصـدارة باعتبـاره من أكفأ القادة، ومن أقـدرهم على إدارة المعارك وحسمها لصالح العراق، لقد حُمّل الرجـل بما لم يكن بـاستطاعتـه أن يحمله، وكان لعمليات الفاو وما انتهت إليه من فشل، ساهم هو بالقدر الأكبر فيه، باعتباره قائداً لأحد الأرتال الثلاثة، كان لهذه العمليات الأثر الأكبر في فقـده لهذا البـريق الزائف الـذي جُهد من أجل أن يُلفَّ به.

أ ـ من أهالي تكريت .

ب ـ تربطه قرابة شديدة بصدام حسين ،(تزوج قصي بن صدام ابنته بعد عمليات الفاو) .

جـ ـ مدير الشعبة الخامسة في مديرية الاستخبارات العسكرية .

د ـ ضابط ركن استخبارات مديرية الحدود العامة بعد نقله من مديرية الاستخبارات العسكرية ، بسبب سوء سمعته ،واستهتاره ،وتخطيه لكل حدود العرف واللياقة الأخلاقية .

هـ ـ آمر اللواء المدرع ١٢ الملقب بلواء بن الوليد من نظام معركة الفرقة المدرعة الثالثة .

و ـ قائد الفرقة الآلية الخامسة .

ز ـ قائد الفيلق الثالث .

ح ـ قائد الفيلق السابع ،وقائد أحد الأرتال الثلاثة التي كلفت باستعادة مدينة الفاو .

ط ـ أقسم بأنه سيطلق زوجته إذا استطاعت القوات الإيرانية أن تحتل مرة أخرى شبراً واحداً من الأراضي العراقية ، لكننا لم نسمع بأنه قد وفى بقسمه ، لأن القوات الإيرانية قد احتلت أجزاء أخرى من الأراضي العراقية ، شرق مدينة البصرة بعد عمليات الفاو .

ـ من المقربين جداً إلى صدام حسين وتربطه به صلة قرابة . من المعروفين بالذوق المتدني ، حيث يعشق حياة الغجر إلى درجة تصل به أن يتملكوا عليه عقله وتصرفه ، حتى انه يقوم ببناء بهو في كل مقر يعمل به ، حتى في الحركات مشابه للخيام التي يسكنها الغجر ويمارسون أعمالهم فيها ، ولم يفته أن يتعلم الضرب على الربابة ، وهي آلة العزف الرئيسية التي يستخدمها الغجر ، حيث يعزف عليها في أوقات فراغه منشداً ألحان السويحلي والعتابة[1]، له جولات عظيمة في مجال اللهو والجري خلف الشهوات والملذات إلى درجة كبيرة من الاسفاف، كان نقله من الشعبة الخامسة لمديرية الاستخبارات العسكرية بسبب علاقاته المشبوهة مع بعض الساقطات المعروفات في بغداد، حيث جعل دائرته موضع سخرية وتندر من قبل بقية الضباط العاملين في شعب ومديريات وزارة الدفاع ، بعد نقله إلى منصب ضابط استخبارات مديرية الحدود، لم يقلل من نشاطه هذا ، بل زاده إلى أن وصل إلى الدرجة التي تأباها النفس ويعافها الشرفاء .

---

(١) السويحلي والعتابة الحان معروفة عند بدو العراق .

ففي احتفال أُقيم بمناسبة ٧ نيسان، أعقبته سهرة ضمت عدداً من الضباط الكبار، وُجِدَ متلبساً في موقف مخزٍ مع إحدى المغنيات في غرفة دائرته، حيث أحدث ذلك ضجة بين صفوف ضباط مديرية الحدود العامة، وحدثت مشادة وسباب علني بينه وبين بعض الضابط، أفسد على الحضور سهرتهم وانسهم، شاع هذا الأمر إلى الدرجة التي أصبحت تلوكه الألسن، وصار مدار حديث لفترة طويلة، ولكونه من أقارب صدام وتكريتياً، فإنه كوفيء على نشاطه هذا بأن عين آمراً للواء المدرع ١٢، الذي يعتبر من أحسن ألوية الجيش العراقي المدرعة وأقدمها.

ـ قطع على نفسه عهداً بأن يستعيد الفاو، كي يقدمها إلى صدام كهدية له بمناسبة زواج ابنه قصي من ابنته، وقد أذيعت رسالة له موجهة إلى صدام بهذا الخصوص بمناسبة هذا الزواج الظافر، وهو بهذا يظهر لكل الناس ضحالة مستوى تفكيره العسكري، ففي الوقت الذي كان فيه الجيش العراقي يعاني أفدح الخسائر، حيث أصبح الفيلق العراقي السابع هشيماً تذروه الرياح، ولم يعد أحد يسمع بقائده السابق اللواء الركن شوكت أحمد عطا الحديثي، وبعد أن تكبدت الفرقة الآلية الخامسة خسائر فادحة بالأرواح والمعدات، ووقوع أعداد كبيرة من منتسبيها أسرى، كما جاء مقتل قائد الفرقة مع عدد من ضباط ركنه ليصل بالمأساة إلى ذروتها، كما تعرضت ألوية الحرس الجمهوري إلى انهيارات مروعة، والخلاصة فإن عمليات الفاو حمّلت كل بيت عراقي مأساة إضافية وحزناً عميقاً، في مثل هذه الظروف تمت خطبة ابنة ماهر عبدالرشيد إلى قصي بن صدام، واصداء المدافع لا تزال تصم الآذان على جبهة الفاو، حيث كانت الاستعدادات تجري لاظهار هذا الحدث وكأنه أهم حدث يمر به العراق والعراقيون، وانه يعوض عليهم الآلام والأحزان التي يعيشونها، وكأن هذه الأنهار من الدماء التي تسيل كل يوم لا قيمة لها بنظر القائمين على الأمر.

وبينما كانت المعارك تدور طاحنة حول الفاو، وجثث القتلى تنتشر فوق ساحات المعارك، وفي الوقت الذي كانت فيه المستشفيات تغص بالآلاف من الجرحى، ودموع الأمهات لم تجف بعد من عيونهن حزناً على الأبناء، وُزِّعت بطاقات الدعوة لحضور الحفل الذي سيقام في نادي الصيد ببغداد، احتفالاً وابتهاجاً بهذه المناسبة السعيدة!!.. تقول بطاقة الدعوة التي لم يشاهد أحد أكثر منها أناقة وروعة من قبل، تقول: « تحتفل سيدة المجتمع العراقي الأولى ساجدة خير الله طلفاح بزواج ولدها قصي من كريمة السيد ماهر عبدالرشيد ». وقد تم جلب الحلويات والكيك وكل ما تحتاجه الحفلة من فرنسا مباشرة بطائرات خاصة.

يقول أحد الضباط الذين حضروا الحفل : بأنه لم يشاهد طيلة حياته، ولا يمكن أن يتصور بأن ما شاهده من البذخ والترف يستطيع أحد في الدنيا أن يقدمه ، علامات الفرح الغامر تعم الجميع ، والسيدة الأولى تتلقى التهاني وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيها ، ويتلاطم حشد كبير من المسؤولين في هذا الحفل ، الكل يظهر من السعادة والتفاؤل ما يثير العجب ، كل هذا يجري في بغداد، بينما كانت كل عائلة عراقية تقيم عزاءً على أولادها الذين كانت تلتهمهم معارك الفاو التهاماً بنيرانها التي لا تخمد ليل نهار ، واصداء المدافع لا تزال تتردّد في سماء البصرة والفاو ، الأنباء تتوارد تحمل معها أخباراً عن حجم الخسائر المروعة التي أصابت الجيش، ولا زالت تنهشه وتحطم وجوده وتماسكه ، القيادة في بغداد كانت في وادي ملذاتها، تختلق المناسبات البهيجة دون أن تقيم وزناً لأحزان الشعب وآلام وجراحات أبناء القوات المسلحة ، وكأن هذه القيادة ليست من هذا الشعب، أو كأنها ليست مسؤولة عن قواته المسلحة ، لا تلتفت إلى اصداء أنينه ، بل هي ليست سائلة عنه ، تلهو وتمرح وتفتش عن الفرح دون أن تحس بغيرها من أبناء الشعب الذي يدفع أبناءه للموت، في سبيل أن تظل هي تتمتع بما حصلت عليه ، بل إن العائلة الحاكمة كانت تتعمد القيام بمثل هذه الصرعات إمعاناً منها في احتقارها للشعب كله ولقواته المسلحة ، فعندما كان الفرح يغمر جبين قصي وأمه ساجدة التي ستزف عروسها لولدها بعد حين ، كانت الآلام وآثار الحزن والأسى تعصر قلوب الآلاف من العراقيين وتنطبع على وجوههم ، في آخر الأمر لم يتمكن «ماهر» من «تحرير» الفاو، ولم يقدم شبراً واحداً من أرضها هدية لسيده وقائده العام للقوات المسلحة .

ـ يعتبر ماهر عبدالرشيد من القلائل الذين يتهجمون على الشخصيات المعروفة في القيادة العسكرية والدولة، دون أن يحاسب وينبه ـ كما يتم ذلك بقسوة مع غيره ـ فهو يتهجم على رئيس أركان الجيش عبدالجبار شنشل، ويسميه «أبو طحش» إشارة إلى كرشه الكبير، كما يسمي عدنان خير الله «صاحب الأنف الأقرط» ويتهمهم بأنهم دون مستوى المسؤولية . وهذا مما لا يستطيع غيره أن يفعله مهما كان منصبه في الدولة ، بل إن من لا يخبر عن أي شخص يتهجم أمامه على مسؤولي الدولة يعاقب عقوبة شديدة، تصل في أحيان كثيرة إلى الإعدام ، في إحدى المرات أخذ يتهجم على طالع الدوري أمام عدد من الضباط ، ولم يكتفِ بذلك بل تعدّاه إلى الدوريين أنفسهم وطالع واحد منهم ، ويقول : هؤلاء الدوريون أصبحوا بشراً ، هل نسوا كيف كانوا يسوقون حميرهم في مدينة تكريت واجراسها ترن؟ أصبحوا الآن قياديين وشخصيات مرموقة بالدولة ، إلاّ أنه لم يكن يذكر صدام شخصياً بسوء مطلقاً .

ـ كان هذا يظهر تذمره من بقائه في الجيش، ويتمنى لو أنه يترك لحاله حيث يستطيع ممارسة هواياته العديدة، ومنها حبه للعمل في بيع وشراء الأغنام والمواشي، يقول مخاطباً عدداً من الضباط في إحدى زياراتهم له في مقر اللواء المدرع ١٢ : أنتم عندما تذهبون في إجازاتكم تذهبون إلى النوادي وأماكن اللهو الأخرى، تسهرون وتمضون أوقاتكم بالطريقة التي تعجبكم، أما أنا فإنني أرتدي العقال والكوفية، ثم أذهب إلى البادية لأشتري الأغنام، أشتري عدداً منها ثم أبيعها وهكذا، لماذا يمسكون بي هكذا، لماذا يبقونني في الجيش، إنني لا أنفع إلا لمثل هذه الأعمال.. وهو بالفعل لا يقول سوى الحقيقة...

ـ ماهر عبدالرشيد من أشد التكارتة عنصرية، وهو لا ينكر ذلك ويقول: يتهمونني بأنني عنصري، افتش عن التكريتي أو الدوري وأنقله إلى تشكيلي، سوف أظل أمارس هذا الأمر، حتى ولو قالوا بأنني هكذا، إن غايتي ـ مبرراً عمله هذا ـ ليست عنصرية، وإنما أريد أن أجمع أهل منطقتي في وحدة واحدة، إن المقاتل الذي يرى ابن عمه أو أخوه أو أقاربه أو ابن مدينته إلى جانبه، فإنه يستميت في القتال عندما تنشب المعارك، وسوف يكون الوضع مغايراً فيما لو شاهد شخصاً من العمارة، أو البصرة يقاتل معه، لذا فإنني افتش عن كل تكريتي أو دوري أو مقاتل من الشرقاط، سواء كان ضابطاً، أو ضابط صف، أو حتى جندياً فأنقله بقربي، وبهذا فهو يعتقد بأن أبناء الوطن الواحد لا يجمعهم هدف أكبر من القبيلة أو المدينة، عندما يدافعون عن الوطن والأرض، وإن المواطنة في نظرة تبدأ في نطاق ضيق وتنتهي إليه، نطاق العشيرة أو المدينة، وعند سورها وحدودها تنتهي القيم وتتبدد وتصبح عديمة الجدوى والفائدة، إن هذا النمط من التفكير يسود في الدول التي تحكمها أنظمة ديكتاتورية إرهابية، وبما أن النظام في العراق هو من أعتى الأنظمة الديكتاتورية في العالم، وأكثرها إرهاباً، فإن هذا النوع من السلوك ينتشر داخل كل المؤسسات، سواء العسكرية منها أو المدنية، بصورة تترك ملامحها على كل النشاط الرسمي للدولة، فالنظام لا يثق بالشعب، بل يستعيض عنه بالولاء العشائري، أو الولاء للمنطقة أو المدينة، في العراق يختلف النظام عن غيره، بأنه يمارس هذا الأسلوب بصورة علنية دون احترام للآخرين، ممعناً في الاستخفاف بمشاعرهم وأحاسيسهم، غير ملتفت إلى الشروخ التي يتركها على وحدة الشعب والشعور بالمواطنة..

ـ **الفريق الركن هشام صباح الفخري :**

من الضباط الذين لمع نجمهم في الحرب، مطيع جداً، وهو على استعداد تام لأن ينفذ الأوامر التي تصدر له عن طيب خاطر، دون أن يسأل حتى نفسه فيما إذا كان ما

طلب منه قابلاً للتنفيذ أم لا؟ هذه بطاقته الشخصية :

أ ـ من سكنة محافظة الموصل .

ب ـ مساعد آمر كتيبة الدبابات الرابعة من نظام معركة الفرقة الرابعة، ومقرها الدائم مدينة الموصل ، وعندما كان يشغل منصبه هذا، اتهم بأنه كان يغوي مراسله على ممارسة الشذوذ الجنسي معه .

جـ ـ آمر كتيبة دبابات في لواء المدرع/١٠.

د ـ آمر اللواء المدرع العاشر .

هـ ـ قائد الفرقة المدرعة العاشرة .

و ـ قائد الفيلق الرابع .

ز ـ معاون رئيس أركان الجيش .

ح ـ قائد أحد الأرتال الثلاثة التي كلفت بالتقدم لاستعادة مدينة الفاو.

ط ـ يشرب بإفراط، خاصة عند نشوب المعارك.

ي ـ سيء وخشن الخلق والتعامل مع مرؤوسيه .

ـ من الصفات الرئيسية المتميزة لدى هشام صباح الفخري هو شراهته ونهمه بالأكل إلى درجة تبعث على التقزز ، وهو يحجز له غرفة خاصة لخزن مأكولاته المفضلة في المقر الذي يعمل به في الحركات، تحتوي على أكلة الموصل المشهورة «الباسطرمة»، و«الكبة الموصلية الشهيرة»، في إحدى المرات اضطرب مقر الفرقة اضطراباً شديداً بسبب سقوط قنبلة مدفع ثقيل على هذه الغرفة وحطمها ، مما جعل مرافقيه يحتارون بسبب عجزهم عن تأمين هذه الأكلات المفضلة لديه .

ـ عندما كان يشغل منصب قائد الفرقة المدرعة العاشرة، كان يستخدم ثلاثة ضباط كمرافقين له ، بينما لا يشمل ملاك مقر الفرقة سوى على ضابط واحد بمنصب مرافق القائد، ولكل واحد من هؤلاء الضباط المرافقين واجب خاص ، الأول ضابط برتبة نقيب، والمدعو طلال يستقر في بغداد، وليس له علاقة بالجبهة، واجبة ينحصر في تأمين حاجات المنزل والعائلة، وإرسال اطفال القائد إلى المدرسة، والسهر على البيت، واطاعة أوامر السيدة، أما الثاني فهو ضابط برتبة ملازم أول، يرافقه عند تنقله في الجبهة، وينظم له أموره في المقر، المرافق الثالث، وهو أخطرهم وأكثرهم أهمية، لأن مجال نشاطه أوسع ،وهو ضابط برتبة مقدم، والمدعو عباس قومية ، واجب هذا المرافق هو ترتيب أمور سهرات القائد الخاصة ، حيث يذهب بين فترة وأخرى، أو عند طلب القائد ذلك في الأوقات

الطارئة، حيث يجد القائد نفسه مرهقاً، يذهب إلى بغداد ويرتب «لعمه»[1] منضدة لسهرة خاصة، يقضي فيها القائد ليلة بين احضان الغانيات في إحدى ملاهي بغداد، بعد أن يقوم بحجزها منذ العصر، ويخبر صاحب الملهى بأن الشخص الذي سيحضر هذا المساء هو شخص مهم جداً يقتضي الاهتمام به، وبذل العناية اللازمة لتوفير كل مستلزمات الراحة، أما هو فيجلس بعيداً عن سيده ، كالكلب الأمين ، إلى أن يكمل هذا سهرته إلى ساعة متأخرة من الليل . يفضل هشام صباح الفخري ملهى الأمباسي لقضاء سهراته فيه، وذلك لأن الفرق الفنية التي يستوردها هذا الملهى تعتبر من أجمل وأفضل الفرق الأجنبية التي تصل إلى العراق .

إن قصة عباس قوميه وعلاقته الفريدة مع هشام صباح الفخري هي قصة كثير من الضباط، الذين يظهرون استعداداً متميزاً لخدمة مرؤوسيهم وقادتهم، بحيث يظهرون من المواهب ما يسلب قلب قائدهم، فهم على استعداد دوماً لتلبية كل ما يريدون منهم، ومثل هؤلاء كثيرون في الجيش العراقي ، تظل المسألة متعلقة بمدى انحطاط القائد وقبوله لأن يستغل منصبه، والمدى الذي يصل إليه في هذا المجال ، فالعميد عبدو الديري قائد القوة البحرية مثلاً ، كان لديه ضابط برتبة مقدم ، يرتب له أموره في هذا المجال، مما يخجل الشريف من ذكره في هذا الكتاب .

واللواء عمر الهزاع قائد الفرقة الآلية الأولى السابق، يستخدم مجموعة كبيرة من ضباط مقر الفرقة وضباط صفها لتقديم خدمات خاصة له يندى لها الجبين ، إلاّ أن مثل هؤلاء الضباط لا يبيعون ماء وجوههم وسمعتهم بدون ثمن تماماً ، وعلى الرغم من أن كرامة الإنسان وشرفه وسمعته لا يمكن أن تباع بكل مال الدنيا وذهبه ، إلاّ أن هؤلاء يبيعونها أحياناً بأبخس الأثمان ، إلاّ أن كرامة عباس قوميه كانت باهظة الثمن لأسباب عديدة ومهمة، من بينها أن عباس هذا «عضو شعبة» في الحزب، مما يعني أن ثمنه باهظ بسبب نوعية وجودة السلعة المعروضة ، من ناحية أخرى كان عباس قوميه بسبب موقعه الحزبي هذا يتمتع بحصانة عالية ضد من يقف ضده، أو يكتب عليه تقريراً ، وبذا يكون هشام صباح الفخري قد اطمأن إلى أن ما يفعله سوف لن يواجه مشاكل أو صعوبات أو اعتراضات جدية ، فهو القائد وسمساره مسؤول حزبي كبير .

ـ من الصفات الرئيسية للقائد تواضعه ودماثة خلقه وحبه لمرؤوسيه والعاملين

---

(١) عمّه ـ مصطلح يتداوله العراقيون على شخص ولي نعمة شخص آخر يكون تابعاً له .

معه، سواء في مقره أو في التشكيلات والوحدات العاملة تحت إمرته ، وهو يحرص على إظهار مشاعر المحبة والعدالة خلال تعامله معهم . سواء كان ذلك في وقت السلم أو زمن الحرب ، وبهذا يكون قد كسب ثقة العاملين معه ، الذين سوف يبدون بالتأكيد حرصاً على الاندفاع بالعمل، وتنفيذ الأوامر برحابة صدر ينبع من صميم قلوبهم، نتيجةً لهذه الثقة المتبادلة التي استطاع القائد أن يغرسها في نفوسهم، خلال فترة وجوده بينهم أو كقائد لهم ، أما هشام صباح الفخري فهو من النوع الذي لا يقيم لذلك وزناً على الاطلاق ، فهو متعجرف متعالٍ ، يتصرف مع مرؤوسيه وكأنهم خدم له ، عليهم أن يطيعوا ما يأمرهم به ليس إلاّ ، ولا حاجة به لأن يتصرف كقائد نموذجي، يحرص أن يكون بنظرهم الأب والأخ والجندي الذي يعاملهم بحب وأخوة، تفرضها عليه أخوة السلاح والمصير الواحد ، يميل هشام صباح الفخري إلى لعب كرة الطائرة، ويحبها على الرغم من كونه بديناً جداً .

أخبر مرّةً مقر اللواء المدرع السابع عشر، عندما كان قائداً للفرقة المدرعة العاشرة ، أنه سيلعب معهم كرة الطائرة، وعليهم أن يهيئوا فريقهم ضد فريق مقر الفرقة ، وصل القائد إلى ساحة اللعب، وكان عدد كبير من الضباط والجنود وضباط الصف ـ كالعادة ـ يقفون مشجعين ومتفرجين ، دخل فريق مقر الفرقة إلى الملعب، يقودهم قائد الفرقة الذي اختار له مكاناً ملائماً في الساحة، حيث يظل فيه ثابتاً، لا يبدله كما تنص عليه قوانين اللعبة ، هذا لا يهم ، فالقائد لا تنطبق عليه القوانين ـ كالعادة ـ ، وبدأ اللعب بين الهجوم والهجوم المقابل، كانت صافرة الحكم تشير إلى الفريق الذي يحرز الفوز بنقطة وهكذا ، إلاّ أن الحكم، عندما كان يرى بأن اللواء المدرع ١٧ كان يستحق أن يحرز نقطة أثناء اللعب ويحكم بذلك ، كان هشام صباح الفخري يثور عليه معترضاً، وينزل جمام غضبه على رأسه ، وفي أحيان كثيرة كان يعزله وينهره، بل ويشتمه ويسبه مستخدماً كلاماً تافهاً، كأن يقول له: (انزل كلب ابن الكلب)، ثم يعين غيره بطريقة تبعث الاشمئزاز والتقزز في نفس آمر اللواء وفريقه ، فهذا القائد الأبله المغرور ليس لديه استعداد لأن يعامل اخوته وزملاءه بروح العدالة والاحترام خلال لعبة كرة طائرة ، فكيف إذن سيعاملهم عندما تشتد المعارك ويحمى وطيس القتال ، حيث تنتظر أعداد منهم المجالس التحقيقية، وأصابع الاتهام تشير إليهم بالتهاون والتقصير في أبسط الحالات؟ هل سيقف معهم أو أمامهم متحملاً مسؤولية الفشل؟ أم انه سيلقي بثقل التبعة على أكتافهم التي ستنوء حتماً بثقلها؟ ، أسئلة كثيرة وكثيرة سترد في خواطرهم ، تبعث في قلوبهم الحزن والمرارة والأسى خوفاً من اليوم الذي سيحل ان عاجلاً أم آجلاً، عندها سيجد كل واحد منهم نفسه وحيداً أمام مصيره التعس، إذا لم يكن تكريتياً، أو ممن لديه حظوة خاصة لدى القائد العام للقوات

المسلحة، خاصة وان قائداً كهذا الأناني الشره الأبلة، هو الذي يشكل وجوده على رأس القيادة من الأسباب المهمة في إيقاع العقاب بهم.

ـ بسبب العقد الغريبة العجيبة التي تنهش في نفوس أغلب القادة ـ باستثناء القليل منهم ـ فإن تصرفاتهم وسلوكهم هي في الواقع انعكاس حقيقي لوضاعة نفوسهم، من هذه العقد الكبيرة التي تأكل نفوسهم، هي العقدة التي سببها الحرمان الذي عانوه في حياتهم، بسبب نشوئهم في عوائل فقيرة أو متوسطة الحال، وبعدم وجود تربية عائلية وتوجيه يتجاوز بهم هذه العقد، ويبذر في نفوسهم بذور الخير والاستقامة، لذا نراهم يهجمون هجوماً شرساً مقرفاً على الملذات وتوفير وسائل الراحة والترف والبذخ عندما تسنح لهم الفرص، وبما أن النظام العراقي نفسه يرتكز في الواقع في أساسه على نفس العينات إلاَّ من اختلاف بسيط فيما بينها، أي انه هو المشجع الأساسي لاندفاع هذه الشهوات والنزوات إلى حدها الأقصى، دون مراعاة لحرمة أو عرف، إذا كان قدوة القادة ومسؤولي الدولة هو السارق المعروف خير الله طلفاح وصدام وعدنان خير الله، فكيف يكون هؤلاء؟

إذا كان رب البيت بالدف ناقراً فشيمة أهل البيت كلهم الرقص.

كان هشام صباح الفخري عندما ينزل إلى مؤتمر الفيلق في مدينة العمارة، الذي يعقد لقادة الفرق في كل شهر مرتين، كان لا يقضي ليلته في مقر الفيلق، حيث تتيسر وسائل الراحة بالحد المطلوب، بل انه أمر أن يُستأجر له بيت خاص في المدينة لقضاء ليلتين من كل شهر فقط، تم تأثيث البيت بأحدث الأثاث الذي جلب له من الكويت كاملاً.. من غرفة النوم إلى غرفة الاستقبال.. إلى المطبخ إلى بقية المستلزمات الأخرى. كما تمّ تخصيص عدد من الأفراد الذين تركوا بصورة دائمة هناك لتأمين الحماية، كما عيّن طباخ خاص له، كل هذا من أجل ليلتين في الشهر، أوتزيد عنهما بقليل، لا يريد أن يقضيهما السيد القائد إلاَّ في أجواء تامة من المتعة والراحة، لم يكن معروفاً أبداً أن يعمد أي قائد فرقة في تاريخ الجيش العراقي كله إلى هذا النوع من الإسراف والتبذير، إلاَّ في ظل هذه القيادة التي لا ترعوي عن فعل أي شيء غير مألوف، أو منافٍ لما هو معروف بين أوساط الجيش العراقي، كما لم يعهد أحد بأن قائد فرقة عراقية لديه مثل هذه الصلاحيات بالصرف على مثل هذه الأوجه الشاذة.

ـ يميل هشام صباح الفخري إلى لعبة «الدمبلة»[1]، وكان يزاولها حتى في

---

(١) لعبة مشهورة تمارس في النوادي العراقية.

الحركات، حيث كانت الألوية منفتحة في قواطعها ، وكانت الوحدات تُبلّغ بأن القائد سوف يسهر هذه الليلة في الوحدة الفلانية مثلاً، ككتيبة دبابات حماد، أو في مقر لواء ٢٤، لواء ٤٢، لواء ١٧، وكان يجلب معه معدات لعبة الدمبلة والهدايا اللازمة كجوائز للفائزين، وتوزع البطاقات الخاصة باللعب مجاناً ، كانت الجوائز التي تخصص لهذه اللعبة ضخمة جداً، يطلب قائد الفرقة من ضابط التوجيه السياسي أن يهيىء الجوائز لهذه الليلة ، وهذا بدوره يجلب معه في عجلة خاصة ما هو مطلوب كجوائز لهذه اللعبة، كأن يكون جهازي تلفزيون ملوّن، ثلاث مسجلات صوت راقية ، طباخ غازي ، مكيفة هواء حديثة ، حيث تدخل هذه المواد كجوائز يعلن عنها قبل البدء باللعب ، عندما لا تكون الجوائز ملائمة ، يخصص القائد مسدساً من النوع الجيد، إضافة إلى عدد كبير من الهدايا يصل إلى (٢٠) هدية، وفي أحيان كثيرة يخصص للجائزة الأولى مبلغ (٢٠٠) دينار، والثانية (١٠٠) دينار، والثالثة (٥٠) ديناراً وهكذا ، أما المرافقون الذين يخدمونه ليل نهار، فهم لا يملون من الخدمة ،لأن ما يصيبهم من هذا الكرم الحاتمي كافٍ لأن يجعلهم مغتبطين لهذا العمل راضين به تماماً ، وهو كثير الحرص على مداراتهم وضمان حصولهم باستمرار من كل ما يخصصه لمثل هذه المناسبات ، ومن المعروف عنه أنه يختار مرافقيه وحمايته من الضباط والجنود صغار السن، والوسيمي الشكل بصورة فاضحة ، مما كان يثير ريبة وشكوك ضباط الفرقة المدرعة العاشرة، خاصة وأن ماضيه الأخلاقي يشجع على الظن به بمثل هذه الظنون .

ـ يعتبر هشام صباح الفخري من أكبر مجرمي الحرب، لأنه كان يأمر بإعدام الأسرى الإيرانيين ميدانياً ، ويدفع الضباط والمراتب لأن يفعلوا ذلك أيضاً ، وقد مارس هذه الجرائم مرات عديدة متواصلة ، وكان ينفذ بنفسه هذا الأمر ، حيث يلقي بالأسرى الإيرانيين من الطائرات السمتية فوق الوحدات، معتقداً بأن ذلك يرفع من معنويات أفرادها ، لم يقتصر ارهابه فقط على الإيرانيين،ولكن حبه للقتل وإسالة الدماء امتد ليشمل الجنود والضباط العراقيين، فبعد العمليات التي عبرت فيها القوات الإيرانية هور الحويزة، ووصلت إلى الطريق العام بغداد ـ البصرة عام ١٩٨٣ ، واحتلت اجزاءً منه ، قام شخصياً بالإشراف على إعدام أكثر من (٤٠٠) جندي وضابط صف في الملعب الرياضي لمدينة العمارة، وكان يجلس إلى جانبه ثابت سلطان قائد الفرقة المدرعة العاشرة، حيث استمرت عملية الاعدام إلى ساعات طويلة، أمام أهالي المدينة وعدد كبير من العسكريين الذين أجبروا على الحضور لمشاهدة هذا المنظر الرهيب، كي يبث الرعب والهلع والخوف في قلوب المواطنين والجنود، حيث يبغي من عمله هذا إفهام الجميع بأن من يهرب من ساحة المعركة، يكون مصيره كالمصير الذي يلاقيه هؤلاء التعساء .

اللواء الركن ضياء توفيق إبراهيم :

ـ يعتبر هذا الضابط من أكثر ضباط الجيش العراقي انتهازية ، فهو من المعروفين باتجاههم الناصري والمتحمسين له ، ولكنه انقلب بين ليلة وضحاها إلى أكثر المخلصين واللاهثين لخدمة النظام الذي استفاد منه ، حيث وجده مطيعاً أكثر من غيره حتى من الضباط البعثيين ، ومن صفاته المعروفة بأنه يبدي احتراماً شديداً، وتودداً مزرياً للضباط التكارتة، حتى الصغار جداً منهم، ويظهر لهم من العواطف الجياشة ما يقرف النفس، وهو يتضاءل ويتصاغر عندما يلتقي بأحد من هؤلاء ، لكنه بالمقابل يظهر من التجبر والجبروت والاستهانة بالضباط الآخرين بصورة يعوض فيها عن تصاغره وضعفه الذي يظهره أمام الضباط التكارتة ، وقد استطاع بسلوكه هذا أن ينجو من العقاب الصارم .

ففي عام ١٩٧٣ عندما كان آمراً للواء الآلي ٢٧ والذي كان منفتحاً على الحدود في منطقة بدره وجصان في القاطع الأوسط على الحدود الإيرانية ـ العراقية، في الوقت الذي لم يتم بعد فيه تطبيع العلاقات الإيرانية ـ العراقية، نشبت معركة محدودة بين اللواء ٢٧ والوحدات الإيرانية المواجهة له، أدت إلى فشل اللواء بالمحافظة على مواضعه، وهرب عدد كبير من الضباط والجنود في حالة يرثى لها ، وكان مقرراً أن يمثل آمر اللواء أمام محكمة عسكرية ، إلّا أنه استطاع أن يفلت منها بسبب تملقه وانتهازيته وتخضعه للنقيب مانع عبدالرشيد التكريتي المسؤول الحزبي للواء وضابط التوجيه السياسي فيه، والذي تربطه صلة قرابة مع أحمد حسن البكر ، حيث أمكن لفلفة الموضوع وطيه ، بل إن البكر أمر بنقل العقيد الركن ـ في حينها ـ ضياء توفيق إبراهيم إلى منصب معاون آمر الكلية العسكرية مكافأة له .

أدناه بطاقته الشخصية :

أ ـ من أهالي الموصل .
ب ـ آمر فصيل في الكلية العسكرية .
جـ ـ خريج الكلية العسكرية البريطانية ساند هيرتس .
د ـ آمر لواء ٢٧ الآلي .
هـ ـ قائد الفيلق الثاني : الذي تقدم لاحتلال مدينة مهران ، حيث تم بعد أقل من (٢٠) يوماً استعادتها وتدمير جزء كبير من الفيلق المذكور ، اختفى تماماً ولم يعد يسمع له ذكراً أبداً منذ أواخر عام ١٩٨٦ .

و ــ متكبر ، متبجج ، يدعي ما ليس لديه وفيه ، لديه الاستعداد لأن يضحي بكل الذين يعملون معه من أجل مغنم شخصي ، كالحصول على موقع قيادي أعلى ، أو تكريم تنعم به القيادة عليه .

الفريق الركن ثابت سلطان التكريتي :

ـ يعتبر ثابت سلطان شهاب من أكثر الضباط في الجيش العراقي حظوة لدى أحمد حسن البكر وصدام ، لأنه تكريتي قريب للعائلة الحاكمة ، أو بالأصح المالكة ، عمّه حماد شهاب وزير الدفاع الأسبق ، الذي قتله ناظم كزار عام ١٩٧٣ ، متزوج من ابنة حردان التكريتي نائب رئيس الجمهورية بعد انقلاب ١٧ تموز ، والذي اغتيل في الكويت على أيدي رجال أمن ناظم كزار أيضاً ، وعلى الرغم من تحذير البكر له بعدم الزواج من ابنة حردان ـ وكان في حينها ضابطاً صغيراً ـ ، إلّا أنه تحدّاه وتزوج منها ، حيث أصبح البكر بعدها أمام الأمر الواقع ، ولأن ثابت سلطان شهاب ابن أخ حماد شهاب أحد أكبر منفذي مؤآمرة ١٧ تموز ، ومن أنصار البكر الرئيسي فإنه غض النظر عنه ، وألف عين لأجل عين واحدة تكرم .

وهذه بطاقته الشخصية :

أ ــ من أهالي تكريت .
ب ــ من منتسبي الدورة ٤٣ في الكلية العسكرية .
جـ ــ دخل كلية الأركان الدورة ٤١ منها ، وتخرج الأول على دورته بتوصية من أحمد حسن البكر ، على الرغم من أن هناك من بين التلاميذ من كان يفوقه جدارة بالحصول على الأولوية .
د ــ مرافق أقدم لحماد شهاب وزير الدفاع الأسبق عمه .
هـ ــ آمر كتيبة دبابات حماد من نظام معركة لواء ١٧ تموز المدرع ، والتي تعتبر من أحسن كتائب الدبابات في الجيش العراقي .
و ــ آمر اللواء المدرع ٣٠ من نظام معركة الفرقة المدرعة السادسة .
ز ــ قائد الفرقة المدرعة العاشرة .
ح ــ قائد الفيلق الرابع .
ط ــ رئيس أركان الجيش عام ١٩٨٦ .
ي ــ قصير القامة ، مغرور ، عصبي ، لا يحترم أحداً من الآخرين اطلاقاً ، حتى أن هشام صباح الفخري كان يخشاه عندما كان قائد الفيلق الرابع ، وثابت سلطان

قائداً للفرقة المدرعة العاشرة من نظام معركة الفيلق المذكور .

ك ـ يفرض شخصيته بالقوة والزجر والإرهاب، لأنه ملتزم ومدعوم من قبل صدام شخصياً .

ل ـ لا يستطيع أحد في الجيش العراقي كله أن يردَّ له طلباً مطلقاً ، لذا فإنه يحصل على ما يريده بسرعة وسهولة، خلافاً لبقية قادة الفرق الذين تمر طلباتهم بالقنوات الروتينية للجيش لغرض الموافقة عليها .

ـ عندما استلم قيادة الفرقة المدرعة العاشرة، قام على الفور بإبدال عدد من ضباط ركنها بآخرين ، فلقد استبدل ضابط ركن الثالث حركات الفرقة ، وضابط التوجيه السياسي المقدم نبيل عبدالله ، كما أبدل العقيد الركن طارق عناد آمر اللواء المدرع ٤٢ بالعقيد الركن اياد فتيح الراوي، حيث كان يشغل منصب رئيس أركان الفرقة ، لقد تمكّن أن يحدث هذه التغييرات الواسعة بين الضباط بسهولة، لأن لا يستطيع أحد أن يرد له طلباً ، كما قام بتبديل مواضع الألوية والوحدات، وأجرى تحويراً فيها بالصيغة التي كان يراها هو مناسبة ،دون أخذ رأي القيادة العامة حول ذلك الاجراء ، حيث أن اجراء مثل هذه التبديلات تقتضي الحصول على موافقة أعلى قيادة للقوات المسلحة . وفي حالة حدوثه مثل هذا الأمر فإن من يقوم به يعرض نفسه لأقصى العقوبات وأشدها صرامة ، إن قادة الفيالق والفرق لا يستطيعون حتى أن يحدثوا أنفسهم بمثل هذا الأمر .

ـ متعجرف لا يستطيع أحد أن يقاطعه عندما يتحدث لأي سبب من الأسباب ، وإذا حدث ذلك فإنه يرده رداً خشناً خالياً من كل أصول اللياقة والأدب ، مع العلم بأنه عندما حصل على رتبه لواء ركن كان يستحق رتبة مقدم فقط، ولكن صدام منحه رتبة لواء، ونصبه قائداً للفرقة المدرعة العاشرة، على الرغم من وجود عدد كبير من الضباط أكبر منه سناً وقدماً، سواء في الفرقة نفسها، أو غيرها من الفرق ودوائر وزارة الدفاع ، في إحدى المرات وجه إلى آمر اللواء المدرع ١٧ إهانة وبصورة علنية، لأن قائد الفيلق الرابع هشام صباح الفخري قد طلب من آمر اللواء المذكور، وهو ابن اخته بصورة مباشرة، دون الاتصال بالفرقة، أن يهيء لواءه لتنفيذ عملية هجوم ، عندها وصل ثابت سلطان إلى قصر اللواء ، وخاطبه بكلمات يخجل أي ضابط يحترم نفسه أن يسمعها ، قال له : أنت تعتقد بأنك تفهم الأمور!! من الذي قال لك أن تنفذ الهجوم؟، إنكم لا تعرفون أن تتصرفوا بطريقة مقبولة ، لماذا عينتني القيادة لهذه الفرقة؟ إنني عينت لأن الأمور هنا لا تسير بصورة طبيعية ، وأنا مكلف أن أعيدها إلى نصابها ، لقد وقع آمر اللواء المدرع ١٧ حائراً بين طلب خاله قائد الفيلق، وعنجهية قائد الفرقة، وتحمل كل هذه الإهانة مما اضطره لأن

يصرف ضباط ركن مقره، ويظل مع قائد الفرقة لوحده، حيث استمر هذا يوبخه ويهينه والضباط يسمعون كل ما يجري في غرفة آمر اللواء، لأن ثابت سلطان كان يتكلم بصوت مسموع جداً خارج الغرفة ، أما العميد الركن رياض طه آمر اللواء المدرع ١٧ فإنه أجاب عندما سئل عن أسباب إهانته وتوبيخه بهذه الصورة : ان قادتنا يمرون بوضع عصبي مرهق ومتعب واننا يجب أن نتحملهم، هذا ما يحدث غالباً بين القادة والمرؤوسين ، القوي منهم يتجبر ويفرض نفسه واحترامه بالقوة والتهديد ، والمرؤوسون يطأطئون رؤوسهم بذلة ومهانة دون أن ينبسوا ببنت شفة .

ـ فشل ثابت سلطان فشلاً ذريعاً في قيادة الفرقة المدرعة العاشرة، خلال عمليات الشوش وديزفول التي نشبت يوم ٢١ آذار ١٩٨٢ فشلاً ذريعاً ، ففي اللحظات الأولى من الهجوم الذي استهدف قاطع فرقته، لم يستطع أن يؤمن حتى الاتصال اللاسلكي مع الألوية التي يقودها، وانشلت حركته بصورة كاملة ، وقد حجز في غرفته حيث كانت الإشاعات تدور بين الضباط بأنه ربما سيعدم بعد انتهاء المعارك ، لكنه بعكس ما كان متوقعاً، فقد أصبح المسؤول عن التحقيق بالهزيمة، يكيل التهم لآمري الوحدات والألوية، ويتهمهم بالخيانة وعدم تأدية الواجبات التي أنيطت بهم ، لكنه قال بأنه سوف يسامحهم لآخر مرة ، أما إذا تكرر ذلك فإنه سيقوم بتعليقهم ، وبدلاً من أن يلاقي الحساب العادل فإنه أصبح هو الذي يحاسب غيره من الضباط الآمرين، وكأنه قد أدى واجبه بالشكل المطلوب ، أو انه هو الشخص الوحيد الذي أدى واجبه بصورة جيدة .

ـ كان شديد النزوع إلى الترف والإسراف ـ كغيره من القادة ـ ، ففي مقر الفرقة المدرعة العاشرة في الشرهاني ، كان الزائر يتعجب ولايصدق، عندما يرى هذا الترف الشديد في مقر يفترض فيه أن يكون على أبسط مايكون، كي يمكن انتقاله بسهولة من مكان إلى آخر، حسب تطور الحركات التي تتغير بسرعة، خاصة في العمليات المدرعة ، أنشأ مقر الفرقة في مثل هذه الظروف متكاملاً ، حتى ان قاعة المؤتمرات كانت قد أنشئت على شكل حرف (U) من الخشب الجيد، تشبه قاعة مؤتمرات وزارة التخطيط التي تطل على نهر دجلة ، لم يغفل قائد الفرقة أن يكون له كرسياً متميزاً تطبيقاً لتوجيهات القائد العام للقوات المسلحة، بأن يكون القائد في الجيش العراقي متميزاً بين المتميزين ، خصصت لحمايته سرية مغاوير كاملة محمولة بعجلات تويوتا، تحمل كل منها رشاشة متوسطة مركبة عليها، وبوضع التهيؤ للرمي ، إنه في خلاصة القول من الأشخاص الذين يجب أن يحصلوا على ما هم فيه من مناصب لأنه تكريتي مؤتمن ، وعلى الرغم من كثرة الأخطاء القاتلة التي ارتكبها خلال توليه القيادة ، إلاّ أن ما يشفع له بالفعل هو كونه مخلصاً

لصدام شخصياً ـ هكذا يبدو في الظاهر ـ ، لـذا فإنـه انتقل خـلال فترة وجيـزة من منصب قائد فرقة إلى قائد فيلق، ثم إلى رئيس أركـان الجيش على الرغم من صغر سنه، إذ لا يبلغ من العمر إلاَّ (٤٠) عاماً، ولم يصل إلاَّ لرتبة عقيد ركن، في الوقت الـذي أصبح فيـه يحمل رتبة فريق ركن، ورئيساً للأركان العامة للقوات المسلحة !! ولله في خلقه شون .

ـ اللواء الركن صلاح القاضي :

من الضباط الذين خدمتهم الفرص كثيراً، حيث انه لم يكن حزبياً، ولكنه استطاع أن يشغل مناصب رفيعـة في قيادة الجيش العـراقي ، حسود ولئيم ، غيـر مؤدب ويسب معيته من الجنـود والمراتب، مستخـدماً أقـذر كلمات السبـاب والنعوت البـذيئة ، كـان البكر من الـذين ساهمـوا بصورة كبيـرة في تأمين حصـوله على المنـاصب المهمة ودعمـه ، كما أن صدام استمر بدعمه وتعيينـه في مناصب حسـاسة ورفيعـة في القوات المسلحـة ، بطاقتـه الشخصية :

أ ـ من أهالي عنه في محافظة الأنبار .

ب ـ شغـل منصب ضابط ركن في لـواء الحرس الجمهـوري قبل انقـلاب ١٧ تمـوز ١٩٦٨ ، عـرضت عليه المشـاركـة فيـه لكنـه رفض ذلـك ، إلاَّ أنـه قـطع عهـداً للمتآمرين أن لا يخبر أحد من المسؤولين عن المؤامرة، التي كانت تحاك حينذاك ضد عبدالرحمن عارف رئيس الجمهورية الأسبق .

جـ ـ آمر كتيبة الدبابات الرابعة من نظام معركة فرقة المشاة الرابعة .

د ـ آمر اللواء المدرع/ ١٦ عام ١٩٧٥ من نظام معركة الفرقة المدرعة السادسة .

هـ ـ معلم في كلية الأركان العراقية .

و ـ آمر جناح في نفسها الكلية .

ز ـ قائد الفرقة الآليـة الخامسـة بعد نشـوب الحرب مبـاشرة عام ١٩٨٠ ، بعد إحـالة قائدها السابق العميـد الركن سلمـان باقـر على التقاعد، بسبب ما قيـل عن سوء إدارته للمعركة ،وبقاء مقره المتقدم في البصرة بدلاً من نقله إلى أماكن قريبـة من ساحة المعركة الرئيسية في قاطع خرمشهر .

ح ـ قائد الفيلق الثالث .

ـ بعد نجاح انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ ، أُخبر أحمد حسن البكر بأن هـذا الضابط كان له موقف جيد من المتآمرين، فلم يخبـر السلطات المسؤولة في حينهـا عن المؤامرة، لذا فإنه قد حصل على حب البكر الذي ثمن موقفه هذا ،واعتبر ما قام به من مواقف شريفة

يستحق عليها التقدير والتثمين ، لذا فإنه أمر بأن يلبى أي طلب يريده ، طلب القاضي في حينها أن ينقل إلى منصب آمر كتيبة دبابات ، وبالفعل فقد لبيّ طلبه ونقل إلى منصب آمر كتيبة الدبابات الرابعة في الموصل ، ظل يتمتع بمكانة مرموقة داخل الجيش بسبب الدعم الذي كان يلقاه من البكر، فقد كان الضباط يخشونه لشدة تأثيره وسلطته ، كان أنانياً. الضباط الذين يعملون معه في مقر اللواء المدرع ١٦ ووحداته يخشونه ، يسب الجنود والمراتب سبًا قبيحاً ، بعد معارك بستان التي نشبت في نهاية عام ١٩٨١ ، والتي أدت إلى تدمير وحدات عديدة تابعة للفيلق الثالث الذي كان يقوده ، تملص عدد كبير من مراتب الوحدات إلى الخلف تحت تأثير شدة الهجوم الإيراني ، حيث تم جمعهما في مكان واحد ، وكان ما يقرب من ٤٨٠ شخصاً من مراتب اللواء المدرع ٢٦ ، وأخذ يخاطبهم ويسبهم قائلاً : «انسحبوا أمام الإيرانيين حتى يأتوا فـ . . . . بنسائكم» مستخدماً كلمة بذيئة يستعملها ذو الخلق المتدني ، كان شديد الغرور والتبجح ، وقد ساهم صدام نفسه بهذا لأنه كان يظهر له حبه كثيراً .

وفي زيارة لصدام قام بها إلى مدينة عنه ، طلب أن يزور بيت أهل صلاح القاضي ، حيث كان يتحدث معهم بلطف زائد والفرح بادٍ على وجهه ، وكان ينادي والدته : «يا حاجة ، يا حاجة» ، حيث قام تلفزيون بغداد ببث صور هذه الزيارة للمشاهدين الذين رأوا بأم أعينهم كيف يتودد صدام لأهل صلاح القاضي ، مما جعل نجمه يرتفع عالياً بين قادة الجيش العراقي ، ولكن في دولة التكارتة ما طار طير وارتفع إلاّ كما طار وقع . . .

ـ كانت قصة انتحار العقيد الركن ماجد عبدالحميد آمر اللواء الآلي ٢٠ من نظام معركة الفرقة الآلية الخامسة ، والتي تعمل تحت قيادة الفيلق الثالث الذي كان يقوده صلاح القاضي ، قصة مثيرة ، تعطينا صورة عن الأساليب الدنيئة التي يستخدمها القادة في تعاملهم مع مرؤوسيهم خاصة خلال المعارك ، فبعد انتهاء معارك بستان ، أعلن بأن آمر اللواء الآلي العشرين قد انتحر باطلاق النار على نفسه من مسدسه الشخصي ، موجهاً فوهته إلى صدغه منهياً حياته . تبيّن من التحقيق الذي أجري في حينها ، ومن إفادة مراسله الخاص ومسؤول بدالة اللواء ، بأنه كان يتكلم مع شخص آخر بالتلفون ويقول له : ما هذا انني لا أسمح لك بأن تتحدث معي بهذه الصورة ، تبيّن بأن الشخص الذي كان يحدثه على الطرف الآخر هو قائد الفيلق صلاح القاضي ، أغلق آمر اللواء التلفون وكانت تبدو على وجهه آثار الانزعاج الشديد ، قال لمراسله : اجلب لي قدح ماء ، ذهب ليجلب له ما يريد ، ولم يكد يسير خطوات قليلة حتى سمع اطلاق نار ، التفت إلى المكان الذي كان واقفاً فيه آمر اللواء فوجده وقد سقط على الأرض صريعاً ، يعتبر العقيد الركن ماجد

عبدالحميد من أكفأ ضباط الجيش العراقي ، فلقد كان الأول على دورته في الكلية العسكرية ، وبعد تخرجه انتمى إلى صنف المدفعية حيث كان من المتفوقين جداً في هذا الصنف ، دخل كلية الأركان وكان الأول على دورته ، حيث منح قدماً ممتازاً لمدة سنتين ، اشترك بعدة دورات داخل وخارج العراق ، منها دورة الأركان في الهند ، وكان من المتفوقين الأوائل فيها ، وبذا يكون الجيش العراقي قد فقد أكفأ ضباطه ، وأكثرهم خبرة في حادث غامض .

ـ بعد معارك الطاهري الشهيرة التي بدأت في ٣٠ نيسان ٨٢ ، وانتهت في ٢٤ مايس ٨٢ ، والتي أسفرت عن استعادة مدينة خرمشهر ، وتدمير قوات الفيلق الثالث العراقي ووحدات كثيرة أخرى ، وأسر ما لا يقل عن (١٨) ألف ضابط وجندي ، اضافة إلى الغنائم الكبيرة التي سقطت بأيدي القوات الإيرانية ، اعدم صلاح القاضي بعد اتهامه بالفشل والتقصير في إدارة المعركة ، وانه كان سبباً مهماً في فشل القوات العراقية في إيقاف تقدم القوات الإيرانية ، حيث أن الأمر الذي أصدره إلى القوات التي كانت تدافع عن مدينة خرمشهر بالانسحاب منها ، بعد سماعه خبر اكمال تطويق المدينة من قبل القوات الإيرانية ، وان المعارك أصبحت تجري داخلها ، هذا الأمر الذي كان سبباً في انهيار مقاومة القوات المكلفة بالدفاع عن المدينة كما اعتقد صدام ، حيث أخذت الوحدات تنسحب بصورة غير منتظمة وبانهيار كامل ، حيث كان الضباط والجنود يعبرون شط العرب سباحة إلى الجانب الآخر ، تحت رحمة نيران القوات الإيرانية ، حيث قتل عدد كبير منهم كما غرق آخرون كثيرون ، اعدم صلاح القاضي ، ولم تنفعه أنواط الشجاعة الخمسة التي كان يحملها معه أينما كان يذهب متفاخراً بها .

ـ العميد الركن خضر علي نصار العامري :

من الأمور السائدة في أنظمة لا تعرف للكفاءة والمؤهلات قيمة ، أن تجد أناساً كثيرين يتقلدون مناصب رفيعة في الدولة ، دون أن يستند ذلك إلى ضوابط وموازين معروفة ومقبولة ، كالخبرة والكفاءة التي تمنحهم الحق في تبوّء المراكز التي هم فيها ، ففي العراق أصبح هذا الأمر متعارفاً عليه جداً ، والعميد الركن خضر علي نصار العامري ، هو واحد من أولئك الذين ولدوا وملعقة الذهب في أفواههم .

بطاقته الشخصية :

أ ـ من أهالي اليوسفيه ، تبعد ٣٠ كلم عن بغداد على طريق بغداد ـ الحلة .

ب ـ من منتسبي الدورة ٤٩ في الكلية العسكرية .

جـ ــ أخ وزير التجارة السابق حسن علي نصار العامري، وعضو القيادة القطرية حالياً . .

د ــ عمل في الكلية العسكرية مدة طويلة، بعد تخرجه من كلية مساند هيرتس العسكرية البريطانية .

هـ ــ دخل كلية الأركان، وتخرج منها حيث عمل في مقر أحد الألوية .

و ــ آمر الفوج السادس الآلي في اللواء المدرع ١٧ .

ز ــ ضابط ركن في مديرية المتابعة بوزارة الدفاع .

ح ــ آمر لواء مدرع .

ط ــ قائد فرقة، حيث قتل في عمليات استعادة مهران عام ١٩٨٦ .

ــ ذو شخصية مهزوزة جداً، ومعلوماته العسكرية متدنية، لكن كونه شقيق حسن العامري وزير التجارة وعضو القيادة القطرية للحزب الحاكم، استطاع أن يعوض نقصه هذا، ويفرض وجوده على الضباط، حتى الآمرين منهم بأساليب رخيصة ، كأن يتحدث دوماً عن مقابلاته مع المسؤولين البارزين وعلاقاته بهم ، يتحدث عن أخيه كثيراً ، وبذا كان يحاول أن يوحي للعاملين معه من الضباط والمراتب بأنه يتمتع بمركز ووضع خاص ، وانه قادر أن يفعل ما يراه صحيحاً دون تردد، ودون أن يهاب أحد، أو يخشى حساب ، ولقد استطاع أن يحقق في هذا المجال نجاحاً ملموساً.

ــ كثير الادعاء والكذب، وغالباً ما كان يختلق من القصص التي ليس لها صحة ، ويدعي بأنه قام بأعمال بارزة في الحرب ، لكنه جبان ومتردد، ولا يفكر إلاَّ بنفسه ، في معارك الشوش وديزفول كان فوجه يحتل موضعاً خلف قاطع الفرقة الآلية الأولى، التي كانت تحتل موضعاً دفاعياً رئيسياً أمام مدينة الشوش عبر نهر الكرخه ، وكان فوجه مكلفاً بواجب الهجوم المقابل السريع على القوات الإيرانية، عند تمكنها من احداث خرق في قاطع الفرقة ، وعندما حدث الهجوم، وتمكنت القوات الايرانية من تدمير قاطع اللوائين الآليين الأول والسابع والعشرين من نظام معركة الفرقة الآلية الأولى ، كلف الفوج السادس الآلي الذي كان يقوده بالتقدم لاستعادة بعض المواقع التي سقطت ، وما إن تقدم الفوج مسافة قليلة لا تتجاوز الخمسمائة متر، حتى فتحت عليه نار من كمين نصبته قوة إيرانية كانت قد تسللت إلى الخلف ، حيث ضربت ناقلته برمانة «فاز» ضد الدبابات، حيث قتل سائق الناقلة وأصيب هو بجرح بسيط ، فما كان منه إلاَّ وأصدر أمراً للفوج بالانسحاب فوراً ، دون أن يكلف نفسه عناءً بأن يأمر أحد سراياه بمعالجة القوة التي نصبت الكمين، كما هو متبع عادة في سياقات العمل عند حصول تماس مع العدو أثناء التقدم .

بعد عودته إلى مكان انطلاقه الأول، أخلى نفسه إلى وحدة الميدان الطبية ، وعندما فحصه الطبيب وجد بأنه سالم إلاّ من جرح بسيط قام بتعقيمه فقط ، بينما كان خضر العامري يلح على الطبيب بأن يخليه إلى الخلف، محاولاً أن يتهرب من المعركة ، كان الطبيب يصر على عدم اخلائه ، إلاّ أن الغريب هو أن يتحول الأمر إلى نقيضه ، ويتحول الهرب من المعركة والتملص من الواجب إلى شجاعة وبطوله ، فبعد أن انتهت معارك الشوش وديزفول إلى ما انتهت إليه من فاجعة أصابت الفيلق الرابع ، بدأ الكل يدعي «وصلاً بليلى»، بعد انتهاء هذه المعارك، أُقيمت في مقر اللواء المدرع ١٧ حفلة ترفيهية حضرها مدير الاستخبارات العسكرية ـ في حينها ـ الفريق الركن عبدالجواد ذنون، وقائد الفيلق الرابع الفريق الركن هشام صباح الفخري وعدد كبير من الضباط ، وفي حديث جانبي سأل هذا الأخير خضر علي نصار بأنه لم يسمع صوته في المعركة الأخيرة ، قال له : سيدي كنت على وشك الموت ، قال له : كيف حدث ذلك ، أجابه : كنت جالساً في ناقلة آمر الفوج حيث كلفنا بالهجوم ، وبعد أن تقدمنا إلى مسافة معينة لم نرَ أنفسنا إلاّ ونحن محاطون بالإيرانيين الذين بدأوا يصيحون : « عرب سلّم ، عرب سلّم»، وبالطبع فقد كان هذا كذب محض لأن الذي يجلس داخل الناقلة ويضع على أذنيه قلنسوة الجهاز اللاسلكي لا يستطيع أن يسمع الأصوات التي تحدث خارج الناقلة مطلقاً ، وبما أن ناقلات الفوج السادس الآلي كانت من نوع ب.م.ب/١ الروسية المسرفة، فإن صعوبة سماع الصوت سوف تزداد بالتأكيد نتيجة للأصوات التي تحدثها سرفة الناقلة عندما تتحرك ، والأغرب من هذا أن عبدالجواد الذنون، عندما سمعه يتحدث هكذا لم يعترض عليه بسبب كون أن هذا الأمر لا يمكن أن يحدث ببداهة ، بل انه قال له : بارك الله فيك ، بارك الله فيك . مر عليَّ عندما تنزل في إجازة إلى مديرية الاستخبارات العسكرية لك عندي هدية ، مسدس نمرة ١٣ . وهكذا يكون القادة قدوة بالتملق والضحك على ذقون بعضهم البعض ، إذ هل يعقل بأن مدير الاستخبارات وقائد الفيلق لا يعرفان ما حدث فعلاً ، وهل أن ضابطاً غير خضر العامري كان يتحدث هكذا سيصدقه أحد ويقدم له هدية ، الكل يكذب ويدعي ، والكل يتملق ويداري، والقوات المسلحة هي الخاسر الوحيد في هذه الصفقة الخاسرة المسماة «قادسية صدام».

ـ في معركة بستان حيث كان اللواء المدرع ١٧ يتحشد في الشيب كقوة احتياطية ، كلف الفوج السادس الآلي بإمرة خضر علي نصار بأن يقوم بهجوم مقابل ، وبعد أن تحرك الفوج إلى قاطع بستان الذي يقع إلى جنوب الشيب بحوالي ٢٥ كيلومتراً، تعرض إلى نار بسيطة ، لم يعد أحد بعدها يعلم ماذا جرى للفوج إلاّ بعد ثلاثة أيام، حيث

تبينّ بأن الفوج ،بدلاً من أن يعالج الموقف ويتقدم باتجاه هدفه ، قام بحركة عبور موفقة!! لنهر الكرخه العمية باتجاه الدهلاوية ، ثم توجه إلى داخل الأراضي العراقية ،حيث سلك طريق البصرة ـ العمارة ، ثم وصل إلى منطقة الشيب بعد ثلاثة أيام ، وبذا استطاع أن يتملص من الاشتراك بالمعركة ، التي كانت حامية خلال تلك الأيام الثلاثة الأولى ، والتي أدت بالفعل إلى حسم الموقف لصالح القوات الإيرانية بصورة كاملة ، بل إنه لم يحاول تأمين الاتصال مع مقر لوائه الذي كان في حيرة من أمره ، بعد انتهاء معارك بستان والشوش وديزفول حيث أصيب فوجه بخسائر فادحة ،واتضح له بأن بقاءه في الجبهة يحتاج إلى الصبر والتحمل والعمل الحقيقي ، وأن الكلام الذي كان يطلقه للاستهلاك والضحك على الذقون لم يعد مجدياً ، وان المرحلة هي مرحلة عمل واختبار حقيقي للإرادة ، أعلن بأنه سوف يتدبر أمر نقله إلى وزارة الدفاع ، حيث قال بالحرف الواحد ، عند ذهابي بالإجازة سوف لن أعود إلاَّ وكتاب نقلي بيدي ، وبالفعل فقد عاد وهو يحمل معه كتاب نقله إلى منصب ضابط ركن في مديرية المتابعة في وزارة الدفاع ،وهي هيئة خاصة مرتبطة بصورة مباشرة بوزير الدفاع عدنان خير الله ، تضم عدداً من الضباط المقربين جداً من النظام .

ـ تلك عينات من القادة الذين يتحملون مسؤولية تاريخية ، مسؤولية تلك الدماء التي سالت وتسيل كل يوم أنهاراً على مذبح أطماع المتسلطين على الحكم في العراق . وإذا أردنا أن نستطرد في الحديث عن بقية القادة لاحتجنا إلى وقت وجهد كبيرين حتى نفي بالغرض ، إلاَّ أننا نكتفي بهذا القدر ،حيث ان بقية القادة لا يختلفون عن الذين تحدثنا عنهم آنفاً إلاَّ قليلاً جداً ، فإذا كان قائد ما يحمل صفات طيبة في جوانب من سلوكه ، فإننا نجده في جانب آخر من شخصيته يعيش انهياراً كبيراً ، فاللواء الركن ضياء الدين جمال ـ قائد أحد الفيالق ـ مثلاً معروف بأنه ضابط كفوء ذو أخلاق جيدة ، يتعامل بلطف مع مرؤوسيه ، لكنه في عمليات بستان ، وعندما كان قائد قوة الشيب التي كلفت بالدفاع عن مدينة بستان ، والتي لم تستطع أن تفعل شيئاً مطلقاً ، واجه إهانة شديدة من قائد الفيلق هشام صباح الفخري الذي بصق في وجهه أمام عدد من الضباط ، هؤلاء هم القادة الذين تحدثت عنهم جريدة الثورة العربية ، جريدة الحزب الحاكم في العراق ، واعتبرت وجودهم على رأس القيادة للقوات المسلحة من العوامل الهامة والمؤثرة في ارتفاع الروح المعنوية للقوات المسلحة العراقية ، فهل بعد الذي سمعناه يحق للقائمين على هذا الإعلام الزائف والتثقيف الذي لا يجد له مادة سوى اختلاق الأكاذيب وتزوير الحقائق أن يتحدثوا عن ارتفاع الروح المعنوية ،وحماسة القوات المسلحة في القتال والاندفاع في المعارك اقتداءً بهؤلاء القادة الميامين ، الذين خلقوا المعجزات التي يقصر الذهن عن تصورها ، ويعجز القلم عن تدوينها؟!.

التـدريـب

ـ تستشهد الجريدة بقول للقائد العـام للقوات المسلحـة حول أهميـة التدريب حيث يقول : « إذا عوضت الوحدات والتشكيلات بجنود ناقصي التدريب، فإن آمر الفصيل أو الرعيل صعوداً إلى أعلى المستويـات من مسؤوليتهم التدريب، فهو عامـل أساسي لبنـاء القوات المسلحة، وهـو الفعاليـة التي يجب أن تستمر في شتى الـظروف»[1]. نعم فالقـائد العام يحس بأن هنـاك نقصاً واضحـاً في المراحـل الأساسيـة لتدريب المستجدين، والذي يجري في الخلف بعيداً عن الجبهـة في مستودعـات التدريب، أو في مـدارس الصفـوف المختلفة للقوات المسلحة ، وإذا علمنا بأن مدارس الصفوف قد تم إخلاؤها من الضبـاط المعلمين الكفوئين لسد النقص الذي تعاني منـه الوحدات، بسبب الخسائـر الفادحـة التي تحدثها المعارك ، إضافـة إلى التوسـع الهائـل الذي شهـده الجيش من حيث الكم ، فإن التدريب الأساسي للمستجدين سوف يكـون بالتـأكيد هـزيلاً ونـاقصاً جداً، بعد أن يجـري اختزال مدة الوقت المخصص له إلى الربع ، لذا فإن القائد العام يطلب من الـوحدات أن تستمر بإدامة فعاليـة التدريب في منـاطق انفتاحهـا في الجبهة، ويحمل مسؤولية هـذا الأمر لكـافـة الضبــاط ، ومن المعـروف أن وحــدات المشـاة تشكــل أكثـر من نصف الجيش العراقي ، هذه الوحدات التي غالباً ما يكون واجبها مسك جبهة يزيد طولها على (١٤٠٠) كيلومتر ، هي طول الحدود العراقيـة ـ الايرانيـة المشتركـة ، لا تستطيـع في الواقـع انجاز أبسط مستلزمـات التدريب الفـردي الضروري، تزويد المقـاتلين بـالكفـاءات والمهـارات الضرورية، بسبب كونها تتعرض إلى قصف مستمر من الجانب الآخر ، إضافة إلى كونها لا تستـطيع في واقـع الأمر أن تنجـز بعض التمارين الضرورية، لاختبـار قابليتهـا على العمل

---

(١) جريدة الثورة العربية ـ جريدة حزب البعث الحاكم في العراق الداخلية ص ٢٣ العدد ٦ سنة ١٩٨٥ .

كوحدات متكاملة، فيما لو كلفت بالفعل بواجبات طارئة كالهجوم أو التعرض وهذا ما لم تكن قادرة عليه بسبب بقائها فترات طويلة منهمكة بترتيب اجراءات الدفاع الضرورية. كما أن الوحدات المدرعة، والتي تشكل الاحتياط كقوة للهجوم المقابل للفرق التي تمسك الأرض في الامام، هذه الوحدات هي الأخرى لا تستطيع أن تنجز تدريباتها على الوجه الأفضل، بسبب كونها تعيش حالة من الانذار شبه الدائم، استعداداً للعمل لتنفيذ واجباتها الأساسية لصد الهجوم الإيراني الذي تظل تتوقعه دوماً، مما يحرمها من الحرية التي يتيحها لها وجودها في العمق، لغرض إدامة التدريب والاستعداد، وعليه فإن التدريب يظل في كل الحالات ناقصاً ومبتوراً، وان الوحدات تستمر في المعاناة من وجود عدد كبير من منتسبيها في حالة ضعف كبير، سواء من حيث استخدام الأسلحة الفردية أو الجماعية، أو من حيث انجاز الواجبات التعبوية.

ـ لغرض اعطاء صورة عن تدني مستوى التدريب في القوات المسلحة العراقية، فإننا سوف نختار صنف القوات الخاصة التي تعتبر من أرقى صنوف الجيش وأكثره استعداداً وقابلية للعمل:

أ ـ قبل الحرب: يصدر في نشرة التدريب الخاصة بصنف القوات الخاصة جدول خاص بمواعيد فتح دورات الصاعقة والمظليين للمستجدين، وأخرى دورات لمعلمي وحدات القوات الخاصة، تقوم الوحدات بترشيح من يرغب من الضباط وضباط الصف والجنود للاشتراك بهذه الدورات، يتم بعدها إلحاق المرشحين بمدرسة القوات الخاصة التي تقوم بإرسالهم إلى مستشفى الرشيد العسكري لإجراء الفحص الطبي، لبيان صلاحية من يشترك منهم في الدورة، وبعد أن يعاد من لا يصلح منهم إلى وحدته الأصلية، يشترك الباقون في دورة للمشاة لمدة ٤٥ يوماً، يجري فيها تدريب الملتحقين على تعليم المشاة وتنتهي بالرمي بكافة الأسلحة التي تتيسر لدى وحدات صنف القوات الخاصة ـ بعدها يتنقل المتدرب إلى مرحلة بناء اللياقة البدنية، وهي عبارة عن دورة لمدة ١٥ يوماً. بعدها يجري التدريب على الصاعقة الذي يستمر لمدة شهرين، يتم فيها التدريب على الدوريات البعيدة والتدريب العنيف والجودو والكراتيه والسباحة والقفز إلى الماء من ارتفاع عالٍ، ثم القفز من البرج الذي يكون ارتفاعه اعتيادياً (٧٠) متراً بواسطة العتلات، بعدها يجري تنفيذ تمارين تطعيم المعركة بالعتاد الحي، حيث يسمح بنسبة خسائر ١٠٪، في هذه الأثناء يتم مراقبة المشتركين في الدورة مراقبة شديدة، فكل من يتلكأ أو يتراجع أو يبدي ضعفاً في مراحل التدريب المختلفة، أو تبدو عليه علامات التضجر وعدم اطاعة أوامر المدربين، فإنه يفصل على الفور، حتى ولو كان في المراحل

النهائية للدورة ، أو في يومها الأخير ، ويحرص الضباط وضباط الصف المعلمون على عدم إتاحة الفرصة لدخول العناصر غير الكفوءة إلى صنفهم الذي يعتبرونه مقدساً ، لذا فإنهم لا يتوانون عن فصل أي شخص يرونه غير لائق لأن يحمل شارة القوات الخاصة ويتفاخر بها ، على اعتبار أن منتسبي القوات الخاصة هم صفوة الجيش ، وغالباً ما يتقلص عدد المشتركين في دورات القوات الخاصة إلى أقل من الصنف ، أو دون ذلك بكثير عند التخرج ، حيث يظل حلم المشترك في هذه الدورات أن يظل صامداً صابراً حتى يفلح في التخرج منها ، ويحمل شارة القوات الخاصة ، ويحصل على شهادة التخرج التي تتيح له العمل في القوات الخاصة بعدها ، حيث يتمتع بامتيازات عديدة منها : مخصصات صنف القوات الخاصة التي تصل إلى (٤٠) دينار شهرياً عند إكماله دورة المظليين ، إضافة إلى تناوله أرزاق من الدرجة الأولى على نفقة الدولة ، تختلف اختلافاً كبيراً عن أرزاق الصنوف الأخرى من الوحدات ، طيلة مدة عملهم في صنف القوات الخاصة ، خلافاً لما يجري في الوحدات الأخرى .

بعد أن يجتاز المشترك بدورة القوات الخاصة ـ الصاعقة ـ يتم إجراء الفحص الطبي عليه لبيان لياقته للعمل كمظلي ، حيث يتم فحصه فحصاً دقيقاً مشابهاً لفحص التلاميذ الذين يقدمون للانتماء في كلية القوة الجوية ، ففي حالة عدم صلاحيته للدورة الجوية يلحق إلى وحدات القوات الخاصة ، الصاعقة ، عندها لا يتمتع بمخصصات الصنف المظلي ، بل يمنح مخصصات دورة الصاعقة فقط ، وفي حالة اجتيازه الفحص الطبي فإنه يلحق بدورة المظليين التي تستمر لمدة شهر ، حيث تبدأ بتنفيذ تدريبات معقدة متدرجة تنتهي بالقفز بالمظلات ، حيث يتم بعدها منحه شارة المظلي ، وهي مظلة مفتوحة اضافة إلى حصوله على شارة الصاعة ، وهي نسرٌ منقض ، يتم منحه مخصصات الصنف المظلي ، حيث يصل مجموعها مع مخصصات صنف الصاعقة إلى (٤٠) ديناراً شهرياً ، يتم إلحاق المتخرجين والذين استطاعوا اجتياز دورتي الصاعقة والمظليين إلى وحدات خاصة بهم ، تضم نظراءهم ممن اجتازوا الدورتين معاً ، وبهذا يشكلون وحدات نموذجية تمتاز بقدرات منتسبيها العالية ، ومن الذين يتمتعون بمهارات جيدة وقابليات عالية تؤهلهم لانجاز أصعب الواجبات التي تعهد إليهم ، وفي مراحل لاحقة يتم اختيار الملائمين من بين هؤلاء للاشتراك بدورة للضفادع البشرية ، تقوم بانجاز واجبات خاصة في أعماق المياه منها دفاعية وأخرى هجومية ، تشكيل سرية ضفادع بشرية تعمل بإمرة القوة البحرية في البصرة .

ب ـ بعد نشوب الحرب :

بعد نشوب الحرب تعرضت ألوية ووحدات القوات الخاصة إلى خسائر جسيمة جداً، أدت إلى فقدان هذه الوحدات لكادرها القديم المدرب من الضباط وضباط الصف والجنود ، مما جعلها في واقع الحال ضعيفة عاجزة باستمرار من تنفيذ المهام التي أوكلت لها فيما بعد ، فابتداءً من احتلال مدينة خرمشهر، بدأت القوات الخاصة تواجه نقصاً شديداً في موجودها ، ولقد شكل تحطيم لواء ٣٣ قوات خاصة وتدميره، في عمليات احتلال المدينة، نقطة تحول هامة في الجانب المعنوي والمادي على حد سواء في تاريخ القوات الخاصة ، كان اللواء المدرع السادس بقيادة المقدم الركن عبدالعزيز الحديثي[١]، يشارك هذا اللواء في تنفيذ خطة الهجوم، اضافة إلى عدد آخر من التشكيلات من بينها لواء ٢٣ المشاة، حيث لم يتقدم اللواء المدرع مع وحدات المشاة سوية داخل المدينة، ممّا أدى إلى أن يفقد المشاة إسناد الدبابات التي يمكن أن تعوضه عن النيران الساترة التي تسديها له المدفعية له ، فقد دخلت وحدات المشاة،وعلى رأسها لواء القوات الخاصة البحري ٣٣ المدينة، حيث تعرض إلى خسائر فادحة جداً ، أدت إلى انخفاض موجوده إلى الثلث، وخرج من المعركة خائر القوى محطماً ، ولقد كان يوم احتلال خرمشهر مشهوداً في العراق ، أمرت السلطات بالتكبير من على مآذن الجوامع ودقت أجراس الكنائس ، وصليّت صلاة الغائب على القتلى الذين كانت اعدادهم غفيرة جداً ، وقد كانت حصة القوات الخاصة منها حصة الأسد ، كان من نتائج هذه المعركة أن قدم آمر اللواء المدرع السادس إلى المحكمة التي اتهمته بالتباطء في التقدم، وعدم مواكبة وحدات المشاة، حيث حكم عليه بالسجن لمدة ثماني سنوات .

وفي أواسط عام ١٩٨١ ، اقترح هشام صباح الفخري القيام بعملية هجوم خاطفة سريعة على مدينة ديزفول، مستخدماً لواءً من القوات الخاصة التي يكون واجبها في الخطة تنفيذ إنزال خلف القوات الإيرانية لمسك عارضة مهمة ، وحالما يتم تنفيذ صفحة الانزال بنجاح، تقوم قوات أخرى بشن هجوم مرتب عزوم!! (هذه تعبيرات هشام الفخري) على جبهة القوات الإيرانية ،يتم على أثره تحقيق الاتصال مع القوات الخاصة التي جرى إنزالها في الخلف، وبهذا يتم تدمير القوات الإيرانية المدافعة عن المدينة أو أسرها، وقد أطلق على العملية الاسم الرمزي «وثبة الأسود»، لكن العملية لقيت في مراحلها الأولى الفشل

---

(١) أصبح قائداً للفيلق الخامس وقتل في حادث سقوط طائرة بداية عام ١٩٨٨ في منطقة جوارته في محافظة السليمانية شمال شرق العراق ، بعد أن أخرج من السجن بمدة .

الذريع ، وانتهت إلى كارثة بسبب سوء التخطيط والتنفيذ لها ، حيث لم يتم تهيئة خطة نارية ملائمة للمدفعية، أونيران الطائرات المقاتلة والعمودية بصورة جيدة، وكانت ناقصة حيث لم يتم تنفيذها بعد إنزال القوات الخاصة ، كما أن القوات التي شنت الهجوم جبهوياً لم تستطع أن تحقق أي شيء يذكر، مما أدى بالنتيجة أن تترك القوات التي تم إنزالها خلف القوات الإيرانية معزولة ، حيث هاجمتها القوات الإيرانية التي كانت على علم مسبق بخطة الهجوم وتفاصيلها وإبادتها عن بكرة أبيها ، ومن سلم منها وقع أسيراً ، ليت هشام صباح الفخري سمع تعليق العقيد الركن طارق عناد آمر اللواء المدرع ٤٢ على الاسم الرمزي للعملية «وثبة الأسود»، وكيف أبدل كلمة الأسود بكلمة قبيحة غيرها .

هذا هو الوضع الذي آلت إليه حالة القوات الخاصة ، فهي لم تعد كما كانت عليه قبل الحرب التي أنهكتها وحطمتها ، إلاّ أن ذلك لم يكن وحده الذي أدى إلى ضعف القوات الخاصة ، بل إن القوات الخاصة فقدت «خاصيتها» هذه بعد أن تحوّلت من فرقة إلى فرقتين ، أي من ثلاثة ألوية إلى ما يزيد على الستة ألوية قوات خاصة ، إضافة إلى تحوّل قوات الحرس الجمهوري من لواء آلي معزّز بفوج قوات خاصة إلى ثمانية عشر لواءً كلها قوات خاصة منقولة بناقلات أشخاص مدرعة وأرجلة ، وكان أثر ذلك التوسع الكمي بليغاً على النوعية ، على كفاءة عنصر القوات الخاصة ومهاراته وقابليته البدنية ، ونظراً للحاجة إلى سد النقص باستمرار، فإن دورات القوات الخاصة قد اقتصرت على مدة ٤٥ يوماً، يجري خلالها إلحاق الجنود من مراكز التدريب مباشرة دون خضوعهم إلى فحص طبي، الذي يعتبر شرطاً أساسياً لتعيين صلاحية المنتسب لدورات هذا الصنف ، والأدهى من ذلك هو أن الضبط والالتزام بالتقاليد التي اعتادت عليها مدرسة القوات الخاصة، لم يعد لها وجود ، فالجندي الذي يفترض به أن يبذل جهداً مضاعفاً، ويبدي طاقة استثنائية في التحمل والصبر، هذا الجندي أصبح ينادي بأعلى صوته «أنا جبان . . أنا جبان . .» من فوق البرج، وقبل أن يهبط منه بعتلات تشد إلى جسمه، حيث ينزلق على سلك معدني قوي متجهاً إلى الأرض، قاطعاً مسافة لا تقل عن (٢٠٠) متر في الهواء، إلى أن يصل إلى الأرض، ليس هناك من يفصل من الدورة لتردده وعدم اندفاعه، الكل يجب أن يظلوا مستمرين في الدورة ، والكل يجب أن يصبحوا في النهاية منتسبين للقوات الخاصة ، وبهذا يكون صنف القوات الخاصة قد قضي عليه بصورة كاملة، حيث أصبحت وحدات القوات الخاصة لا تختلف عن وحدات المشاة اختلافاً جوهرياً ، الفرق الوحيد بينهما هو أن منتسبي الأولى يرتدون قبعات حمراء ، أما الثانية فيرتدي منتسبوها قبعات خاكية اللون .

ـ هـذه في الواقـع صورة عن حـالة التـدريب ومستواهـا المتـدني الـذي وصله صنف مهم من صنوف الجيش الذي كان يعتبر قمـة في الضبط والمهارات التي يتمتـع بها منتسبـوه ، والحديث عن بقيـة الصنـوف لا يختلف مـطلقـاً عن الحـديث عن هـذا الـذي ذكرناه ، إذا لم يكن أسوأ منه .

ـ يقول القائد العام للقوات المسلحة العراقية : « ثم ان الأسلحـة والتجهيزات الحديثة بحاجة إلى وسـائل تـدريب حديثـة لبلوغ مستوى جيـد من الكفاءة والـوصول إلى الهـدف المـطلوب ، كـذلـك فـإن العـزلـة المخيفـة ستحـدث بعـد أن يتم التمـاس مـع العدو »[1] . . ويقول أيضاً : (ويجب التغلب على العزلة بالتـدريب المتواصـل في أجواء المعـركة)[2]، نعم فـإن هذا القـول لم يصل إلاّ لأطـراف الحقيقة،ولم يـلامس جوهـرهـا وعمقها، ولم يستطع أن يدرك الأحاسيس والمشاعر التي تعتمل في صدر المقاتل في أحرج لحظة يمر فيها ، وهي عندما يكون منعزلاً في خندقه بعيداً عن مـراقبة آمـريه وخـارجاً عن سيـطرتهم المعتادة ، تنهـال عليه القنـابل تصم آذانـه ، تضغط على أعصابـه وتحطمهـا ، وعندما يرى نفسه محاطاً بالموت والخطر ، هناك سيختار بين الصمود والقتال حتى النهاية ، مقدماً حياته ثمناً لذلك بكل اطمئنان ، وبين الفرار إلى الخلف أو التسليم دون قتـال ، أو التحول إلى حالة من السلبية، يسيطر فيها عليـه ضغطهـا وشدة التفكيـر بالخـلاص والنجاة بنفسه ، وبذا يكون هدفاً سائغاً لنيران المهاجم .

إن مـا يفعل فعله في وضـع كهذا هـو عمق إيمانـه بـالهـدف الـذي شنت من أجله الحرب ، ومدى اعتقاده بأنه يقوم بالفعل بالدفاع عن الوطن ـ ونحن بـالطبـع لا نعـدم أثـر التدريب كلياً ـ ، « وهناك عامل آخر لزيادة التماسك وهو ظهور الروح الوطنية : فالجنـدي المنعزل بعيداً عن نظر رؤسائه يجد الحافز الذي يشدّه إلى القيام بواجبـه ، الأمر الـذي لا يتوافر للجنود المرتزقة »[3]، فالروح المعنوية والإيمان بالقضية هما اللتان تشدان يده على زناد بندقيته ، فهل يتـوقع لجمـوع المقاتلين في القـوات المسلحة أن تكـون لديهم قضيـة كبرى، بعد أن حولهم القائد العام للقوات المسلحة إلى مرتزقة ـ على الأقل هذا ما يعتقـده هو ـ ينتظرون المكافأة المادية على عمل يقومون به في ساحة المعركة ، أو بدونه .

لقـد تمّ فحص كتـائب اللوائين المـدرعين ١٧ والعشـر، فـوجـد بـأنهمـا أنـازا

---

(١) و(٢) الثورة العربية، جريدة الحزب الحاكم الداخلية العدد ٦ سنة ١٩٨٥ ص ٢٤ .

(٣) علم النفس في القوات المسلحة ، العقيد شارل شانديسي ص ١١.

واجبات الرمي بصورة متكاملة، وكانت نسبة الإصابات تصل إلى ١٠٠٪، وفي أوضاع رمي مختلفة، من حالة الوقوف والحركة، حتى أن الخبراء الروس لم يصدقوا ما جاء في التقارير التي رفعت لهم. وكان أن أعيد الرمي بحضورهم حيث حصلت تلك الكتائب على نسبة إصابات مماثلة للأولى، ولكن هل استطاع هذان اللواءان أن يفعلا شيئاً عندما شنت القوات الإيرانية هجومها على منطقة بستان وحررتها؟، وما الذي فعلته عندما واجهت قطعات الفيلق الرابع، وهما جزء منها، هجوم القوات الإيرانية في قاطع الشوش وديزفول؟، ألم يكن جل الجهد المنصب في حينها، والذي بذلته القيادة العامة هو تخليص أكبر ما يمكن من الأسلحة والدبابات والناقلات وسحبها سالمة إلى الحدود الدولية؟، فما الذي كان ينقصها كي تدحر الهجوم وترده؟ وهي الوحدات التي لم يكن ينقصها شيء، لا من ناحية التدريب، ولا من ناحية التسليح والتجهيز، علماً بأنهما كان يحظيان باهتمام خاص من قبل القائد العام نفسه ونائبه، حيث كانت تلبي كل طلباتهما فوراً، إضافة إلى الاغداق المستمر على ضباطها ومراتبها بالهدايا والخلع والرعاية الخاصة التي كان يتمتع بها منتسبوها.

ـ تظل نقطة هامة أخرى جديرة بالملاحظة، لما لها من الأثر البالغ على انجاز المهام التدريبية للوحدات، وهي أن موجود الوحدات العاملة في الجبهة من الكادر المؤهل للتدريب، يكاد أن يصل في قسم كبير منها إلى الصفر، مثلاً، ما بقي من موجود الضباط في الفوج الأول للواء ٢٤ الآلي عام ١٩٨٢، وهو من نظام معركة الفرقة المدرعة العاشرة التي تعتبر من أحسن الفرق، لما تحظى به من عناية خاصة من قبل القيادة العامة للقوات المسلحة، على اعتبار أنها تشكل احتياطياً استراتيجياً ورئيسياً لكل الوحدات العاملة في القاطع الجنوبي من الجبهة، ما بقي من موجود هذا الفوج هو رائد تموين ونقل، وضابط التوجيه السياسي الرائد بلبل صالح دريدح، خريج إحدى الدورات الخاصة ومدتها لا تتجاوز الثلاثة أشهر، ولا يمتلك من الكفاءة ما يؤهله لأن يقود فصيل مشاة آلي بأي حال من الأحوال، ومعاون آمر الفوج برتبة مقدم، وآمر الفوج وخمسة ضباط مجندين، وهم من خريجي الجامعات العراقية، والذين يساقون إلى الخدمة بعد أن يمنحون رتبة ملازم أول احتياط، فمن الذي يضطلع بمسؤولية التدريب ووضع مناهجه والإشراف على تنفيذه، لفوج مشاة آلي يشتمل تدريبه على أوجه تعليمية وتدريبية مختلفة، كسياقة الناقلة والرمي بأسلحتها والعمل على أجهزتها اللاسلكية، إضافة إلى تدريب المشاة على مختلف فنون القتال، كالتدريب الفردي والتعبوي، في الوقت الذي تعيش فيه وحدات الفرقة كلها حالة استنفار وإنذار شبه دائم لمواجهة المواقف الطارئة

التي تشهدها المعارك باستمرار؟ هل إن القائد العام للقوات المسلحة على علم بموجود الوحدات فعلاً، عندما يتحدث عن ضرورة إنجاز التدريب من قبل الوحدات، حتى ولو كانت منفتحة لأغراض الحركات؟. ولكن من يستطيع أن يضع هذه الحقائق أمام القائد العام للقوات المسلحة، الذي لا يريد أن يسمع إلاّ ما يقوله هو فقط؟.

التسليح والتجهيز

ـ حصل العراق قبل الحرب على أسلحة كثيرة متنوعة ومتطورة ، إلاّ أن ما حصل عليه بعدها يفوق ما حصل عليه قبلها أضعافاً مضاعفة، سواء من حيث الكمية أم النوعية ، فلقد حصلت القوات الأرضية على أعداد كبيرة متطورة من الدبابات السوفيتية والصينية وناقلات الأشخاص المدرعة، المزودة بأحدث الأسلحة لمقاومة الدبابات والطائرات، إضافة إلى تزويدها بأحدث أجهزة السياقة الليلية، وإيجاد الاتجاه والسير على الخارطة ، كما زود صنف المدفعية بأحدث المدافع المعروفة في العالم، ومن مصادر متعددة ، كما زودت بطاريات الهاون بمدافع مختلفة العيارات تصل إلى عيار ١٧٥ ملم ومن أحدثها ، كما أن بقية الصنوف قد زودت بأحدث ما، معروف من أسلحة ومعدات عسكرية في العالم على الاطلاق ، إن بعض رشاشات المشاة المتوسطة مثلاً ، والتي زود بها الجيش العراقي حديثاً ترمي كهربائياً، وبسرعة تفوق سرعة الأسلحة المستخدمة قبلاً أضعافاً مضاعفة، مما ساعد على مضاعفة القوة النارية لهذا الصنف بصورة مذهلة ، كما حصلت القوة الجوية العراقية على أحدث الطائرات المعروفة في العالم الشرقية والغربية ـ تحدثنا عن هذا الموضوع سابقاً ، كل هذه الأسلحة يتم تعويضها فوراً عند خسارتها، أو تحطيمها، فالعالم كله يفتح مستودعات أسلحته، ويقدم للعراق كل ما يحتاجه من إبرة البندقية وحتى الطائرة المتطورة ميغ ٢٥ ، فالمال متيسر وهناك من يبدي استعداده للدفع نيابة، عن النظام وبسخاء ، والعراق لم يشتكِ في يوم من الأيام من قلة السلاح والعتاد، أو عدم تيسره، بل إن القيادة العراقية لم تخفِ ذلك مطلقاً، وهي تبدي ارتياحها واطمئنانها باستمرار لموقفها الثابت من وجودات الأسلحة والأعتدة والاحتياطي الذي لا ينضب منها ، وهي تطلب من المقاتلين ـ خلافاً للعادة ـ الذين يديرون كافة الأسلحة أن يرموا أكبر كمية من الأعتدة ، لأن ما لديها لا ينفذ مطلقاً وأبداً ، فالهدف الذي يحتاج إلى إطلاقة واحدة لتدميره يجب أن يرمى بعشرين .

ـ يقدر ما لدى العراق الآن بحوالي ٣٠٠٠ دبابة، وما يزيد عن (٧٠٠) طائرة مقاتلة مختلفة الأنواع والأغراض، وهي تُشكل في الواقع العمود الفقري والقوة الأساسية التي تعتمدها كل جيوش العالم، لغرض الايفاء بمتطلبات الحرب الحديثة التي تمتاز بسرعة الحركة، التي تتطلب إسناداً ملائماً ومتوازناً لحركة الدروع في كل صفحة من صفحات المعركة، وما لدى القوات المسلحة العراقية الآن يكفي لكسب أي حرب تدخلها مع جارلها، لا يملك أقل من نصف ما تملكه في وقت معقول، إذن ما الذي حدث لحد الآن؟ وأين ذهبت تلك الكميات الكبيرة من الأسلحة طيلة الفترة التي سبقت وقف إطلاق النار؟ وهل أمكن الاستفادة فعلاً من كل الأسلحة المتيسرة؟ ولماذا ظل العراق يتراجع من معركة إلى أخرى؟.

إن الحقيقة التي لا تقبل الانكار هي أن النظام في العراق يشن الحرب بدعم من القوى الكبرى وحلفائها في المنطقة، حيث يشمل هذا الدعم كافة المجالات، وأهمها العسكرية والمالية والإعلامية، والشعب العراقي يدرك هذه الحقيقة تمام الإدراك، ولا يشك فيها على الاطلاق، وبهذا فإن شعور المواطن العادي بأنه يدفع قسراً لحرب لا فائدة منها، ليس له فيها ناقة ولا جمل، أدى فعله المستمر باتجاه معاكس لإرادة من يخطط لها، ولم يخفِ هؤلاء خوفهم عند تقييمهم الموقف بأن نقطة الضعف الوحيدة في الموقف العراقي: هو أن كل شيء لدى العراق يفوق ما لدى إيران . . . ولكن! ولكن لا أحد يعلم ما الذي سيحدث غداً في العراق . . هذا هو الرعب الذي يعيشه الكبار والصغار . . ما الذي سيحدث غداً؟ . . . نعم . . . لا يمكن التأكد من ذلك لأن العوامل التي تلعب دورها في هذا الجانب، هي عوامل لا يمكن أن ترى أوتلمس، كي يمكن حسابها بالطرق المعروفة . . . إنها عوامل خفية . . إنها الروح المعنوية . . إنها رغبة الشعب . . إنها إرادة المقاتل العادي . . الذي يظهر للناظر والمتتبع لحركته صورة، هي ليست في واقعها ما يعتمل في ضميره ووجدانه . . .

لقد سقطت كميات كبيرة من الدبابات والأسلحة المتطورة الأخرى غنائم بأيدي القوات الإيرانية، كما أن عمليات الفاو وحدها قد كلفت القوة الجوية ما يقرب من ١٠٪ من قوتها على أقل تقدير، وهو تقدير اعترفت به كافة وسائل الإعلام الدولية المنحازة منها والمحايدة، وعلى الرغم من أن القوة الجوية العراقية هي القوة الوحيدة التي كانت أداة النظام للتعويض عن شعوره القاتل بالخسارة، معنوياً بالدرجة الأولى، والمادية بالدرجة الثانية، إلاّ أن هذه اليد هي الأخرى قد بدأت ترتجف وتصاب يوماً بعد آخر بالوهن، لقد قذف أحد الطيارين نفسه من طائرته المقاتلة قبل أن يدخل فعلاً في مجال الخطر لمقاومة

الطائرات الإيرانية ، وكان قائد المهمة ينظر إليه بألم قائلاً : « أيها السافل!! لماذا تركت طائرتك . . ولم تطلق عليك إطلاقة واحدة»؟ . . . لقد أعلن الإيرانيون بأن ما لديهم من الغنائم من الدبابات وناقلات الأشخاص المدرعة ما يكفي لتشكيل فرقتين مدرعتين ، أي أن لدى الايرانيين ما يقارب من ١٥٠٠ دبابة من مختلف الأنواع والعلامات تي ٥٥، تي ٦٢، تي ٧٢، مثل هذا العدد من ناقلات الأشخاص المدرعة من أنواع مختلفة: بي . أم . بي/١ ، بي . تي . ار/٦٠ وغيرها، إذن فإن وجود السلاح يشكل في حد ذاته عاملاً من العوامل التي ترفع المعنويات لدى المقاتلين ، ولكن أي نوع من المقاتلين هؤلاء؟ إنهم المقاتلون الذين يملكون بالأصل استعداداً مسبقاً، وإيماناً في حدوده المعقولة بأن الحرب التي يخوضهاعادلة،وأنها مشروعة،وأن الغايات النهائية لها تصب في خدمة الوطن والدفاع عنه، ليس المقاتلون العراقيون الذين يدركون تمام الإدراك لماذا شن النظام العراقي حربه ولخدمة من؟ .

ـ تظل الحقيقة المرعبة الماثلة أمامنا بأن الصهيونية العالمية هي التي تقف وراء هذه الحرب، وتدفع بكل قواها المنظورة والخفية لدعم النظام العراقي ، لأن هذه الحرب قد دفعت عن ربيبتها إسرائيل بالتأكيد خطراً كان يتهددها ويتقرب إليها يوماً بعد آخر ، لذا فإن الدعم الذي تقدمه أميركا ودول الغرب لصدام، وما تقدمه الدول الرجعية العربية من دعم مالي واقتصادي وتسهيلات متنوعة، تدخل فعلاً ضمن المخطط الذي رسمته الصهيونية العالمية للتأثير على مجرى الحرب، ومع ذلك فإن الصهيونية لم تغفل بأن هذه الأسلحة والمعدات التي تتدفق على العراق قد تصبح في يوم من الأيام بأيدي تتحمّس لاستخدامها ضدها، أو أن الجيش العراقي نفسه قد يتحول بين ليلة وضحاها من حرب الخليج إلى حرب أخرى تختلف عنها كلياً ، وقد يحس بالفعل بأن من قرأ الخارطة عند إعلان الحرب كان مغفلاً وأمياً ، فعبادان لا تقع على طريق القدس ، بل انها تقع في الاتجاه المعاكس لها، وان عمّان هي التي تقع على هذا الطريق، وهي حجر العثرة الرئيسي باتجاه تحرير الأرض المقدسة فلسطين ، لم يغفل الصهاينة ذلك ، ولكنهم مطمئنون بأن الأسلحة التي بيد القوات العراقية لم يجرِ استخدامها بصورة صحيحة ، لأن الوحدات المدرعة العراقية لم تكتسب أية خبرة من هذه الحرب ، وسوف لن تخرج بأية دروس ذات قيمة منها ، لأنها لم تقاتل أبداً وحدات مدرعة مثلها، إلاّ في حالات نادرة ومحدودة ، بل إنها ظلّت دوماً تقاتل المشاة الذين يحملون بأيديهم أسلحة مقاومة دبابات متواضعة في أغلب الأحيان . . . أما الطيران العراقي فهو الآخر لم يتقن تكتيك واستخدام الطائرات الحديثة المتيسرة لديه ، لأنه لم يتح له المجال في الدخول في معارك جوية

حاسمة، إلاَّ في الأيـام الأولى للحرب وبنـطاق محدود ، وهـذا ما يـرغب حصـولـه العـدو الصهيوني، لأنه يعتمد بالدرجة الأولى على قـوة طيرانه، الذي سـوف يستطيـع التغلب على الطيران العراقي ، الذي يعـاني من الضعف في مجال القتـال الجوي ، إضـافة إلى دروعـه التي ستقابل درعاً لم يخض معارك مدرعة حاسمة تكسبه الخبرة في القتال المدرع ، كمـا وأن الصهاينة قد أصبح لديهم يقين راسخ بأن الجيش العراقي سوف لن يستطيع أن يدخل حرباً جديدة ـ تحت ظل قيادته الحالية ـ إلاَّ بعد مضي سنوات عديدة، تكفل نسيـان ومحو مرارة الحرب الدائرة الآن وذكرياتها الأليمة من الأذهان .

العقيـدة

ـ « إن مسألة التحويل الثوري العقائدي للقوات المسلحة، وسيادة روحية الحزب والثورة في عمل كافة مفاصلها الأساسية، وصولاً إلى شعيراتها الدقيقة مسألة مفهومة على الصعيد الفكري، وقد بلغتها قيادة الحزب والثورة في سياق ثوري متوازن»[1]، نعم لقد أفلح النظام بخلق تنظيم حزبي يشكل سلسلة طويلة، شملت كل الجيش وطوقته وجعلته مكبلاً ، لقد كان الهدف الأساسي من وجود التنظيم الحزبي داخل القوات المسلحة هو إنشاء شبكة من الجواسيس، الذين لا هم لهم إلاّ رفع التقارير والمعلومات عن أي خلل يهدد أمن الدولة ، ويعمد التنظيم الحزبي إلى تقديم تقارير دورية عن كل الضباط ، يتضمن هذا التقرير معلومات تفصيلية عن حياة الضابط ، اتجاهاته الفكرية ، أقاربه واتجاهاتهم الحزبية ، هل لدى أحدهم نشاط معادٍ للدولة، أوينتظم بأحد الأحزاب أو التنظيمات المعادية؟، وهل كان منتمياً في يوم من الأيام إلى أحد التنظيمات غير التنظيم الخاص بالحزب الحاكم؟ ومعلومات تفصيلية أخرى، ويوزع نموذج خاص بالمعلومات يضم أكثر من (٢٠) فقرة، يجب املاؤها بالمعلومات ، إضافة إلى كون المنظمة الحزبية داخل الوحدة، تقوم بمراقبة كل الأشخاص الذين ترد معلومات عنهم من مناطق سكناهم بأنهم كانوا يمارسون نشاطاً سياسياً معيناً قبل التحاقهم بالخدمة ، إضافة إلى عناصر الاستخبارات الذين يقدمون تقارير خاصة أيضاً عن نشاط ووضع الأشخاص المشتبه بهم داخل الوحدة ، إن واجب الحزبيين في الواقع، وفي مختلف المستويات لا يتعدى ذلك مطلقاً ، لأن التنظيم الحزبي لا يمارس واجبات أخرى كالنقد والنقد الذاتي وتقييم الأوضاع السياسية بصورة خاصة، أو إبداء وجهات نظر معينة تتعلق بالأحداث الجسيمة التي يتعرض لها الوطن .

---

(١) الثورة العربية ـ جريدة الحزب الحاكم الداخلية العدد ٦ سنة ١٩٨٥ .

في عام ١٩٧٣ ، عندما أُعلن عن اكتشاف مؤآمرة ناظم كزار مدير الأمن العام السابق ، أثار أسلوب معالجة الحدث الشك والاضطراب والاستغراب ، لأن المتهمين قد تم إعدامهم بصورة مستعجلة ، وبدون محاكمات ، ولم يطلع أحد من الحزبيين أو غيرهم على الأسباب الحقيقية لماجرى ، والدوافع التي كانت تدفع ناظم كزار لعمله هذا ، أثار همسات هنا وهناك وتساؤلات عن أن الذي لا بد ، وأن تكون دوافعه عميقة هي ليست بالحقيقة كالذي يتسرب من نتف المعلومات القليلة . وقد أحسَّ النظام بهذا الأمر ، فبادر إلى قطع دابر هذا التململ الذي يجري تحت ظواهر الأحداث . فقد أصدرت القيادة القطرية تعميماً حزبياً يمنع مناقشة الأمر أو التساؤل عنه ، واعتبار القضية منتهية ، وهي تتصور بأن مثل هذا التعميم قادر على أن يمنع الحزبيين من التفكير والتفكر ، وكما يجري على مستوى الدولة كلها ، حيث تصدر الأوامر من رئيس الجمهورية نفسه ، ولا أحد يستطيع أن يناقشه أو يعترض عليه ، فإن الحزب هو الآخر جهاز متلقٍ ومنفذ فقط ، بينما يفترض أن تكون التعميمات والتعليمات الحزبية انعكاساً لما يعتمل داخل التنظيم الحزبي ، لأن أي تنظيم حزبي ينتهي بالتدريج إلى التفسخ والانحلال والملل ، عندما يكون واجبه فقط تنفيذ ما تأمر به القيادة ، أو في الواقع ما تطمح إليه القيادة ، وترتبه من أجل المحافظة على بقائها في السلطة ، وبعد أن فقد التنظيم حيويته وأصالته ودوافع العمل والإبداع ، أصبح يشكل جهازاً إضافياً من أجهزة الدولة الأمنية ، وهو في واقعه الحالي يستطيع أن يفعل ذلك ، ولأن رغبات القيادة لم يجرِ مناقشتها وإبداء الرأي فيها ، فإن هذه الرغبات غالباً ما تتعارض مع التوجهات الأساسية المركزية والثابتة ، والتي أوردتها أدبيات الحزب نفسه . فقد ظلَّ الحزبيون في مختلف المراحل والمستويات يعانون من تعارض واضح بين الممارسة العملية اليومية للدولة ، كثمرة لنضال الحزب وطموحه ، وبين أدبياته وثقافته ، ولم يعد للديموقراطية المركزية ، أو أي نوع آخر منها وجود داخل التنظيم ، حتى ان شعار (نفذ ثم ناقش) قد تحوّل إلى شعار جديد على الواقع العملي (نفذ . . نفذ . . ولا تناقش) .

ـ شكل التنظيم الحزبي داخل القوات المسلحة طبقة جديدة لها وضعها الخاص المتميز ، فهي تتمتع بامتيازات خاصة وكثيرة ، فالحزبي داخل الوحدة شخص نادراً ما يخضع للقوانين المعروفة التي يعمل بها داخل القوات المسلحة ، خاصة الحزبيون ذوو الدرجة الحزبية الكبيرة ، عدا الحالات التي تهدد الأمن ، عندها يصغر كل حزبي مهما كانت درجته ، ويساق إلى الموت بكل بساطة ، لأن الأمر أصبح يتعلق بمصير رأس الدولة الذي يمكن أن يغض النظر عن كل شيء ، إلّا ما يهدد سلامته ، فهو

يتعامل بهذا الجانب بكب ما أوتي من قوة وقسوة وبطش دون شفقة أو رحمة والحزبيون هم أقل الأشخاص الذين ينفذون الواجبات العسكرية والواجبات اليومية، فأعذارهم كثيرة ومتعدد، لدينا بالساعة كذا اجتماع حزبي، وبالساعة كذا اجتماع تثقيفي، وبالساعة كذا اجتماع للتوجيه السياسي، وبالساعة كذا لديَّ اجتماع في الفرقة الحزبية والشعبة الحزبية والفرع الحزبي . . . وليس هذا وحده ما يربك عمل الوحدة ويحطم تماسكها، بل إن كل واحد من هؤلاء يجب أن تهيأ له عجلة تنقله من الوحدة إلى مكان اجتماعه، ثم تنتظره حتى عودته، في الوقت الذي يحرّم على بقية منتسبي الوحدات الآخرين أن يستخدموا العجلات إلاَّ لأغراض العمليات أو التدريب بموجب تعليمات ووصايا تصدرها المقرات العليا، وتحاسب كل من يخالفها بشدة، وهكذا تصبح هذه الكتلة من الحزبيين المتقدمين وحاشياتهم بعيدة دوماً عن الانتاج والعمل المثمر الذي يدفع الوحدة إلى الأمام، ويجعلها قادرة على إنجاز واجباتها التي يفترض أن تصرف أوقاتها وإمكانياتها وجهدها من أجل الوصول إليه، لقد تحول شعار (البعثي أول من يعمل وآخر من يستفيد)، الذي كانت ترفعه المنظمات الحزبية للاستهلاك، تحوّل منذ أن رفع داخل الوحدات إلى (البعثي أول من يستفيد وآخر من يعمل)، في واقع الممارسة والعمل الحقيقي، وبدأت الوحدات تعاني من هذا الحشد من العاطلين المتهربين عن العمل، الذين يجب أن توفر لهم كل شيء على حساب بقية منتسبيها من المقاتلين والعاملين .

ـ لم يستطع التنظيم الحزبي أن يوجد عقيدة راسخة يلتف حولها المقاتلون بقوة، عقيدة تدفع بهؤلاء إلى القتال حتى النهاية، والصمود حتى النفس الأخير، فالشعارات التي نادى بها الحزب، وروج لها حقبة طويلة من الزمن والمتمثلة (بالوحدة والحرية والاشتراكية)، لم يبقَ منها شيء على واقع الممارسة العَملية، فالنظام قد داس الوحدة وحزبها مع سوريا، وبدلاً من تنجز الوحدة وتنشأ مؤسساتها الضرورية بين البلدين، فقد تبدلت إلى عداء بين العراق وسوريا، وأعمال تخريب وانتقام لم يشهد لها تاريخ العلاقات بين البلدين مثيلاً، وبدلاً من أن يسعى الحزب الحاكم في العراق إلى إقامة علاقات وحدوية، أبدلها بعلاقات مشبوهة مع الأنظمة الرجعية، وتحالفات على الساحة العربية أدّت إلى ترسيخ نهج الاستسلام للصهيونية والامبريالية، ونظرة سريعة على طبيعة العلاقات العراقية ـ العربية توضح الاتجاه الذي سارت عليه السياسة العراقية وبصورة مكشوفة، لقد انتهى وقت الشعارات التي كانت تطلق لخداع الشعب وتطمينه، وجاء الوقت للعمل الجدي الحقيقي، فمصر عادت لتصبح حضن العروبة، وينادى بها للعودة إلى الحظيرة العربية، وكأنها لم تكن السبب الرئيس لتردي الموقف العربي، واستهتار

إسرائيل واستمرارها بتجاهل حقوق العرب والشعب الفلسطيني ، كأن العلم الإسرائيلي الذي يحمل نجمة داود ، وصمة العار في جبين النظام المصري، لم يعد مرفرفاً في سماء عاصمة أرض الكنانة، وكأن آل سعود والصباح لم يكونوا هم العملاء أنفسهم الذين ظل النظام يدعي معاداتهم ، وان الملك حسين لم يلطخ يده بدماء الآلاف من الفلسطينيين في أيلول الأسود ، وكأن هؤلاء جميعاً لم يكونوا أعداء الأمة العربية وسبب نكباتها وتأخرها ، كل شيء تبدل دفعة واحدة ـ ولا أحد يستطيع أن يفسر هذا ـ وأصبح هؤلاء هم حلفاء النظام الجدد وأخوة صدام ومحبيه ، إذن فقد حان الأوان لأن نتفق مع الأخوة من أجل أن نعمل بمجد ورفعة الأمة العربية، أي عار هذا وأي افتراء على التاريخ ؟ فالوحدة التي يجب أن تتم بحركة ثورية شعبية نابعة من ضمير الأمة العربية، تكتسح في طريقها الأنظمة الرجعية والعملية ـ هكذا كانوا يقولون من قبل ـ استعيض عنها بالتضامن الأعرج الذي تصب نتائجه وتوجهاته في المخططات الصهيونية والاستعمارية .

ـ أما الحرية فلم تكن في يوم من الأيام وعلى امتداد تاريخ العراق كله مظلومة مهانة مكبلة، كما تعيشه الآن في ظل النظام الحالي، فالإرهاب أصبح هو البديل للحرية، وقد طال هذا الإرهاب كل وجوه الحياة في المجتمع العراقي ولم يسلم منها القريب أو البعيد، الحزبيون من البعثيين، الناس العاديون، الأحزاب الأخرى ، القوات المسلحة والشعب على حد سواء ، فالحزبيون يعرفون جيداً معنى (عدم الولاء للحزب والثورة) جيداً، وهو التعليل الوحيد الذي يرد موضحاً الأسباب التي اتخذت من أجلها قرارات كثيرة ومستمرة بفصل الحزبيين ، فعدم الولاء للحزب والثورة كان يعني في واقعه عدم الولاء لصدام وعشيرته ، وهناك فرق كبير بين الولاء للحزب والولاء لصدام ، فالحزب لم تعد له قضية يناضل من أجلها، ولا هدف يسعى لتحقيقه ، بل إن الهدف الرئيسي الآن لكل مؤسسات الدولة العراقية ونشاطها هو المحافظة على صدام ورأسه، وضمان الولاء له ولأهله، واستيلائه غير الشرعي على السلطة بالقوة والإكراه، خلافاً حتى لإرادة الحزب، ناهيك عن رغبة الشعب . الحرية التي نادى بها هؤلاء، والتي عرفها الشعب وخبر مرارتها وقسوتها في تجربة سابقة في شباط ١٩٦٣ ، هي حرية السجون والإعدام والقتل والإذلال، هي خوف شامل على كافة المستويات ، الشعب يعيش في حالة من الخوف الدائم ، وقادة الجيش ينتظرون دورهم لأن يطاح برؤوسهم وهم يرتعدون ، ولا أحد يعلم إلى أين ستنتهي هذه الدوامة من الخوف والرعب والقتل؟ وهل سيحين الوقت لأن تعزف الزمرة المتسلطة على الرقاب عن القتل والإرهاب بعد أن تشبع منه على الأقل وتتعب؟ لا أحد لديه القناعة الآن بأن هذا سيحدث في يوم من الأيام، وأن حلقة الرعب سوف تظل هي المجال الوحيد

لدوران عجلة هذه الدولة ومؤسساتها، لأن تركيبة النظام لا تسمح بإجراء أي تعديل على الأساليب المتبعة في إدارة الدولة .

ـ لم يعد أحد يرى أي ارث اشتراكي ورثته السلطة القائمة من الحكومات التي سبقتها، فمؤسسات الدولة ذات الطابع الاشتراكي لم يعد لها وجود ، فلقد تم الغاء الاتحاد العام لنقابات العمال، والاتحاد العام للجمعيات الفلاحية التعاونية ، وهي التي تعتبر في الأنظمة الاشتراكية الأعمدة التي يرتكز عليها بناء النظام الاشتراكي وترسيخه ، على اعتبار أن هؤلاء، وكما يدعي بناة النظام الاشتراكي هم المستفيدون الأولون من النظام الاشتراكي نفسه ، وكما ويجري كل يوم بيع معامل منشآت القطاع العام الانتاجية ، الصناعية والزراعية ، إلى من يدفع المال ، العراقيون منهم أو الرأسماليون العرب ، وبذا يشهد العراق عودة إلى النظام الرأسمالي ، ونشوء طبقات رأسمالية طفيلية ، لا تهتم سوى بالربح السريع وجمع الأموال ، وحرمان الطبقات المحرومة من حقوقها المشروعة .

ـ إن ما انتهت إليه شعارات الحزب وأهدافه المعلنة في الواقع هو أبعد ما يكون عن هذه الشعارات والأهداف ، تتمثل حقيقتها في ذهن المقاتل وروحه ، وأصبحت لديه القناعة الكاملة بأن هذا النظام يخدعه ، ويخدعه باستمرار ، وأن ما أعلنه عند بداية استيلائه على الحكم ، لم يكن إلاّ فخاً لاصطياد المغفلين ، وحرف أذهان الشعب عن المخطط الرهيب المعد لأن يؤديه هذا النظام بحق الوطن والشعب ، وبيعه للأجنبي وتدميره ، وقد ترتب على كل ذلك عدم إيمانه بالقيادة التي تسوسه وتدفعه إلى محرقة مطامحها ، بل إن النظام كله أصبح يشكل ثقلاً ينوء بحمله الشعب كله ، وبالأخص القوات المسلحة التي تتحمل كل هذا التدمير والآلام ، ولقد انعكس ذلك انعكاساً شديداً على روحه المعنوية ، واندفاعه في القتال والصمود ، لقد أصبح المقاتل يعتقد بأن المعركة ليست معركته ، وانه في واقع الأمر قد وضع في موقف قد فرض عليه فرضاً ، وليس لإرادته أو اختياره أي أثر فيما هو عليه ، بل إن ظروفاً من الضغط الخارجي تحاصره مجبرة إيّاه أن يجلس في خندقه حائراً بائساً ، فالإرهاب والخوف من الموت المحقق هو الذي يجعله يقبل في موت غير مؤكد ، إن قبوله بالوضع الراهن يؤمن له نسبة معقولة للبقاء على قيد الحياة ، لقد انحطت القوى المعنوية للقوات المسلحة إلى درجة رهيبة ، وانعكس ذلك على مجمل نشاطها وفعالياتها ، وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نحسب عناصر القوى المعنوية ومكوناتها ، إلاّ أننا نستطيع أن نلمس قوتها وضغطها بشدة في الأثر الذي تتركه على النشاط العادي للمقاتل ، في المعارك أو من خلال نشاطه اليومي ، « إن المعنويات السيئة تتميز في خلال القتال بظواهر : انعداه الفاعلية (عدم الرمي ، عدم التقدم ،

انسحاب غير مبرر)، والهروب (الفرار من الخدمة، الاستسلام أمام العدو، الهلع)، والعنف الداخلي (الشتائم، عصيان الأوامر علناً، التمرد)، والتفكك الاجتماعي (عدم تنفيذ الأوامر، انعدام الاتصال، نقل الشائعات المدمرة أو المحرضة)»[1]. فما الذي لم يفعله المقاتل العراقي مما ذكر أعلاه؟. بل إن القادة أنفسهم كانوا يتبادلون الشتائم والسباب فيما بينهم ، وإذا لم يحدث كل هذا، فلماذا تشكل مفارز الإعدام الميدانية التي تأخذ على عاتقها تنفيذ حكم الاعدام فوراً بحق الهاربين والمنسحبين؟ بل إن هناك ظواهر أخرى أشد خطورة يمارسها المقاتلون وبأساليب تدل هي الأخرى على مدى ضعف وانهيار الروح المعنوية للقوات المسلحة العراقية، والتي يتوسل بها المقاتلون لغرض التهرب من الخدمة،أو البقاء في الخطوط الخلفية للجبهة ،ومن هذه المظاهر :

أ ــ استخدام الألغام : يقوم الجندي بفك اللغم، ثم يقوم بإفراغ قسم من المواد المتفجرة فيه، إلى القدر الذي يكون ما تبقى فيه كافياً لإحداث ضررجزئي،كقطع اصبع القدم أو عطبها بعد أن يضغط على اللغم بقدمه.

ب ــ يقوم بفتح سمكة متفسخة، ويضعها على الجرح، يضغط ويلفه بقطعة قماش، حيث يؤدي ذلك إلى حدوث ورم شديد في الجرح، الذي يحتاج من ثم إلى وقت كبير حتى يتماثل للشفاء، وقد يكرر ذلك عدة مرات، مما يجعله خارج الخدمة في وحدته لفترة طويلة .

جـ ــ الأضرار بالنفس : وهي حالة شائعة جداً بين المقاتلين، حيث سبب للقيادة مشاكل عديدة، بسبب اتساعها بنطاق كبير أصبح يهدد كيان الجيش بالانهيار ، ولقد تمّ تشكيل لجنة خاصة للتحقيق في كل حالة من حالات الإيذاء والإضرار بالنفس،للتأكد من أن المتهم، والذي غالباً ما يستخدم سلاحه لإحداث هذا الضرر ، قد أطلق النار على نفسه متعمداً أو أنه أصيب فعلاً أثناء الواجب ومن جرائه ، تضم هذه اللجنة عضواً من الاستخبارات العسكرية، وآخر من التوجيه السياسي ، وعضواً ثالثاً من مديرية الأمور الطبية ، وفي حالة ثبوت كون الشخص المتهم قد أطلق النار على نفسه عمداً ، فإنه سوف يواجه عقوبة الموت رمياً بالرصاص ، ولقد بذلت القيادة جهوداً كبيرة لدراسة هذه الظاهرة التي «تتطلب جمع المعلومات عن أسبابها، إن الاستمارة الإحصائية عنصر مساعد للوصول إلى تلك الأسباب»[2]، حيث وضعت على عاتق آمر الوحدة

---

(١) العقيد شارل شانديسي : علم النفس في القوات المسلحة ص ١١١.

(٢) كتاب مديرية التوجيه السياسي السري والشخصي ٦٣٧ في ١٩٨٤/١٠/٢٢.

وضابط التوجيه السياسي فيها مسؤولية العمل والتحري لتشخيص الأسباب وإعطاء العلاج اللازم لكل حالة على حدة ، والتعامل مع هذه الظاهرة الخطيرة بطريقة أفضل من خلال الحوار الهادىء، كما يشير الكتاب الذي أصدرته مديرية التوجيه السياسي بهذا الخصوص ، وتحضرني هنا فقرة من كتاب (الجيش والحركة الوطنية للدكتور أنور عبدالملك ص ٨٥، لما لها من معنى عميق يتصل بالواقع الذي تعيشه القوات المسلحة العراقية في أزمتها الحالية : يقول لنا بحاثة فرنسي في ذلك العصر هو هـ. نبا (لا يستطيع المرء أن يتصور مدى التذمر الذي أحدثته ضريبة الدم في صفوف الفلاحين، إلّا عندما يرى في القرى والمدن تلك الكمية العجيبة من الأولاد والرجال الذين فقأوا أعينهم اليمنى بشكل خاص بقصد الإفلات من الخدمة العسكرية).

د ـ استخدام الثوم : تفتقت ذهنية الجندي عن ابتكارات رائعة في استخدام مواد، لم يكن يخطر ببال أحد بأنها يمكن أن تحدث أضراراً وتخريباً شديدين في أعضاء الجسم ، فلقد تمّ استخدام مادة الثوم لغرض إحداث تخريب واضرار، تؤدي عند استخدامه إلى حدوث ورم وانتفاخ الجروح ، يعمد الجنود إلى وضع رأس من الثوم على الجرح مدة معينة، بعد أن يتم سحقه بصورة جيدة، كي يسهل نفاذ مادة الثوم إلى الجرح الذي يتورم وينتفخ ، كما يستخدم الثوم أيضاً حيث يوضع على القدم بعد سحقه، يجري بعدها ارتداء الجوارب وحذاء الخدمة ، مما يؤدي بعد مرور ٢٤ ساعة أو أقل إلى ورم القدم، وانتفاخها مما يعيق المقاتل عن العمل في الجبهة، ويمنعه من البقاء فيها .

هـ ـ استخدام حذاء الخدمة : يبلل حذاء الخدمة (العرضات)، ويلف بقطعة قماش، ثم يوضع تحت الرأس مباشرة أثناء النوم ، وفي صباح اليوم التالي تنتفخ الرقبة، ويبدو الشخص وكأنه مصاب بمرض التكاف ، وهو مرض معد، يسارع الطبيب إلى عزل مريضه عن بقية المقاتلين، أو يمنحه إجازة لمدة طويلة، لا تقل عن (٢٥) يوماً.

و ـ استخدام النفط : تبيّن أن بعض الجنود يقوم باستخدام النفط، وذلك بزرق القدم بهذه المادة، مما يؤدي إلى إحداث احمرار وتورم، ثم تقيح الجزء المزروق بهذه المادة ، ولكثرة هذه الظاهرة وشيوعها هي الأخرى ، فقد عمدت الوحدات إلى إرسال المرضى الذين تحدث لديهم مثل هذه الحالات إلى شعبة الطب العدلي في المستشفيات العسكرية، للتأكد من أسباب الإصابة ، وقد قامت مستشفى

البصرة العسكري، وبكتابها المرقم ٤٥٠١٧ في ١٩٨٥/٦/٢ بإرسال الجندي المكلف مازن حامد فرحان، المنسوب إلى مغاوير شط العرب إلى شعبة الطب العدلي في معسكر الرشيد، للتأكد من أسباب الإصابة، وبعد فحصه من قبل المقدم الطبيب رؤوف قاسم عبدالرسول اختصاصي الطب العدلي في مستشفى الرشيد العسكري، استنتج «ان الإصابة أعلاه هي نتيجة الزرق بمادة النفط، وليس كما يدعي».

ز ــ يضع الجندي يده بصورة مستقيمة على مرتفعين صغيرين، حيث يقوم زميل له بضربها بسرعة، مما يؤدي إلى كسرها، ومن ثم إلى إصابته بعاهة تعيقه عن العمل في الجبهة.

ح ــ استخدام صاعق الرمانات اليدوية لقطع الأصابع، حيث يتم نصبه وتفجيره بين الأصابع، مما يؤدي إلى قطع واحد أو اثنين منها.

ط ــ يتفق أحد الجنود مع زميل آخر له أن يسدد ببندقيته على أحد أطراف جسمه، كاليد أو الرجل، ثم الرمي عليها من مسافة بعيدة، وذلك كي لا يتهم بأنه قد قام هو شخصياً بالرمي على نفسه والأضرار بها.

ك ــ تعطيل الدبابات وناقلات الأشخاص المدرعة: يعمد ضباط الصف والجنود إلى وضع مادة السكر في محركات الدبابات، وناقلات الأشخاص المدرعة، مما يؤدي إلى عطل محركاتها. وبما أن طائفة الدبابة أو الناقلة يقومون بمرافقتها عندما تخلى إلى معامل التصليح في القاعدة، فإن الطوائف تعمد إلى هذا الأسلوب من أجل التهرب من بقائهم في الجبهة تحت القصف الجوي والمدفعي، أحست القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية بهذا الأمر، فأوعزت بتشكيل لجنة خاصة تتألف من ثلاثة أعضاء، أحدهما من صنف الهندسة الآلية الكهربائية للفرقة، والآخر من الاستخبارات العسكرية، والثالث من التوجيه السياسي، تقوم بتقديم تقرير خاص، يقرر فيها إذا كان العطل الحاصل قد نجم عن أسباب عادية، أو عن أسباب أخرى هدفها التخريب.

ــ ظاهرة الهروب من الخدمة:

ولننظر إلى تفشي حالات الهروب المتزايدة والمستمرة من الخدمة العسكرية، ونقوم بحساب بسيط لحالات الهروب من الجيش الشعبي في قاطع واحد منه، وهو قاطع الجيش الشعبي لمنطقة بغداد، كمثال حي لاتساع هذه الظاهرة، وإذا كان الهروب من

الخدمة يشكـل في نظر المـراقبين المختصين في بحوث علم النفس العسكـري مظهـراً من مـظاهر ضعف المعنـويات وانحـدارها ، فمن المفيـد أن نجري تحقيقـاً خـاصـاً لحـالات الهروب بين منتسبي الجيش الشعبي ،والذي يعمل في قاطع الفيلق السابـع الذي يمتـد من البصرة ،وحتى رأس البيشه في أقصى الجنـوب من شط العرب ، وهـو الـذي يعـرف الآن بقـاطع الفـاو . وهي أرقام تشيـر إلى حالات الهـروب من الخدمة ، قبل بـدء معارك الفـاو المشهورة ، تتألف قيادة الجيش الشعبي لمنطقة بغداد من أربعة قواطع هي : قاطـع أبو جعفـر المنصور ، قاطع سعد ، قاطع صدام ، قاطع خالد ، وكل قاطع من هذه القواطع يضم من ٣٥٠ إلى ٤٠٠ مقاتل .

ففي الفترة الممتدة من ١٩٨٥/١٢/١٧ ، إلى ١٩٨٦/١/٢٦ ، أي لمدة لا تزيـد عن أربعين يوماً ، ورد (٢١) كتاباً يحمل درجة تداول سري ، وعلى الفور من قيادة منطقة بغـداد للجيش الشعبي بتوقيع فلاح مطر جبر عن قائد الجيش الشعبي لمنطقة بغداد ، مـوجهة إلى آمريات القواطع الأربعة التي تتألف منها قيادة الجيش الشعبي المـذكورة ، تتضمن أسمـاء ١٨٧ شخصاً حصلت موافقة السيد قائد الجيش الشعبي لمنطقة بغداد على عدم احتسـاب مشاركة هؤلاء مشاركة فعلية في معركة قادسية صدام ، استنـاداً إلى المادة (١٤) من قـانون عقوبات الجيش الشعبي الرقم (٣٢) لسنة ١٩٨٤ ، وتنسب إلحاقهم إلى قواطع أخرى، أي اننا لو قمنا بعملية حساب لمجموع الغياب لمدة سنة كاملة ، فإن معدلـه سيصل إلى حـدود ١٥٠٠ حالة غياب ، وعدم مشاركة فعلية في معركة قادسيـة صدام»، وبـذا نصل إلى نتيجـة مذهلة ، وهي أن كافة منتسبي الجيش الشعبي لمنطقة بغداد ، والعـاملين في قاطـع الفاو قـد ارتكبوا جريمة الغياب ، وبالطبع فإن هذا لا يعني عدم وجودهم في القاطع ، إذ ربما يعـود قسم كبير منهم إلى الخدمة بعد ارتكـاب جريمـة الهروب لفتـرة معينة ، إلّا أننـا نريـد أن نقف على عمق الاضطراب الحاصـل بين المقاتلين والمشـاكل التي تعـاني منها الجهـات ذات العلاقة من جراء كثرة عمليات الهروب من الجبهة .

ــ أما حالات الهروب من الجيش ، فهي من المشاكـل المستعصية التي تـواجهها القيـادة العامـة للقوات المسلحـة العراقيـة ، فجبال كـردستـان تمتلىء بـأعـداد غفيـرة من الهـاربين من الخدمـة ، كما وتعـج أهوار وسط وجنـوب العراق وأريـافه بـالهاربين الـذين يحملون معهم أسلحتهم ، مما ظلّ يشكل وجودهم خطراً كبيراً على أمن النـظام بالـدرجة الأولى وقواه البشرية التي يحتاجها للعمل في وحدات القوات المسلّحة ، مما اضطره إلى القيام بحملات عسكرية واسعة ،استخدمت فيها قوات كبيرة مدعومة بالطائرات العموديـة ، لعدة مرات ، حيث كانت تنشب بينهم وبين القوات المهاجمة التي تتعقبهم معارك طاحنة ،

حيث أسقطت في إحدى هذه العمليات التي كان يقودها عزت الدوري نائب رئيس مجلس قيادة الثورة شخصياً طائرتان عموديتان من الطائرات التي كانت تقوم بدعم القوات المتقدمة داخل مناطق الأهوار، ولقد اضطر القائد العام للقوات المسلحة شخصياً للتدخل للحد الذي عقد بتاريخ ٣١ آب ١٩٨٦ لمعالجة ظاهرة الهروب الذي تقرر فيه ما يلي :

«١ ــ عدم إرسال أي هارب يلقى القبض عليه إلى وحدته، والتنسيق مع دوائر الشرطة لإيجاد معتقلات لهم، انتظاراً لصدور الأمر المركزي الذي يقرر مصيرهم .

٢ ــ عدم إرسال من يسلّم نفسه نادماً إلى الوحدات، بل يتم التنسيق بين آمرية الانضباط العسكري ودوائر الشرطة لوضعهم في المعتقل، حتى يصدر قرار مركزي من اللجنة المركزية للإشراف على عملية الهروب والتخلف .

٣ ــ يتم اخبار وحدات المذكورين في المادة (١ و٢) أعلاه، لاتخاذ الإجراءات القانونية الأصولية بحقهم وكذلك الإجراءات التي تتخذ بحقهم لاحقاً وللنشر»[١] .

فكرة الهروب واتساعه جوبهت بإجراءات صارمة وشديدة ، فلقد تمّ تشكيل لجنة خاصة، هي اللجنة المركزية للإشراف على عملية الهروب والتخلف ، تقوم بإصدار قرارها المركزي بحق الهاربين، وهي عقوبة الإعدام، بعد أن يتم حجزهم في معتقلات خاصة، وبتوجيه مباشر من القائد العام للقوات المسلحة نفسه ، الذي يصدر قراراته بصورة مباشرة إلى اللجنة المذكورة ، كما يوافق شخصياً على القرارات التي تصدرها ، وهي حالة لم يسبق أن مرّ بها الجيش العراقي ، ولا نحسب أن قائداً عاماً لأية قوات مسلحة في العالم يضع نفسه موضع القائد العام للقوات المسلحة العراقية ، مما يوضح المدى الذي وصل إليه انتشار ظاهرة الهروب من الخدمة، الناجم أساساً من انخفاض الروح المعنوية لدى المقاتلين وفقدان الدافع الذي يجعلهم يستمرون بالخدمة ، كما أن الهروب لم يقتصر على المراتب فقط ، بل امتد أيضاً إلى الضباط أنفسهم ، فقد وردت رسالة سرية فورية من مديرية الاستخبارات العسكرية معممة إلى كافة الوحدات، تطلب منها ابلاغ كافة السيطرات العائدة لها، بالقاء القبض على النقيب داود سالم عبد، المنسوب إلى الفوج الثالث لواء المشاة ١٣٠ من نظام معركة الفرقة ٣٠، عنوانه محافظة بابل، سدة الهندية/ داخل، وارساله مخفوراً إلى المديرية المذكورة[٢] .

---

(١) كتاب دائرة الادارة والميرة التابعة لوزارة الدفاع السري والشخصي ١٠٨٨ في ٢٥ أيلول ١٩٨٦ .

(٢) رسالة مديرية الاستخبارات العسكرية السرية والفورية ٥٥٤٩ في ١٩٨٥/١٢/٢١ .

ـ تفشي الأمراض الجنسية والنفسيّة :

من الظواهر الغريبة التي بدأت تنتشر بين الجنود ، والتي لم يسمع عنها في الجيش العراقي من قبل إلاَّ نـادراً ، ظاهـرة تفشي الأمراض الجنسيـة بين المقاتلين ، ممـا أصبح يهدد القوات المسلحة مادياً ومعنوياً بالانهيار ، ولا يخفى ما لهذه الأمراض من أثـر معنوي ونفسي على المريض ، حيث أن المصاب بها ينظر إليـه نظرة احتقـار وازدراء بين زملائه ، نظراً لكون المجتمع العراقي مجتمعـاً محافظاً، ينظر بـريبة إلى الـذين يصابـون بمثل هـذه الأمراض، إضافة لكونها أمراضـاً فتاكـةً سريعـة الانتشار ، وكتـاب الفيلق الثالث/ الأمن/ السري للغاية ، وعلى الفور ١٧٨١ في ١٩٨٥/١/١٩ ، يشير إلى تفشي ظاهرة وجود أمـراض السفلس ، وبعض الأمراض الجلدية والزهريـة الأخرى ،«ولمـا لهذه الـظاهرة من مـردودات سلبية على صحة المقاتلين ، وخشية انتشارها بين المراتب، نرجـو اعطاء المـوضوع أهميـة خاصة ، والقيام بالتـوعية الشـاملة» ، وبما أن شعبـة الأمن في قيادة الفيلق الثـالث هي التي تبنت أمر تحذير الوحدات من وجود مثل هذه الأمراض ، وليست الجهة الصحية المعنية كما هو معروف في مثل هذه الأمور ، فإن ذلـك يعني بأن الأمـر أصبح مقلقاً جداً ، ويهـدد أمن الوحدات ووجودها تهديداً خطيراً .

ـ من بين الـظواهـر الخـطيـرة الأخـرى الشـائعـة في صفـوف منتسبي القـوات المسلحة ، ظاهرة حالات الأمراض النفسية ، لقـد شكلت هذه الـظاهرة من بين الـظواهر التي تحدثنا عنها ، مشكلة خطيرة أخرى ، لم يكن ممكنـاً السيطرة عليهـا مطلقـاً ، ويشكل مرض الكآبـة الأكثـر شيوعـاً بين صفوف منتسبي القـوات المسلحة في الـوقت الحاضـر ، ويعتبـر المكوث مـدة طـويلة في خط الجبهـة بعيـداً عن الأهل ، وتحت القصف المعـادي الشديد ، من أكثر الأسباب المؤدية إلى الإصابة بهذا المرض ، وإذا علمنا بـأن هذا المـرض يصيب الضباط وحتى القادة منهم ، إضافة إلى عـدد كبير من المـراتب ، فإننـا والحال هـذه نقف على جسامة التأثير الذي يتركه ظهور هذه الأمراض على سير العمل وانتـظامه داخـل الوحدات التي تعمل في الجبهات بصورة خاصة ، فبعد ثلاثة أشهـر من بدء الحرب ، نقل كل من العميد الركن ـ في حينها ـ عبـدالرحيم طٰـه الأحمد التكـريتي قائـد الفرقـة المشاة الثامنة ،والعميـد الركن حميـد التكريتي قـائد الفـرقة الآليـة الأولى إلى بغداد ، للعمـل في مديريات وزارة الدفاع بحجة إصابتهم بمرض الكآبة ، ولقد لجأت الجهـات المختصة في الجيش العراقي إلى توزيـع نموذج لـظاهرة الحـالات النفسية، حيث طلب من الـوحدات كافة توزيعه على منتسبيهـا من المصابين بهـذه الأمراض لإمـلائه من قبلهم وإعـادته إليهـا خلال ٤٨ ساعة وبنسختين ، والغريب أن إحدى فقرات النموذج تطلب من القائم بإمـلائه

أن يذكر فيما إذا كان يسكن داراً من الطابوق أو الطين أو الصريفة أو شقة ، وكأن أموال العراق وملياراته ـ التي يبذرها أزلام النظام دون حساب ـ لم تكن كافية أن تؤمن مسكناً لائقاً لكل فرد عراقي ، وانه في زمن قادسية صدام ، لا يزال العراقيون يعيشون في بيوت من الطين أو القصب ، وهو ما يسمى باللهجة العامية العراقية (صريفه)، لقد صرف العراق لحد الآن مئات المليارات من الدولارات ، واستدان ما يقرب من (١٠٠) مليار دولار ، لكن المواطن العراقي ، الذي تسلب حقوقه وكرامته ، لا يزال يعيش في بيوت لا تصلح لتربية وسكن الحيوانات ، وهذه من نعم التكارتة وحلفائهم على أبناء العراق وشعبه ، والجدير ذكره أن من يدعيَ بأنه مصاب بمرض الكآبة ، دون أن يكون مصاباً بالفعل ، فهو مصاب بمرض نفسي آخر يدفعه للادعاء بأنه مصاب بمرض الكآبة ، طبقاً لآخر البحوث التي أجراها بعض الأطباء النفسانيين في العالم ، فمن لم يكن مصاباً بهذا المرض فهو مريض أيضاً .

الضبط

ـ أصبح وجود التنظيم الحزبي في الجيش خطراً يهدد أسس وعناصر الضبط الرئيسية في القوات المسلحة بمخاطر جسيمة وقاتلة ، مما يضعف الشعور بالمسؤولية ويحطم البناء النفسي والمعنوي للآمرين والمراتب على حد سواء ، ولقد كانت القيادة المتمثلة في القائد العام، المسؤول الحزبي الأول وأمين سر القيادة القطرية للحزب الحاكم تتعمد أن تحدث شرخاً كبيراً بين أوساط القوات المسلحة ، فمنذ وجود التنظيم الحزبي ظهرت بوادر وجود حواجز إضافية كبيرة بين الضباط من جهة، وضباط الصف والجنود من جهة أخرى ، ونظراً لوجود عدد كبير من ضباط الصف الحزبيين وعلى مستويات مختلفة داخل القوات المسلحة ، تفوق بالفعل عدد الضباط الحزبيين ، فإن ضباط الصف شكلوا فيما بينهم كتلة واجبها الدفاع عن ضباط الصف تجاه الضباط، مما ساعد على توجيه ضربات خطيرة ومميتة إلى الضبط في القوات المسلحة ، إضافة إلى أن الضباط بالمقابل بدأوا يصعدون من حملات عدائهم لضباط الصف، عندما كانوا يجدون فرصة ومتنفساً لذلك ، فابتداءً من المكتب العسكري، وهو أعلى تنظيم حزبي في القوات المسلحة ، وحتى آخر خلية في التنظيم الحزبي ، يستحوذ ضباط الصف على حصة كبيرة من المسؤولية في التنظيم ، وعلى سبيل المثال فإن المكتب العسكري نفسه يضم أربعة نواب ضباط وهم، نائب ضابط أحمد العزاوي ، نائب ضابط علي حسن المجيد ، ابن عم صدام ، نائب ضابط كامل ياسين التكريتي ، ونائب ضابط حميد البيرغ ، إضافة إلى تدفق أعداد كبيرة من الضباط الحزبيين الأحداث، من ذوي الدرجات الحزبية المتقدمة إلى الوحدات، بعد تخرجهم من الكلية العسكرية، أو بعد اشتراكهم بدورات قصيرة صورية، يتم بعدها منحهم رتباً عسكرية ، حيث أصبح الآمرون يتلقون أوامرهم من ضباط صف أو ضابط أقل منهم قدماً ورتبة ، كما يحدث هذا دوماً عندما يتصل تلفونياً نائب ضابط عضو المكتب العسكري بأحد الآمرين، ويأمره بتنفيذ أمر معيّن ، أو يطلب منه انجاز قضية

خاصة ، وأصبح المسؤول الحزبي للتنظيم في الوحدة شخصاً مهاب الجانب، يتملقه الكثير ، ويسارع إلى تلبية رغباته الكثير ، بل إن قسماً من الآمرين أنفسهم، والذين غالباً ما يكونون من ذوي الدرجة الحزبية المتدنية ، أصبحوا يتملقون لهؤلاء، ويساهمون بالفعل في إضعاف الضبط، وتماسك الوحدات الاجتماعي، وسيادة الفوضى والإرباك في إدارتها وتوجيهها ، فمسؤول اللواء يتحدث مع آمر اللواء الذي هو أعلى منه رتبة ومنصباً ، يتحدث معه بطريقة رفعت منها الكلفة ، ولا يناديه مثلاً بكلمة سيدي ، وهو ما أقرته القوانين العسكرية ، بل يناديه بكلمة رفيق التي تدل على أن المتحدث والمستمع في موقع واحد ومستوى واحد من المسؤولية والأهمية ، علماً بأن الآمرين لا يسمحون بهذا الأمر لغير المسؤول الحزبي ، وهذا يترك ـ بالتأكيد ـ في نفوس الآخرين من المرؤوسين الألم والحسرة ، فمن هؤلاء فقط مطلوب أن تكون علاقاتهم محكومة بالرتبة والمنصب ومقتضياتها المسلكية ، وعلى سبيل المثال ، عندما يدخل أحد ضباط ركن اللواء على آمر اللواء لقضاء عمل رسمي، حيث يجد ضابط صف يجلس بالقرب منه ، وبعد أن يؤدي التحية إلى آمره، يعرض له أمر معيّن لغرض طلب توجيهه ، عندئذٍ يقوم الآمر بالتعامل مع ضابط ركنه تعاملاً رسمياً . وقد يبالغ في ذلك كي يفهم ضيفه بأنه أهل لموقعه الذي أنعم به الحزب عليه وقائده صدام حسين ، إلَّا أن هذا الضيف تأخذه الرأفة بهذا المسكين الذي يقف في حالة استعداد أمام آمره ، فينعطف عليه مسلماً ، وربما يقول له تفضل استريح مشيراً إلى أحد المقاعد الخالية ، أما هذا المسكين فيجيب بالشكر، محاولاً أن يرسم على وجهه ابتسامة تائهة، وهوفي حيرة من أمره لا يعلم من هو الآمر الحقيقي ، هل هو الذي يحمل الرتبة على كتفه ، أم الذي يحملها على ذراعه .

ـ لاحظنا كيف يتعرض الضبط في القوات المسلحة لضغوط عديدة، أدت به إلى الانحدار نحو الهاوية، « الانضباط واحد من الأسس المركزية التي بدونها لا يمكن أن نبني حضارة شامخة وعريقة »[1]، ومادمنا نبغي بناء حضارة عشائرية تكريتية متخلفة ، حضارة تصطبغ بلون الدم القاني ، حضارة السلب والنهب والتدمير والإرهاب ، فليذهب الضبط إلى الجحيم ، لأن النظام ليس بحاجة إلى الضبط لبناء هذا النوع من التحضر والتمدن، الذي يفتح المجال أمام الإنسان لتتفتح طاقاته وإبداعاته ، فكل ما يحتاجه النظام هو أن يظل الجيش واقفاً على أقدامه، يؤدي واجبه وهو يرتجف من الخوف والرعب، من بطش وإرهاب النظام من جهة، ومن أهوال ومصائب الحرب وضغطها من جهة أخرى .

---

(١) صدام حسين، جريدة الثورة العربية ـ العدد ٦ ، ص ٢٧ لسنة ١٩٨٥ .

التوجيه السياسي

ــ للتوجيه السياسي في الوحدات دور رئيسي في التخريب وبث روح التحلل وعدم إطاعة الأوامر ، فهو يقوم برفع الشكاوى التي يطرحها الجنود والمراتب ضد الضباط أو ضد بعضهم ، إلى آمر الوحدة ويصبر على اتخاذ إجراء معيّن على كل شكوىٰ من هذه الشكاوى ، لذا فإن غرفة التوجيه السياسي في الوحدة قد أصبحت في الواقع كمركز للشرطة، واجبة التحقيق في كل الشكاوى التي تصل إليه،ورفعها ومتابعة الاجراءات المتخذة حولها ، مما يشجع في الواقع الكثير من ضباط الصف والجنود على تقديم شكاواهم بسبب أو بدونه ، وقد نجم عن ذلك تردد الضباط وضباط الصف عن ممارسة واجباتهم الاعتيادية بصورة مرضية وفعالة ، وتظل أبواب التوجيه السياسي مشرعة مفتوحة لاستقبال من يشتكي ليل نهار ، ومن يريد أن يشتكي فليتفضل، فهناك من ليس لديه عمل سوى سماع الشكاوى مهما تكن هذه الشكاوى ، وبذا ينتشر الخوف ويسلم المقصرون من الحساب لقطع دابر المخالفات الاعتيادية التي تخل بعمل وانتظام سيره في الوحدة . وإذا علمنا بأن ضابط التوجيه السياسي في الوحدة أو اللواء أو الفرقة هو غالباً ما يكون مسؤولها الحزبي، فإن شعبة التوجيه السياسي ستكون من أقوى الشعب والأقسام داخل التشكيلات والوحدات، وإن طلباتها وتوجيهاتها ستكون موضع تقدير وانتباه خاص من قبل الآمرين ، وإن موقعها في نفوس منتسبي الوحدة سيكون ذا طابع خاص ، ومن هنا تكمن خطورة العمل والواجب الذي تقوم به داخل القوات المسلحة ، ومن هذا الموقع الخاص فسوف يكون الضرر الناجم عن تعامل هذه الأقسام داخل الوحدات بليغاً جداً ، وإن الآثار التي ستنجم عن هذا الضرر، سوف تظل إلى وقت طويل تعمل عملها السلبي على أوضاع الوحدات الداخلية ، استعدادها النفسي ، وضعها الاجتماعي وتماسكها .

ــ تتضمن كراسة واجبات الأركان بالتفصيل واجبات منتسبي التوجيه السياسي من الضباط والمراتب ، وهي كثيرة ومتعددة ، ومن أهمها ، تنفيذ البرامج الثقافية التي

تعدها مديرية التوجيه السياسي في وزارة الدفاع ، والتي تهدف إلى تركيز الولاء لصدام حسين في أذهان وأفكار منتسبي القوات المسلحة ، واعتبار أن كل قضية أخرى ، كحب الوطن ، والكرامة والشرف جزء من هذا التوجه الأساسي ، إضافة إلى الاطلاع بمهمة المحافظة على الروح المعنوية وإدامتها ، وإعداد برامج خاصة ضد النشاط النفسي المعادي ومكافحة الشائعات ، وفي وقت السلم حيث لا أخطار هناك ، يبرز هؤلاء ويشتد نشاطهم ويبذلون أقصى ما لديهم من الجهود للسيطرة على حركة الوحدات وفعالياتها ، وبأساليب التعالي والتعامل الفوقي على الآخرين ، إنهم أبطال وأسود السلم ، أما في زمن الحرب،وعندما تشتد المخاطر المحيطة بالمقاتلين ، وعندما يلوح الموت في كل زاوية وخندق وموضع ، فإنك لا تشاهد لهؤلاء أي أثر أو وجود ، ونشاطاتهم في زمن الحرب تصل إلى حدها الأدنى ، وفي الحالات القليلة التي يجدون أنفسهم وهم يمارسون نشاطاً ، كأن يقوموا بتنفيذ بعض فقرات التثقيف،أو المواضيع الهامة التي ترى القيادة العامة للقوات المسلحة أن توصلها إلى أذهان المقاتلين ، فإن هؤلاء يختارون عدداً محدوداً من المقاتلين الذين يسحبون إلى الخلف بعيداً لتبليغ ما يراد منهم إيصاله إليهم ، إلاّ أن المقاتلين في القوات المسلحة يعتبرون وجود هؤلاء في تلك المرات القليلة ، وجوداً طفيلياً لا يمت إليهم بصلة ، كما أن المحاضرات التي يلقونها ـ على قلتها ـ لا تلقى آذاناً صاغية ، بل إن المقاتلين يعتبرون الوقت الذي يقضونه مع هؤلاء وقتاً ضائعاً ، ليس خافياً على الجهات المسؤولة في القوات المسلحة العراقية بأن هؤلاء منفورون ، وإن وجودهم في الوحدات لا يعطي مردوداً إيجابياً،« إن مهمة التثقيف في الجيش واحدة من الجوانب المعوّل عليها في خلق جيش متمتع بمعنويات عالية ومقتدر في استخدام سلاحه ، ومؤمن في القضايا التي يقاتل من أجلها، فقد لوحظ من خلال زيارات ضباط دائرة التوجيه السياسي أن هناك تلكؤاً في تنفيذ المحاضرات الثقافية»[1]، فإذا كان ضباط التوجيه السياسي يعانون هذا الوضع المتخلف فكيف إذن هو وضع المقاتلين العاديين؟ ومن الذي سيعمل ـ والحال هذه ـ على خلق جيش متمتع بمعنويات عالية ومقتدر ، لقد بلغ الأمر إلى الحد الذي يجعل المُلقّن والمُلَقّن يعيشان حالة واحدة هي اليأس من كل شيء ، فقدان الثقة والأمل بنصر حاسم يضع حداً لهذه المعاناة اليومية المدمرة ، الرئيس يصر على البقاء في الحكم حتى آخر رأس عراقي . . . لم يعد هَمُّ المقاتل أن يسمع المزيد من الهراء حول «قادسية صدام»، بل أصبح همهُ وجل تفكيره أن يظل حياً لأطول

---

(١) كتاب دائرة التوجيه السياسي ٥٦٦٠ في ١٧/١٢/١٩٨٥.

وقت ممكن، بانتظار معجزة تنزل من السماء. لقد أصبح هذا العدد الكبير من الموجهين السياسيين والمراسلين الحربيين عبئاً على الوحدات، التي يجب عليها أن توفر لهم الراحة ومستلزمات حياة تليق بهم وبمكانتهم البارزة، دون أن تحصل مقابل ذلك على شيء، «لاحظنا بأسفٍ شديد فشل المراسلين الحربيين والمصورين في تقديم أية تقارير أو صور ناجحة عن المعارك التي خاضتها قواتنا الباسلة، وكذلك فإن هذه الصور والتقارير رغم ضعفها فإنها تصل متأخرة، مما يتعذر علينا الاستفادة منها إعلامياً، وللأهمية الفائقة للصور والتقارير في رفع الحالة المعنوية لقطعاتنا وجمهورنا والاجهاز على معنويات العدو وفضح أكاذيبه، لذا نرجو أن يهتم ضابط التوجيه السياسي شخصياً بما جاء أعلاه، وسوف يتم نقل كل مصور أو مراسل حربي إلى خارج هذه الدائرة، ومعاقبته بقسوة إذا لم يزد واجبه، آملين الالتزام بما جاء أعلاه وإعلامنا عن المقصرين»[1]، هذه هي حالة المراسلين الحربيين والمصورين، يلتحقون بالوحدات حيث يجلسون في الخلف، يتمتعون بمشاهدة أفلام الفيديو الخليعة، ويتهيأون للهرب عند بدء القصف التمهيدي لأي هجوم من الجانب الآخر، لا غرابة في ذلك، فالقادسية الميمونة تحتاج إلى معنويات عالية، وهذه المعنويات يصنعها هؤلاء المتسكعون، والقادسية والمعنويات بخير، وسوف تستمر إلى ألف عام آخر... والحمد لله!!

---

(١) كتاب دائرة التوجيه السياسي السري والشخصي ٤٣٦ في ١٩٨٥/٦/٣٠.

الإيمــان

ـ من مهازل القدر أن يتحدث النظام العراقي عن الإيمان بالله ورفضه لمفهوم الإلحاد ، في الوقت الذي تعمل فيه كافة أجهزته الإعلامية على تأليه شخص القائد العام للقوات المسلحة، وتضعه في مصافِ الآلهة وليس الأنبياء. (أنت كوجه الله. . . أينما نذهب نراه)[1]، حاش لله أن يكون وجه صدام كوجهه ، لأن وجه الله هو الرحمة والمغفرة والعدل ، وهي مما ليست لدى صدام حسين، أو جزء منها على الاطلاق ، فهو حقود جزار ، أناني وظالم ، لا يعرف قلبه الرحمة والعفو كالقادة العظام الذين عرفهم التاريخ وخلدهم ، إن الإيمان بالله لا يمكن أن ينشأ في الفراغ وحده ، بل إنه ينشأ من خلال الاعتقاد بعدة مسلمات بديهية ، وعلى رأسها الإيمان بالرسالات السماوية التي بعثها للبشرية ، تهديها وتنير الطريق أمامها ، موصلة إيّاها إلى شاطىء الأمن والنجاة ، تنظم أمور دنياها وآخرتها ، الإيمان بالله يعني بنظرنا نحن المسلمين بأن الله قد بعث لنا الرسول الكريم محمد (ص) هادياً ونذيراً ، فهل يتم الاحتفال بمولده أو مبعثه أو ذكرى وفاته ، كرجل عظيم نكن له التقدير والاحترام والاكبار ؟ وهي مناسبات تشكل فرصاً فريدة لتعزيز الإيمان بالله والتقرب إليه ، والاحتفال بها يؤدي بالتأكيد إلى تعزيز هذا العامل المهم في رفد الروح المعنوية ورفدها بسبل وعوامل القوة والاستمرارية ، كلاّ ، فذكرى مولد النبي الكريم تمر بهدوء بين أوساط القوات المسلحة، وكأنه يوم عادي بدون عمل، فهو ويوم الجمعة على حد سواء، بينما يستعاض عنه بإقامة الاحتفالات المهيبة الفخمة بذكرى مولد الرئيس القائد العام للقوات المسلحة، وعلى الرغم من أن صدام كغيره من القرويين الذين لا يعرفون يوم مولدهم بصورة دقيقة ، فقد اخترع له يوماً لميلاده ، ففي الوقت

---

(١) في قصيدة لشفيق الكمالي يمدح فيها صدام حسين ، والجدير بالذكر أن هذا الشاعر قد لقي حتفه على أيدي النظام نفسه ولم تنفعه قصائدهُ تلك . .

الذي كانت تعيش فيه القوات المسلحة أقسى أنواع الهزيمة ، وبينما كان الشعب يعيش أحزانه ودموعه لم تجف بعد، وفي الوقت الذي أصبح فيه الفيلق الرابع والثالث أشلاءً محطمة بعد عمليات استعادة خرمشهر في مايس ١٩٨٢ ، فوجيء العراقيون جميعاً بأن قائدهم قد تذكر فجأة بأن لديه يوم ولد فيه ، وعلى الشعب وقواته المسلحة أن يحتفل بهذا اليوم العظيم الخالد ، وعلى الشعب أن يفرح وأن يشعر بالسعادة شاء ذلك أم أبى ، عليه أن ينسى كل شيء ، ويجفف دموعه ليخرج محتفلاً بهذه المناسبة ، ويجب أن لا ينسى أحد أن يرسم ابتسامة رقيقة على شفتيه ، وعلى كل بيت أن يضع صورة جميلة ملونة للرئيس القائد، ويشعل الشموع أمام بيته، سيفرح الشعب كثيراً ، فكعكة عيد ميلاد الرئيس كبيرة جداً جداً، حتى أنها ستحتاج إلى رافعة كبيرة لحملها ، سيشاهدها الشعب منتصبة في وسط ساحة التحرير أكبر ساحات بغداد، افرح أيُّها الشعب البائس، لم لا؟، ألم يقتل لحد الآن الآلاف ، ويقع الآلاف غيرهم من أبنائك في الأسر؟، ألم تعم الفواجع كل بيت في العراق من شماله إلى جنوبه؟ لا بأس، فكل ذلك لا يهم، ولا قيمة له ما دام رأس القائد سالماً ، لا تخجل أيها الشعب من هذه المسألة المضحكة المبكية ، ما دام القائد لا يشعر بالخجل، وعلى الرغم من أن الاحتفالات التي تقام بمناسبة ولادة القادة قد ولّى عهده في العراق ، فمنذ اندثار العهد الملكي عام ١٩٥٨ ، حيث كان العراق قبل هذا التاريخ يحتفل بعيد ميلاد الملك فيصل الثاني ملك العراق ، لم يعهد العراقيون القيام باحتفالات خاصة بميلاد رئيس جمهورية أو غيره ، فعبدالكريم قاسم لم يفعل ذلك، ولم يفعل الاخوان عارف ذلك أيضاً، كما أن أحمد حسن البكر معلم صدام الأول في فن المراوغة لم يفكر في هذا الأمر كذلك ، وربما كان صدام كان يخفي هذه المأثرة لنفسه عن معلمه، بعد أن تفوّق عليه في إتقان أساليب الدجل والمراوغة والخداع .

ـ إن الحديث عن النبي الكريم (ص) والتراث الإسلامي والبطولات المشرفة التي خاضها المسلمون الأوائل لم تعد ـ في نظر الطغمة الحاكمة في العراق ـ تثير الحماسة في نفوس المقاتلين ، بل إن الإسلام نفسه لم يكن العامل الأساسي والوحيد لنشوء حضارة العرب ، لأن العرب أقاموا حضارة عريقة سحيقة القدم في عصور الجاهلية المظلمة ، ولم يكن الإسلام هو الرافد الوحيد الذي استقى منه العرب مقومات شخصيتهم الجديدة، التي كان لها الفضل الأساسي ببناء حضارة الإسلام، بعد أن بعث فيها الدين الجديد الروح والحياة وطاقة خارقة على التحدي . « إن تاريخ الأمة العربية لا يبدأ من الإسلام ، بل يمتد إلى عصور سحيقة في القدم ، هذا يعمق الإيمان بأن كل الحضارات الأساسية التي نشأت في الوطن العربي، إنما هي تعبير عن شخصية أبناء الأمة

الذين تبعوا من أصل المنبع الواحد»[1]، وما دام الإسلام لم يكن هو المحرك الأساسي لهذا النهوض الحضاري الشاخص أمام كل عين ، فعلينا إذن أن نفتش عن نبوخذ نصر ، أشور بانيبال ، حمورابي ، يهوذا جد عبدالسطيح الجد العاشر للتكارتة ، فهؤلاء لم يكونوا أقل شأناً من محمد (ص) في نظر القائد العام للقوات المسلحة، إذا لم يكونوا أفضل منه ، وإذا كان صدام لا يستطيع أن يتحدث عن الإسلام وتراثه ونبيه العظيم، لأنه ليس لديه ما يشترك به مع هذا الدين العظيم من قيم النبل والإنسانية والتسامح ، فإنه يتوجب علينا أن ننفض عن رموز الجاهلية الغبار ـ منهم أقرب إلى القائد بحدود معقولة ـ ونعيد لهم الحياة ، ننتزعهم من نسيان التاريخ ونحضرهم هنا أحياءً ، لنعمل لهم الأفلام السينمائية ، ولنجدد تلك الحجارات المتناثرة هنا وهناك ونجمعها، مهما كلفنا ذلك من مليارات الدنانير ، فهؤلاء الآباء المنسيون يستحقون منّا أعلى آيات الاحترام والتقدير، مهما صرفنا وخصصنا من ميزانية هذا الشعب المسكين قليل بحقهم ، فالإيمان بالله وحده ليس كافياً، بل يجب أن نكمل إيماننا هذا بتعظيم الجاهلية وإكبارها ، وعليكم أيها المقاتلون أن ترفعوا معنوياتكم ، وإياكم أن لا تفعلوا ذلك ، فإن الوصفة التي بين أيديكم كافية لأن تجعلكم مرغمين على ذلك ، ثم إنكم لماذا تغضبون جدنا حمورابي ونبوخذ نصر. . . وأبا جهل أليس هذا حراماً ، وإن لم تفعلوا هذا فالنار من أمامكم وفرق الإعدام من خلفكم ، ورحم الله طارق بن زياد فاتح الأندلس تحت راية الإسلام . . عفواً سيدي القائد تحت راية الجاهلية!! . .

---

(١) حديث لصدام حسين في الاجتماع الموسع لمكتب الاعلام التابع للقيادة القومية في ١٩ أيلول ١٩٧٧.

الشؤون الإدارية والاخلاء الطبي

ـ تحرص قيادة الدولة على تأمين المواد الغـذائية بصورة كافية ، وبالقـدر الذي يزيد عن حـاجة المـواطنين والقوات المسلحـة ، ولكن من أين يتم تهيئة كـل هذه المـواد التي تزدحم بها الأسواق العراقيـة؟ ، هل يتـواكب هذا الاقتـدار الذي يـدعيه النـظام الذي يمتطي صهوة المجد ، ويرتقي القمم الشامخة مـع الوضـع الاجتماعي وحـركة الانتـاج التي تكـاد تكون متـوقفـة ، إن الانتـاج الـداخلي للمـواد الغـذائيـة وصـل في واقعـه إلى أدنى المستـويـات التي وصلهـا على طـول تـاريخ أرض الـرافـدين المعــطاء ، والمؤسســات الاحصائية ذات العلاقة لا تقـوم بنشر أي معلومـات ، ومنذ فتـرة طويلة ، تتعلق بمستـوى الانتـاج وحجمـه وتـطوره، وفي النشـرات الـدوليـة التي تـوزعهـا المنـظمـات الـدوليـة المتخصصة ، كمنظمة الغذاء الدولية (فاو) ، يظل الحقل المقابل لاسم العراق في الجـدول الإحصائي خالياً ، ولسنوات طويلة ، وهذا خيـر دليل على تـردي الانتاج القـومي ، وليس الدخل القومي الذي يشكل بيع النفط مصدره الأساسي ، ولو أن الأمر غيـر ذلك ، أي لـو أن العـراق يحقق تقدمـاً بسيطاً ، أو أنـه يظل على الأقـل محافـظاً على مستويـات الانتاج للسنين الماضية ، لسارع بالتأكيد إلى تقـديم المعلومات التي سيطلع عليها العـالم ، مما يعزز موقعه الدولي كبلد يؤمن احتيـاجاتـه الغذائيـة أو القسم الأكبر منهـا بنفسه ، والنـظام العراقي الذي يدفع ملايين الدولارات للصحف والمجـلات العربيـة والأجنبية التي تصـدر في الخارج ، لتقديم تغـطية إعـلامية تـافهة وبسيـطة لصالحـه ، لن يفوتـه أن يتعـامـل مـع المنظمات الدولية التي تصدر مثل هذه التقارير المعتبرة في كل أنحاء العالم ، ولكنه ليس لـديه شيء يقـدمه إلى تلك المنـظمات ، لـذا فإنـه يلتزم السكـوت والامتناع عن ذلـك ، ونتيجة لتردي الانتاج ، وانهيار المؤسسـات الحكوميـة التي تعنى بذلـك ـ وهذا حـدث قبل الحـرب بمدة طـويلة ـ فإن أسـواق العراق قـد أصبحت تزدحم بـالبضائـع والسلع والمواد الغذائية المستوردة ، التي تحمل عناوين مناشيء متعددة ، الأميركيـة والفرنسيـة والانجليزيـة

والإيطالية،وحتى الإسرائيلية التي أخذت تتسرب مع البضائع التي تستورد من الضفة الغربية لنهر الأردن والنظام يعلم ذلك جيداً ، لقد أصبح العراق من أكبر الساعين للحصول على قروض ومساعدات مالية لاستيراد البضائع والمواد الغذائية ، ففي شهر أيلول عام ١٩٨٧ ، وكمثال واحد ، حصل العراق على قرضٍ من الولايات المتحدة الأميركية بقيمة مليار دولار ، تخصص لاستيراد المواد الغذائية من أميركا ، لم يعد العراق ينتج ليأكل ، أو يشتري بنقوده ما يحتاجه من المواد الغذائية الضرورية . بل إنه أصبح يستدين من أجل إملاء الأفواه والبطون ، وعندما يرهن العراق كله أو يبيعه ، ويصبح الحصول على دائنين أمراً مستحيلاً ، فإن النظام ، في حالة استمرار وجوده إلى ذلك الحين ، سيتحول إلى متسول دولي ، يستجدي من الدنيا كلها ما يسد رمق الناس الذين عودهم التخمة ، والآن وعندما يلتفت المقاتل يميناً وشمالاً ليرى نفسه بين هذا الحشد المتنوع من البضائع ، فإنه سوف لن يحزن ، لأن القادسية نفسها هي سيناريو دولي اشتركت في وضعه عدة أيادٍ دولية ، وما يملأ البطن أيضاً تعاونت على توفيره شركات عديدة ، وكلهم يتقاضون أجورهم وأتعابهم بالدولار النفطي الذي بدأ يشح بصورة تدريجية ، حتى الهند لم يفتها أن تشارك في هذه الطبخة بتقديمها أحسن أنواع (الفلفل) ، لأن القادسية يجب أن يكون طعمها حارقاً حاراً ، لكن الشركات الهندية لم تقبض كلها مالها من ديون النظام (والهنود حالهم لا يحتمل)، حيث حدثت مشاكل وشكاوى بين الطرفين لم يكن التغلب عليها يسيراً ، إذن فالشعب يأكل،والمقاتل لا يزحف على بطن خالية ، فالغذاء يجلب من كل مكان، حيث تباع كرامة الوطن ومستقبله بسوق النخاسة الدولية التي وجدت لها أفضل فرصة للنفع والاستثمار خلال الأوضاع الجديدة .

ـ إن عمل المنظومة الإدارية لا يمكن التأكد منه خلال فترة السلم، أو توقف العمليات ـ وهذا ينطبق على كافة الأسلحة والمنظومات الأخرى المتيسرة في جيوش العالم ـ ، بل إن اختبارها الحقيقي يظهر خلال العمليات أو الإعداد لها ، وعلى الرغم من أن المنظومة الإدارية للقوات المسلحة العراقية واسعة، وأن ذيلها الإداري يتألف من أعداد كبيرة من الأشخاص المدنيين والعسكريين، اعتباراً من القاعدة في بغداد، أو ميناء العقبة الأردني، أو ميناء العبدلي في الكويت، وموانىء السعودية على البحر الأحمر ، إلاّ أن هذه المنظومة تصاب بالشلل حالما تبدأ المعارك الطاحنة ، وعندما يضيق الخناق على القوات العراقية في معركة ما، وتبدأ الحاجة الماسة لعمل هذه المنظومة ، فإنها تقف عاجزة عن التصرف، وتغمض عينها عن الطلبات والاحتياجات التي تتطلبها المعارك التي تستهلك خلالها كميات كبيرة من الأعتدة والتجهيزات والأرزاق والوقود والماء، وإذا أردنا أن

نتحدث عن ضعف المنظومة الإدارية، وعدم مقدرتها على مواكبة سير المعارك على الجبهات، وسد احتياجات الوحدات بالسرعة المطلوبة، فإننا سوف نجد أنفسنا عاجزين عن إيفاء هذا الجانب الضروري حقه، إلاّ أننا نستطيع أن نضرب مثلاً حياً على ضعف المنظومة الإدارية وفقدانها للمرونة والحركية، وسبق النظر على الرغم من وفرة الإمكانات والوسائل المتيسرة لديها لانجاز واجباتها، ففي عمليات حليجة عثر على جنود عراقيين لم يذوقوا من الطعام المطبوخ لمدة أسبوع، وكانوا يرتجفون من شدة البرد في منطقة عمليات تتراكم الثلوج على قمم الجبال المحيطة بها طيلة أيام السنة تقريباً، كما أن مواضعهم وجدت خالية من الماء، ولم تكن تتيسر لديهم الأعتدة الكافية للقتال، مما يثير العجب لهذا الوضع المزري الذي كانت تعيشه القطعات، وشدة عدم الاهتمام بها، مما كان يشكل عاملاً مهماً ـ إضافة إلى عوامل أخرى ـ في سرعة استسلامها للقوات المهاجمة التي لم تجد مقاومة تذكر منها، حيث سقطت مواضع القوات العراقية بمدة قياسية لم تتجاوز (١٥) دقيقة، بينما كانت تمسك القمم وتسيطر بصورة كاملة على كافة المقتربات المؤدية إلى مواضعها، كما أن المدفعية المخصصة لهذا القاطع كانت تعاني من عاملين مهمين سببا في عدم الاستفادة منها بصورة مقبولة ـ إضافة إلى أن ما كان مخصصاً منها لم يكن يفي بكل طلبات النار بسبب سعة المنطقة به، وأول هذين العاملين هو أن ربع المدافع التي كانت تسند المواضع الدفاعية العراقية كان عاطلاً، فمن مجموع (١٢) مدفعاً، كان ثلاثة منها عاطلاً، مما يساعدنا على أن نأخذ صورة عن تدني إمكانيات التصليح، وهبوط مستوى المعامل الميدانية، ومعامل القاعدة في هذا المجال الحيوي، أما ثاني هذين العاملين هو عدم تيسر العتاد الكافي للمدفعية، حيث أن ما كان متيسراً لديها لم يكف للرمي لأكثر من ساعة واحدة، وبسرعات اعتيادية، مما يشكل في الحقيقة ضعفاً في المنظومة الإدارية التي كانت عاجزة من أن توفر الاحتياجات الضرورية للمقاتلين، الذين كانوا يعيشون في ظروف سيئة للغاية.

ـ لا تعني الشؤون الإدارية في الميدان توفير ما يسد حاجة المقاتل من الأرزاق والماء والعتاد، بل إنها تشتمل كل شيء يجري تداوله داخل القوات المسلحة، اعتباراً من القاعدة الرئيسية، أو ميناء التفريغ، وحتى الخط الأمامي في الجبهة، كالعتاد بمختلف أنواعه والوقود والأسلحة التي تحل محل تلك التي تدمر يومياً في المعارك، وتعويض الخسائر بالأفراد، إلى الاخلاء الطبي، ونوعية العلاج المقدم وأساليب الاخلاء، إلى التصليح والإمكانيات المتيسرة له، وصولاً إلى ترتيبات الترفيه المعمول بها داخل القوات المسلحة، إلى نظام الترقية والعقوبات والمكافآت، وهذه كلها تعاني في حقيقتها إرباكاً واضحاً،

فترتيبات التصليح والانقاذ داخل الجيش العراقي متدنية إلى الحد الذي لم يعد لها وجود فاعل تقريباً ، فالدبابة أو الناقلة التي تعطب، أوتصاب بدرجة معيّنة من التدمير يجري تعويضها مباشرة بعد أن يتم إسقاط المعطوبة كلياً من الخدمة ، إلَّا بحدود ضيقة ، لأن ما يتيسر مثلاً لدى الجيش العراقي من معامل تصليح الدبابات هو معمل واحد في معسكر التاجي ، صمم لتقديم الخدمة لفرقتين مدرعتين كحد أعلى ، بينما أصبح هذا المعمل مسؤولاً عن تأمين التصليح لستة فرق مدرعة وآلية إضافة إلى عدد آخر من الألوية المدرعة المستقلة وألوية الحرس الجمهوري ـ قبل الحرب ـ ، أما بعد أن أصبح الجيش العراقي يتشكل من ٤٤ فرقة مدرعة وآلية ومشاة ، إضافة إلى ألوية الحرس الجمهوري الذي تضاعف عددها عدة مرات ، والألوية المدرعة المستقلة ، وألوية القوات الخاصة المنقولة بناقلات الأشخاص المدرعة ، فإن وضع التصليح أصبح محزناً للغاية ، ولم يعد ملائماً على الاطلاق، لظروف توسع الجيش الواسعة، وكثرة الخسائر والأعطال التي تصيب المعدات خلال المعارك ، وعليه فقد تم الاستعاضة عن التصليح في أحيانٍ كثيرة ، وأصبح التعويض عن الخسائر مبدأ رئيسياً لحل هذا الإشكال ، أما الاخلاء الطبي فليس له وجود تقريباً ، فالاخلاء الطبي يجب أن يتم بسرعة وفي ساحة المعركة ، وإذا ما حدث تأخير في المراحل الإبتدائية منه ، فإنه سيفقد تأثيراته وميزاته ، لأن المقاتل عندئذٍ سيموت من أثر شدة الجراح التي يعاني منها ، نتيجة لعدم انقطاع النزف الذي ينجم عنها ، والغريب أن القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية وعلى لسان القائد العام[1] تأمر بترك الجرحى ، وعدم إخلائهم أثناء القتال ، وتطلب تأجيل هذه العملية بعد انتهاء المعارك التي تستمر في الغالب إلى ساعات طويلة ، حيث يكون المصاب قد فارق الحياة بعد تركه كل هذه الفترة ، وفي أوامر الحركات[2] ، التي تصدرها القيادات الميدانية ، يطلب من الوحدات عدم إخلاء الجرحى أثناء القتال ، حيث يرد في فقرة الشؤون الإدارية من أوامر الحركات تعليمات تخص هذا الموضوع ، (ويؤجل إخلاء الجرحى من ساحة المعركة لحين انتهاء القتال) ، وبذا تكون القيادات الميدانية قد أصدرت حكماً ، في واقع الأمر ، بالإعدام على الجرحى الذين يقعون بأعداد كبيرة بسبب تطور الأسلحة الحديثة وتأثيرها الشديد ـ في الهجوم والدفاع ـ وهي تفعل هذا دون أن تشعر بخجل أووازع من ضمير ، وهو ما لا يقبل به أي قائد شريف في العالم ، وهل يستطيع أحد من علماء النفس في العالم

---

(١) في لقاء تلفزيوني مع عدد من الضباط بعد عمليات الفاو.

(٢) أوامر الحركات هي أوامر مكتوبة أو شفوية تتضمن أسلوب المناورة أو احتلال موضع ، ويتضمن عدة فقرات لتوضيح هذه الأوامر بصورة متسلسلة لغرض فهمها .

كله أن يعطينا صورة تفصيلية عن الحالة النفسية التي يعيشها المقاتل، الذي يرى أن الموت يتهدده في كل لحظة من لحظات المعركة؟ وحتى عندما سيصاب بجرح بليغ، فإنه سيواجه مع آلامه الموت البطيء، فإضافة إلى النيران التي تصب عليه من الأمام وفرق الإعدام التي تنتظره في الخلف متوثبة يقظة، فإنه سيموت من النزف فيما لو أصيب في المعركة عند تركه ملقياً عليه لمدة طويلة، ودون أن يخلى إلى الخلف بعيداً عن المخاطر التي يسببها تركه وحيداً أمام مصيره المؤلم، الذي فيما لو كتب له أن ينجو منه، بعد أن تخمد المعارك، فإنه سوف لن ينسى طيلة حياته تلك السويعات التي قضاها تحت القصف المدفعي الفتّاك وبقية نيران الأسلحة المختلفة.

العلاقات الإنسانية

ـ تتحدث الجريدة عن وجود علاقات إنسانية مثالية داخل القوات المسلحة العراقية ،وتشدد على أهمية هذا الوجود وأثره في دعم الروح المعنوية للمقاتلين ، «إن للعلاقات الإنسانية أثراً كبيراً في إيجاد أفضل المشاعر لمنح المعركة البعد الإنساني ، ولهذه العلاقات في القوات المسلحة الأثر الكبير في رفد الروح المعنوية ، ولها دور فاعل في خلق وحدة عسكرية متماسكة»[1]، ثم تستطرد في القول: «ففي أحلك الظروف ، وفي ساعات المعركة ، العصيبة ستقف هذه العلاقة حاجزاً أمام كل الوساوس والهواجس التي تجعل الجندي ينسى القيم والمبادىء التي تربى عليها في السلم ، أو يولي ظهره إلى إخوانه ويطلق ساقيه للريح»[2]، كلام جميل جداً لا يمكن لأحد أن ينكر الحقائق التي وردت فيه ، وإذا كانت للعلاقات الإنسانية مثل هذا التأثير الكبير ، وهو في الواقع كذلك ، فلنتحدث إذن عن طبيعة العلاقات السائدة داخل القوات المسلحة على المستوى الاجتماعي والسلوكي ، وكي نتوصل بعد ذلك إلى النتيجة التي يتقرر في ضوئها وجود أرضية ملائمة للروابط الإنسانية القائمة بين منتسبي القوات المسلحة التي تشدهم إلى بعض ، وتجعل منهم وحدة متماسكة ـ كما يدعي النظام وأجهزته الإعلامية ـ تساهم في رفد الروح المعنوية للمقاتلين ، ولنرى بالفعل نوعية العلاقات السائدة في القوات المسلحة العراقية ، وهل هي كما يدعي هؤلاء أم لا؟.

٨٢ ـ يعرف الجندي العراقي نفسه بأنه (المسافة المحصورة بين غطاء الرأس وحذاء الخدمة)، وعندما يورد الجنود هذا التعريف لأنفسهم باللهجة العامة العراقية ، فإنه يحمل نكهة لطيفة من السخرية الشعبية (الجندي العراقي هو المسافة المحصورة بين

---

(١) و(٢) الثورة العربية ـ جريدة الحزب الحاكم في العراق الداخلية العدد ٦ لسنة ١٩٨٥ ص ٢٩ .

البيريه والبسطال)، هذا التعريف في الواقع يختصر الحالة المأساوية لوضع الجندي، بصورة عامة، داخل القوات المسلحة، فهو كمية من الجماد محصورة بين غطاء الرأس الذي غالباً ما يكون متسخاً ، وحذاء العرضات الذي يحمل من القذارة ما يكفي لأن تجعل النفس تنفر منه ، فالجندي الذي يعتبر الوسط الرئيسي والمجال الحساس الذي تتحرك فيه، ومن خلاله العناصر الأخرى التي تؤلف وتشكل ما يسمى بالقوات المسلحة، اعتباراً من القيادة وحتى الأسلحة الجماعية والفردية، مروراً بكافة الهياكل المتعددة والكثيرة التي تتشكل منها مفاصل القوات المسلحة ، هذا الجندي يشكل في الجيش العراقي رقماً ثانوياً مهملاً ـ وهو يعلم ذلك علم اليقين ـ على الرغم من ضخامته عند البحث عن حجم هذه المكونات والعناصر، ولم يكن هذا الوضع وليد مرحلة معيّنة بحد ذاتها، بقدر ما هو نتاج تراكمات متنوعة وعديدة، تولدت إثر مسيرة هذا الجيش قبل أن ينشأ ويتأسس وحتى يومنا هذا ، فالحكم العثماني في العراق، كان له أثره الكبير في مسح الصيغة العامة والأساسية للتعامل داخل المؤسسة العسكرية العراقية بهذه السمة ، فالظلم والقسوة التي كان يلاقيها المجندون من أبناء العراق، عند سوقهم للخدمة في الجيش العثماني، والأهوال والمصاعب التي يتحدث عنها الناس، والأساطير التي تنسج في هذا المجال والتي ظلّت ترسخ في أذهان الناس عن شظف العيش وقساوة المعارك التي اشترك فيها هؤلاء المجندون ، كل هذا رسم صورة قاتمة عن الجيش والجندية ككل ، مما حدا بكثير من العراقيين وخاصة العشائر العراقية لأن يتجنبوا إرسال أبنائهم إلى هذا الجيش ، وتتوسل في سبيل ذلك بكل الوسائل والأساليب ، كانت القوانين الانضباطية للجيش التركي قاسية جداً، إلى الدرجة التي كان يستخدم فيها الجلد المبرح، والذي يؤدي في أحيان كثيرة إلى الموت ، ، مما ساهم أيضاً في اتساع حالة النفور والكراهية للجيش والعسكرية ، وإذا علمنا بأن (٥١٩) ضابطاً قد انتقلوا من الجيش التركي لتأسيس اللبنة الأولى في الجيش العراقي ، فإن هؤلاء قد حملوا معهم كل الأساليب التي كانت متبعة في إدارة الجيش التركي إلى الجيش العراقي ، حرصاً منهم على التقاليد التي تعلموها وتعودوا عليها فيه ، فحتى وقت قريب، كان الجلد مستخدماً كعقوبة انضباطية على المخالفين من المراتب في الجيش العراقي ، إضافة إلى اتباع الكثير من الوسائل التي تحقر الشخصية وتقلل من قيمة الجندي وكرامته وكيانه ، كالسب والرشوة إلى غيرها من الأساليب التي لا تتلاءم مع مهمة وشرف الجندية ، لذا فقد ساد خوف ورعب بين أوسط عريضة واسعة من الشعب العراقي ، مما ترتب عليه ترسيخ أفكار مشوشة وغامضة عن دور الجيش العراقي ومهماته الوطنية في أذهان أبناء الشعب ، أثر على حجم التطوع وأداء الخدمة الإلزامية فيه ، ولقد لعبت الأمية المتفشية بين أبناء العراق في بداية هذا القرن

وإلى أوقات متقدمة دوراً بالغاً أيضاً في ضعف دور الجيش العراقي ، كمؤسسة هامة ، في حياة الشعب والتأثير فيها.

ـ لعب الإنكليز دوراً رئيسياً في إعداد وتهيئة القوات المسلحة العراقية عند احتلالهم العراق، وكان المستشارون العسكريون الإنكليز يرسمون خطط تنظيم وتسليح وإعداد كوادر الجيش العراقي وملاكاته ، كما كانت لهم اليد الطولى في المنحى الذي سار عليه الجيش منذ بداية تأسيسه وحتى الآن، في وضع قيادات الجيش ومفاصله الرئيسية والمهمة في يد أبناء الطائفة السنية، الذين يشكلون أقلية بين السكان في العراق ، مما أحدث شرخاً عظيماً في أهم وأكبر الأسس التي تبنى عليها الجيوش ، وهو شعور أفراده بسيادة مبدأ العدالة ، فلقد ظلَّت القيادة بأيدي فئة معينة، بينما ظلَّت الجموع الغفيرة من المراتب، والتي تشكل نسبة لا تقل عن ٨٠٪ من مجموع القوات المسلحة، تشعر بوجود فواصل اجتماعية كبيرة بينها وبين القيادة ، التي ظلَّت تعتبر هؤلاء وقوداً لكل الحروب التي نشبت، والنزاعات التي اشترك فيها الجيش العراقي . فخلال القتال الذي كان يجري ضد الأكراد، كانت القيادة تعتبر أن مقتل ابن الجنوب لا يختلف عن مقتل الكردي المسلح، كاكا يقتل شنيور ، وشنيور يقتل كاكا[1]، وهكذا. . حتى هذه الحرب الملعونة التي يشنها النظام كان مقرراً لها ـ قبل أن تندلع ـ أن يكون وقودها أبناء الجنوب، فعندما أبدى خير الله طلفاح خال صدام قلقه من الإمام الخميني، قبل الحرب أجابه هذا (لا تقلق سنطلق عليه كلابه)، والذي يعني بأن صدام سوف يقاتل إيران بأهل الجنوب الشيعة ، الذين أسماهم صدام كلاباً، واتبعهم بآية الله الخميني تعبيراً عن الصلة الدينية التي تربطهم به ، ولقد ترك ذلك أثراً واضحاً على العلاقات الإنسانية والاجتماعية داخل القوات المسلحة ، حيث ظلَّت هذه الطبقة من الضباط تتعامل بروح التعالي والتكبر على الجنود والمراتب ، والتي كانت تستند على خلفية ومواقف مسبقة ، وظل فرق كبير بين حياة الضباط وامتيازاته داخل الجيش وبين وضع الجنود وضباط الصف ، للضابط أكله الخاص ومكانه الخاص يتناول فيه غذاءه ، في بهو الوحدة ، والجندي ليس له إلَّا قوته اليومي ، الضابط يعيش لوحده في الجبهة في ملجأ منظم ومرتب بصورة جيدة ، بل إن القادة والآمرين تُنشأ لهم ملاجىء تكاد تكون مشابهة للمقرات الدائمة لوحداتهم ، فالحمام والتواليت قد تمّ بناؤه من السيراميك، ومجهز بكل الوسائل المعروفة التي يمكن

---

(١) كاكا : كلمة تطلق على الأكراد وتعني أخ ، شنيور اسم شائع يستخدمهُ الفلاحون من أبناء الجنوب، وهذا القول استخدمه عبدالسلام عارف تعبيراً عن عدم اهتمامه لمن يقتل في حرب الشمال التي كانت دائرة في عهده .

استخدامها ، ومكان يتسع لعشرة أشخاص من المراتب يهيأ لسكن شخص واحد ، وعلى خط النار ، في الوقت الذي لا يتيسر للجندي مكان يقضي فيه حاجته ، ويتكدس المراتب والجنود بعضهم على بعض في ملاجيء ضيقة رطبة ، وهو ما يمكن أن يحصلوا عليه في أحسن الأحوال ، وإلاّ فإنهم ينامون تحت الدبابات وناقلات الأشخاص المدرعة ، في أن يحصلوا عليه في أحسن الأحوال ، في حالة يرثى لها مع غياب كل المستبزمات الضرورية لحياة اعتيادية بسيطة ، ولن تغيب عن بالنا مهمة الجندي المراسل الذي يقوم بخدمة الضابط ، فهذا المسكين ينجز من الأعمال ما لا تنجزه زوجة الضابط في بيته ، فمن غسل الملابس كلها ـ حتى الملابس الداخلية ـ إلى صبغ الحذاء ، إلى تأمين بقية احتياجات «عمه» ، وهي مهمة لم يرد في قوانين الجيش ، ولا في ملاكاته ما يجبر الجندي على القيام بها ، وهي مهمة الجنود وضباط الصف أنواع الصنوف من الإهانات والسب والشتم ، مما يوضح في حقيقته عمق الهوة التي تفصل الضباط عن ضباط صف وجنود القوات المسلحة .

ـ ربما اعتبرت حالة استغلال الجنود والمراتب من قبل الضباط لأداء بعض الأعمال الخاصة بهم ، كبناء الدور السكنية واستغلالهم وابتزازهم ، بأن يسمحوا لقسم منهم بأن يتغيبوا عن وحداتهم ، دون أن يلحقهم أي أذى ، أو يرتب على غيابهم أي أثر قانوني ، وذلك مقابل الحصول منهم على مبالغ كبيرة من المال ، أو سيارة يقدمها الجندي «كهدية للسيد الآمر» ، وغالباً ما يكون هؤلاء الجنود من الأثرياء والمقاولين ، الذي لا يهمهم أن يقدموا أي مبلغ من المال لقاء انصرافهم إلى إدارة أعمالهم الخاصة التي تدر عليهم أرباحاً طائلة ، لا تؤثر معها هدية من هذا النوع ، فالجنود الذين يبدون استعدادهم للقيام بكل عمل يطلبه منهم آمروهم ، بشرط أن يكونوا بعيدين عن الجبهة ، هرباً من القتال ، والذين بلغت أعدادهم من الكثرة بحيث صار النظام يطاردهم في أماكن عملهم الجديدة ، هؤلاء الجنود صار لديهم الاستعداد الكامل لدفع مبلغ يصل إلى أكثر من ألف دينار من أجل الحصول على إجازة لمدة ١٠ أيام ، خاصة خلال اشتداد المعارك ، وفي كتاب للمكتب العسكري لحزب السلطة الحاكم(١) ، والذي أشار فيه إلى بروز هذه الظاهرة ، ظاهرة استغلال الضباط للمراتب ، ورد أمر القائد العام للقوات المسلحة بإحالة ٦ ضباط على التقاعد برتبة أدنى ، وحجزهم في آمرية الانضباط العسكري لمدة شهر واحد

---

(١) كتاب المكتب العسكري للحزب الحاكم في العراق السري والشخصي الرقم م ع/ خاصة/٤٣ في ١٩٨٣/١/٣٠ .

لكـل جنـدي استخـدمـه الضـابط ، وهؤلاء الضبـاط يشكلون نقـطة من بحـر التجـاوزات المستمرة على النظام والقانون ، ولكون هؤلاء ليسوا من التكارتة أو البـطانة الأخـرى التي تعيث في الأرض فساداً ، فلا بأس أن يكونوا عبرة لغيـرهـم من الضباط الـذين ليس لديهم من يقف معهم، وينقذهم من القانون الذي يسلط سيفه على كل جماهير الشعب عـدا أهل تكريت والمتحالفين معهم ، ألم يستخـدم نائب القـائد العـام وزير الـدفاع سـرية هنـدسة بكاملها لشق طريق خاص إلى الغانيات والعاهرات في منطقة الفحامة ؟ عفـواً فقد عملت الهندسة طريقاً في ساحة المعركة الحقيقية التي يخوضها نائب القائد العـام كل يوم، والتي جنّد لها حياته ، كي يستطيع أن يشرف بنفسه عليها وبصورة كاملة ، معركتـه الغراميـة مع الغانيات والفاجرات حيث القصف والقصف المقابل ، أو الرقص والرقص المقابل ، على أشده، ونيران المدافع تنتشـر في كل مكـان ، والحديث عن التجـاوز في القوات المسلحـة حديث تشمئزمنه النفوس، ولاينتهي أبـداً ولا يمكن أن نذكـر هذه التجاوزات تفصيلاً ،لأن بعضاً من هذه التفصيلات تعـافه النفوس ، وما دام رؤوس النـظام يعيشون في محيط من التجاوز المفضوح، والذي يستهين بكل القيم والأعـراف ، فإن التجـاوزات ستظل مستمـرة ومتصاعدة، ولا يمكن لإجـراءات صارمـة تتخذ في منـاسبات خـاصة أن تضـع حداً لهـا ، فالناس على دين ملوكهم .

ـ لم تقتصـر المعـاملة التي تفتقـد إلى المقـومـات الإنسـانيـة على الجنـود وآمريهم ، بل إن أساليب الإذلال والتعامل المهين صفة من صفات القيادة العـامة للقـوات المسلحـة العراقية، والتي تتبعها حتى مـع القـادة الكبـار ، تهـدف من ورائهـا إلى إذلالهم وترسيخ حالة الشعور بالضعف والضعـة أمامهـا ، ورد إلى مقر الفيلق الثـالث كتاب سـري وشخصي يـطلب حضور قـائده الفـريق الركن محمـد فتحي ، والذي يشغـل الآن منصب معاون رئيس أركان الجيش للشؤون الإدارية ، يطلب حضوره لمقابلة وزير الدفـاع عدنـان خير الله ، وقد حدد موعد المقابلة بعد أسبوع من موعد وصـول الكتاب إلى مقـر الفيلق ـ في كركوك ـ أخذ قائد الفيلق يفكر بـالأمر ويقلبـه مع نفسـه ، أخذ يـراجع الأحـداث التي مرّت به كي يتأكد بأنه لم يكن قد ارتكب مخالفة خطيرة أو أي شيء آخر، وظل المسكين هكـذا حائـراً إلى أن حل مـوعد اللقـاء بالسيـد الوزيـر ، حيث ذهب إلى مكتبه في وزارة الـدفاع ببغـداد، وبعد أن انتـظر في المكتب الفخم جداً لمـدة نصف سـاعـة ، استـدعي بعدها إلى مكتب سكرتير الوزير، حيث انتظر هناك لمدة نصف ساعة أخرى، حاول السيد القائد أن يسأل السكرتير عن سبب استدعائه ،لكنه تراجـع وهو يشعـر بالخجـل والصغار ، كل ذلك يجـري وقائـد الفيلق لا يعرف سبب هـذا الاستدعـاء غير المـرتقب ، وهو وضـع

تعود فيه الضباط أن يتوجسوا منه شراً ، لم يكن قائد الفيلق يعتقد بأن الأمور ستمر بسلام ، وانه سيخرج سالماً من وزارة الدفاع ، استدعي بعدها للدخول على السيد الوزير ، وبعد أن أدى التحية ، وهو ضابط قديم كبير السن ، غزا الشيب شعره ، كان المكتب الذي يجلس فيه السيد الوزير المدلل يبهر الأنظار ، فمن الأثاث الفاخر جداً إلى الثريات الثمينة إلى . . . إلى . . . ، أشار السيد الوزير لقائد الفيلق بالجلوس، بعد أن رد عليه التحية وهو يظهر علائم الحزم والجد ، فكل شيء حوله يساعده على ذلك ، بعد حديث مجاملة قصير ، وجه السيد الوزير كلامه إلى قائد الفيلق بصورة مفاجئة ، قائلاً له : سمعنا بأنكم تقومون ببناء داركم ، هذا ظرف يحتوي على مبلغ (٢٥) ألف دينار ، وهذا أيضاً مفتاح سيارة مرسيدس بيضاء اللون تنتظركم في الساحة ـ ساحة وقوف سيارات وزير الدفاع ـ تستلمونها عند خروجكم ، لقد بوغت قائد الفيلق تماماً ، فلم يكن يعتقد بأنه استدعي لهكذا أمر هام ، خرج قائد الفيلق وهو يشعر بمرارة الألم تعتصر نفسه، وشعور الاحتقار لهذا الوضع الذي يعيش فيه ، حيث يلعب بكرامته وكرامة الآخرين من القادة ـ إذا كانت لهم كرامة فعلاً ـ هؤلاء الصبية الذين لا يعرفون الخلق والأدب ، ولا لكرامة الآخرين ومشاعرهم قيمة ، وبين الهدية الثمينة والإهانة التي وجهت إليه ، فضّل المشار إليه أن يقنع نفسه بأن السيد الوزير قد قدم له ما يعوض ما أصابه من الشعور بالإذلال والصغار ، وإن عليه أن يشكر السيد الوزير، ولو مع نفسه وهو أضعف الإيمان ، فمثل هذا النائب القائد العام للقوات المسلحة لا يمكن أن يجد مثله في كل الدنيا ، ومثل هذا الكرم لم يتحدث عنه أحد ، فكيف سيجد نفسه حاتم الطائي كريم العرب في الجاهلية أمام هذا الحاتمي الفذ ، عدنان خير الله طلفاح ، صحيح أنه أُهين ، لكن السيد الوزير لم يكن ليترك ما حدث دون أن يعوضه عنه تعويضاً سخياً .

ـ أي علاقات إنسانية يتحدث عنها هؤلاء المتسلطون على رقاب الشعب ومصير قواته المسلحة ؟ وأي قيم تسترشد بالأخلاق والمعايير المعروفة في القوات المسلحة يمارسها هؤلاء الذين يعلنون احتقارهم لها والسخرية منها في كل خطوة من خطواتهم ، وفي كل عمل يقومون به ، وكل أمر يصدرونه لها ؟ عند سفر صدام إلى الاتحاد السوفيتي أصدر أمراً إلى القوات المسلحة يأمر فيه بأن تلتزم فقط بالأوامر الصادرة من النقيب ، الذي أصبح عقيداً[1]، المدعو حسين كامل زوج ابنته ، وانه هو الشخص

---

(١) منح رتبة فريق وصلاحية وزير ، حيث أصبح مسؤولاً عن ثلاث وزارات بعد أن تم إقالة وزرائها ، حدث ذلك أثناء كتابي لهذا الكتاب والفراغ منه .

المسؤول عن إصدار أية أوامر تتعلق بحركة الوحدات وتنقلها وفي أي واجب ، فصدام لا يثق حتى بأقرب المقربين إليه ، ونائبه الفريق الأول الطيار الركن القوات خاصة ، عدنان خير الله ، ابن خاله العزيز ، لا يحق له أن يتصرف كما تقتضي الأعراف ـ وما الذي بقي من الأعراف ـ ضمن حدود واجباته وما يتيحه له منصبه الرسمي ، أما قادة الجيش والقوات المسلحة فلتذهب مشاعرهم وأحاسيسهم إلى الجحيم ، المهم أن يحافظ صدام على سلطته وكرسيه ، ولا أحد يستطيع أن يضمن له ذلك سوى زوج ابنته وحبيبه حسين كامل أحد رعاة تكريت وجزاريها ، فقبول القوات المسلحة لهذا الأمر وعدمه ، أمر ليست له أية أهمية في نظر صدام ، والأعراف والأنظمة وتسلسل القيادة داخل الجيش ، والرتب التي يحملها الضباط ، والتي هي في واقع الأمر ، تحدد بصورة قانونية وعرفية حدود صلاحياتهم والمهام الملقاة على عاتقهم ، تصبح وفي لحظة واحدة ، غير ذات قيمة تذكر وتداس علنا وعلى الأشهاد تحت الأقدام ، فالنقيب مرافق صدام وزوج ابنته ، أصبح يمتلك وبسحر ساحر كل صلاحيات القائد للقوات المسلحة ، وما على الآخرين إلَّا أن يقبلوا ذلك، ويعتبرونه فلتة من فلتات القائد العام التاريخية التي تستحق كامل التقدير والاحترام ، وعليهم عندما يتلقون هذا الأمر أن لا ينظروا إلى أكتافهم ليروا ما تحمل من الرتب ، فهذا الأمر ليس قابلاً للتدقيق والمقارنة ، أيها السادة!! هذا الزمن هو زمن التخلي عن الكرامة والقيم ، فمن كانت استجابته سريعة آلية هو المخلص وهو الثقة ، والويل لمن ينبس بكلمة شاردة تائهة ، هل سمع العالم كلّه أن رئيساً أو ملكاً أو . . أي طاغية آخر يقتل من يخالفه بيده مباشرة ، ألم يقل للذين جمعهم في قاعة الخلد ببغداد، من الذين لم يتطوعوا في قادسيته من كوادرِهِ الحزبية والوزراء [اطره بيدي أربع وصل][1] أي أقطعه بيدي إلى أربعة أقسام، مخاطباً كل من تسول له نفس يتحدث مع فرد عراقي واحد حول ما جرى في قاعة الخلد ، فمن أين تجد العلاقات الإنسانية التي يدعيها النظام قواعدها؟ ومن أين تستقي هذه العلاقات أصولها ونضارتها وعمقها؟ من أين؟ .

ـ لا تقتصر العلاقات الإنسانية على جانب معيّن في القوات المسلحة أو مستوى خاص فيها ، وتنعدم في جانب أو مستوى آخر ، بل هي كلٌ غير قابل للتجزئة، فهي سلسلة مترابطة بأحكام تبدأ من القائد العام للقوات المسلحة وتنتهي بآخر جندي ،

---

(١) نشرت وقائع هذه الندوة بالفيديو في أماكن متعددة من العالم، وأمكن مشاهدتها من قبل عدد كبير من الأشخاص من بينهم مؤلف هذا الكتاب .

يعيش في موضعه الأمامي على خط الجبهة ، فالجندي يجب أن يشعر بأن الاستقامة والعدل تسير بمجرى متناسق متناغم ، اعتباراً من مركز القيادة العامة للقوات المسلحة في القصر الجمهوري ، منتهية إليه وهو يوجه سلاحه إلى خصمه ، عندها يصبح مطمئناً إلى أنه قادر على الانجاز والعطاء والتفاعل مع القضية الكبرى التي تطرحها قيادته ، كهدف من هذه الحرب التي يواجه فيها الموت في كل لحظة من حياته ، بل إن الرعب الذي تولده في نفسه يلاحقه حتى في الأيام المعدودة التي يقضيها بين أهله وعائلته ، عندما يتمتع بإجازته ، فلننظر إلى مفكرة أحد الجنود الذين قتلوا في معارك الفاو ، لنقف على وصفه النفسي وعمق الأزمة التي يعاني منها ، وهو جالس حتى بين زوجته ووالدته وأبنائه في إجازته القصيرة ، يقول في صفحة من صفحات مذكراته :

في إحدى الليالي الشتوية كنت أجلس بين طفليَّ وزوجتي ووالدتي ، وكانت النار موقدة ونحن نحتسي الشاي ، وكنت أستمع إلى المسجل حيث كانت تدور إحدى أغنيات سعدون جابر الجميلة ، وكنت أشعر بالعادة الغامرة ، فجأة تذكرت الموت المخيم على رؤوسنا نحن الجنود العراقيين ، حيث إني سألتحق بالجبهة بعد أيام ، ولا بد لي أن أموت في يوم ما ، سواء بعد انقضاء هذه الإجازة أو الإجازة القادمة ، وبدا عليَّ الوجوم ، وانقبضت أساريري ، وتبدل الفرح والسعادة في نفسي إلى حزن عميق ، وقد لاحظت زوجتي ووالدتي التعبير المفاجى الذي ارتسم على وجهي . وتساءلتا ، ما الذي حدث؟ فقلت لهما : إن ما يجول بخاطري الآن هو أن هذه الجلسة قد تكون الأخيرة ، إني أكتب هذه الكلمات في موضعي الضيق هنا والقنابل تتساقط من حولي ، لا أعلم متى يأتي دوري ، فتسقط احداها على رأسي فتنهيني إلى الأبد .

هذا ما يحس به هذا المقاتل البائس الذي قضى نحبه على مذبح القادسية البائسة ، فلم يكن في ذهنه كل ما يحاول أن يدعيه النظام من أمجاد و . و . . . من قادسيته تلك ، لم تكن لهذا الإنسان الذي قتل فعلاً أية قضية يقاتل من أجلها ، سوى أنه يخيم عليه شعور قاتل بأنه سيموت ، ولن يستغرق ذلك وقتاً كبيراً ، فهو شخصياً يتوقع موته ذلك ، وسوف لن تكون إجازته تلك إلاَّ آخر ما يتمتع به ، يقضيها بين أهله وأحبته ، وكل من يعتقد بأن الجندي العراقي محدود الإدراك مطيع فهو يقع في خطأ كبير ، فهو حتى وإن كان لا يملك من الثقافة ما يؤهله لأن يصوغ أفكاره وأعماله بصورة فعالة ، إلاَّ أنه يدرك بفطرة منقطعة النظير بأنه بعيد عن هذه الحرب ، ولا نفع له فيها ، وإن أهدافها لا تمت إليه بصلة ، وإن العلاقات السائدة الآن في القوات المسلحة هي أبعد ما تكون عن

الإنسانية ، فشواهد هذا الأمر يعيشها يومياً ، ويلمسها لمس اليد في كا ما يحيط به ويتعامل معه .

ـ والآن فلننظر إلى الجانب الآخر من الصورة ، ننظر إلى الشعب وما يجول في خاطره، وما يحمل تجاه هذه الحرب ونارها وسعيرها ، هذا نموذج لرسالة بعثها والد جندي في الجبهة إلى ولده، كتبها حفيده ابن الجندي الذي وجدت الرسالة في جيبه بعد أن قتل في معارك شرق البصرة، ننقل الرسالة كما وردت لأنها احتوت على بعض الأخطاء الإملائية وضعف في التعبير :

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم

« والـديك !

لا بد من أنك تلقيت طول البعد قبل أن تصلك هذه الرسالة بأمرٍ قد يكون طويلاً ومنثير عبرتك من جديد ونبعث اللموع في عينيك الصابرتين بهذه الكلمات التي خطتها يدي حفيدنا علي اليك والتي ستقرؤها على ضوء المصباح الغازي أو عمود النور المنسكب من النافذة الصغيرة في موضعك الحقير، فعفواً يا ابننا اننا لا نرغب أن ننكأ جراحك، اننا نشعر برجفة يديك وأنت تقرأ هذه الكلمات، ونحس بالغصة التي تملأ فمك إنا نعذرك يا ابننا ونحن متلك، اننا نبكي الآن ويدي حفيدنا تخط ما تخطه إليك، إذا سالت عبرتك وأنت الجلد الصبور فما الذي تفعله أمك العجوز الرقيقة القلب التي تتطلع الآن بعينيها الواسعتين إليك ، والعائلة كلها تسلم عليك وتنتظر عودتك وتسأل الله أن يحفظك ويعود بك إلينا سالم».

فالرسالة التي أرسلها والدا هذا المقاتل إليه لم تتحدث عن شرف القادسية المنحوسة ، ولم تتطرق إلى الأضاليل والأكاذيب التي يطلقها كل يوم عن الدور الحضاري الذي تضطلع به هذه القادسية خدمة لحضارة العالم وتطوره ، إنها تتحدث فقط عن الجراح التي لا يريد الوالد أن ينكأها في قلب هذا المسكين ، الذي سالت دموعه حتماً عند قراءته لهذه الرسالة، فالشعب لا يتحدث إلاّ عن مأساته المستمرة، وخوفه على مصير أبنائه المجهول، فالشعب لا يهمه أن ينعم الأميركان والروس والإنكليز والفرنسيون بصرح حضارتهم الشامخ الذي يدافع عنه صدام ونظامه ، فهو لا يرى إلاّ الكارثة ماثلة أمامه .

الحرب النفسية

«تستخدم جميع الجيوش في العالم، الحرب النفسية، لرفع معنويات القطعات، بتقديم مواد التعليم، ومواد التثقيف السياسي والترفيه، ومواد الانتباه الأخرى، وتقديم الخدمات ضد الحرب النفسية، التي يشنها العدو، وإتباع طرق لإثارة انتباه الجنود، إلى فعاليتنا بحيث نتمكن من عزل الحرب النفسية للعدو. ومحاولة التأثير على معنويات العدو والقضاء عليها»[1]، وبهذا تحدد الجريدة اتجاهات الحرب النفسية باتجاهين أساسيين، وهما صيانة المقاتلين من الحرب النفسية، والدعاية الهدّامة للعدو، ومن ثم توجيه نشاط مكثّف باتجاه إضعاف معنوياته، وتحطيم روحه المعنوية، وإرادته على القتال، والتصميم على الاستمرار فيه، فهل أفلح القائمون على هذا الأمر لتحقيق أهداف الحرب النفسية؟ والذي يشترط وجود فعّال ونشط، داخل القوات المسلحة يأخذ على عاتقه إنجاز هذه المهمة الشاقة، نشاهده في كل المواقع، فمن خط الجبهة الأمامي، حيث يتعرض المقاتل إلى ضغط شديد، بسبب خطر الشعور الدائم بوجود خطر الموت، الذي يخلق لديه شعور دائم بالقلق، وفقدان الأمن. حيث يحتاج في تلك اللحظات ما يخفف عنه شدة وطأة الظرف القاهر الذي يعيشه. من هذا الموضع وحتى المقر العام، حيث مركز التخطيط لعملية الحرب النفسية، الذي يحدّد اتجاهاتها على ضوء معطيات الظروف القائمة، وطبيعة التهديد المادي والنفسي المعادي، وكما تحدثنا عمن دور التوجيه السياسي وضعفه وعدم قيامه بواجباته، فإن الجانب الآخر من موضوع الحرب النفسية هو اعتماد برنامج واضح ودقيق، يستند على حقائق تساعد المقاتل على تقبّل الهدف الذي أُعدّ من أجله، يتشمّن فقرات مهيئة ومعدّة بصورة متناسقة منسجمة من أجل تحصين المقاتل من الدعايات المضادة، وما دام المقاتل لا يؤمن بالهدف الذي أُعلنت من أجله الحرب، وهو قبل غيره صار متأكداً بأن النظام الذي يقوده، قد شن الحرب لحساب قوى إقليمية ودولية، وإنه يدفع من دمه ويقاسي الآلام، ويعيش المحن كل يوم نيابة عن

---

(١) جريدة الثورة العربية العدد ٦ سنة ١٩٨٥.

الآخرين، فإن كل مواضيه التثقيف وما تتضمنه من تبريرات واهية، لم تعد قادرة على إقناعه وبث روح الطمأنينة في قلبه، إلاّ أن الدوائر ذات العلاقة بالتوجيه السياسي والتثقيف، تظهر من الغباء والجهل ما يجعل المتتبع يقف امامه حائراً، فقد ورد في كتاب معمم على الوحدات في الفيلق الرابع، بأن المعلومات التي وردت من مصادر الفيلق الموثوقة عن المقاتلين الإيرانيين في الجبهة، (استياء بعض عناصر العدو وتضجرهم إلى حد البكاء، بسبب عدم صرف الأرزاق لهم، وعدم وجود أي شيء يتدبرون أمرهم)[1]، ويطلب الكتاب التوعية والتثقيف بموجبه، إذن فبعض الجنود الإيرانيين يبكون من الجوع، وانهم سوف يموتون من استمرارهم بالبكاء لما له من تأثيرات فسيولوجية تؤدي إلى انفجار الدماغ وليس المعدة، الجنود الإيرانيون إذن لا يموتون من الجوع بل من البكاء، وأنتم أيها الجنود العراقيون لا تقلقوا فعدوكم يقتل نفسه، يموت دون قتال ولا حاجة للقلق، حتى لو استمرت الحرب خمسين سنة، كما أعلن وزير الدفاع عدنان خير الله عند دخول القوات العراقية إلى الأراضي الإيرانية، فأعداؤكم يموتون من البكاء أو الجوع أو حتى من الضحك، لأن البكاء المتواصل سوف يتحول بعده مدة إلى الضحك، تطبيقاً للمثل القائل: (ابكِ في الأول حتى تضحك في الآخر)، والضحك المتواصل يؤدي إلى الموت أيضاً، كما يؤدي الضحك على الذقون والخداع بصورة مستمرة هو الآخر إلى الموت الحتمي المؤكد، يا للمهزلة!! إنهم يتصورون بأن الجندي غبي ومغفل إلى هذه الدرجة المتدنية، كأن إيران لم تقاتل مدة تزيد عن سبع سنوات، وكأن هذه المدة ليست كافية لاقناع الجندي العراقي بأن إيران دولة لديها مقومات الاستمرار بالقتال، وإنها قادرة على أن تقاتل فترة أطول مما حسب له المخططون في النظام العراقي وأسيادهم، والذين أغروهم من العملاء بأن إيران أصبحت لقمة سائغة، وما عليهم سوى أن يمدوا أيديهم لتناولها.

وتوجيه آخر ورد من قيادة فرقة المشاة ٢٦، يطلب فيه التثقيف على الأسباب التي دعت القيادة لاتخاذها قرار قصف المدن الإيرانية، ومنها طهران وأثرها في تأديب ما يسمونه (الفئة الباغية)[2]، فما الذي سيقوله ضابط التوجيه السياسي للمراتب عن أسباب هذا القصف؟، هل إن هذه الأساليب ستثني القيادة الإيرانية عن عزمها على مواصلة القتال؟. وهل ان النظام العراقي لم يخبر هذا الأسلوب منذ بداية الحرب وحتى الآن، ولم يجد منه أي نفع أو مردود؟ بل إن هذه الأساليب قد زادت بالفعل من إصرار القيادة الإيرانية على مواصلة القتال، وإعطائها مبررات إضافية لدعم موقفها هذا، حيث أعلنت ذلك بقوة في

---

(١) كتاب الفيلق الرابع السري ١٥٩ في ١١/١/١٩٨٥م.

(٢) رسالة الفرقة المشاة ٢٦ السرية والفورية ٦٣٧٩ في ٤/٦/١٩٨٥.

أشد الأوقات التي كان القصف الجوي العراقي يأخذ مدى أوسع وتخريباً أشمل . أما الجانب الآخر الأكثر قباحة في هذا الأمر ، هو تأثير الرد المقابل الذي تقوم به القوات الإيرانية ، والذي يسبب دماراً وخراباً وقتلاً وتشريداً بين صفوف المدنيين في مدن وقرى عديدة من العراق ، هؤلاء المدنيون هم أهل المقاتلين الذي يريد التوجيه السياسي امتاعهم بأن بيوتهم ستظل عامرة ، وأن أهليها سوف يقفون على عتبة هذه البيوت يستقبلونهم بلهفة عند عودتهم إليهم ، ولم يصب أحد منهم حتى بخدش بسيط ، فالقصف الجوي والمدفعي المقابل لا تأثير له ، وإن ما يرمى على رؤوس أهليهم هو نوع من الحلوى اللذيذة التي لا تقتل من تصيبهم ، أوانها لا تهدم بيوتهم على رؤوسهم ، هذه المحنة التي يقاسيها المقاتلون في القوات المسلحة حيث يجدون بأنهم ليسوا وحدهم معرضين للموت والفناء ، بل إن بيوتهم التي تبعد عشرات الكيلومترات أو المئات عن خط المواجهة تتعرض هي الأخرى للتدمير اشباعاً لنزوات الزمرة المتسلطة ، وحبهم الذي لا حدود له لإسالة المزيد من الدماء في كل مكان .

الانتصارات

ـ من المعروف جيداً أن المعنويات تتبع علاقة طردية مع النجاحات التي تحققها الوحدات في القتال، فكلما كانت النتائج التي تحصل عليها في قتالها مرضية، فإنها تبعث في نفس المقاتل وروحه دفعاً جديداً، فالبناء الروحي قبل بدء العملية التي حققت فيها الوحدة نجاحاً واضحاً، يختلف عنهُ بعد انتهائها بصورة أكيدة، مما يشجعها على انجاز الواجب المقبل، (والمعروف جيداً أن المعنويات تنمو مع النجاح)[1]، وتشكل معه خطاً متوازياً تصاعدياً، ويمكن قياس الروح المعنوية للقوات من دراسة نتائج نشاطاتها العسكرية المختلفة، ويشكل الانجاز الجيد في التدريب والأداء الكامل المرضي فيه أيضاً نجاحاً هاماً، يؤدي بدوره إلى تمتع الوحدات بمستوى من الروح المعنوية تستطيع أن تديمه وتحافظ عليه بصورة مستمرة بسلسلة من التدابير، كإدامة التدريب للحصول على نتائج مماثلة، أو وضع برامج ترفيهية ملائمة تمتزج فقراتها بصورة ذكية غير مباشرة بالانجاز الذي تحققه الوحدة، وذلك لضمان عدم تكرار الأعمال آلياً، مما يفقدها قيمتها بالتدريج، على أن الانجاز في ساحة المعركة ونتائج النشاطات العسكرية فيها يشكل أهم العوامل المؤثرة والواضحة لرفع الروح المعنوية، لأنها ستؤدي في نتيجتها إلى الإحساس بالأمل في النصر وحسم الموقف نهائياً، حتى في الحالات التي يستمر فيها النزاع لفترات غير محدودة، لذا فإن أي جانب من المتخاصمين الذي أحرز نصراً ما في معركة معيّنة، يجب أن يأخذ في نظر الاعتبار بأن عليه أن يستمر في الحصول على انجازات ملائمة في ساحة العمليات، وان يحرم عدوه ـ بكل ما أوتي من قوة ـ من الحصول بالمقابل على أي نجاح مهما كان محدوداً، لأن هذا النجاح الضيق ربما سيتحول في المستقبل إلى نجاحات كبيرة تنمو مع شعوره النفسي بأنه قادر على الانجاز،

---

(١) علم النفس في القوات المسلحة ـ العقيد شارل شانديسي .

وتحوله الفكري هذا قد يغريه على الطمع والتحول إلى إنجازات كبيرة حاسمة وفي ظروف مستجدة تماماً وغير متوقعة .

ـ في الحالات التي يقف فيها الجيش عاجزاً عن تحقيق نجاحات وانجازات واضحة في ساحات القتال ، فإن الأجهزة الإعلامية ، الموضوعة في خدمة قيادة هذا الجيش ، تكثف نشاطها لإثارة غبار كثيف يلف الموقف ويجعله قابلاً للشك ، وفي البلدان التي تشتد فيها الدعاية وتصل إلى أقصى مدى لها ، فذلك يعني بالتأكيد عدم وجود تناسب بين حجم الفعل وغزارة الكلام ، وان الوضع في واقع حاله ليس كما يعلن عنه . . وإن وضع الروح المعنوية لا يتناسب مع كثافة وشدة الإعلام ، (وأتجرأ القول بأن هذين الشيئين متناسبان عكسياً في بعض الأحيان)[1]، فشدة الصراخ تخفي وراءها عمق الهزيمة ، وعندما تظهر على الأفق حماسة لا عقلانية تدبلجها الصحف ، وتبثها وسائل الاعلام الأخرى ، بصورة مجترة مكررة يومياً بقوالب مملّة ، فإن ذلك يعتبر دليلاً على وجود ثغرات في الإيمان مع شك حول حقيقة الحق الذي تدافع عنه ايديولوجية معينة ، لأن هناك فكراً وعقلاً لديه الإمكانية أن يعرف ما هو مطابق للعقل ويملك القدرة على اختبار ما هو صحيح فعلاً ، وقد تحقق طرق الدعاية المكثفة نجاحاً آنياً يعوض عن الحالة الحقيقية للموقف ، ولكنه لا يستطيع أن يستمر في ذلك إلى مدى بعيد ، فالحقائق سرعان ما تظهر واضحة جلية ، عندها سوف تذوب الأضاليل والأكاذيب كما يذوب الملح في ماءٍ ساخن .
إن القائمين على إدارة الدعاية قادرون على الكذب ، بل إن الكذب نفسه قد يكون مطلوباً في بعض الأحيان . بل إن الدعاية دائماً ما تحتوي وتستند على قليل من الكذب ، وهي بسبب اضطرارها إلى إبراز جانب واحد من الصورة ، مخفيةً الجوانب الأخرى ، تتستر على الهزائم ، وتدعي من النجاحات ما ليس له وجود في حيز الواقع ، وتجعل المرء يعيش في محيط من المظاهر الخادعة ، وهو الهدف النهائي من الدعاية والتوجيه ، إلاَّ أن الحقيقة الثابتة هي أن الدعاية المؤثرة ، هي تلك الدعاية التي تستند على الحقائق الملموسة ، على الانتصارات ، وهي لا تستطيع أن تستمر في وسط الهزائم ، لأنها سترى نفسها بأن عليها أن تدير ماكنتها بسرعة ليست اعتيادية ، كي تعوض عن الفشل والاخفاق في الواقع العملي ، مما سيعرضها للسقوط حتماً ، وهذه الحقيقة نلمسها بصورة جلية واضحة كلما تعرضت القوات المسلحة العراقية لفشل ما في إحدى المعارك . ففي اللحظات الأولى لبدء معركة شاملة ، وبسبب الإحساس الذي تعيشه القيادة مسبقاً بأن الموقف لا

---

(١) الفكر والحرب ـ جان غيتون ص ٣٤.

يمكن التأكد منه ، وانها ليست واثقة من النجاح ، تعمد أجهزة الدعاية والاعلام إلى إثارة صراخ عالٍ يصم الآذان ، ففي تلك اللحظات حيث تكون الأعصاب مشدودة متوترة بسبب غموض الموقف وعنف المفاجأة ، توجه الدعاية جهودها على الأعصاب ، على النفس التي تكون بحالة قلق دائم مستمر وليس على العقل ، فتعمد إلى طرح صور دعائية كثيرة مكررة في سياق ثابت ، فهي تقدم خبراً غامضاً عن بدء المعارك معلناً في صفيحة ذات ألوان صارخة بهيجة ، وتستمر بتكرار هذا الوضع سواء عند استقرار الموقف أو عند حدوث متغيرات ، متناسية أن التأثير على العاطفة ليس كالتأثير الذي يحدث على العقل ، فالأول يزول حالما تزول الظروف التي ساعدت على اكتسابه، أما الثاني فيظل عالقاً في الذهن في تركيبة الذاكرة ، ولكثرة هذا التكرار والاجترار والإعادة فإن وسائل الإعلام، ومن تعمل لأجله من القادة تبدأ بالشعور التدريجي بالاطمئنان المشوب لحالة من الحذر، بعد أن تكون قد اقتنعت هي بما نقول ، أما الآخرون فليس الآن وقت الحديث عنهم إلّا في مجال هذه الدائرة ؛ فالحالة التي يحدثها هذا السيل من الدعاية قد أحدث استقراراً في روح القائمين عليه وهو أمر مهم في تلك المراحل العصيبة من المعارك ، وهو ما تحتاجه القيادة التي اعتادت أن تتعامل مع الأمور بأسلوب واحد ، إلّا أن الأمور ستسير بالتأكيد باتجاه مغاير لرغبات القائمين على دفة الأمور ، ويظل المقاتل ينتظر من خلال هذا الضباب والتعمية أن يسمع ما لم يجرِ الحديث عنه لحد الآن، يظل ينتظر الحقيقة التي يدرك تمام الإدراك بأنها لا تزال مفقودة في هذا الزحام إلّا أنها موجودة بالفعل بانتظار أن تظهر، بعد أن يصبح انكارها لا يجدي نفعاً، (ان القوة المعنوية لا تخاف من رؤية الأمور كما هي في الواقع ، وإذا رأتها كما هي فإنها تراها كلها بآن واحد ، ولا يستطيع الشر أن يخفي عنها الخير، كما لا يستطيع الظل أن يخفي عنها الضوء)[1].

ـ عند دراسة تاريخ الحرب العراقية ـ الإيرانية بصورة متعمقة ، فإننا سنصل إلى نتيجة رئيسية وهامة ، وهي أن القوات المسلحة العراقية قد فقدت المبادىء بصورة تامة بعد استقرار الموقف ، ووصول الجيش العراقي إلى الأماكن التي وصل إليها بعد ثلاثة أشهر من الحرب ، فقد تحوّلت تلك الجحافل التي كانت تندفع داخل الأراضي الإيرانية من حالة الحركة إلى حالة السكون ، من العمل التعرضي إلى العمل الدفاعي التي ظلّت تعيشه حتى انسحابها في حزيران عام ١٩٨٢ إلى الحدود الدولية ، وظلّت حركاتها تشكل ردود فعل اقتضتها مناورات الجانب المقابل، وتحركاته على طول الجبهة ، في المراحل

---

(١) المصدر السابق نفسه.

اللاحقة من تاريخ الحرب ، لقد فقدت القيادة مبدأ المبادأة التي كانت تمتلكه عند بدء الحرب ، وهو مبدأ مهم من مبادىء الحرب الرئيسية والأساسية ، وتحوّلت الفرق المدرعة والآلية التي تتمتع بقابلية الحركة والقوة النارية الكثيفة المؤثرة إلى وحدات مشاة ، حيث تحتل الدبابة وناقلة الأشخاص المدرعة موضعاً دفاعياً في الخط الأمامي ، بدلاً من جندي المشاة الذي يعتبر أكثر صنوف الأسلحة ملاءمة لمسك الأرض والتشبث بها ، مما جعل الدبابة نفسها وناقلة الأشخاص المدرعة تتعرض إلى التدمير السريع الذي يسببه القصف المدفعي الثقيل ، بسبب كبر حجمها ، وصعوبة تهيئة المواضع الملائمة لإخفائها ، وبسبب قلة المشاة الذي يستطيع أن يؤمن لها الحماية القريبة ليلاً ونهاراً ، فقد تحوّلت الفرق المدرعة من واجب الإجهاز على الخصم لما لها من مزايا ملائمة للهجوم وتوجيه الضربات المقابلة ، إلى واجب مسك الأرض ، مما جعلها تشكل أهدافاً جيدة لهجمات المشاة التي بدأت تتطور وتتسع يوماً بعد آخر خلال فترة الحرب وعلى طول امتدادها ، خاصة الهجمات الليلية التي كانت تنفذها القوات الإيرانية ، وبما يسمى بالمصطلح الإيراني «عمليات نفوذية» ، مما سبب انهيار فرق آلية ومدرعة بكاملها فيما بعد ، بسبب الانهاك المستمر وانخفاض روحها المعنوية ، كما حدث في عمليات الشوش وديزفول ، وعمليات بستان ، ومن قبلها كلها عمليات فك الحصار عن عبادان ، والتي تسميها القيادة العراقية بمعارك شرق الكارون ، وغيرها من المعارك الكبرى ، فمنذ معارك فك الحصار عن عبادان ، أفاق العالم على هذا الفارق الحقيقي بين ما تدعيه القيادة وبين واقع الحال الذي تعيشه القوات المسلحة العراقية .

ففي ليلة واحدة ونصف نهار تحطمت الفرقة المدرعة الثالثة ، والوحدات المتجحفلة معها ، وانهارت انهياراً تاماً ، حتى أن الوحدات ـ أو ما تبقى منها في الحقيقة ـ كانت في حالة انسحاب غير منظم إلى غرب نهر الكارون ، وأقرب ما تكون إلى الانهيار ، في الوقت الذي كانت فيه القيادة العامة للقوات المسلحة لم تتخذ قرار الانسحاب بعد ، كان مدير الحركات العسكرية في وزارة الدفاع اللواء الركن ميسر إبراهيم الجبوري يتصل بمقر الفرقة المدرعة الثالثة غرب نهر الكارون ، يستفسر عن الموقف ، حيث كان مدير الاستخبارات العسكرية في حينها اللواء الركن عبدالجواد ذنون قد حضر شخصياً إلى مقر الفرقة للوقوف على الموقف بصورة دقيقة ، كان هذا يرد عليه من الجانب الآخر يطالبه بإصدار أمر الانسحاب الذي أصبح ضرورياً نتيجة لتطور الموقف ، ولم يكن يخبره بأن الوحدات كانت بالفعل في حالة انسحاب وفوضى ، كان مدير الحركات العسكرية يسأل مدير الاستخبارات فيما إذا كان هذا الأمر قد درس بما فيه الكفاية ، مما حدا بمدير

الاستخبارات ـ وهو عضو المكتب العسكري للحزب الحاكم ـ إلى أن يتحدث معه بلهجة تأنيب قائلاً له : « إنكم لا تعرفون ماذا يجري في الجبهة الآن » ، وهذا له دلالة كبيرة ومعنى عميق ، وهو أن القيادة العامة لا تزال بعيدة عن الوضع ، وينقصها الإدراك والحكمة ، في الوقت الذي تجلس فيه على بعد ما يقرب من الألف كيلومتر ، وعلى أية حال فلم يكن حجم القوات الإيرانية التي نفذت الهجوم يزيد عن حجم القوات العراقية التي تمسك الموضع الدفاعي شرق الكارون كثيراً ، إلّا أن الوضع المعنوي للوحدات قد انهار فعلاً قبل فترة ليست طويلة قبل بدء الهجوم ، بسبب عقم المحاولات التي قامت بها لاحتلال المدينة ، والخسائر التي كانت تمنى بها في كل هجوم فاشل قامت به لاقتحامها ، لقد كرّت مسبحة الهزائم والفشل منذ هذه المعارك ، واستمرت تتسارع بصورة مخيفة توجتها استعادة القوات الإيرانية لمدينة خرمشهر ، وانسحاب القوات العراقية نهائياً من الأراضي الإيرانية إلى الحدود الدولية ، ثم قامت معارك شرق البصرة ، والعبور إلى البر العراقي عبر هور الحويزة ، حتى معارك الفاو الرهيبة والآثار النفسية والعملية التي ترتبت عليها ، إلى المعارك التي يسميها الإيرانيون بكربلاء الخامسة ، التي اندلعت في قاطع الفيلق الثالث شرق البصرة في كانون الثاني عام ١٩٨٧ ، والتي أدت إلى تدمير ما لا يقل عن (٨٠) لواءً مدرعاً وآلياً ومشاة راجلاً ، إلى معارك حلبجة التي دارت بداية عام ١٩٨٨ ، والتي أدت إلى احتلال أراضي واسعة من العراق .

ـ شعرت القيادة العراقية بثقل الهزائم التي تتعرض لها القوات العراقية ، والآثار النفسية الكبيرة التي ترتبت عليها ، فحاولت أن تجد مخرجاً لها من هذا المأزق الحرج ، فالقوات العراقية ظلّت طيلة فترة الحرب تنتظر دوماً هجوم القوات الإيرانية ، وفي أكثر حالات التوفيق ، وعندما كان يحالفها الحظ ببعض المعارك ، وتتمكن من دفع هذا الهجوم وبخسائر كبيرة فادحة ، فإنها ظلّت تشعر دوماً بأنها غير قادرة على تحمل هذا الوضع إلى ما لا نهاية له ، لذا فقد عمدت القيادة العراقية إلى دراسة هذا الوضع ومحاولة ايجاد حلول ملائمة للخروج منه .

فقد بادرت إلى عقد مؤتمر عام سنة ١٩٨٦ ، بعد عمليات الفاو مباشرة ، دعي إليه عدد من العسكريين العرب المصريين والأردنيين وغيرهم ـ ومن بين من حضر من هؤلاء وزير الدفاع المصري الأسبق الفريق محمد فوزي ، لغرض دراسة الوضع تفصيلياً والتقدم بحلول معقولة وملائمة للانتقال من الحالة السائدة إلى حالة أخرى ، تسمح للقوات بإجراء تحوّل مناسب في وضعها المعنوي ، وإذا كان ممكناً على مستوى الحرب ككل ، وفات القادة المتقاعدين العرب بأن القوات المسلحة العراقية أصبحت عاجزة عن الحركة

والإبداع ، وإن وضعها المعنوي لم يعد يسمح لها بإجراء أي نقلة نوعية إلى الأمام ، فقد تفتق عقل هؤلاء عن اختراع جديد ـ وكأنه جديد ، بل انهم في الواقع لم يأتوا بأي شيء جديد ـ حيث خرجوا باقتراح لإجراء هذا التحول إلى القيادة العراقية يتضمن الانتقال من حالة الدفاع الصرف الساكن إلى ما يسمى (بالدفاع المتحرك)، الذي يعتمد على أسلوب الخلط بين مفهومي الدفاع والهجوم في آن واحد ، وذلك بتنفيذ عمليات هجوم على أهداف منتخبة تشنه القوات الأرضية ، يهدف إلى احتلال أراضٍ جديدة والاحتفاظ بها ، إضافة إلى مسك خطوط دفاعية قوية يتم منها صد الهجمات التي تشنها القوات الإيرانية ، وقد صاحب ذلك ضجة إعلامية كبيرة ، للإيحاء بأن القوات المسلحة قد اعتمدت استراتيجية عمل جديدة ، وأن الموقف سيتحول جذرياً لصالحها ، يمكن تشخيص الخطأ المعنوي لوجود هؤلاء الضباط العرب المتقاعدين من ذوي الرتب الكبيرة بسهولة ، وذلك أن المقاتل العراقي يهزأ في قرارة نفسه من هؤلاء القادة الذين لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً عند وجودهم في الخدمة في جيوشهم ، حيث لا تزال القوات الصهيونية في أجزاء كبيرة من الأراضي العربية ، كالضفة الغربية وأجزاء كبيرة من سيناء وقطاع غزة ، هؤلاء لم يستطيعوا أن يحققوا لشعوبهم الانتصار ،فكيف سيحققونه للشعب العراقي ؟ فالعاجزون لا يستطيعون أن يقدموا سوى مشروع ، تحوم حوله الشكوك ويفتقر إلى الثقة في انجازه ، من هنا فقد كانت الشكوك تثار حول جدية هذا المؤتمر وفائدته ،والذي كان يفضل أن يسمى بـ (المؤتمر العسكري الشعبي العربي) على غرار (المؤتمر الشعبي الإسلامي) الذي عقد قبله في بغداد ، ولتنفيذ هذه الاستراتيجية الجديدة قامت القوات العراقية بتجربة حظها بشن هجمات محدودة ، استطاعت فيها أن تحقق بعض النجاح ، ومما ساعدها في ذلك هو أن الأهداف التي اختيرت كانت ضعيفة ، ولم يكن الدفاع الإيراني فيها محكماً ، ففي مخفر زيد ، في قاطع العمليات الجنوبي ، تمكنت القوات العراقية من احتلال مواضع إيرانية واستقرت فيها ، وقامت أجهزة الدعاية والإعلام بتنفيذ ضجة إعلامية صاخبة لم تكن أصلاً بمستوى الانجاز الذي تمّ ، وبعد فترة قصيرة قامت القوات الإيرانية بشن هجوم مباغت سريع استطاعت فيه أن تستعيد ما فقدته من المواضع ، إضافة إلى تقدمها عدة كيلومترات في عمق المواضع العراقية واستقرت فيها ، إلاَّ أن نعش الدفاع المتحرك قد شيّع إلى مثواه الأخير ، بعد أن دق في نعشه المسمار الأخير في عمليات استعادة مهران في القاطع الأوسط من الجبهة عام ١٩٨٦ .

عمليات مهران :

ـ في عام ١٩٨٦ ، قامت قوات الفيلق الثاني والوحدات المتجحفلة معه بقيادة

اللواء الركن ضياء توفيق قائد الفيلق ، بشن هجوم واسع لاحتلال مدينة مهران التي كانت تدافع عنها قوات لا تتجاوز لواء مشاة ، حيث شن الهجوم بأكثر من فرقتين عراقيتين مدعومة وعلى محورين يمين ويسار المدينة ، استهدف تطويقها في المراحل الابتدائية ، ثم دخولها واحتلالها ، وقد نجحت العملية واستطاعت القوات العراقية أن تحقق أهدافها ، وكان أن بدأت العملية ، وكأن القيادة العراقية لم تصدق أنها قد حققت ما حصلت عليه ، وبدأت أجهزة الاعلام حملة إعلامية مكثفة كانت تصم الآذان ، فقد اعتبر هذا الانجاز قمة النجاحات التي حققتها استراتيجية الدفاع المتحرك ، كما وأطلقت في بغداد ٢١ اطلاقة مدفع احتفاءً بهذا النصر ، كما قامت المسيرات الجماهيرية في كل محافظات العراق من شماله إلى جنوبه ابتهاجاً بهذا النصر، وتعبيراً عن عمق الفرح الذي أحسّت به القيادة العامة بهذا النصر غير المتوقع . ومهران قصبة صغيرة مهجورة كان الجيش العراقي قد احتلها خلال الأيام الأولى للحرب، تقع على بعد ٢ ـ كلم عن خط الحدود العراقية ـ الإيرانية ـ وفي الوقت الذي كانت القوات الإيرانية تمسك الفاو، كانت القيادة العراقية تعلن بأن ثمن مهران سيكون إعادة الفاو، لقد أصبحت أرض مهران ملاعب للأبطال الذين اقتحموها ، مهران أصبحت رمز العز والمجد والإصرار ، لقد أصبحت تمثل شرف ومستقبل القيادة العامة للقوات المسلحة وعلى رأسها المهيب ـ الركن ـ صدام حسين ، هذا ما كانت تحاول حملة الدعاية التي كانت تتعاون على إبرازها وسائل عديدة ومتنوعة مملوكة وصديقة ـ وهي كثيرة جداً ـ أن توحيه في ذهن المراقب والمستمع والمقاتل والجماهير كلها التي تعيش خلف الجبهة ، الكل يتظاهر بالفرح أو مرغماً ، والقائد العام يتبادل برقيات التهاني مع قادته الذين حققوا له هذا النصر . . والرقص والغناء ، والشعر بدأت وتائره بالصعود . . وكانت مناسبة فريدة لإظهار المواهب لكل من يملكها وعلى اختلافها ، إذن فالأمل ، أوقل ما يشبه الأمل يلوح في الأفق ، بأن هذه الحرب ستنتهي ، ليس مهماً أن تنتهي إلى نصر أو شيء ما مجهول ، المهم أن هناك شيئاً بدا يلوح في الأفق البعيد ، اننا نصل ، أو هكذا نحلم ، إلى النهاية حتى ولو كانت حزينة ، لكن الأفلام الهندية والمصرية غالباً ما تكون نهايتها سعيدة ، وفلم القادسية لا يختلف عنها، بل إنه خليط من الاثنين ، وفجأة تبخر كل شيء، وكأن شيئاً لم يحدث على الاطلاق ، فالمدينة تعود إلى أهلها وبكل هدوء ، ويصاب الجميع بالذهول والحيرة ، لا أحد يصدق بأن ما حصل ، قد حصل فعلاً ، وبهذه البساطة ، وقليلاً قليلاً أفاق الجميع على هول المأساة الجديدة ، فقد تم تدمير القوات العراقية التي دخلت إلى مهران دفعة واحدة ، وأصبح الفيلق الثاني هشيماً تذروه الرياح، إلاّ من استطاع أن يتملص من الطوق الذي كانت القوات تضيقه بالتدريج ، فقائد الفيلق الثاني ضياء توفيق إبراهيم ، الذي

خرج قبل (١٥) يوماً يشرح سير عمليات احتلال مهران بهدوء ورصانة القائد المتمرس ، وكأنه قد حقق حلم الأجيال ، كأن فلسطين قد تحررت وأعيد أهلها إليها ، هذا القائد لم يعد أحد يسمع عنه شيئاً، حيث اختفى ذكره كلياً ، وقائد الفرقة ١٧ العميد الركن مؤيد الألوسي قد أرسل إلى بغداد مخفوراً ، أما العقيد الركن عبدالأمير الساعدي ـ والذي لقب ببطل مهران عند احتلالها ـ آمر اللواء المدرع السبعين قد أرسل هو الآخر مخفوراً إلى بغداد بعد اتهامه بالتخاذل! فهذا أصبح متخاذلاً بعد أن قام بغرز العلم العراقي على إحدى روابي المدينة عند احتلالها، حيث قدم له صدام عدة أنواط شجاعة تثميناً لعمله البطولي هذا ، كما لقي العميد الركن علي حسين المحمداوي آمر لواء مغاوير الفيلق الرابع نفس المصير ، كما قتل العميد الركن خضر علي نصار العامري شقيق حسن علي نصار وزير التجارة العراقي الأسبق، آمر أحد ألوية الحرس الجمهوري ، أما آمر اللواء الآلي ٢٤ العقيد الركن وطبان فقد وقع أسيراً بأيدي القوات الإيرانية مع آمري سبعة أفواج ، إضافة إلى تدمير اللواء الرابع والخامس والسابع حرس جمهوري، ولواء مغاوير الفيلق الرابع، واللواء المشاة ٩٤، واللواء الآلي ٢٤ ، واللواءين المدرعين السبعين والثمانين، إضافة إلى وحدات وتشكيلات كثيرة أخرى.

لقد جاء في البيان العراقي الذي يتحدث عن عمليات مهران بأن القوات العراقية قد قامت بانسحاب من مدينة مهران، وذلك لتلافي المزيد من الخسائر ، ولا نعلم ماهية تلك الخسائر شيئاً ، وإذا كانت تلك الخسائر لا يمكن تحملها ، إذن فلماذا قامت القوات العراقية بإعادة احتلال مهران بعد أن أُخرجت منها؟ وإذا كانت إدارة المعركة ناجحة والهدف يستحق كل هذا الاهتمام فما أهمية الخسائر؟ وهل أن المعارك تربح عادةً بدون خسائر ؟ فأي منطق هذا الذي يتحدثون به ، وهل أن المرحوم محمد العاكول[1] ترك فيكم كل هذا الأثر الذي لا يمكن أن يمحى؟ لماذا لا تقولون الحقيقة كما هي وفاءً للدماء التي سالت في مهران وشعابها وجبالها في سبيلكم ومن أجلكم؟.. لم تكن مهران وحدها هي التي استعيدت، بل ان القوات الإيرانية قد تقدمت في عمق المواضع العراقية، واحتلت مرتفعات تلويزان الاستراتيجية المشرفة على سهل بدرة حتى زرباطية ـ بعد أن كانت القوات العراقية تحتلها ـ ، كما وأن طريق مندلي ـ بدره ـ الشيب الاستراتيجي الذي يمتد جنوباً بموازاة الحدود، مشكلاً خط المواصلات الرئيسي الذي يربط قاطع الفيلق

---

(١) محمد العاكول ـ مصطلح يستخدمه الضباط وضباط الصف عندما تظهر بوادر ضعف الأداء والانضباط على وحداتهم.

الثاني بقاطع الفيلق السادس في محافظة ميشان (العمارة)، وحتى هور العظيم الواقع شمال هور الحويزة،حتى مدينتي المشرح والكحلاء هو الآخر قد أصبح تحت سيطرة القوات الإيرانية . فمن أين نأتي بالانتصارات والنجاحات كي نرفع معنويات القوات العاملة على الجبهة منذ ما يزيد على السبع سنوات؟، وإذا لم يكن في اليد حيلة فما الذي نستطيع عمله، (وعلى الآمرين وضباط التوجيه السياسي البحث عن هذه الانتصارات والتثقيف عليها لتعزيز الثقة بالنفس، وإن البحث عن هذه الانتصارات لا يعني خلق انتصارات وهمية)[1]؟ نعم إذا لم يكن من يد، فإننا يجب أن نبحث عنها بين هذا الركام الهائل من الهزائم والانكسارات على امتداد سني الحرب العجاف ، وإذا لم نعثر بعد البحث المضني عن الانتصارات فلن يبقى لنا خيار سوى أن نخلقها في خيالنا ، وهذا هو كل ما تبقى لدى المتسلطين .

ـ لم يفت القيادة العراقية أن تدرك بعمق، بأن النصر لم يعد له وجودٌ في حقيقة الأمر بعد أن تبخرت كل الأحلام ، وانقلب السحر على الساحر ـ أو السحرة ـ فالحديث عن الانتصارات لم يعد يثير انتباه أحد ، بل إنه أخذ يثير الاشمئزاز في نفوس المقاتلين والقادة والآمرين على حد سواء ، وإذا كان الأمر هكذا فلنغير دقة الإعلام إلى ما تبقى من النصر عالقاً في الأذهان ، إذا كان ما تبقى منه يستحق الحديث ، وتفتق عقل القيادة مرة أخرى عن ابتكار غريب عجيب ـ تجد نفسها مضطرة بين فترة وأخرى إلى اختراع واحد جديد آخر ـ ، فإذا لم يبقَ من النصر شيء فلا بد أن بقايا روحه لم تزل ترفرف على ساحة المعركة وأجوائها ، فبدلاً من الحديث عن النصر جسماً وروحاً ، فقد تمّ تفكيكه إلى روح وجسد ، أما الجسد فقد خمدت أنفاسه، وأما روحه فتعتقد القيادة بأنها لم تزل موجودة ، أو قل إن الرمق الأخير ما زال حاضراً ، فلنتحدث عنه ؛ فالحديث عن روح النصر لا يعني الحديث عن النصر نفسه ، فالفرق بينهما كبير ، فعندما يموت الإنسان تخرج روحه من جسمه،ولكنها لا تذهب بعيدة عنه، بل تظل ترفرف حوله ، وبعد أن تمّ دفن النصر نهائياً وبدون رجعة ، فإننا يمكن على الأقل أن نتحدث عن روح المسكين الذي ذرفنا عليه دموعاً ساخنة ، وفي الواقع ان القيادة العسكرية العراقية لا تستطيع أن تسكت عن الحديث حول النصر والمنجزات الباهرة و. . و. . ، وبعد أن أصبح الأمر جلياً وواضحاً وان حملات الدعاية المركزة لم تعد قادرة على اخفاء الحقائق ، فإن القيادة نفسها، والتي لا تزال تعيش عقده الهزائم لم تجد بداً إلاّ الحديث عن روح النصر ، وما

---

(١) جريدة الثورة العربية ـ الجريدة الداخلية للحزب الحاكم العدد ٦ سنة ١٩٨٥ ص ٣١.

بين النصر وروح النصر وما بين الهزيمة والهزيمة يصر بؤساء الحظ في القيادة العراقية على أن الروح المعنوية للمقاتلين ترتفع ارتفاعاً كبيراً ، وان بارومتر مقياس الروح المعنوية يكاد ينفجر من شدة اندفاع السائل إلى الأعلى، ولله في خلقه شؤون .

ـ إن المأساة الحقيقية هي إصرار القيادة العسكرية العراقية على عزف نفس المعزوفة التي كلفت القوات المسلحة العراقية الكثير . . الكثير . . فإصرار القائد العام للقوات المسلحة على إبقاء حربه تحت الرمز المشؤوم (قادسية صدام)، يعتبر مخالفاً لكل الأسس والأعراف العسكرية المعروفة ، فإذا كانت كل هذه الهزائم مرتبطة بصورة مباشرة باسم القادسية ، فما الذي يدفع القيادة العراقية على الإصرار بإبقاء الحرب تحت عنوان ومظلة القادسية ، أيها السادة لم يستطع القاع قاع[1] الجديد أن يصل إلى قم وطهران فيحطم معابد النار على رؤوس الفرس المجوس!! ولم يفلح بإعادتهم إلى الإسلام الذي دخلوه قبل ١٤٠٠ سنة من الآن ، بل ارتد إلى جحره خائر القوى حائراً منهوكاً، يندب حظه ، بعد أن اتضح للمقاتلين في القوات المسلحة العراقية بأن الإيرانيين ليس مجوساً بل هم مسلمون رغم كل الشكوك التي أثيرت حول ذلك ، أصبح كل ذي بصيرة يدرك « أن هذا العنوان ليس ملائماً لإدامة الحرب ، وإن اللافتة الموضوعة على دكانها لا تطابق محتوياته من البضائع والسلع والأفكار والأهداف ، (إن التعرض للهزيمة خلال أربعة أيام أو خمسة أيام أو أكثر من ذلك أمر قاس وقاسٍ جداً بالنسبة إلى الرجال ، لذا ولكي يكون المرء مطاعاً ، فإن عليه أن يجد معزوفة جديدة ، لحناً جديداً أمام القطعات ، لأن اللحن الذي عزفه في اليوم الماضي قد استهلك بالنسبة إليها ، ولم تعد تتأثر به ، وهي تقول عنه « بسبب هذا اللحن تعرضنا للهزيمة . إننا لن نتابع بعد الآن » . ولكن من الضروري أن تتابع القطعات عملها وإلاّ ضاع كل شيء) ، فمعركة تمتد إلى بضعة أيام تنتهي إلى الهزيمة تقتضي تبديل اللحن ، فكيف والمقاتلون العراقيون لا زالوا ومنذ سبعة أعوام يسمعون نفس المعزوفة وبنفس اللحن . . . وما دام استقراء فكر القائد العام للقوات المسلحة يمكن إدراكه بسهولة ، وعليه فإنه لن يبدل عنوان اللافتة ، وسيظل اللحن نفسه يعزف مكرراً نفسه ، وسوف لن يفيد جموع المقاتلين تلك القصائد السمجة الخالية من السمو«وهؤلاء الشعراء الذين يحشدهم صدام من كل شوارع المدن العراقية وقذاراتها في قاعة الخلد ، يتلذذ بقصائدهم التي تمجده بسماجه ، ويعد كل هزيمة من الهزائم ، ولن ينفعهم أيضاً تلك المئات من الأناشيد التي تصفع آذان المقاتلين وتمزق أرواحهم تتحدث

(١) كناية بقعقاع القادسية الجديدة صدام حسين أو . . . عدنان خير الله ابن خاله ونائبه في قيادة الجيش!!.

عن القائد والنصر ، لن ينفعهم ذلك أبداً ، وإلى أن يتحطم كل شيء ، فإنهم سوف يظلون يعانون من سياط الكذب والدجل التي تمزق أرواحهم وتحطم وجدانهم .

حرب المدن :

ـ اعتقدت القيادة العراقية بأنها تملك ورقة رابحة في هذه الحرب، وربما كانت الورقة الوحيدة في هذا المجال ، وهي عملية قصف المدن الإيرانية بالطائرات والصواريخ ، وهنا وقعت مصرّة بنفس الأخطاء التي مارستها في إدارة الحرب ـ فالقصف الجوي خاصة ، يجب أن يرتبط بهدف العمليات الأساس في ساحة الحرب ، أي انه يجب أن يتناسق مع العمليات الجارية في ساحة الحرب باتجاه تحقيق نصر حاسم على العدو ، وهذا مظهر من مظاهر الحروب التي انتهت بنصر حاسم لأحد المتخاصمين فيها ، وفي الوقت الذي كان فيه القصف الجوي يشكل عملية تدمير لأهداف لا ترتبط بصورة مباشرة بالعمليات الجارية في ساحة الحرب ، فإنها لم تكن ذات تأثير كبير على النتائج التي انتهت إليها ، فالقصف الجوي الاستراتيجي الذي قامت به القوات الجوية للحلفاء ، الأميركان والانجليز ، على ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية ، والذي قسم إلى خمسة أنواع وهي القصف العسكري ، والذي يعني القصف الذي تقدمه القوة الجوية للقطعات الأرضية المتقدمة ، والصناعي والذي يعني قصف المنشآءات الصناعية ذات العلاقة بالمجهود الحربي ، والحضري (ضرب المدن) الذي لا يمكن أن يؤدي إلى نتائج مؤثرة في مجرى الحرب ، قصف منابع الطاقة ، وقصف وسائط النقل ، كان يرتبط بالأساس في عملية تقدم قوات الحلفاء إلى قلب ألمانيا ، واشتد هذا القصف بعد الانزال في نورماندي في مطلع عام ١٩٤٤ ، وأخذ يشتد ويتركز على أهداف استراتيجية هامة لها علاقة مشتركة بالعمليات الجارية على ساحات الحرب في أوروبا ، بينما لم يكن القصف الجوي الأميركي لفيتنام ذا جدوى ، بسبب عدم تلاثمه مع ما يجري في ساحة العمليات نفسها ، لأن الجيش الأميركي لم يكن يريد أن يحقق انتصاراً على فيتنام الشمالية ، حيث ظلت عملياته محصورة في المحافظة على النظام العميل في فيتنام الجنوبية ، ومقاتلة الثوار الفيتناميين ، وغلق طرق التسلل من وإلى فيتنام الجنوبية القادمة من فيتنام الشمالية ولاووس ، هذه الحرب لم تنته أبداً لصالح الأميركان وحلفائهم ، بسبب وجود فيتنام الشمالية التي لم تكن تبدي أي ضعف أو تنازل اتجاه القصف الأميركي المتواصل عليها ، (ترتبط كل الهجمات على القواعد وخطوط المواصلات بالمعركة الرئيسية ، ومن غير المنطقي الادعاء بأن الهجوم الجوي سينهي الحرب لوحده ، وهناك احتمال ضعيف في أن يضطر الفزع الذي يسببه الهجوم الجوي في صفوف السكان المدنيين حكومة

أمة كبرى إلى الاستسلام)[1] . ولقد ثبت عملياً بأن القصف الجوي لم يكن ليضع عراقيل هامة جداً أمام الخصم للتأثير على استعداده للحرب، أو تحطيم إرادته على القتال ، بل إنه يحثه بدافع تأثير الإحساس بمخاطر إضافية إلى زيادة مجهوده الحربي ، ففي إحدى الهجمات قامت (١٠٠٠) قاصفة ثقيلة وبمهمة واحدة بضرب مدينة كولون الألمانية مثلاً ، ولقد استخدمت في قصف ألمانيا ما يقرب من ١,٦٠٠,٠٠٠ طن من المواد المتفجرة وهذا الرقم لا يشمل القصف الموجه ضد القطعات في ساحة العمليات الذي بلغ حوالي ثلث هذا الرقم ، كما أن ٦١ مدينة ألمانية كانت قد تعرضت إلى قصف القاذفات، أثناء الفترة من أكتوبر ١٩٣٩ إلى أيار ١٩٤٥، والتي صبت عليها ما يقرب من نصف مليون طن من القنابل المتفجرة والحارقة ، وكان تعداد سكان هذه المدن ٢٥ مليون نسمة، تم تشريد حوالي سبعة ملايين ونصف منهم عن مساكنهم ،كما قتل حوالي ٣٠٠,٠٠٠ شخص تقريباً وجرح حوالي ٧٨٠,٠٠٠ شخص ، وقد قدر أن نسبة ٦٠ ـ ٧٠٪ من مدينة برلين قد دمر[2]، لكن هتلر لم يسقط إلاّ بعد أن أطبقت الكماشة عليه من الشرق والجنوب ، ودخلت عليه القوات الروسية إلى مقره ، فهل أن القيادة العراقية قادرة أصلاً أن تؤمن كل هذا المجهود الجوي ،وتقوم بنقل نسبة ١٪ من ما نقلته القوات الجوية للحلفاء إلى سماء إيران لتنجز المهام التي تتوعد بها ، كم تحتاج من الطائرات والوقت لأن تصل إلى هذا الجزء من المجهود الذي أنجزته القوات الحليفة ضد ألمانيا؟، وهل أنها قادرة على ربط قصفها الجوي والصاروخي بجهدها في ساحة العمليات ، هذا ما لم يكن التأكد من تحقيقه في أي حال من الأحوال ، ويظل القصف الجوي والصاروخي العراقي في حقيقته هو عملية قتل أكبر قدر من المواطنين الإيرانيين ،وهذا أمر لا يمكن أن يؤدي إلى إيقاف الحرب ، بل ربما يؤجج نارها ويتسع لهيبها ، لأن ما من شعب قادر ـ حتى لو أراد ذلك فعلاً ـ أن يجد دولته على إيقاف الحرب مطلقاً استجابة لرغبته في إيقافها ، هذا بالإضافة إلى أن إيران لم تتأثر كثيراً بالنسبة لمجهودها الحربي خلال عمليات القصف الجوي الذي امتد إلى أكثر من ثلاث سنوات ، ولا تزال مؤسساتها الرئيسية والهامة، ومواردها التي تؤمن لها تهيئة ما تتطلبه الحرب، قائمة على الرغم من إصابتها ببعض النقص في وتائر الانتاج ، كما أن مصادر الطاقة لم يحدث عليها تبدل محسوس يترك آثاره على حركة

---

(١) ونستون تشرشل من كتاب إدارة الحرب ـ الجنرال فوللر ص ٤٤٢ .

(٢) إدارة الحرب ، الجنرال فوللر ص ٤٤٦ .

(٣) الأسلحة والتكتيكات وتترنغهام ـ سنل ص ٢٣٧ .

العمل وعجلة الانتاج لدى الدولة ونشاطاتها الصناعية وغيرها ، وربما شهدت إيران في فترات اشتداد القصف الجوي والصاروخي ، أو ما يسمى (بحرب المدن) تصاعداً في وتائر الانتاج في جوانب مهمة فرضتها الحاجة لايجاد وسائل أكبر للرد على القصف العراقي ، كصناعة الصواريخ أرض/ أرض ،وصواريخ مقاومة الدبابات والطائرات التي بدأت تشهد تطوراً ملحوظاً ، لقد كانت الصواريخ التي استخدمتها ألمانيا ، والتي سميت بالقنبلة الطائرة من نوع ف٢ ، والتي كانت تطلق من منصات منصوبة في أوروبا بمواجهة الساحل الإنكليزي على لندن وشرق إنكلترا ، أكثر تأثيراً وأشد تدميراً من الصواريخ التي يستخدمها العراق بعشرات المرات ، وقد قدر العدد الذي أسقط على لندن بحوالي (١٠٠٠) صاروخ خلال حوالي الستة أشهر التي سبقت الانزال في نورماندي ، ولم يقتل أو يجرح أكثر من ٩٠٠٠ مدني ، وإذا علمنا بأن هذا الصاروخ يحمل رأساً حربياً يحتوي على (١٠٠٠) كيلوغرام من المواد المتفجرة ، فإن ما أسقط على لندن وجنوب شرقي انكلترا ما يصل إلى ٥٠ قنبلة ذرية ، كالتي القيت فوق هيروشيما ، إلاَّ أن القادة الانكليز لم يزدهم هذا القصف إلاَّ عزماً وتصميماً على مقاومة عدوهم ،والتصميم على تدميره ، والقضاء عليه بصورة تامة ، وانتزاع النصر منه بدون قيد أو شرط ، وهذا ما حصلوا عليه فعلاً ، أما فيما يتعلق بالحرب العراقية ـ الإيرانية ، فإن الحرب حتى لو أنها توقفت ـ وهذا ما حصل بعد الانتهاء من تأليف هذا الكتاب ـ فإن العراق سوف لن يكون قد حقق بتوقفها هدفاً ، فإذا كان الهدف من عمليات القصف الجوي والصاروخي هو إيقاف الحرب فقط ، فلماذا بدأت إذن؟ إن إيقاف الحرب بهذه الصورة سوف لن ينجم عنه سوى حرب أخرى ، ربما تكون أكثر خطورة من الحرب الآن ، لأن مواثيقها التي تثبت حالة إيقافها أو صلحها ـ إن حدث ذلك ـ ستكون عرضة للانتهاك بسبب عدم استنادها على أسس من العدالة الذي يجب أن يقنع به طرفي النـزاع لا جانب واحد منه ، إلاَّ أن القيادة العراقية وبعد أن أصبحت عاجزة عن الحصول على أي نصر في هذه الحرب ، فإنها أصبحت لا تريد أكثر من إيقافها لغرض الحصول على فرصة أكثر ملائمة لنجاتها ، أو الاستعداد للحرب مرة أخرى ، وهي حالة سوف تنشر عدم الثقة والقلق المستمر ، وفقدان الأمن في المنطقة كلها .

ـ من جانب آخر فإن إيران كما يبدو لحد الآن ليست عاجزة عن الرد بالمثل وقد تكون النتائج الذي يحدثها الرد الإيراني ، ليست أقل من نتائج القصف العراقي ، إذا لم توازه في الثقل والتأثير ، إذ لم تقتصر الضربات الصاروخية والهجمات الجوية الإيرانية المقابلة على مدينة بغداد وحدها ، بل تعدتها إلى المدن العراقية المهمة الأخرى كالموصل

وتكريت ويعقوبة والكوت والعمارة، إضافة إلى البصرة وبقية المدن الحدودية التي ظلّت عرضة لهجمات المدفعية الإيرانية البعيدة المدى، وهجمات الصواريخ ذات المديات المتوسطة ، كما أن منشآءات مهمة كمصفى الدورة ومناطق استخراج النفط في البصرة وكركوك قد تعرضت إلى هجمات جوية وصاروخية متكررة ، ومن المتوقع أن تتعرض لذلك مرة أخرى ، إضافة إلى أن أعداداً كبيرة من المواطنين قد تركوا مدنهم وهاجروا إلى مناطق أخرى وعددهم لا يقل عن مليوني شخص وقد يكون أكبر من ذلك بكثير إذا أخذنا بنظر الاعتبار بأن مدينة البصرة لوحدها تضم حوالي المليوني مواطن ، وإذا كان القصد من القصف العراقي هو إيجاد حالة من التذمر وخلخلة في الجبهة الداخلية لإيران ، فلماذا لا يفترض العكس من ذلك ، حيث أن الظروف داخل العراق تشهد اضطراباً خطيراً ، والإرهاب يشمل كل نواحي حياة العراق، حيث يجمع المراقبون على أن النظام العراقي عاش أثناء الحرب وضعاً داخلياً، لم يسبق أن مرَّ فيه طيلة حياته كلها ، فكردستان شهدت وضعاً شاذاً حيث يشن النظام حرب إبادة منظمة ضد الشعب الكردي مستخدماً فيها كل الأسلحة المتيسرة لديه ، ومن ضمنها الأسلحة الكيمياوية ، كما شهدت مدن الجنوب والوسط وضعاً متوتراً هي الأخرى أيضاً . . . إضافة إلى ضعف الروح المعنوية للقوات المسلحة العراقية ، وإذا كان النظام العراقي يعتقد بأن الإرهاب الشديد الذي يسلطه على الشعب العراقي وقواته المسلحة يمنع حدوث أي تحرك معادٍ داخلي ضده، فهل يعتقد بأن الديموقراطية المتاحة للشعب الإيراني تشجعه للتحرك ضد حكومته؟ . . . . .



خاتمة الكتاب

عانى العراقيون منذ أن سقطت حكومة الإمام علي عليه السلام من ضغوط كثيرة متواصلة، كانت تفرض عليهم من قبل الحكام الذين تعاقبوا على إدارة العراق، سواء عندما كان ولاية تابعة للحكم الأموي، أو عندما كان مركزاً للدولة العباسية ، ولقد كان الهدف من كل أساليب الإرهاب والترغيب ـ التي وضع أسسها معاوية بن أبي سفيان ـ والتي اتبعت منذ ذلك الحين وإلى اليوم ، تهدف إلى جعل الشعب العراقي أداة طيعة فاقدة لوعيها وحسّها الثوري ، يتمكن المتسلطون من إدارته بالاتجاه الذين يرغبون إليه هم ، لا ما ترغب جماهير الشعب أن تجد نفسها فيه ، وقد أفلح هؤلاء في المسك بزمام السلطة وإحكام قبضتهم عليها لمدة طويلة ، إلاّ أنهم في حقيقة الأمر لم يشعروا أبداً بالراحة والاطمئنان لما هم فيه ، ولقد تخللت حياة العراق أحداث عنيفة، وهزات قوية كان سببها الأساسي والمباشر شيوع حالة من الانفصام بين جماهير الشعب وحكامه ، وشعور السواد الأعظم من الشعب بأنه يعيش تحت ظل حالة من فقدان العدالة الاجتماعية تشمل كل حياته ، وتفرقة وتمييز طائفي وعنصري بغيضين، كانا يفعلان فعلهما دوماً باتجاه بقاء قطاعات أساسية منه بعيدة عن المبادرة والتفاعل الجدي الواعي مع نشاطات الدولة وفعالياتها ، مما يظل دوماً يحدث حالة من الخلل النفسي وفقدان الثقة بين أوساط الشعب ، ظلّت تترسب في لا وعيه إثر تراكمات خلقتها الأحداث الجسيمة في فكرة، ظلّت تشده دوماً إلى حالة من السلبية وعدم المبالاة ، كانت تتحول في أحيان كثيرة إلى ردود متفاوتة الحدة والدرجة تنتهي إلى أعمال مقاومة ورفض لحالة البؤس والغبن والإجحاف التي يعيشها ، كانت تفشل في غالب الأحيان وتوفق في أحيان أخرى ، إلاّ أن تلك الحركة في الواقع كانت تشكل عاملاً حاسماً من عوامل سقوط الدول والأنظمة التي كانت تشد على خناقه، وتجعل حياته جحيماً لا يمكن أن يطاق ، وحالة الإرهاب التي تشمل كل حياة العراق

اليوم، وترسم فوق سمائه سحابة من الحزن والألم والدموع، التي توسل بها النظام القائم الآن في العراق لدفع الشعب كله إلى محرقته، هذه الحالة ليست جديدة على العراق الذي تعود عليها ومرّ بها كثيراً، وهذه ستمر حتماً، وبما لا شك فيه كما مرّت الموجات الإرهابية والبربرية عليه، وسيخرج منها سالماً ـ وربما أكثر قوة، بعد أن يكون أعداؤه قد لفظهم التاريخ، حيث يمكن أن يواصل مسيرة الحياة المتجددة التي لا يمكن أن تتوقف، وكما يرغب أن يراها أعداؤه من الطغاة الذين يضعون أمامها مختلف العراقيل لإيقافها، فالشعوب ـ وإرادتها من إرادة الله ـ هي الأقوى والأبقى...

ـ يحدد كونفوشيوس فيلسوف الصين (٥٥١ ق.م.) في كتابه الموسوم بالأغاني مهام أي حكومة معروفة في العالم في تحقيق ثلاثة أمور: (أن يكون لدى الناس كفايتهم من الطعام، وكفايتهم من العتاد الحربي، والثقة بحكامهم)[1]، وعندما يسأل كوفنوشيوس نفسه عن الشيء الأول الذي يمكن أن يستغني عنه من الأمور الثلاثة، عندما نجد أنفسنا مرغمين على ذلك، فيقول: إن الأمر الأول الذي يمكن التخلي عنه أولاً هو العتاد الحربي، وعندما يسأل عن ثاني الأمرين الذي يمكن التخلي عنه أولاً، فيجب قائلاً (فلنتخلَّ عن الطعام، ذلك أن الموت منذ الأزل قضاء محتوم على البشر، أما إذا لم يكن للناس من ثقة بحكامهم فلا بقاء للدولة)[2]، وما تستند عليه الثقة بالحكومة هو اعتماد على مبدأ العدالة والتعامل على أساسهِ في كل نشاطها، ولقد كان الهدف الأساسي لكل الحاكمين الذين خلدهم التاريخ خلوداً حقيقياً متنزهاً عن الأهواء الشخصية، خلوداً يتوافق ويتناسق مع الإرادة الإنسانية، ونزوعها الدائم إلى التكامل الحق للقيم الإنسانية ونبلها، كان هدف هؤلاء هو السير على نهج العدالة ونشره في إدارتهم للدولة وتسيير أمورها، ولقد كان الإمام علي عليه السلام واحداً من أبرز أولئك الذين وضعوا العدالة نصب أعينهم دوماً، ولم يحيدوا عنه أبداً، يقول عبدالله بن العباس: دخلت على أمير المؤمنين (ع) بذي قار، وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها، فقال (ع): والله لهي أحب إليّ من إمرتكم، إلّا أن أُقيم حقاً أو أدفع باطلاً[3]، فالحكم ليس غاية، وإنما وسيلة لتحقيق أهداف نبيلة، وقيم تحيي المجتمع، وتغرس في نفوس أبنائه كل معاني النبل والشرف، ولو أن هدف الإمام علي من

---

(١) تراث الفكر السياسي قبل الأمير وبعده ـ تعقيب لفاروق سعد ـ كتاب الأمير ص ٢١٦ لمكافيلي.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) نهج البلاغة ـ السيد الشريف الرضي خطبة ٣٣.

توليه الخلافة هو إقامة الحق والعدل فإن الإمارة لا تساوي بنظره ما يساويه نعله القديم الممزق ، والاسكندر المقدوني ـ الملقب ذو القرنين أو الفاتح ـ والذي استطاع بعد انتصاره على الفرس عام ٤٧٩ ق.م. أن يحكم كل العالم القديم تقريباً ، كان يملك من الصفات الشخصية ما يقربه من الأنبياء ، فقد كان هدفه الذي وهب نفسه له هو أن يصنع حضارة جديدة تتشكل من تمازج الحضارات التي كانت تسود العالم في ذلك الحين، كي تناسب كل شعوب الأرض، حيث تستطيع بواسطتها أن يوجد نظاماً جديداً تسير على هديه حكومة تسير شؤون العالم كله على أسس من العدالة ترضي كل الشعوب التي خضعت لسيطرته ، وبذا اعتبر من أكبر المصلحين في التاريخ على الرغم من أنه كان يحمل سيفه بيده، ويقود جيشاً كان يجتاح العالم به ويفتحه ويخضعه قسراً ، إلاّ أنه وضع العدالة نصب أعينه مبتعداً عن إصابة حضارات الشعوب التي كان يخضعها بأي دمار ، هذا كان خط سير رجال خلدهم التاريخ بحق ، إلاّ أن معظم الحكام وعلى امتداد التاريخ الطويل كانوا يسلكون سلوكاً مغايراً تماماً لتلك القيم والمفاهيم ، وهو اتجاه في الحكم ظل يسيّر سياسة أنظمة كثير من الدول والحكومات اعتماداً على مبدأ الغاية تبرر الواسطة الذي دعا إليه ميكافيلي ، حيث كان كتابه الأمير الذي مثل خلاصة فلسفته تلك ، لا يغفل أهمية السير على هذا النهج المنافي للنزوع الإنساني ، وهذا الاتجاه ـ وهو الغالب في الحكم ـ لا يضع مشاعر الشعب قيمة وأهمية أولية لسلوك الحاكم ، فإذا ارتأى الحاكم بأن احتفاظه بالحكم والسلطة لا يلبي رغبات الشعب، أو يشعره بالرضى والقناعة ، فإنه يستطيع أن لا يلتفت لهذا الأمر كثيراً ، لأن «الرعاع» وهي التسمية التي أطلقها ميكافيلي على الشعب، لا يمكن أن يكونْ لهم قيمة وأثر تجاه الوسائل التي يمتلكها الحاكم لإجبار الشعب على قبول وجوده أميراً على رأس السلطة ، وإذا كان ساخطاً اليوم، فإن ما يتيسر من الوسائل الكفيلة ـ يجب تيسرها ـ يجعله يفضل سلامته خوفاً ورعباً ، وعندما نريد أن نجده على ذلك فعلينا أن نفعل ذلك دفعة واحدة ، أي انه يجب أن نجعله يحس بثقل الآثار التي تترتب على رفضه لوجود الحاكم دفعة واحدة، وبشدة لا تضطرنا لأن نواصل أعمال البطش والإرهاب بصورة متواصلة ، هذا النوع من التعامل الانتهازي هو الذي نراه اليوم يطبع نشاطات ومواقف حكومات الدول الكبرى منها والصغيرة ، السادة الكبار أو العملاء الصغار ، فصديق اليوم هو عدو الغد ، وعدو اليوم هو صديق الغد لا فرق في ذلك مطلقاً، فالمصلحة والمنفعة الشخصية هي الأساس في العلاقات التي تحكم العالم ، ولا يوجد لما يسمى بالمنافع المتبادلة أي أثر حقيقي في السياسة الدولية هذا اليوم ، فالمعنى الذي تحمله هو إذا لم تكن تستطيع أن تأكل اللقمة كلها ـ أو الفريسة ـ فاعطِ جزءاً منها للكلب الذي يتحفز أمامك ، أما إذا كانت لديك وسائلك الكافية لردعه ، فكلها لوحدك ، وهو

لم يقتصر بالطبع على نطاق السياسة الدولية والعلاقات بين الدول ، بل إن هذا المبدأ يحكم أيضاً علاقات الحكام مع شعوبهم ،ولا فرق بينهم جميعاً إلاّ نادراً .

ـ مشكلة العراق الحقيقية هي أن حاكمه اليوم لا يضع في اعتباره أي شيء سوى البقاء على رأس السلطة، حتى ولو ظل وحده جالساً على كرسي العرش دون حاضرين أو مصفقين ، مرتباً الأمور بالاتجاه الذي يخدم هذا الهدف، دون الأخذ بنظر الاعتبار لكل الأعراف والقوانين التي تعارف عليها العالم قاطبة ، ففي نظره أن كل شيء وإجراء يمكن أن يؤدي إلى استمراره وطغمته في الإمساك بمقاليد السلطة،ويدعم وجوده لا يجب أن تثار عليه أية شبهة أو شكوك ، وإن على الآخرين أن يعتبروا ما يجري ترتيبه أمراً لا يقبل المناقشة مطلقاً ، مهما كان ذلك مخالفاً لقناعاتهم ، ويحس ـ هذا الحاكم ـ بأن ما يقدم عليه فعلاً يشكل إلى حد ما تناقضاً مع رغبات الشعب والقوات المسلحة،لأن ما يقوم به من الأعمال المنافية للأصول والأعراف لا يحتاج إلى كثير من الجهد للوقوف على مدى تعارضه مع الإرادة العامة للشعب ، فهل يعقل شعب بأكمله أن يمنح صدام زوج ابنته حسين كامل ، وهو أحد أفراد حمايته الخاصة ، رتبة فريق وصلاحية وزير ، وتوضع تحت إدارته ثلاث وزارات دفعة واحدة ، وهذا المثال غيض من فيض من التجاوزات التي يرتكبها حاكم العراق وكأنه لا يرى في المرآة إلاّ نفسه ـ وهذا هو الواقع ـ كما أن مجيئه إلى السلطة بأساليب لا تمت إلى الشرعية بصلة، إضافة إلى الشكوك التي لفّت مجيئه إلى السلطة بانقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ ، واحتكاره للسلطة ومركز القرار الرئيسي بصورة تامة ، جعل وجود السلطة كله ، منذ اليوم الأول لنجاح المؤآمرة إلى اليوم ، تحت ظل التساؤل المستمر بعدم شرعيتها في الحكم ، لم يقتصر تسلط الحاكم في العراق على كل شيء خلال نشوب الحرب لما تفرضه من اجراءات خاصة بها ، بل بكل ما يتعلق بمسيرة الدولة ونشاطها قبل وخلال الحرب، وحرمان الشعب كله ـ ومن ضمنهم بطانته ـ من أي نوع من أنواع الممارسة الديموقراطية وإبداء الرأي ، لأنه يدرك بأن ممارسات من هذا النوع ـ ومهما تكن محدودة ـ فإنها ستكون في غير صالحه في كل الأحوال ، لأنه تعود أن يسوس النار بالحديد والنار ، بالقتل والإرهاب ، إضافة إلى بذله الأموال الكبيرة في شراء الذمم، وتفننه في هذا الأمر إلى الدرجة التي لم يفوقه بها أحد من الحكام من قبل ، مما أحدث في الحقيقة حالة تشبه الذهول مشوبة بالقلق والخوف الدائم من المستقبل لدى الشعب،ومن ثم القوات المسلحة التي لم ترَ في ماضيه من الاستقامة والسمو ما يساهم في التأثير على هذا الوضع والتخفيف من حدته . مما أدى في النتيجة إلى حدوث انهيارات كبيرة في القوى المعنوية لدى القوات المسلحة، أما ما أمكن كسبه من نجاحات محدودة

في الحرب، فهي ناجمة عن اتجاهين لا يحملان معهما أية أصالة في حقيقة الأمر، أولهما أن القوات المسلحة قد تستطيع في بعض الأحيان حتى في الحالات التي تجد نفسها منهكة أن تنجز بعض الواجبات تحت ظل التهديد والإرهاب، الذي يولد لديها ضبطاً من نوع خاص يساعدها على انجاز ذلك، والعامل الثاني هو ظروف الحرب العامة وما يمكن أن تتيحه من فرص ملائمة لكسب إنجاز وتحقيق نجاح محدود، إلاّ أنه من المشكوك فيه أن القوات المسلحة العراقية قادرة أن تستمر إلى ما لا نهاية له في الانجاز تحت ظل هذه الظروف، خاصة عند تعرضها إلى ضغط شديد تفرضه ظروف المعركة، كما حدث مرات عديدة وكثيرة خلال الحرب القائمة الآن، وكسب نصرما، لا يعني إمكانية إدامة الاستمرار في الحصول عليه مطلقاً، فلقد كانت القوات العراقية خلال الأشهر الأولى للحرب منتصرة ـ وهذا أمر لا شك فيه ـ ولكنها بدأت تنهزم بصورة مستمرة، وفي كل المعارك، والتي تتوجت في انسحابها في شهر حزيران عام ١٩٨٢ من الأراضي الإيرانية، بل إن المعارك التي تلت هذا التاريخ كلها قد انتهت إلى نتائج مماثلة، وحدوث حالة استثنائية ما لا يعني على الاطلاق أنها قادرة على مواصلتها أو الاستمرار فيها، إن الهزائم الكبيرة والكثيرة لا تترك في الذهن والمخيلة سوى ذكريات الخوف والضعف والخور النفسي، لأن سلسلة الهزائم والخسائر الكبيرة لا ينمحي أثرها في انتصار واحد مشكوك باستقراره وقيمته، واعداد له، وإمكانية الاستمرار في الحصول على غيره، على الرغم من محفزات التشجيع التي يمكن أن يغرسها في النفس، لأن العقبة التالية سوف تكون امتحاناً جدياً للهزيمة أو الانتصار الذي سبقه، والحرب لا يمكن الوثوق بنتائجها مطلقاً خاصة لدى الطرف الذي ظلت تترسخ في ذهنه الهزيمة خلال مدة الحرب الطويلة التي انقضت لحد الآن، فالروح المعنوية هي نسيج، عملت على تركيبه عوامل تاريخية واجتماعية ودينية وفكرية، سبقت الوقت الراهن بمراحل كبيرة، إضافة إلى أن ما يحكم بناءها ونسيجها في الوقت الحاضر يشكل دعامة هامة منه، وهذه الدعامة في حقيقتها هشه مهترئة لا يمكن أن تواجه الشدائد، ولقد اختبرت فعلاً مقاومتها أمامها، فكانت تتهشم وتطحن بسرعة حيث تظهر عارية تماماً، والحقيقة عندما تظهر لا تخجل أن تظهر كلها مرة واحدة ولطالما فعلت ذلك، ولقد أثبتت معارك مهران ذلك بصورة جلية، وسوف تظل حقيقة تقييم الأمور تسير على نفس القاعدة دوماً ومطلقاً دون استثناء، ويجب أن لا نخضع تقديراتنا لعواطفنا مطلقاً، فالذي حدث طيلة الحرب هو القاعدة التي تحدثنا عنها، والتي سوف تظل تحكم الموقف بصورة كاملة، إن الحقيقة التي يدركها كل المحللين العسكريين هي أن العراق يعاني من ضعف الروح المعنوية لقواته المسلحة، وهو

عندما يعمل في ساحة الحرب فإنه يستخدم كل ما يتيسر لديه من قوى وإمكانيات، ولحدها الأقصى .

ـ تحتاج أي أمة أو شعب إلى قائد يمثل وجوده بالنسبة إليها كل طموحاتها وآمالها ، تلتف حوله وتدعمه وتلبي رغباته بكل طواعيه وثقة واطمئنان ، تكون مختارة طريقها هذا الذي يجب أن ترتضيه هي بنفسها دون إكراه وإجبار ، وليس من الصعب الوقوف على رأي شعب من الشعوب، وهذا القائد يجب أن يحوز هو الآخر على مساندتها له وكسبه لدعمها، بناءً على ما يملكه من مؤهلات وصفات تحبها جماهير الشعب وتجد نفسها منقادة إليها ، وأهم تلك الصفات ، الاستقامة ، النبل ، الشهامة ، الماضي المليء بالمآثر ، مظهراً حرصه على ترسيخها في ذهن وعقل الشعب في كل مناسبة ، وهي تتبع ذلك وتتحدث عنه ـ جماهير الشعب ـ علانية ـ إن كانت قادرة على ذلك ـ أو في الخفاء ـ عندما تكون مضطرة ـ عندما تشعر بأن هذا القائد يسلك في حياته سلوكاً مخالفاً لما تتصوره للقائد أن يكون ، ولا يعدم الشعب الحس لأن يتلقف كل صغيرة وكبيرة عن حياة قائده وزعيمه ، بل إنه يبدي اهتماماً فائقاً بذلك حتى بمفردات يبدو للمراقب بأنها ليست جديرة بالاهتمام ، إلّا أن الحس الشعبي ـ ولكونه جمعياً ـ يتمتع بأهمية كبيرة يتوقف عليها مستقبل الوطن والشعب ، خاصة بالنسبة للقضايا الهامة التي تقرر مصيره ، والرأي الشخصي أو الفردي على الرغم من كونه قد ينبع من أسس أكثر عقلانية من الرأي العام ، إلّا أنه لا يشكل ثقلاً يذكر بالنسبة للرأي الذي يكونه الشعب حول مسألة معينة ، ولأن الشعب العراقي يدرك جيداً من هو صدام، وما هو ماضية السياسي والاجتماعي ، اضافة إلى ممارسته والطغمة المحيطة به ، فإن الثقة بين الشعب وقائده ـ المفروض ، تكاد تنعدم بصورة مطلقة ، وهذا ما ينسحب على القوات العراقية المسلحة التي ترى فيه شخصياً شخصاً قد اغتصب كل شيء، ووضع نفسه ـ تحت ظل ظروف غاية من التعقيد ـ فوق كل شيء، على الرغم من أنه لا يملك من الصفات القيادية ما يؤهله لذلك على الاطلاق، فكل ما هو معروف عنه بصورة دقيقة أنه ليس أكثر من رجل عصابة ، وفي أفضل الحالات رئيسها ، فالقيادة تحت ظل الحروب التي تخاض بأسلحة ومعدات على درجة كبيرة من التعقيد وتبدلات في الموقف تكاد تكون ملازمة لها، لا تعتمد على شخص واحد لإدارتها ميدانياً ، لأن القيادة في مفهومها العصري ليست مخ القائد العام لوحده، بل هي شبكة من العقول والقدرات المتمثلة بالقادة الذين يلونه، وهيئات الركن والتي تتظافر جميعها لإيصال الجهد الخاص إلى الدرجة التي يكون فيها الجهد العام قادراً أن يستوعب ويدرك ابعاد الحرب وتعقيدها ، ومن ثم فإن فسحة كبيرة جداً من المرونة والإبداع

واللامركزية سوف تتاح أمام الآمرين الآخرين للتعامل مع الحرب بحرية وثقة واطمئنان ، بينما نرى أن ما يجري على حيز التطبيق ما ينافي ذلك ويقع في جانب الضد منه ، فالقائد العام للقوات المسلحة هو صاحب الرأي الأول والأخير، وهو الذي يفرض بأسلوب لا يقبل المناقشة والجدل كل ما يراه مناسباً لإدارة الحرب ـ وهو لم يكن سوى أمي لا علاقة له بالعسكرية والحرب ـ ويستخدم وسائل متعددة ومتنوعة، يضع تحت ظل ضغوطها كل سلسلة القيادة في القوات المسلحة العراقية ، مما يجعلها مترددة خائفة قلقة قبل وخلال، وبعد العمليات التي تجري في ساحة القتال ، ولا يعدم أن يحصل على انجاح معين باتباعه هذا السلوك في قيادة القوات المسلحة ؛ لكن هذا النجاح يظل محكوماً بظروف خاصة لا يمكن أن تتيسر دوماً وفي كل الأحوال، بل إنها معرضة بصورة سريعة مستمرة لعوامل التبدل والتغير، مما يجعل أمر إدارة الحركات نفسه عرضة للفشل المتوقع ، فالقائد العام للقوات المسلحة العراقية الذي يعرف بأنه أعتى ديكتاتور عرفه العالم ، إنسان لا يعرف قلبه الرحمة أو الشفقة ، ولا يعير للقيم والمبادىء الإنسانية أي قيمة ، يتصرف دوماً بنفس أساليب القهر والغطرسة، وأحياناً التشفي في إدارته للحركات التي شهدتها الحرب طيلة الثمان سنوات المنصرمة ، وفي أحيان كثيرة وجدت القوات المسلحة العراقية نفسها ـ بعد أن فشلت في بداية المعارك ـ غير قادرة على تجاوز وضعها، لأنها تشعر بحاجة إلى أن يتم التعامل معها بصورة أو بطريقة تمنحها الثقة بالنفس، والمقدرة على التفكير والتقدير الصحيح للموقف ، وهو ما لا يمنحه القائد العام لها ، والذي يظل عليها أن تنجز واجباتها بالطريقة والأسلوب الذي يحلو له ، والذي كان دائماً يتعارض مع حاجة القوات المسلحة ، مما كان يحدث دوماً الإرباك والفوضى التي تنتهي إلى الفشل ، كما أن نماذج القادة الميدانيين الذين يجب أن يكونوا هم الآخرين يمتلكون من الصفات ما يجعل مرؤوسيهم يطيعونهم عن طيب خاطر ورضى ، يملكون تأثيراً عظيماً على سيادة روح التعاون والانسجام والتماسك الاجتماعي لوحداتهم ، فالقائد الميداني ينظر إليه جنوده على أنه إنسان جدير بأن يقلدوه في كل شيء، فهو نموذجهم وقدوتهم ، وهم يحبونه طالما كان يعيش معهم يفهم مشاعرهم ويدرك ما يعانونه ، وفوق هذا كله فإنه قد حصل على مركزه بجدارة ، وتحرص كل جيوش العالم أن تجد لها ضوابط خاصة في اختيار القادة ، وأهم ما يعمد عليه في هذا المجال هو الاستقامة التي يجري تتبعها بصورة دقيقة في حياته، بل إنه يخضع إلى المراقبة حتى خلال إجازته بعيداً عن مركزه أو موقعه ، بينما يتم تعيين القادة العراقيين وتسليمهم مهام قيادية رفيعة بعيداً عن الأسس التي يتوخى منها المصلحة العامة ،وإيجاد سلسلة متماسكة من مراتب القيادة ، فالقرابة والإخلاص الشخصي للقائد العام وعائلته هما الميزان الرئيسي في انتخاب القادة، وإسناد مناصب المسؤولية والقيادة ،

وليس للكفاءة والمقدرة على القيادة والثقافة العسكرية والاستقامة وسمو الخلق أي تأثير في انتقائهم. مما يضيف هو الآخر عبئاً جديداً على صدر القوات المسلحة لشعورها بوجود نوع من القادة لا يهمهم مصيرها، بقدر ما يهمهم بأن منحت لهم مناصبهم هبة، والتي يجب أن يحافظوا عليها بكل وسيلة، حتى وإن كانت بعيدة عن التطابق النسبي مع أحاسيس ومشاعر وآلام جماهير المقاتلين الذي وضع القدر مصائرهم بأيديهم .

ـ الحمد لله الذي وفقنا إلى إنجاز هذا الكتاب والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين والسلام .

الملحق (أ)

الضباط الذين قدموا من تركيا :

يدخل بضمنهم الضباط العراقيون الذين تركوا الجيش العثماني، بعد انسحابه من العراق وبقوا فيه ، كذلك الضباط الذين عادوا من الأسر :

أمراء الألوية :

١ ــ أحمد جودت باشا العزاوي .
٢ ــ عزة باشا الكركوكي .

الزعماء :

٣ ــ أحمد رشدي بن محمد .

العقداء :

٤ ــ إسماعيل حقي جمعة .
٥ ــ أمين عبد الغفور .
٦ ــ رشيد معروف .
٧ ــ صبيح نشأت .
٨ ــ عبدالمجيد أحمد .
٩ ــ محمد سليم بن سليم .

المقدمون :

١٠ ــ إبراهيم أدهم .
١١ ــ أحمد سري صالح .
١٢ ــ أحمد كمال محمد .
١٣ ــ أحمد وفي بن محمد .
١٤ ــ توفيق الخالدي .
١٥ ــ توفيق نزهت عزت .
١٦ ــ ثابت فرج .
١٧ ــ حسن حلمي بن طعمة .
١٨ ــ حسين فوزي بن علي .
١٩ ــ خليل زكي إبراهيم .
٢٠ ــ خورشيد بن زيد .
٢١ ــ داوود بن سلم .
٢٢ ــ رؤوف الكبيسي .
٢٣ ــ راشد صالح .
٢٤ ــ رشيد الخوجة .
٢٥ ــ الحاج رمزي .
٢٦ ــ شكري بن قاسم .
٢٧ ــ صالح زكي أحمد .

٢٨ ـ عارف حسن .
٢٩ ـ عاكف صالح .
٣٠ ـ عبدالجليل محمد .
٣١ ـ عبدالحميد الخوجة .
٣٢ ـ عبدالرحمٰن شهاب .
٣٣ ـ عبدالرحمٰن كاظم .
٣٤ ـ عبدالرزاق حسين .
٣٥ ـ عبدالقادر معروف .
٣٦ ـ عبدالقادر مهدي .
٣٧ ـ عبدالمحسن السعدون .
٣٨ ـ علي حسن .
٣٩ ـ فخري عبدالله .
٤٠ ـ قاسم عبدالسلام .
٤١ ـ محمد أمين زكي .
٤٢ ـ محمد علي شريف .
٤٣ ـ محمد فوزي علي .
٤٤ ـ محمد فوزي أحمد .
٤٥ ـ محمود نديم السنوي .
٤٦ ـ محيي الدين بن عمر .
٤٧ ـ مصطفى عاصم بن محمد .

الرؤساء الأولون :

٤٨ ـ إبراهيم أدهم عبدالواحد.
٤٩ ـ إبراهيم خلف .
٥٠ ـ الشيخ إبراهيم عبدالقادر .
٥١ ـ أحمد حقي عبدالجبار .
٥٢ ـ أحمد عوني خضر .
٥٣ ـ أحمد فخري خلف .
٥٤ ـ أحمد فخري عبود .
٥٥ ـ أحمد فهمي سالم .
٥٦ ـ أحمد مختار بن محمد .
٥٧ ـ إسماعيل حقي خميس .
٥٨ ـ إسماعيل فوزي جميل .
٥٩ ـ توفيق وهبي معروف .
٦٠ ـ حامد صالح .
٦١ ـ حسن علي محمد .
٦٢ ـ حسين حلمي شريف
٦٣ ـ حسني فوزي بن حسن.
٦٤ ـ حسين فوزي بن مهدي .
٦٥ ـ حمدي عبدالغفور .
٦٦ ـ رضا جودت علي .
٦٧ ـ الحاج رمضان علي .
٦٨ ـ سعيد حقي جمعة .
٦٩ ـ سعيد فهمي محمود .
٧٠ ـ سليمان اسماعيل .
٧١ ـ شاكر محمود .
٧٢ ـ شوكت فايز عبدالوهاب .
٧٣ ـ صالح فخري محمد أمين .
٧٤ ـ عارف قفطان .
٧٥ ـ عارف محمود .
٧٦ ـ عبدالرزاق أحمد .
٧٧ ـ عبدالرزاق حلمي .
٧٨ ـ عبدالغفور إبراهيم .
٧٩ ـ عبدالقادر سليم الزهاوي .
٨٠ ـ عبدالقادر محمد .
٨١ ـ عبدالقادر معروف .
٨٢ ـ عبدالمجيد رجب .
٨٣ ـ عبدالمجيد ياسين .
٨٤ ـ عبدالوهاب رمضان .
٨٥ ـ عبدالوهاب عبدالرزاق .

٨٦ ــ عبدالوهاب محمود .
٨٧ ــ عبدالوهاب معروف .
٨٨ ــ عثمان عبدالواحد .
٨٩ ــ علي ياور حسن .
٩٠ ــ عوني خضر .
٩١ ــ محمد أمين إبراهيم .
٩٢ ــ محمد أمين أحمد .
٩٣ ــ محمد توفيق محمود .
٩٤ ــ محمد جابر مهدي .
٩٥ ــ محمد رؤوف حميد .
٩٦ ــ محمد رؤوف خضر .
٩٧ ــ محمد علي مصطفى .
٩٨ ــ محمد فائق أحمد .
٩٩ ــ محمد فؤاد أمين .
١٠٠ ــ محمد نافع حسن .
١٠١ ــ محمد نزهت فتاح .
١٠٢ ــ محمد نوري عبدالله .
١٠٣ ــ محمد هاتف علي .
١٠٤ ــ محمود رامز .
١٠٥ ــ محمود سامي خضر .
١٠٦ ــ محمود شكري حسين .
١٠٧ ــ محمود نديم عبدالغني .
١٠٨ ــ محيي الدين سليم السهروردي .
١٠٩ ــ مراد بك .
١١٠ ــ مصطفى كامل بن سليمان .
١١١ ــ نافع حسن .
١١٢ ــ نجيب إبراهيم .
١١٣ ــ نزهت فتاح .
١١٤ ــ نور الدين محمد علي .
١١٥ ــ نوري عبدالله .
١١٦ ــ يوسف ضياء .

الرؤساء :

١١٧ ــ إبراهيم حلمي علي .
١١٨ ــ إبراهيم حلمي الياور .
١١٩ ــ أحمد حمدي محمد .
١٢٠ ــ أحمد جمال مصطفى .
١٢١ ــ أحمد حيدر .
١٢٢ ــ أحمد شكري جميل .
١٢٣ ــ أحمد عبدالرحمٰن .
١٢٤ ــ أحمد قاسم .
١٢٥ ــ اسماعيل حقي سليمان .
١٢٦ ــ أمين سرحان .
١٢٧ ــ توفيق أحمد آغا .
١٢٨ ــ حسيب السعدي .
١٢٩ ــ حسين تحسين بن أحمد .
١٣٠ ــ خليل إبراهيم .
١٣١ ــ رشيد محمد .
١٣٢ ــ سالم بهنام .
١٣٣ ــ شاكر حاج علي .
١٣٤ ــ صالح حمود .
١٣٥ ــ طٰه حبيب .
١٣٦ ــ عارف صالح .
١٣٧ ــ عارف عبدالوهاب .
١٣٨ ــ عبدالله أحمد .
١٣٩ ــ عبدالله فياض .
١٤٠ ــ عبدالمجيد إبراهيم .
١٤١ ــ عبدالمجيد عبدالقادر .
١٤٢ ــ عبدالحميد يوسف .
١٤٣ ــ عبدالرحمٰن عبد الغني .

١٤٤ ـ عبدالرشا عبدالوهاب.
١٤٥ ـ عبدالعزيز مصطفى باملكي.
١٤٦ ـ عبدالغني عبدالحميد.
١٤٧ ـ علي زكي عبدي.
١٤٨ ـ علي نزهت حسن.
١٤٩ ـ فائق أحمد.
١٥٠ ـ فتحي محمد علي.
١٥١ ـ محسن علوش.
١٥٢ ـ محمد أمين عبدالرزاق.
١٥٣ ـ محمد توفيق أحمد.
١٥٤ ـ محمد توفيل زنيل.
١٥٥ ـ محمد زكي عبدالباقي.
١٥٦ ـ محمد زكي محمود.
١٥٧ ـ محمد سليم عثمان.
١٥٨ ـ محمد شكري أحمد.
١٥٩ ـ محمد صالح علي.
١٦٠ ـ محمد علي مصطفى.
١٦١ ـ محمد علي يونس.
١٦٢ ـ محمد أديب محمود.
١٦٣ ـ مصطفى بهجت يونس.
١٦٤ ـ مصطفى كامل عبدالصمد.
١٦٥ ـ منير عبدالله.
١٦٦ ـ مهدي كاظم.
١٦٧ ـ يوسف السيد عبدالله.

الملازمون الأولون :

١٦٨ ـ إبراهيم حقي محمد.
١٦٩ ـ أحمد بدري سعيد.
١٧٠ ـ أحمد حمدي زنيل.
١٧١ ـ أحمد رشدي عبدالله.
١٧٢ ـ أحمد نجيب.
١٧٣ ـ إسحٰق يوسف سحيق.
١٧٤ ـ إسماعيل حقي خليل.
١٧٥ ـ سيد أمين سلمان.
١٧٦ ـ انطوان صبري.
١٧٧ ـ بدر الدين اسماعيل.
١٧٨ ـ توفيق أحمد.
١٧٩ ـ جلال بابان.
١٨٠ ـ جميل روحي حميد.
١٨١ ـ جواد جعفر.
١٨٢ ـ حسن علي.
١٨٣ ـ حسن فهمي علي.
١٨٤ ـ حسين شهاب.
١٨٥ ـ حميد رأفت بكر.
١٨٦ ـ خضر حياوي غاس.
١٨٧ ـ خلف خيري.
١٨٨ ـ خليل خيري محمد.
١٨٩ ـ خليل إبراهيم.
١٩٠ ـ خليل زكي اسماعيل.
١٩١ ـ خليل مصطفى إبراهيم.
١٩٢ ـ راجي موسى.
١٩٣ ـ رشيد حلمي سعيد.
١٩٤ ـ رشيد عبدالقادر.
١٩٥ ـ رشيد الحاج علي.
١٩٦ ـ رفعت عبدالله.
١٩٧ ـ زكي حنظل.
١٩٨ ـ زين العابدين محمد.
١٩٩ ـ سعيد أحمد.
٢٠٠ ـ سعيد شوقي حسن.
٢٠١ ـ سليمان اسماعيل.

٢٠٢ ـ سليمان مصطفى .
٢٠٣ ـ شاكر محمود.
٢٠٤ ـ شاكر محمود الوادي .
٢٠٥ ـ شهاب أحمد.
٢٠٦ ـ صادق محمود .
٢٠٧ ـ صالح الحاج حسون.
٢٠٨ ـ صالح سيد حمودي .
٢٠٩ ـ عارف حكمت.
٢١٠ ـ عارف عبدالوهاب .
٢١١ ـ عارف محمد .
٢١٢ ـ عباس حلمي .
٢١٣ ـ عباس فضلي أحمد جودت .
٢١٤ ـ عباس محمد .
٢١٥ ـ عبدالله صبري .
٢١٦ ـ عبدالحميد رشيد.
٢١٧ ـ عبدالرحمن حسن .
٢١٨ ـ عبدالرحمن عبدالرزاق .
٢١٩ ـ عبدالرزاق حسين .
٢٢٠ ـ عبدالرزاق حلمي .
٢٢١ ـ عبدالعزيز راتية .
٢٢٢ ـ عبدالعزيز عبدالقادر .
٢٢٣ ـ عبدالقادر زهر .
٢٢٤ ـ عبدالقادر عبداللطيف .
٢٢٥ ـ عبدالقادر علي .
٢٢٦ ـ عبدالمجيد خضر .
٢٢٧ ـ عبدالمجيد يوسف.
٢٢٨ ـ عبدالوهاب حسن .
٢٢٩ ـ عزت شفيق .
٢٣٠ ـ علي رضا محمد علي .
٢٣١ ـ الشيخ علي ناصر .
٢٣٢ ـ عمر عثمان .
٢٣٣ ـ عمر بن عمر .
٢٣٤ ـ عواد صالح .
٢٣٥ ـ فارس عبدالله .
٢٣٦ ـ فايق حلمي .
٢٣٧ ـ فؤاد صالح .
٢٣٨ ـ قاسم شكري .
٢٣٩ ـ قاسم صبري بن محمد .
٢٤٠ ـ قاسم محمد .
٢٤١ ـ قاسم مقصود.
٢٤٢ ـ مجيد بن خضر.
٢٤٣ ـ محمد حمدي أحمد.
٢٤٤ ـ محمدرؤوف عبدالله .
٢٤٥ ـ محمد رفعت.
٢٤٦ ـ محمد رفيق إبراهيم .
٢٤٧ ـ محمد رمزي قاسم .
٢٤٨ ـ محمد سعيد سليمان.
٢٤٩ ـ محمد شاكر حافظ.
٢٥٠ ـ محمد شوكت عثمان.
٢٥١ ـ محمد صالح عبدالرزاق.
٢٥٢ ـ محمد طاهر عبدالحافظ.
٢٥٣ ـ محمد علي مصطفى .
٢٥٤ ـ محمد نوري فرج الله .
٢٥٥ ـ محمد سترو.
٢٥٦ ـ محمد بن يحيى .
٢٥٧ ـ محمود جلال .
٢٥٨ ـ محمود سليمان.
٢٥٩ ـ محمود حسين .
٢٦٠ ـ محمود حلمي محمد صالح .
٢٦١ ـ محمود حمدي سليمان.

٢٦٢ ـ محمود رمزي بن عيسى .
٢٦٣ ـ محمود شبيب.
٢٦٤ ـ محمود محمد .
٢٦٥ ـ مصطفى محمد صالح .
٢٦٦ ـ مهدي زين العابدين .
٢٦٧ ـ ناجي ثابت .
٢٦٨ ـ ناجي عبدالرحمٰن .
٢٦٩ ـ نعيم الياس .
٢٧٠ ـ نوري فتاح باشا.
٢٧١ ـ نيازي علي رضا .
٢٧٢ ـ هاشم خضر .
٢٧٣ ـ يونس خلف .

الملازمون الثانون :

٢٧٤ ـ أحمد بهجت علي رضا.
٢٧٥ ـ أحمد حقي ياسين .
٢٧٦ ـ اسماعيل ولي .
٢٧٧ ـ أيوب صبري محمد .
٢٧٨ ـ حقيل جوري .
٢٧٩ ـ حسن فهمي علي .
٢٨٠ ـ حسين حمادي .
٢٨١ ـ حسين علوان .
٢٨٢ ـ حمدي حبيب .
٢٨٣ ـ رشيد خضر .
٢٨٤ ـ رفيق محمود .
٢٨٥ ـ سلمان عباس .
٢٨٦ ـ شكري بن شوكت .
٢٨٦ ـ صالح حسن .
٢٨٧ ـ عبدالحكيم أمين .
٢٨٨ ـ عبدالحميد محمد .
٢٨٩ ـ عبدالغفور البدري .
٢٩٠ ـ عبدالوهاب عزت .
٢٩١ ـ عزيز ياسين .
٢٩٢ ـ علي زكي .
٢٩٣ ـ علي غالب اسماعيل .
٢٩٤ ـ قاسم يحيى الشماع .
٢٩٥ ـ محمد رفعت بن قاسم .
٢٩٦ ـ محمد رمزي .
٢٩٧ ـ محمود نديم العمري .
٢٩٨ ـ محيي عبدالرزاق .
٢٩٩ ـ ناصر بن حسين .
٣٠٠ ـ نور الدين صالح شريدة .
٣٠١ ـ نور الدين محمود .
٣٠٢ ـ نوري ثابت .
٣٠٣ ـ أمين صالح .
٣٠٤ ـ يوسف سيزر.

نواب الضباط :

٣٠٥ ـ توفيق حسين .
٣٠٦ ـ حسين جاهد علي رميض.
٣٠٧ ـ خليل قرة شعبان . .
٣٠٨ ـ عبداللطيف العقيل.
٣٠٩ ـ عبدالوهاب عبداللطيف .

الضباط الذين قدموا من سوريا بحراً :

أسماء الضباط العراقيين الذين تسرحوا من الجيش العربي السوري، والتحقوا بالعراق عن طريق البحر، حيث ركبوا الباخرة اليونانية (مليتادس)، ووصلوا إلى بغداد يوم ٦ آذار سنة ١٩٢١، وبلغ عددهم (١١١) ضابطاً، والبدء بأسمائهم ورتبهم حسب الحروف الهجائية .

الزعماء :

١ ـ سعيد حميد المدفعي .
٢ ـ عبدالوهاب عبدالرزاق .

العقداء :

٣ ـ خالد بن سعيد.
٤ ـ رؤوف مصطفى الحجية.
٥ ـ صبحي بن حليم .
٦ ـ عبدالحميد بن إبراهيم الشالجي .
٧ ـ عبداللطيف نوري .
٨ ـ علي رضا مصطفى العسكري.
٩ ـ محيي الدين واصف.

المقدمون :

١٠ ـ اسماعيل إبراهيم نامق.
١١ ـ خليل زكي إبراهيم.
١٢ ـ الحاج سري بن صالح .
١٣ ـ عبدالرحمن عبداللطيف.
١٤ ـ عبدالرحمن عبدالوهاب.
١٥ ـ فخري آل خفاف.
١٦ ـ قاسم صبري محمد .
١٧ ـ محمد خيري محمود.
١٨ ـ مهدي صالح الرحال.

الرؤساء الأولون :

١٩ ـ أحمد كمال واصف .
٢٠ ـ أمين زكي سليمان .
٢١ ـ جميل فهمي عبدالوهاب .
٢٢ ـ سعيد فهمي محمود .
٢٣ ـ عبدالحميد الهاشمي .
٢٤ ـ عبدالوهاب رمضان .
٢٥ ـ علي نزهت حسن .
٢٦ ـ محمد رأفت .
٢٧ ـ محمد علي حسين .
٢٨ ـ مصطفى ثريا علي رضا .
٢٩ ـ نطيف بن عبداللطيف الشاوي.

الرؤساء :

٣٠ ـ أحمد قاسم .
٣١ ـ اسماعيل صبري بن أحمد .
٣٢ ـ حسن معروف .
٣٣ ـ خليل إبراهيم نامق .
٣٤ ـ رشيد بن داود .
٣٥ ـ شفيق الحسين بن قاسم .
٣٦ ـ عبدالجبار بن عبدالرزاق .
٣٧ ـ عبدالحميد بن يوسف.
٣٨ ـ عبدالغني عبدالحميد.

٣٩ ـ علي ناظم بن حسن .
٤٠ ـ علي ياور عبدالرزاق .
٤١ ـ محمد علي بن عبدالله .
٤٢ ـ محمد علي مصطفى .
٤٣ ـ نشأة طه .

الملازمون الأولون :

٤٤ ـ إبراهيم أدهم بن عبدالوهاب .
٤٥ ـ إبراهيم فهمي بن بهجت الخالدي .
٤٦ ـ أحمد بخيت اليازي .
٤٧ ـ أحمد رمزي .
٤٨ ـ أحمد عزة بن داود .
٤٩ ـ أحمد كمال البكري .
٥٠ ـ سيد أحمد بن سيد محمود .
٥١ ـ بهاء الدين نوري .
٥٢ ـ توفيق سعيد الدملوجي .
٥٣ ـ حسين صبري بن مصطفى .
٥٤ ـ حسين فوزي بن علي رضا الحسني .
٥٥ ـ حميد رأفت بن بكر .
٥٦ ـ زين العابدين بن محمد .
٥٧ ـ سليم عبدالغفور الأعظمي .
٥٨ ـ شاكر بن أحمد .
٥٩ ـ شياع بن محمد العراقي .
٦٠ ـ طاهر محمد عارف .
٦١ ـ عبدالجبار عبدالرزاق .
٦٢ ـ عبدالرحمٰن عبدالرزاق .
٦٣ ـ عبدالرزاق وهيب آغا .
٦٤ ـ عبدالعزيز عبدالقادر .
٦٥ ـ فاضل عبداللطيف الطيار .
٦٦ ـ فوزي بشير .
٦٧ ـ محمد رمزي .
٦٨ ـ محمد سعيد بن عمر التكريتي .
٦٩ ـ محمود رفعت بن بكر .

الملازمون الثانون :

٧٠ ـ إبراهيم أكرم بن مجيد .
٧١ ـ أحمد فخري عبدالله .
٧٢ ـ إسماعيل حقي .
٧٣ ـ حسين داوود .
٧٤ ـ حسين علي الدليمي .
٧٥ ـ حسين فوزي بن بشير .
٧٦ ـ خزعل هجري خطاب .
٧٧ ـ خضر عباس البندقي .
٧٨ ـ رشيد شكري بن باقر .
٧٩ ـ سالم عزرا صالح .
٨٠ ـ سامي سعيد .
٨١ ـ سعيد يحيىٰ .
٨٢ ـ سليمان علي .
٨٣ ـ شوكت أمين يمني .
٨٤ ـ صبري عبدالقادر .
٨٥ ـ صلاح الدين بن علي الصباغ .
٨٦ ـ عباس حلمي بن صالح .
٨٧ ـ عباس مهدي .
٨٨ ـ عبدالرحمٰن محمد عارف .
٨٩ ـ عبدالقادر سرى موسى .
٩٠ ـ عبدالكريم الأعظمي .
٩١ ـ عبدالله محمود الربيعي .
٩٢ ـ عبدالمجيد مهدي .
٩٣ ـ علي زكي حسن .
٩٤ ـ كاظم فوزي محمد .

٩٥ ـ لطفي فخري عبدالله .
٩٦ ـ محمود سيرت بن توفيق .
٩٧ ـ مصطفى علي الدليمي .
٩٨ ـ مصطفى لاسع .
٩٩ ـ ناجي عبدالرزاق .

المحاسبون :

١٠٠ ـ اسماعيل رشيد.
١٠١ ـ حسين فوزي بن قاسم.
١٠٢ ـ حمدي حسين.
١٠٣ ـ سليمان شهاب.
١٠٤ ـ عوني بن محمود.
١٠٥ ـ محمد حمدي بن أحمد النجار.
١٠٦ ـ مكي سعيد.
١٠٧ ـ وصفي صبري المميز.
١٠٨ ـ سيد يونس رجب.

نواب الضباط :

١٠٩ ـ محمد فهمي سعيد.
١١٠ ـ محمود سلمان (١).
١١١ ـ نوري أحمد الخبري.

إن عدد الضباط القادمين إلى العراق بحراً حسب رتبهم العسكرية كانوا كما يلي :

الزعماء	٢	الملازمون الأولون	٢٦
العقداء	٧	الملازمون الثانون	٣٠
المقدمون	٩	المحاسبون	٩
الرؤساء الأولون	١١	نواب الضباط	٣
الرؤساء	١٤	**المجموع**	**١١١ ضابطاً**

ملحوظة :

قدم إلى العراق عن طريق البحر ضابط الوحدة، وهو الملازم الأول عزة أمين يمني (الملقب بـ «خنجره»)، وهو شقيق العميد المتقاعد شوكت أمين يمني .

الضباط الذين قدموا من سوريا براً

أسماء الضباط العراقيين الذين تسرحوا من الجيش العربي السوري، والتحقوا بالعراق براً بفترات ومتفرقين خلال الأعوام ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ ـ ١٩٢٢، والبدء بأسمائهم ورتبهم حسب الحروف الهجائية :

الفرقاء :

١ ـ جعفر العسكري .

٢ ـ ياسين الهاشمي .

أمراء الألوية :

٣ ـ مولود مخلص .

٤ ـ نوري السعيد .

الزعماء :

٥ ـ عبدالله علي الدليمي .

٦ ـ قاسم سراجي .

العقداء :

٧ ـ طه الهاشمي .

٨ ـ علي جودت الأيوبي .

المقدمون :

٩ ـ تحسين علي .

١٠ ـ حسن كركوكي .

١١ ـ رؤوف يحيىٰ الشيخلي .

١٢ ـ سامي الأورفي .

١٣ ـ شاكر عبدالوهاب الشيخلي .

١٤ ـ شكري محمد .

١٥ ـ عبدالحميد إبراهيم الشالجي .

١٦ ـ كريم حسن شاه .

١٧ ـ عبدالمجيد حسون .

١٨ ـ علي رضا مصطفى العسكري .

الرؤساء الأولون :

١٩ ـ بكر شوقي .

٢٠ ـ جميل الراوي .

٢١ ـ جميل لطفي الزبيدي .

٢٢ ـ حامد خضر .

٢٣ ـ خالد محمود الزهاوي .

٢٤ ـ سليم الجراح .

٢٥ ـ شاكر فهمي محمود .

٢٦ ـ عبدالحميد الهاشمي .

٢٧ ـ محمد أمين بن محمد العمري .

الرؤساء :

٢٨ ـ إبراهيم حمدي الراوي .

٢٩ ـ إبراهيم القاسم .

٣٠ ـ تحسين مصطفى العسكري .

٣١ ـ سليمان فتاح .

٣٢ ـ صبيح نجيب .

٣٣ ـ عبدالحميد القشطبيني .

٣٤ ـ عبدالرزاق وهيب .

٣٥ ـ عبداللطيف الفلاحي .

٣٦ ــ عبدالهادي خليل.
٣٧ ــ عبدالهادي مصطفى العسكري.
٣٨ ــ علي قنبر.
٣٩ ــ فرج حسن عماره.
٤٠ ــ محمد برقي بن شوقي.
٤١ ــ محمد توفيق سيد أحمد الهاشمي.
٤٢ ــ محمد الفلاحي.
٤٣ ــ محمود حمدي سليمان.
٤٤ ــ يوسف حنظل.
٤٥ ــ يوسف عز الدين إبراهيم.
٤٦ ــ يوسف نجم العزاوي.

الملازمون الأولون :

٤٧ ــ الحاج أحمد بكر.
٤٨ ــ أحمد عزت صالح.
٤٩ ــ أشرف أحمد.
٥٠ ــ جمال بابان.
٥١ ــ حسن شوقي.
٥٢ ــ حسن علي (رشاش).
٥٣ ــ سيد خضر لطفي.
٥٤ ــ داوود محمود الجنابي.
٥٥ ــ راجي موسى العسكري.
٥٦ ــ رشيد جودت.
٥٧ ــ الحاج سعدي مصطفى.
٥٨ ــ سليمان فتاح.
٥٩ ــ صالح الحاج حسون.
٦٠ ــ عباس محمد.
٦١ ــ عبدالله صبري الطيار.
٦٢ ــ عبدالجبار أبو بهمن.
٦٣ ــ عبدالحميد رشيد.
٦٤ ــ عبدالرزاق وهيب آغا.
٦٥ ــ عزة الكوفي.
٦٦ ــ علاء الدين جواد الحصان.
٦٧ ــ فاضل عبداللطيف.
٦٨ ــ قاسم شفيق.
٦٩ ــ كامل شبيب.
٧٠ ــ محمد أمين بن عبدالحميد خاكي.
٧١ ــ محمود سامي سعيد.
٧٢ ــ مهدي ميرام.

الملازمون الثانون :

٧٣ ــ إبراهيم خليل.
٧٤ ــ أحمد نزهت.
٧٥ ــ حسين محمد.
٧٦ ــ حسين حلمي مصطفى السراج.
٧٧ ــ حسين كيلان.
٧٨ ــ خليل مخلص محمد جلال.
٧٩ ــ شريف الفضلي.
٨٠ ــ الحاج طاهر بن عبدالرزاق.
٨١ ــ الحاج طاهر محمد الزبيدي.
٨٢ ــ عبدالله سلامي.
٨٣ ــ عبدالله صالح.
٨٤ ــ عبدالجبار الراوي.
٨٥ ــ عبدالجبار الشيخلي.
٨٦ ــ عبدالحميد نصرة اسماعيل.
٨٧ ــ علي غالب شاهين.
٨٨ ــ عمر موفق حبيب.
٨٩ ــ قاسم العلوي.
٩٠ ــ قاسم شكري.
٩١ ــ محمد علي سعيد.



الملحق (ب)

أسماء بعض العمليات والمنطقة التي جرت فيها وتاريخها

اسم العمليات	المنطقة التي حدثت فيها	تاريخها
كسر حصار عبادان	عبادان	٢٧ أيلول ١٩٨١
عمليات بستان	منطقة بستان في خوزستان	٣١ تشرين الثاني ١٩٨١
عمليات استعادة بستان ـ قامت بها القوات العراقية	بستـــان	١٨ كانون أول ١٩٨١
عمليات الشوش ـ ديزفول الشوش وديزفول		٢٢ آذار ١٩٨٢
عمليات الطاهري	خرمشهر وسهل ازادگان	٣٠ نيسان ١٩٨٢
عمليات خيبر	شرق البصرة والعمارة (جنوبها)	١٨ شباط ١٩٨٤
عمليات بدر	شرق البصرة ـ وجنوب العمارة	آذار ١٩٨٥
عمليات الفاو	الـفـــاو	شباط ١٩٨٦
عمليات مهران	مهران ـ في القاطع الأوسط من الجبهة	مايس ١٩٨٦
كربلاء الخامسة	شرق البصرة	كانون الثاني ١٩٨٧
عمليات ماوت	منطقة ماوت ـ شرقي محافظة السليمانية في كردستان العراق	تموز ١٩٨٧

فهرس محتويات الكتاب

الباب الثالث

الباب الرابع

الديكتاتورية

الباب الخامس

كيف تبنى الروح المعنوية تحت ظل النظام الحالي

ملحق (أ)

ملحق (ب)